

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة منتوري قسنطينة
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية
قسم التاريخ والآثار
رقم التسجيل.....
الرقم التسلسلي.....

مكة ودورها الثقافي والديني في شبه
الجزيرة العربية قبل الإسلام
{ خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين }

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ القديم
تخصص تاريخ الحضارات القديمة

إشراف الدكتور:
الطاهر ذراع

إعداد الطالب:
ربيع عولمي

أعضاء لجنة المناقشة :

الاسم واللقب	الرتبة	الصفة	الجامعة الأصلية
بلقاسم رحمان	أستاذ محاضر	رئيسا	جامعة الجزائر
الطاهر ذراع	أستاذ محاضر	مشرفا ومقررا	الجامعة الإفريقية العقيد أحمد دراية - أدرار-
ميلود زيدان	أستاذ محاضر	عضوا مناقشا	جامعة العقيد الحاج لخضر - باتنة -
محمد العربي عقون	أستاذ محاضر	عضوا مناقشا	جامعة منتوري - قسنطينة-

السنة الجامعية : 1428-1429هـ / 2007-2008 م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ
عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ..

سُورَةُ الْبُرُوجِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : الْآيَةُ 37

كلمة شكر وتقدير

الحمد والشكر لله عز وجل الذي وفقني إلى إنجاز هذا العمل المتواضع، ولا يسعني في هذا المقام إلا أن أتقدم بالشكر الجزيل للأستاذ المشرف الدكتور الفاضل الطاهر ذراع الذي وسعني برحابة صدره، وتوجيهاته المنهجية العلمية السديدة، ولم يكن هذا العمل ليرى النور، لولا تلك النصائح التي أسداها إلي ومتابعته العمل من أوله إلى نهايته.

كما أشكر أيضا كل الأساتذة الذين تولوا تدريسنا خلال السنة التحضيرية، ولا يفوتني أن أوجه خالص شكري وامتناني إلى العائلة الكريمة على المساعدة المعنوية، والمعاناة التي تحملوها طيلة مدة إنجاز المذكرة، وعلى رأسهم الزوجة الفاضلة والوالدين الكريمين. ومن الواجب أيضا تقديم الشكر إلى كل عمال المكتبات في جامعة منتوري والأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، وأرشييف الولاية بقسنطينة وجامعة باتنة، والمكتبة الوطنية بالعاصمة.

وإلى كل الزملاء والأصدقاء الذي مدوا لي يد المساعدة من قريب أو بعيد. فإلى كل هؤلاء موفور الشكر والتقدير.

ربيع عولمي

قائمة الرموز المستعملة
أ/ باللغة العربية:

تحقيق	تح:
ترجمة	تر:
الجزء	ج:
المجلد	مج:
الصفحة	ص:
الطبعة	ط:
العدد	ع:
قبل الميلاد	ق.م:
الميلادي	م:
الهجري	هـ:

ب/ باللغة الأجنبية

Art :	مادة
T :	الجزء
Edi :	الطبعة
Ibid :	المصدر أو المرجع نفسه
Op.cit :	المصدر أو المرجع السابق
Loc.cit	المكان نفسه
Trad :	ترجمة
B.O.F.A :	مجلة كلية الآداب
E.I :	موسوعة الإسلام
J.A :	المجلة الآسيوية
B.I.F.A.O :	مجلة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية
R.S.R :	أبحاث العلوم الدينية
A.J.F.H :	المجلة العربية للعلوم الإنسانية

حقائق

يعتقد البعض أن العرب في التاريخ القديم كانوا أمة منعزلة عن العالم نتيجة الوضع الجغرافي لشبه الجزيرة العربية، غير أن الدراسات الحديثة كشفت خطأ هذا الاعتقاد، وأثبتت أن العرب لم يكونوا في منأى عن الحضارات القديمة التي جاورتهم وكانت لهم بها صلات حضارية، ومما زاد من أهميتها وارتقائها فكريا وحضاريا، فقد احتك أهلها بالأمم المجاورة، واعتنقوا بعض الديانات السماوية كاليهودية والمسيحية، فضلا عن الوثنية التي كانت منتشرة في شبه الجزيرة العربية.

إن هذا الاحتكاك مكنهم من معرفة القراءة والكتابة، فتقدموا حضاريا نتيجة تفاعلهم مع الحضارة الهلنستية، ورحلاتهم إلى الحيرة التي نقلوا منها حروف الهجاء. وهكذا لم يبق العرب في عزلة تامة، بل أخذوا نصيبا من الحضارة، ومما زاد في وضوح معالمها وقوع بلاد العرب على أطراف المدنيات الكبرى.

وقد ساعدت هذه العوامل كلها في بروز مكة كعاصمة ثقافية ودينية في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام.

ارتأيت أن تكون دراستي هذه تحت عنوان : مكة ودورها الثقافي والديني في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام (خلال القرنين الخامس والسادس للميلاد) هذا من حيث الإطار الزماني والمكاني لموضوع الدراسة.

الدوافع: وقد دفعني لاختيار هذا الموضوع مجموعة من الأسباب أذكر منها:

1- اهتمامي الشخصي بتاريخ العرب القديم، وبتاريخ مكة بيت الله الحرام تحديدا، ورغبتني الشديدة في دراسة جوانب أخرى من تاريخ المدينة لم تدرس من قبل، ومحاولة إبراز دورها الثقافي والديني في شبه الجزيرة العربية.

2- قلة الدراسات التاريخية الخاصة بتاريخ مكة ودورها في شبه الجزيرة العربية في بلادنا، خاصة الفترة السابقة لظهور الإسلام، حيث ظلت هذه الفترة تدرس على هامش الدراسات الإسلامية من قبل المؤرخين المسلمين.

3- جدة الموضوع: بعد عملية البحث التي قمت بها في فهارس المكتبات تبين لي أن الموضوع لم يدرس دراسة علمية أكاديمية وافية، وهذا ما شجعتني على اختيار هذا الموضوع، وأنا أعلم أن الخوض في المعترك ليس بالأمر الهين، والكل يعلم مدى صعوبة البحث في التاريخ القديم.

4- محاولة كشف الكثير من الحقائق التي تتعلق بموضوع الدراسة، وكشف تحامل المستشرقين على تاريخ العرب القديم عامة، وتاريخ مكة على وجه الخصوص، الذين لم يراعوا الموضوعية والمنطق والأمانة العلمية في تصديهم لهذا التاريخ.

5- إبراز دور مكة الثقافي والديني في شبه الجزيرة العربية، كمركز نواة للحضارة الإسلامية التي أخذت تباشرها تلوح في الأفق في أواخر القرن السادس الميلادي.

الإشكالية:

إن الوصول إلى أهداف هذه الدراسة تفرض على الباحث طرح مجموعة من الفرضيات والتساؤلات، والتي حاولت الإجابة عنها وفقاً للمنهج العلمي المتبع في الدراسات التاريخية، وانطلاقاً من الإشكالية المحورية، والتي تتمحور حول دور مكة الثقافي والديني في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين، ويمكن عرض هذه التساؤلات على الشكل الآتي:

1- ما طبيعة الموقع الجغرافي التي تحتله مكة؟ وما أثر البيئة الصحراوية في رسم معالم الحياة الفكرية والعقلية للمجتمع المكي قبل الإسلام؟

2- ما هي العوامل التي ساعدت على نشأة حضرة مكة؟ هل تاريخ تأسيسها يعود إلى تاريخ بناء الكعبة في عهد إبراهيم وابنه عليهما السلام؟ أم أن ظهورها يعود إلى عهد قصي بن كلاب في منتصف القرن الخامس الميلادي؟

3- ما طبيعة الحياة الثقافية في مكة قبل الإسلام؟ هل أنتج المكيون ثقافة أصيلة؟ أم اقتبسوها من خبرات البلدان والحضارات المجاورة؟

4- أين كان المجتمع المكي يمارس نشاطاته الثقافية؟ وما هي أهم مراكزهم الثقافية ومنندياتهم ومحافلهم الأدبية؟

5- كيف استطاعت الديانات السماوية الثلاث أن تتعايش مع الديانة الوثنية؟ وما الدور الذي لعبته مكة في ذلك؟

6- لماذا عجزت الديانات السماوية على القضاء على الوثنية والشرك في شبه الجزيرة العربية؟

7- ما السر في عدم انتشار اليهودية في مكة؟ هل يعود ذلك إلى قوة الوثنية فيها؟ أم إلى عدم تقبل سكانها لليهودية لطقوسها المعقدة؟

هذه جملة من التساؤلات، والتي سأحاول الإجابة عنها من خلال مباحث وفصول المذكورة.

مناهج البحث:

اعتمدت في عرض المادة الخبرية وتنظيمها، وتحليلها، ومناقشتها، واستنباط النتائج على مجموعة من المناهج أذكر منها:

1- المنهج الوصفي: وقد سلكته لعرض المادة الخبرية، ذلك أن بعض الأحداث والوقائع التاريخية تتطلب عرض النصوص واقتباسها بكل أمانة قبل مناقشتها والتعليق عليها.

2- **المنهج التحليلي:** وهو منهج أساسي في الدراسات الأكاديمية، وقد اعتمدته في تحليل المعطيات العلمية التي تضمنتها المذكورة، وقد استعنت به في تحليل المادة العلمية بالشرح والتفنيذ، والاستدلال والنفي.

3- **المنهج المقارن:** وقد استعملته في التقريب بين الوقائع التاريخية وتبسيط النماذج والصور المعقدة، لاستنباط واستخلاص النتائج.

الصعوبات التي واجهتني:

لا تخلو مهمة الباحث في التاريخ القديم من صعوبات وعراقيل مختلفة وقد واجهتني صعوبات عدة، يمكن أن تعترض أي باحث يخوض غمار البحث العلمي الأكاديمي ، أذكر منها:

1- صعوبة الحصول على المادة العلمية من مصادرها الأساسية، خاصة ما تعلق بالدراسات المتخصصة، والمتعلقة بموضوع مكة على وجه التحديد، لأن معظم المصادر والبحوث التي تتناول تاريخ مكة، تدرسها كحاضرة ضمن منطقة الحجاز أو شبه الجزيرة العربية بصورة عامة.

2- وجود التباين والتناقض بين المصادر والمراجع العربية، فالباحث يجد صعوبة في التوفيق بين الآراء والمواقف المختلفة، والخروج برأي علمي وموضوعي يقبله المنطق والعقل، وقد بذلت قصارى جهدي لتحقيق هذه الغاية.

3- كتابات المستشرقين والتي لاحظت فيها الكثير من التحامل والتحيز حيناً، والطعن والتفنيذ أحياناً أخرى، خاصة ما تعلق بتاريخ العرب القديم، وتاريخ مكة تحديداً، فأغلب المستشرقين يكتبون عن هذه الفترة بدافع من الهوى والحقد، لذلك يجد الباحث صعوبة في تمحيص ما كتبه، والتصدي لحملة التشويه والتفنيذ.

4- عامل الزمن: والمتمثل في سنة واحدة، فهي غير كافية لإنجاز بحث علمي أكاديمي والإمام به من جميع جوانبه، خاصة في التاريخ القديم.

أهم المصادر والمراجع (عرض وتحليل):

اعتمدت في هذه الدراسة على مجموعة هامة من المصادر الأساسية العربية والأجنبية، وعلى مراجع حديثة عربية وأجنبية، وعلى دراسات وبحوث استقيتها من الدوريات ودوائر المعارف والمجلات التاريخية المتخصصة باللغة العربية واللغات الأجنبية، وسأقتصر هنا على ذكر أهم مصادر ومراجع البحث حسب أهميتها بالنسبة لموضوع الدراسة ومدى الاستفادة منها.

أولاً: المصادر العربية:

أ- الكتب المقدسة:

1- القرآن الكريم: وهو أرفع طبقات المصادر، وأصدق المصادر العربية المدونة على الإطلاق، لأنه تنزيل من الله تعالى، ذلك أن نص القرآن ثابت لا سبيل إلى الشك فيه، ولم يتطرق إليه تبديل ولا تحريف، ثم هو تنزيل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، قال تعالى⁽¹⁾: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، وقال أيضاً⁽²⁾: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾، فالقرآن الكريم مرآة صادقة لحياة العرب قبل الإسلام، فقد ذكر بعض مظاهر حياتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والدينية، فهو حينما يروي الأحداث ويسرد المواقف التاريخية فإنه لا يهدف من ذلك التأريخ لتلك الأحداث وإنما وردت عبرة وعظة مما أصاب الشعوب البائدة لأنها طغت وتجبرت وخالفت أمر ربها وكذبت الرسل والأنبياء.

فالقرآن يهدف إذن إلى إرساء القيم الروحية والإنسانية من خلال ذكر تلك الأحداث، لذا جاءت بعض الإشارات التاريخية فيه مقتضبة غير مخلة بالمعنى، وهذا الإيجاز لا ينقص من القيمة المصدرية للقرآن الكريم.

ومن أمثلة الأحداث الكبرى التي أوردها القرآن الكريم حسب موضوع الدراسة، حملة أبرهة الحبشي على مكة عام الفيل (570م)، وسيل العرم وهو السيل الذي دمر سد مأرب، وأصحاب الأخدود وهم أهل نجران النصراني الذين أحرقهم ذو نواس الحميري في أخدود حفره لهم، وقصص الأنبياء: نوح وإبراهيم، وسليمان ويوسف وموسى وعيسى وأمه مريم.

وقد أشار القرآن الكريم إلى نشأة مكة منذ عهد إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، كما تناول الحياة الدينية في مكة قبل الإسلام، فحينما يتحدث القرآن عن الوثنيين واليهود والنصارى وغيرهم من أصحاب النحل والديانات، إنما يتحدث عن نحل وديانات ألفها العرب، وكانت منتشرة في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، فهو يبطل ما يبطل، ويؤيد ما يؤيد.

فالقرآن الكريم كان أصدق تمثيل للحياة الدينية عند العرب القدامى من الشعر العربي القديم، وهو لا يمثل الحياة الدينية فحسب، وإنما الحياة العقلية والفكرية للعرب قبل الإسلام، وهذا ما لا نجده في الشعر العربي القديم.

2- الحديث النبوي الشريف: يلي القرآن الكريم في طبقات المصادر الأساسية، ويعتبر أصدق المصادر التاريخية بعد القرآن الكريم في تدوين تاريخ العرب قبل الإسلام، بالرغم من أنه لم يدون إلا في أيام الخليفة عمر بن عبد العزيز في أواخر القرن الأول الهجري، وتكمن قيمة الحديث في أنه

(1) - سورة الحجر: الآية 9.

(2) - سورة فصلت: الآية 42.

يشرح ويفصل ما أجمله القرآن الكريم. ذلك أن الحديث يمثل أقدم الروايات الشفوية التي وصلت إلينا عن طريق التدوين وأدقها لاعتماده على الإسناد، ولما كان كثير من الأحاديث موضوعة انتحلت لتلبية حاجة البدع والنزعات المذهبية والفكرية، كان على الباحث أن يتحرى الأحاديث الصحيحة وبالتالي الاعتماد على مجموعات الصحاح ومن التي اعتمدها في البحث:

- صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت 256هـ / 869م).

- صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت 262هـ / 875م)، وقد أفادني الصحيحين في الفصلين الثاني والثالث.

3- كتب التفسير: تأتي كتب التفسير في طبقات المصادر التاريخية الخاصة بتاريخ العرب قبل الإسلام في المرتبة الثالثة بعد القرآن الكريم والحديث، وتتضمن كتب التفسير شروحا مفصلة لما ورد في القرآن الكريم من أحداث وأخبار العرب ووقائعهم قبل الإسلام، أو لما أوجز فيه أو ما أشير إليه إشارة عارضة أو لما صعب على الباحثين فهمه من تشبيهات واستعارات. ومن أشهر كتب التفسير التي اعتمدها في البحث واستندت من مضامينها:

1- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر بن محمد بن جرير الطبري (ت 310هـ / 923م) المعروف بتفسير الطبري.

2- الجامع لأحكام القرآن الكريم، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت 435هـ / 1043م).

3- الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، للزمخشري أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي (ت 538هـ / 1144م) ويعرف بتفسير الزمخشري أو التفسير اللغوي.

ب : كتب الرحلة والجغرافيا:

1- اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن وهب بن واضح)، (ت 284هـ / 897م)، كتاب البلدان، من أمهات الكتب الجغرافية لأنه غير منقول عن كتاب آخر، وقد اعتمد الروايات الشفوية، أفاض اليعقوبي في ذكر أحوال البلدان والأمصار في عصره، من خلال أسفاره وتقلاته، وتضمن كتابه معلومات دقيقة عن بلاد العرب من حيث العمران والسكان والمنتجات والأسواق، وحدد المسافات بين البلدان، وقد أفادني في جوانب كثيرة من البحث.

2- الهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب المعروف بابن الحائك (ت 334هـ / 945م) صفة جزيرة العرب، من فحول الجغرافيين الذين تزلعوا في هذا العلم، كان يكتب عن رؤية ومعرفة، يحوي الكتاب معلومات قيمة عن الجانب الطبيعي والجغرافي والفلكي للجزيرة العربية، واستندت منه في الفصلين الأول والثاني في تحديد مواقع البلدان وخاصة منها بلاد اليمن ومخاليبها، وتضمن أطوال مدن العرب المشهورة وعروضها، وساعدني ذلك في تحديد موقع مكة الفلكي، كما يتضمن إشارات إلى أسواق العرب القديمة وعددها. أما كتابه "الإكليل" الجزأين 1، و 8، والذي يصف

فيهما اليمن وأثارها في العصر القديم وأبنيتها وقصورها وسدودها، فيبدو أنه نقل معلوماته عن كتاب " التيجان " لوهب بن منبه (ت 114هـ / 732م).

3- الاصطخري، أبو اسحاق إبراهيم بن محمد المعروف بالكرخي (ت341هـ/952م) كتاب المسالك والممالك، تضمن أخبار بلاد العرب والعجم، وقد أرفقه ببعض المصورات، وجعل مكة المكرمة أو ديار العرب مفتاح الحديث عن الأقاليم، ومن خلال المصورات يذكر فيها المدن والجبال والأنهار وطرق المواصلات، وأضاف بعض البيانات على المصورة نفسها.

4- ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي (ت368هـ/990م)، كتاب صورة الأرض، وهو من المصادر المهمة في التعريف بالبلدان والمواقع والتي لا غنى للباحث عنها، إذ يتضمن تفاصيل جغرافية واقتصادية دقيقة عن الأقاليم وطرق التجارة والسلع ومختلف منتجات هذه الأقاليم الطبيعية، ويتناول كذلك أصول السكان من بدو وحضر.

وقد اعتمدت على كتب أخرى أساسية في الجغرافيا مثل: كتاب المسالك والممالك لابن خردادبة (أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله) (ت300هـ / 912م)، والمسعودي، علي بن الحسين بن علي (ت346هـ / 957م)، ويقارنه بعض المؤرخين والكتاب بالرحالة " بلينوس - Plinius"، وأهم كتبه: " مروج الذهب ومعادن الجوهر" وهو كتاب جغرافي تاريخي، يتناول فيه تاريخ العرب قبل الإسلام دون أن يغفل الجانب الجغرافي، وكتابه " التنبيه والإشراف" وهو جغرافي بحت، يحوي معلومات قيمة عن الأفلاك والرياح والفصول والأرض البلدان، والمقدسي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت388هـ / 998م)، وكتابه: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، وضمنه أخبار عن بلاد العرب، وأسواقها ومناطق تواجد اليهود وحرفهم ونشاطاتهم الاقتصادية. ويقوت الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله بن عبد الله الرومي البغدادي (ت 626هـ / 1228م)، معجم البلدان، ويعتبر كتابه معجماً جغرافياً وتاريخياً أيضاً لأنه يتناول حياة العرب قبل الإسلام وبعده، ودولهم وممالكهم.

ج: كتب السيرة والمغازي:

تعرضت كتب السيرة والمغازي إلى أخبار العرب القريبة من الإسلام، لذلك فهي من المصادر المساعدة على دراسة تاريخ العرب القديم، وقد اعتمدت على مؤرخي الطبقة الثالثة من مؤرخي السير والمغازي منهم:

1-الواقدي، محمد بن عمر بن واقد (ت 207هـ / 823م) ، كتاب المغازي، حققه مارسدن جونز Marsden Jones ، ألف الواقدي في موضوعات عديدة أهمها: المغازي والفتوح حتى قال عنه ابن النديم أن ما خلفه من الكتب بعد موته يملأ ستمائة قمطر كبير. يتميز كتابه المغازي بدقة المادة والأسلوب والاهتمام بتاريخ الأحداث وتوضيح الإطار الجغرافي المتصل بالموقع.

2-ابن هشام، أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري (ت218هـ / 833م)، السيرة النبوية، المعروف بسيرة ابن هشام، وهو أول كتاب عربي وصل إلينا يؤرخ للعرب قبل

الإسلام، وقد اعتمد ابن هشام في سيرته على الرواية الشفوية، وعلى كتب ضاعت أهمها كتاب في سيرة النبي (صلى الله عليه وسلم)، لأبي عبد الله محمد بن إسحاق^(١)، وكان أول من ألف في السيرة النبوية بناء على طلب الخليفة العباسي المنصور، واستحق بذلك تسمية "الأستاذ" التي أطلقها عليه ابن خلدون^(١)، وقد تناول ابن هشام هذا الكتاب بالنقد والاختصار وذكر ما فات ابن إسحاق ذكره من روايات، ويعتبر ابن هشام من الطبقة الثالثة من مؤرخي السيرة والمغازي، وقد أفادني في الفصلين الأول والثالث حيث تعرض لديانة العرب الوثنية وأصنامهم بالتفصيل.

3- ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن منيع البصري الزهري (ت 230هـ / 845م)، الطبقات الكبرى، يتألف من ثمانية عشر (18) جزء، وهو تلميذ الواقدي وكتابه، لذلك عرف بكتابت الواقدي، وعنه أخذ أكثر رواياته، وعن ابن الكلبي، وعبد الملك بن هشام في ذكر أخبار الصحابة والتابعين، يتضمن الكتاب أخبار مفيدة عن تاريخ العرب قبل الإسلام، وآدابهم، وهو أشبه ما يكون بدائرة معارف عن سيرة النبي (صلى الله عليه وسلم) ومغازيه، وقد استفدت من الأجزاء 1، 2.

د: كتب الأنساب:

وهي التي تهتم بتراجم وسير أشرف العرب وأعيانهم حسب أنسابهم، لأن الأنساب بعد ذهاب دولة العرب، لم يبق لها شأن كبير، فاهتم المؤرخون بتدوين أخبار القبائل وحروبها وأيامها، وتراجم المشاهير من الشعراء والنحاة، ومن أشهر كتب الأنساب التي اعتمدت عليها:

1- ابن الكلبي، أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب (ت 146هـ / 761م)، يعتبر من أعلام الطبقة الأولى في رواية أخبار العرب في الزمن الأول وفي عصر ما قبل الإسلام نشأ في الكوفة وكان عالماً بالأنساب وبأخبار العرب وأيامها ووقائعها، له من الكتب نحو مئة كتاب أشهرها كتاب الأصنام، يتناول فيه الحياة الدينية للعرب قبل الإسلام، فيذكر فيه أصنام القبائل المختلفة في الجزيرة العربية، ولعله المرجع الأصلي الوحيد في هذا الموضوع، وأفادني في الفصل الثالث في دراسة الديانة الوثنية عند العرب قبل الإسلام، ويعرّف أيضاً باليهودية والنصرانية بين العرب وبقايا ديانة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام فيما عرف بالحنيفية.

2- الزبير بن بكار، أبو عبد الله بن مصعب بن ثابت (ت 256هـ / 869م)، جمهرة نسب قريش وأخبارها، يتصل نسبه بعبد الله بن الزبير بن العوام، من أعيان العلماء في المدينة، عاش في بغداد، وتوفي بمكة وهو قاض عليها، أورد في كتابه أخبار العرب قبل الإسلام، لا سيما أخبار الحجاز، وقد ذكر أخبار الرجال والنساء في تفريع النسب، لكن على وجه الاختصار والإيجاز، على نحو ما فعل

(١) - توفي سنة 151هـ / 768م.

(١) - ابن خلدون: المقدمة، ط9، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2006م، ص 88.

عمه مصعب بن عبد الله الزبيري (156 - 236هـ) في كتابه "نسب قريش"، وقد استخدمته في دراسة نسب قريش في الفصل الأول، وأخبار الحنفاء في الفصل الثالث.

3- البلاذري، أبو جعفر أحمد بن يحيى بن جابر البغدادي (ت 279هـ / 892م)، مؤرخ وجغرافي ونسابة وشاعر من أهل بغداد، كان يجيد الفارسية، له عدة مؤلفات اعتمدت على اثنين منها: فتوح البلدان، وأنساب الأشراف الذي يسمى أيضا الأخبار والأنساب، وهو لا يرتبه حسب سني الهجرة بل يورده على شكل قصص يتناول تاريخ الشخصية وأسرتها بالرواية الشفوية. وقد أفادني الجزء الأول منه في التعريف بسائر قبائل قريش، وسائر فروع قريش في الفصل الأول.

4- ابن حزم الأندلسي، أبو محمد علي بن أحمد (ت 456هـ / 1064م)، وكتابه: جمهرة أنساب العرب، الذي حققه ليفي بروفنسال، وهو من أمهات الكتب في النسب حيث يسوق أنساب القبائل العربية وتفرع بعضها عن بعض، وفائدته تكمن في معرفة تسلسل النسب وتفرعه مع ذكر مكانتهم في القبيلة أو الدولة أو في العلم، وقد أخذ عنه ابن خلدون، واستفدت كذلك من كتابه: الفصل في الملل والأهواء والنحل، وهو عبارة عن تاريخ انتقادي للمذاهب البشرية، واستخدمته في الفصل الثالث لدراسة مذاهب النصارى واليهود والصابئة، كما أفادني ابن حزم في دراسة الكتب المقدسة كالتوراة والإنجيل، وأفادني في التعريف بالقبائل اليهودية التي سكنت يثرب.

هـ: كتب التاريخ:

هي أشبه ما تكون بصحف الأخبار ينهل منها الباحث أخبارا قيمة، وقد نقلت عن طريق الرواية الشفوية ومن أهم الكتب التي اعتمدها:

1- الأزرقى، أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد (ت 250هـ / 863م)، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، وهو مصدر أساسي اعتمده في البحث، كان الأزرقى مولعا بمعرفة الأخبار التاريخية وروايتها، ويظهر من اسم كتابه أنه مصدر للمعلومات عن تاريخ مكة القديم منذ أقدم العصور.

وقد استقى كثيرا من معلوماته الواردة في الكتاب عن ابن عباس، وقد استغرق ثلاثة أرباع كتابه ذكر قصص حول حرم مكة وأسمائها ووصف الشعائر والطقوس التي كانت سائدة قبل الإسلام، أما الربع الباقي فيبحث في الأماكن المقدسة ذات الصلة بمكة وعن خططها وأطرافها. وقد أفادني بشكل أساسي في الفصل الأول في تاريخ ونشأة مكة ومعاني أسمائها، وفي الفصل الثالث عند الحديث عن الوثنية والحنيفية وطقوسهما.

2- الطبري، أبو جعفر بن محمد بن جرير (ت 310هـ / 923م)، وكتابه: تاريخ الرسل والملوك، ويعرف بتاريخ الأمم والملوك أو تاريخ الطبري، ويعتبر عمدة كتب التاريخ عند العرب حيث جمع فيه كل الروايات التي وصلت إليه لكن دون أن يرجح إحداها على الأخرى إلا نادرا. وقد اعتمد في جمع الأخبار التي تتصل بالبشر منذ بدء الخليقة حتى عصره على الرواية الشفوية أو الإسناد اعتمادا على

كتب المتقدمين أمثال: ابن اسحاق والواقدي والمدائني، واعتمده في الفصل الأول عند الحديث عن نشأة مكة.

3- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أحمد بن أبي الكرم (ت 630هـ / 1232م)، الكامل في التاريخ، الذي يعد من أشهر كتب التاريخ المتداولة بين أيدينا، ومن أوثق وأوفر المصادر التي تناولت التاريخ الكامل بدء بالخلقة إلى سنة 628هـ أي إلى عصره، يحتوي على مادة خبرية مهمة عن تاريخ العرب قبل الإسلام، حيث ذكر أيامهم ووقائعهم، وقد رتب الأخبار على نظام الحوليات كالطبري، وقد وظفت الجزأين الأول والثاني.

4- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر دمشقي (ت 774هـ / 1372م)، البداية والنهاية، يقع الكتاب في 14 مجلداً، وقد ختمه بمجلدين في الفتن والملاحم، يؤثر ابن كثير استخدام السجع والمحسنات في كتابه للتاريخ، وبذلك لا يرتفع إلى المنهج التاريخي الذي يعتمده الطبري والمسعودي وابن الأثير، ومنهجه في الكتابة نهج موسوعي، فهو يدمج التأريخ بالرواية والتفسير، والشك بالإسرائيليات، لكن يعوزه الترتيب والتحليل والتعليل، وقد نجد الخبر مكرر في عدة مواضع، وقد اعتمدت علاوة على البداية والنهاية، على كتابين آخرين له هما: النهاية في الفتن والملاحم، وقصص الأنبياء، خاصة حينما تناولت الديانات السماوية في الفصل الثالث.

5- ابن خلدون، عبد الرحمن أبي زيد بن محمد (ت 808هـ / 1406م)، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ويعرف بتاريخ ابن خلدون، يتضمن أخبار العرب والشعوب الأخرى بصورة عامة، وتحتل مقدمة هذا الكتاب مكانة خاصة في تاريخ العرب، وابن خلدون لم يعرض التاريخ كسابقه من المؤرخين، وإنما فلسف ظروف المجتمع العربي منذ نشأته وتتبع تطوراتها، ويعتبر عهده مرحلة حاسمة في تطور منهج علم التاريخ، وقد أفادني الجزءان الأول والثاني في الفصل الأول عند الحديث عن القبائل العربية، والمقدمة في الفصل الثاني في مبحثي اللغة والكتابة.

و: كتب التراجم والطبقات:

1- صاعد الأندلسي، أبو القاسم صاعد بن أحمد (ت 462هـ / 1069م)، كتاب طبقات الأمم، يعد وثيقة هامة في تاريخ العلوم وتطورها عند الشعوب القديمة، حققه الأب لويس شيخو سنة 1912م في بيروت، وما يلاحظ على المصدر أنه اعتمد الاختصار والإيجاز، كما رتب الأمم بطريقة لم يتعرض لها المؤرخون من قبله، وقد استخدمته في الحديث عن معارف العرب قبل الإسلام وديانته الوثنية.

2- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت 681هـ / 1282م)، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، يتضمن تصانيف مفيدة في الترجمة للأشخاص، حيث يتناول تاريخ وحياة الأشخاص وأنسابهم. وقد رتب الأعلام على أسماء أصحابها وإن لم يشتهروا بها وتحقق نسب كل

واحد وتاريخ ولادته ووفاته، على طريقة أصحاب المعاجم التاريخية في ذلك العصر، وقد أفاد البحث في تراجم عديدة.

ابن الأثير، أبو الحسن علي (ت 630هـ / 1232م)، كتاب "أسد الغابة في معرفة الصحابة" وهو من المصادر الأساسية في التراجم للصحابة الذين عاصروا الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وهو لا يقل أهمية عن كتابه "الكامل في التاريخ" ويتضمن الكتاب ترجمة لسبعة آلاف وخمسمائة (7500) صحابي، منهم المخضرمين الذين عاشوا قبل الإسلام وبعده، والذين ورد ذكرهم في البحث.

3- ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي (ت 852هـ / 1449م)، الإصابة في تمييز الصحابة، وبذيله كتاب "الاستيعاب في معرفة الأصحاب" لابن عبد البر، أبو عمر يوسف عبد الله بن محمد (ت 463هـ / 1070م)، وقد جمع العسقلاني ما يربو من ألف وخمسمائة (1500) صحابي، واعتمد على من سبقوه في ذلك مثل ابن عبد البر، وابن الأثير، والذهبي (ت 748هـ) وزاد عليهم.

ز: كتب الأدب واللغة:

لا شك أن الأدب العربي القديم شعر ونثر، وأيام العرب وقصصهم، تعد مصدرا من مصادر التاريخ، بما اشتملت عليه من الوقائع والأحداث التاريخية، فقد حفظت لنا الأشعار القديمة صورة من حياة العرب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والعقلية قبل الإسلام، ومن أهم كتب الأدب المعتمدة في البحث:

1- الجاحظ، أبو عثمان بن عمرو بن بحر (ت 255هـ / 868م)، استعملت عدة كتب له منها: كتاب الحيوان، وينقل إلينا عبره معلومات خاصة ببعض البلدان، وحياة العرب قبل الإسلام، وكتاب البيان والتبيين، وأفادني في الفصل الثاني في دراسة اللغة والشعر والنثر والخطابة، وكتاب رسائل الجاحظ الذي وظفت الجزء الثاني منه في المعبودات الوثنية كعبادة الجن والملائكة.

2- ابن قتيبة، محمد بن عبد الله بن مسلم الدينوري (ت 276هـ / 889م)، وهو من الأدباء النقاد، نقل إلينا في كتابه "عيون الأخبار" كثيرا من أخبار العرب قبل الإسلام، ويورد في كتاب "المعارف" أنساب العرب وأيامها وأديانها ودويلاتها، أما كتاب "الشعر والشعراء" في جزأين فهو عبارة عن تراجم لشعراء العرب قبل الإسلام وبعده، مع ذكر أزمانهم وأحوالهم، وبعض أشعارهم.

3- الأصبهاني، أبو الفرج علي بن الهيثم الأموي (ت 356هـ / 967م)، صاحب كتاب "الأغاني" وهو عبارة عن موسوعة حقيقية تتضمن تراجم الشعراء والأدباء والأعلام، وتناول أخبار وأيام العرب قبل الإسلام، ويعرض لحياتهم الاجتماعية والعقلية، وقد وظفت عدة أجزاء في مواضع مختلفة من البحث، إضافة إلى كتب الأدب، هناك مجامع الشعر القديم، فهو ديوان العرب، وسجل حياتهم وأخلاقهم، ومن مصادر الشعر: المفضليات للمفضل الضبي (ت 170هـ / 786م) وديوان الحماسة لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي (ت 231هـ / 846م)، وجمهرة أشعار العرب لأبي

زيد القرشي (ت 170هـ / 786م)، وشرح المعلقات السبع للزوزني (ت 486هـ / 1093م)، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي (ت 421هـ / 1042م) وشرح المعلقات العشر للتبريزي (ت 502هـ / 1190م).

- **كتب اللغة** : تعتبر كتب اللغة من مصادر حياة العرب قبل الإسلام، ذلك أن اللغة العربية التي نكتب بها وننظم إنما هي نتاج العصر السابق لظهور الإسلام، ومن هذه الكتب التي اعتمدها في البحث: الخصائص لابن جني (ت 392هـ / 1001م) والمخصص لابن سيده (ت 458هـ / 1065م)، والأمامي لأبي علي القالي (ت 356هـ / 967م)، والكامل للمبرد، أبو العباس محمد بن يزيد (ت 285هـ / 898م)، وخزانة الأدب ولب لباب لسان العرب لعبد القادر بن عمر البغدادي (ت 1093هـ / 1682م)، والمزهر في علوم اللغة العربية للسيوطي (ت 911هـ / 1505م) ، أما قواميس العرب، فلعل أهمها: تاج العروس للزبيدي (ت 1205هـ / 1784م) ، ولسان العرب لابن منظور (ت 711هـ / 1369م)، والقاموس المحيط للفيروزآبادي (ت 817هـ / 1415م)، ومختار الصحاح للرازي (ت 660هـ / 1262م)، إن هذه الكتب لا تحوي مفردات لغوية فحسب وإنما تتضمن معارف جغرافية وتاريخية وعلمية وفنية، لذلك كانت مصادر لحياة العرب قبل الإسلام.

- **دواوين الشعر**: ومن دواوين الشعر العربي القديم المعتمدة في البحث: ديوان الشعراء الهذليين، ودواوين امرئ القيس، وطرفة بن العبد، والنابغة الذبياني، وزهير بن أبي سلمى، وعنزة بن شداد، وليبد بن ربيعة، والأعشى، والمهلهل، والحطيئة، وأميرة بن أبي الصلت، وحسان بن ثابت، وقيس بن الملوح، وعمرو بن كلثوم. ويلحق بمجاميع الشعر، مجاميع النثر ومنها: أمثال العرب للمفضل الضبي (ت 170هـ / 786م)، وجمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري (ت 395هـ / 1004م)، ومجمع الأمثال للميداني (ت 518هـ / 1124م).

ثانياً: المصادر غير العربية:

1- التوراة والإنجيل:

التوراة كتاب اليهود المقدس، أقدم المصادر غير العربية، تناولت تاريخ العرب قبل الإسلام فيما يتعلق بموضوع الدراسة، فقد تحدثت التوراة عن هجرة إبراهيم عليه السلام من بلاد الرافدين إلى بلاد الشام ثم إلى مصر، ومنها مع إسماعيل وأمه هاجر إلى مكة بأمر من الله سبحانه وتعالى، وليس كما ورد في التوراة. والتوراة حينما تتحدث عن العرب فإنها تهتم بالأماكن العربية ذات الصلة الاقتصادية باليهود، وعندما تتحدث عن القبائل العربية فإنها تذكرهم على أساس أنها قبائل كانت لها علاقة بالعبرانيين وأنها قبائل بدوية.

يتعين على الباحث التعامل مع التوراة كمصدر تاريخي، وأن ننظر إليها، كما ننظر إلى غيرها من المصادر التاريخية، وما دامت كذلك فلا مانع من أن تناقش وتنتقد من طرف المؤرخين، نقبل ما يتفق مع الأحداث التاريخية ومع المنطق والموضوعية، ونرفض غير ذلك.

وقد استخدمت عدة أسفار في الفصل الثالث خاصة: التكوين، التثنية، العدد، حزقيال، عزرا، يوسف، أعمال الرسل، والملوك الثاني.

أما الإنجيل فقد وظفته عند تناولي الديانة المسيحية، ومن الأنجيل التي اعتمدها: متى، مرقس، يوحنا، لوقا، رسالة بولس إلى أهل كورنثوس، ورسالته إلى أهل رومية.

2- المصادر اليونانية واللاتينية:

تتضمن مصادر اليونان والرومان معلومات تاريخية وجغرافية هامة عن بلاد العرب قبل ظهور الإسلام، وقد استقى هؤلاء الكتاب معلوماتهم من المحاربين اليونان والرومان الذين قادوا حملات عسكرية ضد العرب، ومن الرحالة والتجار الذين كانوا يتوغلون في بلاد العرب ويختلطون بهم، ومعنى ذلك أنهم اعتمدوا على الرواية الشفوية، ومن أقدم هؤلاء المؤرخين هيروdotus "Herodotus" (484 - 425 ق.م) المؤرخ اليوناني المعروف بأبي التاريخ، فقد ذكر بلاد العرب في الكتابين الثاني والثالث وأشار إلى جغرافية شبه الجزيرة العربية وأهمية موقع الحجاز بالنسبة لطرق القوافل في كتابه الثالث، وإلى بعض آلهة العرب كالكالات وعلاقتها بالآلهة اليونانية.

ومن الجغرافيين اليونان الذين وصفوا مدن العرب وأقاليمها وأحوالهم الاقتصادية، والاجتماعية في شبه جزيرة العرب، الجغرافي سترابون "Strabon" (64 - 24 ق.م) وكان قد ساهم في الحملة الرومانية التي قادها إيلوس جالوس "Elius Galus" على اليمن سنة 24 ق.م، وعابن بنفسه أحوال العرب، ووصفها في كتابه "الجغرافيا- Geographia"، وقد وظفته في الفصل الأول عند الحديث عن أقسام الجزيرة العربية، وفي الفصل الثالث عندما تناولت الكتابة العربية وعلاقتها بالنبطية .

ثالثا: المراجع الحديثة:

أ- المراجع العربية والمعربة:

1- جواد علي: " المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام" في تسعة أجزاء، يعتبر جواد علي شيخ المؤرخين العرب المحدثين، وكتابه من أوفى وأجمع المراجع العربية الحديثة، في تاريخ العرب قبل الإسلام، فقد جمع فيه كل ما يتعلق بالعرب قديما وحديثا في اليمن والحجاز ونجد والعراق وبلاد الشام، وضمنه آراء المستشرقين وروايات الإخباريين المختلفة، وحاول المقارنة بينها مناقشتها وترجيح بعضها على بعض، وقد أفادني كثيرا في دراسة الديانات السماوية، والوثنية في شبه الجزيرة العربية.

- 2- السيد عبد العزيز سالم: " تاريخ العرب قبل الإسلام" الجزء 1، وهو دراسة وافية لتاريخ العرب السياسي والاجتماعي والديني، وأفاد البحث في دراسة جغرافية مكة ومناخها في الفصل الأول، وديانات العرب قبل الإسلام في الفصل الثالث.
- 3- أحمد إبراهيم الشريف: " مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول" تناول الكتاب بالدراسة عصرا يعد من أهم العصور في تاريخ العرب، وهو العصر السابق لظهور الإسلام، وهو دراسة جادة تضمّن البيئة العربية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية، وتصدى فيها لآراء المستشرقين الذين كانت تحكهم عصبية عمياء بعيدين عن الموضوعية والمنطق والأمانة العلمية، ووظفته في الفصل الأول في مبحث نشأة مكة وتطورها.
- 4- أحمد سوسة: " ملامح من التاريخ القديم ليهود العراق" بالرغم من أن الكتاب دراسة علمية لتاريخ يهود العراق القديم، فقد تضمن معلومات قيمة عن اليهودية وفرقها القديمة، والنصرانية وطوائفها خاصة السنطورية واليعقوبية، وأفاد البحث في أصل يهود الجزيرة العربية وتاريخ توأجدهم بها.
- 5- عمر فروخ: "تاريخ الجاهلية" تضمن الكتاب تاريخ العرب منذ أقدم الأزمنة إلى ظهور الإسلام، وقد اعتمد في ذكر أخبار العرب نسقا تاريخيا متواليا ربط فيه الأسباب بالنتائج دون قطع حلقات هذه السلسلة التاريخية، وقد استفدت منه في دراسة أيام العرب وترتيبها ترتيبا كرونولوجيا، وبعض أسواق العرب القديمة، وتضمن كتابه " العرب في حضارتهم وثقافتهم" مجموعة من الجوانب الحضارية لدى العرب قبل الإسلام كالكتابة والأبجدية، وبعض علوم ومعارف العرب القديمة كالكهانة والعرافة والعيافة والقيافة والطب، كما تعرض لأسواق العرب القديمة والأشهر الحرم، وأفرد جانبا من كتابه عن الديانة الوثنية والحنفاء. أما كتابه " تاريخ الأدب العربي" ج1، فاستخدمته في الفصل الثاني، في مباحث الشعر والنثر والأسواق، فقد تناول خصائص وأغراض الشعر المختلفة، وتراجم مفصلة لبعض الشعراء العرب القدامى، ودرس النثر وأنواعه، وبعض الأسواق القديمة في شبه جزيرة العرب.
- 6- محمد أحمد جاد المولى وآخرون: " أيام العرب في الجاهلية" وقد اعتمدته بشكل أساسي في دراسة القصص وأيام العرب قبل الإسلام التي تعد مصدرا هاما من مصادر تاريخ العرب القديم، وينبوعا لا ينضب من ينابيع الأدب، بما اشتملت عليه من الأحداث والوقائع التاريخية وما روي خلالها من شعر ونثر، ومن خلال هذه الأيام أمكن التأريخ لطبيعة العلاقات التي كانت بين العرب والأمم المجاورة كالفرس والروم والحبشة، وبين القبائل العربية فيما بينها.
- 7- جورجى زيدان: " العرب قبل الإسلام" ويبحث الكتاب في أصل العرب وتاريخهم القديم، وآدابهم وتمذنبهم وعاداتهم من العرب البائدة إلى ظهور الإسلام، وأفاد البحث في دراسة أيام العرب، وتضمن معلومات قيمة حول سد مأرب " سيل العرم" ، كما استفدت من كتابين آخرين له هما: "

تاريخ التمدن الإسلامي"، و "تاريخ آداب اللغة العربية" في مجلدين (4 أجزاء) والذي أفادني كثيرا في التراجع للشعراء والأدباء العرب.

8- سعد زغلول عبد الحميد: " في تاريخ العرب قبل الإسلام" يلقي الكتاب الضوء على بعض نقاط تاريخ العرب قبل ظهور الإسلام، وهو غني بتاريخ الأنساب، حيث يعرض لقريش وقصي بن كلاب وأبناؤه، وتاريخ تأسيس مكة، ويتضمن أخبارا مفيدة عن أيام العرب، وأفاد في دراسة الديانات السماوية اليهودية والنصرانية في بلاد العرب.

ب- المراجع الأجنبية :

أفاد البحث مجموعة من المراجع الأجنبية باللغتين الفرنسية والإنجليزية أذكر منها:

كتاب Gustave Le Bon : La civilisation des Arabes الذي أفادني في دراسة الموقع الجغرافي لشبه الجزيرة العربية وأقسامها، وتضمن بعض الجوانب الحضارية في العربية الشمالية والجنوبية، وعلاقتها بالأمم والشعوب المجاورة.

وكتاب Ryckmans (G.) : Les religions Arabes Préislamiques ويشمل ثلاثة فصول عن أقسام جزيرة العرب: العربية الشمالية، والعربية الوسطى (المركزية)، والعربية الجنوبية، ويتناول بالدراسة الديانات العربية قبل الإسلام، مركزا على المعتقدات الوثنية وأصنام العرب في شبه الجزيرة العربية، وقد استفدت منه في دراسة الديانة الوثنية في الفصل الثالث، حيث تناول أصنام مكة والحجاز بالتحليل ذكرا سبب تسميتها وظهورها وعبدها وطقوسها.

أما كتاب James Février : L'Histoire de l'écriture فقد تناول تاريخ الكتابة منذ أقدم العصور، ومنها الكتابة واللغة العربية، ويتضمن دراسة مفصلة للنقوش العربية الأولى مثل نقش النمارة، ونقش زيد، ونقش حران، وأفادني بمعلومات أساسية في الفصل الثاني في مبحثي اللغة والكتابة. وأفاد البحث من كتاب: Caussin De Perceval : Essai sur l'histoire des Arabes, avant l'Islamisme: حيث يعتبر الكتاب أقدم تاريخ للعرب قبل الإسلام، إذ ظهرت طبعته الأولى سنة 1847م، وقد اعتمد مؤلفه على التحليل والتفسير، متبعا قواعد المنهج الحديث للتاريخ، وإن كان للمستشرقين اليد الطولى في كتابة تاريخ العرب، وتوضيح معالمه، إلا أنه يتوجب على الباحثين التحلي بروح النقد وعدم قبول كل ما يكتبه المستشرقون وأن نتعامل مع كتاباتهم بحذر شديد، وقد أفاد البحث في دراسة تاريخ نشأة مكة. ومن أبرز المستشرقين الذين اعتمدت على كتاباتهم هنري لامنس ومن كتبه:

Lammens : La Mecque à la veille de l'Hégire, 1924

Lammens : l'Arabie occidentale avant l'Hégire, 1928

تعتبر كتب الأب هنري لامنس السابقة الذكر، من أبرز الكتب التي اعتمدت عليها في الفصل الأول في مبحث نشأة مكة، وفي الفصل الثالث في دراسة الديانات، وما يمكن قوله أن لامنس يعتبر ثالث المستشرقين البارزين في حقل تاريخ العرب قبل الإسلام بعد روبرتسون سميث "R.Smith"

ويوليوس ولهوسن "J. Wellhausen" ، ورغم معرفته وإطلاعه الواسع على المؤلفات العربية التاريخية والأدبية، إلى جانب معرفته بالمؤلفات الأوروبية، إلا أنه يتوجب على الباحث أن يلزم جانب الحذر والحيطه من التعامل مع كتاباته التي تتميز بالتعصب الأعمى ضد التاريخ العربي والإسلامي، الأمر الذي يجعل منه شخصية ممقوتة مشكوك في حسن نيتها.

رابعاً: الدوريات والمجلات:

أ- الدوريات العربية:

لم يبق الكتاب وحده المرجع الأساسي في البحوث والدراسات، فقد شاركت أدوات جديدة هامة كالمجلات والوثائق والنشرات وأشباهها، حيث لا يمكن لباحث يتابع بحوثه ويعمق دراساته الاستغناء عنها، فالدوريات تتميز بجدة بحوثها، وطرافة ما ينشر فيها، وإضافاتها المستمرة، مما يتوجب على الباحث الرجوع إليها والإفادة منها. فالباحث يعاني ما يعاني وهو يجمع مصادر بحثه، فلقد قدر علماء مختصون أن الباحث يضيع ثلث وقته على الأقل في الجمع والتنقيب قبل أن يخطو الخطوة الأولى في إعداد البحث، وذلك لاتساع المعارف وتعدد سبلها وكثرة مصادرهما، ولا مناص من الاستقصاء حتى يتقاضي ما سبق دراسته من بحوث.

وفي هذا المجال فقد اعتمدت على مجموعة من المقالات التي نشرت في دوريات متعددة منها:

1- أنوليتمان: " لهجات عربية شمالية قبل الإسلام" نشر هذا المقال في مجلة مجمع اللغة العربية الملكي، القاهرة، 1936م.

2- خليل يحي نامي: " أصل الخط العربي وتاريخ تطوره إلى ما قبل الإسلام"، مجلة كلية الآداب، الجامعة المصرية، القاهرة، 1936م.

3- نجيب محمد البهبيتي: " البيئة التي نشأ فيها الشعر الجاهلي" مجلة كلية الآداب، جامعة فؤاد الأول، القاهرة، 1952م.

4- صالح درادكة: " إيلاف قريش، ملاحظات حول عوامل السيادة المكية قبل الإسلام"، دراسات تاريخية، جامعة دمشق، 1984.

ب- الدوريات الأجنبية:

أفاد البحث مجموعة من المقالات والبحوث المتخصصة التي نشرت في دوريات ومجلات علمية عربية وأجنبية باللغتين الفرنسية والإنجليزية ومنها:

-Lammens (H.) : Les Ahabiches et l'organisation militaire de la Mecque au siècle de l'Hégire

نشر المقال في المجلة الآسيوية " Journal Asiatique" سنة 1916.

-Lammens (H.) : Les chrétiens à la Mecque à la veille de l'Hégire

نشرت هذه الدراسة في مجلة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية "Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie Orientale" بالقاهرة سنة 1918.

وفي مجال دراسة الموقع الجغرافي والتغيرات المناخية أفدت من بحث:

- Huzayyin (S.) : Changement Historique du Climat et du paysage de l'Arabie du sud. (Bulletin of the faculty of Arts, University of Egypt)

الذي نشر في مجلة كلية الآداب ، الجامعة المصرية سنة 1935م.

وفي الفصل الثالث في مبحث اليهودية خاصة ما تعلق بتسميات: اليهود والعبرانية وبنو إسرائيل استفدت من مقال "Ziad Mouna: " Jews are not Israelites" الذي نشر في المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت سنة 1998م.

خامسا: الدراسات السابقة:

لقد تناولت معظم الدراسات السابقة تاريخ مكة مركزا على الحياة الدينية سواء في مكة أو في الحجاز عموما، أو علاقاتها الخارجية على غرار:

1- الطاهر ذراع: الديانات القديمة في الحجاز قبل الإسلام من خلال المصادر العربية والكتب السماوية، رسالة ماجستير، جامعة قسنطينة، 1990م، وقد أفادتني الرسالة في دراسة الديانات السماوية والوثنية في شبه الجزيرة العربية، وتكمن أهميتها في اعتمادها على المصادر الأساسية العربية والأجنبية، وعلى الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل والقرآن الكريم، والكتابات المتخصصة.

2- الطاهر ذراع: المجتمع العربي القديم من خلال كتابات أصحاب السير والكتاب القدامى، أطروحة دكتوراه، جامعة منتوري قسنطينة، 2003.

وتناولت المجتمع العربي بالتحليل والنقد والدراسة في ميادين شتى كالحياة الدينية، والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وأفادت البحث في الفصلين الأول والثاني في دراسة البيئة الطبيعية لمكة، والحياة الثقافية من شعر ونثر وقصص وأسواق.

3- سلوى بوشارب: مكة وعلاقاتها بالحوضر الحجازية والدول المجاورة، رسالة ماجستير، جامعة قسنطينة، 2008م، وأفادت الموضوع في دراسة تاريخ نشأة مكة منذ عهد إبراهيم (عليه السلام) إلى مجيء قصي بن كلاب في منتصف القرن الخامس الميلادي.

سادسا: المعاجم والموسوعات الأجنبية:

وفرت الموسوعات والمعاجم ودوائر المعارف مادة خصبة خدمت البحث منها:

- Encyclopédie de l'Islam , 1913

- Félix Gaffiot : Dictionnaire Abrégé Latin- Français illustré, 1936.

- Jean Christophe Attias et Esther Benbassa : Dictionnaire de civilisation Juive, 1998.

- Marcotte (D.) : Dictionnaire de la civilisation Phénicienne, 1992.

خطة المذكرة:

على ضوء المادة العلمية المستقاة من المصادر والمراجع المادية والكتابية (الأدبية) المتنوعة، والكتب المقدسة التي أمكن الإطلاع عليها، فقد وضعت خطة متوازنة ومكاملة تغطي جوانب البحث، حسب استطاعتي العلمية في هذا العمل المتواضع، وتتكون المذكرة من مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة. يتناول الفصل الأول البيئة الجغرافية والتاريخية في مكة، درست في المبحث الأول موقع مكة الجغرافي والفلكي وأهميته، وطبيعة مناخها، ومظاهرها الطبيعية المختلفة وأثرها على السكان قديماً، وفي المبحث الثاني تعرضت لأسماء مكة المختلفة ومعانيها، ولا ريب في أن كثرة الأسماء تدل على شرف ومكانة المسمى، فقد كانت مكة أفضل بقاع الأرض منذ بدء الخليقة إلى اليوم.

وتناولت في المبحث الثالث نشأة مكة وتطورها، منذ عهد إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، وقدم قبيلة جرهم إلى مكة والاستقرار بها، ثم قبيلة خزاعة، إلى مجيء قصي بن كلاب في منتصف القرن الخامس الميلادي، وقد ركزت في هذا المبحث على طبيعة النظام السياسي الذي ساد مكة في عهد قصي، وعلى بعض المؤسسات الهامة التي أنشأها، والوظائف التي استحدثها ووزعها على أبنائه قبل وفاته، ويعتبر الفصل الأول فصلاً تمهيدياً يمثل مدخلاً لموضوع الدراسة.

وعالجت في الفصل الثاني دور مكة الثقافي في شبه الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام، وقسمته إلى عدة مباحث، درست في المبحث الأول اللغة، والمراحل التي مرت بها والعوامل التي ساعدت على تفوق لهجة ولغة قريش على سائر اللهجات العربية القديمة في الجزيرة العربية، وعرضت في المبحث الثاني للكتابة وأصولها وتطورها ومدى انتشارها في جزيرة العرب، مركزاً دراستي على النقوش خاصة نقوش القرنين الرابع والسادس الميلاديين مثل نقش النمارة 328م، ونقش زبد 512م، ونقش حران 568م.

وتضمن المبحث الثالث دراسة الشعر العربي القديم من حيث مفهومه وأغراضه وفنونه المختلفة مع ذكر أبرز الشعراء في مرحلة الدراسة ونماذج من شعرهم، دون أن أغفل قضية انتقال الشعر والتي تصدى لها الكثير من المستشرقين والمؤرخين والأدباء العرب المحدثين، محاولاً خلال ذلك إبراز دور مكة الثقافي في الجزيرة العربية. أما المبحث الرابع فقد أفردته للنثر وأنواعه من أمثال وحكم وخطابة وسجع الكهان وأحاديث الهوى والقصص التي سجلت أشهر أيام العرب قبل الإسلام فيما بين القبائل العربية، أو مع الأمم والدول المجاورة خاصة الفرس. وخصصت المبحث الخامس للأسواق العربية القديمة التي كانت تقام على أطراف الجزيرة العربية على مدار السنة، وركزت بشكل أساسي على أسواق مكة الداخلية والخارجية، وبالأخص سوق عكاظ التي كانت منتدى ومحفلًا ثقافياً وأدبياً دولياً.

وتطرق في الفصل الثالث إلى دور مكة الديني في شبه الجزيرة العربية انطلاقاً من دراسة الديانات في أربعة مباحث، المبحث الأول تناولت فيه أصول الديانة الحنيفية وتاريخ ظهورها وهجرات إبراهيم ودعوته وطقوسها ومصيرها، وفي المبحث الثاني تعرضت للديانة اليهودية من حيث مفهومها وتاريخ ظهورها وكتبها المقدسة وفرقها وطوائفها القديمة والوجود اليهودي في الجزيرة العربية، أما المبحث الثالث فخصصته للديانة النصرانية وعرضت فيها إلى مفهومها وتاريخ ظهورها وتطورها، وكتبها المقدسة، وفرقها القديمة، وأفردت المبحث الرابع إلى الديانة الوثنية وتناولت دراستها من حيث مفهومها وتاريخ ظهورها في شبه الجزيرة العربية وتطورها لدى معتققيها وأنواع المعبودات الوثنية ومصيرها.

أما الخاتمة فقد جاءت إجابة عن الإشكالية المطروحة في المقدمة، وتضمنت جملة من النتائج والاستنتاجات التي تمكنت من الوصول إليها بعد دراسة الموضوع والإلمام به من كل جوانبه.

الفصل الأول: البيئة الجغرافية والتاريخية في مكة:

المبحث الأول: موقع مكة وأهميته.

المبحث الثاني: أسماء مكة المكرمة ومعانيها.

المبحث الثالث: نشأة مكة وتطورها.

المبحث الأول: موقع مكة وأهميته:

المطلب الأول: موقع مكة الجغرافي:

تقع مكة في الجزء الغربي من جزيرة العرب^(*)، وقد حدد البكري⁽¹⁾ طول الجزيرة العربية من آخر حدود الشام وأول حدود الحجاز^(**) إلى عدن أبين، خمسون مرحلة بسير الإبل، أي بمسافة تقدر بألف وخمسمائة ميل^(***) - حوالي 2959 كيلومتر- وعرضها يمتد من جدّة على البحر الأحمر إلى بحر الأبلّة^(****) - شط العرب- على الاستقامة ثلاثون مرحلة بسير الإبل، وتقدر بتسع مائة ميل- حوالي 1775 كيلومتر-.

(*)- جزيرة العرب: سميت جزيرة لأن بحر فارس وبحر الحبش والفرات ودجلة أحاطت بها، وهي أرض العرب ومعدنها. البكري: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق مصطفى السقا، ج1، ط1، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1364 هـ/ 1945م، ص 06، ثم يعقد لها نهر الفرات ونهر العاصي عند اقترابهما في أعالي الشام حدًا من الماء. الهمداني: صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوغ، دار اليمامة، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1974، ص3، ابن خلدون: المقدمة، ط9، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2006م، ص 37، وقد ذكر القلقشندي في سبب تسمية جزيرة العرب بالجزيرة: " سميت جزيرة العرب جزيرة لإنجاز الماء عنها حيث لم يمتد عليها وإن كان مطيفا بها"، القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج 4، المطبعة الأميرية، القاهرة، (د.ت)، ص 245، Encyclopédie de l'Islam, par Th. Houtsma et autres, Tome 1, 2^{ème} édi., Leyde, 1913, p 07. - Paris, 1930, p 07. (1)- جزيرة العرب من كتاب المسالك والممالك، تحقيق عبد الله يوسف الغنيم، ط1، دار ذات السلاسل للطباعة والنشر، الكويت، 1977م، ص 106.

(**) - الحجاز: اختلف الباحثون في تسمية الحجاز حجازا، فذهب فريق إلى أنه حجز بين البحر الأحمر وهو هابط وبين النجاد الشرقية المرتفعة، ويرى فريق إلى أنه يحجز بين الغور وبلاد الشام، أو لأنه يحجز بين تهامة ونجد، وفريق ثالث يرى أنه يحجز بين الشام واليمن والتهائم، أو بين تهامة والعروض وفيما بين اليمن ونجد، ياقوت الحموي: معجم البلدان، تحقيق عبد العزيز الجندي، ج2، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1990م، ص 252-253، القلقشندي: المصدر السابق، تحقيق وشرح نبيل خالد الخطيب، ج4، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1987م، ص 246، البكري: المصدر السابق، ج1، ص 10-12، الأصفهاني: بلاد العرب، تحقيق حمد الجاسر، منشورات دار اليمامة، الرياض، السعودية، (د.ت)، ص 14،

Charles Diehl et Georges Marçais : Histoire du moyen âge, tome 3, « Le monde Oriental de 395 à 1081 », Presses universitaires, Paris, 1936, p 164, Massé (H.) : Op.cit, p 08.

(***) - الميل: مسافة من الأرض، ومقياس للطول قدر قديما بأربعة آلاف ذراع وهو الميل الهاشمي، ابن منظور: لسان العرب، ج3، دار صادر، بيروت، لبنان، ص86، وفي لغة اليوم فالميل البري يقدر بـ 1609 مترا، والميل البحري يقدر بـ 1852 مترا. إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، ج2، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا، 1989م، ص894.

(****) - الأبلّة: مدينة بالعراق بينها وبين البصرة أربعة فراسخ، يشقها نهرها شمالا، وجانبها الآخر على غربي دجلة، فتحها عتبة بن غزوان في عهد عمر بن الخطاب، كانت مرفأ الصين وما دونها. الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق=

وقدر الجغرافيون العرب المحدثين⁽¹⁾ متوسط عرضها بسبعمئة ميل - نحو 1150 كيلومتر -، ومنتهى طولها بحوالي ألف ومائتا ميل - نحو 2000 كيلومتر -.

ويرى بعض المستشرقين أن المسافة من خليج العقبة (100 كلم جنوب البحر الميت) حتى مضيق باب المندب عند خليج عدن تبلغ نحو 2100 كيلومتر، هذا بالنسبة للطول، أما العرض فيمتد من رأس محمد - الطرف الجنوبي لشبه جزيرة سيناء - حتى البصرة الواقعة في أقصى شمال الخليج الفارسي فيبلغ نحو 1300 كيلومتر، مع ملاحظة - أن جنوب شبه الجزيرة العربية أكثر اتساعا، حيث تقدر المسافة بين باب المندب غربا حتى مسقط شرقا بنحو 2000 كيلومتر، وهي مسافة تساوي الطول تقريبا⁽²⁾.

وتبلغ مساحة الجزيرة العربية حوالي مليون ميل مربع، ومن ثمّ فهي أكبر شبه جزيرة في العالم⁽³⁾، وفي هذه المساحة المترامية الأطراف تقوم مكة أهم حواضر الحجاز في منتصف طريق القوافل بين اليمن وبلاد الشام على الساحل الغربي لشبه الجزيرة العربية، وعلى بعد 48 ميلا أي ثمانون (80) كيلومترا من ساحل جدة على بحر القلزم^(*) - البحر الأحمر⁽⁴⁾ - في واد صخري ضيق غير ذي زرع من أودية جبال السراة^(**) يمتد من الشمال إلى الجنوب بين جبلي أبي قبيس في الشرق وجبل الهندي في الغرب⁽⁵⁾.

= آفاق، ج1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، 2002م، ص ص 384 - 385، عبد المنعم الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ط2، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، 1984م، ص8.

(1) - حافظ وهبة: جزيرة العرب في القرن العشرين، ط4، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1961م، ص 1.

(2) - ديتليف نيلسن و فرتز هولم وآخرون: التاريخ العربي القديم، ترجمة فؤاد حسنين علي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1958م، ص ص 55-56.

(3) - محمد بيومي مهران: دراسات في تاريخ العرب القديم، ط2، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2005م، ص81. Gustave Le Bon : La civilisation des Arabes, Imag, Syracuse, Italie, 1969, p6.

(*) - بحر القلزم: طوله نحو ثلاثين مرحلة وعرضه أوسع ما يكون قدر ثلاثة مجار ثم لا يزال يضيق حتى يرى من بعض جوانبه الجانب الآخر وأوسع مكان فيه حيث القلزم. الإدريسي: المصدر السابق، ج1، ص ص 347-349.

(4) - ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج2، ص ص 252-253، ج5، ص 217، ويل ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، ج2، دار الجيل، بيروت، لبنان، (د.ت)، ص ص 17-18.

(**) - جبال السراة: سميت بذلك لاستوائها وارتفاعها كسراة الفرس وظهره، وتمتد هذه السلسلة من أعالي اليمن في الجنوب إلى مشارف فلسطين في الشمال، وتفصل بين هضبة نجد في الشرق وسهول تهامة الساحلية في الغرب. الزبيدي: تاج العروس، ج10، دار صادر، بيروت، لبنان، (د.ت)، ص 174، الهمداني: المصدر السابق، ص ص 58-59، نبيلة حسن محمد: في تاريخ الدولة العربية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2003م، ص40.

(5) - كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، ط5، دار العلم للملايين، بيروت، 1968م، ص 31.

وقد ورد ذكر هذا الواد في القرآن الكريم في قوله تعالى⁽¹⁾: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾. وتمتد شرقي تهامة سلسلة جبال السراة التي تفصل بينها وبين هضبة نجد مؤلفة إقليم الحجاز، الذي تتوسطه مكة وتكثر فيه الأودية والمناطق البركانية والحرّات^(*)، وتحيط بمكة جبال جرداء ذات شعاب إحاطة كاملة⁽²⁾. وقد أغنت على مر العصور عن بناء سور لحماية المدينة فهي محصنة طبيعياً، حيث يمكن للقوافل إذا ما نزلت في هذه البقعة أن تتحصن في هذه الشعاب بواسطة حراسها.

وتعد جبال السراة العمود الفقري لشبه الجزيرة العربية، ويجعلها الجغرافيون العرب قاعدة لتقسيماتهم لها، وهي جبال مرتفعة تمتد في الغرب إذ توازي ساحل البحر الأحمر، وتقترب منه في مواضع عديدة، ويتراوح ارتفاعها ما بين عشرة آلاف قدم وثلاثة آلاف قدم، وتبلغ أقصاها في الشمال والجنوب، بينما تكون خلف مكة حوالي ثمانية آلاف قدم⁽³⁾.

وتكاد هذه الجبال تحجب الواد إلا من ثلاث منافذ يصله أحدها بطريق اليمن، ويصله الثاني بطريق قريب من البحر الأحمر عند مرفأ الشعبية^(**)، ويصله الثالث بالطريق المؤدي إلى فلسطين⁽⁴⁾.

(1) - سورة إبراهيم: الآية 37.

(*)-الحرّات: جمع حرّة وهي أرض رملية تحتوي على حجارة سود نخرة كأنها أحرقت بالنار، هي بقايا حمم بركانية قديمة وتحتوي الجزيرة العربية على ما لا يقل عن ثلاثين حرّة أشهرها حرة يثرب. ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج2، ص 245، فيليب حتي: تاريخ العرب (مطول)، ترجمة أدورد جرجي وجبرائيل جيور، ج1، ط4، دار الكشاف، بيروت، 1965م، ص19، الزبيدي: المصدر السابق، ج3، ص 135.

(2) -الاصطخري: المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال، دار القلم، القاهرة، 1961م، ص21، حافظ وهبة: المرجع السابق، ص23.

(3)-الزبيدي: المصدر السابق، ج10، ص 174، ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج3، ص 230، أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، دار الفكر العربي، القاهرة، 2000 م، ص 14.

(**)-الشعبية: مرفأ يقع على بعد 50 كيلومترا جنوب جدة، ويذكر ابن الكلبي أنه كان الميناء الوحيد لمكة قبل الإسلام، ومرفأ السفن من ساحل بحر الحجاز ، وقد كان مرفأ مكة ومرسى سفنها قبل جدة، وفي حديث بناء الكعبة عن وهب بن منبه: أن سفينة حجتها الرياح - أي دفعتها- إلى الشعبية، فاستعانت قريش في تجديد عمارة الكعبة بخشب تلك السفينة.

ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج3، ص ص 350-351، An Introduction to Saudi Arabian Antiquities : 2nd edition, Deputy Ministry of Antiquities and Museums, Riyadh, 1999, P190.

(4) -محمد حسين هيكل: حياة محمد، موفم للنشر، الجزائر، 1994م، ص 133، إبراهيم رفعة باشا: مرآة الحرمين، ج1، دار المعرفة، بيروت، (د.ت)، ص ص 177-178.

ولمكة ثلاثة أبواب: باب المعلى بأعلاها، وباب الشبيكة بأسفلها- ويعرف باسم العمرة وبباب الزاهر- وهو إلى جهة المغرب، وباب المسفلة وهو من جهة الجنوب⁽¹⁾.

ويذكر ياقوت الحموي⁽²⁾ أن كل ما نزل عن المسجد الحرام يسمونه المسفلة، وما ارتفع عنه يسمونه المعلاة.

وحدد الاصطخري⁽³⁾ أبعاد مكة فيقول: "طول مكة من المعلاة إلى المسفلة نحو ميلين (حوالي 3 كلم) وهو من حد الجنوب إلى الشمال، ومن أسفل جباد إلى ظهر قعيقان^(*) نحو الثلثين من ذلك". وتشتهر منطقة مكة بمجموعة من الجبال، أشهرها: جبل أبي قبيس في جنوبها، وجبل حراء في شرقها، وفيه كان يتحنث بعض الأحناف قبل مجيء الإسلام، ومن بعدهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وجبل ثور ويحدها من الجنوب، وجبل قينقاع الذي يشرف على مكة من الغرب، أما جبل رضوى^(**) فيقع بمحاذاة البحر الأحمر⁽⁴⁾.

ويذكر ابن بطوطة⁽⁵⁾: " أن مكة تقع في بطن واد تحفّ به الجبال فلا يراها أحد حتى يصل إليها، وتلك الجبال المطلة عليها ليست بمفرطة الشموخ، والأخشبان من جبالها هما: جبل أبي قبيس وجبل قعيقان."

وقد قسم اليونان واللاتين شبه الجزيرة العربية إلى ثلاثة أقسام⁽⁶⁾ هي:

1- العربية الصحراوية: « Arabia Deserta » في الوسط والشرق، ويقصدون بها بادية الشام.

(1) - ابن بطوطة: الرحلة، ضبط وتحقيق محمد أحمد جاد المولى وأحمد عبيدلي، ط2، دار الحداثة، بيروت، 1985م، ص 103.

(2) - معجم البلدان، ج5، ص 217.

(3) - المسالك والممالك، ص 21.

(*) - قعيقان: جبل بمكة وجهه إلى أبي قبيس غربي الكعبة، سمي كذلك لأن جرهم كانت تصنع أسلحتها فيه فتقعع، ويقال إن حجارة البيت من قعيقان. الإصطخري: المصدر السابق، ص 22، اليعقوبي: البلدان، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1422 هـ / 2002م، ص 153.

(**) - رضوي: جبل يقع شمال مكة، بين يثرب والبحر الأحمر. النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج 10، طبعة دار الكتب، القاهرة، (د.ت)، ص 111، محمد مبروك نافع: عصر ما قبل الإسلام، ط2، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1952م، ص30.

(4) - المرجع نفسه، ص ص 29-30.

(5) - رحلة ابن بطوطة، ص 103.

(6) - Gustave Le Bon : Op.Cit, p13.

وحسب سامي الأحمد⁽¹⁾: فإن ديودور الصقلي^(*) «Diodorus Siculus» يذهب إلى أن العربية الصحراوية تقع بين مصر وسورية، وأن سكانها من الآراميين والنبط.

2- العربية الصخرية «Arabia Petreae» في الشمال الغربي وكان مركزها سيناء وبلاد الأنباط وعاصمتها البتراء، ويبدو أنها سميت بتلك التسمية نسبة إلى عاصمتها أو إلى طبيعة المنطقة الصخرية.

ويرى البكري⁽²⁾: أن الكتاب اليونان، ومنهم بطليموس^(**)، والكتاب الرومان، ومنهم ديودور الصقلي يقصدون بها شبه جزيرة سيناء، وما يتصل بها من فلسطين والأردن، أي المناطق الواقعة إلى الجنوب، والجنوب الغربي من البحر الميت، وشمال العربية السعيدة.

3- العربية السعيدة «Arabia Felix أو Arabia Felix»⁽³⁾ وهي تسمية أطلقها اليونان والرومان ومنهم سترابون^(***)، تقع في الجنوب الغربي من شبه الجزيرة العربية، وهي أكثر الأقسام الثلاثة اتساعاً،

(1) - نظرة في جغرافية شبه الجزيرة العربية، مجلة العرب، العدد 7، 1969م، ص 599.

(*) - ديودوروس الصقلي «Diodorus Siculus» : (حوالي 80 ق.م - 30 ق.م) مؤرخ يوناني المولد والنشأة، تناولت كتاباته الأساطير والأحداث التاريخية معاً، وقد صنف مجلداً في التاريخ العام (Koinai Historiai)، وفي التاريخ العالمي بعنوان المكتبة التاريخية (Bibliothéké)، وقد استقى معلوماته من مؤرخين أمثال: بوليبيوس Polybius، وهيكتاتئوس Hecatus. عبد اللطيف أحمد علي: مصادر التاريخ الروماني، دار النهضة العربية، بيروت، 1970م، ص ص 60-61، محمد حسين فنطر: الحرف والصورة في عالم قرطاج، أليف، منشورات البحر المتوسط، مركز النشر الجامعي، تونس، 1999م، ص 334.

(2) - معجم ما استعجم: ج4، ص 1401، سامي الأحمد: المرجع السابق، ص 597، جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج1، طبعة جامعة بغداد، 1993م، ص 166.

(**) - بطليموس (كلوديوس): "Ptolemaeus Claudius" (ت 165م) فلكي وجغرافي ومؤرخ يوناني عاش في الإسكندرية في القرن الثاني الميلادي، وعصره بعد عصر أغسطس قيصر المتوفى سنة 14م بمائة وإحدى وستين سنة، وهو من بطليمية "Ptolemais" (المنشأة حالياً بمحافظة سوهاج بمصر)، كتب كتابه "الجغرافيا Geographia" حوالي سنة 150 م، وقد ضمنه جداول لخطوط الطول والعرض للبلدان المختلفة، وأهم كتبه في الفلك "المجسطي". صاعد الأندلسي: المصدر السابق، ص ص 88-90، وينتمي إلى علماء جامعة الإسكندرية القديمة بمصر، كتب في الفترة 121م-151م، باتريسيا كرون Patricia Crone : تجارة مكة وظهور الإسلام، ترجمة أمال محمد الروبي، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2005م، ص 237، محمود محمد محفوظ وآخرون: الموسوعة العربية الميسرة، ج1، ط2، دار الجيل، بيروت، 2001م، ص ص 530-531.

(3) - Strabo :The geography of Strabo, trans.by H.L.Jones, Books I-II, London ,1949, p553, - (H.): Op.cit, p08.

(***) - سترابون: "Strabon" مؤرخ جغرافي إغريقي، ولد نحو 64 - 63 ق.م، انتقل إلى روما في حدود 45 - 44 ق.م، له كتاب يضم 47 جزءاً مع مقدمة حول تاريخ العالم حتى سنة 144 ق.م، منها 17 جزءاً خاصة بالجغرافية، لم يصل الباحثين إلا الجزء السابع منها، وقد عاين بنفسه أحوال العرب الاجتماعية والاقتصادية في شبه الجزيرة العربية =

وتشمل كل المناطق التي دعاها الكتاب العرب- من مؤرخين وجغرافيين- " بلاد العرب"⁽¹⁾. ويلاحظ أن حدودها الشمالية كانت غير ثابتة، تتغير تبعا للظروف السياسية حسب قوة أو ضعف الكيانات السياسية التي تقع إلى شمالها. والواقع أن الجزء الذي يمكن أن يطلق عليه "بلاد العربية السعيدة"، هو الجزء الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية حيث توجد بلاد اليمن، الغنية بمحاصيلها الزراعية المتنوعة، والتميزة باعتدال مناخها، وبكثافة شبكتها الهيدروغرافية من أمطار وأنهار وسدود، وقد أدت هذه الظروف منذ الألف الأول قبل الميلاد إلى قيام كيانات سياسية ومجتمعات مستقرة في تلك المنطقة. ويستنتج الباحث أن الجغرافيين اليونان والرومان قد أخلطوا بين بلاد العرب الصحراوية والصخرية، حيث صعب عليهم تحديد الفاصل بينهما. أما الكتاب العرب فقد قسموا شبه الجزيرة العربية إلى خمسة أقسام، وكان هذا التقسيم مسائرا لطبيعتها الجغرافية وهي:

تهامة والحجاز ونجد والعروض وتسمى أيضا (اليمامة) واليمن⁽²⁾، وأضاف كل من الاصطخري وابن حوقل⁽³⁾ ثلاثة أصقاع هي بادية العراق وبادية الجزيرة وبادية الشام. ويجمل الهمداني⁽⁴⁾ أقوال الجغرافيين العرب عن هذا التقسيم بقوله: " فصارت بلاد العرب من هذه الجزيرة التي نزلوها وتوالدوا فيها على خمسة أقسام عند العرب في أشعارها وأخبارها: تهامة، والحجاز، ونجد، والعروض، واليمن، وذلك أن جبل السراة وهو أعظم جبال العرب وأذكرها، أقبل من قعرة اليمن- أي أقصاه- حتى بلغ أطراف الشام، فسمته العرب حجازا، لأنه حجز بين الغور وتهامة وهو هابط وبين نجد وهو ظاهر، فصار ما خلف ذلك الجبل في غريبه إلى أسياف البحر من بلاد الأشعريين، وعك وكنانة وغيرها، ودونها إلى ذلك عرق والجحفة وما صاقبها، وغار من أرضها: الغور غور تهامة وتهامة تجمع ذلك كله، وصار ما دون ذلك الجبل من شرقيه من صحاري نجد إلى أطراف العراق والسماوة وما يليها: نجدا، ونجد تجمع ذلك كله."

هذا إجمال تقسيم الجزيرة العربية تقسيما طبيعيا كما يراه الجغرافيون العرب، والقسم الذي سأتناوله في هذا البحث هو الحجاز وموقع مكة منه، وأهمية ذلك الموقع بالنسبة للجزيرة العربية.

= من خلال مشاركته في حملة إيليوست جالوس على اليمن سنة 24 ق.م. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب قبل الإسلام، ج1، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، (د.ت)، ص 41.
Marcotte (D) : Dictionnaire de la Civilisation Phénicienne, Brepis, 1992, p 427.

(1) - محمد مبروك نافع: المرجع السابق، ص 51.

(2) - القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص 245.

(3) - المسالك والممالك، ص 21، كتاب صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1979م، ص 29.

(4) - صفة جزيرة العرب، ص 58.

ويتضح مما سبق أن الهمداني قسم بلاد العرب إلى خمسة أقسام، وكان أساس تقسيمه جبال السراة التي اعتبرها أعظم جبال بلاد العرب، وهي سلسلة جبال تمتد من اليمن جنوبا إلى أطراف بادية الشام شمالا، على مدى 1100 ميل تقريبا، وسماها حجازا لأنها تحجز بين المناطق المرتفعة شرقا وهي نجد والمناطق المنخفضة غربا وهي سهول تهامة الساحلية الضيقة. ومما تجدر الإشارة إليه، أن بعض الكتاب العرب أضافوا قسما سادسا هو البحرين- والذي يسمى هجر- وهو في نظر البعض جزء من اليمامة (العروض)⁽¹⁾.

المطلب الثاني: موقع مكة الفلكي:

تتحصر الجزيرة العربية فلكيا بين خطي عرض 32° شمالا، و 12° جنوبا، أي أنها تمتد عشرين درجة من درجات العرض، وبين خطي طول 34° و 58° شرقا- أي شرق خط غرينتش- وبذلك يصبح امتدادها من الغرب إلى الشرق أربعة وعشرون درجة من درجات الطول، وبهذا تأخذ الجزيرة العربية شكلا مستطيلا أكثر اتساعا في الجنوب⁽²⁾. يحدها من الشمال بادية الشام ومن الشرق الخليج العربي وبحر عمان، ومن الجنوب المحيط الهندي، ومن الغرب البحر الأحمر⁽³⁾. ويذكر الهمداني⁽⁴⁾ موقع مكة الفلكي: "عرض مكة ثلاث وعشرون (23) درجة وثلاث، عن الفزاري^(*)، وإحدى وعشرون (21) درجة، عن حبش^(**)، وطولها عن الفزاري، مائة وست عشرة (116) درجة من المشرق، وعن حبش، مائة وعشر (110) درجات، وقال بعض أهل صنعاء: مائة وعشرون (120) درجة وهو الأخرى". ويرى ياقوت الحموي⁽⁵⁾: أن مكة تقع على ثمان وسبعون (78) درجة، من جهة الغرب، وعرضها ثلاثة وعشرون (23) درجة، وقيل إحدى وعشرون (21) درجة تحت نقطة السرطان. وتقع بالنسبة لخطوط الطول على خط أربعين (40) درجة شرقا، وقد حددت الباحثة الدانمركية

(1) - مبروك نافع: المرجع السابق، ص 18.

(2) - محمد بيومي مهران: دراسات في تاريخ العرب القديم، ص 81.

(3) - حلمي محروس إسماعيل: الشرق العربي القديم وحضاراته، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1997م، ص 188.

(4) - صفة جزيرة العرب، ص ص 54-55.

(*) - الفزاري: هو أبو إسحاق إبراهيم بن حبيب الفزاري (ت 160هـ/777م)، فلكي وجغرافي عربي، من ولد سمرة بن جندب، وهو أول من عمل الإسطرلاب. ابن النديم: الفهرست، تحقيق ناهد عباس عثمان، ط1، دار قطري بن الفجاءة، الدوحة، قطر، 1985م، ص 550، ابن الفقيط: تاريخ الحكماء، مكتبة المثنى، بغداد، (د.ت)، ص 270.

(**) - حبش: أحمد بن عبد الله المزوري الحاسب (ت 250هـ/864م)، أحد أصحاب الإرساد والإسطرلابات، جاوز المائة سنة من العمر، له كتاب الإسطرلاب المسطح. المصدر نفسه، ص 554، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ط1، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2001م، ص 136.

(5) - معجم البلدان، ج5، ص 210.

باتريسيا كرون "Patricia Crone"⁽¹⁾ خط الطول الذي تقع عليه مكة بمقدار (39.817 شرقاً). ويتضح مما سبق أن الهمداني وياقوت الحموي يتفقان إلى حد ما في تحديد الموقع الفلكي لمكة، حيث أنها تقع جنوب مدار السرطان الذي تبلغ درجته ثلاثة وعشرون ونصف (23.5°)، وتقع على خط طول أربعون (40) درجة شرقاً-أي شرق غرينتش-.

المطلب الثالث: المناخ في مكة:

ترتفع مكة حسب آراء الجغرافيين المحدثين⁽²⁾ عن مستوى سطح البحر بنحو مائتان وثمانون (280) متراً، ورغم هذا الارتفاع فإن مناخها قاري شديد الحرارة والجفاف صيفاً، معتدل قليل الأمطار شتاءً. وحين تسقط الأمطار تشكل سيولا جارفة تتحدر من الجبال إلى الوديان والشعاب وكثيراً ما لاقت مكة من السيول مصاعب جمّة وكثيراً ما جرفت الكعبة وتسببت في انهدام جدرانها، وقد خلفت أضراراً وخسائر فادحة⁽³⁾. ودفعت الحرارة الشديدة أهل مكة إلى أن يهرعوا إلى الظلال وإلى الأماكن المنعشة، وأكنان الجبال التي تحيط بمكة، يحتمون بها من الحر لذلك كان إبراهيم (عليه السلام) يدعو الله لأن يرزق أهل مكة الثمرات ويجعل تلك البقعة مباركة تهوي إليها الأفئدة من كل الأصقاع. قال تعالى⁽⁴⁾: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفئدةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾.

وهذا ما أعطى أهمية كبرى لجبال مكة، وبما أن مكة كانت شحيحة المياه، هذا ما جعل مهمة السقاية وهي توفير الماء للحجاج فضيلة عظيمة في نظر أهلها⁽⁵⁾، قال الله تعالى⁽⁶⁾: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾.

(1) - تجارة مكة وظهور الإسلام، ص 239.

(2) - عمر رضا كحالة: جغرافية شبه جزيرة العرب، تعليق أحمد علي، ط2، مكتبة النهضة الحديثة، القاهرة، 1964م، ص 148.

(3) - الأزرقى: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق علي عمر، ج 2، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2004م، ص ص 159-163، البلاذري: فتوح البلدان، تحقيق صلاح الدين المنجد، ج1، القاهرة، 1957م، ص 65، المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجواهر، ج2، ط1، تقديم مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ص 271، جواد علي: المرجع السابق، ج1، ص 215، ج4، ص5.

(4) - سورة إبراهيم: الآية 37.

(5) - أحمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق، ص 26.

(6) - سورة النحل: الآية 81.

وهذا ما جعل تلك الحفاوة البالغة التي أسبغت على رواية حفر بئر زمزم بمكة⁽¹⁾. إن الجفاف الذي لحق بلاد العرب عموماً- والحجاز ومكة- على وجه الخصوص، جعل أراضيها جدياً، وانعدمت بها الأنهار إلا من بعض الينابيع والوديان بين مكة وجدة، ويثرب والطائف. لذلك لا تستطيع شبه الجزيرة العربية أن تفاخر بوجود نهر واحد دائم الجريان يصب ماؤه في البحر، وليس في أنهارها الصغيرة ما يصلح للملاحة⁽²⁾.

ويرى بعض الباحثين المحدثين الذين عكفوا على دراسة التغيرات المناخية في شبه الجزيرة العربية، أن التحول في مناخها بدأ منذ حوالي القرن الثالث الميلادي في العربية الجنوبية، وظروف الجفاف التي حلت بها دفعت نحو الإفقار التدريجي، وقد حدث الجفاف النهائي في بداية القرن السادس الميلادي، وأن هذا الجفاف كان له علاقة بالهجرة نحو الشمال. إن هذا التغير في مناخ العربية الجنوبية، قد حدث في العربية الشمالية في نفس الفترة⁽³⁾.

فهي من جملة الأراضي التي تقل فيها الأنهار والبحيرات، وقد أثر ذلك تأثيراً كبيراً على استقرار السكان وعلى الحياة الاجتماعية والسياسية في شبه الجزيرة العربية وعاق نشر المجتمعات الكبرى وقيام الكيانات السياسية، لذلك اعتمدت على النظام القبلي، سواء في البادية، أو حتى في دويلات المدن (Cité - Etat) التي قامت على طرق التجارة كمكة ويثرب وأصبحت القبيلة هي وحدة المجتمع العربي بوجه عام⁽⁴⁾.

وتجري عدة أودية في منطقة مكة، رغم جفافها حيث تتبع من الحرار صوب الشرق والغرب إلى نجد أو إلى تهامة لتصب في البحر الأحمر، ويفصل بينها جبال السراة، وأودية منطقة مكة كثيرة تجري أسفل السراة وتصب في البحر ومنها: واد قنونا، والحسبة، وضنكان، وغشم، وبيشة، وركوب، ونعمان وهو أقرب الأودية إلى مكة وعرفات⁽⁵⁾. وأهمها على الإطلاق وادي فاطمة^(*) الذي يصب

(1) - ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق محمد علي القطب ومحمد الدالي بلطه، ج1، المكتبة العصرية، بيروت، 1998م، ص ص 108 - 112.

(2) - Philip Hitti (K.) : History of the Arabs, London, 1960, p.18.

(3) Huzayyin (S.) : Changement Historique du Climat et du paysage de l'Arabie du Sud, (Bulletin of the Faculty of Arts, University of Egypt), Vol . III, Part .1, May 1935, pp 19-23.

(4) - أحمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق، ص 27.

(5) - ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج3، ص 231.

(*) - وادي فاطمة: ينبع من جبال الدرع العربي شمال مكة ويمتد باتجاه الجنوب الغربي نحو سهل تهامة، ينتهي به وادي السيل ويصب في البحر الأحمر جنوب ميناء جدة، يضم العديد من المواقع الأثرية والمعالم التاريخية التي تعود إلى العصر الآشوري. An Introduction to Saudi Arabian Antiquities : O.p.cit, p.186

جنوب ميناء جدة ويزود مكة ويثرب بالماء⁽¹⁾. ووادي الليث^(*) الذي يعد من أشهر أودية تهامة. ومن أودية الحجاز وادي القرى ويمر به طريق القوافل القديم، وكان عامرا بالمدن والقرى⁽²⁾، ووادي الصفراء وهو واد كثير النخل والزرع في طريق الحاج، بينه وبين بدر مرحلة وعليه قرية "الصفراء" الغنية بنخيلها وزرعها فضلا عن عيون مائها التي تجري إلى ينبع وهي لجهينة والأنصار ولبنى وفهر ونهد ورضوى⁽³⁾. ويقع على بعد 210 كيلومترا من يثرب، أي أن هذا الواد يقع بين مكة ويثرب.

ويلاحظ الباحث أن شبه الجزيرة العربية تختلف من الناحية المناخية، كما تختلف من الناحية الطبيعية، فهناك مناطق جدباء شديدة الحرارة، شحيحة المياه، يعيش أهلها على ما يجلب لها من الخارج، ومن هذه المناطق مكة المكرمة، وهناك مناطق أخرى ذات تربة غنية، وفيرة المياه، وديانا أو أمطارا، وقد تبلغ الأمطار من غزارتها أن تتهدم البيوت، كما هو الحال في يثرب والعربية الجنوبية خاصة في اليمن وعسير حيث تسقط الأمطار الموسمية الغزيرة، الأمر الذي يؤدي إلى حدوث السيول التي تهلك خلقا كثيرا، كما حدث لشعب سبأ بسبب سيل العرم⁽⁴⁾.

تعتبر شبه الجزيرة العربية من أشد البلاد جفافا وحرارة، وربما كان ذلك لوقوعها في منطقة مدارية، حيث أن مدار السرطان يمر في منتصفها تقريبا، وبعدها عن المحيطات الواسعة ومؤثراتها التي تلتطف درجة الحرارة، لأن المسطحات المائية التي تقع إلى الشرق وإلى الغرب منها، - أي الخليج العربي والبحر الأحمر - إنما هي مسطحات ضيقة لا يصل أثرهما إلى المناطق الداخلية، فمتوسط عرضها يتراوح ما بين 120 - 150 ميلا، أما المحيط الهندي الذي يقع إلى الجنوب منها، فإنه ساعد على سقوط الأمطار في الجنوب، وأن مرتفعات حضرموت والربع الخالي تحول دون توغل مؤثراته إلى الداخل⁽⁵⁾.

(1) - محمد بيومي مهران: تاريخ العرب القديم، ج2، ط11، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2004م، ص 22.
(*) - وادي الليث: من أكبر أودية تهامة المشهورة منذ القدم، به عيون لا تزال تتدفق في المنطقة العلوية منه، شرقي قرية "غميقة" على بعد 25 كلم شرقي الليث التي تحمل اسم الوادي، وتقع بلدة "الليث" على بعد 186 كلم جنوبي مكة، وتتبعها إداريا . محمد بيومي مهران: المرجع نفسه، ص 19.

(2) - محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص 22.

(3) - أحمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق، ص 22.

(4) - البلاذري: المصدر السابق، ص 53، المسعودي: المصدر السابق، ج2، ص 271، جواد علي: المرجع السابق، ج1، ص 215.

(5) - محمد بيومي مهران: دراسات في تاريخ العرب القديم، ص 105.

المطلب الرابع: أهمية موقع مكة:

تحتل الجزيرة العربية بموقعها هذا مركزا استراتيجيا واقتصاديا هاما شكّل منها جسرا يربط بين الشرق والغرب، ويضفي على هذه المنطقة أهمية كبرى جعلت سكانها يستفيدون من الحضارات المزدهرة المحيطة بهم مثل: الحضارة الفارسية والحضارة الهندية، وحضارة بلاد ما بين النهرين، والحضارة المصرية في وادي النيل، ثم الحضارة الإغريقية في بلاد اليونان⁽¹⁾.

وقد أصبحت مكة بموقعها الذي يتوسط الشرق والغرب والشمال والجنوب، محطة صالحة للقوافل التجارية القادمة من الشمال تريد اليمن أو القادمة من الشرق تريد الحواضر الحجازية في الغرب ومن أبرزها مكة.

والواقع أن موقع مكة الاستراتيجي، إنما كان من أهم العوامل التي ساعدت هذه المدينة المقدسة لأن تصبح عقدة تتجمع فيها القوافل التي ترد من العربية الجنوبية تريد بلاد الشام، أو القادمة من بلاد الشام تريد العربية الجنوبية⁽²⁾.

ولقد مكّن هذا الموقع أهل في أواخر القرن السادس الميلادي أن يحتكروا التجارة في بلاد العرب وأن يسيطروا على طرق القوافل التجارية التي تربط اليمن بالشام من ناحية وبلاد الرافدين من ناحية أخرى، وهو ذلك الطريق المهم الذي كان يحصل الغرب بواسطته على كل بضائع الهند الفاخرة وطيبوب العربية الجنوبية.

ويخبرنا وات (M.Watt) أن مكة كانت نقطة عبور أساسية للتجارة بين الهند وإفريقيا والبحر المتوسط، وكانت تمثل الطريق الوحيد في ذلك الوقت⁽³⁾.

تؤكد الدراسات الحديثة على موقع مكة الممتاز جغرافيا حيث يتوسط قلب العالم القديم أي الكرة الأرضية، فهي منطقة عبور وملتقى التجار ومركز هام للقوافل التجارية لبلاد الشرق والهند الصينية والملايو وإفريقيا الوسطى والشرق الأقصى، يحملون سلعها إلى بلاد الغرب بالإسكندرية (مصر) وفلسطين وبلاد الشام، ومنها إلى اليونان وإيطاليا وبعض موانئ البحر المتوسط، وهي ما تعرف برحلة الصيف، أما رحلة الشتاء فيجلبون السلع من الشمال إلى الجنوب، ومن شرق إفريقيا ابتداء من الصومال حتى زنجبار، فيحملون سلعها إلى الشمال عبر الجزيرة العربية⁽⁴⁾.

(1) - الطاهر نراع: المجتمع العربي القديم من خلال كتابات أصحاب السير والكتاب القدامى، أطروحة دكتوراه (مخطوط)، إشراف محمد حسين فنطر، جامعة منتوري، قسنطينة، 2002-2003م، ص 4.

(2) - جواد علي: المرجع السابق، ج4، ص 6.

(3) - W.M.(Watt) : Mahomet à la Mecque, Payot, Paris, 1958, p3. ، أحمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق، ص 171.

(4) - عبد الغني عبد الرحمن محمد: مكة أم القرى...لماذا؟، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة، 1990م، ص 113، ويل ديورانت: المرجع السابق، ج2، ص 18.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى الأبحاث العلمية الحديثة التي أثبتت فيما يشبه النظرية الجغرافية أن مكة تقع في مركز اليابس من الكرة الأرضية " أي هي مركز الأرض " وأنها تمثل سرّة الأرض ووسط الدنيا⁽¹⁾.

وخلاصة القول: أن مكة تتميز بموقعها الجغرافي الممتاز الذي يتوسط الساحل الشرقي لبحر القلزم (البحر الأحمر)، كما تتوسط جبال الحجاز وهضبة نجد شمالاً، وسلسلة جبال عسير وهضبة اليمن جنوباً. ورغم وعورة التضاريس ووقوعها في واد غير ذي زرع فإن مكة حباها الله بموقع هام تدبّ فيه الحياة، وجعلها ملتقى ومحطة هامة للقوافل التجارية، فضلاً عن مكانتها الدينية كقابلة تأوي إليها القلوب والأفئدة من مختلف القبائل العربية منذ أقدم العصور إلى اليوم.

المبحث الثاني: أسماء مكة المكرمة

بعد دراسة البيئة الطبيعية لمكة والتي عرّضتُ فيها موقعها الجغرافي والفلكي وأهميته، ومظاهرها الطبيعية المختلفة من جبال وهضاب وأودية، ومناخ وأثره في مكة وأهلها، أعالج في هذا المبحث أسماء مكة ومعانيها المختلفة.

يختلف الإخباريون والمؤرخون في اشتقاق كلمة "مكة"، وقد أوردوا أسماء كثيرة بلغت نحو الثلاثين (30) اسماً⁽²⁾، منها ثمانية أسماء ذكرت في القرآن الكريم، كما ورد ذكرها في السنة النبوية في قوله (صلى الله عليه وسلم) : « إن الله حبس على مكة الفيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنين وإنها لن تحلّ لأحد إن كان قبلي وإنها أحلت لي ساعة في النهار، وأنها لن تحلّ لأحد من بعدي، فلا ينفر صيدها ولا تختلي شوكتها ولا تحلّ ساقطتها إلا لمنشد، ومن قتل له قتيل فهو بخير الناظرين إما أن يفدي وإما أن يقتل»⁽³⁾.

ولا ريب في أن كثرة الأسماء تدل على مكانة وشرف المسمى، فمكة المكرمة أفضل بقاع الأرض، وخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله.

يورد الفلقشندي⁽⁴⁾ تفسير لغوي يشير إلى أن مكة كلمة مشتقة من " إمتك " من قولهم: إمتك الفصيل ضرع أمّه إذا مصّه مصاً شديداً، وامتص جميع ما فيه وشربه كله، ويبدو أن مكة لما كانت مكاناً مقدساً للعبادة فقد امتكت الناس أي جذبته إليها من جميع الأطراف.

(1) - أحمد السيد درّاج: الكعبة المشرفة، ط1، دار العلم والثقافة، القاهرة، 1999م، ص ص 10-14.

(2) - تقي الدين الفاسي: شفاء الغرام في أخبار البلد الحرام، تحقيق مصطفى محمد الذهبي، ج1، ط2، مطبعة النهضة الحديثة، مكة، 1999م، ص 93.

(3) - البخاري: صحيح البخاري، كتاب الحج، باب: لا ينفر صيد الحرم، تحقيق محب الدين الخطيب وآخرون، ج1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1400 هـ، ص 315.

(4) - صبح الأعشى، ج4، ص 242، ابن منظور: لسان العرب، ج10، دار صادر، (د.ت)، ص 490.

ويرى الماوردي⁽¹⁾: " أن مكة مأخوذة من قولهم تمككت المخ من العظم تمككا، إذا استخرجت عنه لأنها عكّ الفاجر عنها، وتخرجه منها، وكان الراجز ينشد في تلييته:

يا مكة الفاجر مكيّ مكا ولا تمكي مذحجا وعكا

ويذكر ياقوت الحموي⁽²⁾ تفسير مكة اللغوي: مكة بالفتح تعني مُكَيْتٌ يده تمكا مكا شديدا، إذا غلظت، والمكاء بتخفيف الكاف والمد: الصغير، من مكا الإنسان يمكو مكوا ومكاء: صفر بفيه، وكانوا يطوفون بالبيت عراة يصفرون بأفواههم ويصفقون بأيديهم، فكأنهم كانوا يحكون صوت المكاء. ويذهب ابن هشام⁽³⁾ إلى أن مكة قبل الإسلام كانت لا تقرّ فيه ظلما، ولا بغيا، ولا يبغى فيها أحد إلا أخرجته فكانت تسمى الناسة، وسميت بكّة لأنها كانت تيك-أي تكسر-أعناق الجبابرة وتذهب نخوتهم إذا أحدثوا فيها شيئا، وقيل أنها تمك الذنوب بمعنى أنها تذهب بها.

وورد في القاموس المحيط⁽⁴⁾: أن مكة اشتق اسمها من " البك" لأنهم كانوا يتباكون فيها أي يزدحمون، فسميت بذلك لازدحام الناس بها في موضع طوافهم، لذلك أنشد عامان بن كعب بن عمرو بن سعد بن زيد مناة بن تميم قائلا:

إذا الشريب أخذته أكه فخله حتى يبك بكّة⁽⁵⁾

ويذهب فريق آخر إلى أن مكة سميت بذلك لأنها تقع بين جبلين مرتفعين عليها وهي في منخفض بمنزلة المكوك⁽⁶⁾، والجبلان هما أبي قبيس في الشرق وجبل الهندي في الغرب. في حين يرى ابن منظور⁽⁷⁾: أن مكة إنما سميت كذلك لقلّة مائها، ذلك أن أهلها كانوا يمتكون الماء فيها أي يستخرجونه.

ويرى جرجي زيدان⁽⁸⁾: أن أصل اسم مكة آشوري أو بابلي لأن " مكا" في البابلية تعني البيت وهو اسم الكعبة عند العرب، ويدل ذلك على قدم هذه المدينة. ويعتقد عمر فروخ⁽⁹⁾: أن اسم مكة يدل على " الوادي" وكلمة " بك" من أصل سامي قديم،

(1) - الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)، ص 199.

(2) - معجم البلدان، ج5، ص ص 210-211، ابن منظور: لسان العرب المحيط، إعداد وتصنيف يوسف خياط، ج3، دار لسان العرب، بيروت، (د.ت)، ص ص 517-518.

(3) - السيرة النبوية، ج1، ص ص 87-88، ابن منظور: لسان العرب، ج10، ص 402، ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج5، ص 210.

(4) - الفيروزآبادي: القاموس المحيط، ج3، دار العلم للجميع، بيروت، (د.ت)، ص 295.

(5) - ابن هشام: المصدر السابق، ج1، ص 88، الماوردي: المصدر السابق، ص 199.

(6) - السيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب في عصر الجاهلية، دار النهضة، بيروت، 1967م، ص346.

(7) - لسان العرب، ج10، ص 491، ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج5، ص 211.

(8) - العرب قبل الإسلام، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1966م، ص 327.

(9) - تاريخ الجاهلية، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، 1964م، ص 109.

ولاحظ أن مدينة بعلبك مثلا من الكلمات المركبة تركيبيا مزجيا من "بعل" وتعني (إله قديم)، و"بك" وتعني (الوادي)، أي إله الوادي، واسم مكة غير بعيد عن هذا المعنى.

وورد في القرآن الكريم ذكر ثمانية أسماء لمكة منها:

- 1- بكة : في قوله تعالى⁽¹⁾: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾.
- 2- أم القرى: قال تعالى في سورة الشورى⁽²⁾: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْاِجْمَاعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾.

كما وردت لفظة أم القرى في آية أخرى في قوله تعالى⁽³⁾: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾، ولعل تسمية مكة بأم القرى إنما تدل على أنها أعظم مدن الحجاز، وأنها أول بيت وضع للناس، جعله الله مثابة وأمنا، ولأنها شرفت بوجود بيت الله ففيه الهدى والبركة والخير الكثير⁽⁴⁾. كما ذكرها بعض المستشرقين من أمثال غوستاف لوبون Gustave le Bon بهذه التسمية⁽⁵⁾.

وقد ورد في تسميتها بأم القرى أربعة أقوال:

- أحدها: أن الأرض دحيت من تحتها وأنها أقدم الأرض⁽⁶⁾.
- وثانيها: لأنها قبلة يؤمها الناس⁽⁷⁾.

(1) - سورة آل عمران: الآية 96.

(2) - سورة الشورى: الآية 7.

(3) - سورة الأنعام: الآية 92.

(4) - سيد قطب: في ظلال القرآن، ج2، ط12، دار الشروق، بيروت، 1986م، ص 1148.

(5) - La Civilisation des Arabes, Op.cit, p16.

(*)- أثبتت الدراسات العلمية الحديثة فيما يشبه النظرية الجغرافية أن مكة في مركز الأرض والكعبة تمثل سرّة الأرض ووسط الدنيا، ومن المعروف - تاريخيا ودينيا- قبل الإسلام وفي الإسلام أن الحجر الأسود هو علامة بدء الطواف حول الكعبة، ويبدأ الطائفون طوافهم جاعلين الحجر الأسود عن يسارهم ويسيرون هكذا في سائر طوافهم حول الكعبة حتى يختتموا طوافهم بالحجر الأسود أيضا، - ماعدا الحمس- وإذا قارنا بين نظرية مركزية الكعبة في مكة المكرمة للكرة الأرضية، وبين عملية الطواف علاوة على دورة الأرض العامة من هذه الناحية لأدركنا سر الطواف صوب اليسار، خلافا للتيا من الذي عليه آداب الإسلام. عبد القدوس الأنصاري: الكعبة أسماء وعمارات ومعبد لا معبودا وتاريخا قبل الإسلام، ط1، مطابع جامعة الملك سعود، الرياض، 1404 هـ/ 1984م، ص ص 124- 125، أحمد السيد دراج : المرجع السابق، ص ص 10-14، محمد بيومي مهران: تاريخ العرب القديم، ج2، ص ص 77- 78.

(6) - الأزرقى: المصدر السابق، ج1، ص9، ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج1، ص 254.

(7) - ابن الجاور: صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسماة : تاريخ المستبصر، تحقيق ممدوح حسن محمد، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1996م، ص14.

وثالثها: لأنها أعظم القرى شأنًا⁽¹⁾، وأقدمها في جزيرة العرب وأعظمها خطرا إما لاجتماع أهل تلك القرى فيها كل سنة، أو لانكفائهم إليها وتعويلهم على الاعتصام بها لما يرجونه من رحمة الله⁽²⁾. وقال ابن دريد⁽³⁾: " سميت مكة أم القرى لأنها توسطت الأرض أو لأن مجمع القرى إليها بل لأنها وسط الدنيا فكأن القرى مجتمعة إليها، وكل مدينة هي أم ما حولها من القرى".
ورابعها: لأن فيها بيت الله الحرام، لذلك سميت أمًا⁽⁴⁾، وكل مدينة هي أم ما حولها من القرى، وقيل سميت كذلك لأنها تقصد من كل أرض وقرية⁽⁵⁾.

وبهذا المعنى وردت في سورة القصص في قوله تعالى⁽⁶⁾: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾ .
3- مكة: في قوله تعالى⁽⁷⁾: ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيكُمْ عَنْهُمْ بَبْئِنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ .

ويذكر ياقوت الحموي⁽⁸⁾: " إنما سميت مكة لأن العرب في الجاهلية كانت تقول لا يتم حجنا حتى نأتي مكان الكعبة فتمك فيه أي نوفر صفير المكاء⁽⁹⁾ حول الكعبة، وكانوا يصفرون ويصفقون بأيديهم إذا طافوا بها".

4- القرية: وردت تسمية مكة بالقرية مرة واحدة في القرآن الكريم في قوله تعالى⁽⁹⁾: ﴿ وَضُرِبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمَنَةً مَطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ .

ولعل اسم القرية هنا اسم لما تجمع جماعة كثيرة من الناس من قولهم: قريت الماء في الحوض

(1) - الفاسي: المصدر السابق، ج1، ص 96، عمر فروخ: تاريخ الجاهلية، ص 36.

(2) - ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج1، ص ص 254-255.

(3) - جمهرة اللغة، تحقيق رمزي منير البعلبكي، ج2، ط1، درا العلم للملايين، بيروت، 1987م، ص 1083.

(4) - أحمد السيد دراج: المرجع السابق، ص 47.

(5) - ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج1، ص 255.

(6) - سورة القصص: الآية 59.

(7) - سورة الفتح: الآية 24.

(8) - معجم البلدان، ج5، ص 211.

(9) - المكاء: بتشديد الكاف : طائر يأوي الرياض، والمكاء : بتخفيف الكاف والمد : الصفير، من مكأ الإنسان يمكو مكوا ومكأ: صفرّ بفيه ، وكانوا يطوفون بالبيت عراة يصفرون بأفواههم ويصفقون بأيديهم . ابن منظور: لسان العرب المحيط، ج3، ص ص 517-518.

(9) - سورة النحل: الآية 112.

إذا جمعته فيه⁽¹⁾.

5- البلدة: وردت هذه التسمية في قوله تعالى⁽²⁾: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ أُعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمْرُهُ وَأَمْرُ مَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

6- البلد الأمين: قال تعالى⁽³⁾: ﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾، وقيل أن مكة والبلد في اللغة الصدر أي صدر القرى⁽⁴⁾.

7- البلد: ذكرت هذه التسمية في سورة البلد إذ قال الله تعالى⁽⁵⁾: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حَلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾، وسميت بذلك تفخيماً لها كالنجم للثريا⁽⁶⁾.

8- معاد: في قوله تعالى⁽⁷⁾: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾، وقد ورد في صحيح البخاري بأن المقصود بمعاد مكة⁽⁸⁾.

وقد حاول الإخباريون أن يفرقوا بين مكة وبكة.

فذكر الأرزقي⁽⁹⁾: أن بكة موضع البيت ومكة القرية والحرم كله، وإنما سميت بكة لأنها تنك أعناق الجبابرة، أو لأن الناس يبك بعضهم بعضاً في الطواف.

ويذهب ابن هشام⁽¹⁰⁾ إلى أن بكة اسم لبطن مكة لأنهم يتباكون فيها أي يزدحمون، أو لأنها تنك أعناق الجبابرة إذا أحدثوا فيها شيئاً.

وقد ذكر الماوردي⁽¹¹⁾: "أن مكة الحرم كله وبكة المسجد".

في حين يرى الطبري⁽¹²⁾: "أن مكة اسم البلد كله وبكة اسم البيت".

(1) - الفاسي: المصدر السابق، ج 1، ص 96، السهيلي: الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية، ج 1، ط 1، دار الفكر، بيروت، 1989م، ص 99.

(2) - سورة النمل: الآية 91.

(3) - سورة التين: الآيات 1-3.

(4) - الفاسي: المصدر السابق، ج 1، ص 97.

(5) - سورة البلد: الآيتان 1-2.

(6) - ابن منظور: لسان العرب، ج 3، ص 94.

(7) - سورة القصص: الآية 85.

(8) - البخاري: المصدر السابق، ج 6، ص 142.

(9) - أخبار مكة، ج 1، ص ص 221-222، الفاسي: المصدر السابق، ج 1، ص 95، النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج 1، مطبعة دار الكتب، القاهرة، (د.ت)، ص 313.

(10) - السيرة النبوية، ج 1، ص 88، الماوردي: المصدر السابق، ص 199.

(11) - الأحكام السلطانية، ص 200.

(12) - جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج 4، دار الفكر، بيروت، 1984م، ص 9.

وأورد أصحاب المعاجم اللغوية ومعاجم البلدان ومنهم ياقوت الحموي وابن منظور⁽¹⁾ أسماء مكة ومنها: مكة وبكة وأم رَّحَم وأم القرى، ومعاد والحاطمة والرأس والناسة والبيت العتيق والباسة والحرم وغيرها.

وذكر أهل الأخبار أن بكة موضع البيت ومكة الحرم كله، فبكة هي الكعبة والمسجد، ومكة ذو طوى وهو بطن الوادي الذي ذكره الله تعالى في سورة الفتح التي سبق ذكرها⁽²⁾.
وقد كانت مكة قبل الإسلام تسمى صلاحاً لأنها، وفي ذلك أنشد حرب بن أمية لأبي مطر الحضرمي يدعو إلى حلفه ونزول مكة:

أبا مطر هلما إلى صلاح فيكفيك الندامة من قريش
وتأمن وسطهم وتعيش فيهم أبا مطر هديت لخير عيش
وتسكن بلدة عزت قديما وتأمن أن يزورك رب جيش⁽³⁾

وصلاح: اسم من أسماء مكة وكانت مكة بلداً لقاحاً واللقاح الذي ليس في سلطان ملك، وكانت لا تغزى تعظيماً لها حتى كان أمر الفجار .

وقد جمع القاضي أبو البقاء ابن الضياء الحنفي أسماء مكة الثلاثين في سبعة أبيات وهي:

لمكة أسماء ثلاثون عددت ومن بعد ذلك اثنان منها اسم بكة
صلاح وكوثى والحرام وقادس وحاطمة البلد العرش بقريّة
ومعطشة أم القرى رحم باسة ونساسة رأس بفتح الهمزة
مقدسة والقادسة ناسة ورأس وتاج وأم كوثى كبيرة
سبوحة عرش أم رحمن عرشنا كذا حرم البلد الأمين كبلدة
كذلك اسمها البلد الحرام لأنها وبالمسجد الأسنى الحرام تسمت
وما كثرة الأسماء إلا لفضلها حباها به الرحمن من أجل كعبة⁽⁴⁾

وأضاف الفاسي⁽⁵⁾ أسماء أخرى لمكة ومنها:

الناسة، والعروض، والسيل، وأم صبح، والرتاج، وحرم الله تعالى، وبلد الله تعالى، وفاران، وطيبة، وقرية النمل، ونقرة الغراب، وقرية الحمس، والحاطمة، والسلام، والعذراء، ونادرة، والوادي، والنجر، والعرش والعرش، والعروش، والحرمة.

(1) - معجم البلدان، ج5، ص 211، لسان العرب، ج10، ص 402.

(2) - الأزرقي: المصدر السابق، ج1، ص 223.

(3) - الماوردي: المصدر السابق، ص 200، المبرد: الكامل في اللغة والأدب، ج2، مكتبة المعارف، بيروت، (د.ت)، ص 306.

(4) - محمد بيومي مهران: تاريخ العرب القديم، ج2، ص 82.

(5) - شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، ج1، ص ص 93-94.

وختلاصة القول: أنّ مكة تتميز بأسمائها المتعددة، وقد عني الكثير من المؤرخين والإخباريين وأصحاب المعاجم والموسوعات بجمعها ومعرفة معانيها، ورغم التباين والاختلاف أحياناً والتوافق أحياناً أخرى في تحديد معاني هذه التسميات، إلا أن الكل يجمع بأن كثرة الأسماء تدل على شرف ومكانة المسمى، فقد كانت مكة أفضل بقاع الأرض على الإطلاق، وأقدم أماكن العبادة منذ بدء الخليقة إلى اليوم، فقد ذكر الأزرقى⁽¹⁾ أن الكعبة كانت غطاء على الماء قبل أن يخلق الله السموات والأرض، وخلق البيت قبل أن يخلق شيئاً من الأرض بألفي سنة، لذلك سميت مكة أم القرى.

المبحث الثالث: نشأة مكة وتطورها:

كانت مكة - دون شك - أهم مواطن الحضرة في الحجاز على الإطلاق، لذا سميت أم القرى⁽²⁾. ولعل تاريخ نشأتها الأولى إنما يعود إلى النبي إبراهيم وابنه إسماعيل (عليهما السلام) وقد سكنها جنس سامي عرف بالاسماعيليين^(*) وهم الذين يسميهم بعض المؤرخين "بني عدنان" ليميزوا بينهم وبين سكان جنوب جزيرة العرب "بني قحطان"⁽³⁾، إلى جانب قبائل عربية عديدة أخرى يعتقد أنها قدمت من الجنوب، لم يذكر المؤرخون معلومات دقيقة عنها، كالعماليق^(**) وجرهم^(***) وخزاعة^(****)، وكان الاسماعيليون يتكلمون باللغة العربية التي عثر فيها الباحثون على نقوش مكتوبة منها، ولعل سبب ذلك

(1) - أخبار مكة، ج1، ص9.

(2) - سورة الأنعام : الآية 92، سورة الشورى : الآية 7، الفاسي : المصدر السابق ، ج1، ص96

(*) - الاسماعيليون : هم العرب سكان الحجاز ينحدرون من نسل إسماعيل بن إبراهيم (عليهما السلام) وإسماعيل هو أول من نطق باللغة العربية وهو ابن أربع عشرة سنة. ابن هاشم: المصدر السابق، ج1، ص8، الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق درويش جويدي، ج3، المكتبة العصرية، بيروت، 1422هـ/ 2001م ، ص 557.

(3) - النويري : المصدر السابق ، ج2 ، ص 278.

(**) -العماليق: (العمالقة) ينسبهم الإخباريون إلى عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح، أمة عظيمة يضرب بها المثل في الطول، تفرقت في البلاد فكان منهم أهل عمان والبحرين، وأهل الحجاز وملوك العراق والجزيرة وأهل الشام وفراغة مصر، وعمليق هو جد العمالقة شقيق طسم وهو أبو العمالقة وأول من تكلم بالعربية حين ظعنوا من بابل فكان يقال لهم ولجرهم العرب العاربة. السويدي: سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995م، ص37، جواد علي: المرجع السابق، ج1، ص ص 345-346.

(***) -جرهم: بطن من بني قحطان، كانت منازلهم باليمن، نزلوا الحجاز مع بني قحطان لقطع أصحاب اليمن، بعد بناء البيت استولت جرهم على أمر مكة، وتزوج إسماعيل منهم وتعلم لغتهم. السويدي: المصدر السابق، ص ص 40-45 ، الهمداني: الإكليل ، تحقيق محمد علي الأكرع الحوالي، ج1، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، 1963م، ص 117.

(****) -خزاعة: قبيلة من الأزدي من القحطانية وهم بنو عمرو بن ربيعة، وهو أبو خزاعة كلها وهو عمرو بن لحي بن قمعة بن إلياس بن مضر، كانت منازلهم بأحاء مكة في مر الظهران، وقد ذكر صاعد الأندلسي بأن خزاعة من ولد قحطان. ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج2، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002م، ص 362، عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، ج1، ط7، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1994م، ص ص 338 - 340.

يعود إلى عدم وجود خط متميز لهم قبل الإسلام⁽¹⁾ - كخط المسند في الجنوب - وربما لأن طبيعة السكان في الحجاز - حياة البدو - لم تكن تميل إلى الكتابة⁽²⁾.

لعل أقدم ذكر لمكة في النصوص القديمة، إنما يعود إلى القرن الثاني الميلادي، وحسب بروكلمان⁽³⁾ أن الجغرافي اليوناني بطليموس (ptolemée) ذكر مدينة دعاها "ماكورابا" Macoraba، ولعل مرد ذلك إلى كلمة "مقرب" العربية الجنوبية ومعناها الهيكل أو "ماكارابا" (مكرب) حسب اللهجة الآرامية الشرقية لا السريانية الغربية، ربما تعني "الوادي العظيم" أو "وادي الرب"، ويكون بطليموس قد أخذ الاسم عن طريق الآراميين⁽⁴⁾.

وقد ذهب الباحثون إلى أن المدينة المذكورة هي مكة المكرمة، وإذا كان هذا الرأي صحيحا يكون بطليموس أول من أشار إلى مكة من المؤرخين وأقدمهم على الإطلاق. ويرى بعض الباحثين المحدثين أن لفظة "Macoraba" لفظة عربية أصابها بعض التحريف ليناسب النطق اليوناني، فأصلها "مكربة" أي مقربة من التقريب، ذلك أن ملكة سبأ القديمة كان حكامها كهانا أي رجال دين حكموا الناس باسم آلهتهم وكان الواحد منهم يلقب بلقب "مكرب" أي "مقرب" في اللغة العربية فهو أقرب الناس إلى الآلهة⁽⁴⁾.

وحسب جواد علي⁽⁵⁾ فإن ديودور الصقلي (Diodorus Siculus) ذكر معبدا شهيرا في أرض قبيلة عربية دعاها (Bizomeni)، ويبدو أنه يعني بهذا المعبد "بيت مكة"، وقال أنه معبد مقدس وله حرمة بين جميع العرب، وأن الموضع الذي يوجد به هو مكة. ويلاحظ الباحث أن هذا الرأي يفقد

(1) - ابن هشام : المصدر السابق ، ج 1 ، ص 71 ، الأصبهاني: كتاب الأغاني، تحقيق لجنة من الأدباء، ج 19، ط 6، دار الثقافة، بيروت، (د، ت)، ص 94، صاعد الأندلسي: المصدر السابق، ص 124،

Encyclopedie de l'Islam , 2 Edit., Tome I , p429 (Art.Amâlik).

(2) - النويري: المصدر السابق ، ج 2، ص 278 ، حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992م ، ص ص 25 - 26، عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسي للدولة العربية ، ج 1 ، ط 4، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1967م، ص 77 .

(3) - تاريخ الشعوب الإسلامية، ص 31، عمر فروخ: تاريخ الجاهلية، ص 109، باتريسيا كرون: المرجع السابق، ص 235 - 236 ، W.M. Watt : Op.cit , p 17 ،

(*) - الآراميون: من العناصر السامية التي استقرت في منطقة الهلال الخصيب وخاصة المنطقة الواقعة بين بلاد ما بين النهرين وشمال ووسط سورية ويشكل الآراميون الموجه الثالثة من موجة الهجرات السامية التي انطلقت من شبه الجزيرة العربية في منتصف الألف الثانية قبل الميلاد. لطفي عبد الوهاب يحي: العرب في العصور القديمة، ط 2، دار النهضة العربية، بيروت، 1979م، ص 60، نجيب ميخائيل إبراهيم: مصر والشرق الأدنى القديم، ط 2، دار المعارف بمصر، 1964م ، ص 32.

(4) - جواد علي: المرجع السابق، ج 4، ص 9.

(5) - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 4، ص 10، أحمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق، ص 87.

إلى دليل مقبول ومنطقي، ذلك أن هذا الموضع الذي ذكره ديودور بعيد عن مكة يقع في (حسمى) (*) في مكان دعاه ألويس موسل (Alios Musil) باسم (روافة) أو (غوافة) حيث بنت قبيلة ثمود(**) في أواخر القرن الثاني الميلادي، معبدا هناك.

وإذا صح أن (Macoraba) هي مكة فمعنى ذلك أن المدينة كانت مقدسة ولها شهرة كبيرة بين العرب في القرن الثاني الميلادي، وإذا كانت كذلك فهذا يعني أنها كانت موجودة قبل عصر بطليموس، إذ لا يعقل أن يلمع اسمها وتنتال هذه الشهرة، وتصل أخبارها إلى اليونان دون أن يكون لها عهد سابق للقرن الثاني الميلادي.

وحسب بيومي مهران⁽¹⁾ أن بعض المستشرقين أمثال الألماني دوزي (Dozy(R.))^(***) يرى أن تاريخ مكة يرتقي إلى أيام داود (عليه السلام) ففي أيامه -على رأيه- أقام الشمعونيون أو (السمعونيون) نسبة إلى شمعون بن يعقوب والذين يسميهم الإخباريون جرهم، الكعبة في القرن العاشر قبل الميلاد. وحسب رأيي، ومن خلال المصادر والمراجع التي اطلعت عليها أن هذه أكذوبة تاريخية كبرى، ذلك أن قبيلة بني شمعون لم تهجر أبدا إلى مكة، وكل ما ورد عنها في التوراة أنها هاجرت على أيام حزقيا ملك يهوذا^(****) إلى الجنوب الغربي من واحة معان، واستقرت في الجنوب الغربي لجبل سعير حيث قضت على بقايا وجيوب صغيرة للعمالق هناك، ثم أن قبيلة شمعون كانت أضعف

(*) -حسمى: بكسر أوله وبالميم المقصورة، موضع من أرض جذام يقال أن الماء بقي به بعد نضوب الماء في الطوفان ثمانين سنة وبقيت منه بقية إلى اليوم، وهي القسم الشمالي من الحجاز ويقال لها أيضا مدين نسبة إلى السلسلة الجبلية المسماة بهذا الاسم، وهي أرض خصبة كثيرة المياه بها جبل يقال له (ارم) ويعتقد بعض المستشرقين أن له علاقة بموضوع ارم الوارد ذكره في القرآن الكريم. البكري: معجم ما استعجم، ج2، ص ص 446-447، جواد علي: المرجع السابق، ج1، ص ص 167-168.

(**) -ثمود: قوم من العرب البائدة بعد قوم عاد، كانوا يسكنون الحجر بين الشام والحجاز، هلكوا بالصيحة الواحدة والرجفة فأصبحوا في ديارهم جاثمين مما يدل على انفجار بركاني شديد صحبته الزلزلة، ولما هلكوا قيل ثمود ارم، كانوا ينحتون بيوتهم في المرتفعات الحجرية على جانبي الوادي. ابن خلدون: كتاب العبر، ج2، ص11، عمر فروخ: تاريخ الجاهلية، ص 47، البكري: المصدر السابق، ج2، ص 426.

(1) - دراسات في تاريخ العرب القديم، ص 353.

(***) -دوزي (Dozy (R.)) : (1820م - 1883م) مستشرق هولندي من أصول فرنسية اشتهر بأبحاثه في تاريخ العرب في إسبانيا، وبمعجمه "تكملة المعاجم العربية"، يتقن عدة لغات كالعربية والعبرية والكلدانية والسريانية، له دراسة نقدية لترجمة "رحلة ابن بطوطة"، نشر وترجم "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" للإدريسي سنة 1866م. عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين، ط3، دار العلم للملايين، بيروت، 1993م، ص ص 259-263.

(****) -يهوذا (715 ق.م - 687 ق.م): تعود أصول هذا الاسم إلى أحد الأسباط، يهوذا بن يعقوب بن إسحاق، أمه ليا وهو الابن الرابع بعد روبيل وشمعون ولاوي، وقد سمي أحفاده ببني يهوذا أو اليهوديون. اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج1، ط6، دار صادر، بيروت، 1995م، ص 30، سفر التكوين: 29: 35.

القبائل الإسرائيلية حتى عشية وفاة النبي سليمان (عليه السلام) وانقسام مملكته إلى دولتين: مملكة يهوذا ومملكة إسرائيل سنة 922 ق.م، فالرأي هذا إذن يعارض الحقائق التاريخية.

وتتجه آراء بعض المستشرقين ومنهم " كوسان ده برسيغال" ^{(1)(*)} إلى أن تاريخ مكة إنما يعود إلى القرن الأول قبل الميلاد، اعتمادا على آراء ديودور الصقلي - السابقة الذكر - من وجود معبد أقيم في قبيلة عربية دعاها (Bizomeni)، ويستدل أصحاب هذا الرأي بأن وصف ديودور للمعبد الذي كانت تحج إليه القبائل العربية جميعا لا ينطبق إلا على الكعبة، بالرغم من أنه لم يذكر اسم المعبد ولا تاريخ بنائه إلا أن الوصف ينطبق على الكعبة وأنه قصدتها بالذات.

وحسب باتريسيا كرون ⁽²⁾ فإن المؤرخ أميانوس ماركيلينوس ^(**) Ammianus Marcellinus قد ذكر اسم مدينة مقدسة هو (Hierapolis) أي بالصفة التي اشتهرت بها، وربما كان يقصد مكة.

ويرى بعض المؤرخين العرب المحدثين أن تأسيس مكة إنما يعود إلى منتصف القرن الخامس الميلادي ⁽³⁾، ومن ثم فإنه يتأخر عن تاريخ بنائها من قبل إبراهيم (عليه السلام) بنحو ثلاثة وعشرون قرنا، طبقا لروايات الإخباريين التي تذهب إلى أن مكة لم يكن بها بناء غير الكعبة ^(***) إلى أن تولى أمرها قصي بن كلاب ^(****)، وكانت مكة في زمن حكمه تتألف في معظمها من أكواخ وبيوت من

(*) - كوسان ده برسيغال "Caussin de Perceval" : (1759م - 1835م) مستشرق فرنسي كان مدرسا للغات الشرقية في باريس في شبابه، ثم أستاذا في الكولاج دي فرانس، أهم أعماله ترجمات من اليونانية، أو من العربية إلى الفرنسية، أهم مؤلفاته: "بحث في تاريخ العرب قبل الإسلام"، ويقع في ثلاث مجلدات (باريس 1847م). عبد الرحمن بدوي: المرجع السابق، ص 488.

(1) - Caussin de Perceval : Essai sur l'histoire des Arabes avant l'Islamisme, Tome.I, Paris, 1847, p 174.

(2) - المرجع السابق، ص 235.

(**) - أميانوس ماركيلينوس : ولد عام 330م مؤرخ روماني وضع قائمة لسبع مدن عربية من العربية الجنوبية ليس من بينها اسم مكة أو ماكورابا. المكان نفسه.

(3) - حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، ج1، مكتبة النهضة العربية، القاهرة، 1966م، ص45، سيد أمير علي: مختصر تاريخ العرب، ترجمة عفيف البعلبكي، ط2، دار العلم للملايين، بيروت، 1967م، ص7.

(***) - الكعبة: اسم مشتق من التكعيب أي التربيع، والكعبة هي البيت المربع والبيت الحرام ، وكان عند العرب قبل الإسلام ثلاث كعبات منها: كعبة نجران ، وكعبة الطائف، وكعبة مكة، وعند ابن سيده: " الكعبة الغرفة ". ابن منظور: المصدر السابق، ج1، ص 718، ج13، ص 77.

(****) - قصي بن كلاب بن مرة (400م - 480م) : هو الجد الرابع للرسول (صلى الله عليه وسلم)، يكنى أبا المغيرة واسمه زيد وقيل يزيد وسمي قصيا لأن أمه فاطمة بنت سعد لما تأيمت من كلاب بن مرة وقصي في حجرها صغيرا تزوجها ربعة بن حرام العذري وسار بها إلى الشام، ونشأ مع أخواله بني كلب في باديتهم بعيدا عن عشيرته فسمي قصيا، ولما كبر عرف حقيقة نسبه وأنه قرشي وليس عذريا، عاد إلى مكة، وجمع قبائل قريش وبعث حقه في ولاية البيت الحرام - إرثا من جده إسماعيل - لذلك سمي مجمعا فقال فيه الشاعر:

الشعر، فأعاد قصي بناء الكعبة، ثم بدأ الناس بينون مساكنهم بالحجارة حول الكعبة، لأن جرهم وخزاعة قبل ذلك - فيما زعموا- لم تكن لديهم رغبة في إقامة بيوت بجوار البيت الحرام⁽¹⁾.

وكان الإخباريين أرادوا أن يبينوا أن مكة عاشت على بداوتها منذ أن أقام بها إسماعيل (عليه السلام) في القرن التاسع عشر قبل الميلاد إلى أن أصبح أمرها بيد قصي بن كلاب في منتصف القرن الخامس الميلادي، وفي ذلك على ما اعتقد غير منطقي.

والحقيقة أنه يتعذر على الباحث تحديد تاريخ نشأة مكة بدقة، والزمن الذي أصبحت فيه بلداً، وأغل الظن أنه يعود إلى آلاف السنين قبل الميلاد، وإذا كان بدء سكنى هذا الوادي يرجع إلى أيام إبراهيم وابنه إسماعيل (عليهما السلام) فمعنى ذلك أن تاريخ نشأة مكة إنما يعود إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر قبل الميلاد⁽²⁾، فمن المعروف تاريخياً ودينياً أن إبراهيم (عليه السلام) أتى بولده إسماعيل وزوجته هاجر إلى هذه البقعة التي ذكرها القرآن الكريم في قوله تعالى⁽³⁾: ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾، ومن المعلوم أن النبي إبراهيم (عليه السلام) كان يعيش في الفترة (1940 ق.م - 1765 ق.م)⁽⁴⁾، وأنه رزق بولده إسماعيل (عليه السلام) وهو في السادسة والثمانين (86) من العمر⁽⁵⁾، فيكون إسماعيل قد ولد في عام 1854 ق.م، ولما كان قد عاش 137 سنة⁽⁶⁾، كما تذكره أغلب المصادر ومن ثم يكون قد توفي في عام 1717 ق.م، أي أنه عاش خلال الفترة (1854 ق.م - 1717 ق.م).

وذكر بعض الإخباريين⁽⁷⁾ أنه شارك أباه في بناء الكعبة وعمره ثلاثون سنة تصديقا لقوله

= أبوكم قصيا كان يدعى مجمعا به جمع الله القبائل من فهر

ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة، 1948م، ص ص 11-12، السويدي: المصدر السابق، ص 296، ابن خلدون: كتاب العبر، ج 2، ص ص 343-362، ابن هشام: المصدر السابق، ج 1، ص ص 90-91، ابن كثير: البداية والنهاية، وضع حواشيه أحمد ملحم، ج 2، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2001م، ص ص 205-224.

(1) - اليعقوبي: المصدر السابق، ج 1، ص 197.

(2) - جورجى زيدان: العرب قبل الإسلام، ص 328.

(3) - سورة إبراهيم: الآية 37.

(4) - محمد بيومي مهران: بنو إسرائيل، ج 3، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1999م، ص 144.

(5) - سفر التكوين: 16: 16.

(6) - ابن كثير: البداية والنهاية، ج 1، ص 234، ابن خلدون: كتاب العبر، ج 2، ص 46.

(7) - المسعودي: مروج الذهب، ج 2، ص 22، الأزرقى: المصدر السابق، ج 1، ص ص 40-41.

تعالى⁽¹⁾: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ . ومعنى ذلك أن بناء الكعبة يكون قد تمّ وحدث حوالي عام 1824 ق.م، وأن مكة تكون قد عمّرت منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر قبل الميلاد، وهذا ما يجعلها واحدة من أقدم مدن بلاد العرب الشمالية والجنوبية على حد سواء.

عاش إسماعيل بجوار البيت الحرام وتزوج امرأة مصرية حسب رواية التوراة⁽²⁾، ومن امرأة يمنية من قبيلة جرهم وهي الثالثة حسب رواية الإخباريين⁽³⁾، وولدت له اثني عشر ولدا ذكرا، وظل إسماعيل يدعو الناس إلى عبادة الله في مكة وجوارها، إلى أن وافاه الأجل ودفن في الحجر مع أمه هاجر، ثم ولي البيت بعده ابنه نابت وأقام ولده بمكة مع أخوالهم الجراهمة⁽⁴⁾.

وطبقا لروايات الإخباريين فإن جرهم سرعان ما تولت أمر البيت، ولم ير أبناء إسماعيل (عليه السلام) أن ينازعوا أخوالهم الأمر، إلى أن قدمت قبائل الأزدي مهاجرة من اليمن، ونازعت إحدى قبائلهم وهي خزاعة قبيلة جرهم فأخرجتها وطردتها من مكة ورجعوا إلى ديارهم باليمن إلى أن هلكوا⁽⁵⁾.

فتفرق أبناء إسماعيل في أنحاء شبه الجزيرة العربية وخاصة في شمالها واكتسبت القبائل العربية أسماء أبناء إسماعيل وأحفادهم، ويعتبر تاريخ بني إسماعيل من هذه الفترة حتى عهد قصي بن كلاب غامض غموضا شديدا، ولا يعرف حتى المؤرخون العرب كيف يملئون فراغ هذه القرون الطويلة. وهذا لا يمنع من أنهم ذكروا أن الذين قاموا على الحكومة والبيت في مكة بعد أولاد إسماعيل هم الجراهمة أخوالهم ومن بعدهم الخزاعيون⁽⁶⁾.

ويذكر الإخباريون أنه في القرن الثاني الميلادي أخذت قبائل يمنية تهاجر نحو الشمال بعد تصدع سد مأرب، ومن هذه القبائل قبيلة خزاعة- الذين تأخروا عن بقية القبائل التي اتجهت نحو الشام- التي أقامت في مكة واستطاعت أن تحل محل الجراهمة في القرن الثالث الميلادي وصاروا سادة مكة قرابة مائتي سنة⁽⁷⁾.

(1) - سورة البقرة: الآية 127.

(2) - سفر التكوين: 21:21

(3) - المسعودي: مروج الذهب، ج2، ص ص20-25، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج1، دار صادر، بيروت، 1982م، ص ص 105-125، ابن كثير: البداية والنهاية، ج1، ص 234، ابن خلدون: كتاب العبر، ج2، ص 43.

(4) - الأزرقى: المصدر السابق، ج1، ص ص 55-56، ابن خلدون: المصدر السابق، ج2، ص 46.

(5) - المصدر نفسه، ج2، ص ص 34-35، مبروك نافع: المرجع السابق، ص 165.

(6) - الأزرقى: المصدر السابق، ج1، ص ص 82-87، الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج2، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت، 1991م، ص 284، ابن خلدون: كتاب العبر، ج2، ص ص 232-235، الفاسي: المصدر السابق، ج2، ص

ص 48-54، مبروك نافع: المرجع السابق، ص ص 165-166.

(7) - مبروك نافع: المرجع السابق، ص ص 165-166.

بلغ قصي بن كلاب مبلغ الرجال، وعرف نسبه بأنه قرشي وليس عذريا (من بني عذرة)، فعاد إلى مكة وطالب بإرث جده إسماعيل في ولاية البيت، واستطاع في منتصف القرن الخامس الميلادي إزاحة خزاعة وتولي أمر البيت بعد حرب خاضتها قريش ضد خزاعة، وتذكر بعض روايات المستشرقين أن قصيا استنجد في هذا الصراع بإخوته لأمه من بني عذرة في الشام وأن القيصر إنما أعان قصيا على خزاعة⁽¹⁾. وانضمت كنانة إلى قريش وانضم بنو بكر إلى خزاعة، وظلت الحرب بين الفريقين سجالا حتى تداعى القوم للصلح، وحكموا بينهم واحدا من كنانة فقضى لقصي بولاية الكعبة وحكم مكة.

فأصبح رئيسا للجمهورية المكية وزعيما لديانتها كما يذكر بعض المستشرقين⁽²⁾. ومن ثم فقد اجتمعت لقصي السقاية والحجاجة والرفادة واللواء ودار الندوة وهي أمور لم تجتمع لرجل من قبله⁽³⁾. أي أنه أصبح في شخصه كل الوظائف الرئيسية دينية كانت أم مدنية (سياسية)، فكان ملك العرب ورئيسها الديني الأعلى⁽⁴⁾.

ولعل كل هذه الأحداث التي دارت حول شخصية قصي كانت سببا في أن يذهب بعض المستشرقين - كعادتهم في الشك والظن بكل ما له علاقة بالتاريخ العربي - إلى اعتبار قصي شخصية خيالية، بل وذهبوا إلى أبعد من ذلك، حيث اعتبروا قريشا قبيلة كانت تعيش حال البداوة، فكيف لها أن تنتقل إلى مرحلة الحضارة وتترجم الجزيرة العربية، وتنشئ لها من التنظيم السياسي والاقتصادي والديني ما يكفل لها هذا التقدم، فلا بد أن تكون قريش قبيلة قدمت من الشمال، وربما كانت قبيلة من بقايا الأنباط^(*) بعد أن قضى الرومان على دولتهم في أوائل القرن الثاني الميلادي، واستدلوا في ذلك بأن قريشا كانت قد برعت في الميدان التجاري، الذي ك الأنباط قد برعوا فيه من قبل، وأن اللغة العربية لغة قريش إنما هي لغة شمالية لها علاقة وطيدة باللغة النبطية أكثر منها لغة

(1) - Lammens (H.) : La Mecque à la veille de l'Hégire , Beyrouth, 1924, p289.

(2) - Lammens (H.): La république marchande de la Mecque, Beyrouth, 1906, p425

(3) - ابن هشام: المصدر السابق، ج1، ص ص 94-95، أحمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق، ص ص 99-100.

(4) - مبروك نافع: المرجع السابق، ص 169.

(*) - الأنباط: شعب من العرب الشماليين، سكن بادية الشام جنوب سورية (الأردن حاليا)، أقاموا دولتهم حوالي القرن الثاني ق.م عاصمتها بطرا "pétra" باليونانية، والعرب سموها "سُلع" كانت مركزا لانتقاء القوافل وسوقا تجارية هامة، ظلت دولتهم قائمة إلى أن قضى عليها القائد الروماني "تراجان" Trajanus حوالي 106 ق.م، وأصبحت تعرف باسم "Provincia Arabia". المسعودي: التنبيه والإشراف، مطبعة بريل، ليدن، 1893م، ص 36، جواد علي: المرجع السابق، ج3، ص47، عبد المنعم ماجد: المرجع السابق، ص ص 84 - 86، أنوليمان ("Littman (E.): "محاضرات في اللغات السامية، أسماء وأعلام"، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مج 10، ج2، 1948م، ص41.

جنوبية⁽¹⁾.

ويلاحظ الباحث أن هذه مزاعم قد جانبها الصواب وفيها الكثير من التحامل على التاريخ العربي عامة وعلى تاريخ مكة على وجه التحديد.

والحقيقة أن هؤلاء المؤرخين قد أغفلوا أن هناك ما يثبت بأن البيت الحرام منذ أن بناه إبراهيم وولده إسماعيل (عليهما السلام) بقي في أيدي أبناء هذا الأخير، ثم في يد جرهم أخوالهم أجيالا متعاقبة إلى أن جاءت قبيلة خزاعة وهي قبيلة يمنية قدمت من بلاد عرفت الحضارة والتمدن والاستقرار وشؤون الحكم قرونا عديدة إلى مجيء قصي بن كلاب في منتصف القرن الخامس الميلادي، وأن مكة بحكم موقعها الجغرافي الذي يتوسط طريق القوافل من اليمن إلى الشام وإلى الحيرة، وعن طريق بحر القلزم، ومعنى ذلك أنها كانت تتصل بتجارة العالم، ولا يمكن أن نغفل علاقات التأثر والتأثير من خلال المعاملات والعلاقات التجارية.

والدليل على ذلك أن القرآن الكريم أطلق على مكة اسم "أم القرى" ولاشك أن مكة كانت قبل نزول القرآن الكريم حاضرة كبيرة، وكانت تتمتع بمكانة مرموقة ومركز محترم من سائر القبائل العربية وإلا لما ذكرها القرآن الكريم⁽²⁾.

ثم أن ما جاء به المستشرقون ليس بجديد فقريش ترتبط بالأنباط بصلات القرى، أما اللغة العربية فإنها لم تتطور من اليمن مباشرة وإنما جاءت نتيجة تطور من العربية القديمة إلى الآشورية إلى الأرامية إلى النبطية إلى القرشية⁽³⁾.

قام قصي بعدة إصلاحات منذ أن انتزع ولاية البيت من خزاعة وأصبح سيد مكة الأول، فبعد أن جمع القرشيين المنتشرين في نواحي متعددة إلى وادي مكة، فظفر بذلك بلقب "المجمع"⁽⁴⁾، وفي ذلك يقول الشاعر:

أبوكم قصيا كان يدعى مجمعا به جمع الله القبائل من فهر⁽⁵⁾.

(1) - Watt (W.M.): Op. cit, p 4, Lammens (H.): La Mecque à la veille de l'hégire, p 148.

(2) - أحمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق، ص 96.

(3) - فيليب حتي : المرجع السابق، ص 108 - 109 .

(4) - محمد مبروك نافع : المرجع السابق، ص 168

(5) - السويدي: المصدر السابق، ص 296.

وميز بين قريش البطاح^(*)، وقريش الظواهر^(**) وجعل لكل بطن حيا خاصا به على مقربة من الكعبة⁽¹⁾، حتى تكون منازلهم بجوار البيت فيتعهدونه بالصيانة ويدفعون عنه الخطر، ولم يترك بين الكعبة والبيوت إلا بمقدار ما يسمح بالطواف، وكان الناس قبل ذلك لا يجروون على البناء بجوار البيت والكعبة لقدسيتها وحرمتها⁽²⁾.

ولما حاز قصي على شرف قريش كلها ، بنى لنفسه دارا أو قصرا جعل بابه يؤدي إلى الكعبة مباشرة سمي "دار الندوة" أو "دار الجماعة"⁽³⁾: "لأنهم كانوا ينتدون فيها، فيتحدثون ويتشاورون في حروبهم وأمورهم ويعقدون الألوية ويزوجون من أراد التزويج"⁽⁴⁾.

فكانت دار الندوة دار مشورة في أمور السلم والحرب وفيها تجري عقود الزواج والمعاملات وهي دار حكومة أيضا يديرها "الملا"^(***) وكان لا يدخلها من قريش أو غيرهم إلا من بلغ الأربعين سنة، وكان مباحا لأولاد قصي دخولها جميعا⁽⁵⁾.

(*) - قريش البطاح: هي عامة بطون قريش وكانت تسكن مكة نفسها وكان منهم التجار وكبار الأثرياء وهم بنو عبد مناف وبنو عبد الدار وبنو عبد العزى وبنو زهرة وبنو مخزوم وبنو تميم وبنو مرة وبنو جمح وبنو سهم وبنو عدي وبنو عتيك بن عامر. ابن الأثير: المصدر السابق، ج2، ص 13، وقد نزلوا بطحاء مكة بين الأخشيين (جبلي مكة) وأصبحوا حضرا. عمر فروخ: تاريخ الجاهلية، ص 112 ، Lammens(H.) : Les Sanctuaires Préislamiques dans l'Arabie Occidentale, Impri. Catholique , Beyrouth , 1926 , p 56.

(**) - قريش الظواهر: سكنوا خارج مكة ومنهم بنو الحارث والحارث بن فهر وبنو الأدرم بن غالب بن فهر، وبنو هصيص بن عامر بن لؤي. ابن خلدون: كتاب العبر، ج2، ص 59، وسكنوا ضواحي مكة وكانوا بدوا. عمر فروخ: المرجع السابق، ص112 . Lammens(H.) : Op.cit , p 56 .

(1) - المسعودي: مروج الذهب، ج 2، ص 57.

(2) - محمد مبروك النافع: المرجع السابق، ص 168.

(3) - الطاهر ذراع : المجتمع العربي القديم من خلال كتابات أصحاب السير والكتاب القدامى، ج2، ص41، السيد أمير علي: المرجع السابق، ص 11 ، الفيروزآبادي: المصدر السابق، ج4، ص 154.

(4) - البلاذري: أنساب الأشراف، تحقيق رمزي البعلبكي، ط1، الشركة المتحدة للتوزيع، بيروت، 1997م، ص52، اليعقوبي: المصدر السابق، ج1، ص197.

(***) - الملا: هم زعماء الأسر وأصحاب الرأي في مكة، ولا يقل عمر أحدهم عن 40 سنة، عدا قصي وأبناءؤه وهم يمثلون دار الحكومة والمشورة ومجلس القبيلة. ابن منظور: المصدر السابق، ج 1،

ص ص 154-155، عبد المنعم ماجد: المرجع السابق، ص 81، الفيروز آبادي: المصدر السابق، ج1، ص 28.

(5) - الأرزقي: المصدر السابق، ج1، ص207، ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج1، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، 1989م، ص ص 39-40، الفاسي: المصدر السابق، ج2، ص ص 86-88، أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ج1، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، (د.ت)، ص80.

وقد ذهب بعض المستشرقين إلى تشبيه أعضاء الملأ إلى حد ما بأعضاء مجلس الشيوخ الأثيني "الإكليزيا - Ekklesia" (1) وأشار البعض الآخر إلى تركيبة الملأ التي تتألف من رؤساء العشائر وأصحاب الرأي والحكمة للنظر فيما يعترض القوم من مصاعب (2).

ويستند النظام السياسي الذي حكم مكة قبيل الإسلام إلى الأسس الأرستقراطية التي تتميز بالجمع بين الإدارة والسياسة والتجارة والدين والحرب، يتولى فيه كبار التجار مهام لتسيير الحكم في حين تتقاسم بطون قريش المناصب الأخرى ذات الصلة بهذه الوظائف وهذا النوع من الحكم يشبه نظام الشورى في بعض جوانبه (3).

ومن أهم أعمال قصي أنه استحدث المناصب والوظائف الآتية:

1- السدانة(*) : أو الحجابة وهي خدمة الكعبة (4). وكان صاحبها يحجب الكعبة أي يحمل مفاتيحها لا يفتحها إلا هو ولا تقام شعائر دينية إلا بإذنه، وكانت السدانة لبني عبد الدار (5). ويبدو أن قصيا كانت له السلطة الروحية إلى جانب السلطات التشريعية والحربية والمالية - إذا جاز هذا التعبير - من خلال ترأسه لدار الندوة السابقة الذكر.

2- السقاية: والمقصود بالسقاية تدبير الماء وحمله من آبار مكة المجاورة في المزاد والقرب ووضعها في أحواض لسقاية الحجيج، ومازال ذلك الشأن حتى أعيد حفر زمزم في عهد عبد المطلب (6).

وكان العديد من آبار مكة قد حفر في عهد قصي (**) وفي عهد عبد شمس (***) إلى أن أعاد

(1) - ول ديورانت: المرجع السابق، ج11، ص 277، Watt(W.M.): Op . cit, p 9.

(2) - O' Leary (De Lacy): Arabia before Muhammad , London, 1927 ,p 183.

(3) - جورجى زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي، ج1، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، (د.ت)، ص31.

(*) - السدانة: هي خدمة بيت الصنم، أو من يخدم الكعبة، والقائم بها يسمى سادن، وجمعها سدنة، والحجاب جمع حاجب وهو البواب الذي يحمل مفاتيح الكعبة. ابن هشام: المصدر السابق، ج1، ص87.

(4) Lammens (H.) : L'Arabie Occidentale avant l'Hégire, Imprimerie Catholique , Beyrouth, 1928, p 107.

(5) - الأرزقي: المصدر السابق، ج1، ص137، محمد مبروك نافع: المرجع السابق، ص 169

(6) - الفاسي: المصدر السابق، ج2، ص ص 88-89.

(**) - من الآبار التي حفرها قصي بئر العجول بمكة. أحمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق، ص 104، وكان موضعها في دار أم هاني بنت أبي طالب بالحزورة. الأرزقي: مصدر سابق، ج1، ص 83.

(***) - من الآبار التي حفرت في عهد عبد الشمس بئر رم وبئر خم وكانا في ضواحي مكة. الأرزقي، مصدر سابق، ج1، ص ص 82-83 ، ابن هشام: المصدر السابق، ج1، ص 113، ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج1، ص ص 254-259.

عبد المطلب حفر زمزم^(*)، وفي بعض الأحيان كان الماء يحلى بشيء من التمر أو الزبيب لما فيه من ملوحة⁽¹⁾، وكانت السقاية في بيت هاشم⁽²⁾.

3- الرفاذة: وهي إطعام الحجيج في أيام الحج، وقد فرض قصي منذ منتصف القرن الخامس الميلادي خرجا على قريش تخرجه من أموالها وتدفعه إليه فيصنع به طعاما يقدمه للحجاج في أيام عرفات ومنى، وقد قال لقريش: "يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل الحرم وأن الحجاج ضيفان الله وزوار بيته وهم أحق الضيف بالكرامة، فاجعلوا لهم طعاما وشرابا أيام هذا الحج حتى يصدروا عنكم"⁽³⁾.

ويبدو أن هذا العمل الذي كان يقوم به قصي ينطوي على حنكة وحكمة سياسية بارعة، فإمداد الحجاج بالطعام يدفعهم إلى القدوم إلى مكة، وفعلا فقد حققت الرفاذة الاحترام لقريش، وبوأت لها مكانة ومنزلة كبيرة بين القبائل العربية، مع أن هذه الوظيفة ليست مستحدثة، فقد ذكر الإخباريون أن عمرو بن لحي زعيم خزاعة كان يطعم الحجاج وقالوا أنه ربما كان يذبح أيام الحج عشرة آلاف بدنة وكسى عشرة آلاف حلة في كل سنة تقريبا، وكان يطعم العرب ويحيس لهم الحيس بالسمن والعسل ويلت لهم السويق^(**)⁽⁴⁾ وكانت الرفاذة لبني عبد العزى ثم بني نوفل ثم في بني هاشم⁽⁵⁾.

4- الراية: وهي من الوظائف الرئيسية في عهد قصي، يجتمع إليها المحاربون، وكانت لقريش راية تسمى "العقاب" فكانوا إذا أرادوا الحرب أخرجوها، فإذا اجتمع رأيهم على واحد سلموه إياها وكانت الراية لبني عبد الدار⁽⁶⁾.

5- القيادة(اللواء): وهي قيادة الجيش في الحرب، وقد كان يتولاها قصي بنفسه أو ينيب عنه أحد من قريش ممن يتولاها، وهي إمارة الركب كذلك حيث يسير صاحبها أمام الركب أثناء خروجهم للقتال أو التجارة، وكانت القيادة في أبي سفيان وهو من بطن بني أمية⁽⁷⁾.

(*) - ردم بئر زمزم بعد اكتشافه في عهد النبي إبراهيم وزوجه هاجر وابنها إسماعيل في القرن التاسع عشر قبل الميلاد. الطاهر نزار: المجتمع العربي القديم، ج2، ص 42، دفن زمزم منذ أيام جرهم وأعيد حفرها في عهد عبد المطلب بن هاشم في أواخر القرن السادس الميلادي. بيومي مهرا: تاريخ العرب القديم، ج2، ص 127.

(1) - المكان نفسه.

(2) - محمد مبروك نافع: المرجع السابق، ص 177.

(3) - الأزرقى: المصدر السابق، ج1، ص 155، مبروك نافع: المرجع السابق، ص 177.

(**) - السويق: طعام يصنع من الحنطة والشعير المدقوق يخلط بالسمن والعسل يقدم للحجيج. السهيلي: المصدر السابق، ج1، ص 102.

(4) - ابن كثير: البداية والنهاية، ج2، ص 205.

(5) - جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي، ص 30.

(6) - أحمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق، ص 106.

(7) - المكان نفسه، جرجي زيدان: المرجع السابق، ص 30.

6- دار الندوة : وهي الدار التي بناها قصي في منتصف القرن الخامس ميلادي، بجانب الكعبة للشورى، وكانت ملاصقة للمسجد الحرام من ناحية الجهة الشمالية من الكعبة، وسميت الندوة لأنهم كانوا إذا حزبهام أمر دخلوها للتشاور⁽¹⁾، والندوة الجماعة، ودار الندوة دار الجماعة⁽²⁾. ورئيس دار الندوة يعتبر رئيس الجمعية الوطنية وكبير مستشاري الدولة، لا تصدر قریش عن أمر إلا بموافقته وكان يرأسها قصي بنفسه ثم انتقلت لابنه عبد الدار ثم إلى أحفاده⁽³⁾.

هذه هي المناصب الرئيسية الستة التي برزت في عهد قصي والتي اقتسمها فيما بعد أبناء عبد الدار و أبناء عبد مناف وهما ابني قصي، لكن تطلع البطون القرشية إلى المشاركة في شؤون مكة. والحق أن حرص المأ على وحدة القبيلة أدى إلى إرضاء العشائر باستحداث عشر مناصب أخرى، إلا أنها أقل أهمية ومكانة من المناصب الرئيسية المذكورة آنفاً، وهذه المناصب هي :

أ- العمارة: وتتمثل في السهر على حرفة البيت بمنع الناس من الرفث ومراعاة الأدب والوقار في البيت الحرام فلا يتكلم فيه بهجر ولا ترفع فيه الأصوات.

ب- الحجابة: وتعني أن صاحبها يتولى مهمة قفل البيت وفتحه للزائرين .

ج- المشورة: وهي أنهم لا يجتمعون على أمر حتى يعرضوه على صاحبها.

د- القبلة : وهي خيمة إذا خرجوا للحرب تجمع فيها الأسلحة.

هـ- الأيسار: وهي الأزام ويضرب بها عند هبل كبير الأصنام في جوف الكعبة⁽⁴⁾.

و- الأثناق: "الديات" وهي الأحوال والمغارم التي تجمع بين الحرب إذ يقدرن الخسائر ويدفعون ما يتوجب دفعه للمتضررين.

ز- السفارة: وهي مهمة الاتصال بالقبائل الأخرى للتفاوض أو لاستتفارهم في حالة الحرب.

ح- الأعنة: وهي قيادة الخيل أثناء الحروب وكانت لخالد بن الوليد.

ط- الأموال المحجرة: وهي أحوال كانت تخصص لألتهم وكانت في بني سهم.

ك- الحكومة: ومهمتها الفصل في الخصومات والمنافرات بين الناس⁽⁵⁾.

وقد استمرت هذه المناصب إلى قبيل ظهور الإسلام، وكانت توكل إلى البطون وليس إلى الأفراد، وكل بطن يرشح من يراه أهلاً لذلك المنصب وتتوفر فيه شروط القيادة والرياسة، على أن

(1)-البلاذري: أنساب الأشراف، ص52.

(2)-الألوسي: بلوغ الأدب في معرفة أحوال العرب، ج1، ط3، دار الكتاب العربي، القاهرة، (د،ت)، ص248، السيد أمير علي: المرجع السابق، ص11.

(3)-أحمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق، ص102، مبروك نافع: المرجع السابق، ص172.

(4)-الطاهر ذراع: المجتمع العربي القديم...، ج1، ص43.

(5)-ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج2، تقديم خليل شرف الدين، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1999م، ص ص

جميع هذه المناصب كانت من صميم التنظيم القبلي، إلا ما كان منها متصلاً بالكعبة والبيت الحرام. وقد ظلت الوظائف الستة الرئيسة بيد قصي حتى وفاته حوالي عام 480م، ولعل في جمعه لرياسة الندوة وعقد اللواء وجمعه الرفادة ما يقابل في الاصطلاحات الحديثة السلطات التشريعية والحربية والمالية، علاوة على السلطة الروحية من خلال إشرافه على السدانة والحجاجة، وهذا ما دفع ربما الأب هنري لامنس^(*) إلى القول بأن مكة كانت جمهورية بالمعنى الكامل للجمهورية، وأنها تشبه في تسييرها النظم الجمهورية الحديثة⁽¹⁾.

ويلاحظ الباحث في النظام السياسي بمكة أن تنظيمات قريش لم تكن في الواقع إلا تنظيماً قبلياً في جوهره، وإن بدا في ظاهره تنظيماً جمهورياً، ومما دفع لامنس لأن يذهب هذا المذهب ربما يعود إلى شخصية قصي الفذة وتأثيره في قريش والسيطرة على كل المناصب والوظائف التي تمثل مفاتيح لتسيير شؤون مكة.

وقبل أن يدركه الموت أقام قصي أكبر أبنائه عبد الدار خليفة له، وكان يؤثره على بقية أبنائه، فتمتع بما كان يتمتع أبوه من قبل، أي إشرافه على الندوة والحجاجة واللواء والرفادة والسقاية⁽²⁾. ويبدو أن قصياً أثر عبد الدار بهذه المناصب لأنه أكبر أبنائه.

ويرى اليعقوبي⁽³⁾ أن قصياً كان قد قسم مهام مكة بين ولده، فجعل السقاية والرياسة لعبد مناف^(**) ودار الندوة لعبد الدار، والرفادة لعبد العزى، وحافتي الوادي لعبد قصي. وأما الأزرقى⁽⁴⁾ فيرى أن قصياً قسم المناصب الستة بين ابنه عبد الدار وعبد مناف، فأعطى عبد الدار السدانة والحجاجة ودار الندوة واللواء، وأعطى عبد مناف السقاية والرفادة والقيادة.

(*) - لامنس (هنري) "Lammens (H.)" : (1862 - 1937م) مستشرق بلجيكي وراهب يسوعي شديد التعصب ضد الإسلام، تفقّر أبحاثه إلى الأمانة والنزاهة في البحث، كان يدير " مجلة المشرق " بعد وفاة لويس شيخو 1927م، انحصرت كتاباته حول السيرة النبوية، الخلافة الأموية وتاريخ سوريا وآثارها، ومنها: مهد الإسلام Le Berceau de l' Islam ، 1914م، مدينة الطائف العربية عشية الهجرة La Cité Arabe de Taif à la veille de l'Hégire ، 1922م، مكة عشية الهجرة La Mecque à la veille de l'Hégire ، 1924م، غربي الجزيرة العربية قبل الهجرة L'Arabie Occidentale avant l'Hégire ، 1928م، المعابد قبل الإسلام في غربي الجزيرة العربية . Les Sanctuaires préislamiques dans l'Arabie occidentale . ص ص 503 - 505.

(1) - Lammens (H.) : La république marchande de la Mecque , p 425.

(2) - ابن هشام: المصدر السابق، ج1، ص100، البلاذري: أنساب الأشراف، ص53.

(3) - تاريخ اليعقوبي، ج1، ص199.

(**) - عبد مناف: ولد حوالي 430م، محمد بيومي مهران: تاريخ العرب القديم، ج2، ص106.

(4) - أخبار مكة، ج1، ص80.

ويبدو أن الأرجح ما ذهب إليه ابن هشام، ذلك أنه لما هلك قصي أجمع بنو عبد مناف وهم: عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل، على أن يأخذوا ما بأيدي بني عبد الدار ورأوا أنهم أولى منهم لهذا الشرف، فانقسمت بطون قريش وحلفائهم وجيرانهم إلى معسكرين: معسكر يعاضد بني عبد الدار ومعسكر يعاضد بني عبد مناف، وأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيبا فوضعوها لأحلافهم في المسجد عند الكعبة، فوضعوا أيديهم فيها، فتعاهدوا فسموا حلف المطيبين⁽¹⁾، وتعاهد بنو عبد الدار ومن معهم وتحالفوا فسموا الأحلاف⁽²⁾، وأجمع كل من الفريقين للحرب ثم تداعوا للصالح على أن تكون:

- السقاية والرفادة لعبد شمس بن عبد مناف.

- الحجابة والندوة واللواء في بني عبد الدار.

وظلوا على هذا النحو خلال المرحلة القديمة⁽³⁾. وقد تنازل عبد شمس لأخيه هاشم بن عبد مناف (حوالي 464م - 510م)، عن منسبي الرفادة والسقاية اللذين آلا إليه، وكان هاشم غنيا لامتهانه التجارة، مما أعانه على إطعام الفقراء والحجاج طيلة موسم الحج⁽⁴⁾.

ويذكر الطبري⁽⁵⁾ أن هاشم رحل إلى فلسطين واشترى كميات من الدقيق وقدم بها مكة، وسمي بالهاشم لهشمه الثريد ودعوة الجياح إلى قصاعه، فكان أول من أطعم الثريد بمكة.

ومما يروى عنه أنه كان أول من نظم لمكة رحلتي الشتاء والصيف، الأولى كانت إلى اليمن والحبشة، والثانية كانت إلى الشام الكتابة⁽⁶⁾.

وكانت قوافل قريش (مكة) أشبه بالحمالات تتكون من آلاف الإبل التي يقوم على حراستها جيش خاص يعرف بالأحابيش⁽⁷⁾.

(1) - ابن هشام: المصدر السابق، ج1، ص ص 100-101، ابن الأثير: المصدر السابق، ج1، ص184،

Watt (W.M.): Op.cit,p 42

(*)- يذكر عمر فروخ أن هذه التحالفات وقعت حوالي 515 م. تاريخ الجاهلية، ص 121.

(2) - البلاذري: أنساب الأشراف، ص56، ابن هشام: المصدر السابق، ج1، ص 101، الفاسي: المصدر السابق، ج2، ص76،

Watt (W.M.): Op.cit, p 40

(3) - ابن هشام : المصدر السابق، ج1، ص 101.

(4) - محمد مبروك نافع: المرجع السابق، ص 171.

(5) - تاريخ الرسل والملوك، ج2، ص ص 251-252.

(6) - ابن هشام: المصدر السابق، ج1، ص104.

(**) - الأحابيش: وردت عدة آراء عن أصلهم فمنهم من يرى أنهم حلفاء قريش ومن يرى أنهم سمو بذلك لتجمعهم فالتجمع في العربية هو التحبيش، ورأي آخر يرى أنهم من السودان كانوا يدافعون عن قريش أو أنهم من العرب الذين كان يستأجرهم أشراف مكة في حالة الحرب والسلام. ابن قتيبة: كتاب المعارف، ج1، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987م، ص302.

(7) - الواقدي: كتاب المغازي، تحقيق مارسدن جونس، ج1، ط3، عالم الكتب، بيروت، 1984، ص270، =

وقد يصل قوام القافلة الواحدة إلى 1500 بعير شاهد سترابون إحداهما فقال إنها أشبه بجيش سائر، إذ يرافقها حراس يتراوح عددهم ما بين 200-300 مسلح⁽¹⁾.

لذلك حسده ابن أخيه أمية بن عبد شمس على رياسته وإطعامه الحاج وقد حاول أن يصنع مثله لكنه عجز فشتمت به قريش. وتنافر هو وهاشم وانتهى الأمر بجلاء أمية عن مكة مدة عشرين سنة، الذي رحل إلى الشام، فكان أول خلاف بين بني هاشم وبني أمية⁽²⁾.

وقد عقد هاشم حفيد قصي بنفسه العهود والمواثيق مع رؤساء وحكام الدول المحيطة بمكة التي تقصدها قوافلهم، وتلك المواثيق هي التي تخول لهم حق المرور في أراضيهم والاتجار فيها، وتوفير الأمان لها، وهذا هو الإيلاف^(*) الذي ورد ذكره في القرآن الكريم في قوله تعالى⁽³⁾: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾.

وقد أدرك أبناء عبد مناف، أن مكة محطة هامة على طريق القوافل، وأن نقل التجارة بين البلدان المختلفة هو سبيلهم الوحيد إلى تحصيل الرزق الكريم، وأن ازدهار التجارة يحتاج إلى أمن داخلي وإلى صلات حسنة بالدول المجاورة من أجل ذلك أخذوا لقومهم العصم⁽⁴⁾ (جمع عصمة) أي المنع والأحلاف والحبال ومعنى ذلك أن سادة قريش أخذوا وعدا وميثاقا من الدول المحيطة بهم، وهذا ما عرف بالإيلاف⁽⁵⁾ (أي العهد وشبه الإجازة بالخفارة).

وهكذا عقد أبناء عبد مناف اتفاقيات أمن وحسن جوار مع الدول المحيطة بمكة ومنها:

1- حصل هاشم بن عبد مناف على عهد من الغساسنة والروم في الشام على المتاجرة في أرض الدولة البيزنطية⁽⁶⁾.

Lammens (H.) : Les Ahabiches et l'organisation militaire de la Mecque au siècle de l'Hégire, J.A.VII, 1916, p p 425-482. =

(1) - أحمد أمين: فجر الإسلام، ص 26. Dermenghem (E.) : La vie de Mahomet, Paris, 1929, p29.

(2) - اليعقوبي: المصدر السابق، ج1، ص242، ابن الأثير: المصدر السابق، ج2، ص ص 16-17، عبد المنعم ماجد: المرجع السابق، ج1، ص ص 103-104.

(*)-الإيلاف: أورد المفسرون واللغويون معاني متعددة للإيلاف منها: المؤالفة والجمع والتقريب والاعتقاد على الرحلتين أو مؤالفة الإقامة والاجتماع بمكة في جوار الحرم، وقد يعني الاتفاقات والعهود أو الحماية والحلف الذي يضمن الأمن. ابن منظور: المصدر السابق، ج1، ص 133، الفيروآبادي: المصدر السابق، ج3، ص 118، سيد قطب: المرجع السابق، ج6، ص 3982.

(3) - سورة قريش: الآيتان 1-2.

(4) - صالح درادكة: "إيلاف قريش ملاحظات حول عوامل السيادة المكية قبل الإسلام"، دراسات تاريخية، العددان 17 - 18، آب - تشرين الثاني، جامعة دمشق، سوريا، 1984م، ص ص 52-53.

(5) - الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج2، ص252.

(6) - المصدر نفسه، ج2، ص12، أبو علي القالي: كتاب الأمالي، ج3، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)، ص 199، ابن منظور: المصدر السابق، ج1، ص 133.

وقد ذكر أوليري⁽¹⁾ في هذا السياق أنه كان للبيزنطيين بيوت تجارية في مكة تستخدم للشؤون التجارية وللتجسس على أحوال العرب.

2- وأخذ عبد شمس حبلا(عهدا) من النجاشي ملك الحبشة، وأبرم معه اتفاقا مماثلا للذي أبرمه أخوه مع الروم، ومنذ ذلك الوقت أصبحت الحبشة لقريش وجها ومتجرا⁽²⁾.

3- حصل أحد رجال مكة وهو نوفل بن عبد مناف على عهد مماثل من كسرى للمتاجرة في بلاد فارس والماندرة في العراق⁽³⁾، وكان ذلك في نفس الوقت الذي حصل فيه إخوته على عهود من الحبشة والروم واليمن .

4- وعقد المطلب بن هاشم اتفاقا مع الحميريين في اليمن على أن تقوم قريش بالمتاجرة في أراضيهم، ومنذ أوائل القرن السادس الميلادي اتصلت تجارة قريش باليمن⁽⁴⁾.

ورث عبد المطلب بن هاشم^(*) زعامة أبيه هاشم بن عبد مناف الذي توفي بغزة من أرض الشام حوالي 579م وأصبح سيد قريش الأول، وتولى السقاية والرفادة بعد عمه المطلب الذي توفي باليمن (حوالي 520م)، وتميز عهد عبد المطلب بأمر كثيرة وهامة في تاريخ مكة حدثت في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي لعل أهمها: إعادة حفر زمزم، وافتداء أصغر أبنائه عبد الله الذي ولد حوالي 545م ، والد الرسول(صلي الله عليه وسلم) بمائة من الإبل، وحملة أبرهة الحبشي على مكة عام 570م⁽⁵⁾، والتي تعد من أخطر الأحداث في تاريخ مكة قبيل الإسلام .

وقد ذكر المستشرق أوليري⁽⁶⁾ أن عهد عبد المطلب يعد من أزهى فترات تاريخ مكة قبل الإسلام، فلقد نشطت التجارة في عهده، وازدهرت مكة حتى أصبحت مركزا للصيرفة يمكن أن يدفع فيها التجار أثمان السلع التي ترسل إلى بلاد بعيدة، وكان يتم التأمين على المتاجر وهي تجتاز الطرق المحفوفة بالمخاطر .

ولعل أهم حدث في عهد عبد المطلب، وفي تاريخ مكة بل وفي تاريخ البشرية جمعاء إنما هو ميلاد الرسول الأعظم محمد(صلي الله عليه وسلم) عام الفيل⁽⁷⁾.

(1) - O'leary (De Lacy):Op.cit,p184.

(2) - الأصبهاني: المصدر السابق، ج8 ، ص52، عمر فروخ: تاريخ الجاهلية، ص113.

(3) - ابن هشام: المصدر السابق، ج1، ص150، الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج2، ص12.

(4) - اليعقوبي: المصدر السابق، ج1، ص ص 242-243، ابن كثير: البداية والنهاية، ج2، ص ص 171-172.

(*) - عبد المطلب بن هاشم: عاش من سنة 497م إلى سنة 579م. محمد بيومي مهران: تاريخ العرب القديم، ج2، ص122، مبروك نافع: المرجع السابق، ص183.

(5) - مبروك نافع: المرجع السابق، ص ص 174-175، جواد علي: المرجع السابق، ج3، ص ص 77-78.

(6) - O'leary(De Lacy):Op. cit, p 182.

(7) - Blachere (R.) : Le problème de Mahomet , presses universitaires de France, Paris, 1952, - (7) p 15, Caussin De Perceval : Op.cit, p 283

وخلصة القول أن مكة منذ آل أمرها إلى قريش على أيام قصي بن كلاب وطرده إلى لخزاعة، أصبحت أهم مركز للحياة الدينية في الحجاز، وفي كامل شبه الجزيرة العربية، وكانت ترعى الأشهر الحرم بسبب وجود الكعبة المشرفة، ومركز مكة الممتاز في تجارة العرب، لذلك بدت مكة في أواخر القرن السادس الميلادي وكأنها عاصمة لشبه الجزيرة العربية كلها.

الفصل الثاني:

مكة ودورها الثقافي في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام

المبحث الأول: اللغة

المبحث الثاني: الكتابة

المبحث الثالث: الشعر

المبحث الرابع: النثر والقصص (أيام العرب)

المبحث الخامس: الأسواق

إن حضارة كل أمة إنما هي تطور لحضارات الأمم التي سبقتها، فقلما نجد أمة من الأمم في نطاق التاريخ أنشأت لنفسها حضارة خاصة بها بعيدة عن التأثير بالحضارات التي سبقتها ولا بالأمم التي تعاصرها في الزمان.

وإذا كانت الثقافة هي المحتوى الفكري والفني للحضارة والتي يقصد بها ذلك الكل المعقد الذي يشتمل على المعارف والمعتقدات والأخلاق والقانون والدين والتقاليد والأساطير والفنون، فإن ثقافة العرب القدامى هي نتاج تاريخهم الطويل الذي تمتد جذوره إلى مئات السنين قبل الميلاد، وتتألف هذه الثقافة من معارف علمية ونشاطات عملية اكتسبها العرب من تجاربهم اليومية أو من احتكاكهم بالشعوب والأمم المحيطة بهم، والتي سبقتهم في ميدان الحضارة والإبداع.

سأتناول في هذا الفصل الدور الذي لعبته مكة في الميدان الثقافي في شبه الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام من حيث اللغة والكتابة والأدب شعرا ونثرا والأمثال والقصص، والمؤسسات الثقافية الأخرى كالأسواق والنوادي التي لعبت دورا لا يستهان به في إبراز ثقافة العرب قبل الإسلام.

المبحث الأول: اللغة:

إن اللغة مظهر من مظاهر الحياة العقلية عند العرب قبل الإسلام، وإذا كانت الثقافة هي نتاج تاريخ العرب، فإن اللغة هي الأداة المعبرة عن هذه الثقافة ومعلم من معالمها البارزة، وأن أية لغة هي حصيلة اجتماعية ونتاج التاريخ الاجتماعي وليس ثمة إمكان لوجود أي لغة خارج نطاق المجتمع⁽¹⁾.

هناك تعريفات كثيرة للغة عرفتها الدوائر العلمية المختلفة في شتى الحضارات، ويعد تعريف ابن جني⁽²⁾ من التعريفات الدقيقة إلى حد بعيد، قال: "حد اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"، وهذا تعريف دقيق يتناول الجوانب المميزة للغة، فذكر الطبيعة الصوتية للغة، ثم وظيفتها الاجتماعية في التعبير ونقل الفكر، وأنها ميزة خاصة بكل مجتمع، فلكل قوم لغتهم.

أما ابن خلدون فيقول⁽³⁾: "أن اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده، وتلك العبارة فعل لساني ناشئ عن القصد بإفادة الكلام، فلا بد أن تصير ملكة منقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان، وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم"، ثم يستطرد فيقول: "اللغة ملكة في اللسان وكذا الخط صناعة ملكتها اليد"⁽⁴⁾.

ويلاحظ الباحث أن هذه التعاريف تؤكد الطبيعة الصوتية، ووظيفتها الاجتماعية وتنوع البيئة اللغوية من مجتمع إنساني لآخر.

(1) - الطاهر زراع: المجتمع العربي القديم من خلال أصحاب السير والكتاب القدامى، ج2، ص255.

(2) - الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، ج1، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت، (د.ت)، ص33.

(3) - المقدمة، ص469.

(4) - المصدر نفسه، ص468.

فاللغة العربية هي إحدى اللغات السامية، وقد تشعبت ونبتت في أرض واحدة، فلما خرج الساميون من مهدهم، اختلفت لغتهم الأولى بالاشتقاق والاختلاط، ومع الزمن انقسمت إلى عدة لهجات، وأصبح لكل قبيلة أو عشيرة لغة مستقلة بها⁽¹⁾. وقد تفرعت اللغة العربية منذ القدم إلى السنة ولهجات نتيجة تكاثر شعوبها واختلاف مواطن الناطقين بها، وتهيأ لها من أسباب البيئة وتنوع الحياة الدينية والسياسية والثقافية والاقتصادية، ما جعلها تتلون بطبيعة الوسط الذي تعيش فيه وتتكيف حسب مقومات المحيط الذي يحيط بها⁽²⁾. ويحتمل أن تكون اللغة العربية هي اللغة السامية الأم، لأنها أدق اللغات السامية نظاماً وأوسعها قاموساً وأشملها قواعداً، وأرقاها أدباً⁽³⁾.

وقد قسم علماء اللغة العربية على تعدد واختلاف لهجاتها إلى مجموعتين:

1- لغة الجنوبيين: وهي العربية القحطانية⁽⁴⁾، فقد حل القحطانيون بشمال الجزيرة العربية بعد سيل العرم⁽⁵⁾، وتفرقوا في أرجائها واتصلوا بالعدنانيين وكانت بينهم صلات تجارية وسياسية مما قرب بين اللغتين في الألفاظ والتجانس في المنطق، وبقي الأمر على هذه الحال حتى القرن السادس الميلادي.

2- لغة الشماليين: وهي التي تكلمت بها القبائل العدنانية⁽⁵⁾، ولكل مجموعة لهجات محلية متباينة، فسكان الحجاز كانوا يتكلمون لهجات مختلفة، ولغات متباينة قلّ من يفهمها عن الآخر، وبعضها بعيد عن الآخر بعدا كبيرا⁽⁶⁾.

يتعذر على الباحث أن يكشف أطوار النشأة الأولى للغة العربية، لأن التاريخ لم يسايرها إلا وهي في مرحلة الشباب والنماء. إن ما يوحى بقدم اللغة وما بلغت من رقي يجب أن يكون نتيجة تطورات مرت بها عبر العصور الموهلة في القدم، وقد مرت بثلاث مراحل حتى وصلت إلينا في هذه الصورة التي هي عليها اليوم، وهي:

(1) - أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب العربي، ط4، دار المعرفة، بيروت، 1997م، ص15،
Bertram Thomas : Les Arabes , Payot, Paris, 1946, p 22.

(2) عبد الحلیم النجار: " في اللهجات العربية وأصول اختلافها"، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مج15، ج1،
ماي1953م، ص35.

(3) عمر فروخ: تاريخ الجاهلية، ص24.

(4) - James Février (G) : Histoire de l'écriture, Payot, Paris, 1959, p280.

(5) - سيل العرم: وقع التهدم الثاني لسد مأرب بين سنتي 542 م و 570 م، وحسب الأصبهاني فإن هذا الحادث وقع قبل الإسلام بحوالي أربعمئة سنة. محمد الخطيب: حضارة العرب في العصور القديمة، ط1، دار طلاس، دمشق، سوريا، 2005م، ص66، عمر فروخ: المرجع السابق، ص75.

(6) - James Février (G) : Op, cit, p280 .

(6) - برهان الدين دلو: جزيرة العرب قبل الإسلام، ج1، دار الفارابي، بيروت، 1989م، ص202.

1-المرحلة الأولى: يذكر الجاحظ⁽¹⁾: " إن إسماعيل (عليه السلام) كان أول من نطق بالعربية، وأنه أول من فتق لسانه بالعربية المبيّنة وهو ابن أربع عشرة سنة، وقد ألهم الله سبحانه وتعالى إسماعيل العربية إلهاما، وبعثه بلغة قومه الذين كانوا أول من فهم عنه ثم أصبحوا حجة على غيرهم، وأضاف من لغة جرهم إلى لغة قومه، وبذلك انطلق لسانه، فكأن تهذيب اللغة العربية إنما يعود إلى عهد إسماعيل (عليه السلام) "، وفي هذا السياق قال تعالى⁽²⁾: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾.

2-المرحلة الثانية: تبدأ بخروج أبناء إسماعيل (عليه السلام) وانتشارهم بين القبائل والأخذ بلهجاتهم مما أدى إلى تطوير اللغة وتهذيبها، فأخذت هذه القبائل عن بعضها البعض نتيجة الاحتكاك والمخالفة، لاسيما في الأسواق التي يقصدونها للتسوق وللمقارنة بالقول والمفاوضة في الرأي والمبادهة بالشعر والمباهاة بالفصاحة⁽³⁾، فنشأت بذلك من اللغتين لغة ثالثة هي العربية الفصحى.

3-المرحلة الثالثة: وتتمثل في دور قريش والتمكين للهجتها.

وقد اختلفت آراء المستشرقين في هذه اللهجة التي كان الشعراء في العصر السابق للإسلام ينظمون بها شعرهم، وهي لهجة أدبية فصحى تسمو عن لهجات القبائل المختلفة في البلاد العربية. وحسب شوقي ضيف⁽⁴⁾ فإن المستشرق الألماني نولدكه^(*) (Th.) Noldeke يرى أن الاختلافات بين اللهجات كان في الأجزاء الأساسية من جزيرة العرب مثل الحجاز ونجد وإقليم الفرات، وقد تركبت من لهجاتهم جميعا هذه اللهجة الفصحى (العربية). وذهب بروكلمان^(**) (5) Brockelmann (C.) إلى أن الفصحى كانت لغة فنية قائمة فوق اللهجات وإن غدتها جميعا.

(¹) - البيان والتبيين، ج3، ص 557، ابن كثير: البداية والنهاية، ج1، ص 157.

(²) - سورة إبراهيم: الآية 4.

(³) - أحمد حسن الزيات: المرجع السابق، ص17.

(⁴) - العصر الجاهلي، ص131.

(*) - نولدكه: (Th.) Noldeke: (1836-1931) شيخ المستشرقين الألمان، يتقن ثلاث لغات سامية: العربية- السريانية- والعبرية، وله إلمام باللغتين الفارسية والتركية، حصل على الدكتوراه سنة 1856م برسالة عن "تاريخ القرآن" وعمره لا يتجاوز 20 سنة، اهتم بدراسة الشعر العربي القديم، والنحو العربي، والنحو المقارن للغات السامية، عين أستاذا للغات السامية في جامعة كييل سنة 1864م ثم في جامعة استراسبورغ سنة 1872، توفي عن عمر يناهز 94 سنة. عبد الرحمن بدوي: المرجع السابق، ص 595.

(**) - بروكلمان: (C.) Brockelmann (1868م- 1956م) مستشرق ألماني درس اللغة الآرامية والسريانية وأصدر المعجم السرياني سنة 1895م ، يتقن إحدى عشر لغة شرقية، من أبرز مؤلفاته : تاريخ الأدب العربي 1898م، وتاريخ الشعوب الإسلامية1939م. عبد الرحمن بدوي: المرجع السابق، ص ص 98-105.

(⁵) - تاريخ الأدب العربي، ترجمة السيد يعقوب بكر و رمضان عبد التواب، ج1 ، دار المعارف بمصر، 1975م، ص42.

أما ريجيس بلاشير^(*) (Blachère (R.)) فقد حاول أن يقيم حدوداً لهذه اللهجة الأدبية، معتمداً على القبائل التي كان يأخذ عنها اللغويون مادتهم، وقد جعل هذه الحدود محصورة بين خطين يمتد أحدهما على مسافة بضعة أميال من جنوبي مكة متجهاً شرقاً إلى الخليج العربي في البحرين، ويمتد الخط الثاني في الشمال من ضواحي يثرب إلى شمال الحيرة، وقد زعم بلاشير أن الفصحى مشتقة من الشعر العربي القديم السابق للإسلام والقرآن الكريم معاً. ويجب التفريق هنا في منطقة العربية التي تتكلم الفصحى وبين القبائل التي سادت فيها الفصحى.

وفي هذا السياق يذكر السيوطي⁽²⁾: "... ومن بين قبائل العرب الذين أخذ عنهم اللسان العربي، قيس وتميم وأسد، فإن هؤلاء هم الذين أخذ عنهم معظمه، وعليهم أتكلم في الغريب وفي الإعراب والتصريف، ثم هذيل وبعض كنانة، وبعض الطائيين...".

ويبدو من قول السيوطي أن قريشاً ولهجتها تدخل في هذا المجال، وأن أفصح العرب السنة وأصفاهم لغة هي قريش، ذلك أن الله تعالى اختارهم من بين جميع الأمم، فجعل قريشاً قطان حرمه، وولاية بينه، فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم، يفدون إلى مكة للحج، ويتحاكمون إلى قريش في أمورهم، وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغتها ورقة ألسنتها إذا أنتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلاتقهم التي طبعوا عليها فصاروا بذلك أفصح العرب.

ولا تجد في كلامهم عننة تميم، ولا عجرية قيس، ولا كشكشة أسد، ولا كسكسة ربيعة، ولا كسر أسد وقيس⁽³⁾.

ويرى ابن خلدون⁽⁴⁾: " إن لغة قريش كانت أفصح اللغات العربية وأصرحها، لبعدها عن بلاد العجم من جميع جهاتهم، مما صانها عن الفساد، والتأثر بأساليب العجم، حتى أن سائر العرب على نسبة بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغاتهم في الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية".

(*) - ريجيس بلاشير: (Blachère (R.)) (1900-1973م) مستشرق فرنسي عاش بالمغرب حصل على الليسانس من جامعة الجزائر سنة 1922م، وعلى الدكتوراه من جامعة باريس سنة 1936م، ترجم كتاب طبقات الأمم لصاعد الأندلسي، من أبرز مؤلفاته: تاريخ الأدب العربي، وترجمة " القرآن " إلى اللغة الفرنسية سنة 1949م. عبد الرحمن بدوي: المرجع السابق، ص 127.

(1) - تاريخ الأدب العربي، ترجمة إبراهيم الكيلاني، ج1، الدار التونسية للنشر، تونس، 1986م، ص 87.

(2) - المزهر في علوم اللغة العربية، ج1، ص 211.

(3) - السيوطي: المزهر في علوم اللغة وأنواعها، شرحه وضبطه محمد أحمد جاد المولى وآخرون، ج1، دار الجيل، بيروت، لبنان، (د.ت)، ص 210-211، محمود فهمي حجازي: علم اللغة العربية " مدخل تاريخي مقارنة في ضوء اللغات السامية"، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، (د.ت)، ص 236.

(4) - المقدمة، ص 477.

ونستنتج مما سبق أن اللغة في نظر ابن خلدون ملكة صناعية، فاللغات كلها ملكات عنده شبيهة بالصناعة، ولغة قريش كانت في منأى عن الفساد لأنهم لم يخالطوا العجم كالفرس والروم والحبشة لذلك كانت لغتهم تامة الملكة ومن أفصح اللغات العربية فلم تدخلها مصطلحات وكلمات أعجمية ولم تتأثر بها.

وفي هذا السياق يقول السيوطي⁽¹⁾: " إن قريشا كانت أجود العرب انتقاداً^(*) للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعاً وأبينها إبانة عما في النفس، والذين عنهم نقلت اللغة العربية وبهم اقتدى وعندهم أخذ اللسان العربي".

ولعل السبب في ذلك إنما يعود إلى أثر مكة ودور قريش الديني والاقتصادي، فقد كان لموقع مكة أثر بالغ في وحدة اللغة العربية ونهضتها، لأن مكة كانت في منتصف القرن السادس الميلادي محطة هامة للقوافل الآتية من الجنوب تحمل السلع من الهند واليمن وبيتاعها المكيون ويصرفونها في أسواق الشام ومصر، وكانت طرق مكة التجارية آمنة لحرمة البيت ومكانة قريش⁽²⁾.

وكان أهل قريش بسبب مكانتهم من الحضارة وزعامتهم للحج ورياستهم في عكاظ وإيلافهم رحلتي الشتاء والصيف أكثر الناس ارتباطاً بالقبائل وأكثر الشعوب اختلاطاً بالدول المحيطة بهم، ومعنى ذلك أن هناك أسباب دينية واقتصادية أعدت لهجة مكة لتسود وتتفوق على اللهجات القبلية الأخرى في شبه الجزيرة العربية، وقد تداخلت فيها أسباب سياسية، حيث كانت القبائل العربية ترى هجوم الدول المجاورة من فرس وروم وحبش على أطرافها، وكذلك هجوم الديانتين اليهودية والمسيحية على دينها الوثني، مما دفع هذه القبائل لأن تتوحد وتتكتل وتتجمع حول مكة حارسة الوثنية دفاعاً عن البيت الحرام، وبذلك تهيأ للهجة قريش أن تسود بين لهجات القبائل الأخرى، وأن تصبح اللغة الأدبية التي يصوغون فيها أدعيتهم وأحاسيسهم⁽³⁾.

والحق أن اللغة العربية قد نشأت في جوار اللغات السامية الأخرى ولهجاتها: كالحبشية غرباً وجنوباً، والكنعانية والآرامية وفروعهما شمالاً، والأكدية (البابلية والآشورية) شرقاً، ونتيجة للاحتكاك القوي عن طريق الهجرات أو الحملات أو الرحلات التجارية- كما ذكرت آنفاً- لتبادل المنافع والبضائع، فقد نشأ من ذلك كله أن ورثت اللغة العربية كثيراً من خصائص اللغات السامية⁽⁴⁾.

(1) -المصدر السابق، ج1، ص 211.

(*) - انتقاداً: النقد والانتقاد: تمييز الدراهم وغيرها، وقد تكون انتقاء من انتقاء أي اختاره، المكان نفسه.

(2) - أحمد حسن الزيات: المرجع السابق، ص 17.

(3) - شوقي ضيف: المرجع السابق، ص 133.

(4) - عبد الحلیم النجار: المرجع السابق، ص 36.

وما إن حلَّ القرن السادس الميلادي حتى تفوقت لغة قريش على سائر اللغات واللهجات لأسباب دينية واقتصادية واجتماعية وسياسية، لعل أبرزها تراجع وزوال دولة حمير^(*) بغزو الأحباش لليمن سنة 525م، وتسلبت الفرس عليها طورا آخر، بينما كانت تنتهياً لمكة أسباب الوحدة والبروز بفضل الأسواق والحج واختلاطهم بالروم والحبشة، وفرضوا لغتهم وأصبحت أفصح اللغات وأعذبها لفظاً وأبلغها أسلوباً وأوسعها مادة، وقد ساعد الشعراء على نشرها بأشعارهم و بها نزل القرآن الكريم فأتم لها الذيوع والتفوق⁽¹⁾.

أما دور سوق عكاظ^(**) التي كانوا يقيمونها من أول ذي القعدة وتستمر إلى العشرين منه، فكانت من أعظم أسواقهم وأذكرها في شبه الجزيرة العربية⁽²⁾. وكانت تقوم في سهل منبسط بين مكة والطائف⁽³⁾. وهي سوق أدبية كما أنها سوقاً تجارية وطالما خرجت من وظيفتها الأصلية وهي التجارة إلى أدوار لا علاقة لها بالسوق التجارية وهي المفخرات والمباهاة و المسابقات، فكان الشعراء ينشدون قصائدهم والخطباء يرتجلون خطبهم.

وقد ذكر بعض الرواة أن العرب كانت تعرض أشعارها على قريش، فما قبلوه منها كان مقبولاً، وما ردّوه منها كان مردوداً⁽⁴⁾.

ويرى سعيد الأفغاني⁽⁵⁾: أن بعض اللغات السامية القديمة كالفارسية والحبشية والآرامية، كانت لغات العلاقات التجارية، فقد كان تجار مكة يتجرون مع الآراميين في دمشق، ومع الفرس في الحيرة والمدائن، ومع سبأ وحمير في اليمن، وقوافلهم تجتاز البحر الأحمر إلى شرق إفريقيا للتجار مع الأحباش، ولا شك في أن اختلاطهم بهذه الأمم قد سرّب بعض الكلمات خاصة التجارية منها إلى اللغة

(*) - دولة الحمير: قامت في اليمن عام 115 ق.م، عاصمتها ظفار واتخذ ملوكها لقب " ملك سبأ وذو ريدان" كما يظهر ذلك في النقوش، خضعت لغزو الأحباش خلال الفترة 340م - 378 م واستمر حكم الحميريين بعدها إلى أن جاء أبرهة في حملة سنة 523م ثم في سنة 525م وانتهى بذلك عهد الدولة الحميرية، عمر فروخ: تاريخ الجاهلية، ص 66، محمد الخطيب: المرجع السابق، ص ص 62-66.

(1) - سعيد الأفغاني: أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، دار الفكر، دمشق، 1960م، ص 289، أحمد حسن الزيات: مرجع سابق، ص ص 17-18.

(**) - عكاظ: اسم سوق من أسواق العرب وموسم من مواسمهم قبل الإسلام، سميت عكاظاً لأن العرب كانوا يتعاطون فيها أي يجتمعون فيها فيعكظ بعضهم بعضاً بالمفاخرة، وهي من عكظ دابته أي حبسها، وتعكظ القوم إذا تحبسوا لينظروا في أمورهم ومنه سميت عكاظ. ابن منظور: لسان العرب، ج 10، ط 1، دار صادر، بيروت، 2000م، ص 242.

(2) - أحمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق، ص 76.

(3) - سعيد الأفغاني: المرجع السابق، ص ص 286 - 287.

(4) - شوقي ضيف: المرجع السابق، ص 134، أحمد إبراهيم الشريف، المرجع السابق، ص 77.

(5) - المرجع السابق، ص ص 37-38.

العربية، وكانت هذه الكلمات قد تعرّبت وصقلها الاستعمال الطويل خلال العصر السابق للإسلام ومنها: إقليد (أي مفتاح)، وإقليم وإكسير وبرج، وبيطار، وبوص (وهو الحرير الأبيض)، وترف وجزية ودرهم ودكان، ودينار وقلس (وهو حبل السفينة) وغيرها من الألفاظ والكلمات التجارية والحضارية أيضا.

تمكن علماء اللغات السامية من العثور على نقوش أربع لهجات عربية شمالية قديمة، منها ثلاث كتبت بالخط المسند الجنوبي، وهي: اللهجة الثمودية واللحيانية والصفوية، أما اللهجة الرابعة وهي النبطية فقد كتبت بالخط الآرامي الشمالي⁽¹⁾.

ويرى جيمس فيفري⁽²⁾ (J.Fevrier): أن الأبجديات العربية الشمالية استعملت في النقوش القصيرة (وهي خربشات بسيطة Graffiti) وجد معظمها في واحات الحجاز ونجد، والتي تقع على طريق القوافل في العربية الشمالية، ولاحظ أن الأبجدية الدادانية وجدت نقوشها في واحة العلا (ديدان القديمة)، وقد عوّضت اللحيانية الأبجدية الدادانية في نفس المنطقة.

وذكر شوقي ضيف⁽³⁾ أن اللحيانية تنسب إلى منازل أهلها بنو لحيان^(*) الذين ذكروا في نقوشهم التي عثر عليها في شمال الحجاز بمنطقة العلا وكانت حاضرتهم تسمى دادان إلى الجنوب من مدائن صالح، ويختلف الباحثون في تحديد تاريخهم: هل كانوا قبل الميلاد أو بعده؟ ومن المؤرخين من يحدد تاريخهم ببداية القرن الخامس الميلادي.

وتنسب الأبجدية الثمودية إلى طريق مدائن صالح (الحجر) وإلى تيماء وتبوك أيضا⁽⁴⁾. وكان قوم ثمود يسكنون منطقة الحجر^(**) الواقعة بين الشام والحجاز⁽⁵⁾ وتنتشر أراضي عشائهم غربا إلى

(1) - أنوليتمان: " لهجات عربية شمالية قبل الإسلام"، مجلة مجمع اللغة العربية الملكي، القاهرة، ج3، أكتوبر 1936م، ص247.

(2) - Histoire de l'écriture :op. cit, p283.

(3) - المرجع السابق، ص 112.

(*) - بنو لحيان: أسسوا دولة لحيان وهي كيان سياسي كان يحكم منطقة شمال غرب الجزيرة العربية فيما بين سنة 500 ق.م و160 ق.م وكانت عاصمتهم " ديدان" أو "دادان". محمد بيومي مهران: تاريخ العرب القديم، ج2، ص ص 348-349، ويجب التمييز هنا بين بني لحيان الذين ظهروا بمنطقة العلا قبل الإسلام، وبين بني لحيان الذين كانوا يسكنون على مقربة من مكة والذين غزاهم النبي (صلى الله عليه وسلم) في السنة السادسة للهجرة. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج2، ص 595، عمر فروخ: المرجع السابق، ص47.

(4) - James Février : Op.cit, p 283.

(**) - الحجر "Hegra": تسمية يونانية اشتقت من اسم عربي يعني حجر، وهي المنطقة الواقعة بين الشام والحجاز وتسمى حاليا مدائن صالح، وهي بلد ثمود. البكري: معجم ما استعجم، ج2، ص 426، الإدريسي: المصدر السابق،

ج1، ص 351، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج2، ص 221، James Février : Op. cit, p p 283- 284

(5) - عمر فروخ: المرجع السابق، ص 47.

البحر الأحمر، وشرقاً إلى جبل أجأ وسلمى^(*).

وقد عثر على نقوشهم في الطائف وطور سيناء ومصر بوادي الحمامات في القرون الأولى بعد الميلاد، مما يدل على أنهم كانوا أهل تجارة واسعة، وتبين أن خطهم مشتق من الخط المسند الجنوبي مثلهم مثل اللحيانيين والصفويين، أما اللغة التي تعبر عنها هذه النقوش فهي عربية شمالية، غير أن أداة التعريف عندهم هي "الهاء"، كما هو الشأن عند اللحيانيين والصفويين، أما عند البنط فهي "أل"⁽¹⁾. ويبدو مما سبق أن هذا التقارب بين اللهجات في شبه الجزيرة العربية مرده إلى علاقات التأثير والتأثير من خلال المبادلات والمعاملات التي كانت تتم بين العربية الشمالية والعربية الجنوبية مرورا بالحجاز.

وقد جاء ذكر ثمود في القرآن الكريم، قال تعالى⁽²⁾: ﴿لَم يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودٍ...﴾، وفي آية أخرى قال الله تعالى⁽³⁾: ﴿وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾.

أما اللهجة الصفوية فتنسب إلى جبل الصفاة^(**) القائم في شرق حوران ببادية الشام، وقد وجدت النقوش الصفوية في الحرّة الواقعة بينهما وبين حوران، أما خطهم فهو مشتق من الخط المسند⁽⁴⁾، وبواسطته كان الرعاة في منطقة صفا "SAFA" ينقشون أسماءهم أو عبارات قصيرة على الصخور⁽⁵⁾. ويبدو من خلال كتابات علماء اللغة وعلماء الساميات من أمثال جيمس فيفرييه أن هذه النقوش المذكورة أنفا تنتهي جميعا في القرن الثالث الميلادي.

(*)-أجأ: أحد جبلي طيء وهما أجأ وسلمى سميا برجل وامرأة فجرا فصلبا عليهما، أما أجأ فهو ابن عبد الحي وأما سلمى فهي بنت حام ، وقد هربا معا فلحقهما زوج سلمى فقتل أجأ وصلبه على ذلك الجبل فسمي به، وفعل كذلك بسلمى على الجبل الآخر فسمي بها. البكري: المصدر السابق، ج1، ص ص 109 - 110، عبد المنعم الحميري: المصدر السابق، ص 11، الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص 59.

(1) - شوقي ضيف: المرجع السابق، ص ص 111 - 112.

(2) - سورة التوبة: الآية 70.

(3) - سورة الفجر: الآية 9.

(**)-الصفاة: "Safa" سلسلة جبلية تقع جنوب شرق دمشق عند مدخل بادية الشام، والصفويون قبائل عربية كان موطنهم القديم بجنوب شبه الجزيرة العربية قبل أن يهاجروا إلى الشمال ويستقروا بمنطقة الحرّة بين جبل حوران وجبل الصفا. محمود فهمي حجازي: المرجع السابق، ص 219، أنوليتمان: "محاضرات في اللغات السامية، أسماء وأعلام"، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مج10، ج2، 1948م، ص 45.

Dussaud (R) : Les Arabes en Syrie avant l'Islam, Paris, 1907, p 144, Février (J.) : Op.cit, p 284.

(4) - شوقي ضيف: المرجع السابق، ص 113.

Février (J.) : Op.cit, p284.

(5) -

ويرى الباحث أن أقرب هذه اللهجات إلى العربية الفصحى تلك التي وردت في نقوش النبط الذين عاشوا في شمال الحجاز وكانت لهم إمارة اتخذوا من سلع (بطرا - Petra)^(*) حاضرتها الكبرى. والنبط عرب شماليون عرقا ولغة كانوا يتكلمون العربية الشمالية، غير أن اختلاطهم بالأراميين جعلهم يكتبون نقوشهم بالخط الآرامي⁽¹⁾. ومما يؤكد ذلك هذه النقوش التي وجدت في مواضع كثيرة منها الحجر وتيماء ووادي موسى وشرقي الأردن وسيناء وحوران وبصرى ودمشق وصيدا وجبل الدروز⁽²⁾.

وكان من الصعب تحديد تاريخ هذه النقوش، ويبدو أن عدد هذه النقوش التي ذكرها فيفرييه ثلاثة آلاف (3000) نص منقوش، عدد مبالغ فيه ويدعو إلى الشك والريبة، ولم يتمكن العلماء حتى الآن من فك رموزها، وتتوزع تاريخيا ما بين سنة 150م وسنة 253م، أي أن كل هذه النقوش سابقة للاحتلال الروماني ولحملة كورنيليوس بالما^(**) "Cornelius Palma" الذي قضى على مملكة النبط نهائيا سنة 273م⁽³⁾.

ومعنى ذلك أن هذه اللهجة تنتهي بالقرن الثالث الميلادي كمثيلاتها السابقة. وبالرغم من أن الرومان قضوا على دولة الأنباط سنة 106م إلا أن النبط عادوا إلى الظهور ثانية في تدمر^(***) "Palmyre" وكونوا إمارة ظلت قائمة إلى سنة 273م حيث حارب الرومان ملكتها

(*) - بطرا: "Petra" اسم يوناني معناه الصخر، كانت تدعى قديما سلع وهي بلاد صخرية تقع في أقصى جنوب فلسطين، وتسمه حاليا وادي موسى، نزل بها الأنباط منذ القرن السادس قبل الميلاد وجعلوا منها محطة تجارية، اكتشفها وحدد هويتها الرحالة الإنجليزي بوركهارت "Burckhardt" سنة 1812م. عمر فروخ: تاريخ الجاهلية، ص 65، أنوليتمان: المرجع السابق، ص 41، Février (J.) : Op.cit, p245

Loc. cit.

(1) - شوقي ضيف: المرجع السابق، ص 115.

(**) - كورنيليوس بالما : قائد روماني ، ونائب تراجان (98م - 117م) في سوريا ، قاد حملة عسكرية على البتراء قضى فيها على مملكة الأنباط سنة 106م ، وعلى آخر ملوكها مالك الثالث (101م - 106م) وضم دولة الأنباط إلى الإمبراطورية الرومانية وأصبحت تسمى "المقاطعة العربية Provincia Arabia" وأصبحت بصرى عاصمة لها. عبد العزيز سالم، تاريخ العرب قبل الإسلام، ص 167، بيومي مهران: دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام، ص 465-466، نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم والعصر الجاهلي، ص 110.

(3) - Février (J.) : Op.cit, p 249.

(***) - تدمر : "Palmyre" مدينة قديمة ذات آثار عظيمة، كانت تعرف بمدينة النخل (بالميري) تقع بين نهري الفرات والعاصمة دمشق، وتبعد بنحو 90 ميلا عن حمص إلى الشرق و150 ميلا عن دمشق إلى الشمال الشرقي. زينب العاملي: معجم أعلام النساء المسمى الدر المنثور في طبقات ربات الخدور: تحقيق منى محمد زياد ، ط1، مكتبة التوبة، الرياض، 1421 هـ / 2002 م، ص 372.

زنوبيا(*) فأسروها ودمروا مملكتها وبذلك ينتهي تاريخ النبط وحضارتهم الراقية. ومن مظاهر التقارب بين اللهجة النبطية والعربية ظاهرة استخدام أداة التعريف "أل" على عكس اللهجات السابقة، وقد يجارون الآراميين في تعريفهم الكلمات بإلحاق ألف في نهايتها، فقد نجدهم يكتبون القبر (قبرا) والمسجد (مسجدا) ولكن في الغالب يستخدمون أداة التعريف العربية "أل"⁽¹⁾. وقد تمكن ليتمان^{(2)(**)} (Littmann) من معرفة ثلاثمائة (300) اسم من نقوشهم تتفق مع الأسماء العربية وهي مدونة في كتابة: "نقوش نبطية Nabataean Inscriptions" ومن هذه الأسماء: أذينة، أسد، أوس، بكر، حارثة، حنظل، سكيئة، سمية، فهر، قصي، أمير، أوس الله، أوس البعل، أمة، أمية، وأمة الله، وحارث، وحارثة (وكان حارثة اسم لثلاثة ملوك عند النبط وكتب بحروف يونانية هكذا "Arethas"⁽³⁾).

ويبدو أن اللهجة النبطية كانت وثيقة الصلة بالعربية، وقد أخذ العرب يطورون لغتهم في القرون الأولى للميلاد، كما طوروا الخط النبطي إلى أن ظهر الخط العربي وظهرت اللغة العربية الفصحى في شكلها النهائي، وأصبحت على هذا الشكل الكامل والنضج الواضح بعد أن مرت بمراحل طويلة من النمو والتطور من نقوش كتبت بأبجدية مشتقة من أبجدية المسند الجنوبي وهي نقوش الثموديين واللحيانيين والصفويين، ونقوش أخرى كتبت بأبجدية الآراميين وهي نقوش النبطيين غير أنها جميعا لا تصور هذا التكامل الذي انتهت إليه الفصحى والذي تمثله نصوص العصر السابق للإسلام منذ أوائل القرن الرابع الميلادي إلى أوائل القرن السادس الميلادي.

(*)-زنوبيا: "Zenobia" هي زينب ملكة تدمر، ملكة عربية تعرف عند الرومان بزنوبيا ملكة الشرق، تولت عرش تدمر بعد زوجها أذينة المقتول عام 267 م، قاتلت أورليان قيصر الروم عند مقربة من أنطاكية فحمص وهزمت وأسرها وقادها إلى روما عام 272م. المرجع نفسه، ص ص 371-372.

(¹) - شوقي ضيف: المرجع السابق، ص 116.

(**) - ليتمان (أنوا): "Littmann (E.)" (1875م- 1958م) مستشرق ألماني عني بالنقوش العربية القديمة وترجم " ألف ليلة وليلة" واهتم بالأدب الشعبي، يتقن عدة لغات: الإنجليزية والألمانية واللاتينية والعربية، يعتبر من تلاميذ نولدكه، عمل أستاذا في الجامعة المصرية في العشرينات والثلاثينات، وعين عضوا في مجمع اللغة العربية في القاهرة منذ إنشائه سنة 1932م، من أبرز مؤلفاته: " في فك رموز النقوش الصفوية" سنة 1901، " النقوش السامية " سنة 1904م، "في حل رموز نقوش ثمودية" سنة 1904م. عبد الرحمن بدوي: المرجع السابق، ص ص 512-513.

(²) - ليتمان (أ): " بقايا اللهجات العربية في الأدب العربي"، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مج10، ج1، عدد مايو 1948م، ص 25.

(³) - ليتمان (أ): " أسماء الأعلام في اللغات السامية"، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مج 11، ج1، ماي 1949م، ص ص 1-26.

أما أقدم نص عربي وصل الباحثين بالخط النبطي هو نقش النمارة المؤرخ سنة 328م⁽¹⁾. والحق أنه ليس في استطاعة الباحث المبتدئ أن يحدد بدقة التاريخ الذي يعدّ بدءاً حقيقياً للفصحى، فلقد عثر علماء الساميات على عدة نقوش تمتد من أواخر القرن الثالث إلى أواخر القرن السادس الميلاديين، ولعل أقدم هذه النصوص المنقوشة نقش النمارة المؤرخ سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة (328م) وهو لامرئ القيس ثاني ملوك الحيرة وضع على قبره، وقد اكتشفه ديسو^(*) وماكلر "Dussaud R. et Macler F." سنة 1902 على بعد كيلومتر من النمارة شرقي جبل الدروز⁽²⁾. ويحتمل أن يكون هذا النقش بدءاً لتكوّن الفصحى، ومما يستدل على ذلك استعمال الأسماء والأفعال العربية وأداة التعريف "أل" وخطه المشتق من الخط النبطي الذي يعد مقدمة للخط العربي ووجود الروابط بين الحروف واتخاذ الحروف شكلاً أكثر استدارة⁽³⁾.

وقد وردت في هذا النقش كلمة ملك، ولعل ذلك يكون أول مرة يعثر فيها على هذا اللقب، فقد لقب امرؤ القيس بملك العرب⁽⁴⁾. وقد يكون ذلك بداية تفكير العرب في وحدة سياسية تجمع شملهم منذ أوائل القرن الرابع الميلادي، ولعل من دوافع الاتجاه نحو هذه الوحدة تزايد الأظفار المحدقة بهم في الشمال الشرقي والغربي أي من دولتي الفرس والروم منذ أن قضى الرومان على دولة الأنباط أسلاف العرب سنة 106م، وفرض الفرس سيادتهم على الحيرة وقبائل العراق، أما في الجنوب فقد أخضع الأحباش اليمن في أواسط القرن الرابع الميلادي لمدة تتيف عن عشرين سنة ثم عادوا فاستولوا عليها في الربع الأول من القرن السادس الميلادي سنة 525م⁽⁵⁾. وانتهى بذلك ملك الحميريين.

وخلاصة القول أن اللغة العربية غنية باشتقاقها وتصريف كلماتها، تدل هذه الاشتقاقات على أنواع مختلفة من المعاني، وهذا ما يشعر بغنى اللغة وصلحياتها للبقاء. وبالرغم من تعدد اللهجات العربية وتباينها بين القبائل المختلفة عبر العصور التاريخية، فإن الباحث يلاحظ أن المعلمات مثلا كتبت بلغة أدبية موحدة وبلغة فصحى، وهذا ما يثبت ذلك الترابط والتلاحم، ومظاهر التقارب المتعددة

(1) - محمد بيومي مهران: تاريخ العرب القديم، ج2، ص 314.

(*) - ديسو: (R.) Dussaud (1868م - 1958م) مستشرق فرنسي دارت أبحاثه حول سوريا من أقدم العصور حتى العصر الإسلامي، درس التاريخ القديم وعلم الآثار واللغات السامية وعلم النقوش، سافر إلى سوريا في أول مرة في 1895م، من أهم أعماله: العرب في سوريا قبل الإسلام 1907م، دخول العرب في سوريا قبل الإسلام 1955م. عبد الرحمن بدوي: المرجع السابق، ص 269.

(2) - ديسو رنيه: المرجع السابق، ص ص 33 - 34،

(3) - رجب بلشير: المرجع السابق، ج1، ص 76.

(4) - Février (J.) : Op.cit, p264

(5) - ابن الأثير: المصدر السابق، ج1، ص 431، أبو حنيفة الدينوري: الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، القاهرة، 1960م، ص 62.

بين مختلف اللهجات العربية القديمة، إلا أن لغة قريش قد سادت وتفوقت، وأهم أسباب تفوق وسيادة لهجة قريش على جميع اللهجات في جزيرة العرب، إنما يعود إلى أن مكة كانت مهوى أفئدة العرب جميعاً قبل الإسلام، وكانت تتميز بنفوذ واسع بسبب مركزها الديني الروحي، والاقتصادي المادي، فهي حارسة الكعبة بيت عبادتهم، ومحطة رئيسية لقوافلهم التجارية التي كانت تجوب الجزيرة العربية، وكان العرب يجتمعون إليها في أعيادهم الدينية ويفدون إلى أسواقها القريبة البعيدة.

لذلك كانت اللغة العربية دلالة أخرى على الحياة العقلية للعرب قبل الإسلام، من حيث ما تستخدم فيه اللغة من شعر ونثر وأمثال وقصص ونحو ذلك.

وسيتجلى ذلك في المباحث الآتية حيث سأدرس كل مظهر من هذه المظاهر السابقة على حدة.

المبحث الثاني: الكتابة:

عالجت في البحث الأول من هذا الفصل اللغة العربية من حيث مصادرها والمراحل التي مرت بها، وعلاقتها بلهجات الشماليين والجنوبيين في شبه الجزيرة، والعوامل التي ساعدت على سيادة اللهجة القرشية في كامل شبه الجزيرة العربية في أواخر القرن السادس الميلادي. سأدرس في هذا المبحث الكتابة مبتدئاً بأصولها وتطورها وانتشارها في الجزيرة العربية، متصدياً للذين يدعون بأن العرب كانوا أمة لا تقرأ ولا تكتب، وما أبدعوا في نظمهم الشعري كان بالسليقة.

ولا شك أن الكتابة تعد من أهم المظاهر الحضارية في تاريخ تطور البشرية، فكما تبدأ المدنية بالزراعة، فإن التاريخ يبدأ بظهور الكتابة، التي هي في الواقع وسيلة أساسية للتواصل المعرفي بين الناس، تستعمل لنقل اللغة وحفظها وتدوين الحقائق والأحداث عبر الزمن والمكان⁽¹⁾.

ويرى جيمس فيفرييه⁽²⁾ (J.) (Février): "أن الكتابة طريقة ونهج نستعمله لترسيخ وتثبيت كلام واضح ومبين، قد يكون عابراً في جوهره وماهيته".

والكتابة مظهر من مظاهر الحضارة، وأثر من آثار الاجتماع والتجارة وكان أسبق الأمم القديمة إليها المصريون والفينيقيون، وأجهل الناس بها أهل البدو، فلم تنتشر الكتابة بين العرب إلا في المناطق التي عرفت الحضارة وارتقت فيها العمارة، كالعربية الجنوبية⁽³⁾(اليمن).

وقد ذهب الباحثون وعلماء اللغة في دراساتهم حول نشأة الخط والكتابة العربية إلى ثلاثة آراء هي:

1- يرى أصحاب الرأي الأول: أن الخط توقيف أي أنه ليس من صنع البشر، بل أن الله تعالى

قد علم آدم الكتابة فكتب الكتب كلها، فلما أصاب الأرض الطوفان وجد كل قوم الكتابة التي يكتب بها،

(1) - الطاهر ذراع: المجتمع العربي القديم، ج2، ص257.

(2) - Histoire de l'écriture, Op.cit, p 9.

(3) - أحمد حسن الزيات: المرجع السابق، ص 60.

وكان من نصيب إسماعيل (عليه السلام) الكتاب العربي، وهو أول من وضعه على لفظه ومنطقه، وبذلك يكون أول من تكلم بالعربية⁽¹⁾.

ويستدل أصحاب هذا الرأي بأن الخط توفيق لظاهر قوله تعالى⁽²⁾: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، ولقوله جل ثناؤه: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾⁽³⁾

وأرى أنه لو كانت الكتابة توقيف ألهمها الله إلى إسماعيل، فلماذا لم يكن الأمر كذلك لأدم (عليه السلام)، وللأنبياء الذين سبقوا إسماعيل (عليه السلام)؟

ومن هنا يتضح للباحث أن هذا الرأي ضعيف في اعتقادي ولا يرتقي إلى موضوعية ومنطق.

2- الرأي الثاني: يرى أصحابه أن الخط اختراع وأن عرب الحجاز قد أخذوا الخط عن الحيرة^(*)، التي أخذته عن الأنبار^(**) والتي بدورها قد أخذته عن اليمن⁽⁴⁾.

ويبدو أن هذا الرأي أقرب إلى الواقع ذلك أن عرب الحجاز كانت تربطهم علاقات تجارية مع الحيرة والأنبار ومما نقلوا عنهم الخط.

ويذكر ابن النديم⁽⁵⁾ أن أول من كتب بالعربية ثلاثة رجال من بولان^(***) اجتمعوا ووضعوا حروفا مقطعة وموصولة وهم: "مرامر بن مرة الأنباري"، و"أسلم بن سدره"، و"عامر بن جذرة"، ويقال "مرة وجذلة". فأما مرامر فوضع الصور، وأما أسلم ففصل ووصل، وأما عامر فوضع الإعجام.

(1) - محمد بن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، 1974م، ص ص 9-10.

(2) - سورة العلق: الآيات 1-5.

(3) - سورة القلم: الآية 1.

(*) - الحيرة: انفق معظم المستشرقون على أن الحيرة لفظ من ألفاظ بني ارم وأنها مأخوذة من (حرتا- أو حيرتا- أو حيرتو) (hatra.hitra.hetra) وأنها لفظة سريانية الأصل وأن معناها المخيم أو المعسكر، وتقابل كلمة (حاصيرا- haser) في اللغة العربية، وهي مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة، وسميت الحيرة لأن تَبَعًا الأكبر لما قصد خراسان خلف ضعف جنده بذلك الموضع وقال لهم حَيَّرُوا به أي أقيموا به. الإصحاحي: المصدر السابق، ص 58، ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج2، ص ص 328-329.

(**) - الأنبار: مدينة على نهر الفرات غربي بغداد، كانت الفرس تسميها فيروز سابور، وكان أول من عمرها سابور بن هرمز ذو الأكتاف. المصدر نفسه، ج1، ص 257.

(4) - سعيد الأفغاني: المرجع السابق، ص 114.

(5) - الفهرست، ص30.

(***) - بولان : موضع قريب من النجاج في طريق الحاج من البصرة، وقيل واد ينحدر على منفوحة باليمامة . ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج1، ص 511.

وقد سئل أهل الحيرة: ممن أخذتم الخط العربي؟ فقالوا: من أهل الأنبار، وورد في القاموس المحيط⁽¹⁾ أن العرب تسمى خطها بالجزم^(*) لأنه جزم واقتطع من المسند الحميري.

ويذكر الألويسي⁽²⁾ أن العرب تسمى خطها بالجزم لأن الخط الكوفي كان أولاً يسمى الجزم قبل وجود الكوفة لأنه جزم واقتطع من المسند الحميري و"مرامر" هو الذي اقتطعه. وهذان الرأيين يلتقيان عند الاقتطاع من المسند الحميري والثاني من التسلسل التاريخي نقل عن السابق له من الناحية التاريخية.

بينما يرى بطرس البستاني⁽³⁾ أن الخط العربي جزم من الآرامي النبطي، فقد تعلم بعض القرشيين خط الجزم من نصارى الحيرة في رحلاتهم التجارية إلى العراق، فحملوه إلى مكة، فظهرت فيهم الكتابة قبل الإسلام. وهذا الرأي يختلف عن الرأيين السابقين.

في حين يعتقد بعض المستشرقين⁽⁴⁾: "أن الخط العربي قد يكون مشتقاً من الخط الآرامي مباشرة معتمدين في اعتقادهم هذا على ما كان بين الآراميين والقبائل العربية من القرب والجوار". ونحن نتساءل عن موطن الخط العربي الذي اختلف حوله المهتمون بالبحث والدراسة، حيث أرى أنها مسألة معقدة، ويتعذر تحديد موطن هذا الخط والبت فيها برأي قاطع وجازم وذلك لسببين:

- 1- قلة النقوش العربية^(**) قبل ظهور الإسلام من خلال اطلاعنا على ما تم اكتشافه حتى الآن.
- 2- غموض تاريخ الخط العربي عند المؤرخين العرب القدامى وتضارب آرائهم ورواياتهم حول هذا الموضوع.

3- الرأي الثالث: يرى رجييس بلاشير⁽⁵⁾ في رواية لابن الكلبي أن: "الخط العربي انتقل من الحيرة إلى مكة بواسطة حرب بن أمية جد الخليفة معاوية قبل ظهور الإسلام".

(1) - الفيروز آبادي: ج4، ص 88.

(*) - الجزم: سمي الخط العربي بالجزم لأنه جزم واقتطع من المسند الحميري، وأن أول من كتب به رجل من بني يخذل بن النصر بن كنانة فكتبت به حينئذ العرب. ابن النديم: الفهرست، المصدر السابق، ص 30.

(2) - بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ج3، ط3، دار الكتاب العربي، القاهرة، (د.ت)، ص 368.

(3) - أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، دار مارون عبود، بيروت، 1979م، ص 35.

(4) - إسرائيل ولفنسون: تاريخ اللغات السامية، ط1، دار القلم، بيروت، 1980م، ص 171.

(**) - يرجع مصطلح النقوش "Inscriptions" إلى الكلمة اللاتينية المركبة "Inscriptio" وتعني الكتابة أو الكتابة

الغائرة. محمود فهمي حجازي: المرجع السابق، ص 218، Felix Gaffiot : Dictionnaire Abrégé Latin – Français illustré, Librairie Hachette, Paris, 1936 , p 327.

(5) - تاريخ الأدب العربي، ج1، ص 75.

وفي نفس السياق يذكر بلاشير أن الخط العربي انتقل من دومة الجندل(*) في شرقي نجد إلى مكة. ويبدو أن بلاشير كان يقصد بكلامه أن الخط العربي انتقل من الحيرة إلى مكة مروراً بدومة الجندل التي تقع إلى الشمال منها، فكأن دومة الجندل مثلت حلقة وصل ومحطة عبور بين الحيرة ومكة.

وإذا كان أصحاب الرأي الثاني الذين يقولون أن عامر بن جدره وضع الإعجام، فالواقع غير ذلك تماماً، حيث أن الخط العربي في نشأته الأولى كان يكتب من غير تنقيط، كما يظهر من النقوش العربية القديمة مثل: نقشي زبد وحران(**)، وأن الخط العربي لم يقطع من المسند الحميري، فليس هناك أية علامة بينهما عدا أنها ينتميان إلى الأصل السامي الواحد حسب الدراسات التي تمت حتى الآن. ويمكن للباحث أن يلاحظ ذلك من مقارنة بسيطة بين الخط العربي والخط الحميري.

ويبدو من مقارنة الحروف العربية بالحروف الحميرية(***) أنها تختلف عن بعضها اختلافاً شديداً، لذلك نرى أن هذه النظرية لا تستند إلى دليل علمي تاريخي وموضوعي يبرز العلاقة بين الخط العربي وخط المسند الحميري، فرغم محاولة صاحبها إبراز تلك العلاقة إلا أننا نرى أنها لم ترتق إلى ما يؤكد ذلك.

ويرى بعض الباحثين العرب أمثال خليل يحي نامي⁽¹⁾: "أن الكتابة العربية قد أتت من الحيرة التي كانت تدين بالنصرانية وتكتب بالخط السرياني"، فهل معنى ذلك أن الخط العربي قد اقتطع من الخط السرياني؟

يبدو أن الخط العربي لم يقطع من الخط السرياني ذلك أنهما فرعان مختلفان اشتقا من أصل واحد وهو الخط الآرامي المربع، وما هذه الحروف المتشابهة والخصائص المشتركة التي نجدها في الكتابتين إلا نتيجة كونهما قد خضعا لظروف واحدة ومرآ بأدوار متشابهة.

وفي هذا السياق أورد ابن النديم⁽²⁾ رواية أخرى مفادها: "أن أول من وضع الخط العربي قوم من العرب العاربة نزلوا في عدنان بن أد، وأسمائهم هي: "أبو جاد"، "هواز"، "حطي"، "كلمون"،

(*)-دومة الجندل: حصن منيع ومعقل حصين، به عمارة، وتتصل به عين التمر وبرية خساف من بادية السماوة وهي ما بين الرقة وبالس، تسمى حالياً الجوف في السعودية. الإدريسي: المصدر السابق، ج1، ص 352، أحمد الشنتاوي وآخرون: دائرة المعارف الإسلامية، مج 7، دار المعرفة، بيروت، 1933م، ص ص 168-169.

(**) - أنظر الملحق رقم .

(***) - أنظر الملحق رقم .

(1) - "أصل الخط العربي وتاريخ تطوره إلى ما قبل الإسلام"، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مج10، ج1، ماي 1935م، ص4.

(2) - الفهرست، ص 29.

"صعفس"، "قريسات"، ثم وجدوا بعد ذلك حروفا ليست من أسمائهم وهي الثاء والحاء، والذال، والطاء، والشين، والغين، فسموها الروادف، وقال أن هؤلاء ملوك مدين^(*).

يبدو أن هذه الرواية، وإن جانبت الصواب إلى حد ما بأن أخذ أصحابها الترتيب الأبجدي للحروف وجعلوها أسماء لملوك مدين، وأنهم هم الذين وضعوا الخط العربي، إلا أنها من جانب آخر قد بينت أن العرب أخذت خطها من المناطق الشمالية واقتطعت من كتابة شعب كان يسكن مدين وما يجاورها.

وإذا كانت المصادر العربية لم تذكر اسم هذا الشعب ولا اسم الكتابة، فإن المستشرقين وبعد دراسات عميقة، ورحلات علمية عديدة خلال القرن التاسع عشر الميلادي قد عثروا في تلك الأنحاء على نقوش وكتابات تحمل اسم قبائل تعرف بالنبط كانت تسكن مدين، وبعد تمكنهم من فك رموز هذه النقوش ودراستها تبين بالمقارنة أن هذا الخط الذي يعرف بالنبطي هو الأصل الذي تفرع منه الخط العربي.

وحسب جيمس فيفرييه⁽¹⁾ فإن أول المستشرقين الذين عثروا على نقوش نبطية، وعكفوا على دراستها الإنجليزي بوركهارت (J.L. Burckhardt) الذي زار "سبع" سنة 1812م، وقد عثر على ثلاثة نقوش وضعها كتابه: "رحلة إلى سورية والأرض المقدسة" "Travels in syria and the holy Land" المطبوع في لندن سنة 1822م⁽²⁾.

وقد ائتمى أثره الألماني ليمان (أ) (E. Littmann) والفرنسي الكونت دي فوجي De Vogue اللذان قاما برحلات إلى مدين وعثرا على عدد من النقوش النبطية التي يعود تاريخها إلى أواخر القرن الثالث الميلادي⁽³⁾، ونشروا هذه النقوش في المجلة الآسيوية "Journal Asiatique" لسنة 1897م - 1898م⁽⁴⁾.

ونستنتج مما سبق أن الأنباط قبائل عربية الأصل استعملت اللغة والكتابة الآرامية في النقوش وسائر شؤونها العمرانية، لكنها كانت تتكلم اللغة العربية، ومما يدل على أن هذه القبائل عربية، أن العرب يعرفون في التاريخ القديم بأنهم أمة بدوية تأنف من العمل في الزراعة، فلما أغارت هذه

(*)-مدين: مدينة تقع شمال بحر القلزم إلى الجنوب الشرقي من شبه الجزيرة سيناء في الأرض المسماة الآن معان جنوب فلسطين، وقد كانت محطة تجارية بين الحجاز والشام ومصر لذلك كان أهلها تجارا، وقد بعث الله إليهم النبي شعيب لأنهم كانوا يخسرون الكيل والميزان، وقد هلكوا بالصيحة والرجفة. ابن كثير: البداية والنهاية، ج1، ص ص 226-232، عمر فروخ: تاريخ الجاهلية، ص ص 47-48.

Février (J.) : Op.cit, p 245.

(1)

(2) - خليل يحي نامي : المرجع السابق، ص 16

(3) - رجب بلشير: المرجع السابق، ج1، ص 76.

(4) - خليل يحي نامي: المرجع السابق، ص 16.

القبائل على الأقاليم الشمالية الآرامية واحتكت بها وتأثرت بحضارتها تخلت عن بداوتها وأخذت أولى المهن عن الآراميين والتي تستلزمها الحضارة وال عمران وهي الزراعة. ويذكر المسعودي أن هذه القبائل أطاق عليها اسم النبط لأنهم كانوا يستنبطون ما يخرج من الأرض⁽¹⁾.

ومن الأدلة التاريخية على وجود الكتابة النبطية في حواضر الحجاز نقوش العلا ومدائن صالح التي يعود تاريخها إلى القرنين الأول والثاني الميلاديين، ومن هنا يرى الباحث أن بلاد الحجاز كانت تعرف هذه الكتابة وتستهملها في شؤونها العمرانية وحياتها اليومية. ويبدو أن النبط بسطوا نفوذهم على بلاد الحجاز ونشروا حضارتهم وثقافتهم، لذلك نجد عرب الحجاز قد اتخذوا بعض الآلهة النبطية آلهة لهم مثل: ذو الشرى، اللات، العزى، مناة، هبل وغيرها من مظاهر تأثيرهم فيهم.

ومما يؤيد ذلك ما أورده الجغرافي اليوناني سترابون "Strabon"⁽²⁾ في كتابه « Geographia » حيث قسم البلاد العربية إلى قسمين: القسم الشمالي وسماه "Arabia Petraea" أي العربية السلعية (الصخرية)، والقسم الجنوبي ويسمى "Arabia Felix" أي العربية السعيدة، ومعنى ذلك أن القسم الشمالي كان خاضعا للنبط، والقسم الجنوبي كان خاضعا لليمن.

ويذكر سترابون⁽³⁾ كذلك أن النبط ساعدوا الرومان على غزو اليمن سنة 24 ق.م. وذلك قصد السماح للجيش الروماني بالمرور في الأراضي النبطية.

ومهما يكن من الأمر فإن عرب الحجاز عرفوا الكتابة النبطية وكانوا يستعملونها في شؤونهم التجارية وذلك خلال القرنين الثالث والرابع الميلاديين، ونستمد معارفنا هذه من نقش النمارة^(*) ثم أخذت هذه الكتابة تتطور في الحجاز تماشيا لتطور حركة التجارة في المنطقة وانتقالها من اليمن نحو الحجاز. ومع أوائل القرن الخامس الميلادي انتقلت الكتابة النبطية إلى كتابة عربية، وبذلك أصبح لمكة السيادة الروحية والأدبية على أنحاء الجزيرة العربية بصورة عامة.

و يمكن للباحث أن يتساءل: كيف تطورت الكتابة النبطية من الآرامية إلى العربية؟

(1) - التنبية والإشراف، ص 78، ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج6، ص 138.

(2) - Strabo : Op .cit, books I-II ,p 553.

(3) - Ibid, book VII, p 351.

(*) - نقش النمارة: اكتشفه كل من ديسو و ماكلر سنة 1901م، والنمارة من أعمال حوران وهي قائمة على أنقاض مخفر روماني شرقي جبل الدروز، ووجد النقض على أسكفة باب مزار خرب شديد من أجل الملك امرئ القيس بن عمر المتوفى سنة 328م، وهو مؤرخ في سنة 223 من سقوط سلع أي في سنة 328م. خليل يحي نامي: المرجع السابق، ص 70، ريجيس بلاشير: المرجع السابق، ج1، ص 76.

إن انتقال الكتابة من الآرامية إلى النبطية، يمكن تتبعه من خلال النقوش النبطية القديمة التي كتبت في القرن الأول قبل الميلاد. ويتجلى ذلك في نقش حوران^(*)، خصوصا أنها كانت قريبة من فلسطين حيث كان يستعمل القلم العبري الآرامي، وقد أخذ الأنباط الخط الآرامي وطوروه وجعلوه متصل الحروف، في حين أن الآرامية والعبرية كانت منفصلة الحروف⁽¹⁾.

وقد مرت الكتابة النبطية بعدة مراحل حسب تطورها التاريخي الآتي:

1- المرحلة الأولى: وتمثلها نقوش القرنين الأول والثاني الميلاديين وهي مرحلة الأخذ بالكتابة الآرامية دون تصرف، ويظهر ذلك في نقوش مدائن صالح^(**)⁽²⁾، وقد عثر عليها العالمان جوسن "Jaussen" وسافينياك "Savignac" في سنة 1907م، ونشرت في كتابهما: "مهمة أركيولوجية ببلاد العرب من أورشليم إلى الحجاز" " Mission archéologique en Arabie de Jérusalem au Hedjaz".

2- المرحلة الثانية: وتميزت بتطور سريع للكتابة النبطية التي أخذت تفقد المسحة النبطية، وتصبغ بالصبغة العربية، وتمثلها نقوش القرنين الثالث والرابع الميلاديين، ويتجلى ذلك من خلال النقوش السينائية^(***)، والنقوش النبطية المتأخرة ومنها نقش أم الجمال^(****) غربي حوران ويعود تاريخه إلى سنة 270م، وقد عثر عليه العالمان الألمانيان لتيمان Littmann، ونشره في كتابه: "نقوش نبطية" « Nabataean Inscriptions »، والعالم الفرنسي الكونت دي فوجي (De Vogue) في كتابه:

" سورية الوسطى نقوش سامية" « Syrie centrale inscriptions Sémitiques » وخطه نبطي ويمتاز بظهور روابط بين الحروف⁽³⁾. وقد ورد في ثلاثة أسطر وهذا نصه⁽⁴⁾:

1- هذا هو قبر فهر.

2- ابن سُلَى مربي جذيمة (جذيمت).

3- ملك تنوخ.

(*)-أنظر الملحق رقم .

(1) - محمد الخطيب: المرجع السابق، ص 334.

(**) -أنظر الملحق رقم .

(2) - خليل يحي نامي: المرجع السابق، ص ص 38-43.

(3) - أنظر الملحق رقم .

(4) -أنظر الملحق رقم .

(3) - خليل يحي نامي: المرجع السابق، ص ص 68-69.

(4) - شوقي ضيف: المرجع السابق، ص 35.

ويبدو من هذا النص أن أهميته تكمن في أن الملوك العرب قد أخذوا يستعملون الخط النبطي وهذا ما يدل على انتشار الكتابة بين العرب قبل سنة 270م أي قبل منتصف القرن الثالث الميلادي، وقد أخذوا منذ ذلك الوقت يتخلون تدريجياً عن الكتابات الأخرى كاللحيانية والثمودية والصفوية (1). ويأتي بعده نقش النمارة المؤرخ في سنة 328م، والذي عثر عليه ديسو (Dussaud R.) وماكلر (Macler F.) في النمارة من أعمال حوران سنة 1902م (2) (*). وقد ورد نقش النمارة في خمسة أسطر وهذا نصه (3):

- 1- تي نفس مر القيس بن عمرو ملك العرب كله ذو أسرتج.
- 2- وملك الأسدين ونزرو وملوكهم وهرب مذحجو عكدي وجا.
- 3- بزجي في حبج نجران مدينة شمر وملك معدو ونزل بنيه.
- 4- الشعوب ووكلهن فرسو لروم فلم يبلغ ملك مبلغه.
- 5- عكدي. هلك سنة 223 يوم 7 بكسلول بلسعد ذو ولده.

وترجمته إلى العربية كما يأتي:

- 1- هذه نفس (قبر) امرئ القيس ابن عمر وملك العرب كلها الذي تتوج بالتاج.
- 2- وملك قبيلتي أسد ونزار وملوكهم وهرب (شنت) مذحج بالقوة وجاء.
- 3- إلى بزجي (أو بزجي) بانتصار في مشارف نجران مدينة عمرو وملك معد وبنان ابنه.
- 4- الشعوب، ووكله الفرس والروم، فلم يبلغ ملك مبلغه.
- 5- من القوة: هلك في سنة 223 في يوم 7 من كسلول (كانون الأول-ديسمبر) وليسعد الذي ولده (4).

ويتضح من هذا النقش استعمال كلمات عربية كثيرة مثل: جاء وهرب ووكل والشعوب، واستخدمت أداة التعريف (أل)، ونجد فيه تراكيب عربية فصيحة مثل جملة (فلم يبلغ ملك مبلغه)، ويمثل النص مرحلة من مراحل تطور اللغة العربية، ولعل هذا ما يدل على غلبة النفوذ العربي، وانتشار الكتابة النبطية بين العرب وملوكهم، وفي النص أيضاً ما يدل على أن اللغة العربية بدأت تيسر سلطانها إلى شمالي بلاد العرب منذ أوائل القرن الرابع الميلادي.

3- المرحلة الثالثة: وهي مرحلة النضج، وفيها بدأت تندثر الكتابة النبطية، لكن روحها تبعث في كتابة أخرى هي الكتابة العربية، وتمثل هذه المرحلة نقوش القرنين الخامس والسادس الميلاديين، ولم

(1) - خليل يحي نامي: المرجع السابق، ص 69.

(*) - أنظر الملحق رقم .

(2) - Février (J.) :Op, cit, p264.

(3) - Loc. cit. ، شوقي ضيف: المرجع السابق، ص 35.

(4) - خليل يحي نامي: المرجع السابق، ص 71، شوقي ضيف: المرجع السابق، ص 36.

يتمكن الباحثون من العثور إلا على نقشين فقط من النقوش العربية قبل ظهور الإسلام هما: نقش زبد^(*) المؤرخ في سنة 512م، ونقش حرّان^(**) المؤرخ في سنة 568م⁽¹⁾. وقد نقل إسرائيل ولفنسون صورة الكتابة العربية لنقشي زبد وحرّان^(***) في كتابه " تاريخ اللغات السامية"⁽²⁾. اختلف المستشرقون في قراءة هذا النقش وفسّره واحد منهم تفسيراً يخالف تفسير الآخر، ومن هؤلاء أنو ليتمان وهذا نص قراءته:

1- (بنصر) الإله شرحو بر أمت منفو وظبي بر مر القيس

2- وشرحو بر سعدو و سترو و شريحو⁽³⁾.

يتضح من النص أنه كتب بالنبطية وخطه قريب إلى أقدم خط عربي، وتكمن أهميته في أنه يحمل خصائص الخط العربي قبل ظهور الإسلام. ويرى بلاشير⁽⁴⁾ أن كتابة زبد جديرة بتسميتها "عربية" لأنها تحوي جميع مظاهر الكتابة العادية المتصلة الحروف.

لعل أهم القراءات التي تناولت هذا الموضوع قراءة العالم ليتسبرسكي (M.) Lidzbarski :

1- (ب) م الإله شرحو بر.... مع قيمو و بر مر القيس.

2- وشرحو بر سعدو و سترو و(شر) يحو. (بتميمي. وكتبت هذه الكلمة الأخيرة بالسريانية)⁽⁵⁾. ويبدو من النصين السابقين أن ليتمان ولتسبرسكي يختلفان في أغلب كلمات السطر الأول، وينفقان في قراءة السطر الثاني. أما نقش حرّان فقد عثر عليه في منطقة الشمالية من جبل الدروز، وقد كتب باليونانية والعربية، ووضع الحجر فوق باب كنيسة نجران، ويعود تاريخه إلى سنة 463 من سقوط "سلع"، أي في سنة 568م، ويعتبر هذا النقش أول نقش عربي كامل في جميع

(*) - زبد: خربة تقع بين قنسرين ونهر الفرات قديماً وتقع حالياً جنوب شرق حلب، وقد كتب نقش زبد بثلاث لغات هي اليونانية والسريانية والعربية. ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج3، ص 130، رجيس بلاشير: المرجع السابق، ص 73، شوقي ضيف: المرجع السابق، ص 37.

(**) - نقش حرّان: عثر عليه منقوشاً على حجر فوق باب كنيسة شمال جبل الدروز مكتوب بالعربية واليونانية، مؤرخ في سنة 463 من سقوط سلع أي في سنة 568 م، ويعتبر هذا النقش أول نقش عربي كامل في جميع كلماته. خليل يحي نامي: المرجع السابق، ص 90، رجيس بلاشير: المرجع السابق، ج1، ص 74.

(1) - Févriér (J.) :Op. cit, pp 264 - 265.

(**) - أنظر الملحق رقم .

(2) - إسرائيل ولفنسون: تاريخ اللغات السامية، ص 191. Févriér (J) : O p. cit, p 264.

(3) - خليل يحي نامي: المرجع السابق، ص ص 89-90، رجيس بلاشير: المرجع السابق، ج1، ص 74.

(4) - المرجع نفسه، ج1، ص 77.

(5) - إسرائيل ولفنسون: تاريخ اللغات السامية، ص 191.

كلماته وتعابيره^{(1)(*)}.

بعد أن عجز المستشرقون لأكثر من قرن من الزمن، تمكن ليتمان من قراءة النقش وهذا نصه⁽²⁾:

1- (ا) نا شرحل بر (ابن) ظلمو (ظالم) بنيت ذا المرطول.

2- سنت (سنة) 463، بعد مفسد.

3- خيبر.

4- بعم (بعام).

وهذه ترجمته بالعربية⁽³⁾:

1- أنا شرحيل بن ظالم بنيت هذا المعبد.

2- سنة 463 بعد خراب (غزو)

3- خيبر

4- بعام

ويتضح مما سبق أن النص كتب بعربية واضحة، وقد ألحقت بكلمة ظالم واو وفقا لقواعد لغة وكتابة النبط في كتابة أسماء الأعلام، وحذف حرف العلة من الكلمة "عام" وهي الصورة نفسها المألوفة في الكتابة العربية قبل ظهور الإسلام.

وتكمن أهمية النص التاريخية في أنه يشير إلى غزو أحد أمراء غسان لخيبر، وقد ظل هذا النص مبهما حتى تمكن ليتمان من فك رموز كلمات، فكشف بذلك عن أهميته التاريخية، ويستدل في ذلك بقول ابن قتيبة⁽⁴⁾: "ثم ملك بعده الحرث بن أبي شمر... وكان غزا خيبر فسبى من أهلها ثم أعتقهم بعدما قدم الشام".

وهناك نقش أم الجمال الثاني^(**) عثر عليه في موضع أم الجمال المذكور سابقا، وهو غير مؤرخ، ويعتقد الباحثون أنه يعود إلى أواخر القرن السادس الميلادي⁽⁵⁾، وهذا نصه:

1- الله غفرا لأليه.

2- بن عبيدة كاتب.

3- الخليدا على بني.

(*)- أنظر الملحق رقم .

Février(J) : O p . cit, p 264.

(¹)- رجييس بلاشير: المرجع السابق، ص74،

(²)- خليل يحي نامي: المرجع السابق، ص 91.

(³)- بطرس البستاني: المرجع السابق، ص36، جواد علي: المرجع السابق، ج 6، ص594.

(⁴)- كتاب المعارف، تحقيق ثروت عكاشة، ط2، دار المعارف بمصر، 1969م، ص313.

(^{**})- أنظر الملحق رقم .

(⁵)- رجييس بلاشير : المرجع السابق، ج1، ص75، جواد علي: المرجع السابق، ج8، ص249.

4- عمري كتبه عنه من.

5- يقروه.

يتضح من النص أنه كتب بكتابة العربية، وهو من النصوص المدونة بلغة القرآن والشعر العربي القديم، وإذا كان تاريخه صحيحا في أواخر القرن السادس الميلادي، يحتمل أن يكون أول نص عربي قبل مجيء الإسلام، وبهذه اللغة والكتابة يكون قد حقق خطوة جديدة نحو استقلالية الكتابة واللغة العربية عن الكتابة واللهجة النبطية.

تعود كتابات العرب القدامى من حيث الخط والأبجدية إلى أصلين هما:

1- **الخط المسند (أو القلم الحميري):** وهو أقدم الأقلام العربية التي عرفت في شبه الجزيرة

العربية حتى اليوم، وقد دونت به الكتابات المعينية والسبأية والقنانية والأوسانية وهي لهجات عربية جنوبية⁽¹⁾.

وقد ترك خط المسند أثرا في الخط العربي، في النقوش العربية الشمالية البدائية من ثمودية ولحيانية وصفوية⁽²⁾.

حيث عثر الباحثون في منطقة العروض على كتابات عربية تعود إلى القرن السادس الميلادي كتبت بالخط المسند، وهي نصوص ذات قيمة تاريخية بالنسبة للباحثين في مجال اللغة والكتابة⁽³⁾، ورغم قلتها أحيانا فهي لا تشفي غليل الباحثين في هذا الموضوع، لكن الباحث لا يمكن أن ينكر أهميتها العلمية والمعرفية.

ولعل هذا ما يؤكد انتشار الخط المسند في جل أنحاء شبه الجزيرة العربية، وتتكون أبجديته من تسع وعشرين (29) حرفا هي الحروف العربية الثمانية والعشرين (28) يضاف إليها السين الثانية، وهي مقتبسة من الأبجدية التي كشف عنها مؤخرا في سراييط الخادم^(*) بشبه جزيرة سيناء، والتي يبدو أنها أصل الأبجدية الفينيقية⁽⁴⁾.

وقد يلاحظ الدارس أن الخط المسند قد امتاز بميزات منها:

1- أن حروفه منفصلة، ويكتب من اليمين إلى اليسار، ومن الأعلى إلى الأسفل والعكس.

(1) - جواد علي: المرجع السابق، ج8، ص 202.

(2) - أحمد ارحيم هيو: تاريخ العرب قبل الإسلام، ط1، منشورات جامعة حلب، سوريا، 1979-1980م، ص 87.

(3) - جواد علي: المرجع السابق، ج2، ص 678.

(*) - سراييط الخادم: منطقة أثرية في شبه جزيرة سيناء عرفت بها بعثات الفراعنة واستخرجت منها الفيروز وأقامت بها معبدا لنقديس حتحور وسبد، وتركت على صخورها نقوشا وألواح تحمل بعض أخبارها، وعثر العالم البريطاني بتري سنة 1905م على مجموعة من النقوش أسماها النقوش السينائية والبروتوسينائية، وقال العلماء أن فيها أصل الأبجدية الفينيقية. محمود محمد محفوظ: المرجع السابق، ج3، ص 1294.

(4) - جورج زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي، ج3، ص 58، Février (J.): Op . cit, p p 267- 268

2- أن حروفه غير متشابهة، لذلك لم يعرف الإعجام وشكل حروفه ضخمة إذا ما قورنت بالحروف العربية.

3- وهو غير مشكول ويكتب بحروف صامتة⁽¹⁾.

2- **الخط النبطي:** حسب جيمس فيفري⁽²⁾ فإن الخط النبطي اشتق من الخط الآرامي، ويختص بالخصائص الآتية:

أ- **الأربطة:** وهي وصل الحروف ببعضها بأربطة تجمع بينها، تكوّن منها وحدة مستقلة قائمة بذاتها، فمثلا يأخذ النبط في ربط كل باء بالحرف الذي يليه تشبها براء "بر"^(*).

ب- **الفواصل:** وهي حروف استعملها النبط ووضعوها في أواخر الكلمات لتكون فاصلا بينها وبين الكلمات التي تأتي بعدها.

ج- **الإعجام:** الكتابة النبطية لم تعرف التثقيب كالكتابة العربية تماما في أول نشأتها، لذلك فبعض الحروف النبطية تؤدي معنيين فمثلا:

ب: تؤدي معنى الباء والنون.

د: تؤدي معنى الدال والذال.

س: تؤدي معنى السين والشين.

ص: تؤدي معنى الصاد والضاد.

ت: تؤدي معنى التاء والتاء وهكذا⁽³⁾.

يذكر الألويسي⁽⁴⁾ أن الخط العربي الذي كتب به أهل الحجاز قبل ظهور الإسلام وبعده متطور عن الخط النبطي، وهو أصل الخط العربي المعروف باسم الحجازي النسخي⁽⁵⁾. وما يدل على ذلك تلك الخربشات (Graffiti) المتأخرة التي وجدت في منطقة الحجاز، وهي غير مؤرخة، والخربشات السينائية التي يصل عددها إلى ثلاثة آلاف، والتي حدد جيمس فيفري تاريخها من سنة 150م إلى سنة

(¹) - جواد علي: المرجع السابق، ج8، ص278، الطاهر ذراع: المجتمع العربي القديم من خلال كتابات أصحاب السير والكتاب القدامى، ج2، ص261.

(²) - Histoire de l'écriture , p 245.

(*) - أنظر الملحق رقم.

(³) - خليل يحي نامي: المرجع السابق، ص ص 85-87.

(⁴) - بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ج3، ص368.

(⁵) - أحمد ارحيم هيو: المرجع السابق، ص88.

(**) - يرجع هذا المصطلح إلى كلمة Graffito وجمعها Graffiti إلى اللغة الإيطالية، وتعني الكتابة Inscription

أو خربشة ورسم رديء باليد على جدار أو صخر. محمود فهمي حجازي: المرجع السابق، ص 218.

La rousse Illustré, 1991, p 468

253م⁽¹⁾.

يرى الباحثون العرب أن أصل الخط العربي يعود إلى الخط السرياني^(*) الذي تطور عن الخط الآرامي المربع، وظهر في بلاد الرافدين وسورية وبقنوب العراق وبلاد الشام، ومن ثم ظهر الخط الكوفي ذو الشكل الهندسي البديع⁽²⁾.

ومهما يكن من أمر سواء كان أصل الخط العربي من الخط المسند أو النبطي أو السرياني، فإنه من منبع واحد، وهو الخط الآرامي المربع الذي يعود بدوره إلى الخط الفينيقي.

وقد نشأت فيما بعد خطوط عربية عديدة منها: الثلث، والنسخ، والرقعة، والديواني، وكلها تعود إلى الأصلين الكوفي والنسخي⁽³⁾.

يبدو أن الكتابة عند العرب قبل الإسلام كانت معروفة، ولكنها لم تكن مألوفة، أي أن العرب كانوا يخطون ويقرأون الخط، وقد كانت الكتابة شائعة في الحواضر، وبوجه خاص في مكة التجارة كما وصفها لامنس⁽⁴⁾.

غير أن الكتابة والقراءة لم تكن منتشرة بينهم انتشارا واسعا، وفي ذلك يقول الحارث بن حلزة اليشكري:

لمن الديار عفون بالحبس آياتها كمهارق الفرس⁽⁵⁾.

وما يمكن استخلاصه من البيت أن الكتابة كانت شائعة بين العرب قبل ظهور الإسلام، وأن بعض الشعراء استخدمها بلاغا شعريا لقومه في بعض ما حز به من الأمر⁽⁶⁾، وأن فريقا من العرب كان يعرف الكتابة الفارسية أيضا.

وذكر الأصبهاني⁽⁷⁾ أن لقيط بن يعمر الإيادي كان كاتباً بالعربية ويحسن الفارسية فقد كان كاتباً

(1) - Février (J.) : Op. cit, p 249.

(*) - اللغة السريانية لهجة آرامية قديمة نشأت في إقليم الرها Edessa عند الرومان وأورفة الحالية، في جنوب شرق تركيا، وقد بدأت لغة الرها الآرامية تسمى السريانية بعد انتشار المسيحية تمييزاً لها عن الآراميات الوثنية أو اليهودية مع بداية القرن الثالث الميلادي. حسن ظاظا: الفكر الديني اليهودي أطواره ومذاهبه، ط4، دار القلم، دمشق، 1999م، ص ص 118 - 119، فيليب حتي: المرجع السابق، ص ص 184 - 185.

(2) - جورجى زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي، ج3، ص58، أحمد ارحيم هيو: المرجع السابق، ص88.

(3) - Février (J.) : Op.cit, p 273.

(4) - Lammens (H.) : La République Marchande de la Mecque , p425.

(5) - شوقي ضيف: المرجع السابق، ص 139.

(6) - ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ط3، دار المعارف بمصر، 1966م، ص59.

(7) - المصدر السابق، ج3، ص120، عبد المحسن الشطي: شعراء إمارة الحيرة في العصر الجاهلي، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998م، ص92.

ومترجما في ديوان كسرى. أما عدي بن زيد العبادي الذي تعلم الخط العربي والخط الفارسي فقد أصبح كاتباً بالعربية ومترجماً في ديوان كسرى، وصار أفصح العرب وأكثبهم بالعربية والفارسية لذلك انتقل إلى بلاد فارس⁽¹⁾.

ومما يدل على وجود الكتابة عند العرب قبل مجيء الإسلام، ورود ألفاظ عديدة في المعلمات تشير إلى ذلك.

فقد ذكر الفيروز آبادي⁽²⁾ ألفاظاً عديدة كالكتابة والرسالة، والمهارة (جمع مهرق وهي الصحيفة) والزبور والكتاب والمزير والقلم.

والزبور: جمعها زبر وقد يراد بها الكتاب الديني، وقد تطلق على غيره من الكتب، وفي ذلك قول أبو ذؤيب⁽³⁾:

عرفت الديار كرقم الدواة يزبرها الكاتب الحميري

وقد وردت لفظة الزبور في القرآن الكريم في تسعة مواضع⁽⁴⁾، ومنه قوله تعالى⁽⁵⁾: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ وكلها بمعنى الكتاب الديني، وجاءت في موطنين منها خاصة بكتاب داود. وقد وردت إفراداً وجمعاً، لقوله تعالى⁽⁶⁾: ﴿وَرَبِّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾.

ووردت في القاموس المحيط ألفاظ أخرى لها علاقة بالكتابة كالمداد والنفس: وهو الحبر⁽⁷⁾. وقد ذكر بعض الباحثين العرب المحدثين مفردات وألفاظ لاتينية وسريانية وفارسية وربما عبرانية دخلت اللغة العربية ومنها: القرطاس: "Cartis" (من اليونانية Chartis) وهو الورق كان يتخذ من بردي يكون بمصر وأطلق على الصحيفة⁽⁸⁾، ومعظم هذه الألفاظ قد جاءت في الشعر العربي القديم.

(1) - الأصبهاني: المصدر السابق، ج2، ص ص 101 - 102.

(2) - القاموس المحيط، ج2، ص 37، ج3، ص 291، ج4، ص 399.

(3) - محمد مصطفى منصور: أبو ذؤيب الهذلي حياته وشعره، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2003، ص 229.

(4) - سورة آل عمران: الآية 184، سورة النساء: الآية 163، سورة النحل: الآية 44، سورة الإسراء: الآية 55، سورة الأنبياء: الآية 105، سورة الشعراء: الآية 196، سورة القمر: الآية 43.

(5) - سورة آل عمران: الآية 184.

(6) - سورة الإسراء: الآية 55، سورة النساء: الآية 163.

(7) - الفيروز آبادي: المصدر السابق، ج1، ص 337.

(8) - الفيروز آبادي: المصدر السابق، ج1، ص 333، بندلي صليبيا الجوزي: دراسات في اللغة والتاريخ الاقتصادي والاجتماعي عند العرب، جمع وتقديم جلال السيد وناجي علوش، ط1، دار الطليعة، بيروت، 1977م، ص 306.

وقد قال زهير بن أبي سلمى في معلقته⁽¹⁾ :

ألا أبلغ الأحلاف عني رسالة وذيبان هل أقسمتم كل مقسم
فقد جاء ذكر كلمة رسالة في هذا البيت، وهي موجهة إلى قبيلة ذبيان ليبلغهم أنهم أقسموا على إبرام الصلح وعقد الحلف.

وفي معلقة ليبيد بن أبي ربيعة العامري يقول⁽²⁾ :

فمدافع الريان عري رسمها خلقا كما ضمن الوحيّ سلامها.
ويقصد بالوحيّ سلامها: الكتابة على الحجارة⁽³⁾.
وله بيت مشهور في معلقته إذ يقول:
وجلا السيول عن الطلول كأنها زبر تجد متونها أقلامها⁽⁴⁾
وردت في البيت لفظة: الزبر: جمع زبور وهو الكتاب، والزبر الكتابة، ولفظ الأقلام وهي مضافة إلى ضمير الزبر.
وعندما اختلفت بنو بكر وبنو تغلب ثم اصطلحا عند عمرو بن الهند كتبا عنده عهدا، وفي ذلك يقول الحارث بن حلزة في معلقته:
واذكروا حلف ذي المجاز وما قد م فيه: العهود والكفلاء⁽⁵⁾
حذر الجور والتعدي وهل ينب قض ما في المهارق الأهواء
وقد ذكر المؤرخون العرب وبعض المستشرقين ومنهم فيفرييه (Février J.): أن العرب استخدموا في الكتابة أدوات شتى منها الجلد وكانوا يسمونه "الرق" و"الأديم" و"القضيم"⁽⁶⁾.
وقد ورد ذكرها في الشعر العربي القديم، كقول طرفة بن العبد⁽⁷⁾:
كسطور الرق رقته بالضحي مرقش يشمه
والرق الجلد الرقيق الذي يسوى ويرقق. وقد جاء ذكر الرق في القرآن الكريم، قال تعالى⁽⁸⁾ :

﴿ وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مُّسْتَوِرٍ * فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴾ .

(1) - ديوانه، شرح وتقديم علي فاعور، ط2، دار الكتاب العلمية، بيروت، 2002م، ص 107.

(2) - الزوزني: شرح المعلقات السبع، تحقيق طلال أحمد، ط1، دار الكتاب الحديث، القاهرة، 2002م، ص89.

(3) - التبريزي: شرح المعلقات العشر، تحقيق مصطفى تميمة، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1997م، ص191.

(4) - الزوزني: المصدر السابق، ص91.

(5) - التبريزي: شرح المعلقات، ضبط وتصحيح عبد السلام الحوفي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م، ص308، الجاحظ: البيان والتبيين، ج3، ص414.

(6) - ناصر الدين الأسد: المرجع السابق، ص77، Février (J.) : O p. cit, p266.

(7) - ديوانه: دار صادر، بيروت، (د.ت)، ص84.

(8) - سورة الطور: الآيات 1-3.

وفي القضييم يقول النابغة الذبياني (1) :

كأن مجر الرامسات ذيولها عليه قضييم نمقته الصوانع
و القضييم الجلد الأبيض، وفي الأديم يقول المرقش الأكبر (2):

الدار قفر والرسوم كما رقص في ظهر الأديم قلم

ومن أدوات الكتابة أيضا القماش: وهو إما حرير وإما قطن، ويطلقون على الصحف إذا كانت من القماش لفظة: المهارق مفردها مهرق، واللفظة فارسية معربة من (مهركرد) (3).

قال الزوزني (4): "المهارق: يأخذون الخرقعة ويطلونها بشيء، ثم يصفلون بها، ثم يكتبون عليها شيئاً". وقال ابن السكيت: "المهراق: ثوب جديد أبيض يسقى الصمغ، ويصقل ثم يكتب فيه" (5). أما الجاحظ فيقول في المهارق (6): "لا يقال للكتب مهراق حتى تكون كتب دين أو كتب عهود وميثاق وأمان".

ويبدو مما سبق أن هذا النوع من مواد الكتابة وهو المهارق كان ذو أهمية بالغة لدى العرب القدامى، فطريقة إعداده تحتاج إلى جهد، ولا يكتب عليه إلا الجليل من الأمر، لذلك كان ثمنه باهضاً. وقد ذكرت المهارق في الشعر العربي القديم من ذلك قول الأعشى (7) :

ربي كريم لا يكدر نعمة وإذا يناشد بالمهارق أنشدا

أما النبات فأشهر أنواعه: العسيب وهو السعفة أو جريدة النخل إذا يبست وكشط خوصها (8).
وقد ورد ذكر العسيب في قول امرئ القيس (9) :

لمن طلل أبصرته فشجاني كخط الزبور في العسيب اليماني

ومن المواد التي كان العرب القدامى يكتبون عليها عظام الإبل، ومن أشهرها: عظام الكتف والأضلاع (10). وكانوا يكتبون على الحجارة، وتعرف عندهم بالوحي، قال لبيد بن أبي ربيعة (11) :

(1) - ديوانه: شرح عباس عبد الساتر، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1986م، ص53.

(2) - المفضل الضبي: المفضليات، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، ط4، دار المعارف بمصر، 1963م، ص237.

(3) - الفيروز آبادي: المصدر السابق، ج3، ص291.

(4) - المصدر السابق، ص156.

(5) - ابن سيده: المخصص، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)، ج13، ص ص 8-9.

(6) - الحيوان، ج1، ص ص 49-50.

(7) - ديوانه: دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1986م، ص55.

(8) - Février (J.): Op.cit, p 266.

(9) - ديوانه، تحقيق مصطفى عبد الشافي، ط5، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004م، ص165.

(10) - ناصر الدين الأسد: المرجع السابق، ص85، Février : Op.cit, p266.

(11) - ديوانه، ص163، التبريزي: المصدر السابق، ص191.

فمدافع الريان عري رسمها خلقا كما ضمن الوحي سلامها
 ويتضح من البيت أن الوحي يقصد به الكتابة، والسلام: الحجارة، ومعنى ذلك أن العرب كانت
 تكتب على الحجارة، وفي نفس السياق قال زهير بن أبي سلمى⁽¹⁾:
 لمن الديار غشيتها بالفدفة كألوحٍ في حجر المسيل المخدّ
 أما الورق فلم يعرف العرب استخدامه إلا في القرن الثامن الميلادي، وقد استخدموا في ذلك
 الوقت الورق الصيني والورق الخراساني⁽²⁾.
 وورد ذكره في الشعر العربي القديم في قول حسان بن ثابت⁽³⁾:
 عرفت ديار زينب بالكثيب كخط الوحي في الورق القشيب.
 وقد عرف العرب ورق البردي، وذكره ابن النديم⁽⁴⁾ بإسم القرطاس المصري، والطومار
 المصري، وورد ذكره في الشعر العربي القديم.
 وذكر في القاموس المحيط⁽⁵⁾: "أن القرطاس: قطعة من أديم تنصب للنضال فإذا أصابه الرامي
 قيل: قرطس".

إن ذكر أدوات الكتابة في القرآن الكريم والشعر العربي القديم، كالقلم والمداد (الحبر) والدواة،
 وأدوات أخرى يكتب بها أو يكتب عليها ذكرتها سابقا، ليدل دلالة واضحة على انتشار الكتابة وشيوعها
 بين العرب قبل الإسلام.

فقد ورد ذكر القلم في القرآن الكريم ثلاث مرات منها قوله تعالى⁽⁶⁾: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ
 * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾. وقوله
 تعالى⁽⁷⁾: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾، وفي قوله تعالى⁽⁸⁾: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ
 وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.
 وورد ذكر القلم في الشعر العربي القديم قال عدي بن زيد⁽⁹⁾:

ما تبين العين من آياتها غير نؤي مثل خط القلم

(1) - ديوانه، ص 45.

(2) - ابن النديم: المصدر السابق، ص 48.

(3) - ديوانه: شرح وتقديم عبد علي مهنا، ط 3، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002م، ص 24.

(4) - المصدر السابق، ص 48، Février (J.): O p .cit ,p 266.

(5) - الفيروز آبادي: ج 1، ص 333، ج 2، ص 240.

(6) - سورة العلق: الآيات 1-5.

(7) - سورة القلم: الآية 1.

(8) - سورة لقمان: الآية 27.

(9) - الأصبهاني: المصدر السابق، ج 2، ص 119.

وقال الزبرقان بن بدر⁽¹⁾:

هم يهلكون ويبقى بعد ما صنعوا كأن آثارهم خطت بأقلام

وقد ذكرت الدواة والمداد في الشعر القديم، وفي ذلك قال عبد الله بن عنمة الضبي⁽²⁾:

فلم يبق إلا دمنة ومنازل كما رد في خط الدواة مدادها

وصفوة القول: أن دراسة المراحل والتطورات التي مر بها الخط العربي في نشأته، تبرز أنه من غير المعقول أن يكون العرب قد أخذوا الخط من القلم الحميري (اليمني)، أو العبري لأنهما كانا يكتبان حروفا منفصلة غير متصلة، والأرجح أن يكونوا قد أخذوا الخط عن الآراميين الذين كانوا يكتبون بحروف متصلة.

ويزيد يقينا في ذلك ما ذكره المستشرقون من أمثال رجييس بلاشير وجيمس فيفرييه من أن الخط الأقدم في اللغة الغربية كان يدعى الكوفي⁽³⁾.

فقد اشتق الخط العربي وانبتق من الخط والقلم النبطي الذي اشتق بدوره من الخط الآرامي الذي كان منتشرا في الشام بوجه خاص⁽⁴⁾، واكتمل في أوائل القرن السادس الميلادي، كما اكتملت اللغة التي كتبت بها النصوص المذكورة سابقا وأصبحت لغة أدبية عامة، وقد مرت هذه النصوص والنقوش المكتشفة بمراحل متعاقبة ومتدرجة: من لغة نبطية عربية في أوائل القرن الرابع الميلادي مثل نقش النمارة الذي يعود تاريخه إلى سنة 328م، إلى لغة عربية مستقلة في أوائل القرن السادس الميلادي، مثل نقش زبد المؤرخ في سنة 512م، ونقش حرّان الذي يعود تاريخه إلى سنة 568م.

وهذا ما يدفع الباحث إلى القول أن بداية التطور الحقيقي للكتابة العربية، إنما يعود إلى أوائل القرن الرابع الميلادي على اعتبار أن نقش النمارة هو أول نقش عربي كتب بحروف عربية متصلة، وهذا هو الخط الذي نزل به القرآن الكريم بعد ذلك بحوالي ثلاثة قرون.

المبحث الثالث: الشعر:

بعد دراسة الكتابة في المبحث السابق، من حيث أصولها، وتطورها، ومدى انتشارها في الجزيرة العربية، والتعرض لآراء المستشرقين المختلفة مثل: رجييس بلاشير، جيمس فيفرييه، إسرائيل ولفنسون، أنو ليتمان، وكارل بروكلمان وغيرهم، حول نشأة الخط العربي وتطوره قبل الإسلام، وآراء الباحثين العرب المحدثين من أمثال: خليل يحي نامي، وبنديلي جوزي، وعبد الحليم النجار، وفؤاد

(1) - الجاحظ: البيان والتبيين، ج3، ص179.

(2) - المفضليات، ص 379.

(3) - Février: Op .cit , pp266 - 267 ، رجييس بلاشير : المرجع السابق، ص ص 80-81.

(4) عبد المنعم عبد الحليم سيد: " الهوية النمودية في النقوش النبطية" ، مجلة المؤرخ العربي، عدد9، مج1 ، مارس 2001م، ص11.

حسنين علي، الذين اهتموا بالدراسات اللغوية وبتاريخ تطور اللغة والخط العربي. سأعالج في هذا المبحث الشعر في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، مركزاً على دراستي على تحديد مفهوم الشعر عند علماء اللغة والإخباريين والباحثين، ومبيناً أغراضه وموضوعاته المختلفة، دون أن أغفل التعرض إلى صحة الشعر العربي القديم وقضية انتحاله، هذه المسألة التي تناولها المستشرقون بالدراسة والتحليل بإسهاب، مثل: مارغليوث، ونولدكه، وآلورد، وبلاشير، ومن الأدباء العرب المحدثين طه حسين، وناصر الدين الأسد، ومن المؤرخين محمود شكري الألوسي وعمر فروخ وجواد علي وجورجي زيدان، ومن الإخباريين المفضل الضبي والأصمعي، محاولاً إبراز دور مكة الثقافي في شبه الجزيرة العربية من خلال مؤسساتها الثقافية المتنوعة، وبوجه خاص سوق عكاظ باعتباره أكبر تجمع ثقافي أدبي يلتقي فيه الشعراء والخطباء، فيتعاكظون ويتفاخرون ويتناشدون. يعتبر الشعر معلم حضاري رئيس من معالم ثقافة العرب قبل الإسلام، وهو مرآة صادقة قد تعكس بأمانة خصائص الحياة العربية والبيئة التي نشأ فيها. ويعد مصدراً تاريخياً هاماً لمعرفة أوضاع العرب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والدينية في القرنين الخامس والسادس الميلاديين⁽¹⁾. ولما كان للشعر العربي القديم هذه الأهمية قيل: "الشعر ديوان العرب"⁽²⁾. اختلف الباحثون في تاريخ الأدب العربي في المعنى الذي يدل عليه لفظ الشعر. يذكر ابن منظور^{(3)(*)} في تعريفه الشعر: "أن الشعر في اللغة من مصدر شَعَرَ بالشيء أي أحسن به من بابي نصر وكرم، وهو في الأصل العلم الذي يكون طريقه الشعور والإحساس" ثم توسع فيه العرب فأطلقوه على كل علم، ومن هنا قيل (الشعر ديوان العرب).

(1) - محمد الخطيب: المرجع السابق، ص 340.

(2) - أبو زيد القرشي: جمهرة أشعار العرب، شرح وتقديم عمر فاروق الطباع، دار الأرقم بيروت، (د.ت)، ص 26.

(*) - ابن منظور: (ت 711هـ / 1369م) هو أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي الإفريقي المصري جمال الدين، اشتغل باللغة وعلومها وتاريخها، ترك مئات الكتب، توفي بالقاهرة، من أشهر مؤلفاته: لسان العرب وهو من أوثق المعاجم العربية وكتاب انتشار الأزهار في الليل والنهار، و سرور النفس بمدارك الحواس الخمس، وله في التاريخ كتابين: مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، ومختصر تاريخ بغداد للسمعاني. جورج زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، مج 2، ج 3، ص 149.

(3) - لسان العرب، ج 8، ص 88.

يرى ابن رشيقي القيرواني^{(1)(*)}: "أن كلام العرب نوعان: منظوم ومنثور، ولكل نوع منهما ثلاث طبقات: جيدة، متوسطة، ورديئة، فإذا اتفقت الطبقتان في القدر وتساوتا في القيمة، ولم يكن لإحدهما فضل على الأخرى، كان الحكم للشعر مظاهراً في التسمية، لأن كل منظوم أحسن من كل منثور من جنسه في معترف العادة".

ونستنتج من قول ابن رشيقي أن الشعر إذا تساوى مع النثر من حيث القيمة والقدر وكانا من نفس الطبقة، فإن الشعر يفوق النثر وذلك ما تعارف عليه الأدباء والنقاد.

أما ابن خلدون^{(2)(**)} فيرى: "أن الشعر هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي، مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده، الجاري على أساليب العرب المخصوصة به".

ويلاحظ الباحث هنا أن ابن خلدون يضع التقفية والوزن من شروط الشعر، بل ويشترط أن يكون كل بيت مستقل بغرضه أيضاً. ويستطرد ابن خلدون تعريفه هذا، وكان مما قاله⁽³⁾: "وقولنا المفصل بأجزاء متفقة الروي، فصل له عن الكلام المنثور الذي ليس بشعر عند الكل". وهكذا يخرج ابن خلدون من محترزات تعريفه.

جاء في لسان العرب⁽⁴⁾: "والشعر منظوم القول، غلب عليه لشرفه بالوزن والقافية، وإن كان كل علم شعراً من حيث غلب الفقه على علم الشرع".

(*) - ابن رشيقي القيرواني : (ت 456هـ) هو أبو علي الحسن بن رشيقي من أهل القيروان، أبوه مملوك رومي من موالي الأزدي، كان صائغاً في بلدة المحمدية ثم قرأ الأدب وقال الشعر، عاش في صقلية إلى أن مات. من آثاره: كتاب العمدة، وكتاب قراضة الذهب في نشر أشعار العرب. ابن خلكان: وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، مج2، دار الثقافة، بيروت، (د.ت)، ص 85، ياقوت الحموي: معجم الأدباء، تحقيق إحسان عباس، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993م، ص 861، جورج زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، مج1، ج 2، ص 599-600.

(1) - العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق عبد الحميد الهنداوي، ج1، ط1، المكتبة العصرية، بيروت، 2001م، ص 12.

(**) - ابن خلدون: (ت 808هـ / 1406م) هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون الحضرمي الأشبيلي المالكي، مؤرخ وفيلسوف وعالم اجتماع ورجل سياسة ودولة، أصله من أسرة اشبيلية بالأندلس، انتقل أجداده من اشبيلية في أواسط القرن السابع الهجري، ويعود نسبهم إلى وائل من عرب اليمن، ولد في تونس سنة 732 هـ تنقل في الأمصار، في المغرب وتلمسان و بجاية ومصر، وأقام بها حتى وافاه الأجل سنة 808 هـ . من أبرز مؤلفاته: كتاب العبر المشهور بتاريخ ابن خلدون، والمقدمة. جورج زيدان : المرجع السابق، مج2، ج3، ص 218-224، عمر فروخ: تاريخ الفكر العربي، ص 691-692، خلف الجراد: معجم الفلاسفة المختصر، ط1، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1428هـ/ 2007م، ص 75-80.

(2) - المقدمة، ص 492.

(3) - المكان نفسه.

(4) - ابن منظور، ج8، ص 89.

ويعرف علماء العروض^(٥) الشعر بأنه: "الكلام الموزون المقفى، وهو تعريف للنظم وليس تعريفاً للشعر، فقد يكون الرجل شاعراً لا يحسن النظم، وقد يكون ناظماً وليس في نظمه شعراً، وإن كان الوزن والقافية يزيدان الشعر طلاوة ووقعا في النفس، فالنظم هو القالب الذي يسبك فيه الشعر، ويجوز سبكه في النثر"⁽¹⁾.

أما الأدباء العرب المحدثين^(**) فيعرفون الشعر بأنه: "الكلام المنظوم في الوزن والقافية، والذي يعتمد فيه صاحبه على الخيال، ويقصد فيه إلى هذا الجمال الفني الذي يخلب الألباب ويستهوئ القلوب"⁽²⁾.

ومنهم من يرى أن الشعر هو: "الكلام الموزون المقفى المعبر عن الأخيلة البديعة والصورة المؤثرة البليغة"⁽³⁾.

ويرى أحمد أمين⁽⁴⁾: "أن الشعر القريض المحدد بعلامات لا يجاوزها، والجمع أشعار، وقائله شاعر لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره أي يعلم".

ويرى بعض المستشرقين⁽⁵⁾ ومنهم رجب بلشير وكارل بروكلمان، أن ثمة علاقة بين الشعر والسحر، واعتقد بعضهم أن هناك صلات اشتقاقية بين الكلمة العربية "شعر" والكلمة العبرية "شير" والتي تعني اللحن أو الترتيلة والتسيحة القدسية، ويؤكدون ذلك بأنه لم يذكر في اللغة العربية فعل شَعَرَ بمعنى أَلَفَ البيت أو القصيدة.

ويذهب بعض الباحثين إلى أن الشعراء قبل الإسلام كانوا هم أهل المعرفة، ومعنى ذلك أن طبقة الشعراء كانوا أعلم أهل زمانهم، ولا يفهم من ذلك أنهم كانوا على درجة من العلم المنظم، وإنما كانوا أعلم مما يتطلبه نوع معيشتهم وبيئتهم، كمعرفة الأنساب، ومناقب القبيلة، فالشعر عندهم بمعنى علم، ويقولون مثلاً: لیت شعري، أي لیت علمي⁽⁶⁾. قال تعالى⁽⁷⁾: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا آيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

(٥) - من علماء العروض الذين ذكرهم جورج زيدان: الخليل بن أحمد الفراهيدي.

(1) - جورج زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، مج1، ج1، ص 53.

(**) - من أمثال: مصطفى صادق الرافعي، طه حسين، وأحمد حسن الزيات.

(2) - طه حسين: تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي والعصر الإسلامي، مج1، ط3، دار العلم للملايين، بيروت، 1978م، ص 61.

(3) - أحمد حسن الزيات: المرجع السابق، ص 98.

(4) - فجر الإسلام، ص 60.

(5) - رجب بلشير: المرجع السابق، ص 334، كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ج1، ص 19.

(6) - أحمد أمين: المرجع السابق، ص 60.

(7) - سورة الأنعام: الآية 109.

ويتضح من التعاريف السابقة أنه لا يوجد فرق كبير بين تعريف اللغويين وتعريف الأدباء للشعر، ذلك أن الشعر من الفنون الجميلة لدى العرب القدامى والتي تعرف عندهم بالأدب الرفيعة: كالنحت والرسم والموسيقى، ومرجع الشعر، تصوير الطبيعة بجمالها الساحر، فالرسم يصورها مسطحة، والنحت يصورها بارزة مجسدة، والشعر يصورها بالخيال والوجدان، ويعبر عنها وعن إعجابهم بها وارتياحهم لها بالألفاظ.

كانت العرب قبل الإسلام تهتم اهتماما بالغا بالشعر والشعراء ، كما كانت مهتمة في إعداد الشاعر اهتمامها بإعداد القادة والخطباء حتى كانوا يقولون: "إن قائد القبيلة الفلانية فلان، وقارمها فلان، وشاعرها فلان"⁽¹⁾.

ثم إن الشعراء كانوا كثيرين حتى تعذر عدُّهم، قال ابن قتيبة⁽²⁾: "والشعراء المعروفون بالشعر عند عشائهم وقبائلهم قبل الإسلام وبعده، أكثر من أن يحيط بهم محيط، ولو قصدنا لذكر من لم يقل من الشعر إلا الشذَّ اليسير لذكرنا أكثر الناس".

فالشاعر كان لسان حال القبيلة، يذود عن أعراضها، ويفخر بمجدها، ويباهي بكرمها، ويدفع عنها شر ألسن الشعراء، فيهجو من ينال منها، ويسجل انتصاراتها، ويخدد فرسانها.

قال ابن رشيق⁽³⁾: "كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أنتت القبائل فهنأتها، وصنعت الأطفمة، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر - كما يصنعون في الأعراس - ويتباشرون الرجال والولدان، لأنه (أي الشاعر) حماية لأعراضهم، وذنب عن أحسابهم، وتخليد لمآثرهم، وإشادة بذكرهم. وكانوا لا يهنتون إلا بغلام يولد أو شاعر ينبغ فيهم أو فرس تنتج...".

وقال الجاحظ⁽⁴⁾: "والخطباء كثير، والشعراء أكثر منهم، ومن يجمع الخطابة والشعر قليل". ويستطرد الجاحظ بتفصيل أكثر عن مكانة الشاعر في قبيلته وبين قومه قائلا⁽⁵⁾: "كان الشاعر قبل الإسلام أرفع منزلة من الخطيب لحاجتهم إلى الشعر في تخليد مآثرهم، ويفخم شأنهم، ويهول على عدوهم ومن غزاهم، ويهيئ من فرسانهم، ويخوف من كثرة عددهم، فيهابهم شاعر غيرهم، ويراقبه شاعرهم. فلما كثرت الشعر والشعراء، واتخذ (الشعراء) الشعر مكسبة، ورحلوا به إلى السوق، وتسرعوا إلى أعراض الناس صار الخطيب عندهم فوق الشاعر".

(1) - الأصبهاني : المصدر السابق، ج4، ص 146.

(2) - الشعر والشعراء، دار المعارف ، مصر، 1332 هـ ، ص ص 3-5، ابن رشيق: المصدر السابق، ج1، ص ص 11-12.

(3) - المصدر السابق، ج1، ص 53، السيوطي: المصدر السابق، ج3، ص 236.

(4) - البيان والتبيين، ج1، ص ص 37-38.

(5) - المصدر نفسه، ج1، ص 241، ابن رشيق القيرواني : المصدر السابق، ج1، ص 71.

وقد وصف ابن قتيبة⁽¹⁾ الشاعر المطبوع بقوله: "هو من يسمح بالشعر واقتدر على القوافي، وأراك في صدر بيته عَجْزَةً، وفي فاتحته خاتمته، وتبينت على شعره رونق الطبع، ووشي الغريزة، وإذا امتحن (بإنشاد شعره) لم يتلعثم ولم يتزحّر".

ونلاحظ من النصوص السابقة أن من الشعر مطبوع ومصنوع: فالمطبوع: هو الأصل الذي وضع أولاً وعليه المدار، أما المصنوع: فهو الذي وقع فيه صنعة فاستحسنه القوم ومالوا إليه بعد أن عرفوا وجه اختياره على غيره.

لقد تطرق الشك إلى صحة الشعر العربي القديم منذ أيام أئمة الشعر الأولين.

قال ابن سلام الجمحي⁽²⁾: " فلما راجعت العرب رواية الشعر، وذكُرَ أيامها ومآثرها، استنقل بعض العشائر شعر شعرائهم، وما ذهب من ذكر وقائعهم. وكان قوم قَلَّتْ وقائعهم وأشعارهم، وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار، فقالوا على ألسن شعرائهم، ثم كانت الرواة بعد، فزادوا في الأشعار، وليس يشكل على أهل العلم زيادة ذلك، ولا ما وضع المولّدون، وإنما عضل بهم أن يقول الرجل من أهل بادية- من ولد الشعراء أو الرجل ليس من ولدهم- فيشكل ذلك بعض الإشكال".

ويبدو من قول ابن سلام أنه يقر بوجود الانتحال في الشعر العربي القديم، فالقبيلة الواحدة تتجه إلى الزيادة في الشعر، أو القول بما لم يقل شعرائهم، رغبة في الرفع من شأن القبيلة، والإشادة بمناقبها ومآثرها.

وقد تناول بعض المستشرقين هذا الشك^(*)، فأفاضوا في الكلام فيه، وبدأوا اهتمامهم بهذه القضية منذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، ومن هؤلاء المستشرق الألماني تيودور نولدكه "Noldeke" الذي يعتبر أول من أثار هذه القضية سنة 1864م، ثم تلاه آوورد "Alhward" حين نشر دواوين الشعراء الستة: امرؤ القيس، والنابغة، وزهير، وطرفة، وعلقمة، وعنتر، سنة 1865م، فشكك في صحة الشعر القديم عامة، وأن عددا قليلا من قصائد هؤلاء الشعراء يمكن التسليم بصحته.

ثم جاء دافيد مرغليوث^(**) "D. Margoliouth"، و كارل بروكلمان " C. Brockelmann "

(1) - الشعر والشعراء، ج1، ص 26، ابن رشيق: المصدر السابق، ج1، ص 116.

(2) - طبقات فحول الشعراء، ص14.

(*) - يعد مرغليوث من أكثر المستشرقين الذين أثاروا قضية انتحال الشعر العربي القديم في كتاباته، إذ كتب مقالا مفصلا في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية، عدد جويلية 1925م بعنوان: " أصول الشعر العربي - The Origins of Arabic Poetry ". شوقي الضيف: المرجع السابق، ص 166، ناصر الدين الأسد: المرجع السابق، ص ص 367-352.

(**) - مرغليوث "Margoliouth (D.S.)": (1858م- 1940م) مستشرق انجليزي اهتم بالدراسات العربية والسامية، من دراساته عن الإسلام: كتاب " محمد ونشأة الإسلام " 1911م، تميزت دراساته بروح متعصبة وغير علمية، ترجم قسما من تاريخ مسكويه- تجارب الأمم- . عبد الرحمن بدوي: المرجع السابق، ص 546.

الذيان زعما أن الشعر العربي القديم جميعه منحول على أهله.

ومن المستشرقين الآخرين الذين أثاروا هذه القضية: شارل جيمس ليال^(*) C. James Lyall الذي أثار في المقدمة التي صدر بها الجزء الثاني من المفضليات سنة 1918م، إلى ما جاء به مرغليوث في مقاله المنشور في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية سنة 1916م⁽¹⁾.

وتحدث جورجيو ليفي دلافيدا^(**) "G. Levi Della Vida" في مقالته "بلاد العرب قبل الإسلام"، "Pré-Islamic Arabia" التي نشرت بنيوجرسي بالولايات المتحدة الأمريكية سنة 1944م، عن قيمة المصادر التاريخية، وعرض في حديثه للشعر العربي القديم من حيث هو مصدر من هذه المصادر فقال: "إن أكثر الشعر العربي القديم موضوع فليس من المستطاع اتخاذه أساسا سليما يبني عليه فهم صحيح لما كان يحدث في بلاد العرب قبل الإسلام"⁽²⁾.

ومن المستشرقين الذين اتخذوا موقفا وسطا، الفرنسي رجبس بلاشير الذي تناول القضية في الجزء الأول من كتابه "تاريخ الأدب العربي"، وخلص إلى أن هناك شعرا منتحلا لا سبيل إلى الثقة به، ولكن بجانبه شعر آخر صحيح رواه النقات من أهل الأخبار، وعلى رأسهم المفضل الضبي، والأصمعي وهو الذي نستند إليه في دراسة الأدب العربي قبل الإسلام.

ومن الأدباء العرب المحدثين الذين ذهبوا مذهب مرغليوث في تعميم الحكم على الشعر العربي القديم بالانتحال مصطفى صادق الرافعي الذي يعد أول من شق طريق البحث في موضوع النحل والوضع في الشعر العربي القديم في كتابه "تاريخ آداب العرب" الذي صدر سنة 1911⁽³⁾، ثم طه حسين^(***) الذي لم يتسع بحكمه اتساع مرغليوث.

(*)-ليال " Lyall " : (1845م - 1920م) مستشرق انجليزي اهتم بنشر قصائد الشعر العربي القديم وترجمتها وهو محقق كتاب المفضليات ، عمل مدرسا للغة العربية بالهند، ولما عاد إلى أوروبا تتلمذ على يد نولدكه، من آثاره: " ترجمات للشعر العربي القديم والجاهلي بخاصة" 1885م. عبد الرحمن بدوي: المرجع السابق، ص 518.

(¹) - ناصر الدين الأسد: المرجع السابق، ص 367.

(**) - دلا فيدا " Della Vida " : (1886م - 1967م) مستشرق إيطالي من أسرة يهودية قام برحلة إلى الشرق في عامي 1908م - 1909م ، كان مدرسا للغة العربية في المعهد الشرقي في نابولي، ثم شغل كرسي اللغة العبرية واللغات السامية في جامعة روما، إنتاجه العلمي يدور حول الدراسات العربية والسامية والنقوش البونية. عبد الرحمن بدوي: المرجع السابق، ص 246.

(²) - ناصر الدين الأسد: المرجع السابق، ص 375-376.

(³) - المرجع نفسه، ص 377.

(***)-أثار طه حسين قضية انتحال الشعر العربي القديم في كتابه " الشعر الجاهلي" الذي نشر سنة 1926م، فواجه حملة واسعة من الانتقادات دفعته للعدول عن رأيه وإعادة إصدار كتاب بعنوان " في الأدب الجاهلي" سنة 1933م، بعد أن حذف منه الأشياء التي أثار الضجة. شوقي الضيف: المرجع السابق، ص 170. عمر فروخ: تاريخ الجاهلية، ص23.

غير أن هذه الآراء لا تشكل موقفا حاسما في قضية انتحال الشعر العربي القديم، لأن ما وصلنا من شعر منذ بداية تدوينه يلتبس فيه الباحث أصالة هذا الشعر، فهناك قصائد موعلة في القدم، مثل ما قيل في وصف بئر زمزم من شعر، ربما كان أقدم شعر عربي لأن تاريخه يعود إلى حوالي ثمانية عشر قرنا قبل الميلاد، نظرا لما لهذه البئر من أهمية في حياة مكة وتعميرها بالسكان⁽¹⁾.

وقد دوّن الشعر القديم بعد انتشار الكتابة، لكن الكثير منه تعرض للضياع، لذلك سكت الرواة عن نقله ولم يصل إلى الباحثين إلا قليلا منه، وقد يكون تعرض للنحل من قبل بعض القبائل والعشائر لأسباب سياسية أو دينية أو اجتماعية، على أن هذا النحل لا يكون سبيلا لتعميم الشك في الشعر القديم كله، وقد أشار بعض الإخباريين إلى الشعر المنحول كابن سلام الجمحي في كتابه "طبقات فحول الشعراء" والأصبهاني في كتاب "الأغاني".

ويتفق الرواة على أن معظم الشعر القديم الذي ضاع ولم يصل منه إلى الباحثين إلا شذرات، إنما يعود إلى أواخر القرن الخامس الميلادي، أما بداية ازدهاره فترجع إلى القرن السادس الميلادي أي عهد المهلهل وامرؤ القيس.

على أنه ينبغي على الباحث أن يحدد هذا العصر الذي نتناوله بالدراسة، والذي ولد ونضج فيه الشعر العربي القديم، لتكون الصورة واضحة القسمات، بارزو الألوان. إن هذا العصر لا يتجاوز المئتي (200) سنة التي سبقت ظهور الإسلام.

وقد أورد الجاحظ في هذا السياق قوله⁽²⁾: "أما الشعر فحديث الميلاد، صغير السن، أول من نهج سبيله وسهل الطريق إليه امرؤ القيس بن حجر، ومهلهل بن ربيعة فإذا استظهرنا الشعر، وجدنا له- إلى أن جاء الله بالإسلام- خمسين ومائة عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمئتي عام". ويبدو مما قاله الجاحظ أن الشعر حديث النشأة وقد ولد خلال المئتي سنة السابقة لمجيء الإسلام، أي منذ أيام امرؤ القيس والمهلهل.

ويرى الباحث أنه ليس من المعقول أن يولد الشعر كامل النضج خلال هذه المدة المذكورة آنفا، فلا بد أن يمر بمراحل متدرجة، من النشأة حتى يصل إلى درجة الكمال ويبلغ أشده، ولعل الجاحظ يعني بمولد الشعر وحدائته أنه وصل إلينا ناضجا وفي كامل صورته.

ويرى نيكلسون⁽³⁾: "أن العصر الذهبي للشعر العربي القديم إنما يعود إلى السنوات العشر

(1) - الطاهر ذراع: المجتمع العربي القديم، ج 2، ص 265.

(2) - كتاب الحيوان، مج، ص ص 52-53.

(3) - نيكلسون (R.) "Nicholson": (1868م - 1945م) مستشرق إنجليزي يعد بعد ماسينيون Massignon أكبر الباحثين في التصوف الإسلامي، اهتم بالأدب العربي والشعر الفارسي، يتقن اللغتين العربية والفارسية، ومن أبرز إنتاجاته العلمية: كتابه "تاريخ الأدب العربي-Literary History of the Arabs" 1907م. عبد الرحمن بدوي: المرجع السابق، ص ص 593-594.

الأولى من القرن السادس الميلادي⁽¹⁾.

أما جورجى زيدان⁽²⁾ فيذهب إلى أبعد من ذلك حيث يرى: "أن ازدهار الشعر القديم يعود إلى أواخر القرن الخامس الميلادي، أي بعد استقلال عرب الحجاز عن اليمن وبداية الحروب بين القبائل العربية، كحرب البسبوس وداحس والغبراء، وعام الفيل، وحرب الفجار، فقد كانت تحدو الشعراء الرغبة في تسجيل أيامهم".

للشعر العربي القديم أبواب رئيسة مستقلة، وأغراض متعددة، ولعل أقدم من حاول تقسيم هذا الشعر حسب موضوعاته هو أبو تمام^(*)، فقد نظم في عشر موضوعات هي الحماسة والمرثي والنسيب والهجاء والأضياف، ومعهم المديح، والصفات، والسير والنعاس، والملح، ومذمة النساء. على أن هناك تداخل بين الموضوعات، وقد نجد أغراضا شعرية في موضوع واحد، فموضوع الأضياف مثلا إما أن يدخل في المديح أو في الحماسة والفخر، والسير والنعاس يدخلان في الصفات، كما تدخل مذمة النساء في الهجاء، أما الملح فموضوع غير واضح الدلالة، ويبدو أن المقصود منه المعنى التهذيبي وقد يتناول وصف الخمر.

ويقسم قدامة بن جعفر أغراض الشعر إلى ستة موضوعات وهي: المديح والهجاء والنسيب والمرثي والوصف والتشبيه، وقد حاول أن يقسم الشعر كله إلى بابين أو موضوعين رئيسيين هما: المدح والهجاء⁽³⁾.

أما ابن رشيق⁽⁴⁾ فقد قسم موضوعات الشعر في كتابه "العمدة" إلى تسعة وهي: النسيب والمديح والإنذار والافتخار والرياء والاقتضاء والاستتجاز والعتاب، والوعيد والإنذار، والهجاء والاعتذار، وأغفل موضوع الوصف.

(1) - تاريخ الأدب العربي، ترجمة محمد حبشي، "مجلة الرسالة"، 1937م، ص 191.

(2) - تاريخ آداب اللغة العربية، ج1، ص ص 65 - 66.

(*) - أبو تمام (ت 232 هـ) : هو حبيب بن أوس الطائي، ولد في منبج في بلاد الشام ثم انتقل إلى مصر وكان يسقي الماء في الجامع بالفسطاط ثم جالس الأدباء والعلماء، وأخذ عنهم العلم، ذاع صيته في بغداد حاضرة الأدب، جمع مختارات من الشعر القديم في كتاب سماه " الحماسة " ويعرف " بحماسة أبي تمام " تميزا لها عن حماسة البحري. ابن خلكان: المصدر السابق، ج2، ص 11، الأصبهاني: المصدر السابق، ج15، ص 96، ابن النديم: المصدر السابق، ص 316، جورجى زيدان: المرجع السابق، مج1، ج2، ص ص 374 - 377.

(3) - بطرس البستاني: المرجع السابق، ص 41، شوقي الضيف: المرجع السابق، ص 195.

(4) - العمدة في صناعة الشعر ونقده، تحقيق عبد الواحد شعلان النبوي، ج2، ط1، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1420هـ - 2000م، ص 769.

ويورد أبو هلال العسكري^(*) (1): أن أقسام الشعر القديم خمسة وهي: المديح والهجاء والوصف والتشبيه والمرثي، وزاد النابغة فيها قسما سادسا وهو الاعتذار.

غير أن الباحث لا يستطيع ترتيب هذه الموضوعات في الشعر العربي القديم ترتيبا تاريخيا، وأن يحدد أيها أفضل وأسبق إلى الظهور، وكيف نشأت وتطورت، وإن كان من الأرجح حسب اعتقادي ومن خلال ما اطّلت عليه من مصادر ومراجع في الأدب والشعر القديم أن هذه الموضوعات تطورت من أناشيد وتعويزات دينية كانوا يتقربون بها للآلهة ويستسقون بها المطر، ويستعينون بها على العدو، ومن ثمّ نشأ شعر هجاء العدو ومدح الفرسان والأبطال والسادة، كما نشأ شعر الرثاء، وكان في الأصل عبارة عن تعويذات للميت ومعنى ذلك أن موضوعات الشعر القديم تطورت من تعويذات دينية أو أدعية وابتهالات للآلهة إلى موضوعات رئيسة مستقلة⁽²⁾.

ومن الشواهد القرآنية على وجود هذه العلاقة القديمة بين الشعر ودعاء الآلهة، ما ورد في القرآن الكريم من الربط بين الشعر والسحر وتعاويد الكهنة، فسكان مكة كانوا في بداية الدعوة المحمدية يرمون الرسول (صلى الله عليه وسلم) بأنه شاعر تارة، وبأنه ساحر تارة ثانية، وبأنه كاهن تارة ثالثة، قال تعالى⁽³⁾: ﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

وقد رد عليهم القرآن الكريم دعواهم الكاذبة بقوله تعالى⁽⁴⁾: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلَا يَقُولُ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وكانوا يزعمون أن الشياطين تنزل على الشعراء كما تنزل على الكهان، ويرد عليهم القرآن في

قوله عز وجل⁽⁵⁾: ﴿وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَظِيلُونَ * إِنْهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَرُؤُونَ﴾.

ثم يقول تعالى⁽⁶⁾: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ * تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ آفَاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ * وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ

(*) - أبو هلال العسكري (ت 395هـ): هو الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العالم اللغوي تلقى العلم في بغداد والبصرة وأصبهان، وهو مؤلف كتاب الصناعتين، وديوان المعاني، وجمهرة الأمثال. جورج زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، مج1، ج2، ص 594، ياقوت الحموي: معجم الأديباء، ج2، ص ص 918-919.

(1) - ديوان المعاني، ج1، مكتبة القدسي، القاهرة، 1352هـ، ص 91.

(2) - كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ج1، ص 44.

(3) - سورة المائدة: الآية 110.

(4) - سورة الحاقة: الآيات 40-43.

(5) - سورة الشعراء: الآيات 210-212.

(6) - سورة الشعراء: الآيات 221-227.

يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾

وقد سجل الشعر العربي القديم أغراضا عدة يمكن إيجازها فيما يأتي:

1- الشعر الغنائي "Lyrique"

2- الشعر القصصي "Epique".

3- الشعر التمثيلي "Dramatique"

وحسب جورج زيدان⁽¹⁾، وأحمد حسن الزيات⁽²⁾ فإن الشعر الغنائي أو الوجداني "Lyrique"^(٥) هو أن يستمد الشاعر من طبعه وينقل عن قلبه ويعبر عن شعوره وعواطفه. وقد عرف هذا اللون منذ القديم لدى اليونان، إذ عرفوا المديح والهجاء والغزل والوصف والثناء. وفي اعتقادي أن الشعر العربي القديم كله غنائي إذ يماثل الأصول اليونانية والغربية، من حيث أنه كان يغنى غناء، ولأن هذا اللون من الشعر كان يصور نفسية الفرد وما يحتاجه من عواطف وأحاسيس حين يمدح أو يفخر أو يهجو أو يتغزل أو يرثي أو يصف ما يقع عليه نظره في الجزيرة العربية.

وقد غنى المهلهل^(**) في قصيدته :

ء لعوب لذيدة في العناق⁽³⁾

طفلة ما ابنة المحلل بيضا

(1) - تاريخ آداب اللغة العربية، مج1، ج1، ص ص 54 - 55.

Bertram Thomas : Op.cit, p 11

(2) - تاريخ الأدب العربي، ص 30،

(٥) - كان قول الشعر عند اليونان يصحب بألة موسيقية يعزف عليها تسمى " لير - Lyre " ومن ثم سموه " Lyric " أي غنائي. شوق الضيف: المرجع السابق، ص 190.

(**) - المهلهل (ت نحو 531م): هو عدي بن ربيعة بن الحارث بن زهير بن جشم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غانم بن تغلب، أخو كليب من نجد من شعراء الطبقة الأولى، كان فصيحاً شديداً البأس في الحروب، سمي مهلهلاً لأنه هلهل الشعر أي أرقه، وسماه أخو كليب " زير النساء " وقيل هو أول من قصد القصائد، وقد ذكر الأمدى عشرة من الشعراء ممن اسمهم امرؤ القيس. البكري: سمط اللالي في شرح أمالي القالي، تحقيق عبد العزيز الميمني، ج1، القاهرة، 1936م، ص 111، الأمدى: المؤلف والمختلف، تعليق ف. كرنكو، مكتبة القدسي، القاهرة، 1354هـ - 1935م، ص11، الأصبهاني: المصدر السابق، ج4، ص 148، المرزباني: معجم الشعراء، تحقيق سالم الكرنكوي، مكتبة القدسي، القاهرة، 1354هـ - 1935م، ص 248، عبد القادر البغدادي: خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ج2، ط3، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1989م، ص 164، لويس شيخو: شعراء النصرانية، ص160، ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ج1، ص 297.

(3) - شوقي ضيف: المرجع السابق، ص 190.

وكان الأعشى^(*) يوقّع شعره على الآلة الموسيقية المعروفة باسم الصنج ولعله من ذلك سمي "صناجة العرب" وهو لقب لم يطلق في الشعر العربي القديم إلا عليه، ولأنه أول من ذكر الصنج في شعره فقال:

ومستجيب لصوت الصنج تسمعه إذا ترجع فيه القينة^(**)الفضل⁽¹⁾

أما الشعر القصصي "Epique" فهو من أقدم ألوان الشعر، ويعنى بسرد الأحداث من الشعر موزونا أو غير موزون على سبيل القصة، وغالبا ما تكون هذه القصة دينية وأبطالها الآلهة، كالإيافة هوميروس^(***) وإيافة الشاعر الروماني فرجيل، والمها بهاراتا الهندية، والشهنامة الفارسية⁽²⁾.

وقد نظم العرب القدامى أشعارا دينية كانوا يخاطبون بها أصنامهم مثل: هبل واللات والعزى، بيد أنها ضاعت لعدم تدوينها لبعدها الفترة بين هذا اللون من الشعر وعصر التدوين، والتي تزيد عن القرن ونصف، وقد تصل إلى قرنين من الزمان، وسبق وأن أوضحنا في المبحث الثاني من هذا الفصل أن عصر التدوين والكتابة بدأ مع أوائل القرن الرابع الميلادي.

أما الشعر التمثيلي "Dramatique": فهو الوجهة العملية من الشعر ويراد به تمثيل الوقائع التي ترمي إلى الموعدة والحكمة سواء مثلت على المسرح أو لم تمثل⁽³⁾.

ويبدو مما ذكره الباحثون في آداب اللغة العربية، أن الشعر العربي القديم لم يكن فيه شيء من التمثيل، ذلك أن العرب مثل سائر الشعوب السامية كانوا أكثر ميلا إلى الواقعية متأثرين في ذلك ببيئتهم الطبيعية وبالأوضاع التي تعيشها شبه الجزيرة العربية.

(*) - الأعشى: (ت 7هـ / 629م) هو ميمون بن قيس بن جندل بن شرحبيل بن بكر بن وائل بن ربيعة، أحد أمراء الشعراء المتكسبين به، نشأ باليمامة، يكنى أبا بصير، كان نصرانيا، وهو أول من سأل بشعره وكان يغني فسمي "صناجة العرب"، وقد اختلف الباحثون في كنيته: فقال البعض أنه كان أعشى النظر، وقيل كان أعمى ويرى آخرون أنه كني بأبي بصير لأنه أنجب ولدا عرف بذلك الاسم، وقد أحصى الأمدي سبعة عشر شاعرا ممن اسمهم الأعشى. المرزباني: المصدر السابق، ص 401، الأمدي: المصدر السابق، ص 12، الأصبهاني: المصدر السابق، ج10، ص136، ج5، ص50، ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ج1، ص275، أبو زيد القرشي: المصدر السابق، ص55. (**)- القينة: الفتاة المغنية والتي تؤنس الرجال عند العرب القدامى. عمر فروخ: العرب في حضارتهم وثقافتهم، ص116.

(¹) - ابن قتيبة: المصدر السابق، ج1، ص275، التبريزي: شرح المعلمات العشر، ص ص 342-343. (***) - لعل إيافة هوميروس أقدم ديوان شعري لأنه نظم نحو القرن التاسع قبل الميلاد، وتضم أربعة عشر ألف (14.000) بيت. جورج زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، مج1، ج1، ص57.

(²) - علي أحمد الخطيب: الشعر الجاهلي بين الرواية والتدوين، ط1، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 2003م، ص ص 73-74.

(³) - جورج زيدان: المرجع السابق، مج1، ج1، ص56.

أولاً: الوصف:

يعد الوصف أعظم ركن يعتمد عليه الشعر العربي القديم في مختلف أغراضه وأبوابه، فالشاعر لا يصف إلا ما يؤثر في نفسه وما يعايشه بجوارحه، ويسمعه ويراه. يعتمد الشعر القديم في أكثره على الوصف، ويؤثر الإيجاز على الإسهاب، والجزئيات على الكلّيات، فلو أن الشاعر أراد أن يصف معركة، فإنه يبدأ ببضعة أبيات يصف فيها فرسه وسيفه⁽¹⁾.

يمكن للباحث أن يلتبس أغراضاً شعرية متعددة في موضوع واحد، لذلك نجد صور متداخلة في اللفظ ومختلفة في المعنى.

وفي هذا السياق يعتبر الوصف بنوعيه المادي والمعنوي في مقدمة هذه الأغراض، فإذا قارنا مثلاً بين ثلاثة أغراض: المدح والطلل والغزل فإننا نجد أن مظاهر الوصف ماثلة فيها⁽²⁾.

وقد وصف الشاعر العربي القديم كل شيء وقعت عليه عيناه في البادية، فوصف الصحراء وبيئته الطبيعية وصفاً دقيقاً، بفيافيها وكثبانها وشعابها ووديانها وجبالها ونباتاتها وحيواناتها، كما وصف مختلف الظواهر الطبيعية كالسحب والأمطار والرياح والبرق والرعد⁽³⁾.

ولعل الوصف النبليغ الوحيد للواحة نجده في أبيات لحسان بن ثابت⁽⁴⁾ قال:

لنا حرّة مَطُورَة بجبالها	بنى المجد فيها بيته فتأهلا
بها النخل والأطام تجري خلالها	جداول قد تعلق رقاقا وجـرولا
إذا جدول منها تصرّم مأؤه	وصلنا إليه بالنواضج جـدولا
على كل مفهاق خسيف غروبها	تفرغ في حوض من الصخر أنجلا ⁽⁴⁾

وفي مجال وصف الحيوان بالغ الشاعر العربي القديم في وصف الفرس الذي يأتي في الدرجة الثانية بعد الجمل من بين الحيوانات التي استرعت اهتمام الشعراء.

(1) - بطرس البستاني: المرجع السابق، ص ص 46-47.

(2) - الطاهر ذراع: المجتمع العربي القديم، ج2، ص 265.

(3) - Ibn Qotaiba : Introduction au livre de la poésie et des poètes, Traduction et commentaire Gaudefroy- Demombynes, les belles lettres, Paris, 1947, p 17.

(4) - حسان بن ثابت: (ت ما بين 40-54هـ / 660-673م) هو أبو الوليد بن ثابت بن المنذر الأنصاري من بني النجار ينتهي نسبه إلى يعرب بن قحطان، عاش في الجاهلية ستون سنة وفي الإسلام ستون سنة، اشتهر قبل الإسلام بمدح ملوك غسان والحيرة وبعد الإسلام بمدح النبي (صلى الله عليه وسلم) فعرف بشاعر النبي (صلى الله عليه وسلم)، يعد من أشهر وأشعر أهل المدن في ذلك العصر، وكان شديد الهجاء. الأمدي: المصدر السابق، ص 89، المرزباني: المصدر السابق، ص ص 222، 317، ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ج1، ص 305، عبد القادر البغدادي: المصدر السابق، ج1، ص 227، القرشي: المصدر السابق، ص 187، رجب بلشير: المرجع السابق، ج1، ص ص 315-318.

(4) - ديوان حسان بن ثابت، ص 208، رجب بلشير : المرجع السابق، ص ص 492-493.

فقد وصف امرؤ القيس^(*) فرسه في معلقته وفيها يقول:

مكر مفر مقبل مدبر معا	كجلمود الصخر حطه السيل من عل
كميت يزل اللبد عن حال متته	كما زلت الصفواء بالمتنزل
يزل الغلام الحف عن سهواته	ويلوي بأثواب العنيف المثقل
له أيطلا ظبي وساقا نعامة	وإرخاء سرحان وتقريب تنقل ⁽¹⁾

كما يصف طرفة بن العبد^(**) الخيل فقال:

ولقد شهدت الخيل وهي مغيرة	ولقد طعننت مجامع الربلات
ربلات جود تحت قدّ بارع	حلو الشمائل خيرة الهلكات
ربلات خيل ما تزال مغيرة	يقطرن من علق على الثنات ⁽²⁾

ويتضح من الأبيات السابقة أن وصف الشاعر للخيل كان دقيقاً، فقد ذكر الربلات وهي كل لحمة غليظة وأصول الأفخاذ، أما الثنات فهي تلك الشعرات التي في مؤخر رجل الفرس. وقد أخذ طرفة يصف كل جزء من جسم ناقته فيقول عنها في معلقته:

وإني لأمضي الهمّ عند احتضاره	بعوجاء مرقال تروح وتغتدي
أمون كألواح الأران نساتها	على لاحب كأنه ظهر برجد
تباري عناقا ناجيات وأتبعت	وظيفا وظيفا فرق مور معبد
تربعت الفقين في الشول ترتعي	حدائق موليّ الأسرة أغيّد ⁽³⁾

(*)-امرؤ القيس: (497 - 545م) بن حجر بن الحارث من قبيلة كندة وهي قبيلة يمنية، ولد بنجد، واشتهر بامرؤ القيس واسمه: حندج بن حجر، كان أبوه ملك أسد وغطفان، وأمه أخت المهلهل الشاعر، لقب بالملك الضليل ويكنى بذي القروح، توفي مسموماً في أنقرة من بلاد الروم. الزوزني: المصدر السابق، ص 11، ابن قتيبة: المصدر السابق، ج 1، ص 105، الأصبهاني: المصدر السابق، ج 2، ص 19، الأمدي: المصدر السابق، ص 9، عبد القادر البغدادي: المصدر السابق، ج 1، ص 330، عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، ج 1، ص 116 - 117.

(¹)- ديوان امرؤ القيس: ضبط وتصحيح مصطفى عبد الشافي، ط 5، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004م، ص 119.
(^{**})- طرفة بن العبد: (538 - 564م) هو أبو عمرو طرفة بن العبد بكر بن وائل بن ربيعة ابن أخت جرير بن عبد المسيح المعروف بالمتلمس، من شعراء الطبقة الأولى، وهو أشعر الشعراء بعد امرؤ القيس، كانت له مكانة بين قومه رغم معاقرة الخمر، قتل وهو صغير السن ست وعشرين (26) سنة، قتله المكعبر بالبحرين، وقد ذكر الأمدي أربعة من الشعراء ممن اسمه طرفة. التبريزي: المصدر السابق، ص 74، ابن قتيبة: المصدر السابق، ج 1، ص 185، الأمدي: المصدر السابق، ص 146، المرزباني: المصدر السابق، ص 201 - 202، عبد القادر البغدادي: المصدر السابق، ج 2، ص 419، عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي القديم، ج 1، ص 135.

(²)- طرفة بن العبد: ديوان، دار صادر، بيروت، (د.ت)، ص 14.

(³)- ديوان طرفة، ص 22، علي الجندي: عيون الشعر العربي القديم، ج 1، "المعلقات السبع"، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2000م، ص 50.

أبدع الشاعر في وصف جسم الناقة وأعضائها وما فيها من قوة وشدة وخفة في الحركة، فهي التي يلجأ إليها لتنسيه الهم، وإبعاد الضيق، كما تعينه في قضاء حاجاته والقيام بواجباته، وتحقيق المفاخر والأمجاد، وأنها ذلول مطيعة وتبعث في نفسه الأمن والطمأنينة.

ووصف الشاعر العربي القديم المرأة وصفا دقيقا تناول فيه حسنها وجمالها، ونجد في هذا البيت عبيد بن الأبرص (*) يصف محبوبته باللآلئ المستخرجة من أعماق الخليج العربي فيقول:

تذكرتهم ما إن تجف مدامعي كأن جدول يسقى مزارع مخروب⁽¹⁾

وفي قصيدة لطرفة بن العبد يصف فيها الحبيبة وجمالها الجسمي، وما تعيش فيه من نعمة ورفاهية إذ يقول:

أصحوت اليوم أم شافتك هرّ
لا يكن حبك داء قاتلا
كيف أرجو حبها من بعدما
أرقّ العين خيال لم يقرّ
ومن الحب جنون مستعر
ليس هذا منك ماويّ بحرّ
علق القلب بنصب مستسر
طاف والركب بصحراء يسر⁽²⁾

لم يقتصر وصف الشاعر العربي القديم للمرأة على الناحية الحسية، من وصف الجسد وأعضائه، وما تتصف به من جمال، بل نجد من الشعراء من أعجب بجمالها الخُلقي وما تتمتع به من كريم الصفات، وحسن الطبع، وجميل العادات.
من ذلك ما ورد للشنفرى^(**) إذ يقول:

(*)-عبيد بن الأبرص: (ت نحو 555م) هو عبيد بن الأبرص الأسدي بن حنتم بن عامر بن فهر بن مالك بن الحارث من أسد، من شعراء الطبقة الأولى، وقد جعله ابن سلام من شعراء الطبقة الرابعة، كان رجلا محتاجا لا مال له، ثم رفع الشعر من قدره، فلم يزل فضله في قومه حتى قتل، وقد عمّر طويلا، كان شاعر بني أسد بلا منازع. ابن قتيبة: المصدر السابق، ج1، ص 267، التبريزي: المصدر السابق، ص 364، أبو زيد القرشي: المصدر السابق، ص 139، عبد القادر البغدادي: المصدر السابق، ج2، 215، لويس شيخو: شعراء النصرانية، ص 596، عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، ج1، ص ص 124-125.

(1) - رجب بلاشير: المرجع السابق، ص 488.

(2) - ديوان طرفة بن العبد، ص 50، أبو سعيد السيرافي: ضرورة الشعر، تحقيق رمضان عبد التواب، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، 1405هـ/ 1985م، ص 80.

(**) - الشنفرى: (ت 510م) هو من الإواس بن الحجر ابن الهنو بن الأزدي، من صعاليك العرب شاعر من أهل اليمن، وزعم بعضهم أن الشنفرى لقبه - ومعناه عظيم الشفة - وأن اسمه ثابت بن جابر، وقد ضرب به المثل في العدو فقيل "أعدى من الشنفرى"، وهو أحد ثلاثة كانوا أعدى العدائين في العرب إلى جانب تأبط شرا وعمرو بن بركة. ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ج1، ص 18، الأصبهاني: المصدر السابق، ج21، ص 134، عبد القادر البغدادي: المصدر السابق، ج3، ص ص 343-345، يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، دار غريب للطباعة، القاهرة، (د.ت.)، ص ص 325-326، جورج زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، مج1، ج1، ص 140.

أميمة لا يخزي نثاها حليلها إذا ذكر النسوان عفت وجلت
إذا هو أمسى أب قرّة عينه مآب السعيد لم يسئل أين ظلت
فدقت وجلت واسبكرت وأكملت فلو جنّ إنسان من الحُسن جُنّت⁽¹⁾

وفي سياق الوصف الحسي كان كثير من الشعراء يصفون ما يحسون به من النشوة والبهجة حينما يؤخذون بجمال المرأة، من ذلك قول النابغة الذبياني^(*)(2):

نظرات بمقلة شادن متربب أحوى أحم المقلتين مقلد
والنظم في سلك يزين نحرها ذهب توقد كالشهاب الموقد
قامت تراءى بين سجفي كلة كالشمس يوم طلوعها بالأسعد
أو درّة صدفية غواصها بهج متى يرها يهل ويسجد

لقد صورّ الشاعر العربي القديم البيئة العربية تصويراً عاماً استوعب فيه جميع ظواهر الحياة في ذلك العصر قبل الإسلام، ففي وصف الصحراء يقول عميرة بن جعل^(**):

ألا يا ديار الحى بالبردان خلت حجج بعدي لهن ثمان
فلم يبق منها غير نؤي مهّم وغير أوار كالركيّ دفان
وغير حطوبات الولا ئد ذعذعت بها الريح والأمطار كل مكان
فقار مرورة يحار بها القطا يظل بها السبعان يعتركان⁽³⁾

(1) - المفضليات، ص ص 108 - 109.

(*) - النابغة الذبياني: (ت 604م) هو زياد بن معاوية من ذبيان من قيس، وهو من الأشراف وأحد الثلاثة المقدمين على سائر الشعراء، كان يفد على النعمان صاحب الحيرة فيمدحه، كانت تضرب له قبة من جلد في سوق عكاظ وجاء الشعراء ينتشرون أشعارهم، وأول من أنشده الأعشى ثم حسان ثم الخنساء وهذا شرف لم ينله أحد من الشعراء سواه. ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ج1، ص 157، الأصبهاني: المصدر السابق، ج9، ص 154، القرشي: المصدر السابق، ص49، جورج زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، مج1، ج1، ص ص 103 - 105.

(2) - النابغة الذبياني: ديوان، شرح وتقديم عباس عبد الساتر، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1406هـ - 1986م، ص ص 106 - 107.

(**) - عميرة بن جعل التغلبي: هو عميرة بن جعل بن عمرو بن مالك بن الحرث بن حبيب، شاعر جاهلي ذكر ابن قتيبة أن عميرة وكعبا ابني جعل أخوان، أما الأمدي فقد فرق بينهما فالأول شاعر جاهلي والثاني شاعر إسلامي كان في زمن معاوية، أما المرزباني فسماه عمير بن جعيل بحذف الهاء في اسمه وبالتصغير في اسم أبيه، وجعلهما البغدادي أخوين،

وهو القائل: فمبلغ عني إياس بن جندل
أخا طارق والقول ذو نفيان
جمعت ردينيا كأن سنانه فلا توعدني بالسلاح فإنما
جمعت سلاحي رهبة الحدثنان سنا لهب لم يتصل بدخان

ابن قتيبة: المصدر السابق، ج2، ص 649، الأمدي: المصدر السابق، ص 83، المرزباني: المصدر السابق، ص245، عبد القادر البغدادي: المصدر السابق، ج3، ص ص 50 - 51.

(3) - المفضليات، ص ص 258 - 259.

وفي هذه البيئة الصحراوية المترامية الأطراف التي تتميز بمظاهرها الطبيعية المختلفة، ولئن كان الحر بها شديدا في الصيف، فإن ذلك لا يمنع من وجود بعض الأمكنة التي تهطل فيها الأمطار المصحوبة بالبرق والرعد وبخاصة في أعالي الجبال، ومما قيل في تلك الظواهر ما ورد لإمرئ القيس إذ يقول⁽¹⁾:

أصاح ترى برقاً أريك وميضه كلمع اليدين في حبي مكلّ
يضيء سناه أو مصابيح راهب أهان السليط بالذبال المقتل
قعدت له وصحبتني بين ضارج وبين العذيب بُعداً ما متأمل
وأضحى يسحّ الماء في كل فيقة يكبّ على الأذقان دوح الكنهل

وقد نبغ الشعراء القدامى في وصف الكواكب والنجوم، والليل والنهار، وما من شاعر إلا وله وقفة مع الظواهر الفلكية المختلفة.

وفي هذا السياق قال المهلهل⁽²⁾:

بتّ ليلي بالأنغمين طويلاً أرقب النجم ساهراً أن يزولا

وهذا امرؤ القيس يعبر عن أحزانه بثقل الليل وطوله فقال:

ألا أيها الليل الطويل ألا انجل بصبح وما الأصباح منك بأمتل
فيا لك من ليل كأن نجومه بكل مغار الفتل شدت ببذبل
كأن الثريا علقت في مصابها بأمراس كتان إلى صم جندل⁽³⁾

غير أن المهلهل فاق أقرانه من الشعراء بذكر النجوم التي كان يساهاها ويراقبها علامة على يقظته ليلاً وقد صورها في دقة متناهية فقال⁽⁴⁾:

كأن كواكب الجوزاء عوزٌ معطفة على ربع كسير
تلاًلاً واستهل لها سهيل يلوح كقمة الجمل العذير
وتحنو الشعريان إلى سهيل كفعل الطالب القذف النعور

ويبدو من هذه الأبيات أن الشاعر له دراية بالكواكب حتى أنه يسترسل في ذكرها كالجوزاء والشعريان والجدى وبنات نعش والفرقدين، بل وله معرفة بحركاتها وبزوغها وغروبها، وكادت هذه الكواكب أن تستولي على معظم قصيدته الرائية.

(1) - ديوان امرئ القيس، ص 121، التبريزي: المصدر السابق، ص ص 65 - 68.

(2) - ديوانه، شرح وتحقيق محمد علي أسعد، ط1، دار الفكر العربي، بيروت، 2000م، ص 53.

(3) - الشنتمري: ديوان امرئ القيس بن حجر الكندي، تصحيح ابن أبي شنب، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،

الجزائر، 1391هـ - 1974م، ص 81، الزوزني: المصدر السابق، ص ص 29 - 30.

(4) - ديوان المهلهل، ص 54.

ثانياً: الفخر:

الفخر هو التغني بالأمجاد ويكون بادعاء أشياء للنفس أو القبيلة، وهو في الشعر العربي القديم نوعان: شخصي، وقبلية، وقد برع العديد من الشعراء العرب القدامى فيه⁽¹⁾، أذكر من أبرزهم أصحاب المعلقات: طرفة بن العبد، الأعشى، وعنترة العبيسي، ومن الشعراء الصعاليك: السليك بن السلعة، تأبط شرا، وعروة بن الورد، ومن سائر الشعراء القدامى المنخل اليشكري.

إن باب الفخر في الشعر القديم وإن اتسعت موضوعاته من فخر الفارس ببطولاته وذكر وقائعه، ووصف فرسه وسلاحه، إلى موضوعات غير الفروسية، كالنسب والسيادة والكرم والأخلاق، فإنه لا يخلو أصلاً من المباهاة بالشجاعة والإقدام، ولذلك من غير الممكن الفصل بين الفخر والحماسة، فلا فخر بدون حماسة، ولا حماسة بدون فخر، فالحماسة هي الفخر بعينه، ويرى ابن رشيق⁽²⁾: "أن الفخر هو المدح نفسه إلا أن الشاعر يخص نفسه وقومه".

ومن أمثلة الفخر ما جاء في قصيدة لسويد بن أبي كاهل اليشكري^(*) يتغنى بأمجاد قومه إذ

يقول:

عاجل الفحش ولا سوء الجزع	من أناس ليس من أخلاقهم
عند مرّ الأمر ما فينا خرع	عُرِفَ للحق ما نعياب به
في قدور مشبعات لم تجع	وإذا هبت شمالاً أطمعوا
أبدا منهم ولا يخشى الطبع	لا يخاف الغدر من جاورهم
ومراجيح إذا جدّ الفزع ⁽³⁾	حسنو الأوجه بيض سادة

وأحسن ما ورد في الفخر بالقبيلة ما قاله طرفة بن العبد⁽⁴⁾:

بقوانا يوم تحلاق للمم.	سائلوا عنا الذي يعرفنا
وتلف الخيل أعراج النعم.	يوم تبدي البيض عن أسوقها
حازم الأمر شجاع في الوغم.	أجدر الناس برأس صلدم
نبه سيد سادات خضم.	كامل يحمل آلاء الفتى

(1) - علي الجندي: في تاريخ الأدب الجاهلي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998، ص 364.

(2) - العمدة في صناعة الشعر ونقده، ج2، ص 162.

(*) - سويد بن أبي كاهل اليشكري: (ت سنة 600م) هو سويد بن أبي كاهل بن حارثة بن حسل بن مالك، شاعر مخضرم عاش قبل الإسلام وبعده، عمر طويلاً، عاش إلى ما بعد سنة 60 هجرية. ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ج1، ص 421، المفضليات، ص 190، لويس شيخو: شعراء النصرانية، ص 425.

(3) - المفضليات، ص 195.

(4) - ديوانه، المصدر السابق، ص 90.

لقد أظهر الشاعر في هذه الأبيات مظاهر الفخر بقومه بنو بكر حينما واجهوا تغلب في حرب البسوس^(*) وكان الحارث بن عباد أشار على قومه قبل بدء القتال أن يحلقوا رؤوسهم ليكونوا علامة تميزهم عن أعدائهم، فسمي ذلك اليوم بيوم تحلاق اللمم وهو يوم فضة، والشاعر هنا يتحدث عن بطولات قومه في هذه الحرب التي ذكرها المؤرخون والإخباريون.

وما قيل في الناحية القبلية يقال في الناحية الشخصية، فقد كان الشاعر العربي القديم شديد الإعجاب بنفسه، وفي بعض الأحيان كان يفخر بتفوق فرعه على بقية فروع قبيلته الآخرين، فيدعي أنه نال من الأمجاد والبطولة والفوز ما لم يستطيع الآخرون أن يصلوا إليه، وأبرز مثل ذلك ما قاله عمرو بن كلثوم^(**):

وكنا الأيمنين إذا إتقينا	وكان الأيسرين بنو أئينا.
فصالوا صولة فيمن يليهم	وصلنا صولة فيمن يلينا.
فأبوا بالنهاب والسبايا	وأبنا بالملوك مصفدينا ⁽¹⁾ .

وللمنخل اليشكري^(***) قصيدة في الفخر يقول في مطلعها:

إن كنت عاذلتني فسيري	نحو العراق ولا تحوري.
ولقد شربت من المرا	مة بالصغير وبالكبير.
فإذا انتثيت فإنني	رب الخورنق والسدير.

(*) - حرب البسوس: وقعت هذه الحرب بين بكر وتغلب ابني وائل، كانت معارك متفرقة حيناً ومتباعدة حيناً آخر، ودامت نحو أربعين (40) سنة، منذ نشوبها في العشر سنين الأخيرة من القرن الخامس الميلادي، إلى أن انسحب عدي بن ربيعة (المعروف بالمهلل) سنة 525م وقد ضرب العرب المثل بحرب البسوس فقالوا: " أشأم من سراب"، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج1، ص ص 214- 222، عمر فروخ: تاريخ الجاهلية، ص 98، السيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب قبل الإسلام، ص 378، محمد أحمد جاد المولى وآخرون: أيام العرب في الجاهلية، دار الجيل، بيروت، 1408هـ - 1988م، ص 142.

(**) - عمرو بن كلثوم: (450م - 600م) هو عمر بن كلثوم بن مالك بن عتاب بن نزار بن معد بن عدنان التغلبي، يكنى أبا الأسود وقيل أبا عمير، وأمه ليلي بنت المهلهل أخي كليب، ساد قومه بني تغلب وعمره 15 سنة، قيل أنه عمر طويلاً حيث عاش 150 سنة، اشتهر بملعقته التي هي الملعة الخامسة في المعلقات والتي مطلعها:

ألا هبي بصحنك فأصبحينا ولا تبقي خمور الأندرينا.

ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ج1، ص 234، أبو زيد القرشي: المصدر السابق، ص 117، التبريزي: المصدر السابق، ص 252، الزوزني: المصدر السابق، ص 111، البغدادي: المصدر السابق، ج3، ص 183.

(¹) - الزوزني: المصدر السابق، ص 123، علي الجندي: عيون الشعر العربي القديم، ج1، ص 229.

(***) - المنخل اليشكري: (ت سنة 597م) هو المنخل بن عبيد من يشكر من بكر وائل (ربيعة)، شاعر مقل كان ينادم النعمان مع النابغة الذبياني، ولكن النعمان كان يؤثر شعر النابغة على شعره، اتهمه النعمان بإمرأته، فقتله ويقال انه دفنه حياً. ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ج1، ص 404، الأصبهاني: المصدر السابق، ج18، ص 152، لويس شيخو: شعراء النصرانية، ص 421.

وإذا صحت فإنني رب الشويهة والبعير⁽¹⁾.

ويبدو من الأبيات السابقة أن الشاعر كان يحب أن يظهر نفسه دائماً بمظهر التفوق التام على الآخرين، وأنه أعلى شأنًا من غيره، ويتضح من قصائد الفخر أن الميل إلى الإعجاب الشديد بالنفس كان متسلطاً على الشعراء القدامى وعلى العرب قبل الإسلام عامة لدرجة عظيمة.

ثالثاً: المدح:

هو الثناء والاعتراف بالفضل والتفوق في الصفات الحميدة والأخلاق الكريمة⁽²⁾، ويأتي المدح في المرتبة الثانية بعد الوصف ضمن الأغراض الشعرية الغنائية المتعددة، والمدح إما أن يكون مادياً يركز فيه الشاعر على محاسن الممدوح المادية المحسوسة، وإما أن يكون معنوياً حيث يشير الشاعر بمناقب الممدوح وفضائله وشمائله وأخلاقه⁽³⁾. وكانوا يمدحون إشادة بعظيم أو إعجاباً لعمل جليل والمدح هنا نابع من الصدق والوفاء، وقد يكون رغبة في كسب مادي أو معروف أو حبا في العطايا والمنح وهو مدح فيه مجاملة وكذب وتملق.

يرى ابن رشيق⁽⁴⁾: " أن سبيل الشاعر إذا مدح ملكاً - أن يسلك طريقة الإيضاح والإشادة بذكره للممدوح وأن يجعل معانيه جزلة وألفاظه نقية غير مبتذلة سوقية، ويجتنب مع ذلك - التقصير والتجاوز والتطويل".

وقد حفل الشعر العربي القديم بأسماء لامعة من الشعراء الفحول في مجال المدح أذكر منهم: امرؤ القيس والحطيئة^(*) وزهير بن أبي سلمى والنابغة الذبياني والأعشى وطرفة بن العبد، وعدي بن زيد.

وقد اشتهر بالمدح ثلاثة من الشعراء هم: زهير بن أبي سلمى، النابغة الذبياني، وأعشى قيس.

(1) - جورج زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، مج1، ج1، ص 157، الأصبهاني: المصدر السابق، ج18، ص ص 155-156، المرزوقي: شرح ديوان الحماسة، نشره احمد أمين وعبد السلام هارون، ط1، مج1، ج2، دار الجيل، بيروت، 1991م، ص 523.

(2) - علي الجندي: في تاريخ الأدب الجاهلي، ص 382.

(3) - الطاهر ذراع: المجتمع العربي القديم...، ج2، ص 268.

(4) - العمدة في صناعة الشعر، ج2، ص 148، المرزباني: المصدر السابق، ص 338،

(*) - الحطيئة: (ت حوالي 41-42هـ/ 661-662م) هو جرول بن أوس بن مالك، من بني عيس، كنيته أبو مليكة، اختلف في تلقيه بالحطيئة، فقبل لقصره، وقيل لدمامته، وهو أحد فحول الشعراء، متصرف في فنون الشعر من المديح والهجاء والفخر والنسيب، كان سفيها شريفاً، شديد الهجاء لذلك كانت العرب تخاف لسانه، وهو من الشعراء المخضرمين، وذكر ابن حجر أنه عاش إلى زمن معاوية، البغدادي: المصدر السابق، ج2، ص ص 406-410، الأصبهاني: المصدر السابق، ج2، ص 41، ابن قتيبة: المصدر السابق، ج1، ص 322، أبو زيد القرشي: المصدر السابق، ص 244، ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، ج3، ط1، تحقيق طه محمد الزيني، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1390هـ - 1970م، ص ص 10-11.

كان زهير يعجب بالعظماء وبأعمالهم الجليلة، ويشيد بمآثرهم وأفضالهم، وقيل أنه كان لا يمدح الشخص إلا بما فيه، وقد أشاد في معلقته بالحارث بن عوف وهرم بن سنان لما قاما به من الصلح وإنهاء حرب داحس والغبراء^(*)، بين عبس وذبيان ومن مدائحه في "هرم بن سنان" قوله:

لعمر أبيك ما هرم بن سلمى بلحي إذ اللؤماء ليـموا.
ولا ساهي الفؤاد ولا عيي الـ للسان إذا تشاجرت الخصوم.
ولكن عصمة في كل أمر يطيف به المخول والعديم⁽¹⁾.
متى تسدد به لهوات ثغر يشار إليه جانبه سقيم⁽²⁾.

أما النابغة الذبياني فكان يمدح الملوك والعظماء، من ذلك قوله في مدح عمرو بن الحارث الأصغر بن الحارث الأكبر الغساني حين لجأ إليه في الشام:

كليني لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطيء الكواكب.
تطاول حتى قلت ليس بمنقض وليس الذي يرعى النجوم بأيب.
وصدر أراح الليل عازب همه تضاعف فيه الهم من كل جانب.
على لعمرو نعمة بعد نعمة لو الده ليست بذات عقارب.
حلفت يمينا غير ذي مثوية ولا علم غلا حسن ظن بصاحب⁽³⁾.

وقد بالغ النابغة في المدح، وقلما نجد شاعرا مداحا من الشعراء القدامى يغلو غلو النابغة في وصف سيوف الغساسنة حيث يقول:

تقد السلوقي المضاعف نسجه وتوقد بالصفاح نار الحباب⁽⁴⁾.

على أن المدح، وإن صار إلى التكسب المادي في أواخر القرن السادس الميلادي وقبيل ظهور الإسلام، فقد كان تأثيره عظيما في الأشخاص والقبائل.

وقد ذكر الإخباريون أن التكسب بالمدح لم يعرف إلا عندما أخذ الشعراء ينزحون عن قبائلهم، ويترددون على القبائل الأخرى، ويقرعون أبواب الملوك والسوقة مستجدين وهاجين من لا يحسن لهم

(*)-كانت هذه الحرب بين عبس وذبيان سجالا وانتهت بالصلح بفضل الدور الذي قام به الحارث بن عوف وهرم بن سنان، وداحس والغبراء: اسما فرسين لقيس بن زهير سيد بني عبس وتشتمل هذه الحرب على أيام المريقب وذي حساء واليعمرية والهباءة، وفروق وقطن، ابن هشام: سيرة النبي (ص)، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ج1، دار الفكر، القاهرة، 1401هـ- 1981م، ص ص 306-308، لويس شيخو: شعراء النصرانية، ص 917، الزوزني: المصدر السابق، ص 89، الأصبهاني: المصدر السابق، ج16، ص 26، محمد أحمد جاد المولى وآخرون: أيام العرب في الجاهلية، ص 246، الميداني: مجمع الأمثال، مج2، ط2، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، دت، ص ص 76-80.

(1)- هكذا ورد في شرح ثعلب، وفي الشنتمري: "وهو غيث لنا، في كل عام يلوذ به.....".

(2)- ديوان زهير بن أبي سلمى، ص 119، علي الجندي: عيون الشعر العربي القديم، ج1، ص 326.

(3)- ديوان النابغة، ص 29.

(4)- المصدر نفسه، ص 32.

العطاء⁽¹⁾.

كان المدح يرفع شأن الخامل وينثر ذكره بين الناس، وفي هذا السياق كان عبد العزى بن عامر رجلا كثير البنات سيء الحال رغب طلاب الزواج عن بناته فمدحه الأعشى بقصيدة جاء فيها:

أبا مسمع سار الذي قد صنعتم فأوجد أقوام بذاك وأعرقوا.
يداك يدا صدق فكف مفيـدة وأخرى إذا ما ضن بالزاد تنفق⁽²⁾.

فسار ذكره، وحسنت حاله وتزوجت بناته، وارتفع شأن بنو أنف الناقة بشعر الحطيئة، فقد كان أنف الناقة جماعة من تميم ينتسبون إلى جدهم، وكانوا يخلجون من هذه النسبة، فزارهم الحطيئة فأكرموا فقال فيهم قصيدة منها:

قوم هم الأنف والأذنان غيرهم ومن يسوي بأنف الناقة الذنبا⁽³⁾؟

فاحترمهم العرب لهذا النسب بعد ذلك، وأصبحوا يفتخرون بانتسابهم إلى جدهم أنف الناقة بعد إن كانوا يخلجون منه.

وكان العرب يمدحون طول القامة وضخم الهامة ورحب الشدق، وبعَد الصوت، ويبدو أن هذه الصفات تنطبق على السيد والشاعر⁽⁴⁾.

وفي هذا السياق كان أبناء عبد المدان يمتازون بطول الأجسام وعظمتها، وكانوا يفتخرون بذلك على الناس، فهجاهم حسان بن ثابت بقصيدة قال فيها:

لا بأس بالقوم من طول ومن غلظ جسم البغال وأحلام العصافير⁽⁵⁾.

فشاع هذا البيت بين الناس ورددوه حتى أصبح عبد المدان يستحقون من طولهم ويتمنون لو كانوا قصارا، فاتصل بعضهم بحسان بن ثابت وقدم له هدية ثمينة، وشكا له ما نالهم بسبب شعره، فقال حسان: سأصلح ما أفسدت، ونظم قصيدة أخرى قال فيها:

وقد كنا نقول إذا إنقينا بذى جسم يهاب وذى بيان.

كانك أيها المعطي بيانا وجسما من عبد المـدان⁽⁶⁾.

وقد ذكر بعض الإخباريين^(*) أن "النايعة الذبياني" أول من سأل بشعره واستعطى، وتكسب مالا

(1) - بطرس البستاني: المرجع السابق، ص 49.

(2) - ديوان الأعشى، ص ص 120 - 121.

(3) - جورجى زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، مج 1، ج 1، ص 147.

(4) - الجاحظ: البيان والتبيين، ج 1، ص 121، رجبى بلاشير: المرجع السابق، ج 1، ص 336.

(5) - ديوان حسان بن ثابت، ص 129.

(6) - أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي، ج 1، تاريخ العرب قبل الإسلام، ط 13، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1988م، ص 156.

(*) - منهم: الأصبهاني، وابن رشيق القيرواني.

جسيما من مدح الملوك حتى أن أكله وشربه كان في صحاف من الذهب والفضة. وتكسب "زهير بن أبي سلمى" بالشعر يسيرا مع "هرم بن سنان"، فلما جاء الأعشى جعل الشعر متجرا يتجر به نحو البلدان فقصد ملوك العجم، ويذكر أكثر العلماء أن الأعشى أول من سأل بشعره، علما أن النابغة أسن منه وأقدم شعرا، وكان يتكسب بالشعر مع "النعمان بن المنذر"⁽¹⁾. ويلاحظ الباحث أن ظاهرة التكسب بالشعر ليست ظاهرة عامة، فبعض الشعراء لم يكن هدفهم من المدح التكسب، إنما هو شكر على معروف كمدح امرؤ القيس للقبائل التي كانت تضيفه أو تجيره بعد مقتل أبيه، فقال في "المعلى التيمي" حين أجاره من "المنذر بن ماء السماء":

أقر حشا امرؤ القيس بن حجر بنو تيم مصابيح الظلام⁽²⁾.

رابعاً: الغزل:

احتل الغزل في الشعر العربي القديم مكانة بارزة، وكان حظه فيه عظيماً، فقد كان فنا مطروقا من جميع الشعراء، واتخذوه حلية لأشعارهم وزينة لقصائدهم. ورد في الاستعمال الأدبي: الغزل، والتشبيب، والنسيب، وقد اختلف الأدباء وعلماء اللغة في تحديد مفهوم هذه الألفاظ الثلاث: هل هي مترادفات تؤدي معنى واحداً؟ أم مختلفات الدلالة؟ يرى ابن رشيق القيرواني⁽³⁾ " أن الغزل والتشبيب والنسيب ألفاظ مترادفة وكلها تؤدي معنى واحداً".

في حين يذكر الزبيدي⁽⁴⁾: أن الكلمات الثلاث مترادفة ثم يحاول أن يفرق بينها^(*). أما رأي الأدباء ومنهم ابن سلام الجمحي حيث قال⁽⁵⁾: " كان لكثير عزة في التشبيب نصيب وافر، وجميل بثينة مقدم عليه في النسيب".

ونلاحظ أن ابن سلام - وهو أول من كتب في تاريخ الأدب - يستعمل الكلمات الثلاث متحدة المعنى، فالغزل والتشبيب والنسيب عنده بمعنى واحد.

(1) - ابن رشيق القيرواني: المصدر السابق، ج1، ص 69.

(2) - ديوان امرؤ القيس، ص 159.

(3) - العمدة في صناعة الشعر ونقده، ج2، ص 137.

(4) - تاج العروس، ج1، ص 308.

(*) -التشبيب ذكر أيام الشباب وهو الغزل ويكون في ابتداء القصائد فهو الإشادة بذكر المحبوب وصفاته وإشهار ذلك، أما الغزل: محادثة النساء ومرادبتهن، وهو الأفعال والأحوال والأقوال الجارية بين المحب والمحبوب، وأما النسيب: فهو ذكر الثلاثة أي حال الناسب والمنسوب والأمور الجارية بينهما. المصدر نفسه، ج8، ص 43، ج1، ص483.

(5) - طبقات الشعراء، ص 184، أحمد محمد الحوفي: الغزل في الشعر الجاهلي، دار القلم، بيروت، 1961م، ص10.

وحاول بعض النقاد^(*) وعلماء اللغة^(**) أن يفرقوا بين هذه الألفاظ الثلاثة. يقول ابن سيده⁽¹⁾: " أن الغزل تحديث الفتيان الجواري، والتغزل: تكلف ذلك، والنسيب: التغزل بهن في الشعر، والتشبيب: مثله". ويرى ابن منظور⁽²⁾: " أن الغزل حديث الفتيان والفتيات واللهو مع النساء، ومغازلتهن: محادثتهن ومرادتهن، والتغزل: التكلف لذلك". وقال في موضع آخر⁽³⁾: " شبب بالمرأة قال فيها الغزل والنسيب، وهو يشبب بها أي ينسب بها، والتشبيب: النسيب بالنساء". أما ابن قتيبة⁽⁴⁾، فيرى: " أن النسيب هو التعبير عن آلام الشاعر وهو يقف على الأطلال، فهو الإطار الذي تبرز فيه الكثير من المقارنات: محاسن المرأة، مساءلة الأطلال، المعاناة في الترحال ومشاق السفر عبر الفيافي". ويبدو من التعاريف السابقة أن علماء اللغة يتفقون على أن النسيب والتشبيب هو الغزل ومحادثة النساء ومجالستهن، في حين يرى النقاد غير ذلك ومنهم ابن قتيبة الذي يرى أن النسيب هو الوقوف على الأطلال وذكر الأيام الخوالي مع الأحبة. وقد وصف الشعراء القدامى جمال المرأة الجسمي، والخلقي، والغالب على الغزل هو ذلك المتمثل في إبراز صفات المرأة وإطراء محاسنها الجسدية، وهو الذي يعرف في التراث الشعري العربي بالغزل المادي أو الحضري⁽⁵⁾. أما الغزل العفيف أو العذري نسبة إلى عذرة فهو من أرقى أنواع الغزل، حيث يتسم بالصدق في العاطفة والاقتصار على حبيبة واحدة، وهو شعر فيه عفة وعذوبة ورقة⁽⁶⁾. وتبدأ قصائد الغزل في الغالب بالحديث عن الأطلال ورحلة الحبيبة ثم الحديث عن أوصافها وملاحها ومزاياها بدقة، ويحيطها الشاعر بأحسن ما عنده من التشابيه، ومن روائع الشعر الغزلي قصيدة لطرفة بن العبد وفيها يقول⁽⁷⁾:

أصحوت اليوم أم شافتك هر
ومن الحب جنون مستعر.

(*)- ومنهم ابن قتيبة، وابن رشيق

(**) - الزبيدي، وابن منظور.

(1) - المخصص، مج4، ص ص 54 - 55.

(2) - لسان العرب، ج11، ص 492.

(3) - المصدر نفسه، ج1، ص ص 481، 756.

(4) - Introduction au livre de la poésie et des poètes, pp 16-17.

ابن رشيق: المصدر السابق، ج2، ص 137.

(5) - رجييس بلاشير: المرجع السابق، ج1، ص 383.

(6) - الطاهر ذراع: المجتمع العربي القديم...، ج2، ص 271.

(7) - ديوان لطرفة بن العبد، ص 53.

لا تلمني إنها من نسوة
 رقد الصيف مقاليت نزر.
 كبنات المخر بمأذن كما
 أنبت الصيف عساليح الخضر.
 فجعوني يوم زموا غيرهم
 برخيم الصوت ملثوم عطر.

يشتكى الشاعر في هذه الأبيات من لوعة فراق الحبيبة، وقد أفرغوه، لما هموا بالرحيل وانتابه حزن شديد حينما أعدوا القافلة وساروا بالحبيبة وقد غطت وجهها بالنقاب، تلك الحبيبة ذات الصوت الرخيم والرائحة الذكية، ومن الغزل الحسي قصيدة تنسب إلى النابغة الذبياني يقول فيها⁽¹⁾:

والنظم في سلك يزين نحرها
 ذهب توقد كالشهاب الموقد.
 صفراء كالسيراك أكل خلقها
 كالغصن في غلوائه المتأود.

يقف الشاعر في هذه الأبيات على بعض مفاتن المرأة الجسدية، فشبه نظراتها إلى الطباء ومكان القلادة من الصدر كالشهاب ولونها يلمع كالثوب الحريري، وقد قال هذه القصيدة في إحدى ملهوماته وهي سعاد.

ومن باب النسب قول امرئ القيس⁽²⁾:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
 بسقط اللوى بين الدخول فحومل.
 فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها
 لما نسجتها من جنوب وشمأل.
 رخاء تسح الريح في جنباتها
 كساها الصبا سحق الملاء المذيل.

وكانت تلك عادة الشعراء في الشعر القديم أن يبدأوا أحاديثهم بالوقوف على الأطلال وعلى ديار محبوباتهم متذكرين متغزلين قبل الحديث عن أحوالهم معهن.

وفي هذا السياق يقول عنتره^{(*) (3)}:

هل غادر الشعراء من متردم
 أم هل عرفت الدار بعد توهم.
 أعيك رسم الدار لم يتكلم
 حتى تكلم كالأصم الأعجم.
 يا دار عبلة بالجواء تكلمي
 وعمي صباحا دار عبلة واسلمي.

(1) - النابغة الذبياني، ص 106.

(2) - ديوانه، ص ص 110 - 111.

(*) - عنتره بن شداد العبسي: (ت سنة 615م) هو عنتره العبسي بن شداد بن عمرو بن قراد، يلقب بعنتره الفلجاء لتشفق شفثيه وبأبي المغلس، أمه أمة حبشية يقال لها زبيبة، وهو أحد أعزبة العرب، ومن الشعراء الفرسان من قبيلة عبس من قيس، وكان أبوه قد أنكره ثم اعترف به وألحقه بنسبه، ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ج1، ص 250، الأصبهاني: المصدر السابق، ج7، ص 148، البغدادي: المصدر السابق، ج1، ص ص 128 - 129، أبو زيد القرشي: المصدر السابق، ص 143، التبريزي: المصدر السابق، ص 210، لويس شيخو: شعراء النصرانية، ص 794، ابن عبد ربه: المصدر السابق، ج1، ص 34.

(3) - عنتره: ديوان، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت، 1423هـ - 2002م، ص 117.

ويبدأ بعض الشعراء قصائدهم بالغزل مباشرة، دون ذكر الأطلال والديار، وقد يكون الغزل ممتزجا بالنسيب فيعرض الشاعر مغامراته مع من أحب، كقول امرئ القيس⁽¹⁾:

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل
وإن كنت قد أزمعت صرمني فاجملي.
وكقوله⁽²⁾:

تقول وقد مال الغبيط بنا معا
عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزل.
فقلت لها سيرني وارخي زمامه
ولا تبعديني عن جناك المعلل.
دعي البكر لا ترثي له من رداقتنا
وهاتي أذيقينا جناة القرنفل.

يقوم الغزل في الشعر العربي القديم في أكثره على التشبيب، وأقله ما جاء قصصيا يحمل ذكريات المغامرات الغرامية يتخللها الحوار كقول المنخل اليشكري:

ولقد دخلت على الفتى
الكاعب الحسنة تـ
فدنت وقالت يا منخل
ما شف جسمي غير حبك
ة الخدر في اليوم المطير.
فل بالدمقس وبالحرير.
ما بجسمك من حرور.
فاهد أي عني وسيري⁽³⁾.

ونلاحظ من الأبيات السابقة أن من شعر الغزل ما فيه عفة وهو ما يحمد عليه صاحبه، وإن كان لا يخلو بعضه من فحش ورذيلة.

ومن أبرز شعراء هذا الغرض الشعري "قيس بن الملوح"^(*) "مجنون ليلى"، فقد أقبل أبوه بعد أن قضى نسكه يريد أهله، وجمع أعمام وأخوال قيس وقالوا له: " لا خير لك في ليلى، ولا لها فيك"، ولك في بنات عمك خير منها، فلو تزوجت واحدة منهن نرجو أن يزول عنك بعض ما بك من حبه، فأنشأ يقول⁽⁴⁾:

لقد لامني في حب ليلى أقارب
أبي وابن عمي وابن خالي وخاليا.
أرى أهل ليلى لا يريدون بيعها
بشيء ولا أهلي يريدونها ليا.

(1) - ديوانه، ص 113.

(2) - المصدر نفسه، ص 114.

(3) - بطرس البستاني: المرجع السابق، ص 65.

(*) - هو قيس بن معاذ ويقال قيس بن الملوح بن مزاحم بن عامر بن صعصعة، لقبه المجنون لذهاب عقله بشدة عشقه ليلي، وقيل لم يكن مجنوناً بل كان فيه لوثة أي استرخاء وحمق، ويرى بعض أهل النقد أن قصته موضوعة، الأصبهاني: المصدر السابق، ج1، ص 161، البغدادي: المصدر السابق، ج2، ص 170، ابن قتيبة: المصدر السابق، ج2، ص 563، الأمدي: المصدر السابق، ص 188-189، المرزباني: المصدر السابق، ص 476.

(4) - ديوان قيس بن الملوح: ط1، دراسة وتعليق يسري عبد الغني، دار الكتب العلمية، بيروت، 1410هـ-1990م، ص 38.

قسمت الهوى نصفين بيني وبينها فنصف لها هذا لهذا وذا ليا.
ألا يا حمامات العراق أعنني على شجني وابكين مثل بكائيا.
يقولون ليلى بالعراق مريضة فيا ليتني كنت الطبيب مداويا.

ومن صفات المرأة المحبوبة، أن تكون حلوة الحديث، يتساقط كلامها تساقط الحلي، عفيفة وفيه لزوجها، كاتمة سره، ولا تختل لأسرار الجيران وفي هذا السياق قال قيس بن الخطيم^(*):

خود بغث الحديث ما صمتت وهو بفيها ذو لذة طرف.
تخزنه وهو مشتهي حسن وهو إذا ما تكلمت أنف⁽¹⁾.

وكان بعض الشعر الغزلي يدل على سوء الظن بالمرأة، وشدة ما يعانیه الإنسان من غدرها وتبديلها الأصحاب ونفورها من الزوج إذا كبر وشاب، وقد حاول بعض الشعراء أن يردوا تهمة الكبر، قال علقمة بن عبدة^(**):

فإن تسألوني بالنساء فإنني خبير بأدواء النساء طبيب.
إذا شاب رأس المرء أو قل ماله فليس له من ودهن نصيب⁽²⁾.
وقال امرؤ القيس⁽³⁾: يرد على بسباسة التي اتهمته بالكبر:

ألا زعمت بسباسة اليوم أنني كبرت وأن لا يحسن اللهو أمثالي.
كذبت لقد أصبي على المرء عرسه وأمنع عرسي أن يزن بها الخالي.

خامسا: شعر الحكمة والزهد:

إن الحكمة والمثل ليسا من أغراض الشعر العربي القديم الرئيسية فهي وليدة حوادث الدهر وتجاربه، لا وليدة التفكير العميق والتأمل الطويل، وتأتي عرضا في القصيدة، تعبر في كثرتها على

(*)-قيس بن الخطيم: (ت سنة 612م) واسمه ثابت بن عدي بن عمرو، شاعر فارس من الأوس، يكنى أبا زيد، وكان مقرون الحاجبين أدمع العينين أحمر الشفتين براق الثنايا حسن الصورة، شاعر مجيد فحل، ومن الناس من يفضله على حسان شعراء، أول ما اشتهر به تتبعه قاتلي أبيه وجده حتى قتلها وقال في ذلك شعراء، أدرك الإسلام وترث في الدخول فيه فقتل قبل أن يسلم، الزركلي: المصدر السابق، ج5، ص 205، الأصبهاني: المصدر السابق، ج2، ص 159، المرزباني: المصدر السابق، ص ص 321-322، الأمدي: المصدر السابق، ص 112، أبو زيد القرشي: المصدر السابق، ص 193.

(1) - الأصبهاني: المصدر السابق، ج2، ص 163، بطرس البستاني: المرجع السابق، ص 67.

(**) - هو علقمة بن عبدة بن النعمان بن قيس بن عبيد بن ربيعة الجوع بن مالك، شاعر عربي قديم مجيد كان من فحول الشعراء، لقب بعلقمة الفحل لأنه نازع امرؤ القيس الشعر، وكان صديقا له. الأصبهاني: المصدر السابق، ج7، ص ص 121-122، الأمدي: المصدر السابق، ص 152، ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ج1، ص 218، ابن دريد: الإشتقاق، ج1، ص 218، المفضليات، ص 390.

(2) - المصدر السابق، ص 392.

(3) - ديوانه، ص 123.

حياة القبيلة في الصحراء، وعن تجربة الشاعر في الحياة. وكان كلما ذكر الزهد إلا وذكرت معه الحكمة، يعبر فيها الشاعر عن تجاربه الذاتية التي عاشها بنفسه سواء كانت اجتماعية أو تاريخية أو دينية⁽¹⁾. وهو شعر يتضمن أسمى القيم: كالأمانة والوفاء بالوعد، وتجنب الرياء، والخيانة، والعفة عن الجارة، والحلم على الأقرباء⁽²⁾. ويكشف شعر الحكمة عن عقائد القوم وتقاليدهم وقيمهم المعنوية والمعيشية، كتعظيم القوة وتحقير الضعيف، وإدراك الثأر، وظلم البعداء⁽³⁾. وقد نظر الشعراء القدامى في حياتهم الاقتصادية، فتكلموا عن الكسب وجمع المال وحسن القيام عليه وفي ذلك قال المتلمس^(*):

لحفظ المال خير من بـغاه وسير في البلاد بغير زاد.
وإصلاح القليل يزيد فيه ولا يبقى الكثير مع الفساد⁽⁴⁾.

ويقول زهير بن أبي سلمى في آخر معلقته ذكرا مجموعة من الأبيات من الحكم والأمثال⁽⁵⁾:
ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على أهله يستغن عنه ويذمم.
ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ومن لا يتقى الشتم يشتم.
ومن يجعل المعروف في غير أهله يكن حمده ذما عليه ويندم.
ومن لم يذ عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لم لا يظلم الناس يظلم
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم.
وقارن عروة بن الورد^(**) بين الغني والفقير، فرأى الناس يزدرون الفقير ولا يقيمون له وزنا،

(1) - الطاهر ذراع: المجتمع العربي القديم...، ج2، ص 273.

(2) - بطرس البستاني: المرجع السابق، ص 81.

(3) - محمد زغلول سلام: مدخل إلى الشعر الجاهلي، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1989م، ص 183.

(*) - المتلمس: (ت سنة 580م) هو جرير بن عبد المسيح من ضبيعة (ربيعة) وهو خال طرفة بن العبد، وإليه تنسب صحيفة المتلمس في حديثه مع طرفة وعمرو بن هند صاحب الحيرة، أقام في حوران مع ملوك الغساسنة إلى وفاته، الأصبهاني: المصدر السابق، ج21، ص 120، أبو زيد القرشي: المصدر السابق، ص 173، ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ج1، ص 179، المرزوقي: المصدر السابق، مج1، ج2، ص 658، لويس شيخو: شعراء النصرانية، ص330.

(4) - المرجع نفسه، ص ص 334 - 335، جورج زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، مج1، ج1، ص 156.

(5) - ديوان زهير بن أبي سلمى، ص ص 110 - 111.

(**) - عروة بن الورد: (ت سنة 596م / 616م)، وفي الأعلام للزركلي ج5، ص 18، (توفي سنة 30ق.هـ / 594م) كان شاعرا فارسا وصلوكا، يلقب بعروة الصعاليك لأنه كان كالرئيس يجمعهم ويقوم عليهم ويعولهم إذا لم يكن عندهم معاش، وكان لشعره تأثير على قبيلته. الأصبهاني: المصدر السابق، ج2، ص 184. أبو زيد القرشي: المصدر السابق، ص 175. ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ج2، ص 675. ابن دريد: المصدر السابق، ج2، ص 184. لويس شيخو: =

بينما يعظمون الغني مبالغين أحيانا في إطراء فضائله، فقال مخاطبا امرأته⁽¹⁾:

ذريني للغني أسعى فإني رأيت الناس شرهم الفقير.
وأبعدهم وأهونهم عليهم وإن أمسى له حسب وخير.
ويقصيه الندى وتزدرية حليلته وينهره الصغير.
ويلقى ذا الغني وله جلال يكاد فؤاد صاحبه يطير.
قليل ذنبه والذنب جم ولكن للغني رب غفور.

يعرض الشاعر أبو الصعاليك في هذه الأبيات فلسفته في مسألة اجتماعية خطيرة هي مشكلة الفقر والغنى بأسلوب سهل لا يقبل معارضة، ويستمد هذا الأسلوب امتيازاً من عنصرين هما: السخرية والتهمك من مجتمع يحترق الفقير، ويعظم ويبجل الغني، والبساطة في عرض الشاعر للمعاني التي أرادها.

وتستوقفنا ظاهرة غريبة في آرائهم وهي الإسراف في الكلام على الموت وذكر الدهر^(*) الذي يبلي الحياة، ويفرق بين الأهل والأصحاب، فجاء أكثر شعرهم يشتمل على شكوى الزمان وتقلباته، ويتراءى فيه شبح الموت ماثلاً نصب عين الشاعر، وكان الشعراء في القرن السادس الميلادي يكررون خضوعهم لهذا القدر، قال الأعشى⁽²⁾:

سأوصي بصيرا إن دنوت من البلى وكل امرئ يوماً سيصبح فانيا
بأن لا تأن الود من متباعد ولا تتأ إن أمسى بقربك راضيا
وإن تقى الرحمن لا شيء مثله فصبراً إذا تلقى السحاق الغراثيا
وربك لا تشرك به إن شركه يحطّ من الخيرات تلك البواقيا
وقول زهير بن أبي سلمى⁽³⁾ " حكيم الشعراء " :

ألا ليت شعري هل يرى الناس ما أرى من الأمر أو يبدو لهم ما بدا ليا
بدا لي أن الله حـق فزادني إلى الحق تقوى الله ما كان باديا

= شعراء النصرانية، ص 883. خير الدين الزركلي: الأعلام، ج5، ط5، دار العلم للملايين، بيروت، 1980م، ص18، عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي القديم، ج1، ص ص 212-213، نجيب محمد البهيتي: " البيئـة التي نشأ فيها الشعر الجاهلي وتياراته الكبرى"، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مج14، ج1، ماي 1952م، ص 109.

(¹) - الأصبهاني: المصدر السابق، ج2، ص 184. يوسف خليف: المرجع السابق، ص 322.

(²) - وردت كلمة " الدهر" مرتين في القرآن الكريم، بمعنى الزمن والديمومة، قال تعالى: " هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً". سورة الإنسان: الآية 1؛ أو بمعنى القضاء والقدر في قوله تعالى: " وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ومآلهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون". سورة الجاثية: الآية 24. محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 264.

(²) - ديوانه، ص ص 217-218.

(³) - ديوانه، ص ص 139-140.

بدا لي أن الناس تقنى نفوسهم — وأموالهم ولا أرى الدهر فانيا
أراني إذا ما بتت على هوى — فثم إذا أصبحتُ أصبحتُ غاديا
إلى حفرة أهوي إليها مقيمة — يحث إليها سائق من ورائيا

ويتضح لنا من الأبيات السابقة تأثير التيارات التوحيدية في الشعر العربي القديم، كالتقوى وعدم الإشراف بالله، وفناء الأنفس والأموال، في حين يبقى الزمن والدهر قائمين.

وقد تأتي مواعظ مجردة يقصد منها النصح والإرشاد كأراء زهير في معلقته - السابقة الذكر - وأراء عدي بن زيد في مجمرته، ومنها قول أمية بن أبي الصلت في وصف السماء والملائكة، وسوق الهالكين إلى النار وهم ينادون بالويل والثبور:

وسيق المجرمون وهم عراة — إلى ذات المقامع والنكال
فنادوا: ويلنا! ويلا طويلا — وعجوا في سلاسلها الطوال⁽¹⁾
ولما مرض ودنى أجله ويئس القوم من مرضه أنشأ يقول⁽²⁾:

كل عيش وإن تطاول دهرا — منتهى أمره إلى أن يـزولا
ليتني كنت قبل ما قد بدا لي — في رؤوس الجبال أروع الوعولا
اجعل الموت نصب عينيك واحذر — غولة الدهر إن للدهر غولا

وقد ظل شعر عدي بن زيد شاعر الحيرة في الحكمة والموعظة تراثا غنيا، قبل الإسلام وبعده، وفي قصيدة طويلة هي أشبه بقوانين الحياة أنشد يقول:

أعاذل ما يدريك أن منيتي — إلى ساعة في اليوم أو في ضحى الغد
فللوارث الباقي من المال فاتركي — عتابي فإنني مصلح غير مفسد
عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه — فكل قرين بالمقارن يقتدي⁽³⁾

ويذكر المرزباني^(*): هذا البيت الأخير ثم يقول: "روي عن الحسن البصري أنه قال: قال

(1) - لويس شيخو: شعراء النصرانية قبل الإسلام، ص ص 226-227.

(2) - الأصبهاني: المصدر السابق، ج3، ص 184.

(3) - المرزباني: المصدر السابق، ص 250. عبد الفتاح عبد المحسن الشطي: المرجع السابق، ص 120. أبو زيد القرشي: المصدر السابق، ص ص 152-153.

(*) - المرزباني: (ت سنة 384 هـ) هو محمد بن عمران بن موسى أبو عبيد الله الكاتب المرزباني، خراساني الأصل، بغدادي المولد، كان علامة صاحب أخبار راوية للأدب، صنف كتبا كثيرة منها: الموشح، معجم الشعراء، أشعار النساء، أخبار البرامكة، أشعار الخلفاء، المفيد في الشعراء ومذاهبهم، شعر حاتم الطائي وغيرها، دفن في بغداد، وقيل في المرزبان: اسم يطلق على الرجل المقدم العظيم القدر، وهو لفظ فارسي معناه "صاحب الحد". ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج6، ص ص 2582-2584، ابن النديم: المصدر السابق، ص 256، ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج3، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)، ص 111، إسماعيل باشا البغدادي: هدية العارفين =

رسول الله (صلي الله عليه وسلم) : " كلمة نبيّ ألقيت على لسان شاعر: إن القرين بالمقارن مقنّد" (1). ويتضح من الأبيات السابقة أن عدوا كان يؤمن بأن الموت حق وحقيقة واقعة، وحتى يريح ضميره قبل أن يوافيه الأجل فهو يوصي بماله بعد وفاته للوارث الباقي، فلتنتهي عاذلته عن اللوم والعتاب، فإنه مصلح غير مفسد، ويتوج كل هذه الحكم في البيت الأخير، بحكمة بليغة أرى أنها تصلح لأن تكون قانونا للحياة ولحسن المعاملة والتعامل في كل العصور.

وخلاصة القول أن الشعراء العرب القدامى في مجملهم نطقوا بالحكمة و ضربوا الأمثال، وشارك بعضهم بعضا في الأفكار والمواظ، لذلك جاءت آراؤهم متكررة، وقلما نجد شاعر معين له شخصية متميزة يتميز بها عن الآخرين.

سادسا : الهجاء

الهجاء من أبرز موضوعات الشعر العربي القديم، وأهمها في مجتمعهم، فهو سلاح في يد الشاعر وقبيلته يشهرونه في وجه الأعداء .

يذكر ابن رشيق (2) : " أشد الهجاء، أصفه وأصدق، وما عطف لفظه وصدق معناه، فأما الهجو فأبلغه ما خرج مخرج التهزل والتهافت وما اعترض بين التصريح والتعريض وما قربت معانيه وسهل حفظه وأسرع علوقه بالقلب ولصوقه بالنفس".

ويرى ابن قتيبة (3) : " أن الهجاء يكون بعبارات ملهمة وموزونة الأبيات ويجب أن يترك أثره في المهجو فيثيبه ويضع منه".

والهجاء نقيض الفخر والمدح، فإذا كان الشاعر في النوع الثاني يعدد صفات الممدوح الحميدة، فإن شعر الهجاء يسلب من المهجو هذه الصفات والفضائل والمناقب (4).

ولعل سبب الخشية من الهجاء ترجع إلى عقائد قديمة توارثها العرب تمت إلى التعاويذ واللعنات التي كان يصبها الكهنة والسحرة على كل من لا يرضون عنه، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في أكثر من موضع، قال تعالى (5): ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

وقوله تعالى (6): ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ

= في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، مج6، دار الكتب العلمية ، بيروت، 1992، ص 54، الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد، ج3، مكتبة الخانجي، القاهرة، دت، ص ص 135-136.

(1) - معجم الشعراء، ص 250.

(2) - العمدة في صناعة الشعر، ج2، ص 189.

Ibn Qotaiba : Op.cit , p18

(3) - الطاهر ذراع: المجتمع العربي القديم...، ج2، ص 279.

(4) - سورة الأحقاف: الآية 7.

(5) - سورة الحاقة: الآيات 40-43.

قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾

لذلك كان الهجاء يقرن باللعنات الدينية، وكانوا ينتشعرون منه ويظنون أنه لا بد أن يقع عليهم بسببه مكروه، فيخافونه ويخشونه خشية الكوارث والمصائب.

ومن ذلك قول زهير يهدد من أغار على عشيرته بأنه سيسلط عليهم لسانه يقول:

ليأتينك مني منطلق قدح باق كما دنس القبطية الودك^(١)

وكان من أبرز ما هجا به الشعراء في الشعر العربي القديم:

الهزيمة في الحروب، والفرار من الميدان، والأسر، والسبي، والبخل، والهرب من الضيفان، والحمق والغدر، وإنكار الجميل، والجوع، وسوء الغذاء، والاعتداء على الجار، وما كان العدو أو الخصم ليسلم من هجاء الشعراء حتى ولو كان ملكا^(٢).

ويذكر رجب بلشير^(٣): " أن النصوص ذكرت عددا ضئيلا من الشعراء ممن احتفظ في نظر

العلماء والكتاب بصفة " شاعر هجائي" وتبرز من بين هؤلاء الشعراء أسماء:

النجاشي ومزرد وبخاصة الحطيئة، وقد نثر هنا وهناك على مقطوعات هجائية صغيرة عند طرفة بن العبد، وزهير بن أبي سلمى، والنابغة الذبياني.

وإن وقع الهجاء يكون كوقع الأسنّة والسيوف، وفي ذلك يروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم)

أنه قال لشاعره حسان بن ثابت وهو يرد على هجاء القرشيين بهجاء مقذع: " لشعرك أشد عليهم من وقع النبال"^(٤)

ومن أبرز الشعراء الهجاؤون الحطيئة، وأكثر هجوه الذي وصل إلى الباحثين كان في

الزبرقان^(٥) وبغيض^(٥٥)، قال الحطيئة يهجو الزبرقان ويناضل عن بغيض قصيدة جاء فيها:

(١) - زهير ابن أبي سلمى: ديوان، ص 82.

(٢) - علي الجندي: في تاريخ الأدب الجاهلي، ص 374.

(٣) - تاريخ الأدب العربي، ج1، ص 444.

(٤) - محمد زغلول سلام: المرجع السابق، ص 169.

(٥) - الزبرقان بن بدر: هو حصين بن بدر بن امرئ القيس بن خلف بن كعب بن سعد بن زيد مناة من تميم، كان سيدا قبل الإسلام وعظيم القدر بعده، شاعر محسن هو القائل:

تعدو الذئاب على من لا كلاب له وهم يهلكون ويبقى كل ما صنعوا
وتتقى مريض المستنفر الحامي كأن قصتهم خطت بأقلام

وإنما سمي الزبرقان لحسنه، شبه بالقمر. الأمدي: المصدر السابق، ص 128، البغدادي المصدر السابق، ج3، ص 207، ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق طه محمد الزيني، ط1، ج3، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1970، ص 35.

(٥٥) - بغيض: هو بغيض بن عامر بن شماس من بني أنف الناقة، كان هو وإخوته وأهله ينازعون الزبرقان الشرف، وقد بالغوا في إكرام الحطيئة فمدحهم بالبيت المشهور الذي رفع رؤوسهم:

والله ما معشر لاموا أمرا جنبا
 ما كان ذنب بغيض لا أبا لكم
 في آل لأي بن شمّاس بأكياس
 في بئس جاء يحدو آخر الناس
 واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي
 لا يذهب العرف بين الله والناس⁽¹⁾
 من يفعل الخير لا يعدم جوازيه

ويحاول الشاعر الهجائي النيل من خصمه، فمن المعروف أن إكرام الضيف من شيم العرب وأخلاق البدوي، وواجب مقدس في عالم الصحراء، لذا كان اتهام الخصم بالتقصير في واجب الضيافة أو الاستخفاف بالضيفان شتيمة وفي هذا السياق قال الحطيئة⁽²⁾:

أنخنا ببيت الزبرقان وليتنا
 ظللنا لديه نستقي بجبالنا
 مضيئا فقلنا وسط بين المخبل
 بذى المتن منها والضعيف الموصل
 وما الزبرقان يوم يحرم ضيفه
 بمحتسب التقوى ولا متوكل

والمقصود أن الزبرقان لم يقدّم بواجب الضيف وأنه ليس من أهل الجود ولا يحتسب التقوى أجرا ولا يتوكل.

ولم يتورع الحطيئة من مهاجمة زوجته وأمه، أبيه وبناته وإخوته بشراسة ويهجوهم بأسلوب لاذع وفحش في القول وقال يهجو أمه:

جزاك الله شرّاً من عجوز
 فقد ملكت أمر بنيك حتى
 ولقاك العقوق من البنين
 تركتهم أدقّ من الطحين
 ودرّك درّ جاذبة دهين⁽³⁾
 لسانك مبرد لا عيب فيه

وقال أيضا:

تنحيّ فاجلسي مني بعيدا
 حياتك ما علمت حياة سوء
 أراح الله منك العالمينا
 وموتك قد يسرّ الصالحينا⁽⁴⁾
 وقال في هجاء أبيه وعمه وخاله:

لحاك الله ثم لحاك حقا
 فنعم الشيخ أنت لدى المخازي
 أباً ولحاك من عمّ وخال
 وبئس الشيخ أنت لدى المعالي

= قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ومن يسوي بأنف الناقة الذنبا
 الأصبهاني: المصدر السابق، ج2، ص 50، ابن حجر العسقلاني: الإصابة، ج1، ص 268، جورج زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، مج1، ج1، ص 147.

(1) - الأصبهاني: المصدر السابق، ج2، ص 52.

(2) - ديوان الحطيئة: ط3، دراسة وتبويب مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002م، ص 162.

(3) - المصدر السابق، ص 187.

(4) - الأصبهاني: المصدر السابق، ج2، ص 43، ديوان الحطيئة، ص 186 - 187.

جمعت اللوم لا حيّاك ربّي وأبواب السفاهة والضلال⁽¹⁾
 وقد يتداخل الهجاء والفخر، ليكونا أكثر بروزاً، ومن ذلك ما قاله المزرد^(*) ساخراً من بني
 ثعلبة الذين سلبوا إبلا فلم يستطيعوا الاحتفاظ بها أو ردّها بدافع من شهامة وفخر إلى أصحابها:
 ولو جارها للجلاج أو لو أجارها بنو باعث لم تنزّ في حبل صائد
 ولو كنّ جارات لآل مسافّع لأدين هونا معنقات الموارِد
 ولو في بني الثرماء حلّت تحدّبوا عليها بأرماح طوال الحدائد⁽²⁾
 وقد ظهرت نزعة نحو الأسلوب الهجائي، منذ بداية أجيال الشعراء الذين برزوا في أواخر
 القرن السادس للميلاد كانت أقل سوقية والتي يهدف من ورائها الشاعر أن يخدش الخصم وينال من
 كرامته بأسلوب تهكمي مثير للسخرية والضحك كقول طرفة بن العبد⁽³⁾ يهجو صهره عبد عمرو زوج
 أخته بعدما شكّت إليه أخته شيئاً منه:

يا عجباً من عبد عمرو وبغيه لقد رام ظلمي عبد عمرو فأنعما
 ولا خير فيه غير أن له غنى وأن له كشحا إذا قام أهضما
 يظل نساء الحي يعكفن حوله يقطن من سرارة ملهما
 له شربتان بالنهار وأربع بالليل حتى أض سُخداً موؤماً

والحق لقد ظلت نزعة البذاءة التي تبلغ حد الإقذاع على السنة الشعراء سائدة في أواخر القرن
 السادس للميلاد وإلى ظهور الإسلام، وكان الشاعر يستلهم في هجائه للخصم رذيلة من رذائله أو صفة
 من الصفات المشينة التي تميز قبيلته وفي ذلك يقول النجاشي الحارثي^(**) يهجو أهل الكوفة:

(¹) - البغدادي: المصدر السابق، ج2، ص 410، ديوان الحطيئة، ص 168.
 (*) - المزرد: هو مزرد بن ضرار الغطفاني، اسمه يزيد وهو أخو الشماخ بن ضرار، لقب مزردا ببيت قاله: ويكنّى
 أبا ضرار، شاعر مخضرم، اشتهر بالهجاء، قيل له مزرد لقوله يصف زبدة:
 فجاء بها صفراء ذات أسرة تكاد عليها ربة البيت تكمد
 فقلت تزردها عبيد فإنني لشعث الموالي في السنين مزرد

الأمدي: المصدر السابق، ص 190، المرزباني: المصدر السابق، ص 496، ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ج1، ص315.

(²) - المفضليات: ص 79.

(³) - ديوان طرفة، ص 82.

(**) - النجاشي: (ت 23هـ / 643م) اسمه قيس بن عمرو الحارثي، من رهط الحارث بن كعب، كان فيما روي ضعيف الدين، من شعره قوله:

وكنت كذي رجلين رجل صحيحة ورجل بها ريب من الحدثان
 فأما التي صحت فأزد شنوءة وأما التي شلت فأزد عمان

=

إذا سقى قوما صوب غادية فلا سقى الله أهل الكوفة المطرا
والسارقين إذا ما جن ليلهم والطالبيين إذا ما أصبحوا السور(1)
كان العرب قبل الإسلام يحتقرون الصناعات ويذمّون أصحابها، ويصفون كل من يمارسها
بالخمول والتكاسل والضعف، ففي نظرهم أن الفارس لا بد أن يكسب رزقه بسيفه وغزواته.
فقد هجا عمر بن كلثوم النعمان أبا قابوس، وعيّر أمه سلمى، وكانت بنت صائغ وأخت صائغ
فقال:

لحا الله أدانا إلى اللؤم زلفة والأمنأ خالا وأعجزنا أبا
وأجدرنا أن ينفخ الكير خاله يصوغ القروط والشنوف بيثربا(2)
ولم تكن التجارة أحسن حظا من الصناعة، فلم تكن تعرف في غير المدن والحوضر كمكة
ويثرب واليمن، فهجيت قریش بها.
وقد ذكر بطرس البستاني(3) أن الناس أصبحوا يوما بمكة ووجدوا ها البيت مكتوب على باب
دار الندوة:

ألهى قصيا عن المجد الأساطير ورشوة مثلما ترشي السفاسير
وأكلها اللحم بحتا لا خليط له وقولها: رحلت عير، أتت عير
وخلاصة القول أن العرب يتهاجون بكل شيء وأفرطوا في استعماله، حتى أنواع الأكلات لم
تسلم من الهجاء، فإذا اشتهرت قبيلة بأكلة عيّرت بها ولو كانت من طيب الطعام، فقد هجيت قریش
بالسخينة(4)، كما هجيت عبد القيس بالتمر، وعيّرت أسد بأكل لحوم الكلاب، وكانت العرب تهجو حتى
بأكل اللحم الخالص.

وكان للهجاء تأثير عظيم في النفوس، وأفضل الهجاء ما جاء في الدفاع عن القبيلة والرد على
خصومها، أو ما جاء في ذم الأخلاق الرديئة وخلا من الفحش وتمزيق الأعراض.

سابعا: الرثاء

يحتل الرثاء مكانة بارزة في الشعر العربي القديم، ويعد من أبرز أغراض الشعر عند العرب
قديمًا، وهو شعر البكاء والتفجع على الميت، وكان في أكثره موجه إلى سادات القبيلة وفرسانها،
فوفاتهم ليست كوفاة فرد من العامة، وكلما كانت صلة قرابة بين الشاعر والميت ازداد الرثاء حسرة

= ابن خلكان: المصدر السابق، ج5، 358، البغدادي: المصدر السابق، ج4، ص 76، البكري: سمط اللآلي في شرح
أمالي القالي، ص 890، ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ج1، ص 329، ابن الأثير: الكامل، ج3، ص 278.

(1) - ابن قتيبة: المصدر السابق، ج1، ص ص 330 - 331.

(2) - بطرس البستاني: المرجع السابق، ص 59.

(3) - المكان نفسه.

(4) - السخينة: طعام رقيق يتخذ من الدقيق، لقبث به قریش، المرجع نفسه، ص 60.

وتفجعا، فتتحرك الشاعرية وتعبر عن الأسى العميق والخسارة الفادحة التي نزلت بالقبيلة ممن كان الفقيد ملاذا لهم والحامي والحكيم والرئيس المسدد لقومه وقت الأزمات.

يذكر ابن قتيبة⁽¹⁾: "أن موضوعات الرثاء التي وسّعها الشعراء منذ أواخر القرن السادس للميلاد، كانت ذات استحياء غنائي ومدحي تصحب حركات وطقوس النساء حول الموكب الجنائزي، وهي متصلة بمجموع الارتدادات النفسية كظهور الموت العنيف في سياق الحياة، وتحول الرثاء إلى صرخة حقد وكرهية، والدعوة إلى النار".

ويتضح من النص السابق أن الرثاء كان من الموضوعات الهامة في الشعر العربي القديم، ويتصل اتصالا مباشرا بالحماسة والمدح، فهو يجمع بين صفات المدح للميت، والبكاء عليه، ورد شماتة الأعداء بالدعوة إلى الأخذ بالنار.

ويرى رجبى بلاشير⁽²⁾: " أن الرثاء كان مزدهرا في القرن السادس للميلاد، عند جميع القبائل العربية بشكل عام وبالحجاز بشكل خاص، وأن بقاء بعض الدواوين الشعرية كديوان الخنساء لدليل على أن هذا النوع الشعري ظل حيّا خلال العصر التالي".

وقد نبغ نفر من الشعراء في غرض الرثاء في مرحلة الدراسة منهم:

حسان بن ثابت، والمهلهل ودريد بن الصمة، وأبو ذؤيب الهذلي، وقس بن ساعدة الإيادي، ومتمم بن نويرة، ومن الشاعرات: الخنساء، وزينب بنت الطرية.

قال المهلهل سيد ربيعة وفارس تغلب يرثي أخاه كليب بن ربيعة⁽³⁾:

و استبّ بعدك يا كليب المجلس	نبئت أن النار بعدك أوقدت
لو كنت شاهدهم بها لم ينبسوا	وتكلموا في أمر كل عظيمة
وذراع باكية عليها برنس	وإذا تشاء رأيت وجهها ناعما
تبكي عليك بعبرة وتتفس	جزعا عليك ولست لائم حرّة

يذكر الشاعر في هذه الأبيات خصال ومناقب أخيه كليب، ويقول أن كليباً كان لا توقد مع ناره للضيفان نارا فيما يقرب من منازل وأوطانه بل يتفرد بذلك، وما كان أحد يجرؤ على رفع صوته بحضرته لمهابتة، ولن ألوم امرأة حرّة بكت عليه بدموع غزيرة وتحسرت على موته وحزنت لفقده. وهناك الرثاء بين الأقارب يرثي الرجل أخاه أو أبنائه، وترثي المرأة أخاها أو ابنها أو أباه، ومثل هذه المرثية كانت تفيض لوعة وحرقة وأسى تعبر عن نفسية الشاعر ومكانة الفقيد.

Introduction au livre de la poésie et des poètes, p 17.

-(1)

-(2) تاريخ الأدب العربي، ج1، ص 292.

-(3) ديوان المهلهل، ص ص 121 - 124.

قالت الخنساء^(٥) ترثي أباها صخر^(١):

أعيني جودا ولا تجمدا
ألا تبكيان الجري الجميل
طويل النجاد رفيع العما
إذا القوم مَدَّوا بأيديهم
ألا تبكيان لصخر الندى
ألا تبكيان الفتى السيدا
د ساد عشيرته أمردا
إلى المجد مدَّ إليه يدا

وقالت في رثاء أخويها صخر ومعاوية^(٢):

بكت عيني وعاودت السهودا
لذكرى معشر ولَّوا وخلصوا
كصخر أو معاوية بن عمرو
يردّ الخيل دامية كلاها
وبت الليل جانحة عميدا
علينا من خلافتهم فقودا
إذا كانت وجوه القوم سودا
جدير يوم هيجا أن يصيدا

تصف الشاعرة في الأبيات السابقة فضائل ومناقب أخويها صخر ومعاوية، وتجعل في كلامها دلالات واضحة على أن المقصود به رثاء لا مدح وما يتخلله من عبارات تذكر فيها المصاب وتعظيم صفاته، وذكر مراسيم الدفن والقبر، وما في هذه العبارات من تلهف وألم وتفجع، وحرقتها على أخويها أحدهما معاوية وهو أخوها لأمها والثاني صخر وهو أخوها لأبيها وكان صخر أحبهما إليها، واستحق صخر ذلك لأنه كان يوصف بالحلم، مشهورا بالجود والكرم، معروفا بالشجاعة والإقدام، محظوظا في العشيرة، وكان يأخذ بيدي ابنه، ويقول: "أنا أبو خيرى مضر"^(٣) فتعترف العرب بذلك.

وفي هذا السياق يذكر ابن رشيقي^(٤): "ومن عادة القدماء أن يضربوا الأمثال في المرثي، بالملوك الأعزة، والأمم السالفة، والوعول الممتنعة في قتل الجبال، والأسود الخادرة في الغياض، وبحمر الوحش المتصرفة بين الفقار، وبالسنور، والعقبان، والحيات، لبأسها، وطول أعمارها، وذلك في أشعارهم كثير موجود، لا يكاد يخلو منه شعر".

(٥) - الخنساء: (ت نحو 34هـ/ 646م) هي تماضر بنت عمرو بن الشريد من سراة سليم (قيس) من أهل نجد، أجمع رواة الشعر أنها أشعر نساء العرب، والخنساء لقبها ويقصد به البقرة الوحشية وهو لقب أطلق على أربع شاعرات كلهن من أواسط شبه الجزيرة العربية، وما عرف عنها أنها رفضت الزواج من دريد ابن الصمة شيخ بني جشم وتزوجت مرداس بن أبي عامر السلمى، وتفجعها على أخويها معاوية وصخر ورثاؤهما وحضورها سوق عكاظ وأنشدت شعرها أمام النابغة، أدركت الإسلام ولها أربعة أبناء قتلوا في معركة القادسية. الأصبهاني: المصدر السابق، ج13، ص 129، أبو علي القالي: المصدر السابق، ج2، ص 161، ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ج1، ص 743، البغدادي: المصدر السابق، ج1، ص 433، جورجى زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، ج1، ص 144.

(١) - ديوان الخنساء: شرح وتحقيق عبد السلام الحوفي، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)، ص 35.

(٢) - ديوان الخنساء، ص 36.

(٣) - بطرس البستاني: المرجع السابق، ص 227.

(٤) - العمدة في صناعة الشعر ونقده، ج2، ص 836.

يتضح من النص السابق أن شعراء المرثي اتخذوا هذا الأسلوب حكمة ساذجة وذلك أن هؤلاء الملوك والأبطال والجبابرة من الأمم الغابرة لم يعفّ الموت عنهم مثلهم مثل الحيوانات الضارية، ولو نجا حيّ من الموت لكان أولئك الناس وتلك الحيوانات أولى من غيرهم بالنجاة، فيجدون عزاء لأنفسهم بضرب هذه الأمثال ما دام الموت لا مفر منه لكل ذي حياة.

وقال دريد بن الصمة^(*) يرثي أخاه⁽¹⁾:

تتادوا فقالوا أردت الخيل فارسا	فقلت أعبدُ الله ذلكم الردي
فجئت إليه والرماح تنوشه	كوقع الصياصي في النسيج الممدد
وكنت كذات البوريعت فأقبلت	إلى جلد من مسك سقب مقدد.
فطاعنت عنه الخيل حتى تبددت	وحتى علاني حالك اللون أسود.
قتال امرئ آسى أخاه بنفسه	ويعلم أن المرء غير مخلد.

كانت هذه الأبيات بكاء على عبد الله بن الصمة اخو دريد الذي أغار على إبل عبس وفزارة، وكان دريد قد أشار عليه ألا يفعل، فخالفه، وبعدهما اشتد القتال في بني جشم سقط عبد الله قتيلا، فرثاه دريد بقصيدة ذكر فيها إقدامه وشجاعته في الحرب، وبين ماذا أدرك من أخيه لما أراد وقايته، وجده كجلد مقطعن من شدة ما وقع عليه من الرماح كوقع الصياصي^(**)، وأنه لم يقصر في الدفاع عن أخيه، ولم يرهب الموت وهو يعلم أن الإنسان لا يخلد ومآله إلى الفناء.

ويقول دريد في كثرة القتلى من قومه⁽²⁾:

أبى القتل إلا آل صمة أنهم	أبوا غيره والقدر يجري إلى القدر.
فإما ترينا لا تزال دماؤنا	لدى واطر يسعى بها آخر الدهر.
فإننا للحم السيف غير نكير	ونلحمه حيناً وليس بذى نكر.

(*) - دريد بن الصمة: (ت 8هـ/628م) بن الحارث بن معاوية بن بكر بن علقمة، أحد بني جشم بن بكر، شاعر وفارس، يكنى أبا قرّة ودريد: تصغير أدرد والأدرد الذي تحاتت أسنانه. وكان دريد من فخذ بنو غزية، خطب الخنساء فرفضت الزواج منه، وقد رثى دريد أخاه عبد الله بقصيدة مطلعها:

ارث جديد الحبل من أم معبد
بعاقبة واخلفت كل موعد

كان من المعمرين توفي يوم حنين وعمره مائتي (200) سنة. الأصبهاني: المصدر السابق، ج9، ص ص 2-19، ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ج2، ص 749، الأمدي: المصدر السابق، ص 114، ابن دريد: المصدر السابق، ج2، ص 292، ابن الأثير: الكامل، ج2، ص 265.

(¹) - الأصبهاني: المصدر السابق، ج9، ص4، ابن قتيبة: المصدر السابق، ج2، ص 750، أبو زيد القرشي: المصدر السابق، ص 181، أبو سعيد السيرافي: المصدر السابق، ص 145.

(^{**}) - الصياصي: جمع صيصية وهي شوكة الحائك يمررها على الثوب عند نسجه النسيج، أبو زيد القرشي: المصدر السابق، ص 181.

(²) - ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ج2، ص 751.

قسمنا بذاك الدهر شطرين بيننا
فما ينقضي إلا ونحن على شطر.
يرثي الشاعر هنا أولاده وإخوته من آل صمة، وكأن القتل قدر لهم، وستبقى دماؤهم أبد الدهر
عند واترين^(*) يسعون بها للأخذ بالتأثر، ويذكر أن الدهر شطرين فيما أن يغير الأعداء عليهم طالبين
تأرهم، أو يغيروا هم عليهم لأخذ تأرهم.
قال متمم بن نويرة^(**) يرثي مالكا أخاه⁽¹⁾:

لعمري، وما دهري بتأبين مالك
ولا جزعا مما أصاب فأوجعا.
لقد غيب المنهال تحت رداءه
فتى كان مبطان العشيات أروعا.
ولا برما تهدي النساء لعرسه
إذا القشع من ريح الشتاء تققععا.

يعبر الشاعر في هذه الأبيات عن حرقة ولوعته من فراق أخيه، ويمدحه بالخصال التي كان
يتصف بها، ومنها أنه كان لا يعجل بالعشاء بل كان ينتظر قدوم الضيف، وكان لا يقامر، وأنه ليس
ممن تعطي النساء عرسه لحما في الشتاء.

وذهب بعض الشعراء إلى أبعد من ذلك، فخلعوا أحزانهم على صور فنية أجادوا رسمها،
والشاعر هنا فنان مبدع، يعبر بالصورة والإيحاء بدلا من التعبير المباشر، كما نلاحظ ذلك في مرثية
الشاعر أبو ذؤيب الهذلي^(***) في أبنائه الخمسة إذ يقول⁽²⁾:

أمن المنون وريبها تتوجع
والدهر ليس بمعتب من يجزع.
قالت أميمة: ما لجسمك شاحبا
منذ ابتذلت ومثل مالك ينفع.

(*)-واترين: جمع واتر، والواتر هو الذي قتل له قتيلا، ويسعى في تأره، علي الجندي: في تاريخ الأدب الجاهلي،
ص399.

(**) - متمم بن نويرة اليربوعي: (عاش في القرن الأول الهجري) بن جمرة بن شداد بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع بن
حنظلة بن تميم، صحابي، شاعر مخضرم، وفارس، أدرك الإسلام وأسلم، معظم شعره في رثاء أخيه مالك الجفول الذي
قتله خالد بن الوليد في قتال أهل الردة باليمامة، الأمدي: المصدر السابق، ص 194، المفضليات، ص 48، المزرباني:
المصدر السابق، ص ص 361، 466، ابن الأثير: الكامل، ج1، ص 597.

(1) - أبو زيد القرشي: المصدر السابق، ص 223.

(***) - أبو ذؤيب الهذلي: (ت 26هـ/ 646م) هو خويلد بن خالد بن محرث بن زبيد بن مخزوم ابن صاهلة بن كاهل،
شاعر مخضرم أدرك الإسلام وأسلم، وهو أشعر هذيل، مات في زمن عثمان بن عفان بعد عودته من غزو الروم في
طريق مصر ودفنه أبو عبيد ابن أخيه، وله ابن يقال له مازن بن خويلد وهو أحد شعراء هذيل، الأصبهاني: المصدر
السابق، ج6، ص 56، ياقوت الحموي: معجم الأدياء، ج3، ص 1275، البغدادي: المصدر السابق، ج1، ص 422،
ابن حجر العسقلاني: الإصابة، ج7، ص ص 63-64، ابن دريد: المصدر السابق، ج1، ص 110، الأمدي: المصدر
السابق، ص 119، ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ج2، ص 653، حنا الفاخوري: المرجع السابق، ص240.

(2) - الأصبهاني: المصدر السابق، ج6، ص 58، المفضليات، ص 421، ياقوت الحموي: معجم الأدياء، ج3،
ص1276.

أودى بني وأعقبوني غصة
ولقد حرصت أن أدافع عنهم
وإذا المنية أنشبت أظفارها
أفبت كل تميمة لا تتفـع.

كان لأبي ذؤيب الهذلي خمس بنون هلكوا في عام واحد، أصابهم الطاعون وكانوا هاجروا إلى مصر، وفي هذه الأبيات يرثي أبناءه، ويقول أن الدهر ليس بمراجع من جزع منه بما يحب، ومنذ ابتذلت نفسك ومات من كان يكفيك ضيعتك من بنيك، وكان دائم الحرص على الدفاع عنهم، إلا أن المنية أقبلت وكشرت عن أنيابها فلا يمكن ردها ولا تنفع معها التمام.

وقال النابغة الذبياني يرثي النعمان بن الحارث بن أبي شمر الغساني⁽¹⁾:

فلا يهنئ الأعداء مصرع ملكهم
وكانت لهم ربيعة يحذرونها
وما عتقت منه تميم ووائـل.
إذا خضخضت ماء السماء القبائل.
يسير بها النعمان تغلي قدوره
تجيش بأسباب المنايا المراجـل.

وخلصة القول أن الشعر العربي القديم يكتسي قيمة تاريخية عظيمة، فهو وثيقة من أهم وثائق تاريخ العرب قبل الإسلام، وقد جمع من الأخبار في شتى المجالات حتى قيل "الشعر ديوان العرب"، فهو سجل سجلت فيه أحوال العرب الطبيعية والاجتماعية والعقلية في شبه الجزيرة العربية، باسما لنا أخلاقهم وأنسابهم وعاداتهم وتقاليدهم ومآثرهم وأيامهم وديانتهم وعقليتهم، واصفا ما كانوا يألفونه في الحل والترحال والطعام والشراب واللباس والحلي، وما كان لهم في النواحي الدينية والعبادة، وما ألموا به من علوم ومعارف وصناعات وغير ذلك.

المبحث الرابع: النثر والقصص (أيام العرب):

المطلب الأول: النثر:

إذا كان للعرب شعر فلا بد أن يكون لهم نثر، يتحلل فيه قائله من قيود الوزن والقافية، وكانوا يجيدون النثر، بدليل نزول القرآن الكريم عليهم وفهمهم له، ومجادلتهم فيه للنبي (صلى الله عليه وسلم)، وتحدي القرآن لهم، والتحدي لا يجدي نفعاً إلا إذا كان في المجال الذي يزعم المتحدي أن له فيه قدرة ونبوغا، ونحن نعلم أن القرآن الكريم قد أعجز أمة كانت لها قدرة فائقة على قول النثر. يعرف ابن منظور النثر لغة بقوله⁽²⁾: "النثر، نثر الشيء بيدك ترمي به متفرقا، ونثر كلاما أكثره، وعكسه النظم، فهو الضم والتأليف".

أما اصطلاحا: فيرى بعض الأدباء⁽³⁾: "أن النثر هو الكلام المنثور الذي لا يقيـد بوزن ولا

(1) - ديوان النابغة الذبياني، ص 154.

(2) - لسان العرب، ج5، ص 191.

(3) - بطرس البستاني: المرجع السابق، ص 253.

قافية، أما الكلام المنظوم إذا كان موزوناً ومقفى".
ويذكر أحمد حسن الزيات⁽¹⁾: "أن النثر أسبق الكلام في الوجود لقرب تناوله، وعدم تقيده وضرورة استعماله، وهو نوعان: مسجع إن التزم في كل فقرتين أو أكثر قافية، ومرسل إن كان غير ذلك".

ويرى ابن رشيق القيرواني⁽²⁾: "أن كلام العرب نوعان: منظوم ومنثور، ولكل نوع منهما ثلاث طبقات: جيدة، متوسطة، وردئية، وأن كل منظوم أحسن من كل منثور من جنسه في معترف العادة".
وصل إلى الباحثين من النثر العربي القديم نثر يسير، ذلك أن العربي كان بفطرته يعتمد على قوة المخيلة والحس في التعبير الشفهي دون الحاجة إلى الكتابة، وكان يعتمد بشكل أساسي على الحفظ والمثابرة وليس على الكتابة والتدوين⁽³⁾.

وحسب المعلومات المتوفرة أن حياة العرب قبل الإسلام في حدودها السياسية والاجتماعية كانت قليلة الاهتمام بالفن الكتابي الذي ينشأ مع تشكل الجماعات المنظمة⁽⁴⁾.
وإذا كان العرب قد عرفوا الكتابة منذ القرن الرابع الميلادي، فإنهم لم يكونوا يعتمدون عليها في تدوين حياتهم الفكرية والعقلية، وتدوين شعرهم أو نثرهم، بل كانوا يعتمدون عليها أساساً في حاجاتهم الاقتصادية⁽⁵⁾.

ويبدو أنه ليس من المعقول أن يخاطبهم الله في القرآن الكريم بشيء لا يألفونه من الإملاء والكتابة بالعدل وإشهاد الشهود، كما ورد في قوله تعالى⁽⁶⁾: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾.

والحق إذا كان كثير من الشعر العربي القديم، قد وصل إلى الباحثين على خلاف النثر، فذلك لأن العرب كانوا قبل الإسلام ينظمون الشعر أكثر من النثر، وكان أسهل للحفظ والرواية على مر الأجيال من النثر⁽⁷⁾.

لذا يحتمل أن يكون النثر أقل بكثير مما حفظ من الشعر.
وفي هذا السياق، يمتاز النثر العربي القديم بالإيجاز والموازنة، - أي جعل الجمل متساوية الفقرات - في عدد الكلمات وصيغ تلك الكلمات، كقولهم: "كلام الملوك، ملوك الكلام"، و "ما استحسنت

(1) - تاريخ الأدب العربي، ص 18.

(2) - العمدة في صناعة الشعر ونقده، ج 1، ص 12.

(3) - حنا الفاخوري: تاريخ الأدب العربي.

(4) - بطرس البستاني: المرجع السابق، ص 254.

(5) - سعيد الأفغاني: المرجع السابق، ص 42.

(6) - سورة البقرة: الآية 282.

(7) - علي الجندي: في تاريخ الأدب الجاهلي، ص 258.

لغيرك فاعمل به، وما استقبحت من غيرك فاجتنبه"⁽¹⁾، وقد تتخلله أحيانا جمل موزونة مسجعة يأتي بها البدوي دون تكلف، وتكون أكثر الجمل قصيرة وموجزة فيها قوة وبلاغة تعبير⁽²⁾.

كان العرب يستعملون النثر لأغراض مختلفة، فقد كان وسيلة للمسامرة والمنادمة، كما كان وسيلة للعمل الاجتماعي والسياسي، ومن ثم تعددت فنونه ومنها: الأمثال، والخطابة والوصية، والقصص، وسجع الكهان.

وسأدرس كل فن من هذه الفنون على حدة:

أولاً: الأمثال والحكم: يقول علماء اللغة أن كلمة "مثل" لغة تعني: الشبه والتسوية، فمثل الشيء بالشيء سواء وشبهه، ويعني أيضا النظير والصفة⁽³⁾. ثم جعلت كل حكمة سائرة مثلاً.

ويذكر الزبيدي⁽⁴⁾ في هذا السياق: " أن ضرب المثل اعتبار الشيء بغيره وتمثيله به". في حين يرى بعض المؤرخين^(*): أن كلمة " مثل" مأخوذة من العبرانية من لفظ " مثل" أو "مشال - Mashal"، والتي تدل على معنى أوسع من معناها اللغوي، فالعبرانيون يطلقونها على الحكمة السائرة، وعلى الحكاية القصيرة ذات المغزى، وعلى الأساطير⁽⁵⁾.

فقد ورد في العهد القديم⁽⁶⁾: " هو ذا كل ضارب مثل يُضرب مثلاً عليك قائلاً: مثل الأم بنتها". وجاء ذكر الأمثال في العهد الجديد⁽⁷⁾: " لأنه في هذا يصدق القول: إن واحدا يزرع وآخر يحصد".

ووردت كلمة "مثل" و "أمثال" و "مثلاً" و "الأمثال" في مواضع كثيرة في القرآن، وقد تسبق لفظة " ضرب" كلمة المثل في الغالب، منها قوله تعالى⁽⁸⁾: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ، وقال تعالى⁽⁹⁾: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ ، وفي قوله عز وجل⁽¹⁰⁾: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾.

(1) - عمر فروخ: العرب في حضارتهم وثقافتهم، ص 87.

(2) - حنا الفاخوري: المرجع السابق، ص 201، بطرس البستاني: المرجع السابق، ص 254.

(3) - ابن منظور: المصدر السابق، ج14، ص ص 17-18.

(4) - تاج العروس، ج1، ص 347 (ضرب)

(*) - من أمثال: محمد عبد المعيد خان، وجواد علي، وأحمد أمين.

(5) - جواد علي: المرجع السابق، ج8، ص 354، أحمد أمين: فجر الإسلام، ص 64.

(6) - سفر حزقيال: الإصحاح 16، الآية 44.

(7) - إنجيل يوحنا: 4: 37.

(8) - سورة الزمر: الآية 27.

(9) - سورة إبراهيم: الآية 24.

(10) - سورة النحل: الآية 75.

وقد وردت كلمة " الأمثال " في قوله تعالى⁽¹⁾ (1): ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ...﴾، وفي قوله تعالى⁽²⁾: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

ويتضح مما سبق أن الأمثال تجتمع فيها ثلاث خصائص:

إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، فالأمثال إذن عند العرب القدامى هي نوع من أنواع الحكمة السائرة بين الناس.

ونلاحظ تباين الأمثال من أمة لأخرى، حسب البيئة التي ظهرت بها، لذلك اختلفت أمثال قريش عن بقية أمثال العرب، في العراق، وبلاد الشام، وفي العربية الجنوبية. فالأمة الزراعية تكون أمثالها مشتقة من النشاط الزراعي كما هو الحال في العراق، وفي البادية تكون الأمثال ذات طبيعة بدوية كما هو الحال في بادية الشام، وفي البيئة التجارية تكون الأمثال مستمدة من هذه البيئة ومشتقة من النشاط التجاري⁽³⁾.

لذلك نجد أن الأمثال الشائعة عند قريش وفي مكة تحديدا هي الأمثال التجارية فقالوا: " قد استتوق الجمل"⁽⁴⁾ أي انتقل عما كان عليه، قاله طرفة بن العبد لرجل انتقل من وصف جمل إلى وصف ناقة في شعر.

و " إنما يجزي الفتى ليس الجمل"⁽⁵⁾ ومعناه: إنما يجزي على الإحسان بالإحسان من هو حرّ كريم ، فأما من هو بمنزلة الجمل في لؤمه وموقه فإنه لا يوصل إلى النفع من جهته، إلا إذا اقتسر وقهر. وإنما يجزيك من فيه إنسانية لا من فيه بهيمية.

و " غدة كغدة البعير"⁽⁶⁾ ويروى " أعدة كغدة البعير وموت في بيت سلولية" ويضرب هذا المثل في خصلتين إحداهما شر من الأخرى، وسلول عندهم أقلّ العرب وأذلهم. و"لا في العير ولا في النفير"⁽⁷⁾ أي ليس في خير ولا في شر.

(1) - سورة الرعد: الآية 17.

(*) - أنظر: محمد فؤاد عبد الباقي، المرجع السابق، ص 660 - 662.

(2) - سورة النور: الآية 35.

(3) - أحمد أمين: فجر الإسلام، ص 65 ، جواد علي: المرجع السابق، ج8، ص 355.

(4) - المفضل الضبي: أمثال العرب، تعليق إحسان عباس، ط1، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، 1401 هـ -

1981م، ص 174، أبو هلال العسكري: جمهرة الأمثال، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، عبد المجيد قطامش، ج1،

ط2، دار الجيل ، بيروت، لبنان، 1964م، ص 54، الميداني: المصدر السابق، مج2، ص56، فؤاد علي رضا: أمثال

العرب، ط1، دار العودة، بيروت، 1977م، ص47.

(5) - أبو هلال العسكري: المصدر السابق، ج1، ص 57، الميداني: المصدر السابق، مج1، ص 35.

(6) - الميداني: المصدر السابق، مج2، ص 8.

(7) - المصدر نفسه، مج2، ص 223، فؤاد علي رضا: المرجع السابق، ص 166.

إن دراسة الأمثال تساعد الباحثين على معرفة الدرجة التي وصل إليها المجتمع المكي القديم، ومعرفة الكثير من أخلاقه وعاداته وحياته العقلية.

وقد أجاد العرب القدامى في هذا الفن الأدبي، وتركوا للدارسين رصيذا هاما من الأمثال تدل على عقليتهم وأخلاقهم أكثر مما يدل عنها الشعر.

فالأمثال لها ميزة عن الشعر، ذلك أن الشعر تعبير طبقة من الناس تعدُّ في مستوى أرقى من مستوى العامة، فالشعراء يعبرون عن شؤون القبيلة بألفاظ مصقولة مما يستوجبه الشعر⁽¹⁾.

أما الأمثال فتتبع من عامة الناس، وتعبّر عن أوضاعهم المختلفة وعن عقليتهم الخاصة، فهي كلام الناس، ولما كانت الأمثال كذلك، لذلك فإننا ألفاظها غير مصقولة، فهي تمثل عقلية العامة، وقد قيل: " الأمثال هي صوت الشعب" مثل قولهم: " أول ما اطلع ضبّ ذنبه"⁽²⁾.

وربما لهذا السبب نجد بعض الأمثال يفهم معناها إجمالاً لا تفصيلاً.

فقد ذكر أبو هلال العسكري⁽³⁾ في شرح: " بعين ما أرينك" أن معناه " أعجل" وهو من الكلام الذي قد عرف معناه سماعاً من غير أن يدلّ عليه لفظه، وهذا يدلّ على أن لغة العرب وصلت ناقصة، وأن فيها أشياء لا يزال يجهلها العلماء.

لقد وصلت إلى الباحثين طائفة من أمثال العرب، بفضل اعتناء العلماء بجمعها لا سيما منهم المفضل الضبي⁽⁴⁾ في كتابه "أمثال العرب"، وأبي هلال العسكري⁽⁵⁾ في كتابه الموسوم "جمهرة الأمثال" والميداني⁽⁶⁾ في كتابه "مجمع الأمثال".

والحق أن لهذه الأمثال أهمية علمية واجتماعية كبرى لا يمكن نكرانها، إذ من خلالها يستطيع الباحثون التعرف على أخلاق العرب وأحوالهم، ومقدار ما وصل إليه الإنسان العربي قبل الإسلام من قوة في التعبير والبلاغة. إلا أنه يتعذر على الباحث التمييز بين الأمثال التي قيلت قبل الإسلام والأمثال التي قيلت بعده منها:

1- " إن الهزيل إذا شبع مات"⁽⁴⁾ ويضرب هذا المثل لمن استغنى فتجبر.

2- "أول الشجرة النواة"⁽⁵⁾ ويضرب للأمر الصغير الذي يتولد منه الكبير.

(1) - أحمد أمين: فجر الإسلام، ص 64.

(2) - حنا الفاخوري: المرجع السابق، ص 202.

(3) - جمهرة الأمثال، ج 1، ص 236، الميداني: المصدر السابق، مج 1، ص 66.

(*) - توفي 170هـ / 786م.

(**) - توفي 395هـ / 1004م.

(***) - توفي 518هـ / 1124م،

(4) - الميداني: المصدر السابق، مج 1، ص 75.

(5) - المصدر نفسه، مج، ص 81، بطرس البستاني: المرجع السابق، ص 256.

- 3- " أم الجبان لا تفرح ولا تحزن"⁽¹⁾ ويضرب هذا المثل في الجبان الذي لا يأتي بخير ولا شر وإنما توجه لجبنه.
- 4- " أتى عليهم ذو أتى"⁽²⁾ هذا المثل من كلام طيء و " ذو " عندهم بمعنى " الذي"، أي أتى عليهم الذي أتى على الخلق من حوادث الدهر.
- 5- " إن أخاك مت آسأك"⁽³⁾ آسأك أي جعلك أسوة لنفسه، ويضرب في الحث على مراعاة الإخوان.
- 6- " برق لو كان له مطر"⁽⁴⁾ يضرب لمن له حسن منظر ولا معنى وراءه.

7- " المرء بأصغريه"⁽⁵⁾ أي قلبه ولسانه.

ونلاحظ مما سبق أنه مما أعاق الاستفادة من الأمثال العربية أمران:

أولهما: صعوبة التمييز بين الأمثال التي قيلت في العصر السابق للإسلام، مما لا يسمح بمعرفة طبيعة الحياة العربية الثقافية والعقلية في مكة قبل الإسلام.

وثانيهما: أن العلماء الذين جمعوا الأمثال- والذين سبق ذكرهم- رتبوا الأمثال حسب حروف الهجاء، ففي اعتقادي لو صنفوها إلى أبواب وموضوعات حسب أصولها الاجتماعية، كأن يتم جمع الأمثال التي تتعلق بالزواج والأسرة، وبالعمر وأطواره، وبالغنى والفقر، وبالعمل والتجارة، وبالأصدقاء والجيران، والمرأة وأخلاقها، وبالصحة والمرض، لأمكن للباحثين الاستفادة منها بدرجة أفضل، ولكتشفت لنا عن جانب مهم في الحياة العقلية والثقافية لدى العرب قبل مجيء الإسلام في مكة وفي كامل شبه الجزيرة العربية عموماً.

ثانياً: الخطابة:

يذكر ابن منظور⁽⁶⁾ في تعريفه الخطابة: " الخطبة عند العرب الكلام المنثور المسجع ونحوه، والخطبة مثل الرسالة لها أول ولها آخر".

كثرت الخطابة عند العرب قبل الإسلام وتعددت بواعثها، وقد ثبت أنهم كانوا يخطبون في مناسبات شتى: فبالخطابة كانوا يحرضون على القتال تارة، وعلى السلم تارة أخرى، وبالخطابة كانوا

(1) - الميداني: المصدر السابق، مج1، ص 85.

(2) - المصدر نفسه، مج1، ص 95، شوقي ضيف: العصر الجاهلي، ص 109.

(3) - الميداني: المصدر السابق، مج1، ص 99، بطرس البستاني: المرجع السابق، ص 256.

(4) - الميداني: المصدر السابق، مج1، ص 135.

(5) - شوقي ضيف: المرجع السابق، ص 409.

(6) - لسان العرب: ج5، ص 98.

يقومون بواجب الصلح بين المتخاصمين والمنتازعين، وكان العرب يعتمدون على الخطباء في إرسال الوفود وتأدية مهام السفارات لدورهم السياسي والدبلوماسي والأدبي⁽¹⁾. وكانت الخطابة تؤدي دورها في المصاهرات وربط العلاقات وأواصر الصلة والمحبة بين العشائر والقبائل.

وقد تكاثرت الخطباء في القرن الأول قبل الإسلام، أي خلال القرن السادس الميلادي، وهذا ما عبر عنه بعض المؤرخين والأدباء بالنهضة الأدبية⁽²⁾.

وقد امتازت الخطابة عند العرب، بقصر العبارات، وكثرة الحكم والأمثال، واللجوء إلى السجع، فكانوا يتخيرون العبارات البليغة، والمعاني الواضحة، بغية التأثير في السامعين وإقناعهم⁽³⁾.

وربما تتخلل الخطبة بعض من الشعر، دون تعمد من الخطيب، فنتحول إلى نظم، وقد لا يشعر الخطيب بهذا الاندماج التلقائي لتشابه النثر والشعر عندهم. لذلك فقد يكون الشاعر خطيباً، والخطيب شاعراً، لكن قد تغلب عليه إحدى الصفتين فيسمى بها إما خطيباً أو شاعراً⁽⁴⁾.

وكان للعرب سنن خاصة في خطابتهم فمنهم من كانوا يخطبون على رواحهم في المواسم العظام والمجامع الكبرى⁽⁵⁾، ومنهم من يخطب قائماً من مكان مرتفع عن الأرض وأن يشير أثناء الخطبة بالقنا والعصي والقضبان والقسي، وكانوا يخطبون وعلى رؤوسهم العمائم، وكانت العرب تمدح في الخطيب جهارة الصوت وفخامته وشدة العارضة وظهور الحجة⁽⁶⁾.

يذكر الجاحظ⁽⁷⁾: أنه من أسباب تفوق العرب على غيرهم من الأمم في الخطابة: " أن العرب كانت أنطق الأمم، ولفظها أدلّ، وأقسام تأليف كلامها أكثر، والأمثال التي ضربت أجود وأسير".

ومن أشهر خطباء مكة " كعب بن لؤي" وكان يخطب على العرب عامة، ويحضر كنانة خاصة على البر، فلما مات أكبروا موته، فلم تزل كنانة تؤرخ بموته إلى عام الفيل سنة 570م⁽⁸⁾. وهاشم بن عبد مناف، وأمّية، ونفيل بن عبد العزّي جدّ عمر بن الخطاب وإليه تنافر عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمّية بعد أن رفض النجاشي ملك الحبشة أن ينفّر بينهما، فجعل بينهما نفيل بن عبد العزّي بن

(1) - الطاهر ذراع: المجتمع العربي القديم...، ج2، ص 285.

(2) - جورج زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي، ج1، ص 32.

(3) - حنا الفاخوري: المرجع السابق، ص 203.

(4) - بطرس البستاني: المرجع السابق، ص 254، الطاهر ذراع: المجتمع العربي القديم...، ج2، ص 285.

(5) - الجاحظ: المصدر السابق، ج3، ص 414، حنا الفاخوري: المرجع السابق، ص 203.

(6) - الجاحظ: المصدر السابق، ج1، ص 82، 215، شوقي ضيف: المرجع السابق، ص 416.

(7) - البيان والتبيين، ج1، ص 222.

(8) - المصدر نفسه، ج1، ص 206.

رباح⁽¹⁾، فقال لحرب: "يا أبا عمرو: أتتافر رجلا هو أطول منك قامة، وأعظم منك هامة، وأوسم منك وسامة، وأقل منك ملامة، وأكثر منك ولدا، وأجزل صفدا، وأطول منك مذودا، وإني لأقول هذا وإنك لبعيد الغضب، رفيع الصوت عند العرب، جلد المريرة، جليل العشيرة، ولكنك نافت منفرًا"، فغضب حرب وقال: إن من انتكاس الزمان أن جعلت حكما⁽²⁾.

ومن أشهر خطباء العرب في شبه الجزيرة العربية، قيس بن شماس وابنه ثابت من يثرب، ومن خطباء يثرب أيضا "سعد بن الربيع"⁽³⁾ وهو الذي اعترضت ابنته النبي (صلي الله عليه وسلم)، فقال لها: من أنت؟ قالت: ابن الخطيب النقيب الشهيد سعد بن الربيع.

ويتضح من النص السابق أن الخطابة عند العرب في مكة كانت مبنية على السجع.

وقد ذكر الأصبهاني⁽⁴⁾ أن منافرة علقمة بن علاثة و عامر بن الطفيل كانت مسجوعة.

ويبدو أن كثرة الخطباء بمكة، ربما يعود إلى وجود دار الندوة بها، فهي أشبه ما تكون بمجلس شيوخ مصغر، فقد كانوا يجتمعون فيه يخطبون ويتحاورون.

واشتهر بالخطابة من بقية القبائل العربية: عامر بن الظرب العدواني من عدوان، وكان من الحنفاء، ومن شعراء العرب وخطبائهم⁽⁵⁾، وربيع بن حذار في أسد، وحنظلة بن ضرار في ضبة⁽⁶⁾، وقد أدرك الإسلام وطال عمره، حتى أدرك يوم الجمل، وقيل له: ما بقي منك؟ قال: "أذكر القديم وأنسى الحديث، وأرق بالليل وأنام وسط القوم". وعمرو بن كلثوم في تغلب⁽⁷⁾ ومما قاله في خطبته: "أما بعد: فإنه لا يخبر عن فضل المرء أصدق من تركه تركية نفسه، ولا يعبر عنه في تركية أصحابه أصدق من اعتماده إياهم برغبته، وائتمانه إياهم على حرمة".⁽⁸⁾

وهانيء بن قبيصة الشيباني، وهو خطيب العرب يوم ذي قار^(*)، يوم انتصر العرب على

(1) - أحمد زكي صفوت: جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ط2، ج1، مكتبة ومطبعة الحلبي، القاهرة، 1381 هـ - 1962م، ص ص 100 - 101.

(2) - ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج2، ص 6، الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص 181.

(3) - المصدر السابق، ج1، ص ص 210 - 221.

(4) - الأغاني، ج15، ص ص 50-51، أحمد زكي صفوت: المرجع السابق، ج1، ص 41.

(5) - الشهرستاني: المصدر السابق، ج2، ص 242.

(6) - الجاحظ: البيان والتبيين، ج1، ص 202.

(7) - شوقي ضيف: المرجع السابق، ص 413.

(8) - الجاحظ: المصدر السابق، ج2، ص 299، أحمد زكي صفوت: المرجع السابق، ج1، ص 37.

(*) - كان يوم من أعظم أيام العرب، كان لبكر على العجم (الفرس)، وذوقار ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة، يعد هذا اليوم من مفاخر بكر، وقد اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ هذا اليوم فقيل يوم ولادة الرسول (صلي الله عليه وسلم) ، وقيل يوم بعثته، وقيل يوم بدر الكبرى، والأرجح أنه كان بين سنتي 610-611م، وقال النبي (صلي الله عليه وسلم) =

الفرس⁽¹⁾ ، ومما قاله يحرض قومه على القتال: " يا معشر بكر، هالك معذور، خير من ناج فرور، إن الحذر لا ينجي من القدر، وإن الصبر من أسباب الظفر، المنية ولا الدنية، استقبال الموت خير من استنباره، الطعن في ثغر النحور، أكرم منه في الأعجاز والظهور، يا آل بكر، قاتلوا فما للمنايا من بد"⁽²⁾.

ومن أشهر خطباء غطفان قيس بن خارجة بن سنان الذي خطب في حرب داحس والغبراء يوماً كاملاً إلى الليل⁽³⁾.

ومن أشهر الخطباء الشعراء العرب، قس بن ساعدة الإيادي من قبيلة إياد، فقد كان خطيب العرب قاطبة، وهو الذي قال فيه النبي (صلى الله عليه وسلم): " رأيتك بسوق عكاظ على جمل أحمر"⁽⁴⁾، وفي ذلك يقول الجاحظ⁽⁵⁾: " لإياد خصلة ليست لأحد من العرب، لأن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الذي روى كلام قس بن ساعدة وموقفه على جملة في عكاظ وموعظته، وهو الذي رواه لقريش وللعرب، وهو الذي عجب من حسنه وأظهر من تصويبه، وهذا إسناد تعجز عنه الأمانى وتتقطع دونه الآمال."

وقد خطب قس بن ساعدة بسوق عكاظ فقال: "أيها الناس: اسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، ليل داج، ونهار ساج، وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهز، وبحار تزخر، وجبال مرساة، وأرض مدحاة، وأنهار مجراه، إن في السماء لخبراً، وإن في الأرض لغيراً، ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون، أرضوا فأقاموا، أم تركوا فناموا؟" ثم يقسم قس بالله قسماً لا إثم فيه: " إن لله ديناً هو أرضى له، وأفضل من دينكم الذي أنتم عليه، أنكم لتأتون من الأمر منكراً ". ثم أنشأ بعد ذلك يقول:

في الذاهبين الأولين	من القرون لنا بصائر.
لما رأيت مواردا	للموت ليس لها مصادر.
ورأيت قومي نحوها	تمضي الأكابر والأصاغر.

= في هذا اليوم: " اليوم أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم وبني نصرورا". ابن الأثير: المصدر السابق، ج1، ص289، الطبري: تاريخه، ج2، ص148، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج4، ص ص 293-294، محمد أحمد جاد المولى: أيام العرب، ص6.

(1) - الأصبهاني: المصدر السابق، ج20، ص137.

(2) - أبو علي الفاي البغدادي: المصدر السابق، ج1، ص169، أحمد زكي صفوت: المرجع السابق، ص37.

(3) - الجاحظ: المصدر السابق، ج1، ص205، محمد أحمد جاد المولى: المرجع السابق، ص246، الميداني: المصدر السابق، مج2، ص529.

(4) - الجاحظ: المصدر السابق، ج1، ص186.

(5) - المصدر نفسه، ج1، ص ص 42-43.

لا يرجع الماضي إليّ ولا يبقى من الباقيين غابر.
أيقنت أني لامحاً لة حيث صار القوم صائر⁽¹⁾.

ولم تشتهر قبيلة بالخطابة اشتهار تميم، وقد ذكر الجاحظ⁽²⁾: "ومن الخطباء البلغاء والحكام الرؤساء أكتّم بن صيفي، وربيعة بن حذار وهرم بن قطبة وعامر بن الظرب العدوانى وليبد بن ربيعة وكان من الشعراء وأحكمهم أكتّم بن صيفي."

ومن خطباء تميم أكتّم بن صيفي^(*) الذي عزّى عمرو بن هند ملك العرب عن أخيه فقال: "إن أهل هذه الدار سفر لا يحلون عقد الرحال إلا في غيرها، وقد أتاك ماليس بمردود عنك، وارتحل عنك ما ليس براجع إليك، وأقام معك من سيظغن عنك ويدعك، واعلم أن الدنيا ثلاثة أيام، فأمس عظة وشاهد عدل، فجعك بنفسه، واعلم أن أعظم من المصيبة سوء الخلف منها، وخير من الخير معطيه، وشر من الشر فاعله"⁽³⁾.

ومنهم عمرو بن الأهمم المنقري^(**)، وقيل أن شعره في مجالس الملوك حلل منشرة⁽⁴⁾.

ومجمل القول: أن الخطابة كانت مزدهرة عند العرب قبل الإسلام، فقد كانوا يتمتعون بحرية مطلقة، فكانوا يخطبون في كل المواقف، في المفاخرات والمنافرات، وفي الدعوة إلى الحرب والسلام، في النصيح والإرشاد، وفي المصاهرات والزواج، وكان كلامهم يؤثر في النفوس بما يتميز من بيان وبلاغة وقوة في التعبير.

(1) - المصدر السابق ج1، ص186، الفلقشندي: صبح الأعشى، ج1، ص212، ابن عبد ربه: المصدر السابق، ج2، ص156، الميداني: المصدر السابق، ج1، ص74، الأصبهاني: المصدر السابق، ج14، ص40، أحمد زكي صفوت: المرجع السابق، ج1، ص39.

(2) - البيان والتبيين، ج1، ص212.

(*) - هو أبو حيدة أو أبو الحفاد أكتّم بن رياح بن الحارث بن محاسن بن صيفي، من أهل الحجاز، أحد حكماء العرب، كان الملوك يزورنه لسماع حكمه ونصائحه، وكان من المعمرين، ومن الخطباء البلغاء والحكام الرؤساء، لما ظهر الإسلام، ركب متوجهاً إلى الرسول (ص) كيف يعلن إسلامه إلا أنه توفي في الطريق عام 10ق. هـ/ 612م. عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، ج1، ص201، شوقي ضيف: المرجع السابق، ص407، حنا الفاخوري: المرجع السابق، ص205.

(3) - النويري: المصدر السابق، ج5، ص164، أحمد زكي صفوت: المرجع السابق، ج1، ص37-38.

(**) - هو عمرو بن سنان بن سُمى بن الأهمم التميمي المنقري، يكنى أبا ربعي، كان أحد السادات الشعراء الخطباء في الجاهلية والإسلام، يدعى "المكل" لجماله، وقد وفد على النبي (ص) مسلماً، فلقى حفاوة وإكراماً، توفي سنة 57هـ/ 677م. ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ج2، ص632، ابن حجر العسقلاني: الإصابة، ج6، ت 5772، الجاحظ: البيان والتبيين، ج1، ص37-38، المفضليات، ص125، المرزباني: المصدر السابق، ص212.

(4) - الجاحظ: المصدر السابق، ج1، ص38، ابن قتيبة: المصدر السابق، ج2، ص633.

ثالثاً: الوصية:

تلحق الوصية بالخطابة، وهي بمعنى النصح والإرشاد والتوجيه، وتكون عادة من أولياء الأمور لأبنائهم عند حلول الشدائد أو عند الاحتضار، وقد تكون من شيخ القبيلة لقومه في الأمور الهامة، وهي قول مؤثر يتضمن حثاً على سلوك نافع، والترغيب فيما ينفع و عما يضر، وهي نتيجة الخبرة الطويلة والملاحظة الدقيقة والعقل الواعي والتفكير السليم.

ومن أشهر الوصايا: وصية عامر بن الظرب العدواني لقومه ومنها:

" إني ما رأيت شيئاً قط خلق نفسه، ولا رأيت موضوعاً إلا مصنوعاً، ولا جائياً إلا ذاهباً، ولو كان يميت الناس الداء لأحياهم الدواء"، ثم قال: "إني أرى أمور شتى وحتى، فقيل له: وما حتى؟ قال: حتى يرجع الميت حياً، ويعود لا شيء شيئاً، ولذلك خلقت السموات والأرض" فتولوا عنه ذاهبين، فقال لهم: " ويل إنها نصيحة، لو كان من يقبلها"⁽¹⁾

وقد حرم الخمر على نفسه، وقال في ذلك:

سألة للفتى ما ليس في يده	ذهابة بعقول القوم والمال.
أقسمت بالله أسقيها وأشربها	حتى يفرق ترب القبر أوصالي.
مورثة القوم أضغانا بلا إحن	مزرية بالفتى ذي النجدة الحالي. ⁽²⁾

ومن وصية لأكثم بن صيفي يعظ قومه قال:

" يا بني تميم: لا يفوتكم وعظي إن فاتكم الدهر بنفسي، إن بين حيزومي وصدري لكلاماً لا أجد له مواقع إلا أسماعكم، ولا مقار إلا قلوبكم، فتلقوه بأسماع مصغية و قلوب واعية تحمدوا مغبته، الهوى يقظان، والعقل نائم، والشهوات مطلقة، والحزم معقول، والنفس مهملة، والروية مقيدة، ومصارع الرجال تحت بروق الطمع، ومن سلك الجدد أمن العشار، ولن يعدم الحسود أن يتعب قلبه ويشغل فكره ويورث غيظه، ولا تجاوز مضرته نفسه."⁽³⁾

ولما حضرت أكثم بن صيفي الوفاة جمع أبناءه وقال من وصية:

" يا بني: الدهر قد أدبني، وقد أحببت أن أؤدبكم وأزودكم أمراً يكون لكم بعدي معقلاً، يا بني: تباروا فإن البر ينسىء في الأجل وينمي العدد، وكفوا ألسنتكم فإن مقتل الرجل بين فكيه"⁽⁴⁾.
وقد تكون الوصية شعراً، من ذلك قول قيس بن عاصم^(*) الذي قال فيه رسول الله (صلى الله عليه وسلم):

(1) - الشهرستاني: المصدر السابق، ج2، ص242، أبو علي القالي: الأمالي، ج1، ص204.

(2) - المكان نفسه.

(3) - عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، ج1، ص202.

(4) - حنا الفاخوري: المرجع السابق، ص205.

(*) - يكنى أبا علي، من تميم، شاعر فارس، مخضرم، وهو الذي وأد بناته كلهن في الجاهلية، اشتهر بالجود والكرم، لا يستطيع الأكل وحده، وقد جاءته امرأته بالطعام فقال:

"هذا سيد أهل الوبر"⁽¹⁾ فقد حرم الخمر والزنا على نفسه وقال يوصي قومه:

سألمت قومي بعد طول مضاضة والسلم أبقى في الأمور وأعرف.
وتركت شرب الراح وهي أثيرة والمومسات، وترك ذلك أشرف.
وعففت عنه يا أميم تكرماً وكذلك يفعل ذو الحجى المتعفف⁽²⁾.
وقال أيضاً:

لعمرك إن الخمر ما دمت شارباً لسالبة مالي ومذهبه علقى.
وتاركتي بين الضعاف قواهم ومورثتي حرب الصديق بلا تيل⁽³⁾.

وكان بعض العرب إذا حضره الموت يقول لولده: ادفنوا معي راحلتي حتى أحشر عليها، فإن لم تفعلوا حشرت على رجلي وفي ذلك قال "جريبة بن الأشيم الأسدي" وقد حضره الموت يوصي ابنه سعداً:

يا سعد إما أهلكن فإنني أوصيك إن أcha الوصاة الأقرب.
لا تتركن أباك يعثر راجلاً في الحشر يصرع لليدين وينكب⁽⁴⁾.

ومن وصايا الأمهات لبناتهن، وصية زوجة "عوف بن محم الشيباني" لابنتها حينما زفت إلى زوجها الحارث بن عمرو ملك كندة ومنها تقول:

" أي بنية: إن الوصية لو تركت لفضل أدب، تركت لذلك منك، ولكنها تذكرة للغافل، ومعونة للعاقل، أي بنية: إنك فارقت الجو الذي خرجت منه، وخلفت العش الذي فيه درجت، إلى وكر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فكوني له أمة يكن لك عبداً، يابنية: كوني له أشد ما تكونين له إعظاماً يكن أشد ما يكون لك إكراماً، وأشد ما تكونين له موافقة يكن أطول ما تكونين له مرافقة، واعلمي أنك لا تصلين إلى ما تحبين حتى تؤثري رضاه على رضاك، وهواه على هواك فيما أحببت وكرهت، والله يخير لك"⁽⁵⁾.

= إذا ما صنعت الزاد فالنمسي له أكيلاً فإنني لست أكله وحدي.
أخا طارقاً أو جار بيت فإنني أخاف ملامات الأحاديث من بعدي.

المرزباني: المصدر السابق، ص324، الأصبهاني: المصدر السابق، ج12، ص143، أبو تمام: ديوان الحماسة، تحقيق عبد المنعم أحمد صالح، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، 1980م، ص547.

(1) - الجاحظ: المصدر السابق، ج2، ص252.

(2) - الشهرستاني: المصدر السابق، ج2، ص243.

(3) - أبو علي القالي: الأمالي، ج1، ص204.

(4) - الشهرستاني: المصدر السابق، ج2، ص244.

(5) - الجاحظ: المصدر السابق، ج2، ص7.

رابعاً: سجع الكهان:

ويلحق بالخطابة، فقد كانت طائفة من العرب قبل الإسلام تدعي أنها تطلع على الغيب عن طريق ما تتلقاه من توابعها من الجن، وكان الواحد منهم يسمى " كاهناً " كما يسمى تابعه الذي يوحي إليه " الرئي " فالكهانة إذن كانت معروفة عند العرب قبل الإسلام، وكان للكهان قداسة دينية ونفوذ كبير بين الناس، يلجأون إليهم في كل شؤونهم، وقد يتخذونهم حكاما في خصوصياتهم ومنافراتهم على نحو ما كان من منافرة هاشم بن عبد مناف وأمّية بن عبد شمس واحتكامهما إلى الكاهن الخزاعي، وقد نفر هاشما على أمّية⁽¹⁾.

وكانوا يستشيرونهم في أمورهم الخاصة، ويفسرون رؤاهم وأحلامهم⁽²⁾، وكثيرا ما ينذر الكهان بعض قبائلهم بوقوع غزو غير منتظر⁽³⁾.

ويبدو أن الكهان كانوا يتمتعون بمنزلة خاصة، فقدماء العرب كانوا يعتقدون أنه يوحي إليهم، ولعل ذلك ما جعل نفوذ الكاهن يتجاوز قبيلته إلى القبائل المجاورة، فقد كانت تأتي الكهان من مناطق بعيدة من أطراف الجزيرة العربية.

ويلاحظ أن أكثرهم كان باليمن لكثرة بيوت العبادة الوثنية بها، ولعل ذلك ما يدل على الصلة القديمة بين وثنية عرب الشمال ووثنية عرب الجنوب.

وقد ذكر الإخباريون في كتب التاريخ والأدب أسماء كثيرة لكهان بلغت شهرتهم أطراف الجزيرة العربية كلها.

يذكر الجاحظ⁽⁴⁾: " أن أكهن العرب وأسجعهم سلمة بن أبي حية وهو الذي يقال له عزى سلمة " ومن قوله: " والأرض والسماء والعقاب والصقعاء، واقعة ببقعاء، لقد نفر المجد بني العشراء للمجد والسناء ".

ومن الكهان العرب القدامى: سواد بن قارب الدوسي⁽⁵⁾، والمأمور الحارثي كاهن بني الحارث بن كعب⁽⁶⁾، وخنافر الحميري⁽⁷⁾.

إن الكهانة لا تقتصر على الرجال فقط، بل كان هناك نساء كاهنات، وربما كن في الأصل من

(1) - أحمد زكي صفوت: المرجع السابق، ج1، ص ص 100-101.

(2) - ابن هشام: المصدر السابق، ج1، ص 13.

(3) - المصدر نفسه: ج1، ص ص 43، 221، أبو علي القالي: المصدر السابق، ج1، ص 126.

(4) - البيان والتبيين: ج1، ص 210.

(5) - ابن هشام: المصدر السابق، ج1، ص 227.

(6) - الأصبهاني: المصدر السابق، ج15، ص 70، أبو علي القالي: المصدر السابق، ج1، ص 273.

(7) - المصدر نفسه، ج1، ص 134.

النساء اللاتي وهين أنفسهن للآلهة ومعابدها، ومن أشهرهن: الشعثاء⁽¹⁾، وكاهنة ذي الخصلة⁽²⁾، والكاهنة السعدية⁽³⁾، والزرقاء بنت زهير⁽⁴⁾، والغيطلة القرشية⁽⁵⁾، وزبراء كاهنة بني رثام⁽⁶⁾، وطريفة وكانت باليمن، وفاطمة الخثعمية وكانت بمكة⁽⁷⁾.

وقد ذكر الإخباريون: أن حجرا أبا امرئ القيس رق لبني أسد فبعث في أثرهم، فأقبلوا حتى إذا كانوا على مسيرة يوم من تهامة تكهن كاهنهم وهو عوف بن ربيعة، فقال لبني أسد: يا عبادي! قالوا: لبيك يا ربنا، قال: من الملك الأصهب، الغلاب غير المغلب، في الإبل كأنها اليرب، لا يعلق رأسه الصخب، هذا دمه ينبعث، وهذا غدا أول ما يسلب، قالوا: من هو يا ربنا؟ قال: لولا أن تجيش نفس جاشية لأخبرتكم أنه حجر ضاحية. فركبوا كل صعب وذلول، فما أشرق لهم النهار حتى أتوا على عسكر حجر فهجموا على قبته وقتلوه⁽⁸⁾.

ويروى أبو علي القالي: ⁽⁹⁾ " أن زبراء كاهنة بني رثام أنذرت قومها غارة عليهم فقالت: واللوح الخافق، والليل الغاسق، والصبح الشارق، والنجم الطارق، والمزن الوداق، إن شجر الوادي ليأدو ختلا، ويحرق أنيابا عصلا، وإن صخر الطود لينذر تكللا، لا تجدون عنه معلا".

ويذكر ابن هاشم⁽¹⁰⁾: " أن ربيعة بن نصر ملك اليمن رأى رؤيا هالته وفضع بها، فبعث إلى كاهنين هما: سطيح واسمه " ربيع بن ربيعة بن مسعود"، وشق واسمه" ابن صعب بن يشكر بن رهم" فقدا عليه، وقد اتفقا على تفسير هذه الرؤيا فقال سطيح: " أحلف بما بين الحرثين من حنش، ليهبطن أرضكم الحبش، وليلمكن ما بين أبيين إلى جرش"، وقال شق: " أحلف بما بين الحرثين من إنسان، لينزلن أرضكم السودان، فليغلبن على كل طفلة البنان، وليلمكن ما بين أبيين إلى نجران" فوقع في نفس ربيعة ما قال الكاهنان فجهز أبناءه وأهله وأرسلهم إلى العراق.

ويبدو مما سبق أن الكهان كانوا يعمدون في أحاديثهم إلى السجع وفيه غموض وإبهام، بهدف التأثير في السامعين من جهة، وليركوا المجال لمن يسمع كي يؤول كل منهم ما يسمعه حسب فهمه وظروفه من جهة أخرى.

(1) - أحمد زكي صفوت: المرجع السابق، ج1، ص103.

(2) - الميداني: المصدر السابق، ج1، ص223.

(3) - المصدر نفسه، ج2، ص54.

(4) - الأصبهاني: المصدر السابق، ج13، ص81.

(5) - ابن هشام: المصدر السابق، ج1، ص225.

(6) - أبو علي القالي: المصدر السابق: ج1، ص126.

(7) - علي الجندي: في تاريخ الأدب الجاهلي، ص269.

(8) - الأصبهاني: المصدر السابق، ج9، ص84، الشنتمري: المصدر السابق، ص23.

(9) - الأمالي، ج1، ص126-127.

(10) - السيرة النبوية، ج1، ص11-13.

ولعل ذلك كله يدل على أن العرب القدماء قد اعتنوا بنثرهم كما اعتنوا بشعرهم وقصصهم. لذلك نجد أن بعضاً من قريش قد اختلط عليها الأمر لما نزل القرآن الكريم، فقرنوه بسجع الكهان، فرد عليهم في قوله تعالى⁽¹⁾: ﴿فَذَكَرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾، وفي قوله عز وجل⁽²⁾: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

المطلب الثاني: القصص:

كان للعرب قصص، وهو باب واسع في أدب العرب الأقدمين، وفيه دلالة واضحة على عقليتهم ودرجة تفكيرهم وكان هذا القصص على أنواع منه:
أولاً: أيام العرب:

ويقصد بأيام العرب تلك الوقائع والمعارك التي دارت بين القبائل العربية قبل الإسلام، أو بين العرب وأمم أخرى.

لقد كان القرن السادس الميلادي حافلاً بالاضطرابات السياسية بين القبائل العرب، وبلغ ذروته بين المناذرة والغساسنة، وبين بكر وتغلب، وعبس وذيبيان، والأوس والخزرج.

تعتبر أيام العرب مصدرًا هاماً من مصادر التأريخ للعلاقات السائدة بين مختلف القبائل العربية قبل الإسلام، كما تعتبر ينبوعاً من ينابيع الأدب، نستشف منها أحوال العرب وعاداتهم وتقاليدهم في الحرب والسلم، وما روي خلالها من روائع النثر، وحماسي الشعر، وما اشتملت عليه من قصص طريفة.

وكانت هذه الوقائع تنشب لأسباب سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو نفسية، وقد تكون لأسباب واهية⁽³⁾.

ترى بعض القبائل العربية أن الغزو أمر طبيعي لتسيطر وتسنأثر بالزعامة كالحرب التي قامت بين الأوس والخزرج في يثرب، أو التخلص من حكم أجنبي، كالحرب التي قامت بين ربيعة واليمن، للتححرر من السيطرة اليمنية، وقد يكون الهدف اقتصادياً كالتسابق على موارد المياه ومنابت العشب⁽⁴⁾. وبالرغم من اهتمام الإخباريين بأيام العرب، فإنهم لم ينقلوا إلى الباحثين إلا عددًا قليلاً منها، والتي كانت لها أهمية خاصة في حياة العرب، وهي غير مرتبة حسب تسلسلها الزمني، ويصعب على الباحث تنظيمها على أساس تاريخي، ذلك أن الكثير منها لم يذكر الإخباريون تاريخها، وسأقتصر على

(1) - سورة الطور: الآية 29.

(2) - سورة الحاقة: الآيات 40-42.

(3) - السيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب قبل الإسلام، ج1، ص 374.

(4) - جواد علي: المرجع السابق، ج4، ص 214.

ذكر الأيام المشهورة:

أ- حرب البسوس: تعتبر من أيام العرب الهامة في تاريخ العرب قبل الإسلام، وكانت بين بكر وتغلب، من ربيعة ودامت أربعين سنة⁽¹⁾.

وكانت حرب البسوس عبارة عن عدة حروب وقعت في فترات متقطعة منذ نشوبها في العقد الأول من القرن الخامس الميلادي، إلى أن انسحب عدي بن ربيعة المعروف بـ "المهل" إلى اليمن، حوالي سنة خمسمائة وخمسة وعشرين للميلاد (525م)⁽²⁾، وقد ضرب بها العرب المثل فقالوا: "أشأم من شراب" و "أشأم من البسوس"⁽³⁾.

ب- يوم داحس والغبراء: تعتبر هذه الحرب من أيام العدنانية الشهيرة، وقد وقعت بين قبيلة عيس وقبيلتي ذبيان وغطفان⁽⁴⁾.

واستمرت زهاء أربعين سنة من سنة خمسمائة وثمانية وستين للميلاد (568م) إلى سنة ستمائة وثمانية للميلاد (608م)، ولم تتوقف هذه الحرب إلا بعد تدخل الحارث بن عوف المري وهرم بن سنان فدفعا الديات من مالهما الخاص⁽⁵⁾، وتم الصلح بين عيس وذبيان. وقد خلد زهير بن أبي سلمى فعلهما في معلقته فقال⁽⁶⁾:

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم بحومانة الدراج فالمتننم
ديار لها بالرقمتين كأنها مراجيع وشم في نواشر معصم.

كما اشتهر في هذه الحرب عنتر بن شداد العبسي (525م - 615م)، وقد ضرب العرب المثل بهذا اليوم فقالوا: "أشأم من داحس"⁽⁷⁾.

ج- حروب الفجار: عرفت بهذا الاسم لأنها وقعت في الأشهر الحرم، وكانت بين كنانة وقيس، وهي فجاران: الفجار الأول ثلاثة أيام، والفجار الثاني خمسة أيام في أربع سنين⁽⁸⁾: وهي يوم نخلة سنة خمسمائة وستة وثمانين للميلاد (586م)، ويوم شمطة سنة خمسمائة وستة وثمانين للميلاد (586م)، ويوم العباء سنة خمسمائة وسبعة وثمانين للميلاد (587م)، ويوم عكاظ سنة خمسمائة وثمانية وثمانين

(1) - محمد أحمد جاد المولى: أيام العرب في الجاهلية، ص 142.

(2) - ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج1، ص 183، عمر فروخ: تاريخ الجاهلية، ص 98.

(3) - أبو هلال العسكري: المصدر السابق، ص 556، الميداني: المصدر السابق، ج1، ص 523.

(4) - محمد أحمد جاد المولى: المرجع السابق، ص 246، لويس شيخو: شعراء النصرانية، ص 917، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج1، ص 205 (أصا- هباءة).

(5) - ابن الأثير: المصدر السابق، ج1، ص 343-355، ابن هشام: المصدر السابق، ج1، ص 306-307.

(6) - ديوان زهير، ص 102، لويس شيخو: المرجع السابق، ص 512، عمر فروخ: المرجع السابق، ص 137.

(7) - أبو هلال العسكري: المصدر السابق، ج1، ص 556، الميداني: المصدر السابق، ج1، ص 528.

(8) - محمد أحمد جاد المولى: المرجع السابق، ص 322.

للميلاد (588م)، ويوم الحرية سنة خمسمائة وتسعة وثمانين للميلاد (589م)⁽¹⁾.
وقد حضر النبي (ص) قبل بعثته يوم عكاظ مع أعمامه وعمره 14 سنة، وكان يناولهم النبل،
وقد انتهت هذه الحروب سنة خمسمائة وتسعة وثمانين للميلاد (589م)⁽²⁾، بالتصالح ودفع الديات.
ومن أيام العرب والفرس:

د- **يوم الصفقة**: يسمى أيضا "يوم المشقر"⁽³⁾، وقع نحو سنة ستمائة وثلاثة عشر للميلاد (613م)⁽⁴⁾،
وكان لكسرى على تميم، وسمي يوم الصفقة لأن كسرى أصفق وأوصد الباب على تميم في حصن
المشقر وهو حصن بالبحرين⁽⁵⁾.

وقد اشتهر في هذا اليوم أكثم بن صيفي خطيب بني تميم بوصيته التي يعظ فيها قومه⁽⁶⁾-
والتي ذكرتها سابقا-

هـ- **يوم ذي قار**^(*): تعد هذه المعركة من أهم المعارك التي جرت بين العرب والفرس قبل الإسلام،
وكان يوم ذي قار لبكر على العجم⁽⁷⁾، وفي انتصار العرب على الفرس في هذه المعركة قال رسول الله
(ص): "اليوم أول يوم انتصفت فيه العرب على العجم، وبني نصرنا"⁽⁸⁾ وذلك في أول يوم من البعثة
كما ذكر الإخباريون.

وقد اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ معركة ذي قار بدقة:

1- فمنهم من يرى أنها وقعت يوم ولادة الرسول (صلى الله عليه وسلم) أي حوالي سنة خمسمائة وسبعين
للميلاد (570م)⁽⁹⁾.

2- والبعض يجعلها بعد هجرة النبي (ص) إلى يثرب⁽¹⁰⁾.

(1) - أحمد ارحيم هيو: المرجع السابق، ص 249.

(2) - ابن الأثير: المصدر السابق، ج1، ص 359.

(3) - سعيد الأفغاني: المرجع السابق، ص 241.

(4) - عمر فروخ: تاريخ الجاهلية، ص 146.

(5) - ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج5، ص 134، محمد أحمد جاد المولى: المرجع السابق، ص 2.

(6) - عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، ج1، ص 202.

(*) - أطلق الإخباريون على يوم ذي قار عدة أسماء منها: يوم الحنو، ويوم قراقر، ويوم الجبابات، ويوم الغذوان، ويوم
العجرم، ويوم البطحاء أي بطحاء ذي قار، وحنو ذي قار، وهي ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة، الطبري: تاريخ
الرسل والملوك، ج1، ص 1016، ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج4، ص 293، Henri Massé : Op.cit, p14.

(7) - محمد أحمد جاد المولى: المرجع السابق، ص 6، الأصبهاني: المصدر السابق، ج 20، ص 132.

(8) - الطبري: المصدر السابق، ج2، ص 193، ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج4، ص 294، مسكويه: تجارب

الأمم وتعاقب الهمم تحقيق سيد كسوري حسن، ج1، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2003، ص160.

(9) - المكان نفسه.

(10) - المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج1، ص 278.

- 3- وبعضهم يحددها بعد غزوة بدر بأشهر⁽¹⁾.
- 4- والبعض الآخر يجعلها عند منصرف النبي (ص) من وقعة بدر⁽²⁾.
- 5- ويرى آخرون أنها حدثت لتمام أربعين سنة من مولد الرسول (ص)⁽³⁾.
- 6- ويرى بعض المستشرقين ومنهم كوسان ذي بر سيفال⁽⁴⁾: أنها حدثت في جانفي من سنة ستمائة وأحد عشر للميلاد (611م)، أي بعد أن اكتمل عمر النبي (ص) أربعين عامًا.
- 7- ويعتقد نيكلسون⁽⁵⁾: أنها وقعت سنة ستمائة وعشرة للميلاد (610م).
- وقد تغنى بعض الشعراء بانتصار العرب يوم ذي قار على الفرس، قال أبو تمام في مدح خالد بن يزيد الشيباني:

ألاك بنو الأفضال لولا فعالهم درجن فلم يوجد لمكرمة عقب.
لهم يوم ذي قار مضى وهو مفرد وحيد من الأشباه ليس له صحب⁽⁶⁾.

ويتضح مما سبق أن الإخباريين والمستشرقين والمؤرخين المحدثين اختلفوا في تحديد تاريخ دقيق لمعركة ذي قار، وأرى أن هذه الواقعة حدثت فيما يقرب من سنة ستمائة وتسع للميلاد (609م) أو سنة ستمائة وعشر للميلاد (610م) على أبعد تقدير، ذلك أن المصادر تؤكد أن النبي (صلي الله عليه وسلم) بعث على رأس أربع سنين من ملك إياس بن قبيصة الطائي (605-614م)⁽⁷⁾ ولما كان من المعروف أن النبي (صلي الله عليه وسلم) توفي في 12 ربيع الأول سنة 11هـ - 632م، وهو في الثالثة والستين على أرجح الآراء⁽⁸⁾، فإن بعثته تكون قد حدثت سنة 609م وله من العمر أربعين سنة⁽⁹⁾، وعلى ذلك تكون وقعة ذي قار قد جرت سنة 609م أو سنة 610م على أبعد تقدير - كما ذكرت آنفًا -.

وكانت القصص موضوع سمر العرب قبل الإسلام وبعده، فقد قيل لبعض أصحاب رسول الله (صلي الله عليه وسلم): "بما كنتم تتحدثون به إذا خلوتم في مجالسكم؟ قالوا: كنا نتناشد الشعر ونتحدث

(1) - المسعودي: المرجع السابق، ج1، ص 278.

(2) - ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج4، ص 294.

(3) - حمزة الأصفهاني، المصدر السابق، ص 74، الطبري: المصدر السابق، ج2، ص 1028، أبو الفداء: المصدر السابق، ج1، ص 201.

(4) - Caussin de Perceval: Op. cit, T.2 , p184

(5) - Nicholson (R.A): Op. cit, p.70. ، عمر فروخ: تاريخ الجاهلية، ص 138.

(6) - ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج4، ص 294.

(7) - حمزة الأصفهاني: المصدر السابق، ص 98.

(8) - البلاذري: أنساب الأشراف، ص 579، ابن الأثير: أسد الغابة، ج1، ص 52.

(9) - ابن هشام: المصدر السابق، ج1، ص 252، ابن سعد: المصدر السابق، ج1، ص 129.

بأخبار جاهليتنا⁽¹⁾.

ثانياً- أحاديث الهوى: وردت هذه الأحاديث في كتب الأدب، ومنها ما روى الإخباريون عن قصة المنخل اليشكري والمتجردة زوح النعمان، وما كان بينهما من علاقة وما قيل في ذلك من قصص وما روي من أشعار.

وقد حفلت تراجم أبو الفرج الأصبهاني بمادة غنية من قصص الهوى. ذكر الأصبهاني⁽²⁾: أن المرقش الأكبر^(*) كان يهوى ابنة عمه أسماء بنت عوف وهو غلام، وحاول خطبتها، إلا أن عمه أبي وقال له: "لا أزوجك حتى تعرف باليأس والشجاعة". فسافر المرقش في طلب العلا، وفي تلك الأثناء أصاب عمه ضيق في المال، فجاءه رجل من بني مراد أطمعه بالمال، فزوجه أسماء على مئة من الإبل، ولما عاد المرقش أخفوا عنه خبر الزواج، ولما علم خرج في طلب أسماء وزوجها المرادي مع صديق له من غفيلة، ومرض في الطريق، فنزلاً كهفاً في أسفل نجران وهي أرض مراد، وقد سمع صديقه وامرأته يتأمران على تركه بالكهف⁽³⁾، فكتب خلسة على مؤخرة الرّحل هذه الأبيات:

يا صاحبي تلبثا لا تعجلا	إن الرواح رهين أن لا تعذلا.
يا راكباً إما عرضت فبلغن	أنس بن سعد إن لقيت وحرملا.
لله دركما ودر أبيكما	إن أفلت العبدان حتى يقتلا.
من مبلغ الأقوم أن مرقشا	أضحى على الأصحاب عبئاً متقللاً ⁽⁴⁾ .

وانطلق صديقه الغفيلي حتى أتى أهله فأخبرهم أن المرقش مات في الكهف، لكن أخاه حرملة قرأ ما على الرّحل، فاستنطق الرجل الذي اعترف بالحقيقة، فركب أخوه حرملة في طلبه، فلما بلغ الكهف وجد أسماء وزوجها المرادي عنده، فاحتملاه إلى أهله، ثم مات عند أسماء ودفن في أرض مراد، وقال قبل أن يموت:

سري ليلا خيال من سليمي فأرقتني وأصحابي هجود

(1) - أحمد أمين: فجر الإسلام، ص 70.

(2) - الأغاني، ج5، ص 180.

(*) - المرقش الأكبر: (ت سنة 552م) هو عوف بن سعد بن مالك من بكر وائل، وهو من الشعراء العشاق يتميز عن بقية شعراء العرب قبل الإسلام أنه مات متيماً بابنة عمه أسماء بنت عوف، وهو من أصحاب المنتقيات، أحسن شعره في الحماسة، ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ج1، ص 210، الأصبهاني: المصدر السابق، ج5، ص 179، ابن عبد القادر البغدادي: المصدر السابق، ج3، ص 514، لويس شيخو: شعراء النصرانية، ص 282، جورج زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، مج1، ج1، ص 136، المفضليات، ص 221.

(3) - شوقي ضيف: المرجع السابق، ص 401.

(4) - الأصبهاني: المصدر السابق، ج5، ص 181، المفضليات، ص 222.

فبت أدبر أمري كل حال وأذكر أهلها وهم بعيد⁽¹⁾

ومن قصص الهوى أيضا ما ذكره الإخباريون عن المنخل اليشكري والمتجردة زوج النعمان. فقد ذكر الأصبهاني⁽²⁾: أن المنخل اليشكري كان مع النابغة الذبياني من ندماء النعمان بن المنذر^(*)، وكان النعمان يؤثر شعر النابغة على شعره، وقد طلب النعمان من النابغة أن يصف المتجردة فقال في قصيدة أولها:

من آل مية رائح أو مغتد عجلان ذا زاد وغير مزود

فغار المنخل من ذلك وقال النعمان: " ما يستطيع أن يقول هذا الشعر إلا من جرب، وهذه صفة معاين"، فغضب النعمان وهمم بقتل النابغة، إلا أنه هرب إلى غسان⁽³⁾.
وخلأ المنخل بمجالسة النعمان وكان يهوى المتجردة، وقد ولدت غلامين جميلين قيل هما من المنخل، لأنه كان جميلا وسيما، بينما كان النعمان دميم الخلقة قصير القامة. ومما قاله المنخل في المتجردة:

إن كنت عاذلتي فسيروى نحو العراق ولا تحوري⁽⁴⁾

وكان للنعمان يوم يركب فيه فيطيل المكوث، وكان المنخل من ندمائه لا يفارقه، وكان يأتي المتجردة في ذلك اليوم، ولما عاد النعمان على حين غرة وجد المنخل مع المتجردة في قبتها، فأخذه ودفعه إلى "عكب" صاحب سجنه، فعذبه حتى مات⁽⁵⁾.
وقبل أن يموت أنشد هذه الأبيات:

ألا من مبلغ الحرين عني بأن القوم قد قتلوا أبيبا
وإن لم تتأروا إلى من عكب فلا أرو يتما أبدا صديبا
يطوف بي عكب في معد ويطعن بالصميلة في قفيا⁽⁶⁾

(1) - الأصبهاني: المصدر السابق، ج5، ص 182، جورجى زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، مج1، ج1، ص 137، المفضليات، ص 223.

(2) - الأغاني، ج18، ص 153.

(*) - النعمان بن المنذر: (583م - 605م) هو النعمان أكبر أبناء المنذر بن المنذر ملك الحيرة، أمه سلمى بنت وائل بن عطية الصائغ من فدك، ويعتقد المؤرخون أنها من أصل يهودي لأن معظم أهل فدك من اليهود، كان النعمان أحمر الوجه، أبرشا، قصير القامة، دميم الخلقة خلافا لإخوته العشرة من أبيه الذي يسمون الأشاهب لجمالهم. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج1، ص1017، المسعودي: مروج الذهب، ج2، ص99، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج1، ص286.

(3) - الأصبهاني: المصدر السابق، ج 9، ص 159.

(4) - جورجى زيدان: المرجع السابق، مج1، ج1، ص 157.

(5) - جواد علي: المرجع السابق، ج4، ص 95.

(6) - الأصبهاني: المصدر السابق، ج18، ص ص 154 - 155.

المبحث الخامس: الأسواق:

بعد دراسة الشعر والنثر في المبحث السابق، من حيث أصوله وتطوره، ومدى انتشاره في شبه الجزيرة العربية، سأعالج في هذا المبحث الأسواق العربية القديمة ودورها الاقتصادي والاجتماعي، دورها الثقافي بوجه خاص ومدى مساهمتها في إبراز ثقافة العرب قبل ظهور الإسلام. يذكر الزبيدي⁽¹⁾ في تعريفه للسوق: "أنها المحل الذي يتسوق منه، وهي إما ثابتة مع أيام السنة يبيع فيها الباعة، ويقصدها المشترون للشراء، أو موسمية تعقد في مواسم معينة، فإذا انتهى الموسم رفعت، ويقال للسوق القسيمة".

لقد أقام العرب أسواقا يتبايعون فيها، ويتبادلون المنافع، وكانت هذه الأسواق إما دائمة أو موسمية مؤقتة تعقد في شهر معين من السنة، وهي نوعان: إما محلية: وهي التي تقام في قلب المدن لتلبية حاجات القرى والمناطق المجاورة لها من بدو وحضر، وإما عامة: أو موسمية وهي التي يقصدها الناس من شتى أنحاء الجزيرة العربية للبيع والشراء كسوق عكاظ ودومة الجندل وذي المجاز مثلا.

وقد اختيرت لهذه الأسواق الأماكن المناسبة من حيث الاتساع والقرب من المدن المتحضرة ومصادر المياه، وكان الأعراب يفتدون إلى هذه الأسواق لعرض سلعهم أو يتزودوا بما يلزمهم من مؤونة وملابس وغيرها⁽²⁾.

وكانت بعض الأسواق تتمتع بموقع جغرافي هام لوقوعها على ساحل البحر أو بالقرب منه، أو مجاورة للوديان والينابيع مثل سوق عدن وصنعاء وعمان⁽³⁾.

وتتميز هذه الأسواق عن غيرها من الأسواق التي تقع في قلب الجزيرة العربية مثل سوق حجر وسوق حضرموت بارتياح الأجانب والدول المجاورة لها كالهند والحبشة والروم والفرس⁽⁴⁾.

وإذا كانت هذه الأسواق قد أقيمت لغاية أساسية وهي التجارة وتبادل السلع المختلفة من ميرة^(*) ولطيمة^(**)، فقد كان لها وظيفة أخرى هي تبادل المنافع المادية، واعتبارها منتدى ومحفلا يجتمع فيها

(1) - تاج العروس، ج9، ص 27 (قسم)، الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ج4، ص 165.

(2) - أحمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق، ص 71.

(3) - سعيد الأفغاني: المرجع السابق، ص 194.

(4) - جواد علي: المرجع السابق، ج4، ص 413.

(*) - الميرة: هي الطعام الذي يمتاره الإنسان ويجلبه من الأسواق التي تقام في المواسم، والقبائل العربية تمتاز ميرتها من أسواق الحضرة، الزبيدي: المصدر السابق، ج3، ص 552 (ماير).

(**) - اللطيمة: تقال لكل سوق يجلب إليها غير ما يؤكل من حر الطيب والمتاع غير الميرة، وربما قيل لسوق العطارين لطيمة، المصدر نفسه، ج9، ص 60 (لطم).

الشعراء والخطباء والحكماء للمفاخرة والمبارزة، وتبادل الأفكار وتصفية اللغة وتوحيدها⁽¹⁾. وكان يرتادها بعض المبشرين يغشون هذه السوق وغيرها للدعاية لديانتهم⁽²⁾، وربما جاء أحدهم ليبحث عن غريم أو عبد هرب منه أو حصان سرق منه⁽³⁾. وكانت الأسواق منتشرة في جميع أنحاء الجزيرة العربية، وموزعة على أيام السنة. وفي ذلك يورد القلقشندي⁽⁴⁾: "كان للعرب في الجاهلية أسواق يقيمونها في شهور السنة، وينتقلون من بعضها إلى بعض، ويحضرها سائر قبائل العرب، فكانوا ينزلون دومة الجندل أول يوم من ربيع الأول فيقيمون أسواقها إلى آخر الشهر، ثم ينتقلون إلى سوق هجر من البحرين في شهر ربيع الآخر فتقوم أسواقهم بها، ثم يرتحلون إلى عمان بالبحرين فتقوم سوقهم بها، ثم يرتحلون إلى اليمن، ثم يرتحلون إلى الرابية بحضرموت، ومنهم من يحوزها إلى صنعاء، ثم تقوم أسواقهم بها، ويجلبون منها الخرز والأدم والبرود، وكانت تجلب إليها من معافر". ويبدو حسب الإخباريين أن للعرب أسواق يقيمونها طوال شهور السنة وينتقلون من بعضها إلى بعض وتحضرها سائر العرب بما عندهم من حاجة إلى بيع وشراء⁽⁵⁾. ويشير القلقشندي⁽⁶⁾ أن العرب إذا قرب موسم الحج ترتحل من أسواق جنوبي الجزيرة العربية، من أسواق البحرين وحضرموت إلى أسواق الحجاز بل وإلى أهم الأسواق العربية قاطبة ألا وهي سوق عكاظ فيقول: "ثم يرتحلون إلى عكاظ في الأشهر الحرم، فتقوم أسواقهم ويتناشدون الأشعار ويتحاجون، ومن له أسير سعى في فدائه، ومن له حكومة ارتفع إلى الذي يقوم بأمر الحكومة، وكان الذي يقوم بأمر الحكومة فيها من بني تميم، وكان آخر من قام بها منهم "الأقرع بن حابس التميمي" ثم يقومون بعرفة ويقضون مناسك الحج، ويرجعون إلى أوطانهم". وقد ساعد على نمو وازدهار هذه الأسواق قيامها في الأشهر الحرم^(*)، وهي موسم الحج حيث كان يحرم فيها القتال ويأمن الناس على أموالهم ودمائهم⁽⁷⁾.

(1) - أحمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق، ص 78.

(2) - صحيح البخاري: كتاب البيوع، ج 8، ص 22، سعيد الأفغاني: المرجع السابق، ص 201 - 202.

(3) - عمر فروخ: العرب في حضارتهم وثقافتهم، ص 86.

(4) - نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، القاهرة 1959م، ص 464.

(5) - الألويسي: بلوغ الأرب، ج 1، ص 264، البكري: معجم ما استعجم، ج 3، ص 959.

(6) - نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، ص 464.

(*) - هي أربعة أشهر تُولف ثلث السنة، ولم تكن تلك الأشهر متوالية كلها، بل ثلاثة منها متواليات وهي: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ثم شهر مفرد وهو رجب يأتي بعد المحرم بستة أشهر، وقد ساعد ذلك على كسر حدة الحرب بين العرب مرتين كل عام، سعيد الأفغاني: المرجع السابق، ص 70، عمر فروخ: العرب في حضارتهم وثقافتهم، ص 85، شوقي ضيف: المرجع السابق، ص 94.

(7) - اليعقوبي: المصدر السابق، ج 1، ص 270.

وكان العرب يضعون سلاحهم في هذه الأشهر الحرم، فلو لقي المرء قاتل أبيه ما وسعه التعرض له بسوء، وكان من أعظم العار أن يتعدى المرء حدود الشهر الحرام والبلد الحرام، ولهذا سمت العرب حروب قريش وهوازن في عكاظ "أيام الفجار" (*)، لأنها وقعت في الشهر الحرام، فكانوا فاجرين لاقتتالهم وخروجهم عن شريعة العرب⁽¹⁾.

كانت أسواق العرب كثيرة ومفرقة في الحجاز ونجد وحضرموت وعمان ومهرة والبحرين وهجر، وفي كامل أرجاء الجزيرة العربية، وخاصة منها الأسواق الموسمية وموزعة على مدار السنة كلها.

ولعل أهم هذه الأسواق هي أسواق مكة، التي كانت تلعب أدوارا اقتصادية واجتماعية وثقافية، فالتجارة كانت بالنسبة للمكيين العامل الثاني في أهمية مجتمعهم ومصدر رزق أهل مكة بعد البيت العتيق ودوره الديني⁽²⁾.

ويمكن أن نميز بين أسواق مكة الداخلية والخارجية:

أولاً: أسواق مكة الداخلية:

ازدادت أهمية مكة الاقتصادية بعد التنظيمات السياسية والاقتصادية التي أدخلها قصي بن كلاب وأبنائه من بعده على المجتمع المكي، حيث نظمت التجارة الداخلية بأسواق كانت تتم فيها المبادلات بين البدو والحضر وتعرض فيها منتجاتهم المحلية، وأهم هذه الأسواق:

1- سوق الحزوة: أقدم أسواق مكة، ومما ذكره الأزرقى⁽³⁾ عنها: "كانت سوق مكة القديم وكان فيه مجتمع الناس للبيع والشراء" أما تحديد موقعها فقد سكنت الأخبار عنه.

2- سوق الأبطح: كانت القوافل التجارية تغد إليه من بلاد الشام حاملة منتوجات متنوعة.

3- سوق ما بين الدارين: وهي رحبة بين دار أبي سفيان ودار ابنه "حنظلة" تباع فيه الحبوب والسمن والحنظلة والعسل التي تحملها القوافل القادمة من الطائف والسراة.

4- سوق قرن القرظ: يقع هذا السوق بأسفل جبلي أحيادين الكبير والصغير، وكان الناس يبتاعون فيه

(*) - حروب الفجار سميت كذلك لأنها وقعت في الأشهر الحرم، أيام الفجار الأول وهي ثلاثة أيام، وأيام الفجار الثاني وهي خمسة أيام لكن أهمها كان الذي بين قريش وهوازن وأحلافهما: يوم نخلة سنة 585م في حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) قبل بعثته، ويوم شمطة (قرب عكاظ) سنة 586م، ويوم العباء قرب عكاظ سنة 587م، ثم يوم عكاظ سنة 588م، ثم يوم الحريرة قرب نخلة سنة 589م، محمد أحمد جاد المولى: أيام العرب في الجاهلية، ص 334، أحمد ارحيم هيو: المرجع السابق، ص ص 247-249.

(1) - سعيد الأفغاني: المرجع السابق، ص 70، أحمد ارحيم هيو: المرجع السابق، ص ص 314-315.

(2) - ذراع الطاهر: المجتمع العربي القديم...، ج 1، ص 138.

(3) - أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ج 2، ص 29.

نبات القرظ الذي يستخدم لدبغ الجلود⁽¹⁾.

ثانياً: أسواق مكة الخارجية:

لم تقتصر تجارة مكة ونشاطها الاقتصادي على أسواقها الداخلية فحسب بل تعدت إلى أسواق قريبة منها مثل: سوق عكاظ ومجنة وذو المجاز وحباشة.

1- سوق عكاظ: أشهر أسواق العرب القديمة في غربي الجزيرة العربية، اختلف الباحثون في تحديد موقع عكاظ، لكنهم يتفقون على أنها قريبة من مكة والطائف.

في هذا السياق يذكر تقي الدين الفاسي⁽²⁾: "تقع سوق عكاظ بين واد نخلة والطائف وبينها وبين مكة ثلاث ليال".

ويرى سعيد الأفغاني⁽³⁾: "أن عكاظ نخل في واد بين مكة والطائف على مرحلتين من مكة ومرحلة من الطائف".

عرفت عكاظ بأهميتها التجارية إلى جانب أهميتها السياسية والأدبية⁽⁴⁾. وكانت سوقها تقوم في أول ذي القعدة وتستمر لمدة عشرين يوماً⁽⁵⁾، في مكان يقال له: الأثداء فيه مياه ونخل وهو مكان مستو لا علم فيه ولا ميل إلا ما كان من الأنصاب الي كانوا يطوفون حول صخور فيها⁽⁶⁾.

كانت تأتيها العرب من مختلف أرجاء الجزيرة العربية، ومن القبائل التي كانت تفر إليها: قريش وهوزان وغطفان وخزاعة والأحابيش وعضل وبني المصطلق⁽⁷⁾. كما تؤمها مختلف القبائل من أطراف الجزيرة العربية من العراق والبحرين واليمامة وعمان والشحر واليمن⁽⁸⁾.

وتباينت آراء العلماء في تعيين أيامها، فمنهم من يقول أنها تبدأ من منتصف ذي القعدة حتى آخره⁽⁹⁾. وآخرون يجعلون وقتها في شوال⁽¹⁰⁾، ومعلوم أن شهر شوال لا يدخل في الأشهر الحرم.

(1) ذراع الطاهر: المجتمع العربي القديم، ج1، ص 139.

(2) شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، ج2، ص 476، جورج زيدان: تاريخ التمديد الإسلامي، مج1، ص 29.

(3) أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، ص 286، جواد علي: المرجع السابق، ج7، ص 378.

(4) ويل ديورانت: المرجع السابق، ج2، ص 15.

(5) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج1، ص 270، السويدي: المصدر السابق، ص 465.

(6) الألويسي: بلوغ الأدب، ج1، ص 268، البكري: معجم ما استعجم، ج2، ص 660، سعيد الأفغاني: المرجع السابق، ص ص 286-287.

(7) اليعقوبي: المصدر السابق، ج1، ص 270، سعيد الأفغاني: المرجع السابق، ص 291.

(8) الأزرقى: المصدر السابق، ج1، ص 131.

(9) محمد بن حبيب: المصدر السابق، ص 263، عبد القادر بن عمر البغدادي: المصدر السابق، ج4، ص ص 302، 36.

(10) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج4، ص 142.

والحق أن أغلب العلماء اتفقوا على أن سوق عكاظ تبدأ من أول ذي القعدة وتستمر حتى العشرين منه، إذ تبدأ سوق مجنة فيرتحل إليها الناس وهي أقرب إلى مكة، فإذا أهلّ ذو الحجة انتقل الناس من مجنة إلى ذي المجاز قرب عرفة وبقوا هناك حتى يوم التروية^(*) فيبدأ موسم الحج⁽¹⁾.

كانت سوق عكاظ سوقا سياسية واجتماعية، إذ كان يتم فيها التحكيم بين القبائل المتحاربة، وإذا أرادت قبيلة خلع أحد سفهائها فإن مناديا ينادي بذلك في السوق، وإذا أراد أحدهم أن يلحق آخر بنسبه أعلن ذلك على الملأ، ومن أراد إجارة أحد هتف بذلك في السوق، وفي عكاظ تعقد معاهدات الصلح والسلام، ويتفق المتخاصمون على دفع الديات⁽²⁾.

والواقع أن عكاظ ارتبطت بموسم الحج والاحتفالات الدينية، ومن هنا كانت مجالا لتبادل النتاج الروحي من جهة والبضائع والعروض المادية من جهة أخرى⁽³⁾.

وعلاوة على أن سوق عكاظ معرضا من معارض التجارة وندوة من ندوات السياسة والاجتماع، فقد كانت منتدى ومسرحا للأدب والشعر، يلتقي فيها الشعراء والخطباء يتناشدون ويتحاجون ويتفاخرون ويتنافرون، وكان لعكاظ في أيام الموسم رجل يولونه الحكومة للفصل بين الشعراء، والمتخاصمين، وقد اشتهر سادات بنو تميم بالنظر في الخصومات، وكان من أواخر حكامهم "الأقرع بن حابس"⁽⁴⁾ - كما ذكرت سابقا -

ويبدو أن سوق عكاظ، بفضل الأدوار التي كانت تلعبها، فإنها كانت بمثابة الجريدة الرسمية، ووسيلة من وسائل الإعلام العامة اليوم.

يذكر سعيد الأفغاني⁽⁵⁾ بشأن من يتولى أمر الحكومة في عكاظ: "كان يقوم بأمر الحكومة في الشؤون العامة بنو تميم، وكانت الحكومة في الشعر للنايعة الذبياني".

ويبدو أن سوق عكاظ كانت سوقا سياسية يتم فيها التحكيم بين القبائل المتحاربة وفض النزاعات بين المتخاصمين وعقد معاهدات الصلح، هذا في الشؤون العامة أما في ميدان الشعر والأدب فإن عملية التحكيم كانت تسند إلى فطاحل الشعراء، فقد كانت تضرب للنايعة قبة من آدم أحمر في سوق عكاظ يجتمع إليه الشعراء ويستمتع إلى ما ينشدونه من أشعار، وكان معجب بالقصائد التي عرفت

(*) - يوم التروية: سمي كذلك لأنهم كانوا يرتون فيه من الماء ويملؤون أوعيتهم ويحملونه في الروايا، إذ لم يكن آنذاك ماء بعرفة، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج2، ص 28.

(1) - اليعقوبي: المرجع السابق، ج1، ص 270، الأوسى: المصدر السابق، ج1، ص ص 264 - 270.

(2) - أحمد ارحيم هبو: المرجع السابق، ص 325، توفيق برو: المرجع السابق، ص 247.

(3) - كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ص 25 - 26، Lammens(H.): Les Sanctuaires, p148.

(4) - القلقشندي: صبح الأعشى، ج1، ص 410.

(5) - أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، ص 292.

باسم "المعلقات" (*)، وكان ممن أنشده شعرا حسان بن ثابت، والأعشى، والخنساء⁽¹⁾.

وفي ذلك يقول أبو ذؤيب الهذلي:

إذ بُني القباب على عكاظ
وقال آخر يضرب المثل بعكاظ:

فإنك ضحاك إلى كل صاحب وأنطق من قس غداة عكاظها⁽²⁾.

وكان ممن حضر عكاظ الخطيب قس بن ساعدة الإيادي الذي رآه الرسول (صلى الله عليه وسلم) في هذه السوق⁽³⁾.

لقد تباينت الآراء حول تحديد تاريخ إقامة سوق عكاظ. يرى أهل الأخبار أن عكاظ اتخذت سوقا بعد عام الفيل بخمس عشرة سنة أي بعد سنة خمسمائة وأربعين للميلاد (540م)؟ وهذا غير صحيح لأن حادثة الفيل وقعت سنة خمسمائة وسبعين وخمسمائة وواحد وسبعين (570م - 571م). ويذكر آخرون ومنهم سعيد الأفغاني⁽⁴⁾: أن السوق عكاظ افتتحت قبل عام الفيل بخمس عشرة سنة، أي في منتصف القرن السادس الميلادي.

وحسب روايات الإخباريين ومنهم الأصبهاني⁽⁵⁾: فإن عمرو بن كلثوم يكون قد أنشد قصيدته في عكاظ، وهو الذي ولد سنة أربعمائة وخمسين للميلاد (450م)، ومعنى ذلك أنه من الراجح أن عكاظ كانت قائمة قبل القرن السادس الميلادي.

(*) - اختلف الرواة في عدد المعلقات وأصحابها، فابن عبد ربه وابن رشيق وابن خلدون والزوزني جعلوها سبعا وأصحابها هم: امرؤ القيس، وزهير، والنابغة والأعشى، ولبيد، وابن كلثوم، وطرفة، أما أبو زيد القرشي يجعلهم ثمانية بإضافة عنتر، أما التبريزي فيجعلهم عشرا بإضافة الحارث بن حلزة وعبيد بن الأبرص، وهي من تعاليق الكعبة قبل الإسلام، سماها العرب معلقات لأنها كتبت على الحرير المصري بماء الذهب وعلقت على أستار الكعبة، وقد أقر ابن عبد ربه وابن رشيق تعليقها وأنكر ابن خلدون ذلك، وسميت المعلقات أو المذهبات أو السبع الطوال أو السموط، أبو زيد القرشي: المصدر السابق، ص 77، ويل ديورانت: المرجع السابق، ج 3، ص 15، جورج زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، مج 1، ج 1، ص ص 95 - 96، حدنا الفاخوري: المرجع السابق، ص 65، محمد فريد وجدي: دائرة معارف القرن العشرين، ج 6، ط 3، دار المعرفة، بيروت، 1971م، ص 543، عبد القدوس الأنصاري: المرجع السابق، ص ص 139 - 140، أحمد محمد الحوفي: الحياة العربية من الشعر الجاهلي، ص 201.

(1) - الأصبهاني: المصدر السابق، ج 9، ص 156، أحمد أمين: "عكاظ والمريد"، مجلة كلية الآداب، القاهرة، مج 1، ج 1، ماي 1933م، ص 49.

(2) - سعيد الأفغاني: المرجع السابق، ص 339.

(3) - المرجع نفسه، ص 314.

(4) - أسواق مكة في الجاهلية والإسلام، ص ص 342 - 343.

(5) - الأغاني: ج 9، ص 176.

2- سوق مجنة: هي سوق تقع بأسفل مكة على أرض كنانة، كانت تقوم في العشر الأخير من ذي القعدة، بعد أن تتفض سوق عكاظ⁽¹⁾.

وقد كانت مجنة وعكاظ وذو المجاز سنوي في نظر المحرمين من العرب إلا أن بعض الإخباريين لا يراها إلا محرماً.

قال الأزرقى⁽²⁾: "كانت قريش وغيرها من العرب تقول: لا تحضروا سوق عكاظ ومجنة وذو المجاز إلا محرمين بالحج، وكانوا يعظمون أن يأتوا شيئاً من المحارم أو يعدو بعضهم على بعض في الأشهر الحرم وفي الحرام".

ورغم اقتران مجنة بسوق عكاظ وذو المجاز إلا أنها دونهما شأنًا، لذلك لم تذكر مستقلة.

3- سوق ذو المجاز: وهي سوق قريبة من عكاظ كانت تقوم في الأسبوع الأول من شهر ذي الحجة⁽³⁾.

وقد اختلف الإخباريون والجغرافيون القدامى في تحديد موقع ذي المجاز:

يرى ياقوت الحموي⁽⁴⁾: "أنه ماء على فرسخ من عرفة بناحية كبكب، وكبكب جبل بعرفات".

ويذكر الزبيدي⁽⁵⁾: "أنها موضع بمنى، ومنى بين مكة وعرفات". وقد سمي ذا المجاز كذلك

لأنه إجازة الحاج كانت منه، وذو المجاز من ديار هذيل هم أهلها وجيرانها⁽⁶⁾.

يقيم الحجاج بذو المجاز من اليوم الأول إلى اليوم الثامن من ذي الحجة وهو يوم التروية،

فيتزودون بالماء، وتقد جموع العرب وتجارهم وأشرفهم على ذي المجاز⁽⁷⁾.

ويلاحظ أنها تلي عكاظ في الشأن والمكانة فهي من أسواق العرب الكبرى.

4- سوق حباشة: وهي من أسواق العرب المشهورة قديماً في غربي الجزيرة العربية، تقوم هذه

السوق بتهامة على ست ليال من مكة إلى جهة اليمين، فهي المتجر المتوسط المشترك بين الحجاز واليمن⁽⁸⁾.

(1) - تقي الدين الفاسي: المصدر السابق، ج2، ص 476.

(2) - أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ج1، ص 132، Lammens (H.) : Les Sanctuaires, p151.

(3) - اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج1، ص 270، الألويسي: بلوغ الأرب، ج1، ص 66.

Lammens (H.) : Les Sanctuaires, p151.

(4) - معجم البلدان، ج5، ص 55، تقي الدين الفاسي: المصدر السابق، ج2، ص 477.

(5) - تاج العروس، ج1، ص 444.

(6) - المصدر نفسه، ج4، ص 21، الفاسي: المصدر السابق، ج2، ص 477، سعيد الأفغاني: المرجع السابق، ص347.

(7) - ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج2، ص 28، سعيد الأفغاني: المرجع السابق، ص 349، أحمد ارحيم هيو:

المرجع السابق، ص 323.

(8) - ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج2، ص 214.

ولعلها سميت بذلك لكثرة ما يجتمع بها من مختلف القبائل والأجناس للتجارة، بالرغم من أنها ليست من مواسم الحج⁽¹⁾.

وكانت سوق حباشة تقام في شهر رجب من كل سنة، وقد سميت بها سوق أخرى لبني قينقاع وهي سوق لليهود، تقام في شهر رجب أيضا، وحباشة سوق الأزد⁽²⁾.

ويبدو أن هذه السوق تأتي في الدرجة الثانية من بين الأسواق العربية الكبرى، ذلك أنها ليست من مواسم الحج على خلاف الأسواق الأخرى الأفضل منها مكانة وشهرة.

هذه أسواق مكة القديمة والتي كانت تقوم في أيام الحج، وكان يؤمها العرب قاطبة عن كل حذب وصوب، وإلى جانب كونها أسواقا لغرض التجارة وتبادل المنافع، فقد كانت أيضا مناير للأدباء والشعراء والخطباء للمفاخرة والمنافرة والمناظرة، فهي تبرز بحق دور مكة الثقافي، إلى جانب دورها الديني والسياسي والاقتصادي.

وهناك أسواق أخرى موزعة على أطراف الجزيرة العربية، كان العرب يقصدونها للإتجار والإمتياز، وقد اختلف الإخباريون في عدد هذه الأسواق وفي تحديد أزممنتها.

يذكر اليعقوبي⁽³⁾: "كانت أسواق العرب عشرة أسواق يجتمعون بها في تجاراتهم، ويجتمع فيها سائر الناس، ويأمنون فيها على دمائهم وأموالهم وهي: دومة الجندل، المشقر، صحار دبي، الشحر، عدن، صنعاء، الرابية بحضرموت، عكاظ، وذو المجاز".

ويرى الهمداني⁽⁴⁾ أنها إحدى عشر حيث يقول: "أسواق العرب القديمة، وقد ذكرناها: عدن، مكة، الجند، نجران، ذو المجاز، عكاظ، بدر، مجنة، منى، حجر اليمامة، وهجر البحرين".

وذكر الفلقشندي⁽⁵⁾ أنها ثمانية: "دومة الجندل، هجر، عمان، الشحر، عدن، حضرموت، صنعاء، وعكاظ".

أما عبد القادر بن عمر البغدادي فيذكرها⁽⁶⁾ عشرا وهي: "دومة الجندل، المشقر، صحار، الشحر، صنعاء، حضرموت، عكاظ، ذو المجاز، نطاة خيبر، وحجر".

أما أقدم المؤلفين في هذا المجال وهو محمد ابن حبيب فقد ذكر⁽⁷⁾ أن أسواق العرب اثنتي عشرة

(1) - جواد علي: المرجع السابق، ج7، ص 377، Lammens (H.) : Les Sanctuaires, p 148.

(2) - الزبيدي: المصدر السابق، ج6، ص 263، ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج3، ص 206، تقي الدين الفاسي: المصدر السابق، ج2، ص 477.

(3) - تاريخ اليعقوبي، ج1، ص 270.

(4) - صفة جزيرة العرب، ص 332.

(5) - صبح الأعشى، ج1، ص 410.

(6) - خزنة الأدب ولب لباب لسان العرب، ج4، ص 360.

(7) - المجر، ص 263.

وهي: "دومة الجندل، المشقر، صحار، دبي، الشحر، عدن، صنعاء، رابية حضرموت، عكاظ، ذو المجاز، نطاة خيبر، وحجر اليمامة".

وسأقتصر في هذا المقام على أهم الأسواق في شبه الجزيرة العربية ومنها:

1- سوق دومة الجندل: تقع بلدة دومة الجندل ويقال لها (دوماء الجندل)، وتعرف اليوم بالجوف في المملكة العربية السعودية، تقع في مكان يتوسط الشام والخليج الفارسي قديماً، وإلى الشمال الشرقي من يثرب، وفي منتصف الخط الواصل بين البصرة وخليج العقبة⁽¹⁾.

ويذكر الزبيدي⁽²⁾: "أن دومة الجندل تقع في غائط من الأرض خمسة فراسخ، ومن مغربه عين تتج فتسقي ما به من النخل والزرع وحصنها ما رد".

وهي بلدة لا تقل في قدمها وأهميتها عن تيماء، فقد ورد ذكرها في النصوص الآشورية في القرن السابع قبل الميلاد باسم « Adumatu »⁽³⁾.

وقد ورد ذكر دومة الجندل في الشعر العربي القديم، وفي كتب الأدب، بأنها حصن قديم يعرف باسم "مارد"، وقد اكتسب شهرة كبيرة حتى ضرب به المثل وبـ "الأبلق" حصن السموأل بن عاديا، فقالوا "تمرد مارد وعز الأبلق"⁽⁴⁾.

وقد سمي حصن مارد بهذا الإسم لأنه بني بالجندل أي الحجر، فكان من الحصون الحصينة القديمة⁽⁵⁾.

ذكر اليعقوبي⁽⁶⁾: "أن هذه السوق كانت تقوم في الأول من شهر ربيع الأول، يجتمعون في أسواقها للبيع والشراء والتبادل، ورؤساؤها غسان وكلب".

وكان صاحب حصن دومة الجندل "أكيدر العبادي" فهو الذي كان يترأس السوق، ويعشر بها وتدوم سوقهم إلى نصف الشهر، ثم يتولاها بنو كلب إلى آخر الشهر، لأنهم يأتون إلى السوق متأخرين⁽⁷⁾.

(1) - ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج2، ص 487.

(2) - تاج العروس، ج8، ص 297 (دوم).

(3) - أحمد ارحيم هبو: المرجع السابق، ص 318.

(4) - الزبيدي: المصدر السابق، ج2، ص 500 (مرد)، الميداني: المصدر السابق، ج1، ص 173.

(5) - الزبيدي: المصدر السابق، ج7، ص 266 (الجندل).

(6) - تاريخ اليعقوبي، ج1، ص 270، السويدي: المصدر السابق، ص 465.

(7) - ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج2، ص 478، سعيد الأفغاني: المرجع السابق، ص 237.

وكانت طريقة بيع العرب في دومة الجندل هي بيع الحصاة^(*)(1).

ويبدو مما سبق أن سوق دومة الجندل كانت من أشهر الأسواق العربية القديمة في شمالي الجزيرة العربية، وربما تعود أهميتها إلى موقعها الهام الذي يتوسط العراق والشام من جهة، وبين الشام وجنوبي الجزيرة العربية من جهة ثانية، وقد كانت هذه السوق مفرقاً مهماً من مفارق الطرق تقصده القوافل الذاهبة من جزيرة العرب إلى العراق وإلى بلاد الشام والعكس، للتزود بالمياه العذبة خاصة، ويتزود فيها المسافرون بما يحتاجونه.

2- سوق المشقر: يحدد ياقوت الحموي⁽²⁾ موقع هذه السوق بقوله: "المشقر حصن بين نجران والبحرين، يقال أنه من بناء طسم، وهو على تل عال، يقابله حصن بني سدوس ويقال أنه من بناء سليمان بن داود".

ويذكر اليعقوبي⁽³⁾: "سوق المشقر بهجر يقوم سوقها في جمادى الأولى وتقوم بها بنو تميم رهط المنذر بن ساوي".

ويبدو أن هذه السوق نسبة إلى حصنها القديم الشهير بالبحرين تقع قرب هجر. ويذكر الإخباريون أن امرؤ القيس ورثه، وقد أشير إليه في الشعر العربي القديم.
قال عنه المخبل:

فلئن بنيت لي المشقر في صعب تقصر دونه الهمم.
لنتقبن عني المنية إن الله ليس كعلمه علم⁽⁴⁾.

وقد جرت في سوق المشقر وقعة من الوقائع المشهورة في أيام العرب^(**)، التي فتك فيها

(*) - بيع الحصاة: (أو إلقاء الحجارة) صورة من صور البيع عند العرب قديماً في سوق دومة الجندل له عدة صيغ منها: أن يقول أحد المتبايعين للآخر "ارم هذه الحصاة فعلى أي ثوب وقعت فهو لك بدرهم"، وتستعمل صيغ أخرى في بيع الأراضي أو قطع من الغنم وغيره، الألوسي: بلوغ الأرب، ج1، ص 264، سعيد الأفغاني: المرجع السابق، ص46.

(1) - المسعودي: التنبيه والأشراف، ص 214، الألوسي: المصدر السابق، ج1، ص 264.

(2) - معجم البلدان، ج5، ص 134.

(3) - تاريخ اليعقوبي، ج1، ص 270.

(4) - الزبيدي: المصدر السابق، ج3، ص 311 (شقر).

(**) - تسمى هذه الوقعة يوم المشقر أو يوم الصفقة لكسرى على تميم، لأن كسرى أصفق الباب على بني تميم في حصن المشقر، والمشقر حصن بالبحرين، الأصبهاني: المصدر السابق، ج16، ص ص 75-76، ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج5، ص 135، الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج2، ص 133، محمد أحمد جاد المولى: أيام العرب في الجاهلية، ص 2.

كسرى(*) ببني تميم بقيادة عامله المكعبر(**)، إنتقاماً لجنوده الذين أوقع بهم بنو تميم من قبل، وفي هذا الحصن حبس كسرى بنو تميم.

وفي ذلك يقول أبو ذؤيب الهذلي:

حتى كأني للحوادث مروة بصفا المشقر كل يوم تفرع⁽¹⁾.

يقصد هذه السوق العرب وأهل فارس والساكنون في العربية الشرقية من قبائل تميم وعبد القيس، وملوك هذه السوق الذين كانوا يعشرونها هم من بني عبد الله بن زيد من بني تميم، إلا أنهم يخضعون لملك فارس، وكانوا يتلقبون بألقاب "الملك"، وكان بيعهم فيها بالملامسة(***) والهمهمة⁽²⁾.

3- سوق هجر: هجر هو اسم لأرض البحرين عامة، وهي واليمن وعمان، تعد من أخصب بلاد العرب وأكثرها رخاء.

يذكر ياقوت الحموي⁽³⁾: "هجر مدينة وهي قاعدة البحرين، وقيل: ناحية البحرين كلها هجر، بينها وبين اليمامة عشرة أيام وبينها وبين البصرة خمسة عشرة يوماً، على الإبل"

يرى القلقشندي⁽⁴⁾: أن سوقها تعقد في شهر ربيع الآخر، وكان يتولى تعشير التجار بها "المنذر بن ساوي" أحد بني عبد الله بن دارم، وهو ملك البحرين، وتخضع للفرس خضوع سوق المشقر وعمان". وقد عرفت بكثرة تمرها، فهي أكثر بلاد العرب القديمة تموراً وأطيبها، وأروج تجارتها التمر، حتى ضرب بها المثل "كمبضع تمر إلى هجر"⁽⁵⁾.

وقد أفاض الإخباريون في ذكر تمرها والثناء على جودته، من ذلك ما ذكره الأصبهاني⁽⁶⁾: أن رسول جميل إلى بئينة يبلغها ما أرسل به فتنحفه بتمر من تمر هجر.

(*)- هو كسرى أبو شروان بن قباد (531م- 578م) من أشهر ملوك الفرس وأعظمهم ذكراً، كان نبيلاً، هلك لثمان وأربعين سنة من دولته، المكان نفسه، مسكويه: المصدر السابق، ج1، ص ص 128-129.

(**)- هو عامل كسرى على البحرين، واسمه بالفارسية آزاد فردز بن جشنس، وسمته العرب المكعبر لأنه كان يقطع الأيدي والأرجل، المرجع نفسه، ص 4، الأصبهاني: المصدر السابق، ج16، ص 76.

(1)- ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج5، ص 135.

(***)- وهي أن يجعل المتبايعان للمس نفسه يبيعا بغير صيغة، والملامسة هي الإيماء، يومئ بعضهم إلى بعض فيتبايعون ولا يتكلمون حتى يتراضوا إيماءاً، أما الهمهمة فهي الكلام الخفي وكل كلام معه بحج، كيلا يحلف أحدهم على كذب، محمد بن حبيب: المصدر السابق، ص 265، سعيد الأفغاني: المرجع السابق، ص ص 49-50.

(2)- البكري: معجم ما استعجم، ج4، ص 1194، ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج5، ص 135، سعيد الأفغاني: المرجع السابق، ص ص 243-244.

(3)- معجم البلدان، ج5، ص 393.

(4)- صبح الأعشى، ج1، ص 410، السويدي: المصدر السابق، ص 465.

(5)- الطاهر ذراع: المجتمع العربي القديم، ج1، ص 139.

(6)- الأغاني، ج2، ص 138.

وذكر أهل الأخبار أن سوق هدر كانت موبوءة، فتجارها وراكب البحر في الحظر سواء⁽¹⁾. كانت هذه السوق مقصد العرب والفرس والهنود يجدون فيها من أصناف التجارات التي يأتي بها التجار من الهند وفارس ما لا يجدون في غيرها، وقد اشتهرت بنوعية تمرها⁽²⁾. يقصد العرب هذه السوق بعد أن تنفض سوق دومة الجندل ثم يرتحلون نحو عمان، ثم ينزلون "إرم" وقرى الشحر ثم يرتحلون إلى عدن⁽³⁾.

ويبدو أن سائر العرب تهبط هذه السوق ولعلها كانت أفضل مكانة من دومة الجندل، لأنها كانت تستقطب العرب والأجانب على حد سواء فزاد من أهميتها في شرقي الجزيرة العربية. **4- سوق عمان:** تقع عمان جنوب الخليج الفارسي تمتد على سواحل بحر اليمن وتشرف بسواحلها الشرقية على خليج عمان، وتشتمل على بلدان كثيرة ذات نخيل وزرع، وهي منطقة شديدة الحرارة حتى أن حرها يضرب به المثل.

يحدد ياقوت الحموي⁽⁴⁾ موقعها بقوله: "عمان اسم كورة عربية على ساحل بحر اليمن والهند

وعمان في الإقليم الأول، شرقي هجر، وتشتمل على بلدان كثيرة ذات نخل وزرع إلا أن حرها يضرب به المثل".

ويذكر الإصطخري⁽⁵⁾: "عمان مستقلة بأهلها، وهي كثيرة النخل والفواكه الجرمية^(*)، كالموز والرمان والنبق، ونحو ذلك، وقصبتها صحار وهي على البحر".

ويعددها الهمداني⁽⁶⁾ من مخاليف اليمن وذكر: أن الأزدي نزلوا بها على قبائل "يحمد" و"حدان" و"مالك" و"الحارث" و"عتبك" و"جديد".

واستشهد على ذلك بشواهد من الشعر منها:

وأزد لها البحران والسيف كله وأرض عمان بعد أرض المشقر.

ويذكر السويدي⁽¹⁾: "أن موعد انعقادها كان بعد أن ينفض العرب عن سوق هجر في جمادى الأولى".

(1) - الزبيدي: المصدر السابق، ج3، ص 613 (هجر).

(2) - سعيد الأفغاني: المرجع السابق، ص 250.

(3) - القلقشندي: صبح الأعشى، ج1، ص411.

(4) - معجم البلدان، ج4، ص150.

(5) - المسالك والممالك، ص27.

(*) - الفواكه الجرمية: الجرم كلمة فارسية معربة وتعني الحر، وجمعها جروم، ويقال أرض جرم أي أرض حارة، وفواكه الجروم هي فواكه المناطق الحارة كالموز والرمان والنبق ويبدو من فواكهها أن هذه المناطق تسمى اليوم المناطق الإستوائية أو شبه الإستوائية، المصدر نفسه، ص ص 27-28.

(6) - صفة جزيرة العرب، ص ص 65-66.

كان العرب والفرس والهنود يقصدون سوق عمان، فهي من أقرب بلاد العرب إلى الهند، وكانت تحت نفوذ الفرس مثلها مثل سائر المناطق الساحلية الشرقية لشبه الجزيرة العربية، وكيف لا، وأراضيها خصبة غنية، وغلاتها متنوعة، وباطن أرضها يزخر بمعادن جيدة أشهرها "العنبر"، وتحتل موقعا جغرافيا ممتازا ساعد على ازدهار تجارتها.

وكانت العرب تضرب المثل ببعدها عمان، لأنها تقع في أقصى جنوب شرق الجزيرة العربية، تفصلها عن اليمن صحراء الأحقاف، وهي بعيدة عن الحجاز والعراق وبلاد الشام⁽²⁾.

5- سوق صحار: تعد من أهم الأسواق العربية القديمة وأغناها وأطفحها تجارة⁽³⁾.

جاء في المسالك والممالك⁽⁴⁾: عند الكلام على عمان: "وقصبتها صحار وهي على البحر، وبها متاجر وقصد المراكب، وهي أعمر مدينة بعمان وأكثرها مالا، ولا تكاد تعرف على شاطئ بحر فارس بجميع بلاد الشام مدينة أكثر عمارة ومالا من صحار، وبها مدن كثيرة، وبلغني أن حدود أعمالها ثلاثمائة (300) فرسخ وكان الغالب عليها الشراة".

ووصفها ياقوت الحموي⁽⁵⁾ فقال: "صحار قصبه عمان مما يلي الجبل، وتؤام: قصبته مما يلي الساحل، وصحار: مدينة طيبة الهواء والخيرات والفواكه مبنية بالأجر والساج، كبيرة ليس في تلك النواحي مثلها، ولهم آبار عذبة وقناة حلوة، وهم في سعة من كل شيء، وهو دهليز الصين وخزانة الشرق والعراق ومعونة اليمن".

ويبدو من وصف ياقوت الحموي لها أنها كانت تتمتع بمكانة تجارية كبرى فقد كانت بها تجارات واسعة تجلب إليها من مختلف أقطار الجزيرة العربية.

كانت سوق صحار تقام من العاشر رجب إلى الخامس عشر من بعد انقضاء سوق حباشة، وقيام هذه السوق في الشهر الحرام (رجب) يُغني قاصديها عن الحماية والخفارة⁽⁶⁾.

وهي من هذا الجانب تمتاز عن الأسواق الأخرى التي تقوم في غير الشهر الحرام مثل سوق المشقر مثلا، أما الذي كان يعشرها فهو "الجلندي المستكبر"⁽⁷⁾. وكان بيعهم فيها بإلقاء الحجارة أو الحصاة - كما تقدم ذكره - في سوق دومة الجندل⁽⁸⁾.

(1) - سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب، ص 465.

(2) - سعيد الأفغاني: المرجع السابق، ص 253.

(3) - الطاهر ذراع: المجتمع العربي القديم...، ج 1، ص 140.

(4) - الاضطخري: المصدر السابق، ص 27.

(5) - معجم البلدان، ج 3، ص 393.

(6) - اليعقوبي: المصدر السابق، ج 1، ص 270، الطاهر ذراع: المجتمع العربي القديم، ج 1، ص 140.

(7) - محمد بن حبيب: المصدر السابق، ص 265.

(8) - سعيد الأفغاني: المرجع السابق، ص 263.

6- سوق دبي: وصفها ياقوت الحموي⁽¹⁾ فقال: "دُبَا (ترسم بالألف) سوق من أسواق العرب بعمان، وهي مدينة قديمة مشهورة، لها ذكر في أيام العرب، وأخبارها وأشعارها، وكانت قديماً قسبة عمان". وهي من جملة الأسواق العربية التي ذكرها الإخباريون، والظاهر أنها كانت قديماً ذات شأن إذ كانت قسبة عمان ثم اضمحل دورها بسبب منافسة سوق صحار لها.

تقوم سوق دبي آخر يوم من رجب وتعرض فيها بضائع جزيرة العرب وبضائع الأقاليم الأخرى، وطريقة البيع بها تكون بالمساومة لأن السوق مختلطة يؤمها العرب والأجانب⁽²⁾. وكان "الجلندي المستكبر" هو الذي يعثر الناس فيها، كما يفعل الملوك في غيرها من الأسواق⁽³⁾.

ويذكر محمد بن حبيب⁽⁴⁾: "أنه كان فيها ما لا يكون في غيرها من تجار السند والهند والصين وأهل المشرق والمغرب".

ويتضح مما سبق، أن سوق دبي تمتاز عن غيرها من الأسواق العربية بكثرة البضائع الأجنبية التي كان يحملها التجار الأجانب من بلادهم إليها عبر البحر، ومنها تنفذ تجارات العرب إلى الخارج.

7- سوق الشحر: يطلق اسم الشحر على الساحل الجنوبي للجزيرة العربية الواقع بين عدن وعمان. يذكر الهمداني⁽⁵⁾: "أن الشحر مأخوذ من شحر الأرض وهو سيخ الأرض، ومنابت الحموض". ويصفها الإصطخري⁽⁶⁾ بقوله: "أما بلاد مهرة فإن قسبتها تسمى الشحر، وهي بلاد قفرة، ألسنتهم مستعجمة جداً، لا يكاد يوقف عليها، وليس ببلادهم نخيل ولا زرع، وإنما أموالهم الإبل، وبها نجب من الإبل، تفضل في السير على سائر النجب، واللبن الذي يحمل إلى الآفاق من هناك".

ويتضح من وصف الإصطخري لها أنها أرض حارة قاحلة، وثروتهم الأساسية الإبل، وأهم حاصلاتهم اللبن، أما قوله "ألسنتهم مستعجمة" فيقصد أن أهلها غير فصحاء نتيجة اختلاطهم بالأجانب من كل الأصقاع، من الحبشة والهند وفارس وغيرهم من التجار الذين يفدون سوقها.

تقوم سوق الشحر، شحر مهرة، في النصف من شعبان بعد أن ينفذ سوق دبي، ويقوم تحت ظل الجبل الذي عليه قبر النبي هود عليه السلام حسب ما ذكره أهل الأخبار، ولم تكن بها خفارة، وكان أهل مهرة يقومون بها⁽⁷⁾.

(1) - معجم البلدان، ج2، ص 435.

(2) - محمد بن حبيب: المصدر السابق، ص 266.

(3) - سعيد الأفغاني: المرجع السابق، ص 265.

(4) - المحبر، ص 265.

(5) - صفة جزيرة العرب، ص 64.

(6) - المسالك والممالك، ص 27.

(7) - اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج1، ص 270، السويدي: المصدر السابق، ص 465.

وكانت تعرض فيها بضائع متنوعة كالأدم والبز، والكندر والمرو، والصبر والدُّخْن، وكان يقصدها التجار من البر والبحر⁽¹⁾.

وذكر محمد بن حبيب⁽²⁾: "لم يكن بها عشور لأنها ليست بأرض مملكة وكان على التاجر أن يتخفر ببني محارب من مهرة، وبيوعها تتم برمي الحصاة وإلقاء الحجارة على البضاعة".

اشتهرت سوق الشحر بعنبرها الذي لا نظير له، حتى ضرب به المثل، ورغم أن الإخباريين اتفقوا على أن أرضهم قفرة قاحلة فإن عيش أهلها كان من الصيد والأنعام والتجارة.

8- سوق عدن: من الأسواق العربية القديمة تقع في جنوب غرب الجزيرة العربية.

ذكر ياقوت الحموي⁽³⁾: في سبب تسميتها: "سميت عدن من قولهم عدن بالمكان إذا أقام به، وسميت بعدن أبين نسبة لابني عدنان".

ثم يصفها بقوله⁽⁴⁾: "وهي مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن، ردة لا ماء بها ولا مرعى، وشربهم من عين بينها وبين عدن مسيرة نحو اليوم، وهذا المرفأ لمراكب الهند والتجار يجتمعون إليه، ذلك أنها بلدة تجارة".

ويذكر الإصطخري⁽⁵⁾ عدن بقوله: "وعدن مدينة صغيرة، وإنما شهرتها لأنها فرضة على البحر، ينزلها السائرون في البحر، وبها معادن اللؤلؤ، وباليمن مدن كثيرة هي أكبر منها وليست مشهورة كشهرتها".

ويرى الهمداني⁽⁶⁾: "أن عدن جنوبية تهامية، وهي أقدم أسواق العرب، وهي ساحل يحيط به جبل لم يكن فيه طريق فقطع في الجبل باب بزبر الحديد، وصار لها طريقا إلى البر ودربا (يسمى اليوم باب البر وباب السلب)، وموردها ماء يقال له "الحيق" أحساء في رمل في جانب فلاة إرم".

تقوم سوق عدن في أول يوم من شهر رمضان إلى العاشر فيه⁽⁷⁾.

وذكر محمد بن حبيب⁽⁸⁾: "وكانت الأبناء^(*) هي التي تعشر التجار فيها، وكان التجار لا يتخفرون فيها بأحد لأنها أرض مملكة، وقيام حكومة منظمة بها، لأنها من مخاليف اليمن".

(1) - الزبيدي: المصدر السابق، ج6، ص 293.

(2) - المحبر، ص 266.

(3) - معجم البلدان، ج4، ص 89.

(4) - المكان نفسه.

(5) - المسالك والممالك، ص 26.

(6) - صفة جزيرة العرب، ص 70.

(7) - اليعقوبي: المصدر السابق، ج1، ص 270.

(8) - المحبر، ص 266.

وكانت أهم البضائع التي تباع بها الطيب، ولم يكن أحد يحسن صنع الطيب من غير العرب، حتى أن تجار البحر لترجع بالطيب المعمول بعدن تفخر به في السند والهند، وترتحل به تجار البر إلى فارس والروم⁽¹⁾.

نستنتج من وصف ياقوت الحموي والهمداني لها أنها مدينة تتمتع بموقع جغرافي ممتاز على بحر الهند إلى جنوبي مضيق باب المندب نحو الشرق، كانت تقدر إليها مختلف المراكب عبر البحر الأحمر، من مصر والحجاز والحبشة، ومن بلاد السند والهند عبر المحيط الهندي منذ القديم، محملة ببضاعة وتأخذ بضاعة منها.

9- سوق صنعاء: صنعاء هي أطيب بلاد اليمن هواء في جزيرة العرب كلها، يضرب بها المثل في طيب هوائها.

قال فيها ياقوت الحموي⁽²⁾: "صنعاء قسبة اليمن وأحسن بلادها، تشبه دمشق لكثرة فواكهها وتدفق مياهها، سميت بصنعاء بن أزال بن يقطن بن شالخ وهو الذي بناها، ليس بجميع اليمن أكبر ولا أكثر مرافق وأهلاً من صنعاء وهي من الاعتدال من الهواء بحيث لا يتحول الإنسان من مكان طول عمره صيفا ولا شتاء، وتتقارب بها ساعات الشتاء والصيف وغاية ساعات النهار، بها اثنتا عشرة ساعة وإحدى وخمسون دقيقة".

ويذكرها الهمداني⁽³⁾ فيقول: "صنعاء هي أم اليمن وقطبها لأنها في الوسط منها ما بينها وبين عدن كما بينها وبين حد اليمن من أرض نجد والحجاز، وكان اسمها قديماً "إزال"، وصنعاء أقدم مدن الأرض لأن سام بن نوح هو الذي أسسها".

ويشيد الهمداني بصنعاء بقوله⁽⁴⁾: "هي إحدى جنان الأرض عند كافة الناس"، كان العرب إذا ارتحلوا من الشحر وعدن أقاموا سوق صنعاء فاستمرت من نصف شهر رمضان حتى آخره⁽⁵⁾. وكان يعشر الناس فيها "الأبناء" وهم أبناء الفرس، بعد أن كان يعشرها أمراؤهم من حمير، وكان بيعهم فيها الجسّ جسّ الأيدي⁽⁶⁾، وهو البيع بالمالمة.

(*) - الأبناء: هم أبناء الفرس الذين فتحوا اليمن مع قائدهم "وهرز" وقاتلوا الحبشة، كانت لهم سيطرة كاملة على أسواق العرب الشرقية القريبة من الخليج الفارسي، السويدي: المصدر السابق، ص 465.

(1) - اليعقوبي: المصدر السابق، ج 1، ص 236، سعيد الأفغاني: المرجع السابق، ص 269.

(2) - معجم البلدان، ج 3، ص 426، الهمداني: الإكليل، ج 8، ص 12.

(3) - صفة جزيرة العرب، ص ص 81 - 82.

(4) - الإكليل، ج 8، ص 12.

(5) - اليعقوبي: المصدر السابق، ج 1، ص 270.

(6) - محمد بن حبيب: المصدر السابق، ص 266.

وقد اشتهرت سوق صنعاء ببيع الخرز والأدم والبرود، وكانت تجلب إليها من معافر إحدى قرى اليمن، فتباع وتصدر إلى الأقطار⁽¹⁾ المجاورة لها والبعيدة منها.

ويذكر اليعقوبي⁽²⁾: بعض المواد التي كانت تباع في سوق صنعاء: "القطن والكتان والزعفران والأصباغ وأشباهاها مما يتفق بها، ويشترون بها ما يريدون من البر والحديد وما يأتي إلى اليمن من حاصلات التجار".

10- سوق حضرموت: تعرف بسوق "الرابية" أيضا لأنها تقوم برابية في حضرموت.

ورد في كتاب المسالك والممالك⁽³⁾: "أن حضرموت في شرقي عدن بقرب البحر، وبها رمال كثيرة تعرف بالأحقاف، وحضرموت في نفسها مدينة صغيرة، ولها أعمال عريضة، وبها قبر النبي هود عليه السلام، وبقربها "بلهوت" بئر عميقة لا يكاد يستطيع أحد أن ينزل إلى قعرها". ويذكر ياقوت الحموي⁽⁴⁾: "حضرموت ناحية واسعة في شرقي عدن بقرب البحر، بها قلاع وقرى، وهي من مخاليف اليمن، بينها وبين البحر رمال، وبين حضرموت وصنعاء اثنتان وسبعون (72) فرسخاً".

ويرى اليعقوبي⁽⁵⁾: "أن سوق الرابية تقوم من منتصف ذي القعدة حتى آخره، وربما قامت هي وعكاظ في يوم واحد، ولم يكن يصل إليها أحد إلا بخفارة لأنها لم تكن أرض مملكة، وكان من عزَّ بها بَزَّ، وكانت قریش تتخفر "ببني آكل المرار" وسائر الناس يتخفرون بآل مسروق بن وائل من كندة". كانت أهم حاصلات حضرموت التمر، فهو أغلب قوت أهلها، لأن بها نخلا كثيراً، وقد كشفت الحفريات التي جرت بمنطقتها عن مدن خربة عليها كتابات بالخط المسند، مما يدل على أن حضرموت كان لها شأن كبير في التاريخ القديم⁽⁶⁾.

وقد ذكر محمد بن حبيب⁽⁷⁾: "أسواق أقل شأنًا من سوق الرابية، مثل سوق نطاة خيبر، وسوق حجر اليمامة، وكانت تقوم يوم العاشر إلى آخر المحرم".

وخلاصة القول: أن الأسواق العربية القديمة كانت منتشرة عبر كامل أطراف الجزيرة العربية، وتختلف أهميتها من سوق لأخرى، منها ما كان يقوم في الأشهر الحرم، ومنها ما يقوم في غيرها، ولا يخفى على الباحث أن الأمن يعد من أهم الأسباب في انتظام أمور التجارة قديماً وحديثاً، وقد استطاعت

(1) - القلقشندي: صبح الأعشى، ج1، ص 410.

(2) - تاريخه، ج1، ص 236.

(3) - الإصطخري: المصدر السابق، ص 26.

(4) - معجم البلدان، ج2، ص 270.

(5) - تاريخه، ج1، ص 270، السويدي: المصدر السابق، ص 465.

(6) - سعيد الأفغاني: المرجع السابق، ص 275.

(7) - المحبر، ص 268.

قريش بتلك الإيلافات أن توفر الأمن والسلام لأسواقها عامة ولأسواق مكة على وجه الخصوص، فاكتمت بذلك الزعامة التجارية والاقتصادية، فضلا عن الزعامة الدينية لرعايتها البيت العتيق، وكانت تجارات العرب أروج ما تكون حيث يستتب الأمن ويعم السلام.

وقد كانت هذه الأسواق ميداناً لغير البيع والشراء، كان فيها تناشد الأشعار، وكان فيها تفاخر وتنافر ومقارعة ومعازمة كما كانت مننديات سياسية تعقد فيها المعاهدات والاتفاقيات بين القبائل العربية والإيلافات مع الدول والأمم المجاورة، وكانت أسواق مكة: مجنة وذو المجاز وخاصة عكاظ، هي أعمار أسواق العرب تعتبر محفلاً ومنتدى ثقافياً دولياً تؤمنها القبائل من كل حدب وصوب، وتلك ميزة تتمتع بها مكة دون سواها وتختص بها قريش، وقد امتن الله عليهم بذلك فقال تعالى⁽¹⁾: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجَبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا﴾، وقال أيضا⁽²⁾: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾.

(1) - سورة القصص: الآية 57.

(2) - سورة العنكبوت: الآية 67.

الفصل الثالث

دور مكة الديني في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام

المبحث الأول : الديانة الحنيفية

المبحث الثاني : الديانة اليهودية

المبحث الثالث : الديانة النصرانية

المبحث الرابع : الديانة الوثنية

المبحث الأول: الديانة الحنيفية

هي أولى الديانات التوحيدية التي عرفت البشرية منذ آدم (عليه السلام) ، وقد ذكر القرآن الكريم الحنيفية على أنها تلك الديانة التي اهتدى إليها إبراهيم (عليه السلام) بالفطرة، ويظهر أنها ديانة تقوم على مجموعة من المبادئ الأخلاقية والتربوية العامة، التي تدعو إلى هجر الأوثان، والتوجه إلى عبادة الواحد الأحد الديان، فالحنيفية ليست ديانة موحى بها، ولا ديانة تشريع تهدف إلى تنظيم حياة البشر، كما هي عليه المسيحية واليهودية.

سأتناول في هذا المبحث الديانة الحنيفية وتطورها مركزاً على شخصية إبراهيم (عليه السلام) وموقفه من عبدة الأشخاص والهيكل، وهجراته المختلفة؛ منذ ظهور هذه الديانة، مع ذكر بعض شعائرها التي تمكنت من معرفتها.

المطلب الأول: مفهوم الحنيفية :

جاء في لسان العرب⁽¹⁾ أن الحنيفية لغة: مأخوذة من حنف وحنف أي مال، والحنف والحنيف هو المائل من خير إلى شر والعكس، وقيل الحنف (بفتح الحاء والنون): الإعوجاج في الرجل، ومنه حنف (بفتح النون) عن الشيء: مال ورغب عنه، والأحنف: صاحب الرجل الحنفاء، أما الحنيف فهو المائل، وقد فسر بعضهم الحنيف: بأنه المسلم الذي يتحنف عن الأديان أي يميل إلى الحق⁽²⁾. ويرى علماء اللغة: أن الحنيف عند العرب القدامى: كل من اختنن وحج البيت واعتزل الأصنام، ويستقبل قبلة البيت الحرام فهو على ملة إبراهيم (عليه السلام) ويذكرون أن العرب لم تتمسك في القديم بشيء من دين إبراهيم سوى الختان وحج البيت⁽³⁾. ويرى الطبري⁽⁴⁾ أن الأختتان والحج لا يكفيان للانتماء إلى الحنيفية، بل لابد من الإستقامة على ملة إبراهيم، لأن الحنيفية لو كانت حج البيت والإختتان لوجب أن يكون الذين كانوا يحجون ويختننون من أهل الشرك حنفاء.

(1) - ابن منظور: المصدر السابق، ج9، ص 57، الزبيدي: المصدر السابق، ج6، ص 77.

(2) - ابن منظور: المصدر السابق، ج2، ص 138، ج9، ص 57، الطبري: جامع البيان عن تأويل القرآن، ج1، ط1، مؤسسة الرسالة بيروت، 1994، ص 400، الألويسي: روح المعاني، ج3، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ص 195-196، ج4، ص 4، الخازن: تفسيره، ج1، ط1، تحقيق عبد السلام محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995، ص 84، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج2، ص 358.

(3) - ابن منظور: المصدر السابق، ج9، ص 57، الزبيدي: المصدر السابق، ج6، ص 77، الفيروز آبادي: المصدر السابق، ج3، ص 130، الألويسي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: ج2، ص 196.

(4) - جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج1، ص 400-401، 568، القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج5، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1985، ص 242-243.

وقد نفى الله أن يكون ذلك تحنفاً في قوله تعالى⁽¹⁾: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، وهناك من يرى من الباحثين المحدثين أن لفظة "حنيف" تعني: المائل عن دين آباءه، كما يدل اشتقاقها⁽²⁾ اللغوي، ويذهب المبرد⁽³⁾ إلى نفس المعنى السابق، فيرى احتمال تأثر العرب باستعمال نصارى سورية لكلمة "حنفا - HANAFI" السريانية على الصابىء أو الكافر، أي الذي مال وخرج على تقاليد قومه الدينية. كما تنبه المسعودي⁽⁴⁾ إلى أن لفظة حنيف سريانية الأصل فهي "حنيفو" ولها نفس المعنى المذكور آنفاً.

ويذكر ابن هشام⁽⁵⁾ ملاحظة لغوية جديرة بالإهتمام، إذ يقول: "تقول العرب التحنث والتحنف يريدون الحنيفية، فيبدلون الفاء من الثاء"، ويريد تفسير التحنث، فلجأ إلى مرادفه التحنث، بمعنى التعبد واعتزال الأصنام، من الحنث وهو الميل من باطل إلى حق.

أما إصطلاحاً: فتطلق على كل من كان على دين إبراهيم (عليه السلام)، والذين اتبعوه من عبدة الأوثان وعدلوا عن الشرك بالله، ومالوا إلى عبادة الإله الواحد الحي الصمد⁽⁶⁾. وقد عرّف بعضهم الديانة الحنيفية بأنها في الأصل "الإنحراف عن الوثنية" والميل إلى الدين المستقيم أو الميل عن الباطل إلى الحق⁽⁷⁾.

والحنفاء هم الناجحون، وقيل هم قوم إبراهيم (عليه السلام) ويعظمون مكة ويحرمون الميتة والدم ولحم الخنزير، وجبلوا على الطهارة، ويقولون لا إله إلا الله وليس لهم كتاب ولا نبي⁽⁸⁾.

(1) - سورة آل عمران: الآية 67.

(2) - شوقي ضيف: العصر الجاهلي، ط11، دار المعارف، القاهرة، 1960، ص 96.

(3) - الكامل في اللغة والأدب، ج1، ص 134 ، BLACHERE (R) : Op.cit, p. 22

(4) - التنبيه والإشراف، ص 91.

(5) - السيرة النبوية، ص 176، ابن منظور: المصدر السابق، ج2، ص 138.

(6) - الزبيدي: المصدر السابق، ج6، ص 77، Henri massé : Op.cit , p 22.

(7) - توفيق برو: تاريخ العرب القديم، ط1، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1984، ص 312، أحمد بن محمد المقرئ الفيومي: المصباح المنير، ج1، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، (د.ت)، ص 154.

(8) - الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج1، ص 239-240، ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، ج1، ط1، تحقيق يوسف بن أحمد البكري وشاكر بن توفيق العاروري، دار ابن حزم، بيروت، 1997، ص 242.

أما اليعقوبي⁽¹⁾: فيرى أن الحنفاء هم جماعة من المفكرين المستنيرين أو الفلاسفة والشعراء الذين وقفوا في وجه الوثنية ومظاهر الشرك.

وقد أوجز الشهرستاني^{(2)(*)} عقيدة الحنفاء في قوله: "ومن العرب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، وينتظر النبوة، وكانت لهم سنن وشرائع"، وقد ورد في القرآن الكريم لفظ "الحنيف"⁽³⁾ عشر مرات، ولفظ حنفاء⁽⁴⁾ مرتين.

وينسب أهل الأخبار إلى الأحناف، إضافة إلى ما ذكره الشهرستاني، أنفاء، الإمتناع عن أكل ذبائح الوثنيين، لأنها ذبحت لغير الله، وتحريم الخمر، والتأمل في خلق الله وملكوته⁽⁵⁾.

وقد لخص بعض المفسرين⁽⁶⁾ مثل الرازي والطبرسي آراء العلماء في "الحنيفية" في تفسيرهم للآية الكريمة: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِثَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾⁽⁷⁾ وقالوا أن الحنيفية هي حج البيت والختان واتباع إبراهيم فيما جاء به من الشرائع، والإستقامة والميل إلى ما أتى به إبراهيم من الملة.

ويذكر الألويسي⁽⁸⁾ في شرحه لهذه الآية أن حنيفا تعني مستقيما أو مائلا عن الباطل إلى الحق، ويظهر أن هذه الصفة توصف بها الحنيفية والمتدين بها.

أما الزمخشري⁽⁹⁾ فيذكر في شرحه للآية الكريمة ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ

(1) - تاريخ اليعقوبي: ج1، ط6، دار صادر بيروت، 1995، ص 204.

(*) - الشهرستاني: (ت 548هـ/ 1153م) فيلسوف كان إماما في علم الكلام والأديان والمذاهب، يلقب بالأفضل، ولد في شهرستان (بين نيسابور و خوارزم)، انتقل إلى بغداد سنة 510 هـ ثم عاد إلى بلده حيث توفي بها. من كتبه: الملل والنحل، تاريخ الحكماء، والمناهج والبيان. ابن خلكان: المصدر السابق، ج1، ص 428، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج3، ص 376، خلف الجراد: المرجع السابق، ص 133.

(2) - الملك والنحل: ج2، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار الجيل بيروت، 1986، ص 241.

(3) - سورة البقرة: الآية 135، سورة آل عمران: الآيتان 67، 95، سورة النساء: الآية 125، سورة الأنعام: الآيتان 79، 161، سورة يونس: الآية 105، سورة النحل: الآيتان 120، 123، سورة الروم: الآية 30.

(4) - سورة الحج: الآية 31، سورة البينة: الآية 5.

(5) - الخازن: المصدر السابق، ج1، ص 238، الرازي: التفسير الكبير، ج5، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)، 1990م، ص 21، ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، ج1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت)، ص 239.

(6) - التفسير الكبير: ج4، ص ص 73-74، الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق إبراهيم شمس الدين، ج1، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م، ص ص 315-316.

(7) - سورة البقرة: الآية 135.

(8) - روح المعاني: ج1، ص ص 393-394.

(9) - الكشف، ج1، ط1، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، 1977م، ص 316.

وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةَ
عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١﴾ أن الله شهد لإبراهيم بالحنيفية، ومن كتم شهادة الله التي

عنده أنه شهد بها، فلا أحد أظلم منه، ويبدو من الآية السابقة أنها تحتل معنيين:

الأول: أن أهل الكتاب لا أحد أظلم منهم لأنهم كتموا هذه الشهادة وهم عالمون بها.

والثاني: أنه لو كتمنا هذه الشهادة، لم يكن أحد أظلم منا فلا نكتمها، لأن في ذلك تعريض ليس بكتمان
الحنيفية فحسب بل سائر النبوات.

وحسب جواد علي^(٢) فإن للمستشرقين آراء في لفظ "الحنيفية"، ومنهم نولدكه

(Noldeke) الذي يرى أنها من أصل عربي هو "تحنف" أو من "حنف" -Hnêf- ومعناها التحنث في
العربية، وهي من الكلمات التي لها معان دينية ذات الصلة بالزهد.

أما مونتغمري "Montgomery" فيقول أن اللفظة من أصل عبراني هو: "تحينوت"-
"Téhinoth"، ويرى رودو كانا كيس "Rhodokanakis" أن لفظة "حنف" وردت في النصوص
العربية الجنوبية بمعنى صباً.

ويذهب رأي آخر أنها من أصل إرمي، وكانت معروفة عند النصارى، ثم أخذها العرب
القدماء، وأطلقت على القائلين من العرب بالتوحيد.

ويرى المسعودي^(٣) أن اللفظة سريانية الأصل من (حنيفو - حنفه) "HANAFa" وتطلق على
الصائبة^(*).

وصفوة القول: أي أرجح أن تكون لفظة حنيف بمعنى صابئ، اعتماداً على ما أورده علماء
اللغة من أنها الميل عن الشيء، وورودها في النصوص العربية الجنوبية بمعنى صابئ أو كافر،
وذهاب المسعودي إلى أن اللفظة سريانية وتطلق على الصائبة، حتى أن أهل مكة كانوا يطلقون على
النبي (صلى الله عليه وسلم) اسم الصابئ وعلى أتباعه الصباة أي الذين تركوا عبادة قومهم ونبذوا الأصنام،
وعلى هذا فالحنيفية من خلال التعاريف السابقة، ليست دينا موحى به كاليهودية والمسيحية، وانطلاقاً

(١) - سورة البقرة: الآية 140.

(٢) - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج6، ط3، دار العلم للملايين، بيروت، 1980م، ص 453، نبيه عاقل:
تاريخ عصر الرسول والخلفاء الراشدين، مطبعة أبي العلاء، دمشق، 1975-1976م، ص 26.

(٣) - التنبيه والإشراف، ص 91.

(*) - الصائبة: صباً في اللغة بمعنى مال وزاغ، وهم قوم يزعمون أنهم على دين نوح - عليه السلام- وقبلتهم نحو
مهب الجنوب، وهم الذين مالوا عن الحق، وزاغوا عن نهج الأنبياء، والصائبة فريقان: أصحاب الروحانيات، وأصحاب
الأشخاص وقد صارت لقباً وعلماً على طائفة من الكفار يقال أنها تعبد الكواكب في الباطن وتنتسب إلى النصرانية في
الظاهر. ابن منظور: المصدر السابق، ج1، ص 107، الشهرستاني: المصدر السابق، ج2، ص5، محمد أبو زهرة:
تاريخ الجدل، دار الفكر العربي، القاهرة، 1960، ص 28.

من كونها تدعو إلى وحدانية الله، والإعتقاد بوجود إله واحد، فهي أصل الديانات السماوية، وقد ظهرت عند العرب قبل الإسلام، عند أولئك الذين نبذوا عبادة الأصنام والأوثان، ولم يعتنقوا اليهودية والمسيحية، لذلك سمي أتباع إبراهيم (عليه السلام) بالأحناف أو الحنفاء مصداقاً لقوله تعالى⁽¹⁾: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

المطلب الثاني: دعوة إبراهيم لأبيه ومناظرته لقومه:

أرجع أهل الأخبار الحنيفية إلى إبراهيم^(*) (عليه السلام) والأحناف هم أولئك الذين رفضوا عبادة الأصنام، فلم يكونوا يهودا ولا نصارى كما صرح بذلك القرآن الكريم- في الآية السالفة الذكر- وانصرفوا إلى عبادة الإله الواحد الأحد إله إبراهيم، ويفهم من روايات الإخباريين أن إبراهيم كان من طراز المصلحين، ثار على الأوضاع الإجتماعية السائدة في أيامه، وعاب على قومه عبادة الكواكب والأصنام من أهل حران^(**).

وقد ذكر ابن كثير⁽²⁾ أن الله بعث إبراهيم رسولا ليزيل تلك الشرور، ويبطل ذلك الضلال في قومه، وكان أول دعوته لأبيه، وكان أبوه ممن يعبد الأصنام، فهو أحق الناس بإخلاص النصيحة له. وقد ورد في القرآن الكريم أن أب إبراهيم هو آزر^(***).

(1) - سورة آل عمران: الآية 67.

(*) - إبراهيم: اسم سرياني، ومعناه بالعربية (أب رحيم) وقيل عبري: أفراهام، أو أبرام، وهو نبي الله وخليئه، من أولي العزم وهو أبو الأنبياء، أنزل عليه عشرون صحيفة، وهو إبراهيم المذكور في الكتاب المقدس، ورد ذكره في القرآن بأنه ابن "آزر"، ولد بقرية كوثى من إقليم بابل في زمن النمرود، وعاش مائتي سنة ودفن في مزرعة حمرون وفيها قبر زوجته سارة. السويدي: سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995م، ص 49، أحمد الشنتناوي: المصدر السابق، ص ص 25-27، فؤاد حسنين علي: "الدخيل في اللغة العربية"، مجلة كلية الآداب، جامعة فؤاد الأول، القاهرة، مج 10، ج1، مايو 1948م، ص 78، Henri Massé : Op.cit , p 22.

(**) - حران: مدينة عظيمة من جزيرة أفور وهي قصبة ديار مصر، بينها وبين الرها يوم وبين الرقة يومان وهي على طريق الموصل والشام والروم، ذكر أنها أول مدينة بنيت على الأرض بعد الطوفان، وكانت منازل الصائبة وهم الحرانيون. ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، ص 237، محمد بن عبد المنعم الحمري: المصدر السابق، ص 191، ياقوت الحمري: المصدر السابق، ج2، ص ص 271، 272، وحران سميت بهاران بن آزر أخي إبراهيم. ابن قتيبة الدينوري: عيون الأخبار، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1977، ص 232.

(2) - قصص الأنبياء: ط1، دار ابن حزم، بيروت، 1423هـ- 2002م، ص ص 102-103.

(***) - آزر: اسم أبي إبراهيم في القرآن، وقد ورد في روايات بعض المؤرخين والمفسرين أنه تارح أو تارخ، ويخالف القرآن التوراة في اسم أبي إبراهيم، فالقرآن جعل من آزر مشتق من اسم خادمة "أليعازر" أما التوراة فتذكر أن اسمه تارخ ويحتمل أن يكون تارخ اسما له وآزر لقباً، ويجوز أن يكون آزر قد ذكر للذم والتحقير ومعناها في اللغة العبرية "المخطئ" ولعله يطلق على الخادم كما ورد في التوراة فكأن آزر تعني الحقير بسبب خدمته للأصنام، أحمد الشنتناوي: المرجع السابق، ج1 ص 25، ج2، ص ص 39-40.

وهذا هو الصحيح في قوله تعالى⁽¹⁾: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾، وأخبرتنا السيرة النبوية، أن النبي (صلي الله عليه وسلم) قال: أن والد إبراهيم هو آزر في الحديث الذي رواه البخاري عن النبي (صلي الله عليه وسلم) قال: "يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قفرة وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصيني؟ فيقول له أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يا رب، إنك وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون، فأبي خزي أخزى من أبي الأبعد، فيقول الله: إني حرمت الجنة على الكافرين ثم يقال: يا إبراهيم، ما تحت رجليك؟ فينظر فإذا هو بذبح متلطح، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار"⁽²⁾.

وقد ذكر بعض المفسرين وعلماء اللغة أن آزر صنم كان تارح أبو إبراهيم سادنا له، وآزر كلمة ذم في بعض اللغات، فهي تعني أعرج أو خاطئ⁽³⁾.

وحسب ابن كثير⁽⁴⁾ فإن جمهور أهل النسب ومنهم ابن عباس يرون أن اسم أب إبراهيم تارح، وأهل الكتاب يقولون تارخ بالخاء المعجمة.

أما الزبيدي⁽⁵⁾ فيرى أنه لقب بصنم كان يعبده اسمه آزر، والصحيح ما ورد في القرآن الكريم من أن أب إبراهيم اسمه آزر.

وقد اختلف العلماء والمؤرخون في تحديد تاريخ ميلاد إبراهيم، فذكروا أن مولده كان سنة ألفين ومائة وخمسة وستين (2165) قبل الميلاد⁽⁶⁾ واستدلوا في ذلك على أن إبراهيم لما كان عمره ست وثمانين (86) سنة ولد له إسماعيل أي في سنة ألفين وتسع وسبعين قبل الميلاد (2079 ق.م)⁽⁷⁾ ورجحوا أنه ولد في مطلع الألف الثانية ق.م، وتحديدا حوالي ألف وثمانمئة وخمسة وتسعين

(1) - سورة الأنعام: الآية 74.

(2) - ابن كثير: البداية والنهاية، ج1، ص 180.

(3) - الزمخشري: المصدر السابق، ج2، ص ص 29-30، الزبيدي: المصدر السابق، ج3، ص 12.

(4) - البداية والنهاية، ج1، ص 180، محمد علي الصابوني: النبوة والأنبياء، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 1390هـ، ص 141.

(5) - تاج العروس، ج3، ص 12.

(6) - سفر التكوين: 17: 25، جودت السعد: أوامم التاريخ اليهودي، ط1، الأهلية للنشر، عمان، الأردن، 1998م، ص49.

(7) - المكان نفسه.

(1895 ق.م)⁽¹⁾، وهذا التاريخ قريب لما حدده بعض العلماء والمؤرخين من أمثال الطبري⁽²⁾ وياقوت الحموي⁽³⁾.

وتباينت آراء العلماء في مكان ميلاده، فقال بعضهم: أن مولده كان بالسوس من أرض الأهواز⁽⁴⁾، وقال البعض: كان مولده ببابل⁽⁵⁾ ورأي آخر قال: كان بالسواد بناحية كوثي⁽⁶⁾، وذكر البعض: أنه ولد بالوركاء أو بحران وكان مولده في عهد النمرود^(*) الجبار⁽⁷⁾.

والأرجح أن إبراهيم (عليه السلام) ولد في مدينة أور^(**) الكلدانية على أيام الحضارة البابلية⁽⁸⁾، كما ورد في دوائر المعارف والموسوعات، ولعل الدراسات الأركيولوجية المستفيضة ستكشف في المستقبل عن أدلة مادية تساعد على تحديد وضبط تاريخ مولد إبراهيم (عليه السلام) وتذكر المصادر والمراجع أن إبراهيم قد نشأ وسط بيئة مختلفة المعبودات في بابل التي كان يحكمها ملك اسمه نمرود، وكان أهلها ينعمون في رغد العيش، إلا أنهم كانوا منغمسين في الشرك والوثنية، وينحتون الأصنام ويجعلونها آلهة ثم يعبدونها من دون الله⁽⁹⁾.

(1) - أحمد الشنتاوي وآخرون: المصدر السابق، ص ص 25 - 27.

(2) - تاريخ الأمم والملوك، ج1، ص 187.

(3) - معجم البلدان، ج4، ص ص 553 - 554.

(4) - الطبري: المصدر السابق، ج1، ص 142.

(5) - ابن كثير: المصدر السابق، ج1، ص 178.

(6) - ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج4، ص ص 553 - 554.

(*) - النمرود: هو نمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح كان أحد ملوك الدنيا وهو أول جبار في الأرض، استمر في ملكه أربعمئة سنة وكان قد طغا فيها وتجبر ويضرب به المثل للصيد الماهر، أشار إليه القرآن في قصة إبراهيم ومناظرته له. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج1، ص 172، محمود محمد محفوظ وآخرون: الموسوعة العربية الميسرة، ج4، ط2، دار الجيل، بيروت، 2001، ص 2474، ابن كثير: البداية والنهاية، ج1، ص 186، ابن خلدون: تاريخه، ج2 ص ص 40 - 41.

(7) - ابن الأثير: الكامل في التاريخ: ج1، دار صادر بيروت، 1982، ص 94.

(**) - أور: مدينة سومرية قديمة، جنوب بلاد ما بين النهرين، على نهر الفرات، هي مسقط رأس إبراهيم الخليل، وذهبت جماعة إلى أنها أورفا لقربها من حران، وذهب آخرون إلى أنها أم قبر الواقعة على نهر الفرات، كانت مركزا هاما للثقافة السومرية، ازدهرت حضارتها حوالي سنة 3500 ق.م، يجهل تاريخ نشأتها، تحطمت زمن البابليين وأعاد نبوخذ نصر بنائها في القرن 6 ق.م وفي منتصفه اندثرت، محمود محمد محفوظ: المرجع السابق، ج1، ص 366، بطرس البستاني: دائرة المعارف، دار المعرفة، بيروت، (د.ت)، ص 601.

(8) - أحمد الشنتاوي: المرجع السابق، ج1، ص ص 25 - 26، الطاهر ذراع: الديانات القديمة في الحجاز...، المرجع السابق، ص 50.

(9) - محمد أحمد جاد المولى وآخرون: قصص القرآن، دار الجيل، بيروت، (د.ت)، ص 27.

وقد أتاه الله منذ صباه، الرشد ورجاحة العقل وسداد الرأي، ومن أوتي رشده فقد عصم من الخطأ والزلل⁽¹⁾، قال تعالى⁽²⁾: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾، وبعثه الله رسولا واتخذة خليلا في كبره لقوله تعالى⁽³⁾: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾، ولما بعثه الله نبيا ورسولا، كانت أول دعوته لأبيه، قال تعالى⁽⁴⁾: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَّرَ اتَّخَذَ أَلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، فلقد كان أبوه مشركا بالله يعبد الأصنام مع قومه، فكان ينحتها ويتاجر بها، ويعطيها إبراهيم ليبيعها فكان يقول: من يشري ما لا يضره ولا ينفعه؟ فكان لا يشتريها أحد⁽⁵⁾.

وقد عرف عن إبراهيم أنه كان يخلص النصيحة لوالده فهو أحق الناس بدعوته إلى طريق الحق والصواب، لذلك بدأ إبراهيم بكسر مذاهب الأشخاص (عبدة الأوثان) حسب ما ذكره الشهرستاني⁽⁶⁾، وكان إبراهيم أوضح الأدلة والبراهين وكان يتلطف في حوارهِ ودعوتهِ مع أبيهِ، قال تعالى⁽⁷⁾: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتْنَا آتِيَاهَا إِبْرَاهِيمَ﴾، وكان مثالا للابن البار بوالديه، لذلك خاطب والده بكل أدب وإحترام، قال تعالى⁽⁸⁾: ﴿وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾، إلا أن أبوه أزر لم يستجب لدعوة إبنه بل كان يهدده ويتوعده إذا استمر في رفضه لعبادة الأصنام، قال عز وجل⁽⁹⁾: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ جَاءَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَنْ لَمْ تَنْتَهَ لِأَرْجَمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا﴾، إلا أن إبراهيم طمأن والده بأن لن يناله منه أذى أو مكروه، بل وعده بأنه سيستغفر له حسب ما جاء في القرآن الكريم: ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا * وَأَعْتَرَلَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾⁽¹⁰⁾.

(1) - المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج1، ص 41.

(2) - سورة الأنبياء: الآية 51.

(3) - سورة النساء: الآية 125، المسعودي: المصدر السابق، ج1، ص 41.

(4) - سورة الأنعام: الآية 74.

(5) - ابن الأثير: المصدر السابق، ص 96.

(6) - الملل والنحل، ج2، ص 51.

(7) - سورة الأنعام: الآية 83، محمد أحمد جاد المولى وآخرون: قصص القرآن، ص 28.

(8) - سورة مريم: الآيات 41-43.

(9) - سورة مريم: الآية 46.

(10) - سورة مريم: الآيتان 47-48.

ولما تبين لإبراهيم (عليه السلام) أن والده عدو لله تبرأ منه كما قال تعالى⁽¹⁾ في كتابه العزيز: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَاهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾. وبعد أن خاب رجاء إبراهيم في والده، من أن يؤمن بالله ويتخلى عن الأوثان، إتجه إلى مناظرة قومه لقوله تعالى⁽²⁾: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾، حيث كان يذكرهم بالرجوع إلى الله والإبتعاد عن شركهم وغيهم، وكما تذكر المصادر أن أهل بابل كانوا من عبدة الأصنام والأوثان بعيدين عن عبادة التوحيد لله⁽³⁾.

ولما رفض قومه حجته من خلال الحوار والمجادلة؛ انتقل إبراهيم من القول إلى الفعل، وذلك بتكسير ألتهم في يوم عيدهم قال تعالى⁽⁴⁾: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ولما عادوا من إحتفالاتهم الدينية، ووجدوا أصنامهم هشياً سألوه عن ذلك الفعل ﴿مَنْ فَعَلَ هَذَا بِالْهَيْتَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾⁽⁵⁾، واتهموه بالظلم والعدوان على عبادتهم وواصلوا مساعلته (قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ)⁽⁶⁾.

والباحث قد يستنتج من آيات القرآن الكريم، ذلك الحوار السلمي والعنيف الذي تدرج فيه إبراهيم حتى استطاع كسر أصنامهم وأهانها وأثبت بطلانها.⁽⁷⁾

وقد ظل يحذرهم من مواصلتهم لعبادة الأوثان في قوله تعالى⁽⁸⁾: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَأَكُمْ أَلْنَا وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾.

وهكذا أنكر إبراهيم على قومه عبادة الأوثان حسب ما ذكره القرآن الكريم: ﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُ لَهَا عَاقِبِينَ﴾⁽⁹⁾.

(1) - سورة التوبة: الآية 114.

(2) - سورة العنكبوت: الآية 16.

(3) - المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج1، ص41، محمد علي الصابوني: المرجع السابق، ص ص 146-147.

(4) - سورة الأنبياء: الآية 58، محمد أحمد جاد المولى وآخرون: المرجع السابق، ص 30.

(5) - سورة الأنبياء: الآية 59.

(6) - سورة الأنبياء: الآيتان 62-63.

(7) - ابن الأثير: المصدر السابق، ج1، ص 97، الشهرستاني: المصدر السابق، ج2، ص 52، ابن كثير: قصص الأنبياء، ص 105.

(8) - سورة العنكبوت: الآية 25.

(9) - سورة الشعراء: الآيات 69-71.

والحقيقة أن قوم إبراهيم رفضوا الإستجابة له بحجة أن هذه المعبودات ورثوها عن آبائهم وأجدادهم لقوله تعالى⁽¹⁾: ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

وبعد بلاد ما بين النهرين إنتقل إبراهيم (عليه السلام) إلى مناظرة عبدة الكواكب والنجوم من أهل حران ببلاد الشام، والذين أطلق عليهم الشهرستاني⁽²⁾ أصحاب الهياكل وكانوا من عبدة الأجرام السماوية.

وفي هذه المناظرة ألهمه الله الحجة على قومه، قال تعالى⁽³⁾: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾، فأقبل خليل الرحمن على إبطال مذهب أصحاب الهياكل أي الذين كانوا يعبدون الكواكب والنجوم، قال تعالى⁽⁴⁾: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ لَنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَالكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجْهَتُ وَجْهِي لِلذِّئِ فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وهكذا قرر إبراهيم (عليه السلام) مذهب الحنفاء، وأبطل مذهب الصابئة، ولما انتصر على قومه بالمناظرة والجدل، قرروا اللجوء إلى التخلص منه وحرقه، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى⁽⁵⁾: ﴿قَالُوا حَرْفُوهُ وَأَنْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَبْنَؤُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾.

ولما ألقى إبراهيم (عليه السلام) في النار دعى ربه، وقد ورد ذكر هذا الدعاء في السيرة: عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال النبي (صلى الله عليه وسلم): "لما ألقى بإبراهيم في النار، قال: اللهم إنك في السماء واحد، وأنا في الأرض واحد أعبدك"⁽⁶⁾، فكانت الآية الكبرى والمعجزة العظمى، فالنار

(1) - سورة الأنبياء: الآيتان 53-54.

(2) - الملل والنحل، ج2، ص 52.

(3) - سورة الأنعام: الآية 75.

(4) - سورة الأنعام: الآيات 76-79، المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص 41..

(5) - سورة الأنبياء: الآيات 68-70.

(6) - ابن كثير: قصص الأنبياء، ص 110، محمد أحمد جاد المولى وآخرون: المرجع السابق، ص 34-35.

أحرقته وثاقه، لكنها لم تمسه بسوء، بل كانت بردا وسلاما على إبراهيم، وبعد خروجه من النار، انتقل الخليل (عليه السلام) إلى مناظرة جبار قومه نمروذ^(*) الذي ادعى الربوبية ونازع الله في سلطانه وعظمته. فلما علم النمروذ بأمر إبراهيم ودعوته دعاه إليه، وكانت بينهما المناظرة التي ذكرها القرآن الكريم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾⁽¹⁾.

وبحكمة الله استطاع إبراهيم أن يبطل حجة نمروذ ويسفه عقله، وأبطل أيضا ربوبية الملوك، حيث كانت ظاهرة تأليه الحكام تسود بلاد الرافدين، فأمنت به طائفة وكفرت طائفة أخرى.

وصفوة القول أن إبراهيم (عليه السلام) أثبت أن الفطرة السليمة هي الحنيفية، وأن جميع الأنبياء بعثوا لتقريرها مصداقا لقوله تعالى⁽²⁾: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

المطلب الثالث: هجرات إبراهيم (عليه السلام):

اضطر إبراهيم إلى مغادرة بابل بسبب دعوته إلى عقيدة التوحيد وتبشيريه بها بين الوثنيين، لما ضاق ذرعا بمضايقات الطبقة الحاكمة له، وتحت ضغط السكان ورجال الدين وتهديدهم له، في ظروف مشابهة لظروف الأنبياء والرسل عبر تاريخ دعواتهم⁽³⁾.

غادر بابل متوجها إلى بلاد الشام، وصاحبه في هجرته زوجته سارة وابن أخيه لوط وأخوه ناحور وامرأة أخيه ملكا وهي الفئة القليلة التي آمنت به.

وذكر أحمد سوسة⁽⁴⁾ أن هجرته هذه كانت حوالي سنة ألف وثمانمئة وستة قبل الميلاد (1806 ق.م)، وحسب المصادر أن عدد اليهود الذين هاجروا معه كان قليلا عكس ما يدعيه بنو إسرائيل في

(*) - رغم ذكر بعض المصادر مثل: البداية والنهاية، وقصص الأنبياء لابن كثير، والكامل في التاريخ لابن الأثير أن النمروذ استمر في حكمه مدة أربعمئة سنة كان قد طغى فيها وتجبر، إلا أن هذه المدة مبالغ فيها، وأنها ظاهرة في التاريخ القديم تحتاج إلى أدلة وبراهين.

(1) - سورة البقرة: الآية 258.

(2) - سورة الروم: الآيات 30-32.

(3) - ابن حزم الأندلسي: الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج1، تحقيق محمد إبراهيم نصر، دار الجيل، بيروت، 1985، ص ص 218-219.

(4) - ملامح من التاريخ القديم لليهود العراق، ط1، مطبعة أسعد، بغداد، العراق، 1978، ص ص 14-15.

كتبهم بأن عدد المهاجرين كان حوالي أربعة آلاف شخص، وهذا عدد مبالغ فيه يفتقر للبرهان والدليل والموضوعية التاريخية، مع العلم أن التوراة نفسها تؤكد ما ذهبنا إليه⁽¹⁾.

ولما كانت بلاد الشام تعيش القحط والمجاعة غير إبراهيم وجهته إلى مصر.

ويذكر ابن كثير⁽²⁾ في هذا السياق: "أنه لما قدم الشام أوحى الله إليه: إني جاعل هذه الأرض لخلفك من بعدك، فابتنى إبراهيم مذبحاً لله شكراً على هذه النعمة وضرب قبته شرقي بيت المقدس ثم انطلق وكان هناك جوع وقحط فارتحلوا إلى مصر".

فرحل إبراهيم (عليه السلام) ومن معه إلى مصر، وكانت زوجته سارة ذات جمال، فوشى بها أحد بطانة السوء إلى فرعون مصر، وكان من عادته أنه لا يسمع برجل عنده امرأة جميلة إلا وأخذها منه إغتصاباً، وأراد أن يعتدي على سارة زوج إبراهيم ويستأثر بها لنفسه⁽³⁾.

فدعى إبراهيم وسأله عما يربطهما من قرابة فقال له: إنها أختي^(*)، وأوصى سارة أن تقول كذلك، وكان إبراهيم يصلي ويدعو الله أن يرفع عن زوجته السوء من مكيدة فرعون مصر وطمعه في أخذها منه، ولهذا قال تعالى⁽⁴⁾: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ وفعلاً تؤكد المصادر أن الله قد رد كيد الكافر فأطلق سراحها وأهداها الفرعون جارية لكي تخدمها اسمها هاجر⁽⁵⁾.

وبعد فترة قصيرة قضاها إبراهيم في مصر، عاد إلى فلسطين مرة ثانية هو وزوجته سارة وأمتها هاجر، وأقام وسط الطائفة القليلة التي آمنت به، وكانت سارة عاقراً، وكان يحزنها أن زوجها بدون ولد فخافت أن ينقطع نسله، فأشارت عليه أن يتزوج هاجر فأذعن لطلبها⁽⁶⁾.

وقد دعى إبراهيم ربه أن يرزقه ذرية طيبة حسب ما ورد في القرآن الكريم⁽⁷⁾: ﴿رَبِّ هَبْ لِي

مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ فاستجاب له ربه، ووهبه غلاماً زكياً هو سيدنا إسماعيل (عليه السلام) حيث كان إبراهيم قد بلغ من العمر ست وثمانين (86) سنة⁽⁸⁾.

(1) - سفر التكوين: 12: 1، 24: 4-5.

(2) - قصص الأنبياء، ص 115، محمد علي الصابوني: المرجع السابق، ص 152.

(3) - ابن الأثير: المصدر السابق، ج 1، ص 101.

(*) - قصد إبراهيم أخوة الدين (إنما المؤمنون إخوة) فهي أخته في الإسلام، ولا يوجد على وجه الأرض آنذاك من زوجين مؤمنين غيرهما، وقد قال إبراهيم لسارة: قولي لفرعون أنك أختي حتى لا يمسنني سوء منه.

(4) - سورة البقرة: الآية 45.

(5) - ابن حزم: المصدر السابق، ج 1، ص 225.

(6) - محمد أحمد جاد المولى وآخرون: المرجع السابق، ص 40، الطاهر ذراع: الديانات القديمة في الحجاز قبل الإسلام، ص 56.

(7) - سورة الصافات: الآيتان 100-101.

(8) - المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج 1، ص 41، محمد علي الصابوني: المرجع السابق، ص 153.

ولعل زوجته سارة كانت قد شاركت إبراهيم سروره بهذا المولود، إلا أن الغيرة ما لبثت أن دبت إلى قلبها، وهذه فطرة بشرية رغم أنها هي التي اقترحت عليه الزواج عليها.

وعلى الباحثين الالتزام بالموضوعية والمنطق بعيدين عن آراء المستشرقين خاصة أصحاب النوايا المغرضة، وبعد ثلاثة عشرة سنة (13 سنة) رزقها الله بإسحاق رغم كبر سنهما.

وقد ذكر ابن كثير الدمشقي⁽¹⁾: أن مولد إسماعيل^(*) كان قبل مولد إسحاق بثلاثة عشرة سنة، مع العلم أنه لما ولد إسماعيل من هاجر أوحى الله إلى إبراهيم يبشره بإسحاق من سارة، فخر إبراهيم ساجدا لله، قال تعالى⁽²⁾: ﴿وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾، وهذا أمر الله حتى لا تقع فتنة بين سارة وهاجر، وحتى يكون بيت إبراهيم في أمان وسعادة ووثام.

ولما اشتدت غيرة سارة طلبت من إبراهيم الخليل أن يبعد هاجر وولدها عنها، ولقد اختلف المفسرون حول دوافع هجرة إبراهيم إلى وادي القرى بالحجاز، فمنهم من يرى أن ذلك إستجابة لطلب سارة، ومنهم من يرجعها لحكمة أرادها الله حيث أوحى إليه بالهجرة⁽³⁾، حسب ما ذكره القرآن الكريم في قوله تعالى⁽⁴⁾: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾، أي أن الله هو الذي أوحى له وسيره للهجرة إلى مكة وحدد له مكان البيت، وبمساعدة ابنه إسماعيل وضع إبراهيم أسس البيت الحرام، ونسله هم الذين تعود إليهم نسبة العرب المتعربة، حسب الأنساب وهذا فيه أقوال وآراء لا يتسع المجال للباحث أن يخوض فيها في هذا المقام، ثم أخذ إبراهيم هاجر وولدها إسماعيل حتى بلغ جبال مكة الجرداء، وتركهما في مكان البيت الحرام، وكانت مكة وقتئذ ليس بها أحد، ولا بها ماء ولا عشب، وتركهما بدون زاد سوى جرابا به تمر، وسقاء به ماء⁽⁵⁾، وولى ظهره عنهما وأقل عائدا إلى بيت المقدس بالشام، فتبعته هاجر مسرعة تقول: يا إبراهيم، أتذهب وتتركنا بهذا الوادي المقفر، وهو لا يلتفت إليها، فقالت له: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذا لن يضيعنا الله⁽⁶⁾.

(1) - البداية والنهاية، ص 192.

(*) - إسماعيل: ويقال له إسماعين، وأصل الكلمة عبري: يشمعال، ومعناه بالعربية (مطيع الله) وهو أول من تسمى بهذا الإسم من بني آزر، أرسله الله إلى أخواله من بني جرهم، وهو الذبيح علي الصحيح، عاش مائة وسبعة وثلاثين (137) سنة وقبر ما بين الميزاب والحجز. السويدي: المصدر السابق، ص 54، فؤاد حسنين علي: المرجع السابق، ص 84.

(2) - سورة الصافات: الآية 112.

(3) - ابن كثير: قصص الأنبياء، ص 121.

(4) - سورة الحج: الآية 26.

(5) - ابن كثير: البداية والنهاية، ص 193، المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج 1، ص 42.

(6) - الأزرقي: المصدر السابق، ج 1، ص 31، ابن الأثير: المصدر السابق، ج 1، ص 103.

ولما ابتعد إبراهيم عن زوجته هاجر وابنه إسماعيل، إلتفت جهة البيت ودعا ربه قال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْنِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَأَرْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (1).

ويلاحظ الباحث هنا أن تاريخ الديانة الحنيفية وظهرها بالحجاز إنما يبدأ بقدم إبراهيم وولده إسماعيل وهاجر تلك البقعة المقفرة - الأنفة الذكر - التي ذكرها القرآن الكريم أي منذ منتصف القرن التاسع عشر ق.م، إذا علمنا أن إسماعيل ولد حوالي 1854 ق.م، وأنه شارك أباه في بناء الكعبة وعمره ثلاثون سنة، ويعني ذلك أن مكة تكون قد عمرت منذ الربع الأخير من القرن 19 ق.م، وأن الحنيفية تكون قد ظهرت بالحجاز قبل ظهور الوثنية.(2)

بقيت هاجر ترضع ولدها إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى نفذ منها، واشتد عطش ابنها، فحزنت من ذلك الأمر الخطير عليهما، ثم انطلقت تفتش عن الماء.

قال الأزرقى(3): "فعمدت أم إسماعيل إلى الصفا حين رأته مشرفا تستوضع عليه- أي ترى أحدا بالوادي- ثم نظرت إلى المروة وقالت: لو مشيت بين هذين الجبلين تعلت حتى يموت الصبي ولا أراه"، وأخذت تذهب وتجيء بين الصفا والمروة وهي تهول سبع مرات، فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا، فقالت: أغثنا إن كان عندك غوث، فرأت الملك جبريل عند موضع زمزم، فضرب بعقبه - وقيل بجناحه- الأرض حتى ظهر الماء فنبعت زمزم(4)، وحاضنته أم إسماعيل بتراب ترده خشية أن يفوتها قبل أن تأتي بشنتها(5)، ويتضح مما سبق أن هذه الهجرة كانت لحكمة أرادها الله سبحانه، فقوض لهاجر وابنها إسماعيل أن يحلا بهذا المكان القفر والبقعة الجرداء، التي تحولت بعد تدفق مياه زمزم إلى مكان مأهول بالسكان بعد قدوم جرهم، ثم إلى قبلة تأوي إليها الأفئدة والقلوب بعد بناء البيت، والله لا يضيع أهله.

وفي هذا السياق قال ابن عباس: قال النبي (صلى الله عليه وسلم) : "يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم، أو قال: لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينا معينا"(6).

(1) - سورة إبراهيم: الآية 37.

(2) - الأصفهاني: تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء، ط3، منشورات دار الحياة، بيروت، 1965م، ص 33، محمد بيومي مهران: تاريخ العرب القديم، ج2، ص ص 94-95، الطاهر ذراع: الديانات القديمة في الحجاز، ص 47.

(3) - أخبار مكة، ج1، ص ص 31-32.

(4) - محمد أحمد جاد المولى: المرجع السابق، ص 42،

Encyclopédie de l'Islam, T.4, p1281, (Art. Zamzam)

(5) - الأزرق: المصدر السابق، ج1، ص 32.

(6) - ابن كثير: قصص الأنبياء، ص 121، البداية والنهاية، ج1، ص 194.

وذكر الأزرقى⁽¹⁾: "أن جبريل حين هزم بعقبه في موضع زمزم قال لأم إسماعيل - وأشار لها إلى موضع البيت-: هذا أول بيت وضع للناس وهو بيت الله العتيق: واعلمي أن إبراهيم وإسماعيل يرفعانه للناس ويعمرانه فلا يزال معمورا محرما مكرما إلى يوم القيامة".

ولما ظهر زمزم بدأت الحياة بإعمار مكة، فقدمت قبيلة جرهم^(*) المكان، وأقاموا مع هاجر وولدها ببطن مكة⁽²⁾، فاستأنست بوجودهم، وشب إسماعيل بينهم وتعلم اللغة العربية وتزوج منهم، وأصبحت مكة مأهولة بالسكان⁽³⁾.

وكان إبراهيم يتردد عليهما من فلسطين، وقد أمره الله ببناء البيت، فقدم مكة ووجد إسماعيل يبني نبلا قرب زمزم، فعرفه ثم قال: يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر قال: فاصنع ما أمرك به ربك، فقال إبراهيم: أمرني ربي أن أبني له بيتا⁽⁴⁾.

وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها، وعند ذلك رفعوا القواعد من البيت قال تعالى⁽⁵⁾: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، وكان إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني حتى ارتفع البناء ولما اكتمل، أمر الله إبراهيم أن يدعو الناس إلى الحج حسب ما ورد في القرآن الكريم: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾⁽⁶⁾.

وبذلك أصبحت مكة أول بيت وضع للناس تتوافد عليه مختلف القبائل العربية، وتهوي إليه الأفئدة، قال تعالى⁽⁷⁾: ﴿أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾.

(1) - أخبار مكة، ج1، ص ص 32- 33، ابن الأثير: المصدر السابق، ج1، ص 103، ابن كثير: قصص الأنبياء، ص 122.

(*) - جرهم: بطن من بني قحطان، وكانت منازلهم باليمن، وقد نزلوا الحجاز مع بني قحطان من العماليق، وملكوا أمر مكة، وتزوج إسماعيل منهم وتعلم العربية لغتهم، وبعد بناء البيت استولت جرهم على أمره، ولما تفرقت قبائل اليمن بسيل العرم، نزلت خزاعة بمكة، وتفوقت على جرهم التي غادرت مكة. السويدي: المصدر السابق، ص 45.

(2) - المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج1، ص 42.

(3) - محمد علي الصابوني: المرجع السابق، ص 154.

(4) - ابن الأثير: المصدر السابق، ج1، ص 106.

(5) - سورة البقرة: الآية 127.

(6) - سورة الحج: الآية 27، محمد أحمد جاد المولى: المرجع السابق، ص ص 46- 47.

(7) - سورة آل عمران: الآيات 96- 97.

المطلب الرابع: طقوس الديانة الحنيفية وشعائرها:

كان أتباع إبراهيم (عليه السلام) يمارسون كل الشعائر والطقوس الدينية التي جاءت بها الحنيفية، من توحيد الله وعبادته، وتعظيم البيت الحرام، والحج إليه، وما يرتبط بالحج من طقوس كالرجم والسعي بين الصفا والمروة والطواف والحرص على كسوة الكعبة وتقديم الأضاحي قربانا وشكرا⁽¹⁾ لقد مارس الحنفاء بعض تقاليد وعادات إبراهيم كالختان وحلق العانة وقص الشارب وهي علامات جعلها المفسرون⁽²⁾ من خصائص الديانة الحنيفية، والتي تميز بها الحنفاء عن الوثنيين. ويمكن للباحث أن يتساءل: هل كانت الحنيفية دينا كغيرها من الأديان السماوية الأخرى؟ وإذا كانت كذلك فما هي تعاليمها وطقوسها؟

إن المصادر والمراجع المتوفرة لنا لحد الآن لا تسمح برسم صورة واضحة عن الحنيفية، فأتباعها فئة قليلة، ولا يرتبطون بكتاب ديني أولهم أماكن خاصة للعبادة، ولكنهم حافظوا على شريعة إبراهيم (عليه السلام) وقواعدها من حج واختتان واغتسال من الجنابة، والامتناع عن شرب الخمر وأكل ذبائح الوثنيين، ويمكن تلخيص بعض هذه الطقوس فيما يأتي:

1- **الحج:** كانت للعرب قبل الإسلام بيوت اتخذوها لأصنامهم وكان منها كعبات كثيرة يحجون إليها: ككعبة ذو الخلصة وهي الكعبة اليمانية وكعبة الطائف وهي بيت اللات، لكن أشهر الكعبات كعبة مكة معقل الديانات الوثنية⁽³⁾.

وفي بنائها يذكر الأزرقى⁽⁴⁾: أنه بعد الفراغ من بناء البيت طلب جبريل من إبراهيم وابنه إسماعيل أن يطوفا بالبيت سبعا، ثم بعد الطواف صليا خلف المقام ركعتين، ثم قام معه جبريل فأراه المناسك كلها، الصفا والمروة ومنى والمزدلفة وعرفة، ثم أمر إبراهيم أن يؤذن في الناس بالحج فقال إبراهيم: يا رب ما يبلغ صوتي، قال الله سبحانه: أذن وعليّ البلاغ، قال تعالى⁽⁵⁾: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾.

2- **شعيرة الطواف:** ومن الشعائر التي أدتها العرب شعيرة الطواف، وكانت العرب تطوف بالبيت،

(1) - الطاهر ذراع:المجتمع العربي القديم ، ج2، ص319.

(2) - الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج1، ص400، فخر الدين الرازي: التفسير الكبير، ج4، ص ص 74-73.

Henri Massé : Op.cit, p22.

(3) - شوقي ضيف: المرجع السابق، ص92،

(4) - أخبار مكة، ج1، ص43.

(5) - سورة الحج: الآية27.

وكان طوافهم سبعة أشواط^(*) ويختلفون في الطواف فمنهم من يطوف عريانا وهم الحلة^(**)، ومنهم من يطوف في ثيابه وهم الحمس^(***)، وهناك صنف ثالث وسط بين الحلة والحمس وهم الطلس^(****).

ويبدو أن هذا الاختلاف في الطواف قد جعل اليعقوبي⁽¹⁾ يحدد أديان العرب قبل الإسلام بنوعين بقوله: "وكانت العرب في أديانهم: الحمس والحلة، فأما الحمس فقريش كلها، وأما الحلة فخزاعة لنزولها مكة ولمجاورتها قريش، فالحمس كانوا يشددون على أنفسهم في دينهم فإذا نسكوا لم يسلبوا سمنًا ولم يدخروا لبنًا، ولم يجزوا شعرا ولا ظفرا ولم يدهنوا ولم يمسوا النساء ولا الطيب، ولم يأكلوا لحما، ويطوفون بالبيت في نعالهم، لا يطؤون أرض المسجد تعظيما له، ولا يدخلون البيوت من أبوابها ولا يخرجون إلى عرفات ويلزمون المزدلفة، ويسكنون في حال نسكهم قباب الأدم".

ثم يتعرض إلى الحلة فيقول فيهم: "وكانت الحلة وهي تميم وضبة ومزينة وقيس عليان وغيرها، وقبائل من الأزدي، لا يحرمون الصيد في النسك، ويلبسون كل الثياب ويسلبون السمن ولا يدخلون من باب البيت وكانوا يدهنون ويتطيبون ويأكلون اللحم فإذا دخلوا مكة بعد فراغهم نزعوا ثيابهم التي كانت عليهم، فإن استطاعوا أن يلبسوا ثياب الحمس كراء أو إعارة فعلوا، وإلا طافوا البيت عراة، ومن طاف في ثيابه ألقاها إذا فرغ فلم ينتفع بها ويتركها حتى تبلى ولذلك سميت " اللقي^(*****)".

ويتضح من نص اليعقوبي أنه يقسم أديان العرب حسب طوافهم إلى قسمين : قريش وهي الحمس وهم اهل البيت، ويتشددون في أداء المناسك ويطوفون في ثيابهم، أما القبائل الوافدة مثل خزاعة فهم الحلة، ويطوفون عراة، وإذا طافوا في ثيابهم ألقوها بعد الطواف لأنها مليئة بالذنوب.

(*) - السعي سبعة أشواط شعيرة ورثها العرب عن أمنا هاجر حينما كانت تهول بين الصفا والمروة بحثا عن الماء لابنها إسماعيل. Lammens(H.) : Les Sanctuaires, p 55.

(**) - الحلة: وهم خزاعة لنزولها مكة ومجاورتها قريش، وكانوا لا يطوفون إلا في ثياب جدد، وهي ثياب الحمس كراء أو إعارة، وإلا طافوا عراة، ومن طاف في ثيابه ألقاها إذا فرغ من الطواف فلم ينتفع بها ويتركها حتى تبلى ولذلك سميت " اللقي". الفاسي: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تحقيق مصطفى محمد الذهبي، ج2، ط2، مطبعة النهضة، مكة، 1999م، ص75.

(***) - الحمس: التحمس التشدد في الدين، وهم قريش كلها، ويطوفون في ثيابهم، فإذا أحرموا كانوا لا يتأقطنون إقطا ولا يسلبون السمن ولا يمخضون اللبن ولا يأكلون لحما ولا يلبسون الوبر ولا الشعر ويطوفون بالبيت في نعالهم ولا يدخلون البيوت من أبوابها ولا يخرجون إلى عرفات ويعظمون الأشهر الحرم.

اليعقوبي: المصدر السابق، ج1، ص256، الأزرقى: المصدر السابق، ج1، ص143،

Lammens (H.) : Les Sanctuaires, p 138.

(****) - الطلس: هم طائفة من العرب تطوف بالبيت على صفة نختص بها، وهم وسط بين الحلة والحمس ، كانوا يأتون من أقصى اليمن طلسا من الغبار، فيطوفون بالببين في تلك الثياب الطلس ، فسموا بذلك. الفاسي: المصدر السابق، ج2، ص78، ابن حبيب البغدادي: المصدر السابق، ص178.

(1) - تاريخ اليعقوبي، ص256.

(*****) - اللقي: وهو الثوب الذي كانت تطرحه الحلة فلا يأخذه أحد. السهيلي: المصدر السابق، ج1، ص231.

ويصف ابن حبيب البغدادي⁽¹⁾ الطلس بقوله: "وهم طائفة من العرب بين الحلة والحمس، يصنعون في إحرامهم ما يصنع الحلة، ويصنعون في ثيابهم ودخولهم البيت ما يصنع الحمس، وكانوا لا يتعرون حول الكعبة، ولا يستعبرون ثيابا، يدخلون البيوت من أبوابها، وكانوا لا يئدون بناتهم، وكانوا يقفون مع الحلة ويصنعون ما يصنعون".

وذكرهم السهيلي⁽²⁾ بقوله: "وهم سائر أهل اليمن وأهل حضرموت وعك وعجيب وإياد بن نزار، وكان طوافهم بالبيت على صفة خاصة بهم"، وذكر شيئا عن سبب تسميتهم بأنهم كانوا يأتون من أقصى اليمن طلسا من الغبار، فيطوفون بالبيت في تلك الثياب الطلس فسموا بذلك.

ويبدو من النصوص السابقة أن اليعقوبي وبقية المؤرخين والإخباريين كانوا يقصدون بعبارة " وكانت العرب في أديانهم" أهل مكة ومن كان يقصدهم من العرب، وإن كنت لا أستبعد أن سنة الطواف عند أهل العربية الجنوبية كانت على النحو السائد عند أهل الحجاز، لأن الطواف حول بيوت الأصنام كان من السنن الشائعة عند العرب القدامى الشماليين والجنوبيين على حد سواء.

3- **الرجم**: أي رمي الحجارة: لقد ذكر الأزرقى⁽³⁾ في هذا السياق: أن إبراهيم (عليه السلام) لما أتى المناسك، دخل منى وهبط من العقبة، تمثل له إبليس عند جمرة العقبة، فقال له جبريل: ارمه، فرماه إبراهيم بسبع حصيات فغاب عنه، ثم برز له ثانية عند الجمرة الوسطى، فرماه، ثم برز له في الثالثة عند الجمرة السفلى فرماه بسبع حصيات حتى ساح في الأرض. ثم مضى إبراهيم في حجه حتى انتهى إلى عرفة^(*)، فسأله جبريل إن عرف مناسكه فرد بالإيجاب فسميت عرفات بذلك.

4- **كسوة الكعبة**: درجت العرب على كسوة الكعبة منذ القديم، وقد ذكر المسعودي⁽⁴⁾ في هذا الميدان: أن أسعد أبو كرب الحميري^(**) الذي آمن بالرسول (صلى الله عليه وسلم) قبل أن يبعث بسبعمئة سنة هو

(1) - المحبر، ص 181.

(2) - الروض الأنف، ج 1، ص 231.

(3) - أخبار مكة، ج 1، ص 43.

(*) - عرفة أو عرفات: موضع يقع على 12 ميلا (حوالي 19 كلم) من مكة، وقيل أن إبراهيم عرف فيه مناسك الحج على يد جبريل فسمي بذلك عرفات، وقيل أن آدم لما أهبط إلى الأرض وقع إلى سرنديب من أرض الهند وكان يجوب الأرض يبحث عن زوجته حواء حتى وافاها بجبل الرحمة من عرفات فعرّفها فسمي عرفات بذلك. الزبيدي: المصدر السابق، ج 6، ص 193، الشهرستاني: المصدر السابق، ج 2، ص 232-233، محمد فريد وجدي: المرجع السابق، ج 6، ص 368.

(4) - مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج 1، ص 65، الأزرقى: المصدر السابق، ج 1، ص 197، ابن هشام: المصدر السابق، ج 1، ص 17.

(**) - أسعد أبو كرب الحميري: هو تبن أسعد أبو كرب الذي قدم يثرب، وساق الحبرين من اليهود إلى اليمن، وعمر البيت الحرام وكساه الخصف ثم المعافر ثم الوصائل، فكان أول من كسا البيت، وأوصى به ولاته من جرهم، وجعل له=

أول من كسا الكعبة الأنطاع والبرود وجعل لها بابا يغلق وقال أسعد في ذلك :
 وكسونا البيت الذي حرم الله ملاء مقصبا وبرودا.
 وأقمنا به من الشهر عشرا وجعلنا لبابه إقليدا.
 وخرجنا منه نؤم سهيلا قد رفعنا لواعنا معقودا.

5- الاعتكاف: ذكر أهل الأخبار أن الحنفاء كانوا يعتكفون في الأماكن البعيدة الخالية، في الكهوف، وفي البراري والجال، يتحنثون ويتعبدون فيها بعيدا عن الأنظار، يريدون الخلوة، ويلتمسون الدين الحق⁽¹⁾. وهم بهذه الأماكن ومنها غار حراء كانوا يجلبون معهم الأضاحي ويطلقون عليها اسم " الهدي والقلائد"^(*) " يقدمونها لله قربانا وشكرا، وهم يقدمون هذه الأضاحي، يتمثلون واقعة إبراهيم(عليه السلام) الذي أمر بذبح ابنه إسماعيل، ففداه الله بذبح عظيم⁽²⁾ في قوله تعالى⁽³⁾: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَقَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾.

ويتضح مما سبق أن للحنيفية طقوس وشعائر مارسها إبراهيم (عليه السلام) منذ بناء البيت العتيق، ومن بعده ابنه إسماعيل (عليه السلام) وأبناؤه الذين انتشروا في شبه الجزيرة العربية، ونشروا معهم الدين الحنيف، وبعد وفاة إسماعيل^(**) (عليه السلام) بقي الحج إلى مكة والطواف بالبيت سائدا، ومع الأيام اندثر هذا الاعتقاد ليترك المكان لعبادة الأصنام، ولعل من الأسباب التي جعلت الحنيفية محدودة الانتشار في شبه جزيرة العرب أنها لم تلتفت إلى الحياة البشرية واقتصرت تعاليمها على فكرة التوحيد ونبذ عبادة الأوثان.

وقد ورد ذكر الأحناف في القرآن الكريم وفي الحديث النبوي الشريف، وقد تضمنت كتب أهل الأخبار والرواية بأسمائهم وأخبارهم، والتي تؤكد كلها على أصل الحنيفية وارتباطها بإبراهيم (عليه

= بابا ومفتاحا. المصدر نفسه، ج1، ص ص 16-20، وهب بن منبه: كتاب التيجان في ملوك حمير، تحقيق ونشر مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، ط1، صنعاء، اليمن، 1347هـ/ 1928م، ص ص 305-306.

(1) - الزبيدي: المصدر السابق، ج1، ص616. (مادة حنث)

(*) - القلائد: وهي الحيوان الذي يسوقه الحاج ليذبحه قربان شكر للآلهة، وكان من عادة العرب أن يضعوا في عنق الهدي قلادة من الجلد أو ألياف الشجر أو فتيل الخيط. أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، دار الفكر العربي، القاهرة، 2000م، ص 156.

(2) - ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق محمد إبراهيم البنا وآخرون، ج3، دار الشعب، القاهرة، 1970م، ص 228.

(3) - سورة الصافات: الآيات 104-107.

(**) - ولد إسماعيل في عام 1854 ق.م ، ولما كان قد عاش 137 سنة طبقا لرواية التوراة فإنه يكون قد توفي في عام 1717 ق.م. محمد بيومي مهران: تاريخ العرب القديم، ج2، ص 94.

(سليم)، وأن الحنيفية والإسلام دين واحد حسب ما ذكر في القرآن الكريم ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾⁽¹⁾

ويذكر الإخباريون أن العرب القدامى كانوا على دين إبراهيم إلى أن جاء عمرو بن لحي فنصب الأوثان ونشر عبادة الأصنام ولاقت دعوته استجابة من أكثر العرب، فقل عدد من حافظ على دين إبراهيم ولم يبق منهم إلا القليل في الفترة السابقة لظهور الإسلام.

ويبدو من روايات الإخباريين أن الحنفاء، كانوا من متقفي عصرهم⁽²⁾ ومن المطلعين على الكتب السماوية، وكان بعضهم يلم باللغات الأجنبية في ذلك الوقت كالسريانية والعبرانية⁽³⁾، وهذا ما أهلهم للدعوة إلى نبذ عبادة الأوثان، والرجوع إلى دين الفطرة إلى الحنيفية خلال القرن السادس الميلادي.

لذلك يستطيع الباحث أن يطلق على هؤلاء الحنفاء كلمة "مصلحين" المستعملة في وقتنا الحاضر، لأنهم ظهروا في مجتمع وثني بدائي في أفكاره الدينية، ونادوا إلى الأخلاق الفاضلة ونبذ عبادة الأصنام وعادات قومهم، فابتعدوا عن شرب الخمر والزنا وامتنعوا عن أكل ذبائح الوثنيين وحافظوا على شريعة إبراهيم السمحة، من حج إلى البيت الحرام، واختتان واغتسال من الجنابة وغيرها.

وقد ذكر الإخباريون نفر من هؤلاء الأحناف رغم تأكيدهم بأن بعضهم كان نصرانياً، وسأقتصر على ذكر نماذج منهم، لأن المقام هنا لا يتسع لذكر كل الأحناف الذين وجدوا في تلك الفترة. ويظهر حسب أهل الأخبار أن الحنيفية هي استعداد لعبادة إله واحد لا متناهي وغير مجسد، ولم تتبلور كفكرة معادية للوثنية إلا قبيل ظهور الإسلام.

ويذكر سيديو "Sedillot L."⁽⁴⁾: " أن ممن ثاروا على الوثنية من العرب قبل الإسلام أربعة نفر وهم: ورقة بن نوفل، وعبيد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث وزيد بن عمرو".

ويذكر بن هشام⁽⁵⁾ في هذا السياق: "...أن قريشا اجتمعت يوماً في عيد لهم عند صنم من أصنامهم، كانوا يعظمونه وينحرون له، ويعكفون عنده ويديرون به- أي يطوفون- وكان ذلك عيداً لهم في كل سنة يوماً، فخلص منهم أربعة نفر نجياً، ثم قال بعضهم لبعض: تصادقوا وليكنم بعضكم على بعض، قالوا: أجل، وهم: ورقة بن نوفل، وعبيد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث، وزيد بن عمرو

(1) - سورة آل عمران: الآية 67.

(2) - اليعقوبي: المصدر السابق، ج1، ص ص 256-257.

(3) - أحمد أرحيم هبو: المصدر السابق، ص405، الطاهر ذراع: الديانات القديمة في الحجاز قبل الإسلام، ص62.

(4) - تاريخ العرب العام، ترجمة عادل زعيتر، طبعة الحلبي، القاهرة، 1948م، ص64.

(5) - السيرة النبوية: تحقيق مصطفى السقا، ج1، ص ص 238-240، ابن كثير: البداية والنهاية، المصدر السابق، ج2، ص259، أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي، ج1، ص168.

بن نفيل، فقال بعضهم لبعض: تعلمون والله ما قومكم على شيء، لقد أخطئوا دين أبيهم إبراهيم، ما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع، يا قوم التمسوا لأنفسكم ديناً فإنكم والله ما أنتم على شيء، فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم".

ويذكر اليعقوبي⁽¹⁾: أن ورقة بن نوفل استحكم في النصرانية واتبع الكتب من أهلها حتى علم علما من أهل الكتاب ومات على النصرانية.

ويرى الأصبهاني⁽²⁾: " أنه قرأ الكتب وتبحر في التوراة والإنجيل، وأنه تنصر وكان يكتب الكتاب العبراني فكتب بالعبرانية من الإنجيل ما شاء أن يكتب". ومع أن هذا النص يشير إلى أن التوراة والإنجيل كانا مكتوبين بالعبرية والسريانية⁽³⁾، وأن بعض العرب كان يقرأهما بهذه اللغة، فهذا لا ينفي أن هذين الكتابين كانا يكتبان باللغة العربية، وقد كان بعض الحنفاء يقرأهما بهذه اللغة، خاصة وأن قبائل عربية كاملة وكثيرة العدد كانت قد تهودت وتنصرت⁽⁴⁾. ومن شعره في التوحيد والدين قوله:

لقد نصحت لأقوام وقلت لهم أنا النذير فلا يغركم أحد.

لا تعبدون إلهها غير خالقكم فإن دعوكم فقولوا بيننا حدد.⁽⁵⁾

أما عبيد الله بن جحش الأسدي، من بني أسد بن خزيمه، وكانت عنده حبيبة بنت سفيان بن حرب⁽⁶⁾، فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم ثم تنصر بالحبشة، وهلك هناك نصرانياً. ومن الحنفاء عثمان بن الحوريث الذي قدم على قيصر الروم فتنصر وحسنت منزلته عنده، وحسب المصادر والمراجع فإن القيصر منحه لقب بطريق وأراد تنصيبه ملكاً على مكة، إلا أن أهلها رفضوا ذلك⁽⁷⁾.

وذكر أهل الأخبار من الحنفاء: زيد بن عمرو بن نفيل، وهو ابن عم عمر بن الخطاب، فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية، وفارق دين قومه⁽⁸⁾، فاعتزل الأصنام والأوثان والميتة والدم والذبائح التي تذبح على الأوثان، ونهى عن قتل الموءودة، وقال: أعبد رب إبراهيم⁽⁹⁾.

(1) - تاريخ اليعقوبي، ج1، ص257، المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج1، ص ص 70-71.

(2) - كتاب الأغاني، ج3، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، (د.ت)، ص14.

(3) - لويس شيخو: النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، (د.ت)، ج2، ص157.

(4) - ابن حزم الأندلسي: جمهرة أنساب العرب، ص ص 457-458.

(5) - الزبير بن بكار: جمهرة نسب قریش وأخبارها، تحقيق محمود محمد شاكر، مكتبة خياط، بيروت، لبنان، (د.ت)،

ص 413، لويس شيخو: شعراء النصرانية قبل الإسلام، ط2، دار المشرق، بيروت، 1967، ص ص 616-617.

(6) - المسعودي: المصدر السابق، ج1، ص72.

(7) - أحمد أرحيم هبو: المرجع السابق، ص408، الزبير بن بكار: المصدر السابق، ص ص 425-426.

(8) - الطاهر ذراع: المجتمع العربي القديم، ج2، ص322.

(9) - ابن هشام: المصدر السابق، ج1، ص ص 167-168.

وأورد الشهرستاني⁽¹⁾: أن زيد بن عمرو كان من الحنفاء الذين كانوا ينتظرون النبوة، وكان شيخا كبيرا يسند ظهره إلى الكعبة ويقول: يا معشر قريش، والذي نفس زيد بيده، ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيري، ثم يقول: اللهم لو أني أعلم أي الوجوه أحب إليك عبدتك به، ولكني لا أعلمه، ثم يسجد على راحته. وكانت زوجته صفية بنت الحضرمي تنكر عليه عبادته، وقد أنشد زيد في فراق دين قومه شعرا فقال:

أربا واحدا أم ألف رب أدين إذا تقسمت الأمور.
عزلت اللات والعزى جميعا كذلك يفعل الجلد الصبور⁽²⁾.

ويذكر المسعودي⁽³⁾: أن زيدا صار إلى الشام يبحث عن الدين، فمات هناك بعد أن سمه بعض ملوك غسان.

و يرى ابن كثير⁽⁴⁾: في رواية أخرى أن مقتله كان بالبقاء بالشام، وأن قتلته من بني لخم. و ذكر ابن حبيب⁽⁵⁾: أن زيدا كان أول من عاب على قريش ما هم عليه من عبادة الأوثان، وكان يقول: " اللهم لو أعلم أي الوجوه أحب إليك سجدت إليه، ولكني لا أعلمه ثم يسجد على راحته". وقال عنه ابن دريد⁽⁶⁾: " وكان قد ترك دين العرب القديم، ورفض الأوثان ولم يأكل من ذبائحهم". ومما أورده ابن كثير⁽⁷⁾: " أن زيد بن عمرو كان يسند ظهره إلى الكعبة وهو يقول: يا معشر قريش إياكم والزنا فإنه يورث الفقر".

ويذكر ابن هشام⁽⁸⁾: بعضا من أشعاره: قال زيد بن عمرو في فراق دين قومه وما كان لقي منهم في ذلك:

فلا العزى أدين ولا ابنتيها ولا صنمي بني عمرو أזור.
ولا هبلا أدين وكان ربا لنا في الدهر إذ حلمي يسير.

ومن الحنفاء المعدودين الشاعر أمية بن أبي الصلت الذي كان أحسن الحنفاء حظا في بقاء الذكر، بسبب ذبوع شعره الديني، وقد أدرك الإسلام، لكنه لم يسلم شأنه في ذلك شأن أبي عامر الراهب.

(1) - الملل والنحل، ج2، ص241، محمد أبو زهرة: تاريخ الجدل، ص38.

(2) - ابن هشام: المصدر السابق، ج1، ص241.

(3) - مروج الذهب، ج1، ص67.

(4) - البداية والنهاية، ج2، ص260.

(5) - المحبر، طبعة حيدر آباد، الدكن، (د.ت)، ص171.

(6) - الاشتقاق، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط1، دار الجيل، بيروت، 1991م، ص134.

(7) - البداية والنهاية، ج2، ص262.

(8) - السيرة النبوية، ج1، ص169.

يقول صاحب الأغاني⁽¹⁾: "كان أمية قد نظر في الكتب وقرأها ولبس المسوح تعبداً، وكان ممن ذكر إبراهيم وإسماعيل والحنيفية، وحرّم الخمر وشك في الأوثان والتمس الدين وطمع النبوة" لأنه كان يأمل أن تكون النبوة فيه، لما قرأ في الكتب أن نبياً يبعث من العرب، فلما بعث النبي (صلى الله عليه وسلم) حسده وأصبح عدواً له، وقد ذكر القرآن الكريم ذلك في قوله تعالى⁽²⁾: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾، وكان أمية يوماً ينشد:

كل دين يوم القيامة عند الله إلا دين الحنيفة زور⁽³⁾

وقد قال فيه الرسول (صلى الله عليه وسلم): "أمن شعره وكفر قلبه"⁽⁴⁾. ومما ذكره ابن دريد⁽⁵⁾ عنه: "كان بعض العلماء يقول: لولا النبي (صلى الله عليه وسلم) لادّعت ثقيف أن أمية نبّي، لأنه دارس النصراني وقرأ معهم، ودارس اليهود، وكل الكتب قرأ". ومن شعره ما ذكره ابن كثير⁽⁶⁾:

مجدوا الله فهو للمجد أهل ربنا في السماء أمسى كبيراً
بالبناء الأعلى الذي سبق لنا س وسوى فوق السماء سريراً
شرجعاً لا يناله بصر العيون ترى دونه الملائك صوراً

ومن الحنفاء أيضاً أبو عامر بن صيفي الذي يعرف باسم الراهب لأنه كان ترهب قبل ظهور الإسلام، ولبس المسوح تعبداً⁽⁷⁾.

ويبدو من النصوص السابقة أن بعض الحنفاء كانوا على إطلاع واسع بالكتب السماوية التي نزلت على الأنبياء قبل ظهور الإسلام، وقد حافظوا على بقايا شريعة إبراهيم (عليه السلام)، ومنهم من كان طامعاً في النبوة كأمية بن أبي الصلت.

وذكر الإخباريون من الحنفاء قس بن ساعدة الإيادي⁽⁸⁾، إلا أنهم اختلفوا في نسبه⁽⁸⁾، وقد رفعه

(1) - الأصبهاني: المصدر السابق، ج3، ص180، ابن كثير: البداية والنهاية: ج2، ص ص 241 - 242.

(2) - سورة الأعراف: الآية 175.

(3) - الشهرستاني: المصدر السابق، ج2، ص 241.

(4) - ابن كثير: البداية والنهاية، ج2، ص 249.

(5) - الاشتقاق، ص 303.

(6) - البداية والنهاية، ج2، ص 250.

(7) - جواد علي: المرجع السابق، ج6، ص 458، المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص 71.

(8) - هو قس بن ساعدة بن عمرو بن عدي بن مالك الإيادي (ت حوالي 600م)، من حكماء وخطباء العرب في العصر السابق للإسلام، كان أسقف نجران، وكان يفد على قيصر الروم فيكرمه، أدركه الرسول (صلى الله عليه وسلم) ورآه في عكاظ، الجاحظ: البيان والتبيين، ج1، ص ص 37 - 38، لويس شيخو: شعراء النصرانية، ص 211.

(8) - ابن كثير: البداية والنهاية، ج2، ص 252، الجاحظ: المصدر السابق، ج1، ص 38، الأصبهاني: المصدر السابق، ج14، ص 40.

وقد عمر طويلاً، وبرع عبيد بن الأبرص في الفخر والوصف والحكمة والرثاء وله شيء من الغزل، والمختار من شعره في القصيدة البائية نجده يتوكل على الله ويدعو الناس إلى الإعتماد عليه فيقول:

من يسأل الناس يحرّمه وسائل الله لا يخيب.
بالله يدرك كل خير والقول في بعضه تلغيب.
والله ليس له شريك علام ما أخفت القلوب⁽¹⁾.

وهذا الشعر رفع من مكانته بين قومه وهو من المعمرين.

ومن الذين عدّوا من الحنفاء زهير بن أبي سلمى، إلا أن بعض الإخباريين مثل المسعودي⁽²⁾ تحفظوا من ذلك شأنه شأن أسعد أبو كرب الحميري وعبيد بن الأبرص، وقد صنّفه لويس شيخو⁽³⁾ في جملة شعراء النصرانية، ومن شعره ما يدل على أنه كان يؤمن باليوم الآخر وما فيه من حساب وثواب وعقاب إذ يقول:

فلا تكتمن الله ما في صدوركم ليخفى ومهما يكتّم الله يعلم.
يؤخر فيودع في كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينقم⁽⁴⁾.

ويتضح من البيتين السابقين أن زهير يقر بوجود إله عالم بكل ما في النفوس، هو الله، فلا يجوز كتمان شيء عنه، وبوجود يوم حساب، وقد ينتقم الله من الظالم في الدنيا قبل الآخرة. وحسب جواد علي⁽⁵⁾ فإن بعض المستشرقين مثل: ولهوسن^(*) "Wellhaussen" مال إلى الاعتقاد بأن الحنفاء كانوا من النصارى، وأن حركتهم كانت نصرانية، وأنهم كانوا يمثلون القنطرة التي توصل بين النصرانية والإسلام.

ويلاحظ الباحث مما سبق أن المستشرقين خلطوا بين الأحناف وهم أصحاب مبدأ التوحيد، وبين غيرهم من أتباع الديانات التوحيدية الأخرى، وبخاصة النصرانية، فكثيراً ما يذكر هؤلاء أن من

(1) - الجاحظ: البيان والتبيين، ج1، ص 236، لويس شيخو: المرجع السابق، ص 596، عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، ج1، ص 125، كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ترجمة يعقوب بكر ورمضان عبد التواب، ج1، دار المعارف بمصر، 1975، ص ص 17-18.

(2) - مروج الذهب، ج1، ص 61.

(3) - شعراء النصرانية، ص 510.

(4) - المرجع نفسه، ص 518، ديوان زهير بن أبي سلمى: شرح علي حسن فاعور، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003، ص 4.

(5) - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ج6، ص 460.

(*) - ولهوسن (يوليوس): "Julius Wellhaussen" (1844 - 1918م) مستشرق ألماني، درس اللغات السامية في جامعة جوتنجن، وكان مدرسا للغات الشرقية، اهتم بنقد التوراة، وبانتاجه في ميدان تاريخ العرب والإسلام. من أبرز مؤلفاته: تاريخ إسرائيل، 1878م، المدنية قبل الإسلام "تنظيم محمد للجماعة الإسلامية في المدينة" 1889م، بقايا الوثنية العربية 1897م، الدولة العربية وسقوطها 1902م. عبد الرحمن بدوي: المرجع السابق، ص 269.

الحنفاء من كان راهبا ولبس المسوح وزهد في الدنيا، ولكي يبدي الباحث رأيا علميا دقيقا لا بد من الوقوف على تعاليم الديانة الحنيفية ومقارنتها بما نعرفه عن النصرانية. ويستنتج الباحث أن ما ذكر آنفا من الحنفاء هم نموذج لأولئك الذين نبذوا عبادة الأوثان، وهجروا ديانة قومهم، وأعرضوا عن عاداتهم القديمة، وحفاظا على دعوتهم التوحيدية، والتمسك بشريعة إبراهيم وبحثا عن الدين الخالص الحق، فقد فر الكثير منهم من مكة إلى أطراف شبه الجزيرة العربية، وإلى المناطق المنعزلة الآمنة، وكانت وجهة أكثرهم أعالي الحجاز وبلاد الشام والعراق، وتحملوا في سبيل ذلك المشاق والصعاب، أملا في إيجاد بيئة تسمح لهم بالتعبد والتأمل في ملكوت الله، والبحث عن الدين الحق، دين إبراهيم (عليه السلام) والوقوف على الحالة الدينية في جزيرة العرب قبل الإسلام.

وصفوة القول أن الحنيفية ليست دينا موحى به كاليهودية والنصرانية والإسلام، وإنما هي حركة دينية جديدة، استرجعت شيئا من حيويتها قبيل ظهور الإسلام أي خلال القرن السادس الميلادي، وأتباعها جماعة من العرب هم في الغالب من مكة نبذوا عبادة الأصنام والأوثان، ولم يجنحوا إلى اليهودية أو النصرانية، وقد عرف هؤلاء بالأحناف والحنفاء أتباع إبراهيم (عليه السلام) إلا أن عقيدتهم لم تكن واضحة، إذ لا تتجاوز مجموعة من المبادئ الأخلاقية وليس فيها شيء عن كتاب كانوا يتبعونه، وقد ذكر الطبري⁽¹⁾ في هذا السياق أن الله أنزل على إبراهيم عشر صحائف وقد سئل النبي (صلى الله عليه وسلم) : ما كانت صحف إبراهيم، قال: "كانت أمثالا كلها".

وكان للحنيفية أثر بالغ في إضعاف المثل الدينية القديمة، والميل إلى ترك الوثنية ونبذ عادات العرب قبل الإسلام، وإعدادهم للنقلة والاتجاه نحو التوحيد.

المبحث الثاني: الديانة اليهودية في شبه الجزيرة العربية:

هي أولى الديانات الكتابية الموحى بها، والديانة السماوية التوحيدية الثانية بعد الديانة الحنيفية، وتحتل مكانة هامة في تاريخ الأديان، فهي من أقدم الديانات الموحى بها إلى موسى^(*) (عليه السلام) التي كان لها دور كبير في فهم طبيعة ديانات الشرق الأدنى القديم، كما أن لها علاقة دينية قوية بكل من النصرانية والإسلام، إضافة إلى أهميتها في فهم التاريخ اليهودي.

(¹) - تاريخ الرسل والملوك، ج1، ص 187، الفخري: المصدر السابق، ص 199.

(*) - يرى الباحث اليهودي سيغمووند فرويد أن موسى كان مصرياً، ويذكر مجموعة من الأسانيد منها كلمة موسى قريية من كلمة فرعونية هي (موس) وتعني الابن أو الغلام، ونجدها في أسماء الفراعنة مثل: " تحومس" أي ابن الإله، و"رعمس" أي ابن الإله رع، ثم هل يعقل أن يكون فرعون معنيا بقتل كل أبناء العبرانيين، وأن تفكر ابنته في تنشئة

طفل يحمل اسما عبرانيا وفي داخل قصره. Sigmund Freud : Moise et le Monothéisme, traduction Anne Berman, 8^e édi, Gallimard , Paris, 1948, pp 49-58.

المطلب الأول: مفهوم الديانة اليهودية:

يجدر بالباحث قبل بداية تحديد ماهية الديانة اليهودية وخصائصها والمراحل التي مرت بها، أن يلقي الضوء على لفظة "اليهود" والتعرف على معناها اللغوي والاصطلاحي حسب كتب التاريخ والأخبار.

لقد عرف اليهود عبر العصور بعدة تسميات، خاصة من حيث دلالاتها التاريخية والدينية، ومن هذه التسميات: "عبري" أو "عبراني"، "إسرائيلي"، و"يهودي".

سأحاول في هذا المبحث أن أحدد بإيجاز مفاهيم هذه المصطلحات والتسميات المتعلقة باليهود وتطورها التاريخي، وأبرز أسباب الاختلاف بينها، وأرتبها ترتيباً كرونولوجياً حسب ظهورها وأهميتها في التاريخ اليهودي، بمنهج تاريخي موضوعي إلى حد يقبله المنطق.

جاء في لسان العرب⁽¹⁾ أن اليهود لغة: من هاد يهود وتهود، أي تاب ورجع إلى سبيل الحق والصواب، فهو هائد والقوم هود، وتسمية اليهود اشتقاقاً من هادوا أي تابوا.

أما معنى اليهود اصطلاحاً: فقد اختلف المفسرون والمؤرخون حول مدلول لفظة اليهود.

فيرى الألوسي⁽²⁾: أن كلمة اليهودية مأخوذة من الهوادة وهي التوبة، كقول موسى (عليه السلام) ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾⁽³⁾، أي تبنا ورجعنا وتضرعنا، فسموا بذلك لما تابوا من عبادة العجل، ومودتهم وميل بعضهم إلى بعض.

ويرى فريق آخر من المفسرين أمثال الطبري⁽⁴⁾ أن اليهودية هي الانحراف والابتعاد عن ديانة موسى (عليه السلام).

ويرى آخرون أنها تعود إلى تحرك اليهود عند قراءتهم التوراة، أي أنهم يتهودون أي يتمايلون⁽⁵⁾.

ويرى البعض أنها مأخوذة من الهيد وهو الحركة، لأن اليهود يتحركون عند قراءة التوراة برؤوسهم وصدورهم، وأصل الهيد الحركة، من هاد يهيده إذا حركه، وقد نقل الزمخشري نصاً عن "عمران بن الحصين" قوله: "إذا مت فأخرجوني فاسرعوا بي ولا تهودوا كما تهود اليهود والنصارى"⁽⁶⁾.

(1) - ابن منظور: المصدر السابق، ج3، ص439.

(2) - روح المعاني، ج1، ص278.

(3) - سورة الأعراف: الآية 156.

(4) - تفسير الطبري، ج2، ص ص474-475.

(5) - الألوسي: المصدر السابق، ج5، ص ص46-47.

(6) - الفخري: تلخيص البيان في ذكر فرق أهل الأديان، ط1، تحقيق رشيد البندر، دار الحكمة للطباعة والنشر، لندن، 1994م، ص198.

أما المؤرخون فمنهم من يذكر أن اليهودية أطلقت على حملة التوراة من أمة موسى (عليه السلام)، أو على من اعتنق الديانة اليهودية وصار يهوديا⁽¹⁾.

ويرى المقرئزي⁽²⁾ أن اليهود هي التي تنتسب إلى يهوذا^(*)، والواحد منهم يسمى "يهودي". وقال ابن منظور⁽³⁾ أن يهود اسم للقبيلة، وقيل: إنما اسم هذه القبيلة يهود، فعرب المصطلح بقلب الذال دالا.

ويذكر الفخري⁽⁴⁾ أن أول من سمى بني إسرائيل اليهود باختصر^(**). وفي القرآن الكريم وردت كلمة اليهود في ثمان آيات معرفة⁽⁵⁾. قال تعالى⁽⁶⁾: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ وقال أيضا: ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مَلَّتَهُمْ﴾⁽⁷⁾.

(1) - الشهرستاني: المصدر السابق، ج1، ص210، الفخري: المصدر السابق، ص199.
(2) - كتاب المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار "الخطط المقرئزية"، ج4، ط1، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م، ص ص 378-379.

(*) - يهوذا: «yehuda» في النص الكنعاني التوراتي "يهوده"، هو ابن يعقوب بن إسحاق (عليه السلام) أمه ليا «léah»، وهو الابن الرابع بعد روبيل وشمعون ولاوي، وهو أحد أجداد الأسباط، لما كبر يعقوب جعل يهوذا حاكما على إخوته الإحدى عشر سبطا إلى أن قدم نبوخذ نصر وخرّب القدس وسبى بني إسرائيل إلى بابل سنة 586 ق. م، فعرفوا هناك بين الأمم ببني يهوذا أو "اليهوديون" وتلاعب العرب بالأسماء الأعجمية فقلبوا الذال دالا فقالوا اليهود وبهذه التسمية نزل القرآن الكريم. اليعقوبي: المصدر السابق، ج1، ص30، المقرئزي: المصدر السابق، ج4، ص378، سفر التكوين: 29: 35، Jean christophe Attias et Esther Benbassa, Dictionnaire de civilisation juive, 2^e édi, Larousse- Bords, Paris, 1998, p141

(3) - لسان العرب، ج3، ص439.

(4) - تلخيص البيان، ص199.

(**) - باختصر: أو نبوخذ نصر "Nebuchadnazzar" ملك كلداني، يعد من أعظم ملوك الدولة الكلدانية، تولى عرش بابل من 605 ق.م إلى 562ق.م، إحتل أورشليم وخرّبها مرتين الأولى سنة 597ق.م والثانية سنة 586ق.م وأجلا أهلها إلى بابل، نشبت بينه وبين فرعون مصر أمازيس «Amazis» عدة حروب، والصيغة الفارسية لاسمه هي "بخت نرسی" وتعني كثير البكاء والأنين. المسعودي: التنبيه والأشراف، ص265، مروج الذهب، ج1، ص235، البيروني: المصدر السابق، ص31، الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج1، ص ص 317-318، أحمد الشنتاوي، المرجع السابق، ص429، أحمد سوسة: المرجع السابق ص133.

Jean Christophe Attias et Esther Benbassa, Op. cit ;p32 .

(5) - سورة البقرة: الآيتان 120، 113، سورة المائدة: الآيات 18، 51، 64، 82، سورة التوبة: الآية 30.

(6) - سورة البقرة: الآية 113.

(7) - سورة البقرة : الآية 120.

وقال في موضع آخر: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ (1)

أما لفظة "يهوديا" فقد وردت في سورة آل عمران في شرح ديانة إبراهيم (عليه السلام)، قال تعالى (2):

﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾.

ويلاحظ الباحث أن السور المذكورة سابقا كلها سور مدنية، فلم ترد لفظة اليهود في سورة من السور المكية.

وهنا يتساءل الباحث عن عدم ذكر اليهود في السور المكية؟

قد يعود ذلك ربما إلى احتكاك اليهود بالعرب في يثرب أكثر من احتكاكهم بأهل مكة؟

أو أن معارفنا عن يهود جزيرة العرب مستمدة في معظمها من المصادر الإسلامية؟ حيث تتعرض لهم عندما حاربوا الإسلام واصطدموا بالمسلمين في يثرب حينما دعاهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى الدخول في الإسلام، أم أن اليهود لم يلعبوا أدورا بارزة في مكة قبل الإسلام؟

وقد عبر القرآن الكريم عن اليهود ومعتقي اليهودية بـ "الذين هادوا" في مواضع كثيرة منها قوله تعالى (3): ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ ﴾ ولفظة "هودا" في ثلاث آيات من سورة البقرة، قال تعالى (4): ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ﴾، وقال: ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (5)، وقال أيضا: ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ﴾ (6)، وقد وردت لفظة "الذين هادوا" في السور المكية، قال تعالى (7): ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ ﴾ وقوله عز وجل (8): ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ وبناء على ذلك تكون جملة "الذين هادوا" قد نزلت قبل نزول لفظة "اليهود" في القرآن الكريم.

(1) - سورة المائدة: الآية 18.

(2) - سورة آل عمران: الآية 67.

(3) - سورة البقرة: الآية 62، سورة النساء: الآيتان 46، 160، سورة المائدة: الآيات 41، 44، 69، سورة الأنعام:

الآية 146، سورة النحل: الآية 118، سورة الحج: الآية 17، سورة الجمعة: الآية 9.

(4) - سورة البقرة: الآية 111.

(5) - سورة البقرة: الآية 135.

(6) - سورة البقرة: الآية 140.

(7) - سورة الأنعام: الآية 146.

(8) - سورة النحل: الآية 118.

وفي هذا السياق المتعلق بالتسمية يجدر بالباحث في تاريخ اليهود أن يتابع بالبحث والتنقيب تطور التسميات التي عرف بها اليهود عبر المراحل التاريخية المختلفة ومنها:

تسمية "عبري" فهي مفردة وجمعها "عبريون"، وترد أيضا "عبراني" وجمعها "عبرانيون" (*)، وقد وردت هذه التسمية منسوبة إلى النبي إبراهيم (عليه السلام) الذي أطلقت عليه التوراة اسم "أبرام العبراني"⁽¹⁾ وهي مشتقة من الجذر الثلاثي العربي "عبر" وتأخذ في اللغة العبرية (***) معنى "إنتقل" أو "رحل" أو "عابر" من مكان لآخر.

ويعتقد بعض الباحثين والمؤرخين العرب المحدثين أن تسمية "عبري" مأخوذة من "عابر" وهو أحد أجداد إبراهيم (عليه السلام) حسب ما ورد في التوراة⁽²⁾.

بينما يشير فريق آخر من العلماء والمؤرخين إلى وجود علاقة بين "عبري" واللفظين "عبيرو" و"خبيرو" في المصادر المصرية القديمة، والمصادر الآشورية والبابلية، التي أشارت إلى بعض القبائل الآرامية والتي يعتقد أن إبراهيم (عليه السلام) ينتمي إليها، وقد أطلقت هذه التسمية حوالي الألف الثانية قبل الميلاد⁽³⁾، على بعض القبائل في شمال شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام.

كما تشير كلمة "عبري" أيضا إلى اللغة التي تحدثت بها تلك القبائل وهي اللغة العبرية.

وفي هذا السياق يذكر عمر فروخ⁽⁴⁾ أن العبرانيين هاجروا من شبه جزيرة العرب، ومروا بفلسطين حوالي سنة ألف وأربعمائة قبل الميلاد (1400 ق.م).

(*) - العبرانيون: «Hébreux» شعب اليهود سمي نفسه الاسرائيلي نسبة إلى إسرائيل "يعقوب"، أطلق عليه جيرانه اسم العبرانيين دلالة على أنه كان قد عبر نهرا أو حاجزا طبيعيا آخر، أو أنه كان مقيما وعبر هذا النهر أو الحاجز، ثم استعملت الكلمة للدلالة على لغتهم. سفر التكوين: 39: 17، 41: 12، محمود محمد محفوظ: المرجع السابق، ج3، ص1611، . pp 120-121, cit, Jean Christophe Attias et Esther Benbassa ; O p ,cit , pp 120-121 .

(1) - سفر التكوين: 14: 13.

(**) - اللغة العبرية: لغة سامية من المجموعة الفرعية الكنعانية، وحسب اليهود فهي اللغة المقدسة ولغة الوحي، عثر علماء الآثار على شهادات مكتوبة بالعبرية يعود تاريخها إلى القرن العاشر ق.م، لكن أقدم نقش عبراني هو الذي عثر عليه في نفق سلوى "TUNNEL DE SILOE" و يعود إلى عهد إشعياء "Ezéchias" (740 - 700 ق.م) وهي لغة مملكتي يهوذا الجنوبية ومملكة إسرائيل الشمالية. محمود محمد محفوظ: المرجع السابق، ج3، ص1611.

Jean Christophe Attias et Esther Benbassa :Op. cit, pp 118-119 .

(2) - سفر التكوين: 10: 21، 24، 25، 11: 14-17، فيليب حتي: خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى، ج1، ط1، الدار المتحدة للنشر، بيروت، 1975، ص126.

(3) - محمد خليفة حسن أحمد: تاريخ الديانة اليهودية، ط1، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، 1998، ص23، Jean Christophe Attias et Esther Benbassa : Op ;cit, p120.

(4) - تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون، ط3، دار العلم للملايين، بيروت، 1972، ص43.

أما تسمية "إسرائيلي" (*) فبالنسبة لليهود هي موضع فخرهم واعتزازهم، ولها علاقة بالأساطير اليهودية، فيعقوب (عليه السلام) كان قد غير اسمه إلى إسرائيل حينما وقع عليه الإختيار ليكون صاحب الشأن بينهم⁽¹⁾. وقد أراد اليهود تبرير عاداتهم القديمة مثل: تحريم بعض الأطعمة، فنسجوا هذه الأسطورة.

ومما يلاحظ هنا أن القرآن الكريم ذكر اسم إسرائيل علما على يعقوب دون أن يذكر أي تعليق أو تبرير له، قال تعالى⁽²⁾: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنزَلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَآتُوهَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

فتسمية "إسرائيل" إذن أطلقت على كل العبرانيين، وبعد تغير يعقوب اسمه إلى "إسرائيل"، وأصبح التعبير "بنو إسرائيل" يستخدم للإشارة إلى كل العبريين. ويمكن اعتبار القرنين التاسع عشر أو الثامن عشر قبل الميلاد، عصر بداية استخدام اللفظ "إسرائيلي" كبديل عن اللفظ "عبري" أو "عبراني"⁽³⁾. وذلك إذا أخذنا في الاعتبار الاختلافات الواضحة بين المؤرخين في تحديد عصر إبراهيم (عليه السلام) فيما بين القرنين العشرين والتاسع عشر (ق.م) وتأخذ عصر يعقوب بجيلين على الأقل عن عصر إبراهيم (عليه السلام).

وما يمكن أن يستنتجه الباحث مما سبق، أن التوراة كانت تهدف بهذه التسمية "إسرائيلي" الفصل والتمييز بين نسل إسحاق ونسل إسماعيل (عليه السلام) المشتركين في أبوة إبراهيم (عليه السلام) جد يعقوب ابن اسحاق.

فهذه الأسطورة إذن هدفها عنصري بحت ألا وهو تخصيص نسل يعقوب وتسميتهم بالإسرائيليين، والخط من شأن نسل إسماعيل (عليه السلام) وجعل النبوة والوحي محصورة في إسحاق فقط، وفي ذلك على ما اعتقد نزعة عنصرية مقبنة، روح لها لليهود كما روجوا للاختيار الإلهي لبني

(*) - إسرائيلي: اسم ينسب إلى إسرائيل (يعقوب) ابن إسحاق بن إبراهيم ، وهو مصطلح عبري يعني المصارع أو المجاهد مع الرب، والتمييز اللفظي هنا ضروري لأنه يعكس حقائق تاريخية وسياسية غاية في الأهمية، فاللغات الأوربية ومنها اللغة الإنجليزية على سبيل المثال تميز بين اللفظة "يهودا" « Judaea » وبين "اليهود" « Jews » وكذلك بين " بني إسرائيل " « Israelites » و" الإسرائيليون " « Israelis » سكان الكيان الصهيوني في فلسطين. Jean Christophe Attias et Autre : Op, cit, p131, رفايل نخلة اليسوعي: المرجع السابق، ص211، سفر التكوين: 32 : 29.

(1) - محمد أبو المحاسن عصفور: معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم، ط3، داتر النهضة العربية، بيروت، 1984م، ص285.

(2) - سورة آل عمران: الآية93.

(3) - عباس محمد العقاد: إبراهيم أبو الأنبياء، دار الهلال، القاهرة، (د.ت)، ص ص 127-129، سفر التكوين: 32: 29.

إسرائيل دون البشر جميعا، وعلى أنهم " شعب الله المختار " وقصر الوعود والمواثيق الإلهية على الشعب اليهودي دون سواه.

أما التسمية الثالثة "يهودي" (*) والتي عرف بها اليهود، والتي تأتي في الترتيب الكرونولوجي بعد التسميتين "عبري" و"إسرائيلي" ومن ناحية الظهور التاريخي والاستخدام، فلها دلالة عامة ودلالة خاصة.

فأما دلالتها العامة، فتطلق على كل من أعتنق الديانة اليهودية، فيهودي نسبة إلى اليهودية، كما أن مسيحي نسبة إلى المسيحية ومسلم نسبة إلى الإسلام، فهي إذن دلالة دينية⁽¹⁾. أما الدلالة الخاصة، فهي أنها تشير إلى الانتماء إلى كيان سياسي جغرافي هو "مملكة يهوذا" (**)، وكلمة "يهودي" سبق التعريف بها، وتتسب إلى يهوذا وهو أحد الأسباط الإثني عشر، والابن الرابع ليعقوب (عليه السلام)، والذي تعتبره المصادر اليهودية⁽²⁾ أهم شخصية في قصة يوسف (عليه السلام) مع إخوته، بل وأهم من يوسف نفسه، ذلك أنه لعب دورا بارزا في حماية يوسف من القتل كما ورد في التوراة⁽³⁾.

وقد وردت قصة يوسف (عليه السلام) في القرآن الكريم، قال تعالى⁽³⁾: ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْفَوْهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾.

(*) - يهودي: من نسل يهوذا بن يعقوب عليه السلام، وهي كلمة عبرانية الأصل "Yeuhoûda". رفاثيل نخلة اليسوعي: المرجع السابق، ص 213.

(¹) - محمد خليفة حسن أحمد: المرجع السابق، ص 29.

(**) - مملكة يهوذا: هي المملكة الجنوبية التي نشأت من تقسيم مملكة اليهود بعد وفاة شليمان سنة 931 ق.م كانت عاصمتها القدس، وحكمتها أسرة داود التي تضم قبيلتي يهوذا وبنيامين واستمرت المملكة من سنة 931 إلى 586 ق.م تاريخ تدمير نبوخذنصر امدينة أورشليم. محمود محمد محفوظ: المرجع السابق، ج 4، ص 2654، زياد منى: " بنو إسرائيل وليس اليهود"، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، العدد 63، 1998م، ص 67. Jean Christophe Attias et autre : Op.cit, p141.

(²) - سفر التكوين: 37: 26-27.

(***) - التوراة "Tora": أول كتاب أنزل من السماء على موسى في طور سيناء، وما أنزل قبله كان صحفا، وهي كلمة عبرانية تعني الإرشاد أو الشريعة، وتطلق على أسفار العهد القديم الخمسة، وتحوي فترة تمتد من بدء الخليقة إلى وفاة موسى حوالي 1300 ق.م وتشريعاتها مستوحاة من شريعة حمو رابي وأمثال وحكم أخناتون المصري. محمود محمد محفوظ: المرجع السابق، ج 2، ص 763، عمر فروخ: المرجع السابق، ص 43، الشهرستاني: المصدر السابق، ج 1، ص 211، حسن ظاظا: المرجع السابق، ص 5، رفاثيل نخلة اليسوعي: المرجع السابق، ص 211. Jean Christophe Attias et autre : Op.cit, p 287.

(³) - سورة يوسف: الآية 10.

وبعد وفاة النبي سليمان (عليه السلام) حوالي سنة تسعمائة وواحد وثلاثون (931) قبل الميلاد، انقسمت مملكته إلى دولتين متصارعتين هما:

أ- مملكة إسرائيل^(*) الشمالية "Israel" وكانت عاصمتها شكيم، وترصة، ثم السامرة.

ب- ومملكة يهوذا الجنوبية "Juda-Yehuda" وعاصمتها أورشليم^(**)(1).

وبعد ما هاجم الآشوريون شواطئ البحر المتوسط، قضوا على مملكة إسرائيل وكان السبي الآشوري أو السبي الأول لليهود في الربع الأخير من القرن الثامن قبل الميلاد (722-721 ق.م)⁽²⁾.

وبعد انتهاء مملكة إسرائيل ككيان سياسي، أصبحت كلمة "يهودي" تشمل كل الإسرائيليين في الشمال واليهوديين في الجنوب، واستمرت هذه التسمية حتى نهاية الوجود السياسي لمملكة يهوذا على يد نبوخذنصر بعد السبي البابلي (السبي الثاني لليهود) حوالي سنة خمسمائة وست وثمانين (586 ق.م) قبل الميلاد⁽³⁾.

ولكي تكتمل الصورة التاريخية، فإن السبي الثالث لليهود هو ما عرف في تاريخهم بالسبي الروماني^(***).

(*)- مملكة إسرائيل: وهي المملكة الشمالية التي لم يكن لقبائل يهوذا وبنيامين شركة فيها، وإسرائيل هو الاسم الذي عرف به يعقوب بعد مصارحته للملاك عند فنوئيل ثم أطلق على الأسياب الاثني عشر، ثم صار اسما للمملكة الشمالية وأول من حكمها يروبعام بن سليمان "Roboam" حكم من 974 ق.م- 954 ق.م، وتعاقب على حكمها عشرة قبائل ، وقد دمرها الملك الآشوري شلمانصر سنة 722 ق.م، بعد حصار السامرة "Samarie" ثم كان السبي الآشوري. بطرس البستاني: دائرة المعارف، ج3، دار المعرفة، بيروت، (د.ت)، ص 479، حسن ظاظا: المرجع السابق، ص 38، زياد منى: المرجع السابق، ص ص 66-67. Jean Christophe Attias et autre : Op.cit,p133

(**) - أورشليم: "Jerusalem" هو اسم بيت المقدس بالعبرانية، وأصل الاسم كنعاني من "يرو- شالم" ، أو "يرو-شلم" وشالم أو شلم "Shalim" اسم إله كنعاني يعني السلام، وله علاقة باسم الإله الآشوري "شلمانو-Shulmanu" وقد دخلت التاريخ العبراني واليهودي منذ حوالي القرن العاشر قبل الميلاد حينما أفنك داود (1000-960 ق.م) المدينة من البيوسيين ليجعل منها عاصمة سياسية ودينية لمملكته وقد خلفه ابنه سليمان(960-922 ق.م) الذي أقام الهيكل ، والذي خربَه فيما بعد تيتوس "TITUS" سنة 70م، وتعرف مدينة بيت المقدس باسم إلباء وقيل معناه: بيت الله. سفر الملوك الأول: 11: 36، سفر المزمور: 137: 5-6، ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج1، ص 279، جودت السعد: المرجع السابق، ص 38، خليل سرقيس: تاريخ القدس المعروف بتاريخ أورشليم، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2001م، ص ص 08-10 ، Jean Christophe Attias et autre : Op.cit, pp.137-139.

(1)- فليب حتى: المرجع السابق، ص 129.

(2)- عمر فروخ: المرجع السابق، ص 43.

(3)- محمد خليفة حسن أحمد: المرجع السابق، ص ص 31-32.

(***)- وقع السبي الروماني حوالي سنة سبعين (70م) للميلاد، بعد تدمير أورشليم من طرف الإمبراطور الروماني تيتوس "TITUS" . محمود محمد محفوظ: المرجع السابق، ج2، ص 779،

Jean Christophe Attias et autre : Op.cit, p 93.

وخلاصة القول أن هذه التسميات الثلاث: عبري، إسرائيلي و يهودي، التي استخدمت في الألف الثانية قبل الميلاد، وفي سنة سبعمائة واثنين وعشرين (722) قبل الميلاد، وسنة خمسمائة وست وثمانين (586) قبل الميلاد على التوالي، لا زالت تستعمل إلى وقتنا الحاضر، ولكن لكل منها دلالة خاصة، فكلمة "عبري" تستخدم للدلالة على الأدب واللغة العبرية، وتسمية "إسرائيلي" تستعمل للإشارة إلى كيان وانتفاء سياسي، أما تسمية "يهودي" فتشير إلى كل من يدين بالديانة اليهودية، كما أن لها دلالة جغرافية خاصة، حيث تشير إلى مملكة يهوذا أو المملكة الجنوبية التي نشأت بعد وفاة سليمان (عليه السلام) سنة تسعمائة وواحد وثلاثون (931) قبل الميلاد.

ويستنتج الباحث من التعاريف السابقة، أن الديانة اليهودية ديانة سماوية، وتعرف في بعض الكتب الدينية بالديانة الموسوية نسبة إلى موسى (عليه السلام) منقذ بني إسرائيل من بطش فرعون مصر. إلا أن اليهودية أخذت منحى آخر غير شريعة موسى بعد التحريف والترتيب الذي طالها⁽¹⁾، حسب النصوص القرآنية والتاريخية الغائبة حتى الآن.

ولم يتوقف اليهود عند حد تحريف التوراة، بل حرفوا بعض عقائدهم إذ حرفوا عقيدتهم في الإله⁽²⁾. فقد صوروه في صور مجسمة، ووصفوه بكثير من صفات النقص والضعف والكذب والغفلة والجهل⁽³⁾. ووصفوه بما لا يليق فهو يتعب ويستريح⁽⁴⁾، وغير ذلك من الصفات التي لا تليق بذات الله تعالى.

فالديانة اليهودية إذن، تختلف عن الديانات السماوية الأخرى من حيث طبيعتها ونشأتها وطقوسها ومرآطها التاريخية.

وعلى هذا الأساس فهي مجموعة من العقائد والشرائع والطقوس وقواعد السلوك والأخلاق التي تراكت خلال مئات السنين⁽⁵⁾.

اهتم اليهود بالمسائل الدينية والبحث فيها، ومنها قضية التوراة وشريعة موسى (عليه السلام) فالتراث اليهودي يعتبر موسى المثل النبوي، فموقع موسى من تاريخ النبوة لدى بني إسرائيل هو موقع الأصل من الفرع. فموسى هو النبي واضع الشريعة حسبهم، ومنتلقي الوحي الإلهي، ومؤسس الديانة،

(1) - سبينوزا : رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة حسن حنفي، مراجعة فؤاد زكريا، ط2، دار الطليعة، بيروت، 1971م، ص 255، الطاهر ذراع: المجتمع العربي القديم، ج2، ص 327.

(2) - أحمد شلبي: مقارنة الأديان - اليهودية، ط5، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1978م، ص 180.

(3) - سفر التكوين: 3: 8-10.

(4) - سفر التكوين: 2: 3.

(5) - حسن ظاظا: المرجع السابق، ص5. الطاهر ذراع: المجتمع العربي القديم، ج2، ص 327.

لذلك فهو الشخصية المحورية التي تدور حولها بقية النبوات الإسرائيلية والتي تسعى جميعها إلى العودة إلى العصر الموسوي⁽¹⁾.

وقد اختلف اليهود في قضية نسخ التوراة، وتوصلوا في النهاية إلى الإدعاء بأن الشريعة لا تكون إلا واحدة، فهي ابتدأت بموسى، وانتهت بعد موته، فلا توجد شريعة قبله، ولا توجد شريعة بعده أصلاً⁽²⁾.

وقد أشارت نصوص القرآن الكريم إلى الكتب المقدسة عند اليهود باسم التوراة، قال تعالى⁽³⁾: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، وقال في آية أخرى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾⁽⁴⁾، وقال أيضاً⁽⁵⁾: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

وحسب أغلب المفسرين وعلماء اللغة، فإن التوراة "TORAH" كلمة عبرانية⁽⁶⁾، تعني الهداية والإرشاد. وهناك من يرى بأنها تعني التعليم والشريعة، وتطلق على أسفار العهد القديم⁽⁷⁾. والأسفار الخمسة من العهد القديم هي: سفر التكوين، وسفر الخروج، وسفر اللاويين، وسفر العدد، وسفر التثنية. وهي الأسفار التي كونت العناصر الخمسة الأولى لكتاب العهد القديم من تسعة وثلاثين (39) مجلداً⁽⁸⁾. والتوراة هي أول كتاب أنزل من السماء على موسى (عليه السلام) فما كان ينزل على إبراهيم (عليه السلام) وغيره من الأنبياء ليست كتباً بل صحفاً⁽⁹⁾.

ويذكر بعض الباحثين مثل: محمد علي ربيع⁽¹⁰⁾: أن التوراة المنسوبة إلى موسى (عليه السلام) ثلاث نسخ هي:

(1) - محمد خليفة حسن أحمد: المرجع السابق، ص 113.

(2) - الشهرستاني: المصدر السابق، ج 1، ص 211، الفخري: المصدر السابق، ص 201.

(3) - سورة آل عمران: الآية 65.

(4) - سورة المائدة: الآية 68.

(5) - سورة الجمعة: الآية 5.

(6) - رفائيل نخلة اليسوعي: المرجع السابق، ص 211.

(7) - يحيى محمد علي ربيع: الكتب المقدسة بين الصحة والتحريف، ط 1، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، مصر، 1994م، ص 15.

(8) - موريس بوكاي: القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم "دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة"، ط 2، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2004م، ص 17.

(9) - الشهرستاني: المصدر السابق، ج 1، ص 17.

(10) - الكتب المقدسة بين الصحة والتحريف، ص 261.

الأولى: النسخة العبرانية وهي التي بيد اليهود الآن.

الثانية: التوراة اليونانية أو "السبعينية"^(*) Septuaginta وهي التي بأيدي النصارى ومقدسة لديهم.

الثالثة: التوراة السامرية والتي تنسب إلى طائفة السامرة، ويزعم السامريون أن التوراة التي

بأيديهم هي التوراة المنزلة على موسى وأنها غير التوراة المحرفة التي بأيدي سائر اليهود⁽¹⁾.

وقد أطلق على التوراة التي أنزلها الله تعالى على موسى (عليه السلام) في طور سيناء^(**)، لفظ "

الناموس"^(***) أو "البنطاتوك-Pentateuch" منذ القرن الثاني الميلادي. وتشمل العقيدة والشريعة، وقد كتب

منها موسى ثلاث عشرة نسخة فأعطى كل سبط من الأسباط^(****) الاثني عشر نسخة، ووضع في

التابوت نسخة أخرى، وقد خصص موسى- بناء على وحي- نسل هارون من سبط لاوي ليقوموا

بتعليم التوراة للناس حتى تكون الرئاسة فيهم، ويكونوا ممن يستنبطون الأحكام من نصوص التوراة⁽²⁾.

ويلاحظ الباحث في هذا السياق تلميحات اليهود، حيث نعلم أن موسى (عليه السلام) ترك التوراة

الصحيحة بين قومه- حسب ما ورد في القرآن الكريم- إلى سبط لاوي، وإلى نسل هارون بالذات من

سبط لاوي الذي أوكل مهمة حفظ التوراة. فما الذي حدث بعد ذلك؟.

(*)- تعود أصول هذه التسمية " السبعينية" (سبتواجينتا = Septuaginta) باللغة اليونانية و"Septante" باللغة الفرنسية، إلى قصة أسطورية مفادها أن الملك بطليموس الثاني (284 - 246 ق.م) كان قد طلب من كبير حاخامات فلسطين "أليغازر" أن يرسل إليه إثنين وسبعين عالما من يهود فلسطين - ست من كل سبط- لترجمة التوراة من اللغة العبرية إلى اليونانية، وتمت الترجمة في ظرف إثنين وسبعين (72) يوما، فأطلق عليها الترجمة السبعينية ربما نسبة إلى عدد العلماء المشتركين فيها، أو نسبة إلى عدد الأيام التي استغرقتها الترجمة. ويرجع تاريخها إلى القرن الثالث قبل الميلاد. محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ج3، ص ص 93- 94، موريس بوكاي: المرجع السابق، ص ص 22-23.

(1)- ابن حزم الأندلسي: المصدر السابق، ج1، ص 202.

(**)- طور سيناء: الطور بلدة في شبه جزيرة سيناء بمصر جنوبي جبل موسى، وهو اسم جبل قرب أيلة. ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج4، ص 48، ابن حزم: المصدر السابق، ج1، ص 129.

(***)- الناموس: "Pentaticus" أو "الأسفار الخمسة" لفظ يوناني الأصل معناه الشريعة أو القانون، والمراد به شريعة موسى التي جاء بها من عند الله، وقد أطلق على التوراة منذ القرن الثاني الميلادي. محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص 11، نخبة من اللاهوتيين: قاموس الكتاب المقدس، ط6، منشورات المشعل، بيروت، 1981م، ص 978، نحما: 8: 18، Jean Christophe Attias et autre : Op.cit , p 287.

(****)- الأسباط : "Tribus" - "Shevatim" باللغة العبرية، هم أبناء يعقوب (عليه السلام) الاثني عشر ذكرا: روبيل، وشمعون، ولاوي، ويهوذا، ويشاجر، وزبولون (أبناء لية Leah) ، ودان، ونفتالي (وهما أبناء بلهاه أمة لية)، يوسف، وبنيامين (أبناء راحيل)، كاذ وأشر (أبناء أمة راحيل زلياء) وهم بنو إسرائيل. اليعقوبي: المصدر السابق، ج1، ص 31،

ابن كثير: البداية والنهاية: ج1، ص 238، Jean Christophe Attias et autre : Op.cit, pp 290-291.

(2)- محمد علي ربيع: المرجع السابق، ص 70.

ظلت التوراة على حالها مع بني إسرائيل إلى سنة 586 ق.م ، تاريخ غزو ملك بابل نبوخذنصر لمملكة إسرائيل وساق أعيانهم ووجهائهم أسرى إلى بابل، وكان اليهود - وهم في بابل- يعلمون أن التوراة تصرح بأنه سيأتي في المستقبل نبي من بني إسماعيل (عليه السلام) وإذا جاء يتركون التوراة ويعملون بالشريعة التي ستكون معه⁽¹⁾.

وقد ظن اليهود من شدة الهول الذي حلّ بهم جراء السبي البابلي، أن ملكهم أوشك على الزوال، وأن النبي المنتظر على وشك الظهور، وفكروا ما عسى أن يفعلوا؟

بعد تفكير عميق أتفق علماء اليهود وأخبارهم على تحريف التوراة، وكتابتها من جديد- وهم في بابل- فوضعوا نصوصا ملفقة تحتمل التأويل عن نبي بني إسماعيل، وأضافوا بعض التشريعات المناسبة لتخطيهم لبني جنسهم في المستقبل بما يوطد مكانتهم ويحفظ مكاسبهم وامتيازاتهم.

فعهد تحريف التوراة، إذن، يعود إلى أوائل القرن السادس قبل الميلاد، أي إلى سنة 586 ق.م تاريخ حملة نبوخذنصر على مملكة إسرائيل. ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أن القرآن الكريم يشير إلى أن التابوت لم يكن فيه إلا بقية مما ترك آل موسى وآل هارون منذ أيام شاول (طالوت في القرآن الكريم) وذلك في قوله تعالى⁽²⁾: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلَكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾.

وقد عرف العلماء اليهود ورجال الدين بعدة ألقاب منها:

الأخبار (جمع حبر) "HABER" وهي من الألفاظ المعربة عن العبرانية، وتعني العالم، وقد تعني الرجل الصالح⁽³⁾.

والربّانيون (جمع ربّاني) - RABONO - وتعني عالم في شريعة اليهود، والعالم بالحلال والحرام ، أما لقب " رابي " أو " ربّي " " Rabbi " فيشير إلى العالم أو المعلم ، وهو من الألفاظ العبرانية أو السريانية ويشير إلى مرتبة دينية أعلى من " الحبر"⁽⁴⁾.

وتتناول التوراة "كتب العهد القديم" أخبار العالم في عصوره الأولى، وأجياله القديمة منذ بدء

(1) - محمد علي ربيع: المرجع السابق، ص 70.

(2) - سورة البقرة: الآيتان 247 - 248.

(3) - الزبيدي: المصدر السابق، ج3، ص 117، ابن منظور: المصدر السابق، ج4، ص11، مادة (حبر).

(4) - رفائيل نخلة اليسوعي: المرجع السابق، ص 182، جواد علي: المرجع السابق، ج6، ص 552،

الخليقة، والشرائع اليهودية، وتاريخ نشأة الحكومات اليهودية ونبوءاتهم، والبشارة بالمسيح (عليه السلام)، كما يجد فيها الباحث بعض الأدعية التي تساعد اليهود على ممارسة الطقوس الدينية، وأداء العبادات، كمزامير داود^{(1)(*)}.

وقد سمي "العهد القديم"^(**) بهذه التسمية تمييزاً له عن "العهد الجديد"^(***)، ويقسمه أحبار اليهود في فلسطين إلى ثلاثة أقسام: التوراة "TORA"، أو الناموس، الأنبياء "NEVIIM" والكتب "أسفار الحكمة" "KETUVIM"⁽²⁾.

ونصوص العهد القديم تمثل النص الأساسي الذي يقوم عليه الدين اليهودي⁽³⁾. ومجموع العهدين يسمى باللغة اليونانية "ببيل" "BIBLE" بمعنى الكتاب المقدس.

ويشمل الناموس الأسفار الخمسة⁽⁴⁾، التي اعتبرت أسفاراً رسمية منذ منتصف القرن الخامس قبل الميلاد (حوالي 440 ق.م)⁽⁵⁾، وأطلق عليها منذ القرن الثاني لفظ "بانتاتيكوس - Pentateuch" باللغة اليونانية، "بنتاتوك - Pentateuch" باللغة الإنجليزية، وتعني "العهد القديم"⁽⁶⁾ "The old Testament".

(*) - مزامير داود: يرى بعض المستشرقين أنها من أصل عبراني "مزمور MAZMOR" وتعني المدائح والأناشيد، وتعرف عند العرب باسم "الزبور" أي الكتاب، فيقال زبر الكتاب أي كتبه. الفيروزآبادي: المصدر السابق، ج2، ص 37، محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص 12، جواد علي: المرجع السابق، ج6، ص 555.

(1) - محمد أبو زهرة: محاضرات في النصرانية، ص 37.
(**) - أول من أطلق لفظ العهد القديم على أسفار موسى الخمسة "البنتاتوك Pentateuch" هو بولس الرسول. رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس: 3 : 14 ، سعدون محمود الساموك: مقارنة الأديان، ط1، دار وائل للنشر، عمان، الأردن، 2004م، ص 190، محمود محمد محفوظ: المرجع السابق، ج3، ص 1678.

(***) - العهد الجديد: وهو كتاب المسيحيين المقدس يشمل الجزء الثاني من الكتاب المقدس "The New Testament" ويتكون من نصوص: الأناجيل، الرسائل، أعمال الرسل، ورؤيا القديس يوحنا "نهاية العالم".
Jean Christophe Attias et autre : Op.cit.pp 36- 37

(2) - حسن ظاظا: المرجع السابق، ص12.

(3) - سعدون محمود الساموك: المرجع السابق، ص 190.

(***) - ببيل "Bible": اشتق اليونان من اسم المدينة الفينيقية "ببيلوس Byblos" اسم الكتاب في لغتهم والذي سموه "Byblos" ومن هذه الكلمة نفسها اشتقت كلمة "Bible" الإنجليزية وأصبحت تطلق على الكتاب المقدس. ول ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة زكي نجيب محمود، ج2، دار الجيل، بيروت، 1971م، ص 314،
Jean Christophe Attias et autre : Op.cit , pp 36-37.

(4) - أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج1، ط1، المكتبة العصرية، بيروت، 2006م، ص 252.

(5) - محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص 11.

(6) - الفخري: المصدر السابق، ص 200، أحمد أمين: المرجع السابق، ج1، ص ص 329 - 330، محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ص 11-12.

وتغطي هذه الأسفار فترة من التاريخ تبدأ مع بدء الخليقة وتنتهي بوفاة موسى^(*) (عليه السلام)⁽¹⁾. أما القرآن الكريم فقد سكت عن ذكر وتحديد أسفار التوراة⁽²⁾، وهذا معناه أن لا وجود لها من الناحية الموضوعية الدينية.

والعهد القديم هو القسم الأول من الإنجيل المسيحي والذي تتمجد به الكنيسة⁽³⁾. يؤيد ذلك ما جاء في إنجيل متى ما نصّه: قال المسيح: " أنتظنون أنني جئت لأنقض الناموس والشريعة، ما جئت لأنقض وأبطل التوراة، فالحق أقول لكم: إن زوال السموات والأرض أيسر من زوال حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس"⁽⁴⁾.

يتضح من النص السابق أن المسيح لم يأت لهدم شريعة موسى، فالأديان السماوية كلها كانت تدعو إلى التوحيد، واليهود سبق لهم وأن آمنوا بالتوحيد، فالوحي والتوحيد مشترك بين هذه الديانات، لذلك كان ذلك التواصل بين الأنبياء والرسول.

ويمكن القول أنه لا توجد أديان سماوية متعددة، بل توجد شرائع متعددة نسخ اللاحق منها السابق، إلى أن استقرت الشريعة السماوية الأخيرة. فالدين الحق واحد، وهو الذي بعث به كل الأنبياء والرسول، أما الأحكام التشريعية فتختلف من رسول إلى آخر حسب ظروف الأمة التي بعث فيها.

لذلك نجد المسيح يقول في موضع آخر: " قال صاحب التوراة: النفس بالنفس، والعين بالعين، والأنف بالأنف، والسن بالسن، والجروح قصاص. وأنا أقول: إذا لطمك أخوك على خدك الأيمن، فضع له خدك الأيسر"⁽⁵⁾.

والشريعة الأخيرة التي جاء بها النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) قد ضمت الأمرين معاً، في قوله تعالى⁽⁶⁾: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾، وتذكر آية أخرى القصاص كما ورد في شريعة موسى (عليه السلام) في قوله تعالى⁽⁷⁾: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ

(*)-تذكر المصادر اليهودية أن موسى توفي حوالي ألف وثلاثمائة (1300 ق.م) قبل الميلاد، على جبل " نيبو " بأرض مؤاب في شرق الأردن. سفر العدد : 21 : 11-14، Jean Christophe Attias et autre : Op.cit, p 9190.

(1) - حسن ظاظا: المرجع السابق، ص 14.

(2) - جواد علي: المرجع السابق، ج6، ص 554.

(3) - سعدون محمود الساموك: المرجع السابق، ص 24.

(4) - إنجيل متى: 5 : 17 - 18، الشهرستاني: المصدر السابق، ج1، ص 213، أحمد سوسة: المرجع السابق، ص 53.

(5) - عصام الدين محمد علي: وقفة بين أصحاب الديانات وأنصار المذاهب، منشأة المعارف، الاسكندرية، مصر ، 1990م، ص 209.

(6) - سورة البقرة: الآية 178.

(7) - سورة المائدة: الآية 45.

بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفِ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴿١﴾، أما خُلِقَ العَفْو الذي ورد على لسان المسيح- المذكور آنفا- فقد ذكره القرآن الكريم في قوله تعالى (١): ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾.

و يلاحظ الباحث وجود اختلاف في وجهات النظر بين أصحاب الديانات السماوية في التوراة، فاليهود أنفسهم يتفقون على أسفار موسى الخمسة، ولكنهم يختلفون على ما عداها من أسفار العهد القديم.

والسامريون لا يعترفون إلا بالأسفار الخمسة، وقد يضيفون إليها السفر السادس أي سفر يشوع بن نون، وبذلك تتألف النسخة السامرية من ستة أسفار فقط (٢).

ويرى عيد المنعم الحفني (٣) أن النسخة السامرية تشمل سبعة كتب فقط من العهد القديم، وهي كتب موسى الخمسة، وسفر يشوع، وكتاب القضاة، والسامريون لا يسلمون ببقية الكتب من العهد القديم، ويعتبر الكثير من الباحثين أن النسخة السامرية أفضل من العبرانية واليونانية رغم التناقض الموجود بين النسخ الثلاث.

أما بقية اليهود فيؤمنون بكل أسفار العهد القديم وعددها تسعة وثلاثون (39) سفر (٤). ولعل من الأهمية بمكان، في دراستنا التاريخية، الإشارة إلى الخلاف في الترتيب الذي وضعت به الأسفار في العهد القديم اليهودي، عن الترتيب الذي وضعت به نفس الأسفار في العهد القديم المسيحي، ذلك أن اليهود في فلسطين قد راعوا التسلسل التاريخي للأسفار، وأزمنتها التاريخية، الأمر الذي أغفله يهود الإسكندرية، ومن ثم فقد قسم يهود فلسطين التوراة إلى ثلاثة أقسام هي: الناموس والأنبياء والكتابات، أما يهود الإسكندرية فقد اتبعوا الترتيب اليوناني، ولما كانت الكنيسة المسيحية قد استخدمت اللغة اليونانية وليس اللغة العبرية، فإنها اتبعت الترتيب الاسكندري وليس الفلسطيني، وهو الترتيب الذي نجده في الترجمات العربية للعهد القديم، والذي يختلف كثيرا عن الترتيب اليهودي. من هنا نشأ الخلاف في ترتيب أسفار العهد القديم بين اليهود والنصارى (٥).

لا شك أن للإسلام الحنيف رأيا يختلف كثيرا عن رأي اليهود والنصارى في التوراة. فالإسلام يؤمن بموسى (عليه السلام) كنبى ورسول وكليم الله عز وجل، وأن التوراة (٥) كتاب منزل عليه عن طريق

(١) - سورة البقرة: الآية 237.

(٢) - حسن ظاظا: المرجع السابق، ص 206.

(٣) - موسوعة فلاسفة ومتصوفة اليهودية، ص 95.

(٤) - محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ج3، ص 13.

(٥) - محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ج3، ص 17.

(*) - ذكرت التوراة في القرآن الكريم ثمانية عشرة (18) مرة: سورة آل عمران : الآيات: 2، 48، 50، 65، 93، سورة المائدة: الآيات 43، 44، 46، 46، 66، 68، 110، سورة الأعراف: الآية: 157، سورة التوبة: الآية: 111، =

الوحي، فما ورد في القرآن الكريم لا ينطبق تماما مع كتاب اليهود المتداول حاليا، والمعروف بالعهد القديم بأقسامه الثلاثة: الناموس "TORA"، والأنبياء "NEVIIM" والكتابات "KETUVIM" (1). فالكتاب الموجود حاليا بين أيدي اليهود محرف وملفق من قبل أحبارهم وعلمائهم للحفاظ على مكاسبهم المادية، ومكانتهم الاجتماعية، وامتيازاتهم، وفي ذلك يقول الله تعالى (2): "من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه".

ومن البديهي أن التوراة شيء، والعهد القديم شيء آخر، فالتوراة لا تعدو أن تكون جزءا من العهد القديم، بل هي أسفار من جملة أسفار العهد القديم البالغ عددها تسعة وثلاثون (39) سفرا. ولذلك يتضح لنا أن حديث القرآن الكريم عن توراة موسى لا ينطبق أبدا على كتاب اليهود المتداول بينهم الآن والمعروف بالعهد القديم.

فقد روي عن النبي (صلي الله عليه وسلم) أنه رأى يوما ورقة من التوراة في يد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأمره بإلقائها لما بها من أباطيل وما فيها من تحريف، ثم قال (صلي الله عليه وسلم): " ألم أتكم بها بيضاء نقية، والله لو أن موسى كان حيا ما وسعه إلا إتباعي" (3).

وهكذا نرى أن الإسلام يخالف رؤية اليهود والنصارى إلى التوراة، وهو بمصدره-الكتاب والسنة- يقر بأن التوراة وليس العهد القديم كله، كتاب منزل من عند الله على نبيّه موسى (صلي الله عليه وسلم) (4)، إلا أن اليهود حرفوه وبدلوه، ثم زعموا بعد ذلك أنه من عند الله، قال تعالى (5): ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾.

والسؤال الذي يفرض نفسه في هذا المضمرة: إذا كانت التوراة المتداولة اليوم ليست هي التوراة المنزلة على موسى؟ فأين هي التوراة الأصلية؟ وما مصيرها، ومتى كتبت؟. اختلف الباحثون حول التوراة الأصلية ومصيرها، ويبدو من خلال اطلاعي على بعض المصادر والمراجع التي اهتمت بالديانة اليهودية وكتبها، أن جلّ الباحثين يتفقون على أن التوراة ظلت

= سورة الفتح: الآية 29، سورة الصف: الآية 6، سورة الجمعة: الآية 5. محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الأندلس، بيروت، (د.ت)، ص 158.

(1) - حسن ظاظا: المرجع السابق، ص 12، محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ج3، ص ص 17-18.

(2) - سورة النساء: الآية 46، سيد قطب: في ظلال القرآن، ج2، ط2، دار الشروق، بيروت، 1986م، ص ص 675-676، الزمخشري: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج1، ط1، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، 1977م، ص ص 530-531، القرطبي: المصدر السابق، ج5، ص ص 242-243، ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج2، ط2، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت، 1980م، ص305.

(3) - ابن كثير: البداية والنهاية، ج1، ص 198، محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ج3، ص21.

(4) - محمود السيد: المرجع السابق، ص 216.

(5) - سورة الكهف: الآية 5.

على حالها مع بني إسرائيل إلى سنة خمسمائة وست وثمانين قبل الميلاد، (586 ق.م) ، تاريخ السبي البابلي، فانتاب اليهود وأحبارهم- وهم في بابل- الخوف من زوال ملكهم وزوال التوراة وشريعته، هذه الشريعة التي تفضلهم على سائر البشر- في زعمهم-، وأنهم سيخضعون للشريعة التي سيأتي بها النبي المنتظر من آل إسماعيل (عليه السلام) ⁽¹⁾، لذلك قرروا تحريف التوراة وإعادة كتابتها من جديد، فتكونت لجنة من العلماء والكهنة برئاسة أحد كبار الكهان وهو عزرا الوراق (الناسخ)، وكان ذلك في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد (حوالي 444 ق.م) ⁽²⁾.

واجتمع من اللاويين لمدة أسبوع قرأوا وتدارسوا شريعة موسى ثم أقسموا أن يطيعوا هذه الشرائع ويذعنوا لها وأن يتخذوها دستوراً لهم إلى الأبد، فكتبوا هذه التوراة التي طالها التحريف والتبديل في مدينة بابل في فترة السبي البابلي، وأطلقوا عليها الأسفار الخمسة أو "البناتوك" ⁽³⁾ وهم متأثرين بقوانين حمو رابي ⁽⁴⁾ فظهرت بذلك التوراة العبرية المتداولة اليوم بين اليهود.

ولا يرى الباحث حرجاً من القول أن التوراة قد كتبت من طرف الكاهن عزرا ذلك أن القرآن الكريم ذكر عزير وأنه ليس المقصود منه عزرا قال تعالى: "وقالت اليهود عزير ابن الله" ⁽⁴⁾ فعزرا ليست له علاقة بعزير على الإطلاق لا من الجانب التاريخي ولا اللغوي، لأن عزير هو تعريب لعازار، وأما عزرا فإنه إذا عُرب لم يتغير حاله، وأن عزرا عند اليهود ليس بنبي وإنما كاتب وكاهن ⁽⁵⁾. ولما عاد عزرا من بابل مع المسيبيين بالتوراة الجديدة سنة 539 ق.م حدث نزاع بينه وبين السامريين الذين رفضوا الاعتراف بهذه التوراة واعتبروها محرفة ولا تمت بصلة إلى أسفار موسى الخمسة. فانفصلوا عن العبرانيين إلى اليوم.

تذكر نصوص التوراة (سفر الخروج Exodus) أنها نزلت على موسى (عليه السلام) في جبل طور سيناء، وقد تلقاها مشافهة من ربه-بادئ الأمر- ثم يأمره الله أن يصعد إلى الجبل، ويصدع لأمر ربه ويمكث هناك أربعين يوماً، ثم يعطى بعدها لوحى الحجر مكتوبين بأصبع الله ⁽⁶⁾. ولما هبط موسى من الجبل وأتى قومه باللوحين، وجدهم عادوا إلى ضلالهم، إلى عبادة العجل، يرقصون وهم عراة

(1) - يحي محمد علي ربيع: المرجع السابق، ص ص 70 - 71.

(2) - محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ج3، ص ص 33-34.

(3) - المكان نفسه.

(*) - حمو رابي: (1792 - 1750 ق.م) سادس ملوك الدولة الآشورية، يعدّ عصره، العصر الذهبي لبابل، موحد دولة ما بين النهرين، اشتهر بشريعته التي عرفت باسمه وموادها 282 مادة. محمود محمد محفوظ: المرجع السابق، ص 1024. محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ج3، ص 34.

(4) - سورة التوبة: الآية 30.

(5) - يحي محمد علي ربيع: المرجع السابق، ص ص 84 - 85.

(6) - اليعقوبي: تاريخه، ج1، ص 38.

أما "العجل الذهبي"، كان السامري^(٥) قد صنعه قد صنعه لما كان موسى في جبل الطور يناجي ربه، فقام موسى الذي انتابه غضب شديد بإلقاء الألواح فكسرها كما نظر إلى العجل يخور فكسره وقيل أحرقه بالنار ثم ذراه في البحر^(١). قال تعالى: ﴿وَأَتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَمْ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾^(٢).

ثم قام موسى ومعه اللاويين فجردوا سيوفهم وقتلوا ممن عبدوا العجل، قال اليعقوبي^(٣) وول ديورانت^(٤) ثلاثة آلاف، وقال ابن كثير^(٥) سبعين ألفاً، لذلك قال تعالى^(٦): ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجَلَ سَيِّئًا لَّهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

ثم يوحي الله إلى موسى بأن ينحت لوحين من حجر حتى يكتب الله عليهما ما كان على اللوحين الأولين، وأن يذهب بهما إلى جبل سيناء، وألا يدع أحدا يراه حتى الغنم والبقر، ويمكث موسى بالجبل أربعين يوماً لم يأكل خبزاً ولم يشرب ماءً، فكتب على اللوحين الوصايا العشر والتي تعرف عند المسلمين بالصحائف العشر قبل التوراة^(٧). إلا أن الذي كتبها هذه المرة هو موسى (عليه السلام) وليس ربّ موسى^(٨).

ويذكر نجيب ميخائيل إبراهيم^(٩) أن الوصايا العشر كتبها الله بخط يده، أما التعليمات فقد ألقاها على موسى مشافهة، ثم سجلها كتابة، وهو يدري نفسية قومه، بأنهم سحر فون التوراة بعد موته، لذلك أحضر جميع شيوخ أسباطهم وأشهد عليهم السماء والأرض. وقد ورد في الأثر عن النبي (عليه السلام) أنه قال: "أن الله خلق آدم بيده، وخلق جنة عدن بيده، وكتب التوراة بيده، فثبت لها بذلك اختصاص"^(١٠).

(٥) - السامري: إسرائيلي ضلّ قومه في غياب موسى، صنع لهم عجلاً من ذهب من حليهم، عبده برغم تحذير هارون لهم. وقد ذكره القرآن الكريم. ابن حزم: المصدر السابق، ص 126. ابن منظور: المرجع السابق، ج 4، ص 380. محمود محمد محفوظ: المرجع السابق، ص 1294، سورة طه: الآيتان: 83، 98.

(١) - ابن كثير: قصص الأنبياء، ص ص 296 - 297.

(٢) - سورة الأعراف: الآية 148.

(٣) - تاريخ اليعقوبي، ج 1، ص ص 38-39.

(٤) - قصة الحضارة، ج 2، ص 338.

(٥) - قصص الأنبياء، ص 298.

(٦) - سورة الأعراف: آية 152.

(٧) - الفخري: المصدر السابق، ص 199.

(٨) - محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ج 3، ص 23، يحي محمد ربيع، المرجع السابق، ص 70.

(٩) - مصر والشرق الأدنى القديم، ط 2، دار المعارف، القاهرة، 1964، ص 215.

(١٠) - الفخري: المصدر السابق، ص 200.

المطلب الثاني: كتب اليهود المقدسة:

ويلاحظ الدارس أن الكتب المقدسة عند اليهود تنقسم إلى قسمين: كتب العهد القديم، وكتب العهد الجديد.

أولاً : كتب العهد القديم:

وتطلق على التوراة بأسفارها الخمسة والتي أنزلت على موسى (عليه السلام) بطور سيناء وتبدأ بظهور الخليقة وتنتهي بوفاة موسى، كما ذكرت من قبل- وتتابع هذه النسخ الخمس على النحو الآتي:

1 - سفر التكوين أو الخلق " Genesis": ويتضمن خمسين فصلاً أو إصحاحاً⁽¹⁾، ويشمل قصة الخلق، خلق السموات والأرض والإنسان وتاريخ العالم، ولذلك يسمى بالعبرية " سفر الخلق"، يحكي قصص آدم ونوح والطوفان وينتهي بوفاة موسى عليه السلام⁽²⁾.

2- سفر الخروج: ويسمى باللغة اللاتينية "Exodus": يقع في أربعين إصحاحاً⁽³⁾ ويتناول قصة اضطهاد بني إسرائيل في مصر بعد يوسف (عليه السلام) حتى هجرة موسى (عليه السلام) وخروجه من مصر "أرض العبودية"، ودخول اليهود شرقي الأردن، كما يتناول مرحلة التيه في صحراء سيناء، والتي استغرقت أربعين سنة، ويشمل طائفة من الشرائع والقوانين تسمى " قانون العهد"⁽⁴⁾.

3- سفر اللاويين⁽⁵⁾ " LEVITICUS": ويتألف من سبعة وعشرون إصحاحاً، ويسمى "سفر الأحبار" ويحتوي على معظم التشريعات والأحكام والوصايا، خاصة ما تعلق منها بالأضحية والقرابين والمحرمات من الحيوانات والطيور⁽⁵⁾.

وكانت مهمة الكهانة موكولة إلى سبط " لاوي"، ويطلق علماء الشريعة الإسرائيلية على سفر اللاويين اسم " القانون الكهنوتي"⁽⁶⁾.

(1) - يوسف عيد: موسوعة الأديان السماوية، والوضعية (الديانة اليهودية)، ط1، دار الفكر، بيروت، 1995، ص96.

(2) - حسن ظاظا: المرجع السابق، ص 14.

(3) - يحي محمد علي ربيع: المرجع السابق، ص20، رحمة الله الهندي: إظهار الحق، ج1، ط1، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1408هـ - 1988م، ص 55.

(4) - محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ج3، ص ص 22-23.

(*) - اللاويون: هم الذين ينحدرون من لاوي ثالث أبناء يعقوب ولما، وهو اسم القبيلة التي ينتمي إليها موسى وأخوه هارون وهي سبط لاوي بن يعقوب، وكل الكهنة ينتمون إلى هذه القبيلة حسب اشتراط التوراة، وهم الذين رفضوا عبادة العجل، لذلك شاركوا موسى في معاقبة المذنبين، وينطق اليهود حالياً هذا الاسم " ليقى" Levi- Lewi"، سفر التكوين: 29: 34، سفر الخروج: 32: 26-29، حسن ظاظا: المرجع السابق، ص 15، رفائيل نخلة اليسوعي: المرجع السابق، ص 213، Jean Christophe Attias et autre : Op.cit, pp 157-158.

(5) - يوسف عيد : المرجع السابق، ص 96.

(6) - أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج1، ص 252.

4- سفر العدد "NUMERI": ويقع في ستة وثلاثون إصحاحاً⁽¹⁾، ويسمى بهذه التسمية لأنه حافل بالتعداد الدقيق والإحصائيات التي تتعلق بقبائل وأسباط بني إسرائيل وجيوشهم وأموالهم، وأرقام عن الذبائح، وعدد المدن والقرى، وإحصاء تفصيلي للشعب الراحل مع موسى في سيناء، كما يشمل بعض الأحكام الشرعية والفتاوي الفقهية⁽²⁾.

5- سفر التثنية: أو "الإعادة والتكرار" ويعرف باللغة اللاتينية باسم "Deuteronomium" ويتضمن أربعة وثلاثون إصحاحاً⁽³⁾.

ويسمى كذلك "تثنية الاشرع" أي إعادة الشريعة وتكرارها على بني إسرائيل مرة ثانية عند خروجهم من سيناء، ووصولهم إلى سهول النقب وجنوب الأردن في صحراء مؤاب⁽⁴⁾، وفيه كل أحكام الشريعة اليهودية الخاصة بالحروب والسياسة والاقتصاد والعبادات والمعاملات⁽⁴⁾. وقد عرضت فيه الوصايا العشر والأطعمة الحلال والحرام، وعن ملك إسرائيل، وينتهي بوفاة موسى ودفنه في جبال مؤاب⁽⁵⁾.

وقد ورد في آخر إصحاح من هذا السفر وفاة موسى ما نصه: "فمات هناك موسى، عند الرب، في أرض مؤاب، حسب قول الرب، وتمّ دفنه في الجواء في أرض مؤاب، تجاه بيت فاعور، ولم يعرف أحد قبره إلى يومنا هذا"⁽⁶⁾.

ثانياً: كتب العهد الجديد:

وهي الكتب التي كتبت بالإلهام بعد عيسى (عليه السلام) وهي قسمان:

قسم متفق عليه ويشمل عشرون كتاباً أهمها الأناجيل الأربعة وهي:

1- إنجيل متى، 2- إنجيل مرقس، 3- إنجيل لوقا، 4- إنجيل يوحنا.

وأهمية هذه الأناجيل الأربعة في العهد الجديد تشبه الأسفار الخمسة في العهد القديم⁽⁷⁾.

(1) - يوسف عيد: المرجع السابق، ص 97.

(2) - الطاهر ذراع: المجتمع العربي القديم من خلال كتابات أصحاب السير والكتاب القدامى، ج2، ص330.

(3) - حسن ظاظا: المرجع السابق، ص16، يوسف عيد: المرجع السابق، ص ص 97-98.

(*) - يقع إقليم مؤاب شمال وادي الحساء الذي يفصله عن أدوم، والمعروف في التوراة بوادي زارد، وقد امتدت مملكة مؤاب من ناحية الشرق من البحر الميت حتى الصحراء، واتسعت شمالاً حتى وادي الموجب، وهو نهر أرنون في سفر العدد. سفر العدد: 21: 11-14. ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج5، ص31.

(4) - محمد علي ربيع: المرجع السابق، ص 20.

(5) - يوسف عيد: المرجع السابق، ص 98.

(6) - سفر التثنية: 34: 5-6.

(7) - محمد أبو زهرة: محاضرات في النصرانية، ص 37.

وفي هذا السياق يقول رحمة الله الهندي⁽¹⁾:

"ولفظ الإنجيل مختص بكتب هؤلاء الأربعة، وقد تطلق مجازا على مجموع كتب العهد الجديد، وهذا اللفظ كعرب عن الأصل اليوناني "إنجيلوس".

ويبدو أن الأناجيل الأربعة تشبه العهد القديم أي أسفار موسى الخمسة، وإذا كانت هذه يطلق عليها "الأناجيل" فإن الأخرى يطلق عليها "التوراة" والشبه هنا من حيث الأهمية، فكلاهما يمثل القطب والمركز بالنسبة للعهدين".

وفي هذا السياق يقول محمد أبو زهرة⁽²⁾: "مكان الأناجيل في النصرانية مكان القطب والعماد، وإذا كانت شخصية المسيح وما أحاطوا بها من أفكار هي شعار المسيحية، فإن هذه الأناجيل هي المشتملة على أخبار تلك الشخصية، من وقت الحمل إلى وقت صلبه في اعتقادهم، وقيامه من قبره بعد ثلاث ليال، ثم رفعه بعد أربعين ليلة، وهي بهذا تشمل على عقيدة ألوهية المسيح والصلب والفداء، أي أنها تشتمل على لب المسيحية في نظرهم بعد المسيح ومعناها، وهذه الأناجيل الأربعة هي التي تعترف بها الكنائس، وتقرها الفرق المسيحية وتأخذ بها".

والحق أنه يخطئ من يعتقد أن الأناجيل شكلت بمجرد تحريرها الكتب المقدسة الأساسية للمسيحية.

لقد كانت السلطة السائدة في ذلك الوقت، على الأقل في القرون الأولى من العهد المسيحي، التراث الشفهي الذي كان ينقل أقوال المسيح وتعاليم الحواريين، فضلا عن ذلك، فقد كانت هذه الأناجيل متناقضة فيما يتعلق بنسب المسيح وولادته ونشأته، والفترة الزمنية لبعثته، وفترة مكوثه بالجليل والناصره والقدس، ثم قصة صلبه وبعثه مرة أخرى بين الحواريين. إذن من يجب أن نصدق؟ أنصدق متى أم مرقس، أم لوقا أم يوحنا؟

الرسائل: إضافة إلى الأناجيل الأربعة نجد ثلاث عشرة رسالة كتبها بولس، ورسائله لها شأن محترم في المسيحية، حيث يطلق عليها "الرسائل التعليمية"^(*) لما اشتملت عليه من مبادئ في المعتقدات وبعض الشرائع العملية، والرسالة الأولى لبطرس، والرسالة الأولى ليوحنا، وبذلك يكون العهد قد اشتمل على عشرون كتابا⁽³⁾ - كما ذكرت آنفا - .

أما القسم الثاني من العهد الجديد، وهو المختلف فيه، فيشمل سبعة كتب وبعض الفقرات من

(1) - إظهار الحق، ص 56.

(2) - محاضرات في النصرانية، ص 37.

(*) - وتعرف كذلك بالأسفار التعليمية، وتعنى بالناحية التعليمية التي تبين بها الديانة، وهي اثنتان وعشرون رسالة، وهي أعمال الرسل، وتتسب إلى لوقا، وأربع عشرة رسالة كتبها بولس، ورسالة كتبها يعقوب، ورسالتان كتبهما بطرس، وثلاث كتبها يوحنا، ورسالة كتبها يهوذا. محمد أبو زهرة: محاضرات في النصرانية، ص 63.

(3) - يحي محمد علي ربيع: المرجع السابق، ص 25.

الرسالة الأولى ليوحنا⁽¹⁾.

ثالثا: التلمود^(*):

التلمود في اللغة: مشتق من فعل "لمد - Limmed" بمعنى علم، أو ترجع إلى أصلها "لاماد - Lamad" بمعنى تعليم أو معلم، وهي كلمة عبرانية بمعنى التعليم والمعرفة⁽²⁾.

واصطلاحا: كتاب ديني مقدس لدى اليهود، يقف على قدم المساواة مع التوراة - في نظر اليهود - ويعتبرونه موسوعة الديانة اليهودية، ويتضمن تعاليم الديانة والشريعة والآداب والتاريخ والقصص الشعبي، ويغطي كل جوانب النشاط في حياة اليهود⁽³⁾.

وبذلك فهو وسيلة لتجميع اليهود وخلق عناصر الالتقاء بينهم فكريا وروحيا، رغم تشتتهم في أرجاء العالم. في حين يرى آخرون أن التلمود يعني مجموع التعاليم والشروح والتفاسير، ومجموع الشرائع اليهودية التي نقلها علماء اليهود عبر الأجيال المتعاقبة شرحا وتفسيرا للتوراة⁽⁴⁾. ويتألف التلمود من قسمين رئيسيين هما:

أولا: المشنا أو (المشنة) ()** "Mishnah": وهي النص أو المتن⁽⁵⁾، وتطلق على مجموع الشرائع اليهودية المروية على الألسنة لذلك سميت "التعاليم أو التوراة الشفهية"⁽⁶⁾، وتأتي بعد التوراة في المقام الثاني مباشرة.

ويعتقد اليهود أنها تعود إلى عهد موسى (عليه السلام) والحقيقة التاريخية أن بداية روايتها ترجع إلى القرن الخامس قبل الميلاد، وبعد السبي البابلي، وتعرف باسم "حلقوت"^(***)، وتعتبر غالبية اليهود

(1) - رحمة الله الهندي: المرجع السابق، ص 57.

(*) - التلمود: "TALMUD" كتاب اليهود المقدس، وأصل الكلمة عبرانية وتعني التعليم والمعرفة، ويتضمن تعاليم وشروح "المشنا" التي وضعها علماء وأحبار أكاديميات فلسطين وبابل والذين يعرفون بـ "الأمرائيم - Amoraïm" فؤاد حسنين علي: المرجع السابق، ص 98، Jean Christophe Attias et autre : Op.cit, p . 281

(2) - رفائيل نخلة: المرجع السابق، ص 211. ويل ديورانت: المرجع السابق، ج 14، ص 15.

(3) - محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ج 3، ص ص 317-318.

(4) - أحمد سوسة: المرجع السابق، ص 183. أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج 1، ص 252.

(**) - المشنة: "Mishnah" كلمة عبرانية من أصل "Shnh" وتعني التكرار أو الشريعة المكررة، لأن شريعة موسى المعروفة في الأسفار الخمسة وردت مكررة في هذا الكتاب مع تفسير ما التبس منها، وقد نشر يهوذا الأمير وأذاع المشنة حوالي سنة مئتين (200م) ميلادية. حسن ظاظا: المرجع السابق، ص 66. محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ج 3، ص 330، Jean Christophe Attias et autre : Op.cit, p189

(5) - أحمد سوسة: المرجع السابق، ص 183.

(6) - حسن ظاظا: المرجع السابق، ص ص 66-67. الطاهر ذراع: المجتمع العربي القديم، ج 2، ص 331.

(***) - حلقوت: "Halakha" كلمة عبرية تعني مجموعة من تقاليد اليهود في شتى مناحي الحياة اليهودية مع بعض الآيات من التوراة. أحمد سوسة: المرجع السابق، ص 183، Jean Christophe et autre : Op.cit, p189

وخاصة منهم الأرثوذكسية^(*)، أن التلمود كتابا منزلا يضعونه في نفس المرتبة مع التوراة، ويعتقدون أن الله أعطى موسى التوراة في جبل طور سيناء مدونة، لكنه أرسل على يده التلمود شفاهاً، لذلك سميت التوراة الشفوية⁽¹⁾ - كما ذكرت سابقاً-

ثانياً: الجمارا^(**) Gemara :

ويقصد بها الشروح أو الاستكمال، ومجموع المناظرات والتعاليم والتفاسير التي وضعت في المدارس الدينية العليا في العراق⁽²⁾.

وقد تركزت جهود العلماء وأخبار اليهود في هذه المدارس على شرح نص المشنة في ثلاث مراكز أساسية للبحث الديني وهي: نهر دعة^(***)، وسورا^(****)، وعانة^(*****)⁽³⁾.

أما في فلسطين فكانت هناك ثلاثة مراكز شمال البلاد وهي: طبرية^(*****)، وقيسارية^(*****)،

(*)-الأرثوذكسية: "Orthodoxe" لفظة يونانية تتكون من: "Orthos" بمعنى الحق أو المستقيم، و"Doxa" بمعنى الرأي أو المذهب، ومعناها المذهب أو الرأي الحق أو المستقيم، لتمييزها عن الكاثوليكية "Catholique" وهي كلمة يونانية "Katholikos" والتي تعني العام أو العالمي أي أنها الديانة العامة العالمية. أحمد سوسة: المرجع السابق، ص 108، شاهير زيب أبو شريخ: موسوعة الأديان والمعتقدات، ط1، دار صفاء، عمان، الأردن، 2004م، ص70.

(1)- أحمد سوسة: المرجع السابق، ص ص 183-184.

(**)-الجمارا: "Gemara" وتعني التكملة أي تكملة شرح نص المشنة، وقد كتب نص الجمارا بالبابلية وهي لهجة آرامية قريبة من اللغة السريانية. حسن ظاظا: المرجع السابق، ص 83،
Jean Christophe Attias et autre. Op.cit , p 281.

(2)- أحمد سوسة: المرجع السابق، ص 183.

(***)-نهر دعة "Nehardea": تضاربت الآراء في تعيين موقع هذه المدينة، وهي من مدن التلمود المهمة، تقع في الفرات الأوسط إلى الجنوب الشرقي من مدينة الرها "Edessa"، ويعني اسمها "نهر الحكمة" أو "نور الحكمة"، تقع على مسيرة يومين من سورا (شمالاً)، أحمد سوسة: المرجع السابق، ص ص 205-206.

(****)-سورا "Soura": موضع بالعراق من أرض بابل وهي مدينة السريانيين. ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج3، ص316.

(*****)-عانة: بلدة بين الرقة وهيت تعد من أعمال الجزيرة وهي مشرفة على الفرات، وكانت تسمى قديماً "Pumpaditha". المصدر نفسه، ج4، ص 81.

(3)- حسن ظاظا: المرجع السابق، ص 82.

(*****)-طبرية "Tiberiade": اسم أعجمي، وطير في العربية بمعنى قفز واختبأ، تقع طبرية في الإقليم الثالث، وهي بلدة مطلة على البحيرة المعروفة باسمها، وجبل الطور مطل عليها، وهي أعمال الأردن في طرف الغور، وهي عمارة قديمة من عمارة سليمان بن داود، وهو هيكل يخرج الماء من صدره، وقد كان يخرج من اثني عشرة عيناً كل عين مخصوصة بمرض. ياقوت الحموي: المرجع السابق، ج4، ص ص 19-20.

(*****)-قيسارية "Cesarée" بلدة على ساحل بحر الشام تعد من أعمال فلسطين بينها وبين طبرية ثلاثة أيام كانت قديماً من أعيان أمهات المدن. ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج4، ص 478.

وصفورية^(*)(1).

وقد كتب نص المشنا باللغة العبرية الجديدة، وهي متطورة عن التي كتب بها العهد القديم، في حين كتب نص الجمارا بالبابلية، وهي لهجة آرامية يهودية قريبة من اللغة السريانية⁽²⁾. لذلك ظهرت الجمارا في بيئتين مختلفتين، هما فلسطين والعراق، مما أدى إلى ظهور تلمودان أو نسختان من التلمود هما:

1- التلمود الفلسطيني: ويسميه اليهود "التلمود الأورشليمي"^{(**)(3)}، تبركا بالقدس "أورشليم"، أما اليهود فيطلقون عليه تسمية "تلمود أرض إسرائيل" أو "تلمود أهل الغرب"⁽⁴⁾، على اعتبار أن فلسطين تقع غربا بالنسبة للعراق.

ويذكر محمد بيومي مهران⁽⁵⁾ أن التلمود الفلسطيني كتب في بداية القرن الرابع الميلادي، بعد أن تحولت فلسطين إلى عاصمة مسيحية عقب تنصر قسطنطين^(***) واعترافه بالمسيحية كديانة رسمية للدولة الرومانية سنة ثلاثمائة وثلاثة عشر (313) للميلاد، والنظر إلى اليهودية كديانة هرطقة. وقد ظل التلمود الفلسطيني ناقصا لا يشرح إلا بعض المشنة، بسبب الظروف التي عرفتتها فلسطين، وتضاعل المدارس الدينية التلمودية وانصرافها عن مهامها في الشرح والتعليق، عقب الخراب الثاني للهيكل وتشتت اليهود سنة سبعين (70) ميلادية.

(*)-صفورية: بلدة من نواحي الأردن بالشام وهي قرب طبرية، وكانت تسمى على أيام اليونان " سفوريس " "Sephoris". المصدر نفسه، ج3، ص 470.

(1)- حسن ظاظا: المرجع السابق، ص 82.

(2)- ويل ديورانت: المرجع السابق، ج14، ص 15، أحمد سوسة: المرجع السابق، ص ص 183-184، حسن ظاظا: المرجع السابق، ص 83.

(**)-سمي بذلك تبركا بأورشليم (القدس)، وقد كتب خلال القرن الرابع الميلادي بلغة آرامية غريبة من طرف سكان طبرية لذلك يعرف بالتلمود الغربي. محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ج1، ص 329، الطاهر ذراع: الكجتمع العربي القديم، ج2، ص 333.

(3)- محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ج3، ص 338.

(4)- حسن ظاظا: المرجع السابق، ص 83.

(5)- بنو إسرائيل، ج3، ص 329.

(***)-قسطنطين: "Caius Flavius Valerius Constantinus" (270 أو 288 - 337م) إمبراطور روماني من 306م إلى 337م، اعتلى العرش بعد وفاة والده، ولقب " قيصر César " يعرف بأمه هبلانة في جميع بلاد الروم، كان ملكه ثلاثا وثلاثين سنة وثلاثة أشهر، اعتنق المسيحية سنة 313م، نقل عاصمته إلى بيزنطة وسماها القسطنطينية وهو الذي بناها لثلاث سنين خلت من ملكه، والروم تسميها " اسطمبول Istanbul " أي مدينة الملك، دعى إلى مجمع نيقية " Nicaea " سنة 325م الذي حرم أريوس ووضع شرائع النصرانية. ابن الأثير: المصدر السابق، ج1، ص ص 329-330، ويل ديورانت: المرجع السابق، ج11، ص 384، محمود محمد محفوظ: المرجع السابق، ج3، ص 1380، P. Larousse Illustré, Op.cit, pp 1195- 1196.

2- التلمود البابلي: ويعرف بـ "التلمود الشرقي"⁽¹⁾ تذكيراً بقوة البحث الديني في العراق منذ السبي البابلي على أيام بختنصر، ذلك أن العراق كانت تعرف في ذلك الوقت باسم "بابل". كما يطلق عليه "تلمود أهل الشرق" تمييزاً له عن تلمود أهل الغرب، وهو التلمود الفلسطيني، وحجم التلمود البابلي أوسع من حجم التلمود الفلسطيني بأربعة أضعاف، إذ يقع في 5894 صفحة، ويطلع عادة باثني عشر جزءاً، وقد كتب خلال القرن الخامس قبل الميلاد⁽²⁾. وظل أحبار "الصابورائيم"⁽³⁾ يراجعون ويضعون شروح هذا التلمود منذ ما يقرب من مئة وخمسون (150) سنة، أي خلال الفترة من سنة خمسمائة إلى سنة ستمائة وخمسون للميلاد (500م-650م) إلى أن تمكنوا من صقل التلمود البابلي⁽³⁾. ولعل من الأهمية بمكان أن أعرض بعضاً مما جاء في نصوص التلمود من تأكيد مبدأ الاستعلاء والتفوق العنصري لليهود على بقية الشعوب، ومنها أن الشعب اليهودي هو "شعب الله المختار"، وأن الله اصطفاه على بقية شعوب الأرض، وقد صورّ التلمود اليهود على أنهم: "عنصر بشري خلق من طينة أرفع من طينة باقي شعوب العالم، وأن بقية النوع الإنساني الذين لم يعتنقوا اليهودية هم خدم لهم كغيرهم من الحيوانات غير العاقلة"⁽⁴⁾. و ينص التلمود على أن من واجب كل يهودي أن يبذل قصارى جهده لتبصير السلطة لليهود وحدهم، فإذا لم تكن لهم السلطة اعتبروا كأنهم في حياة النفي والأسر. ويجب على اليهود أن يعيشوا في حرب مع باقي الشعوب، حتى ينتقل إليهم الثراء والسلطان وحينئذ يدخل الناس أفواجا في دين اليهود⁽⁵⁾. ووردت في التلمود عبارات الطعن والهجوم على المسيح والمسيحية، فقد اعتبر المسيح ساحراً وثنيا وأتباعه وثنيون كفرة، ومن ثمّ وجب قتل يسوع الناصري^(**).

(1) - جواد علي: المرجع السابق، ج6، ص 613، محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ج3، ص 338.

(2) - الطاهر ذراع: المجتمع العربي القديم...، ج2، ص 333.

(*) - الصابورائيم: "Saboraim" طبقة من العلماء اليهود، وهي كلمة عبرية تعني "المناطق" أو الأساتذة الشارحون، ويمثلون مدرسة بابلية بحتة، استمر نشاطهم في بابل من سنة 500م إلى 590م ويتمثل في التعليق على التلمود عن طريق إضافات وهوامش تفسيرية. ول ديورانت: المرجع السابق، ج14، ص 15، محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ج3، ص 329، أحمد سوسة: المرجع السابق، ص 194.

(3) - حسن ظاظا: المرجع السابق، ص 83، ول ديورانت: المرجع السابق، ج14، ص 15.

(4) - أحمد سوسة: المرجع السابق، ص 184.

(5) - محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ج3، ص 370-371، أحمد سوسة: المرجع السابق، ص 185.

(**) - يسوع الناصري: تسمية عبرية أطلقها اليهود على المسيح، وعلى أتباعه أطلقوا اسم "الناصرين" أو "النديرين" ويعتقد بعض المؤرخين أن الناصريين هي إحدى الفرق اليهودية القديمة المنتصرة، ويفضل علماء اللغة إرجاع هذه التسمية إلى مدينة الناصرة بفلسطين والتي مكث بها المسيح ثمانية عشرة (18) سنة بعد عودته من مصر إلى أن بلغ=

وحسب التلمود دائما فإن قتل المسيحي يعدّ من الواجبات المقدسة، ويجيز استعمال النفاق مع غير اليهود، ويحدد ألوانا من الطهر لا يصل إليها اليهودي إلا بالذبائح البشرية⁽¹⁾. ويمكن القول أن هناك علاقة وطيدة بين التوراة والتلمود، فإذا كانت التوراة هي أدب العبرانيين القدامى ودينهم، فإن التلمود هو سجل حافل بالشروحات والتفسير التي يستند إليها اليهود لتطبيق الوصايا والفرائض الدينية، وملهم حياتهم اليومية.

وفي هذا السياق يذكر محمد بيومي مهران⁽²⁾ أن المؤرخ بيركوفتر " E. Berkovits " أورد في كتابه " نحو تاريخ اليهودية Towards Historic Judaism الذي نشر في أكسفورد Oxford سنة 1943م تلك العلاقة بين التوراة والتلمود بقوله: "إن المرء عندما يطرح الأسئلة حول تطبيق التوراة فإنه يصبح تلموديا"، وهذا التفسير يبرز العلاقة الوثيقة بين التلمود والتوراة، فالتلمود هو التوراة في التطبيق⁽³⁾. ومن باب متابعة المعرفة العلمية في العصر الحديث، فإن " بروتوكولات حكماء صهيون " أصبحت دستور اليهود دينيا ودينيويا⁽⁴⁾.

المطلب الثالث: الفرق والطوائف اليهودية القديمة

تشعبت اليهود في مراحل تاريخهم إلى فرق ومذاهب دينية، وقد ذكر الشهرستاني⁽⁵⁾ أنها بلغت واحد وسبعين فرقة وطائفة.

وتدعي كل فرقة أنها تمثل أفضل طريقة وأشدّها تمسكا بأصول الدين اليهودي، وكانت أهم المواضيع التي دار حولها الاختلاف هي: الاعتراف بأسفار العهد القديم، والأحاديث الشفوية المنسوبة إلى موسى (عليه السلام)، وأسفار التلمود، إلا أن معظم هذه الفرق قد انقرضت ولم يعد لها أي وجود⁽⁶⁾. وسأقتصر في هذا المقام على تناول أهم الفرق القديمة بإيجاز والتي تندرج ضمن حدود البحث.

1- السامريون "Samaritans": فرقة دينية يهودية، تعد من أقدم الفرق اليهودية، تدعى كذلك

= سن الثلاثين . أبو الفداء: المصدر السابق، ج1، ص 62، ابن منظور: المصدر السابق، ج6، ص 583، الزبيدي: المصدر السابق، ج3، ص 568، الألويسي: روح المعاني، ج6، ص 200، الشهرستاني: المصدر السابق، ج1، ص 220، جواد علي: المرجع السابق، ج6، ص 583.

(1) - أحمد شلبي: المرجع السابق، ص 271. الطاهر ذراع: المجتمع العربي القديم، ج2، ص 333-334.

(2) - بنو إسرائيل، ج3، ص 321.

(3) - المكان نفسه.

(4) - بروتوكولات حكماء صهيون، ط1، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغبة، الجزائر، 1990م، ص

(5) - الملل والنحل، ج1، ص 218.

(6) - جواد علي: المرجع السابق، ج6، ص 556.

" السامرة^(*) - Samarie " وباللغة العبرية " شومريم^(**) Shomrim " ، يعود تاريخ ظهورها إلى عهد السبي الآشوري عقب تدمير مملكة إسرائيل في أواخر القرن الثامن قبل الميلاد (721 ق.م)⁽¹⁾. ويعتقد بعض المؤرخين⁽²⁾ أن السامريين هم بقايا الجماعات التي نقلها الآشوريون من بابل وعيلام وسورية وبلاد العرب ليحلوا محل اليهود الذين تمّ سببهم. لذلك تنظر إليهم المصادر اليهودية على أنهم خطأ لا ينتمون إلى الدم اليهودي النقي، لاختلاطهم بالشعوب الأخرى. وبعد العودة من السبي البابلي سنة 539 ق.م رفض اليهوديين السماح للسامريين بالمشاركة في إعادة بناء الهيكل المقدس⁽³⁾.

ويطلق التلمود على السامريين اسم "الكوتيم^(***) - Kutim " أو " الكوتيين Cuthéens " نسبة إلى إحدى المناطق التي كانوا يعيشون فيها⁽⁴⁾.

وقد عزلت هذه الفرقة عن المجتمع اليهودي بعد عودة اليهود من السبي. وفي هذا السياق يذكر البيروني^(****)(5): "أن السامريين، ونتيجة العداء مع بقية اليهود، فإنهم يلجئون أحيانا إلى إعانة الغزاة الأجانب ضد اليهود أبناء جلدتهم، كما حدث مع نبوخذ نصر حينما دمر

(*) - السامرة: "Samarie" وردت كلمة السامرة " شومريم " أو السامريون مرة واحدة في العهد القديم. سفر الملوك الثاني: 17 : 28 - 29.

(**) - شومريم: "Shomrim" لفظة عبرية تعني حراس الشريعة، أطلقها السامريون على أنفسهم كما تعني " بنو إسرائيل " أي الإسرائيليين الحقيقيين، وهم من نسل سبطي إفرائيم ومنسى لذلك يسمون أيضا " بنو يوسف ". محمد خليفة حسن: المرجع السابق، ص 219، Jean Christophe Attias et autre : Op.cit, p235.

(1) - Ibid, p 245

(2) - أحمد سوسة : المرجع السابق، ص 186، سليمان مظهر: قصة الديانات، ط2، عربية للطباعة والنشر، القاهرة، 2002م، ص 307.

(3) - سفر عزرا: 4 : 1-5. Jean Christophe Attias et autre : Op.cit, p245.

(***) - الكوتيم " Kutim " : لفظ أطلقه التلمود على السامريين وينسب إلى منطقة الكوت "Kuta" وحسب المصادر اليهودية فإنها إحدى المناطق التي عاشوا فيها أصلا. سفر الملوك الثاني: 17 : 24،

Jean Christophe Attias et autre : Op.cit, p 246

(4) - سفر الملوك الثاني: 17 : 24-25.

(****) - هو أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني(ت سنة 440 هـ - 1048م)، أصله من فارس ومولده في بيرون عاصمة خوارزم (التركستان)، عاصر ابن سينا وابن الهيثم، درس الديانات والفلسفة الهندية واليونانية، وكانت له معارف باللغات السنسكريتية والعبرية والسريانية ولغات أخرى هندية. عمر فروخ تاريخ الفكر العربي، ص 433، نخبة من الأساتذة: معجم أعلام الفكر الإنساني، ج1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1984، ص ص 1189-1191.

Chikh Bouamrane et Louis Gardet : Panorama de la pensée islamique, Editions Sinsdbad, Paris, 1984, pp.243-251.

(5) - الآثار الباقية عن القرون الخالية، دار صادر ، بيروت، 1923م، ص 21.

مملكة يهوذا وسبى اليهود إلى بابل لذلك لم يمستهم بأذى".

ويوصف السامريون بالمتشددين في الأمور الدينية، ويتقشفون في الطهارة أكثر من سائر اليهود.

تقوم عقيدة السامرة على خمسة أركان هي: الإيمان بإله واحد، ونبوة موسى، وقدسية جبل جريزيم^(*)، والإيمان بأن التوراة " أسفار موسى الخمسة" منزلة من عند الله، والإيمان بيوم البعث⁽¹⁾. ومن معتقداتهم أنهم أنكروا بقية النبوات، إلا نبياً واحداً ويقصدون به طبعاً المصطفى (صلى الله عليه وسلم) ، وقالوا إن التوراة لم تبشر إلا بنبي واحد يأتي بعد موسى (عليه السلام)، ويعتبر جبل جريزيم بمدينة نابلس^(**) - المذكور آنفاً - قبلة السامريين⁽²⁾.

وأنبتوا نبوة موسى، وهارون، ويوشع بن نون^(***)، وأنكروا نبوة من بعدهم⁽³⁾. وقد تفرقت السامرة إلى دوستانية^(****) وهم الألفانية^(*****)، وكوستانية^(*****)، وبين الفريقين

(*)-جريزيم: "Garizim" بيت عبادة السامرة من اليهود، وهو جبل بنابلس جنوب شكيم، يزعمون أن الذبح كان فيه، وأن الذبيح هو إسحاق. ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج4، ص 522،

Jean Christophe Attias et autre : Op.cit, p .245

(1) - ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، ص 228، ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج1، ص 98، أحمد سوسة: المرجع السابق، ص 187.

(**) - نابلس: مدينة مشهورة بفلسطين، تقع بين جبلين كثيرة المياه، بينها وبين بيت المقدس عشرة (10) فراسخ، يعتقد السامريون أنها مدينة القدس. ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج4، ص 288، الهمذاني: صفة جزيرة العرب، ص 273.

(2) - الشهرستاني: المصدر السابق، ج1، ص 218، محمد حسن خليفة: المرجع السابق، ص 220-221.

(***) - يوشع بن نون: "Joshus" أو يشوع في بعض المصادر اليهودية، بن أليشاماع بن عميهوذ بن لعدان بن تاحن بن تالح بم راشف بن أفرايم بن يوسف بن يعقوب، لما مات موسى حوالي 1300 ق.م قام يوشع بتدبير بني إسرائيل وأقام بينهم في التيه ثلاثة أيام، ثم ارتحل وأتى بهم الشريعة وهي النهر الذي بالغور واسمه الأردن، واستمر يدبر أمر بني إسرائيل ثمان وعشرين سنة حتى توفي وله من العمر مائة وعشر (110) سنة، وذكر ابن الأثير مائة وستا وعشرين سنة. أبو الفداء: المصدر السابق، ج1، ص 39، ابن الأثير: المصدر السابق، ج1، ص 155.

(3) - الشهرستاني: المصدر السابق، ج1، ص 218، عبد المنعم الحفني: المرجع السابق، ص 119.

(****) - الدوستانية: معناها الفرقة المتفرقة الكاذبة، ويقال لها الألفانية "Alphans"، وتزعم أن الثواب والعقاب في الدنيا. الشهرستاني: المصدر السابق، ج1، ص 218. عبد المنعم الحفني: المرجع السابق، ص 119.

(*****) - الألفانية: "Alphans" نسبة إلى شخص يدعى الألفان السامري ادعى النبوة، وزعم أنه بشر به موسى، وكان ظهوره نحو مئتي (200) سنة قبل المسيح. الشهرستاني: المصدر السابق، ج1، ص 218.

(*****) - الكوستانية: معناها الجماعة الصادقة وتقر بالآخرة والثواب والعقاب فيها وحشر الأجساد والجنة والنار. الشهرستاني: المصدر السابق، ج1، ص 218، عبد المنعم الحفني: المرجع السابق، ص 119.

اختلافات متعددة في الأحكام والشرائع⁽¹⁾.

ويزعم السامريون أن التوراة التي بأيديهم هي التوراة المنزلة على موسى (عليه السلام) وأنها غير التوراة المحرفة التي بأيدي سائر اليهود⁽²⁾. وأن نسختها ترجع إلى سنة ستمائة وست وخمسين (656) ميلادية، ولدى بعضهم نسخة يقولون أنها ترجع إلى سنة ثلاثة عشر (13) ميلادية⁽³⁾. ولا تزال بقايا هذه الطائفة حتى اليوم في نابلس بفلسطين، مستقلة بكيانها الديني إلا أن عددها ضئيل جدا يقدر بحوالي مئتين وخمسين (250) نسمة في نابلس، وحوالي مئة وخمسين (150) نسمة في حولون⁽⁴⁾.

2- الصدوقيون⁽⁵⁾ "Sadducéens": فرقة دينية يهودية قديمة، تعد الفرقة الثانية من حيث الأهمية بعد الفريسيين فقد ظهرت خلال القرنين السابقين لميلاد المسيح والقرن الأول الميلادي⁽⁵⁾.

ويذكر أحمد سوسة⁽⁶⁾ أن هذه الفرقة ظهرت حوالي سنة مئتين قبل الميلاد (200 ق.م).

تنسب إلى "صدوق - Saduc" أحد كبار الكهنة في عهد داود وسليمان (عليهما السلام) وقد ورثت ذريته هذا المنصب إلى سنة مائة واثنان وستون (162) قبل الميلاد. ينتمي الصدوقيون إلى الطبقة الأرستقراطية اليهودية التي كانت تضم وجهاء وأمراء أورشليم، والكهنة وكبار العسكريين. ولهذه الطائفة تأثير كبير في مجال السياسة والإقتصاد⁽⁷⁾.

أما في المجال الديني، فإنهم قبلوا اليهودية ك معتقد فقط، وعاشوا حياة عادية واندمجوا مع الشعوب الأخرى عكس الفريسيين. وقد ارتبطت معتقداتهم بالهيكل وطقوسه، والإعتراف بأسفار موسى الخمسة فقط، ورفض الشريعة الشفوية، وكل ما يأتي به الكهنة والكتبة وأنكروا الملائكة والروح والبعث⁽⁸⁾.

(1) - الشهرستاني: المصدر السابق، ج1، ص 219.

(2) - المسعودي: المصدر السابق، ج1، ص 58، ابن حزم: المصدر السابق، ج1، ص 202.

(3) - عبد المنعم الحفني: المرجع السابق، ص 119.

(4) - محمد حسن خليفة: المرجع السابق، ص 221، Jean Christophe Attias et autre : Op.cit, p 245.

(*) - نسبة إلى صدوق "Sadoc- Saduc" أو صادق أو الصادق بن أخطوط رئيس الكهنة أيام داود وسليمان خلال القرن العاشر قبل الميلاد، وفي عائلته حفظت رئاسة الكهنوت حتى عصر المقابيين. ابن حزم: لمصدر السابق، ج1، ص 82، سفر صموئيل الثاني: 8: 17، سفر الملوك الأول: 1: 34، سفر أخبار الأيام الأول: 1، 2، 29، عبد المنعم الحفني: المرجع السابق، ص 138، Jean Christophe Attias et autre :Op.cit, p.244

(5) - أحمد علي عجيبة: المرجع السابق، ص 102، Jean Christophe Attias et autre :Op.cit, p.244.

(6) - ملامح من التاريخ القديم ليهود العراق، ص 181.

(7) - محمد حسن خليفة: المرجع السابق، ص 224.

(8) - أحمد سوسة: المرجع السابق، ص 183-184.

ورغم التشدد في العقائد، إلا أنهم تأثروا بالفكر والمدنية الهلنستية^(١) وخاصة فلسفة أرسطو^(١).

وقد كانت لهم السطوة السياسية ردحا من الزمن، رغم أنهم أقلية، وانتهى وجودهم مع الخراب الثاني للهيكل سنة سبعين (70) للميلاد على يد الرومان⁽²⁾.
وقد أحدث الاختلاف حول أسفار موسى الخمسة، وأحكام الشريعة الشفوية، انشقاقا دينيا وسياسيا داخل طائفة الصدوقيين، أدى إلى ظهور حركة مضادة لهم من اليهود الأرثوذكس هم الفريسيون.

3- الفريسيون^(**) "Pharisiens" : طائفة يهودية قديمة تعني المفروزين أي الذين اختاروا العزلة عن الآخرين وصاروا الصفوة الممتازة من اليهود، كما تعني "المنفصلون" و "المنشقون". ظهرت هذه الطائفة حسب بعض المؤرخين اليهود خلال عهد الهيكل الثاني، أي بعد سنة سبعين (70) ميلادية⁽³⁾.
ويذكر أحمد سوسة⁽⁴⁾ أنها ظهرت في منتصف القرن الثاني قبل الميلاد، أي حوالي (165-160 ق.م)، وكان الفريسيون يتبعون عزرا الكاهن^(***)، ويعتبرون أنفسهم ورثته، وكان هدفهم فصل اليهود عن بقية الشعوب في العالم، وهم بذلك يرفضون الاندماج ولا يخالطون الأجانب عكس الصدوقيين⁽⁵⁾.

(*)- الهلنستية: "Hellénisme" يطلق هذا المصطلح على الحضارة اليونانية التي نمت وتطورت خارج اليونان بتأثير الثقافة اليونانية وتبدأ المرحلة الهلنستية من غزو الإسكندر الأكبر للشرق (332-142 ق.م) إلى الإحتلال الروماني والقضاء على مملكة يهوذا (63 ق.م- 135م) ، أي نهاية القرن الرابع قبل الميلاد إلى أوائل القرن الثاني بعد الميلاد.
Jean Christophe Attias et autre : Op.cit, p.121

⁽¹⁾- عبد المنعم الحفني: المرجع السابق، ص 138.

⁽²⁾- سليمان مظهر: المرجع السابق، ص 397، محمد حسن خليفة: المرجع السابق: ص 225.

^(**)- يعرف الفريسيون باللغة العبرية باسم " فروشيم - Perushim " بمعنى المنفصلون والمنشقون، فهم الفوارس بمعنى المعتزلة، وقيل الفريسي كلمة آرامية من فرس أي صار ذا رأي وعلم. أحمد سوسة: المرجع السابق، ص 182، أحمد علي عجيبة: المرجع السابق، ص ص 101-102، عبد المنعم الحفني: مرجع سابق، ص 160.

⁽³⁾- Jean Christophe Attias et vautre : Op.cit , p 216.

⁽⁴⁾- ملامح من التاريخ القديم ليهود العراق، ص ص 181-182.

^(***)- عزرا الكاهن: " Ezra-Esdrars " (ت سنة 444 ق.م) يسمى عزرا الكاتب أو الكاهن، وهو الذي تتسب إليه جميع نصوص العهد القديم التي حررّ جزء منها بالأرامية لكن شهرته قامت على قيادته لليهود في العودة من السبي البابلي لإقامة دولة يهودية في فلسطين يعاونه في ذلك زروبابل . حسن ظاظا: المرجع السابق، ص 47،

Jean Christophe Attias et autre :Op.cit , pp.25, 89

⁽⁵⁾- Ibid, p 216

وحسب جوزيف فلافيوس "Josephus Flavius" فإن أول ظهور للفريسيين ككتيار ديني وسياسي قوي كان في عهد يوحنا هركانوس "Jean Hyrcan" (135 - 105 ق.م)⁽¹⁾. ويرى عبد المنعم الحفني⁽²⁾ أن أصلهم يعود إلى جماعة الحصيدين^(*) "Hasidees" المذكورين في أسفار المقابيين، والذين اشتركوا في الثورة المقابية على أنطوخوس أبيفانيس "Antichos Epiphanus" (175 - 163 ق.م). ويلاحظ الباحث طبيعة الاختلاف بين الصدوقيين والفريسيين، في طبيعة النظرة الدينية وأسلوب الحياة.

فالصدوقيون كانوا ينادون بحق الفرد والجماعة في الرفاهية والحياة الدنيا دون انتظار الثواب في العالم الآخر، استنادا إلى رفضهم لعالم ما بعد الموت والبعث، فالثواب والعقاب في الدنيا، وهم الذين أوجدوا الشريعة الشفوية، ودوتوها برئاسة الكاهن عزرا الذي لقب بالكاتب الأول، وقد عُرف الكتبة اليهود القدامى باسم "سوفريم"^(**) "Sofrim"⁽³⁾. ومن خصائص هذه الطائفة أنها أكثر عددا، ومبادئها أكثر انتشارا بين عامة اليهود⁽⁴⁾. ويبدو أن الفريسيين انقسموا على فريقين: جناح هيلل^(***) المعتدل، وجناح شمائي^(****)

(1) - Jean Christophe Attias et autre :Op.cit, p 216

(2) - موسوعة فلاسفة ومتصوفة اليهودية، ص 160.

(*) - الحصيديون: "Hasideans" أو الحصيديون، كلمة يونانية الأصل "حسيديم Hasidim" وتعني بالعبرية الأتقياء، وإذا كانت الحسيدية تعني التقوية فإن الحصيديية بالأرامية العربية مشتقة من الحصيد وهو أسافل الزرع التي تبقى ولا يتمكن منها المنجل، ومن ذلك فالحصيديون هم البقية الصالحة التي رفضت الديانات الأخرى وتمسكت بالديانة اليهودية. رفاتيل نخلة: المرجع السابق، ص 178، Jean Christophe Attias et autre :Op.cit, p 114

(**) - سوفريم "Sofrim": كلمة عبرية تعني "الكتبة" من الفقهاء والمعلمين لديهم العلم السلفي الذي هو الشريعة الشفوية، وكتبة الأسفار من الفرنسيين. أحمد سوسة: المرجع السابق، ص 182، أحمد علي عجينة: المرجع السابق، ص 102.

(3) - أحمد سوسة: المرجع السابق، ص ص 181 - 182.

(4) - الطاهر ذراع: المجتمع العربي القديم، ج2، ص 339.

(***) - هيلل: "Hillel" (110 ق.م - 10م) ينحدر من نسل داود، ويعرف باسم البابلي لأنه قدم من بابل إذ ولد فيها وتوفي بالقدس عن عمر يناهز مئة وعشرين (120) سنة، تولى رئاسة السنهدين بالقدس في أواخر القرن الأول قبل الميلاد (من سنة 30 إلى 9 ق.م)، كان يلقب بـ "الناسي". أحمد سوسة: المرجع السابق، ص 180، Jean Christophe Attias et autre :Op.cit, p 123.

(****) - شمائي: "Shammai" شغل منصب نائب رئيس السنهدين أي نائب هيلل وكانت مدرسته تمثل كتلة المعارضة في السنهدين والجناح المتشدد، كان نشاطه في النصف الثاني من القرن الأول قبل الميلاد وبداية القرن الأول الميلادي، توفي ودفن في ميرون وهي قرية في الجليل تبعد ثلاثة أميال شمال صفد. أحمد سوسة: المرجع السابق، ص 180، Jean Christophe Attias et autre :Op.cit, p123

المتشدد⁽¹⁾. وكانت رئاسة السنهدرين في الفترة من 150 - 30 ق.م تتألف من شخصين، وكانت أبرز شخصيتين في هذه الرئاسة المزدوجة للسنهدرين ، هيلل وكان يشغل منصب الرئيس ويلقب " الناسي"، أما شماي فهو نائب الرئيس ولقبه " رئيس بيت الدين"⁽²⁾.

إذا كان هيلل يمثل الجناح المعتدل والمتساهل في التعاليم والميال إلى التسويات، فإن شماي يمثل الجناح المتشدد في الحفاظ على التقليد بحيث يضيق مجال التفسير⁽³⁾.

وخاصة القول أن الشريعة المكتوبة أو أسفار موسى الخمسة، والشريعة الشفوية مع ما أضيف إليها من تفسيرات وشروح وملاحق، أصبح كل هذا يسمى التلمود.

4- **الحسيديون "Hasideans"**: فرقة دينية يهودية قديمة، مارست نشاطها في القرن الثاني قبل الميلاد، خلال فترة اضطهاد أنطوخوس أبيفانيس لليهود.

وكلمة حسيديم "Hasidim" يونانية الأصل، وتعني بالعبرية "الأتقياء" وقد عرف الحسيديون بالمتشدد في ممارسة طقوس السبت، ومقاومة الهلليستية وإيمانهم بالحرية الدينية، وعدم تحمسهم للقومية اليهودية، وقد تبني الفريسيون أفكارهم ، ويعتبر الحسيديون أسلاف للأسينيين الذين عرف عنهم التشدد في أحكام الشريعة⁽⁴⁾.

وهم الذين وقفوا في وجه المسيح بعناد، لأنه وقف ضدهم وضد سلطاتهم الدينية⁽⁵⁾.

5- **الأسينيون⁽⁶⁾ "Essenes"**: طائفة يهودية قديمة عاصرت الصدوقيين والفريسيين ظهرت بين القرن الثاني قبل الميلاد والقرن الأول للميلاد⁽⁶⁾.

يرى بعض العلماء أن كلمتي "حسيد" و "أسيني" مشتقان من لفظ "التقي" فهناك تقارب في المسمى والمضمون بين الحسيديون والأسينيون⁽⁷⁾.

وقد رجح البعض الآخر أن تكون كلمة "أسيني" التي تعني "التقي" مشتقة من السريانية "حاسيا-Hasya" بمعنى "تقي" أو "ورع" أو "صامت"⁽⁸⁾.

(1) - عبد المنعم الحفني: المرجع السابق، ص 161.

(2) - أحمد سوسة: المرجع السابق، ص ص 179 - 180.

(3) - عبد المنعم الحفني: المرجع السابق، ص 161.

(4) - محمد حسن خايفة: المرجع السابق، ص 222.

(5) - محمود الساموك: المرجع السابق، ص 171.

(*) - مصطلح يوناني " أسيني- Essaioi-Essenoï " يعني الأتقياء " Pieux " أو الشافون " Guerrisseurs " بمعنى الذين يمتنون التطبيب، وقيل مصطلح آرامي من فعل آسي والمؤاسون هم الذين يساؤون بين الناس وهم الأساة بمعنى الزاهدون. عبد المنعم الحفني: المرجع السابق، ص 56، Jean Christophe Attias et autre :Op.cit, p 74.

(6) - Loc.cit

(7) - محمد خليفة حسن: المرجع السابق، ص 226.

(8) - Jean Christophe Attias et autre :Op.cit p 74.

وقد ظل الفيلسوف فيلون^(*) ويوييفوس فلافيوس وبلين^(**) من المصادر اليونانية الأساسية للأسينيين إلى أن تم اكتشاف لفائف البحر الميت^(***)، حيث يعتقد معظم العلماء أن الأسينيين هم الفرقة التي تتحدث عنها اللفائف، وأن لهم علاقة وطيدة بالمسيحية المبكرة⁽¹⁾.

ومن عقائدهم: الاعتقاد في خلود الروح والإيمان بالثواب والعقاب، والتشدد في طقوس السبت، والزهد، والتقشف، وحياة العزلة⁽²⁾.

ويذكر جون كريستوف أتياس⁽³⁾ أن منهم فرقة ترفض الزواج وتقديم الأضاحي الحيوانية، ويتقربون إلى الهيكل بالدقيق والزيت فقط، ويمارسون الزراعة، وهم أقلية لا يزيد عددهم عن أربعة آلاف (4000) شخص، في القرن الأول الميلادي، وانتهى وجود هذه الفرقة بعد خراب الهيكل سنة سبعين (70) ميلادية على يد الرومان.

6- القراءون^(****) "Karaites": ظهرت هذه الفرقة في فترة ما بين العهدين⁽⁴⁾، وهناك من يرجعها إلى بداية القرن الثامن الميلادي⁽¹⁾.

(*)- فيلون الاسكندري: "Philon d'Alexandrie" (13 ق.م - 54م) فيلسوف، يعتبر أكبر ممثل للثقافة والفكر اليهودي باليونانية في عصره، ولد وتوفي بالإسكندرية، كان وثيق الصلة بالفلسفة اليونانية وخاصة الأفلاطونية والوراقية، يعتبر من المصادر المهمة عن التاريخ اليهودي، وعن الأسينيين على وجه الخصوص، كان شديد الاعتزاز بيهوديته حتى عرف بين المثقفين بفيلون اليهودي. عبد المنعم الحفني: المرجع السابق، ص ص 164 - 165،

Jean Christophe Attias et autre : Op.cit, p.216.

(**)- بلين: "Pline l'Ancien" (24م - 79م) كاتب لاتيني، عالم بالطبيعات "Naturaliste" ولد بمدينة كوم "Come" بايطاليا، وهو من عائلة تنتمي إلى طبقة الفرسان، كان برتبة أميرال في أسطول ميسان "Misène"، اشتهر بموسوعة التاريخ الطبيعي "Histoire Naturelle" وتشمل 37 كتابا وهي مصنفة علمية واسعة، أهدى جزء منها إلى الإمبراطور "Tibere"، توفي في مدينة أسطابية "Stabies" على إثر ثوران بركان فيزوف سنة 79م وكان قد انتقل لمشاهدته. محمد حسين فنطر: المصدر السابق، ص 326، P.Larousse Illustré, p 1510.

(***)- تم اكتشاف لفائف البحر الميت في الفترة ما بين 1947م و 1956م من طرف علماء الأركيولوجيا بمنطقة قمران "Qumran" وهي موضع يقع في صحراء يهوذا غرب البحر الميت، وهي عبارة عن مخطوطات وعشرات اللفائف منها نسخة من الكتاب المقدس، ويرى معظم العلماء أن الأسينيين هم الفرقة التي تتحدث عنها هذه اللفائف وكانت قد حلت بمنطقة قمران في نهاية عهد الهيكل الثاني. Jean Christophe Attias et autre : Op.cit , p .232

(1)- Jean Christophe Attias et autre :Op.cit. p 71.

(2)- عبد المنعم الحفني: المرجع السابق، ص 107، محمد خايفة حسن: المرجع السابق، ص ص 226-227.

(3)- Dictionnaire de civilisation juive, p.74

(****)- القراءون مفردا قرآء وهو الداعية الديني، أو من المقرأ وهي التوراة لأنها كتاب الله المقروء، وسمي القراءون بهذه التسمية لأنهم يقرأون التوراة دون التلمود، وهي عندهم المصدر الوحيد للشريعة، وهم إحدى أكبر الفرق اليهودية وتقابلهم فرقة الربانية وهم الأخبار. عبد المنعم الحفني: المرجع السابق، ص 177،

Jean Christophe Attias et autre : Op.cit, p.148

(4)- محمد خليفة حسن: المرجع السابق، ص 227.

ويرى البعض الآخر أن ظهورها واكب المسيح (عليه السلام): وأن القراءون هم المنشقون الأول الذين تحدثت عنهم لفائف المخطوطات التي عثر عليها في كهوف البحر الميت، وقيل أنهم آمنوا بالمسيح مخالفين سائر اليهود⁽²⁾.

ويبدو أن القراءون من أهم الفرق المعارضة لليهودية التقليدية (الهاخامية^(*)). ويلقبون بعدة ألقاب منها: " أبناء المقرأ" و "أهل المقرأ" بسبب تمسكهم بالعهد القديم كمصدر وحيد للتشريع، وعدم الاعتراف بالتشريعات الشفوية⁽³⁾.

وتعود تسمية " القراءون" إلى أوائل القرن التاسع الميلادي، وقد سميت أيضا "العنانية"^(**). ويعود القراءون بأصولهم إلى عصر الملك يروبعام^(***) "Roboam" بن سليمان غداة انقسام الاسرائيليين إلى مملكتين بعد وفاة سليمان (عليه السلام) في القرن العاشر قبل الميلاد⁽⁴⁾. وترجع بعض المصادر الهاخامية التقليدية ظهور القرائين إلى عنان بن داود وطموحه وحفده على أخيه حنانيا الذي اختبر رأسا للجالوت^{(5)(****)}.

ومن أهم عقائدهم اعتبار العهد القديم المصدر الوحيد للتشريع ، ذلك أن القراءون من الفرق اليهودية التي لا تؤمن بالتلمود كالتلموديين والصدوقيين⁽⁶⁾.

(1) - أحمد سوسة: المرجع السابق، ص 197، Jean Christophe Attias : Op.cit, p.148.

(2) - عبد المنعم الحفني: المرجع السابق، ص 177.

(*)-الهاخام: "Hakham- hâhâm" كلمة عبرية تعني كاهن يهودي، أو رجل عاقل وفيلسوف. رفاثيل نخلة اليسوعي: المرجع السابق، ص 211، Jean Christophe Attias : Op.cit, p.233

(3) - محمد خليفة حسن: المرجع السابق، ص ص 227-228.

(**) -نسبة إلى عنان بن داود "Anan ben David" بن دانيال بن شاول بن حسداي بن داود، عاش في القرن الثامن الميلادي، وخالف جماعة من الربانيين في كثير من شرائعهم واستعمل الشهور برؤية الأهلة. البيروني: المصدر السابق، ص ص 58-59. وتذكر بعض المصادر أن عنان توفي في سنة 765م ومصادر تحدد تاريخ وفاته بين 790م و 800م أحمد سوسة: المرجع السابق، ص 198.

(***) -هو يروبعام الأول "Roboam" بن سليمان (عليه السلام) أول ملك على مملكة إسرائيل الجنوبية. المنجد في اللغة والأعلام ، ص 616، حسن ظا : المرجع السابق، ص 38، Jean Christophe Attias : Op.cit, p 133

(4) - Loc. cit

(****) -اصطلاح عربي كان يطلق على رئيس الطائفة اليهودية في دار الإسلام، واصل اللفظة أرامي تعني رئيس الجالية، وكان اليهود يطلقون عليه لقب "ريش جالوتا" وتفرض التقاليد اليهودية أن يكون شاغل هذا المنصب منحدر من نسل داود. البيروني: المصدر السابق، ص 18.

(5) - أحمد سوسة: المرجع السابق، ص 171.

(6) - محمود الساموك: المرجع السابق، ص 173.

لكنهم في المقابل يقرّون بنبوّة عيسى (عليه السلام) وأن الله بعثه إلى بني إسرائيل، أما محمد (صلى الله عليه وسلم) فهو نبي أرسله الله تعالى إلى بني إسماعيل وإلى سائر العرب⁽¹⁾. ويبدو مما سبق أن العلاقات بين القرائين والحاخامات كانت علاقات سيئة يطبعها الحقد والكراهية والعداء، ذلك أن القرائين يرفضون التلمود وكل التشريعات الشفوية التي يعترف بها الحاخاميون، ويزعمون أن عقيدتهم الموسوية هي العقيدة الأصلية والصحيحة، الخالية من تحريفات الحاخاميين.

يتضح من العرض السابق للفرق والطوائف اليهودية القديمة أنها مرت بالعديد من مراحل التطور، وإذا كانت هذه الطوائف تختلف في بعض العقائد ومصادر التشريع وفي كتاب الله الذي أنزل على موسى (عليه السلام) فإن النصوص لم تذكر أسس هذا الاختلاف والتفرقة بين الطوائف، والقرآن الكريم لم يشر إليها، وإن كان يمكن للباحث تصورها وتحديد هذا الاختلاف من خلال روايات الإخباريين والمصادر المختلفة، حيث تتمحور في معظمها حول فروع الديانة اليهودية، ومما أشار إليه القرآن الكريم إتباع وتقليد عامة اليهود لما يقوله أبحارهم دون تفكير وتعقل، قال تعالى⁽²⁾: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾.

المطلب الرابع: الوجود اليهودي في شبه الجزيرة العربية:

قد يجد الباحث صعوبة كبيرة في تحديد تاريخ دقيق للوجود اليهودي، واليهودية كديانة في شبه الجزيرة العربية، والأماكن التي نزلوا بها ووصلوا إليها، وفي غياب النصوص التاريخية والمصادر المادية التي تسمح للباحث الحديث عن اليهود في جزيرة العرب، حديثا علميا أكاديميا، ليس للباحث بدّ في هذا المجال إلا الاعتماد على ما جاء في القرآن الكريم، والحديث وكتب التفسير والأخبار والسير. يختلف الباحثون في أصل هؤلاء اليهود وتاريخ هجراتهم إلى جزيرة العرب.

وفي السياق يرى جواد علي⁽³⁾: أن أغلب المستشرقين ومنهم مارغليون "Margoliouth"، واستنادا إلى دراسة أسماء يهود الحجاز قبل مجيء الإسلام، يبدو أن أولئك اليهود لم يكونوا يهودا حقا دما وعرقا، بل كانوا عربا تهودوا بتأثير اختلاطهم باليهود وبالعشائر اليهودية التي جاورتهم بعد مجيئها إلى بلاد العرب فتأثروا بديانتهم.

(1) - ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل، ص 117.

(2) - سورة البقرة: الآية 78.

(3) - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج6، ص 530.

ومن المؤرخين الذين ذكرهم أحمد سوسة⁽¹⁾ مثل المستشرق نولدكه "Noldeke(Th.)" من يعتقد أنه ليس من بين أسماء البطون اليهودية الأحد عشر التي كانت في الحجاز في أيام ظهور الإسلام اسم تظهر عليه الملامح اليهودية، ومن اسم عبراني غير اسم واحد هو "زاعورا".

أما أوليري⁽²⁾ "D'Leary" فيرى احتمال أن تكون قبيلة بني قينقاع^(*) من أصل عربي تهودت أو من بني أدوم^(**).

بينما ينكر اليعقوبي⁽³⁾ وجود طوائف يهودية أصلية، أي يهود هاجروا من فلسطين في الجزيرة العربية قبل الإسلام. بل ويؤكد وأن القبائل اليهودية التي كانت في شبه جزيرة العرب هي من أصل غربي، ويقول أن قبيلة بني النضير^(***) أنها فخذ من جذام، إلا أنهم تهودوا، وسموا بذلك الاسم نسبة إلى جبل يقال النضير، وكذا بالنسبة لبني قريظة^(****)، فهم فخذ من جذام أيضا إخوة النضير، ونزلوا بجبل يقال له قريظة فنسبوا إليه.

(1) - ملامح من التاريخ القديم ليهود العراق، ص 242.

O'leary (De Lacy) : Op. cit, p173

(2)

(*) - بنو قينقاع: إحدى قبائل اليهود، كانت تقطن يثرب، غزاهم النبي (ص) في السنة الثانية للهجرة، وحاصروهم خمسة عشرة ليلة. ابن حزم الأندلسي: الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج1، ص 186، ابن كثير: البداية والنهاية، ج2، ص 175، ج4، ص4.

(**) - بنو أدوم: أو الأدميون "Edomites" هم أحفاد عيسو بن اسحاق البكر، الذين سكنوا بلاد الشام في منطقة أدوم التي تقع جنوب الأردن الحالية، وكانت بلاد أدوم تسمى في عهد الحوريين الذين سبقوهم في سكنها "سعير"، وأدوم معناها الأحمر وهو لقب عيسو لأن كان أحمر عند ولادته، وقد انتقل عيسو بأهله من أرض الكنعانيين ليعيش بأرض سعير ثم طرد أحفاده من بعده الحوريين. عبد المنعم الحفني: المرجع السابق، ص 50، أحمد سوسة: المرجع السابق، ص 113، نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم والعصر الجاهلي، ص 102،

Jean Christophe Attias et Esther Benbassa : Op.cit, p.54.

(3) - تاريخ اليعقوبي، ج1، ص ص 40-42.

(***) - بنو النضير: هم فخذ من جذام إلا أنهم تهودوا ونزلوا بجبل يقال له النضير فسموا به، وهم إحدى القبائل اليهودية التي كانت تسكن يثرب، وقد غزاهم النبي (ص) في السنة الرابعة للهجرة وحاصروهم ست ليال. ابن كثير: البداية والنهاية، ج4، ص ص 82-83، ابن حزم: المصدر السابق، ج1، ص 186، اليعقوبي: المصدر السابق، ج2، ص 49.

(****) - بنو قريظة: هم فخذ من جذام إخوة النضير، يقال أن تهودهم كان في أيام عاديا أبي السموأل ثم نزلوا بجبل يقال له قريظة فنسبوا إليه، وقيل إن قريظة اسم جدهم بعقب الخندق، وهم قبائل يهودية كانت تقطن يثرب حاصروهم الرسول (ص) مدة عشرين يوما وتزوج منهم ريحانة بنت عمرو. ابن حزم: المصدر السابق، ج1، ص 186، ابن كثير: البداية والنهاية، ج2، ص 175، ج5، ص 320، اليعقوبي: المصدر السابق، ج2، ص 52.

ويؤيد هذا الرأي بعض المستشرقين من أمثال واط⁽¹⁾ والخباريين مثل ياقوت الحموي⁽²⁾ في معجمه فيقول: " إن يهود بني قريظة وبني النضير كانوا من القبائل العربية في جزيرة العرب، وقد اعتنقوا اليهودية وكان لهم ملوك حتى أخرجهم الأوس^(*) والخزرج^(**) من الأنصار من يثرب".
ويحتمل أن تكون بعض القبائل اليهودية التي ذكر أسماؤها الإخباريون قبائل يهودية حقا، ومن تلك الجماعات اليهودية التي هاجرت فلسطين في أيام القيصر تيتوس^(***) "TITUS" أو هدرين^(****) "HADRIAN" أو قبل أيامهما أو بعدها⁽³⁾.
ويذهب بعض المؤرخين المحدثين⁽⁴⁾ إلى القول أن هذه الهجرات كانت مبكرة، فتاريخ هجرات اليهود إلى شبه الجزيرة العربية تعود إلى ما قبل الميلاد، وترجع بعض الروايات دخول اليهودية إلى الحجاز إلى أيام موسى أو داود (عليهما السلام) غزوه للعمالق⁽¹⁾.

(1) - W.M.Watt : Mahomet à Médine, payot, Paris1959, pp.103-107

(2) - معجم البلدان، ج5، ص ص 290 - 291.

(*)-الأوس: بطن عظيم من الأزد، من القحطانية، وهم بنو الأوس بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو مزريقاء بن عامر بن الأزد، ينقسمون إلى خمسة أفاخذ، موطنهم الأصلي اليمن، هاجروا إلى يثرب وعاشوا مع الخزرج والقبائل اليهودية، وكانوا حلفاء لبني قريظة وبني النضير، كانوا قبل الإسلام يعبدون مناة وهي أكبر آلهتهم. الهمداني: صفة الجزيرة العرب، ص 374، السهمودي: وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، تحقيق محمد بن محي الدين عبد الحميد، ط4، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1984، ص 85، عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1994، ص ص 50-51، (Art. AL-AWS). Encyclopédie de l'Islam, Tome1, p.532.
(**)-الخزرج: بطن من الأزد، من القحطانية، وهم بنو الخزرج بن حارثة بن ثعلبة البهلول بن عمرو بن الأزد، سكنوا يثرب مع الأوس ونشبت بينهم حروب طويلة أشهرها بعث، ويوم الدرك، كانت مناة من أهم آلهتهم. أبو الفدا : المصدر السابق، ج1، ص 107، البكري: معجم ما استعجم، ج1، ص 260، عمر رضا كحالة: المرجع السابق، ج1، ص 342.
(***)-تيتوس "TITUS": هو تيتوس فلافيوس فسباسيانوس TITUS Flavius Vespasianus (39-81م)، إمبراطور روماني (79-81م) استولى على أورشليم سنة 70م وخرّب الهيكل ففر اليهود إلى البلاد العربية التي كانت آمنة آنذاك، تميز عهده بانجازات معمارية كبرى مثل: الكولزيوم وقوس تيتوس. محمود محمد محفوظ: المرجع السابق، ج2، ص 779، Larousse Illustré, p.1621

Jean Christophe Attias et Esther Benbassa : Op.cit , p.64.

(****)-هدريان: هو بوبليوس أيلبيوس هادريانوس "Publius Aelius Hadrianus" عاش من (76م إلى 138م) إمبراطور روماني من 117م إلى 138م، خليفة تراجان Trajan الذي تبناه، وحدّ التشريع الروماني سنة 131م واستطاع حماية الامبراطورية من هجمات البرابرة، والتنكيل باليهود سنة 132م. محمود محمد محفوظ: المرجع السابق، ج4، ص ص 2517 - 2518، Larousse Illustré,p.1315.

Jean Christophe Attias et autre :Op.cit, p.153

(3) - صاعد الأندلسي : المصدر السابق، ص 202، جواد علي: المرجع السابق، ج6، ص 522، أحمد ارحيم هيو:

ص ص 410-411، O'leary : Op.cit,p173 , Bertram Thomas : Op.cit, p 24

(4) - أحمد ارحيم هيو: المرجع السابق، ص 410.

ويرى بعض الإخباريين أن نزوح اليهود إلى الحجاز، إنما يعود إلى عهد السبي البابلي^(١)، واستقروا بواحات الحجاز وأراضيه الخصبة حتى ظهور الإسلام⁽²⁾.

وربما بدأت هجرات اليهود منذ خراب هيكلهم الأول على يد نبوخذنصر البابلي سنة خمسمائة وست وثمانين (586) قبل الميلاد، ويحتمل أن تكون بعض الجماعات من اليهود قد اتجهت إلى شمال شبه الجزيرة العربية، فهي أكثر أمنا وسلامة، وتمثل الامتداد الطبيعي لفلسطين وللمملكة يهوذا الجنوبية خاصة⁽³⁾.

أما جواد علي⁽⁴⁾ فيرى أن اليهود قدموا إلى شبه الجزيرة العربية ضمن جيش نبونيد^(٥) حينما جاء إلى تيماء^(٦) في منتصف القرن السادس قبل الميلاد، واتخذها عاصمة له، فأقام جيشه بها وبمواضع أخرى في الحجاز مثل يثرب^(٧)، واستوطنوا

(١) - أحمد أمين سليم: جوانب من تاريخ وحضارة العرب في العصور القديمة، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 1998، ص 246.

(٢) - حدث سبي اليهود في زمن الكلدانيين (612-539 ق.م) فقام نبوخذنصر بحملته الأولى سنة 597 ق.م فكان السبي الأول، ثم السبي الثاني سنة 586 ق.م. أحمد سوسة : المرجع السابق، ص ص 136-140.

(٣) - ابن الأثير: المصدر السابق، ج1، ص 401، الأصفهاني: المصدر السابق، ج19، ص 24، ابن خلدون: كتاب العبر، ج2، ص 594.

(٤) - أحمد ارحيم هبو: المرجع السابق، ص 410.

(٥) - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج6، ص 513، Bertram (T.) : Op.cit, p 24.

(٦) - نبونيد: ملك كلداني (555-539 ق.م) يعد آخر الملوك الكلدانيين، اتخذ من تيماء عاصمة لدولته قبل سقوطها بيد الأخمينيين (الفرس) . أحمد ارحيم هبو: المرجع السابق، ص 338، محمد بيومي مهران: تاريخ العرب القديم، ج2، ط11، دار المعرفة، القاهرة، 1994، ص 200.

(٧) - تيماء: محطة تجارية قديمة قبل الميلاد، تقع على نحو مائتي ميل (حوالي 320 كلم) شمال يثرب، نزلها اليمينيون وحكمها الفرس وازدهرت فيها الحضارة، سكنها اليهود وأقاموا فيها الأطم، وتعد من مراكز اليهود في شمال الحجاز وقد عرفت بتيماء اليهود. الإدريسي: المصدر السابق، ج1، ص 352، عمر فروخ: تاريخ الجاهلية، ص 118، أحمد أمين سليم: المرجع السابق، ص 247.

(٨) - يثرب: تقع على بعد 500 كلم تقريبا شمال مكة ورد ذكرها في أقدم نص بابلي في القرن السادس قبل الميلاد باسم "أثريبو" وذكرت في جغرافية بطليموس "Ptolemy" خلال القرن الثاني الميلادي باسم "يثربة-Jathripa" وذكرها اصطيفان البيزنطي بنفس الاسم، ويرى البعض أن اسمها مأخوذ من الكلمة الآرامية " مدينتا - Médinto - Médinta" بمعنى "الحمى" أي المدينة، وأقدم من سكنها العماليق ثم اليهود والعرب. ياقوت الحموي. معجم البلدان، ج5، ص 97، 493 (مادة مدينة- يثرب)، جواد علي: المرجع السابق، ج4، ص ص 128-130، ج5، ص 493، محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ص 200-202، Henri Massé : Op.cit, p 8.

وادي القرى^(*)، وأماكن أخرى إلى ظهور الإسلام. إلا أن نيونيد لم يورد في أخباره المدونة وجود عناصر يهودية في جيشه وإقامتهم في المناطق السالفة الذكر.

ويتبين مما ذكره المؤرخ اليهودي يوسيفوس فلافيوس^(**) "Josephus Flavius" أن اليهودية كانت قد وجدت لها سبيلا إلى جزيرة العرب، وأن بعض ملوك حدياب^(***) كانوا قد دخلوا فيها أثناء فترة السبي البابلي في شمال العراق القديم⁽¹⁾.

ويذكر بعض الإخباريين أن اليهود كان لهم وجود في الطائف^(****) إلا أن عددهم بها كان أقل مما كان في يثرب وبقية المواضع الأخرى بالحجاز⁽²⁾.

ويبدو من خلال النصوص التاريخية أن يهود الطائف رغم قلتهم فقد كان لهم تأثير كبير على سكانها. فقد بثوا سلوكات دنيئة دخيلة على السكان الأصليين وغريبة على الأخلاق العربية، ومن هذه السلوكات : التعامل بالربا، وشرب الخمر، والزنا، وفتح بيوت اللهو والحانات.

(*) - وادي القرى :تقع بين العلا ويثرب، بينها وبين يثرب خمس مراحل على طريق المروة، وهي بقعة خصبة كثيرة القرى (المدن)، كانت مأهولة بالسكان منذ أيام المعينيين، وسكنتها شعوب سامية كاليهود والعرب وأخرى غير سامية، اشتهرت بالزراعة والتجارة، وهي طريق تجارية هامة تربط اليمن بالشام ومصر، وهو بين تيماء وخيبر فيه قرى كثيرة وبها سمي وادي القرى. الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص ص 273- 274، ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج4، ص 384، عمر فروخ : المرجع السابق، ص ص 108- 109.

(**) - يوسيفوس فلافيوس "Josephus Flavius" (38- 95 أو 100م) مؤرخ ورجل عسكري يهودي، ولد بعد حادثة صلب المسيح الذي يزعمه النصارى، وهو أقدم الباحثين في تاريخ اليهود ومن أشهرهم وأوثقهم، شارك في انتفاضة سنة 66م ضد روما، وشاهد سقوط أورشليم وتحطيم الهيكل سنة 70م، من آثاره: حرب اليهود، والآثار اليهودية، وسفر يوسف. شاهير ذيب أبو شريح: المرجع السابق، ص 101،

Jean Christophe Attias et Esther Benbassa :Op.cit,p.140

(***) - حدياب "Adiabène" إمارة واسعة أقيمت في شمالي العراق في منطقة آشور القديمة، تعرف في المصادر العربية باسم "حزة" عاصمتها مدينة أربيل، ازدهرت في القرن الأول بعد الميلاد نقل إليها اليهود بعد سببهم زمن الآشوريين، واحتلتها الرومان في عهد الامبراطور تراجان سنتي 115م- 116م. أحمد سوسة : المرجع السابق، ص ص 40-41.

(¹) - جواد علي: المرجع السابق، ج6، ص 514.

(****) - الطائف: واحة مرتفعة تقع على نحو خمسة وسبعين ميلا (115كلم) إلى الجنوب الشرقي من مكة، وهي مصيف أهل مكة، سكنها بنو عامر بن صعصعة وبنو تقيف وسميت الطائف نسبة للسور الذي بناه بنو تقيف طائفا حول تلك الواحة يحيط بجميع جهاتها لحمايتها من الغارات. كانت تدعى قديما "وج" نسبة إلى واد يقع بالقرب منها، وتقع على ظهر جبل غزوان وهو أبعد مكان في الحجاز. الزبيدي: المصدر السابق، ج5، ص 243، ابن حوقل: المصدر السابق، ص 39، جواد علي: المرجع السابق، ج4، ص ص 142-143، عمر فروخ: تاريخ الجاهلية، ص ص 114- 115، أحمد ارحيم وهبو: المرجع السابق، ص 233.

(²) - ابن هشام: المصدر السابق، ج3، ص 200.

ولا شك أن هذه السلوكات نابعة من أخلاق اليهود وحبهم للمال وجنوحهم إلى نشر الفساد والرذيلة حتى يتمكنوا من السيطرة على الشعوب.

وتذكر بعض المصادر الإسلامية أن وجود اليهود في الحجاز، إنما يرجع إلى عهد الاحتلال الروماني لبلاد الشام سنة سبعين (70) ميلادية، وإحراقهم أورشليم وتهديم الهيكل، فاضطر العبرانيون إلى الهجرة باتجاه شمال الجزيرة العربية، واستقروا ببعض المواضع ذات الزراعة والتجارة، وأقاموا مستعمرات في خيبر^(*) وتيماء وفدك^(**) ووادي القرى، وكانت يثرب أهم هذه المواضع على الإطلاق إلى ظهور الإسلام⁽¹⁾.

ومن قبائل جزيرة العرب المتهودة، ما ذكره صاعد الأندلسي⁽²⁾: "قبائل بني حمير^(***)، وبني الحارث بن كعب^(****)، وكندة^(*****)، وبنو كنانة^(*****)".

(*) - خيبر: "Khaybar": واحة تقع على ثمانية بُرد من يثرب لمن يريد الشام، سكنتها القبائل اليهودية الثلاث، ولفظ خيبر بلسان اليهود يعني "الحصن" ولكون هذه البقعة تشتمل على سبعة حصون سميت بذلك، وقيل أنها سميت بخيبر بن قانية بن مهلائيل بن إرام بن عييل، وعييل أخو عاد بن عوض بن إرم بن سام بن نوح (عليه السلام) وكان أول من نزل هذا الموضع، وخيبر موصوفة بالحمى، وأقدم إشارة كتابية ورد فيها اسم خيبر هي تلك التي عثر عليها في "حران اللجاء" وترجع إلى سنة 568م. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج2، ص 409، أحمد سوسة: المرجع السابق، ص 251، Jean Christophe Attias : Op.cit, p.190

(**) - فدك: قرية بالحجاز بينها وبين يثرب يومان وقيل ثلاثة، وهي موضع من المواضع التي استقر بها اليهود، يعود عهدها إلى ما قبل الإسلام، تشير بعض المصادر أنه عند ظهور الإسلام كان رئيس منطقة فدك هو "يوشع بن نون". الطبري: المصدر السابق، ج3، ص 327. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج4، ص 238، الطاهر ذراع: المجتمع العربي القديم، ج2، ص 345.

(1) - ابن خلدون: كتاب العبر، ج2، ص 594، عمر فروخ: تاريخ الجاهلية، ص 48.

(2) - طبقات الأمم، ص 43.

(***) - بنو حمير: بطن عظيم من القحطانية ينتسب إلى حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، كانت مساكنهم في اليمن، وسكن قسم منهم الحيرة. ياقوت الحموي: البلدان اليمانية، تحقيق إسماعيل علي الأكوغ، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1988م، ص ص 113-115، أحمد سوسة: المرجع السابق، ص 244.

(****) - بنو الحارث بن كعب: بطن من سلالة السبطين الحسن والحسين يقيمون الحجاز، وهم بطن من مذبح من القحطانية سكنوا مقاطعة نجران، كان لهم بها كعبة يعظمونها ومنهم من اعتنق النصرانية ومنهم من اعتنق اليهودية. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج2، ص 205، ابن خلدون: كتاب العبر، ج2، ص 255، السويدي: المصدر السابق، ص 226، أحمد سوسة: المرجع السابق، ص 245.

(*****) - كندة: قبيلة عظيمة من قبائل حضرموت، تنقسم إلى عدة بطون، منازلهم كانت بجبال اليمن، وكان لهم بها وبالحجاز ملك قبل الإسلام وانتشرت اليهودية فيهم. الزبيدي: المصدر السابق، ج1، ص 43، ياقوت الحموي: البلدان اليمانية، ص 242، أحمد سوسة: المرجع السابق، ص 246.

(*****) - بنو كنانة: قبيلة عظيمة من العدنانية، وهم بنو كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، كانت ديارهم بجهات مكة وقدمت طائفة منهم الديار المصرية سنة 545م، وتنقسم إلى عدة بطون منها =

وفي نفس السياق ذكر اليعقوبي⁽¹⁾: "أن قوما من بني الحارث بن كعب، وقوما من جذام^(*)، وقوما من غسان^(**) قد تهودوا".

ومما تجدر الإشارة إليه أن قوما من الأوس والخزرج تهودوا بعد خروجهم من اليمن، وذلك لمجاورتهم يهود بني قريظة وبني النضير القاطنين في يثرب وخيبر⁽³⁾.

ويذهب بعض المؤرخين اليهود المحدثين أمثال إسرائيل ولفنسون^(***) إلى أن قدوم اليهود على شكل جماعات، وفي فترات مختلفة إلى الجزيرة العربية، قد وجدوا أنفسهم مضطرين إلى مجارة السكان الأصليين، لكي يضمّنوا لأنفسهم وطنا يأويهم، وإلا كان مصيرهم النفي والتهجير، فتأثروا بالعرب وأثروا فيهم من حيث الأسماء واللغة، إلا أنهم حافظوا على دينهم، وتمتعوا بحرية واسعة لم يحصل عليها أشقاؤهم في البلاد التي نزلوا بها.

ونتيجة هذا التأثير اعتنق بعض العرب الديانة اليهودية وتزوجوا يهوديات، كما تزوج اليهود عربيات، وخفت حدة تقاليد وطقوس هذا الدين الذي لم يحافظ فيه أصحابه على الشرائع الموسوية، لذلك كان يهود الجزيرة العربية في معزل وانفصال تام عن بقية أبناء دينهم خارج جزيرة العرب، فسكنت عنهم الأخبار في المراجع الاسرائيلية والمؤلفات العبرانية، وإن دلّ هذا على شيء ، فإنما يدل على انعدام الصلة القومية بين يهود الجزيرة العربية ويهود فلسطين في التاريخ القديم⁽⁴⁾.

قريش، عبد مناة، وبنو مالك. عمر رضا كحالة: معجم القبائل العربية القديمة والحديثة، ج3، ص 996، أحمد سوسة: المرجع السابق، ص 244.

(¹)- تاريخ اليعقوبي، ج1، ص 257، جواد علي: المرجع السابق، ج6، ص 514، يوسف رزق الله غنيمه: نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2001م، ص 99.

(^{*})- جذام: بطن من كهلان، من القحطانية وهم بنو جذام بن عدي بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان، مساكنهم بين مدين وتبوك، وهم أول من سكن مصر من العرب أيام الفتح مع عمرو بن العاص. ابن العبري: المصدر السابق، ص94، السويدي: المصدر السابق، ص 162، أحمد سوسة: المرجع السابق، ص 245.

(^{**})- غسان: قبيلة عظيمة اختلف في نسبها، فقال البعض أنها تنسب إلى غسان أبو قبيلة باليمن، وقال البعض الآخر أن غسان ماء بسد مأرب باليمن، وقيل أن غسان اسم ماء نزله قوم من الأزدي فنسبوا إليه، وقيل أيضا هم الغساسنة ملوك الشام وهم بنو عمرو بن مازن بن الأزدي. الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص 274، ياقوت الحموي: البلدان اليمانية، ص 218، أحمد سوسة: المرجع السابق، ص 245.

(²)- المقدسي: البدء والتاريخ، ج4، دار صادر، بيروت، (د.ت)، ص31.

(³)- اليعقوبي: المصدر السابق، ج1، ص 257، نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم والعصر الجاهلي، ص 284.

(^{***})- إسرائيل ولفنسون: "Welfenson Israel" مؤرخ يهودي، أستاذ تاريخ اللغات السامية بجامعة القاهرة، تحصل على الدكتوراه تحت إشراف طه حسين، له عدة مؤلفات منها: تاريخ اليهود في بلاد العرب، تاريخ اللغات السامية، وموسى بن ميمون، أحمد سوسة: المرجع السابق، ص 6.

(⁴)- إسرائيل ولفنسون: تاريخ اليهود في بلاد العرب، القاهرة، 1927، ص ص 11- 12.

وإن وجدت بعض أخبارهم، لا تعدو أن تكون إشارات عرضية، وهذا ما يرجح انقطاع يهود بلاد العرب انقطاعا تاما عن بقية اليهود خارج الجزيرة العربية.

ومن هنا يرى الباحث أن المصدر الدقيق لتحديد هجرات اليهود يبقى ضعيفا، وما ذكر حول هذه المسألة الخطرة، علينا الحذر منها، لأن لها أغراض سياسية عرقية عنصرية، لم تكن تلك الروايات التي جاء بها اللاتين والغربيين المحدثين بريئة، بل لها أغراضها وعلينا أن نضعها تحت النقد التاريخي.

ويلاحظ أن يهود الجزيرة العربية لم يحافظوا على هويتهم، وعلى يهوديتهم وخصائصهم، التي يتميزون بها عن غيرهم، كما حافظ عليها اليهود في الأقطار الأخرى، فأكثر أسماء القبائل والأشخاص والبطون كانت أسماء عربية - كما أسلفت الذكر - والشعر المنسوب إلى شعرائهم يحمل الطابع العربي والفكر العربي، وذو السمات الاجتماعية والسياسية التي تميز حياة البدو العربية⁽¹⁾.

ومن الصعب أن يجد الباحث في هذا الشعر أثرا للتوراة أو التلمود، وهذا لدليل آخر على أن يهود شبه الجزيرة العربية عرب تهودوا ولم يكونوا يهودا حقا.

وخلاصة القول أنه من خلال دراسة أماكن تواجد اليهود في الحجاز يستنتج الباحث قلة العنصر اليهودي في مكة ملكة الحواضر الحجازية ومركز الوثنية في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام.

ويعود ذلك ربما إلى قوة قريش السياسية والاقتصادية والاجتماعية، يضاف إلى كل ذلك قوة الوثنية في مكة، بخلاف ما يلاحظ في يثرب، ويستدل على كل ذلك عدم وجود معبد لليهود في مكة، إلى جانب انعدام حي خاص بهم، فكفار مكة كانوا يذهبون إلى يثرب قبل البعثة ليسألوا عن هذا النبي المنتظر في بني إسماعيل، والذي كانت التوراة قد بشرت به، فلو كان هناك يهود في مكة ما ذهب القرشيون إلى أحبار يثرب⁽²⁾.

وهذه من الأدلة الدامغة على غياب العنصر اليهودي وعدم تمكن الديانة اليهودية في مكة حارسا الوثنية.

المبحث الثالث: الديانة المسيحية في شبه الجزيرة العربية:

تعد النصرانية الديانة السماوية التوحيدية الثالثة التي ظهرت بعد الديانة الحنيفية واليهودية من الناحية الكرونولوجية، وقد نشأت النصرانية في الشرق الأدنى القديم، وتحديدا في بلاد الشام على عهد المسيح (عليه السلام)، إلا أن وجودها في شبه الجزيرة العربية كان في الجنوب أكثر من إنتشارها في الحجاز، ولم يكن بالشكل الذي كانت عليه الوثنية واليهودية في الحجاز، لذلك لما ظهرت النصرانية

(1) - جواد علي: المرجع السابق، ج6، ص 531.

(2) - أحمد أمين سليم: المرجع السابق، ص 247.

أخذت تزاخم اليهودية في بلاد الشام ثم في شبه جزيرة العرب، في اليمن والحجاز وبالضبط في واحات يثرب وخيبر ودومة الجندل وتيماء وتبوك ثم في مكة بصفة أقل.

وسأعالج في هذا المبحث النصرانية من حيث مفهومها وظهورها وتطورها في مصر وبلاد الشام ثم وصولها إلى الجزيرة العربية، وسأعرض إلى مبادئها وطقوسها وطوائفها وفرقها المختلفة، والأثر الذي تركته في مكة قبيل ظهور الإسلام، وتأثرها بالمعتقدات الدينية والاجتماعية وعلاقتها مع الوثنيين في اليمن وبلاد الشام والحجاز.

المطلب الأول: مفهوم المسيحية لغة وإصطلاحاً:

تعرف المسيحية لغة: مسح مسحاً الشيء: أي أزال الأثر عنه، يقال في الدعاء للمريض: "مسح الله ما بك من علة" أي أزالها وعافاك.

ومسحه بالدهن: أمر يده عليه به.⁽¹⁾ والمسح إمرار اليد على الشيء، والتمسح القول الحسن، والممسوح بمثل الدهن وبالبركة وبالشؤم، والكثير السياحة كالمسيح⁽²⁾.

ويرى ابن منظور⁽³⁾: أن المسيح هو الصديق وبه سمي عيسى لصدقه.

أما الزبيدي⁽⁴⁾ فيرى: أن المسيح عيسى بن مريم سمي مسيحاً لأنه كان سائحاً في الأرض لا يستقر، ولأنه مسح بالبركة والمسيح من مسح إذا سار في الأرض وقطعها، والمسيح هو الرجل الكثير السياحة.

ويذكر الشهرستاني⁽⁵⁾: أن المسيح كان يمسح بيده على العليل والأكمه والأبرص فيبرئه بإذن الله، وقد أعرب المسيح في القرآن على فعل مسح، وهو في التوراة "مشيخاً" فعرب، كما قيل موسى وأصله "موشي"⁽⁶⁾.

وقيل المسيح الممسوح بالدهن وبزيت الكهنوت والملك⁽⁷⁾، ولأنه خرج من بطن أمه ممسوحاً

(1) - الزبيدي: المصدر السابق، ج2، ص 226، المنجد في اللغة والإعلام، ط 40، دار المشرق، بيروت، 2003م، ص 760.

(2) - الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ج1، ص 249، الرازي: مختار الصحاح، مكتبة لبنان، بيروت، 1986م، ص 260.

(3) - لسان العرب، ج2، دار صادر، بيروت، (د.ت)، ص 594، المقرئ: المصدر السابق، ج2، ص 482، الفخري: المصدر السابق، ص 210.

(4) - تاج العروس، ج2، ص ص 223 - 224، ابن منظور: المصدر السابق، ج2، ص 594.

(5) - الملل والنحل، ج1، ص 220.

(6) - رفائيل نخلة اليسوعي: المرجع السابق، ص 206.

(7) - أبو الفداء: المصدر السابق، ج1، ص 62، ابن منظور: المصدر السابق، ج2، ص 594، رفائيل نخلة اليسوعي: المرجع السابق، ص 206.

بالدهن، أو كأنه ممسوح الرأس أو مسح عند ولادته بالدهن⁽¹⁾، وأن جبريل عليه السلام مسحه بجناحيه عند ولادته لقوله تعالى⁽²⁾: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾.

أما المسيحية اصطلاحاً: فهي الدين السماوي الذي يدعو إلى التوحيد، المنزل على المسيح عيسى^(*) بن مريم (عليه السلام) كما سميت المسيحية بالنصرانية نسبة إلى مدينة الناصرة^(**) التي أقام بها المسيح إلى أن بلغ سن الثلاثين سنة⁽³⁾.

ويرى آخرون ومنهم الشهرستاني⁽⁴⁾ أن النصرانية نسبة إلى أنصار عيسى (عليه السلام)، وهم القائلون بنبوته، وبالأقانيم^(***) الثلاثة، وأن عيسى هو المبعوث حقاً بعد موسى (عليه السلام) المبشر به في التوراة.

ويذكر الأب رفائيل نخلة اليسوعي⁽⁵⁾: أن النصرانية لفظ من الألفاظ المقتبسة من السريانية^(****) التي أطلقها اليهود على كل من اتبع ديانة المسيح، وأصلها "نصراني - Nosroyo"، أو "نصرايا - Nasraya".

(1) - المقريري: المصدر السابق، ج2، ص 482، أبو الفداء: المصدر السابق، ج1، ص 62، الزبيدي: المصدر السابق، ج2، ص 225.

(2) - سورة مريم: الآية 31، الفخري: المصدر السابق، ص 210.

(*) عيسى "Jésus- Christ" ولد في بيت لحم سنة أربع (4 ق.م)، عاش في بلدة الناصرة إلى سن الثلاثين لذا سمي الناصري، هو عبد الله ورسوله وكلمة ألقاها إلى مريم وروح منه، المنجد في اللغة والإعلام، ص 620، Jean Christophe Attias et autre : Op.cit, p 184.

(**) - الناصرة: قرية الشام بينها وبين طبرية ثلاثة عشر ميلاً، وقد ذكر الإنجيل يسوع بالناصرى كثيراً لأنه نزل أرضاً يقال لها ناصرة " NAZARETH"، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج5، ص 291-292، ابن منظور: المصدر السابق، ج5، ص 212، اليهودي: كشف القناع عن متن الإقناع، تحقيق هلال مصيلحي، ج3، دار الفكر، بيروت، 1982م، ص 118.

(3) - أبو الفداء: المصدر السابق، ج1، ص 62.

(4) - الممل والنحل، ج1، ص 220.

(**) - الأقانيم: كلمة سريانية الأصل مفردتها أقنوم « Qnoûmo » وهو الشخص الكائن المستقل بذاته، والأقانيم الثلاثة هي الأب، الإبن، والروح القدس، رفائيل نخلة اليسوعي: المرجع السابق، ص 173، الفخري: المصدر السابق، ص 211، محمد أحمد الحاج: النصرانية من التوحيد إلى التثليث، ط1، دار القلم، دمشق، 1992، ص 209.

(5) - غرائب اللغة العربية، ص 207.

(****) - السريانية: "Syriaque" لغة الآراميين من الفصيحة الفرعية السامية للغات الأفرو-آسيوية، وهي من اللغات الشمالية الغربية، وصارت اللغة الرسمية منذ حوالي 500 ق.م في كل بلاد الشرق الأدنى القديم، محمود محمد محفوظ: المرجع السابق، ج3، ص 1400، رفائيل نخلة اليسوعي: المرجع السابق، ص 170.

في حين يرى جواد علي⁽¹⁾ أن هذه التسمية عبرانية الأصل من "Nazarenes" أي الناصريين وهي إحدى الفرق اليهودية القديمة المنتصرة، وقيل لتناصرهم فيما بينهم ونصرة بعضهم بعضاً⁽²⁾. أما ياقوت الحموي⁽³⁾ فينسبهم إلى الناصرة التي اشتق اسم النصارى منها وفيها كان مولد المسيح عيسى، في حين يرى أهل بيت المقدس غير ذلك، ويقولون أن المسيح ولد في بيت لحم. أما المقرئ⁽⁴⁾: فينسبهم إلى قرية الناصرة كذلك، ونصران عنده من أبنية المبالغة، ومعناها أن هذا الدين من ينصره، وقد وردت لفظة النصارى في القرآن الكريم في قوله تعالى⁽⁵⁾: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّ أُمَّسَلْمُونَ﴾، وفي سورة أخرى يقول سبحانه وتعالى⁽⁶⁾: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتِ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾، وبذلك صارت كلمة النصارى علماً أطلق على ديانة المسيح عند المسلمين.

أما علماء اللغة فلم آراء في أصل ومعنى لفظة النصارى. فقد ذهب الزبيدي⁽⁷⁾ إلى أن النصرانية نسبة إلى قرية الناصرة أو نصران التي ينسب إليها المسيح (عليه السلام)، لذلك قيل له النصراني، وجمعه نصارى وهم أتباع المسيح وأمتة⁽⁸⁾. وقد وردت كلمة النصرانية في نصوص بعض الشعراء المخضرمين، ففي الشعر العربي القديم ذكر أمية بن أبي الصلت النصارى في هذا البيت:

أيام يلقي نصاراهم مسيحيهم
والكائنين له ودا وقربانا⁽⁹⁾.
وقال جابر بن حني التغلبي^(*):

(1) - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج6، ص 582، الألويسي: روح المعاني، ج1، ص 278.

(2) - الشهرستاني: المصدر السابق، ج1، ص 220.

(3) - معجم البلدان، ج5، ص 251.

(4) - الخطط المقرئية، ج2، ص 482.

(5) - سورة آل عمران: الآية: 52.

(6) - سورة الصف: الآية: 14.

(7) - تاج العروس، ج3، ص 568، مادة (نصر).

(8) - الفخري: المصدر السابق، ص 211.

(9) - جواد علي: المرجع السابق، ج6، ص 583.

(*) - جابر بن حني التغلبي: (ت سنة 564م) هو جابر ابن حني بن حارثة بن عمرو بن معاوية بن عمرو بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب، كان شاعراً نصرانياً مقدماً، وقد تفاخر بدينه في شعره، وكان مع امرئ القيس حين =

وقد زعمت بهراء أن رماحنا رماح نصارى لا تخوض إلى دم⁽¹⁾.
وأن حاتما الطائي^(**) قال في شعر له⁽²⁾:

وما زلت أسعى بين ناب ودارة
بلحيان حتى خفت أن أتصرا.
وكذلك قول حسان بن ثابت⁽³⁾:

فرحت نصارى يثرب ويهودها
لما توارى في الضريح الملحد.

ويستنتج الباحث من الأبيات - المذكورة آنفا- هذا إن صح أنها من الشعر العربي القديم، أن لفظ النصارى كان مستعملا عند العرب على الأقل قبيل ظهور الإسلام.

وخلاصة القول أنه من خلال ما أورده المؤرخون والمفسرون وعلماء اللغة حول أصل تسمية النصرانية، فإننا نرجح أنها تنسب إلى مدينة الناصرة التي أقام بها المسيح إلى أن بلغ سن الثلاثين، وبدأ دعوته منها، كما أطلقت على أولئك الذين ناصروه واتبعوا ديانتهم.

أما على صعيد التسميات التي عرف بها المسيحيون، فقد أطلق قدماء النصارى على أنفسهم لفظة "التلاميذ" "DISCIPLES"، التي تقابلها في اللغة اللاتينية لفظة "DISCIPULUS"⁽⁴⁾ أي تلاميذ المسيح، أما لفظة الحواريون^(*) "APOSTOLUS" فتعني أولئك الذين كانوا ينظرون إلى المسيح على أنه معلمهم الأول⁽⁵⁾.

=خرج إلى الروم مستجدا بقبصر، لويس شيخو: شعراء النصرانية، ص 188، المرزباني: المصدر السابق، ص ص 207-206.

(¹)- لويس شيخو: المرجع السابق، ص 188.

(^{**})- حاتم الطائي: (ت سنة 605م) هو ابن عبد الله بن سعد الطائي، وكان نصرانيا، اشتهر بالكرم، وكان إذا هل الشهر ينحر عشرا من الإبل فيطعم الناس، قال ابن السكيت: إنما سمي هزيمة لأنه شج أو شج، وإنما سمي طيء لأنه أول من طوى المناهل، جورجى زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، مج 1، ج 1، ص 126، ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ج 1، ص 241، البغدادي: المصدر السابق، ج 3، ص 127، لويس شيخو: مجاني الأدب في حقائق العرب، ج 4، ص 288.

(²)- لويس شيخو: شعراء النصرانية قبل الإسلام، ص 107.

(³)- ديوان حسان: ص 24.

(⁴)- Félix Gaffiot: Op.cit, P.200.

(^{*})- الحواريون: "Apostolus" باللغة اللاتينية، هم إثنا عشر حواريا تتلمذوا على يد المسيح وهم: شمعون الصفا "بطرس"، وشمعون القانوني، وأندرواس، ويعقوب بن زبدي، ويعقوب بن حلفى، ويهوذا الإسخريوطي، وفيليبس، وبرثولماوس، ويوذا، ولوقا، وتوما، ومتى، وهؤلاء هم رسل المسيح الذين سأله نزول المائدة، ابن حزم: مصدر سابق، ج 1، ص 120، أبو الفداء: مصدر سابق، ج 1، ص 63، مرقس: 3: 16-19، P.Larousse Illustré, p74

(⁵)- جواد علي: المرجع السابق، ج 6، ص 584.

وقد جاء ذكر الحواريين في القرآن الكريم، في قوله تعالى⁽¹⁾: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ﴾، وقال تعالى⁽²⁾: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَعْيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، والحواريون جمع حواري وهي كلمة آرامية الأصل "Héworoto"⁽³⁾ وتعني دقيق أبيض. وذكر ابن منظور⁽⁴⁾ أن الحواري هو البياض، والحواريون هم صفوة الأنبياء، وأنصار عيسى (عليه السلام) وقيل كانوا قصارين وملاحين وعددهم إثني عشر رجلاً⁽⁵⁾.

وقد عرف قدماء النصارى جماعتهم: "الإخوة" أو "الإخوة في الله"^(*) ذلك ان العقيدة قد آخت بينهم فأصبحوا إخوة، ثم أصبحت كلمة أخ المفردة تدل على رجل الدين⁽⁶⁾. وظهرت تسميات أخرى: كالقديسين "Les Saints"⁽⁷⁾، والمؤمنين⁽⁸⁾، والمختارين، والأصفياء، والفقراء، والأصدقاء⁽⁹⁾.

أما في القرآن الكريم فلم ترد مصطلحات "عيسوي" و "مسيحي"، و "يسوع"، بل ذكرت ألفاظ عدة مثل "نصارى" و "نصراني" و "نصرانية"، و "أنصاري" في عدة سور من القرآن الكريم⁽¹⁰⁾، قال تعالى⁽¹¹⁾: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾،

(1) - سورة آل عمران: الآية 52.

(2) - سورة المائدة: الآيتان 111-112، سورة الصف: الآية 14.

(3) - رفائيل نخلة اليسوعي: المرجع السابق، ص 179، فؤاد حسنين علي: المرجع السابق، ص 104.

(4) - لسان العرب: ج4، ط1، دار صادر، بيروت، 2000م، ص 265.

(5) - ابن الأثير: المصدر السابق، ج1، ص 314.

(*) - تذكر الأنجيل أحيانا لفظ "إخوة" أو "أخوات" للمسيح، والكلمتان يونانيتان هما: "Odelphai" و "Adelphoi" وتستخدمان للتعبير عن إخوة أو أخوات بالمعنى البيولوجي، وأصلهما سامي بمعنى أقرباء، وربما كان المقصود بهما أولاد العممة أو الخالة، متى: 13 : 46-50، مرقس: 6: 1-6، يوحنا: 7: 3، 12، موريس بوكاي، المرجع السابق، ص108.

(6) - أعمال الرسل: 1: 16.

(7) - رسالة بولس الرسول، الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس: 1: 1.

(8) - أعمال الرسل: 5: 14.

(9) - جواد علي: المرجع السابق، ج6، ص 585.

(10) - سورة البقرة: الآيات 111، 113، 120، 135، 140، سورة آل عمران: الآيتان 52، 67، سورة المائدة: الآيات

18، 51، 69، 82، سورة التوبة: الآية 30، سورة الحج: الآية 17، سورة الصف: الآية 14.

(11) - سورة البقرة: الآية 62.

وقوله تعالى⁽¹⁾: ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾، وقال أيضا⁽²⁾:

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ﴾.

ويبدو أن إطلاق القرآن الكريم لهذه التسميات السابقة على النصارى، تميزا لهم عن اليهود وعن أهل الأديان الأخرى، وقد ذكر القرآن الكريم لفظ المسيح تارة وبلفظ عيسى تارة أخرى في ثلاث عشرة سورة⁽³⁾.

أما أماكن العبادة، ومؤسسات النصارى الدينية، فهناك "الكنيس" و "الكنيسة"، وبالغة اليونانية « EKKLESIA »⁽⁴⁾، وتعني "المجمع" وهو موضع عبادة اليهود والنصارى⁽⁴⁾، وهما عبارة عن المسجد والجامع عند المسلمين، كما تعني المحل الذي يجتمع فيه المواطنون.

وقد أصبحت تطلق على جماعة من المؤمنين أتباع المسيح (عليه السلام)، والكلمة من الألفاظ المعربة عن الأرامية، فلفظة « Knouchto » (كنوشتو) و(كنشت) تعني في السريانية إجتماع ومجمع، كما تعني كنيسة، وتطلق بوجه خاص على كنيس اليهود⁽⁵⁾.

والباحث يلاحظ أن المصادر العربية تميز بين الكنيس وهو موضع عبادة اليهود، والكنيسة وهي موضع عبادة النصارى، وذهب بعض علماء اللغة ومنهم الأب رفاثيل نخلة اليسوعي إلى اعتبار الكنيسة متعبد اليهود، وهذا خلط في دقة المصطلح وخطهم بين الكنيس والكنيسة.

المطلب الثاني: ظهور المسيحية وتطورها:

بعد دراسة معنى المسيحية لغة واصطلاحا وما جاء فيها من تعاريف عند أصحاب اللغة والأديان وإختلافهم وإتفاقهم في تحديد المفهوم اللغوي، نعالج في هذا المطلب ظهور المسيحية وتطورها التاريخي.

لقد ظهرت النصرانية كغيرها من الديانات التوحيدية الأخرى في الشرق الأدنى القديم، وتحديدًا في بلاد الشام، التي احتدم فيها الصراع بين القوى الكبرى آنذاك، بحكم موقعها الجغرافي الذي يتوسط العالم القديم، إذ تنافست عليها القوى الدولية المجاورة لها من مصرية وبابلية وآشورية وحيثية، ثم

(1) - سورة المائدة: الآية 14.

(2) - سورة التوبة: الآية 30.

(3) - عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء، مكتبة رحاب، الجزائر، 1987م، ص 372.

(4) - الإكليزيا: « EKKLESIA » لفظ يوناني كان يطلق على الجمعية الشعبية في حكومة البلديات، وقد أطلقه المسيحيون على تلك الحجرات الخاصة أو المعابد الصغيرة التي كانوا يجتمعون فيها على غرار المجمع اليهودية، ول ديورانت: المرجع السابق، ج 11، ص 277.

(4) - جواد علي: المرجع السابق، ج 6، ص ص 649 - 651.

(5) - رفاثيل نخلة اليسوعي: المرجع السابق، ص 204.

تصارعت عليها أعظم الإمبراطوريات في ذلك الزمان وهما إمبراطورية الشرق الفارسية، وإمبراطورية الإسكندر المقدوني الإغريقية.

وقد ظهرت النصرانية في أيام تيباريوس قيصر^(*)، حيث أعلن عيسى (عليه السلام) رسالته في مطلع القرن الأول الميلادي وعا إلى الإيمان بالله وإلى المحبة والسلام⁽¹⁾. ومن الأهمية بمكان أن أعرض في هذا السياق إلى ميلاد المسيح، نظرا لما لهذا الميلاد من أهمية في عالم الخلق والنبوة والوحي.

ولد عيسى بن مريم أيام ملوك الطوائف، وقد اختلف المؤرخون في ولادته، فالرأي الأول يرى أن ولادته كانت بعد مضي ثلاثمائة وثلاث وستين (363) سنة من غلبة الإسكندر^(**) المقدوني على أرض بابل⁽²⁾.

ويرى الرأي الثاني أن ولادته كانت في بيت لحم سنة أربع وثلاثمائة (304) لغلبة الإسكندر⁽³⁾، وكانت مريم قد حملت به وعمرها ثلاث عشرة (13) سنة، وقيل خمسة عشرة (15) سنة⁽⁴⁾، وقيل عشرون (20) سنة⁽⁵⁾.

ويذكر ابن كثير⁽⁶⁾ أن مريم كانت في خدمة الكنيسة ببيت المقدس مع ابن عمها يوسف النجار^(***)، وقد زعمت النصارى أنه تزوجها، إلا أنه لم يقربها إلا بعد أن رفع المسيح (عليه السلام).

(*) - تيباريوس قيصر: « Tiberius Julius Caesar » (42 ق.م - 37م) إمبراطور روماني (14م - 37م)، ابن ليقيا، تبناه أغسطس « Augustus » منذ سنة 4م وخلفه في الحكم، امتدت توسعته إلى نهر الراين، اشتهر بسياسته المالية المحكمة والصارمة، عمر فروخ: تاريخ الجاهلية، ص 64، أمين سلامة: التاريخ الروماني، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة، 1959م، ص ص 428 - 429، Larousse Illustre, P.1619

(1) - الطاهر ذراع: المجتمع العربي القديم...، ج2، ص 357.

(**) - الإسكندر الكبير: « Alexandre le grand » (356 - 323 ق.م) ملك مقدونيا (336 - 323 ق.م) ابن فيليب الثاني، وأولمبيا، أراد تكوين إمبراطورية عظمى في الشرق فبدأ حملته سنة 334 ق.م، استولى على بابل سنة 331 ق.م، بلغت توسعته حدود الهند بوصوله إلى نهر الهندوس، توفي ببابل سنة 323 ق.م، أحمد سوسة: المرجع السابق، ص ص 157 - 158، أمين سلامة: المرجع السابق، ص 241، LAROUSSE ILLUSTRÉ, P 1070

(2) - ابن الأثير: المصدر السابق، ج1، ص 307.

(3) - أبو الفداء: المصدر السابق، ج1، ص 62، سليمان مظهر: المرجع السابق، ص 378.

(4) - ابن الأثير: المصدر السابق، ج1، ص ص 307 - 308.

(5) - عبد الوهاب النجار: المرجع السابق، ص 380.

(6) - قصص الأنبياء، ص 451.

(***) - يوسف النجار: هو يوسف بن يعقوب بن ماثان النجار، كان نجارا حكيما وهو ابن عم مريم، وهو أول من أنكر حملها، ابن كثير: قصص الأنبياء، ص 452.

وكانت مريم إذا نفذ مؤها وماء يوسف ابن عمها، انطلقا معا إلى المغارة لملء القلل ثم يعودان إلى الكنيسة، وكانت تخرج من المسجد أحيانا بمفردها، في زمن حيضها، أو لحاجة ضرورية كاستقاء ماء، أو الحصول على غذاء.

فلما كان اليوم الذي لقيها فيه جبريل، انطلقت وحدها إلى المغارة لاستقاء الماء، قال تعالى⁽¹⁾: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَبَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾، أي انفردت وحدها شرقي المسجد الأقصى، إذ بعث الله إليها الروح الأمين جبريل (عليه السلام)، ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾⁽²⁾، فقال لها: يا مريم إن الله بعثني إليك، فلما رآته قالت ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾⁽³⁾، فقال جبريل: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾⁽⁴⁾، أي رسول ربك ولست ببشر، ولكني ملك بعثني الله إليك، قال عز وجل⁽⁵⁾: ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾، فأجابها الملك جبريل: ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلِيَّ هِينًا﴾⁽⁶⁾، فاستسلمت مريم لقضاء الله فنفخ جبريل في جيب درعها ثم انصرف، فحملت بعبسى (عليه السلام)، وكان يوسف النجار ابن عمها يلازمها دائما، لذلك استعجب الأمر حينما رأى مظاهر الحمل عليها، وذلك لما يعلم من ديانتها وعبادتها ونزاهتها، فسألها: يا مريم هل ينبت زرع من غير بذر؟ قالت: نعم، قال: هل يكون شجر من غير غيث؟ فأجابت: نعم، قال: وهل يكون ولد من غير ذكر؟ قالت: نعم، ألم تعلم أن الله أنبت الزرع يوم خلقه بغير بذر، وخلق الشجر من غير مطر، وخلق آدم وحواء من غير ذكر ولا أنثى، قال، بلى، فعلم أن الذي بها شيء فوق الطاقة البشرية، ولا يسعه أن يسألها بعد ذلك⁽⁷⁾، كما رأى في منامه أن يمسكها ولا يشهر بها، لأنها بريئة من الدنس⁽⁸⁾.

وقد ذكرت الآيات أنها لما حملت أئتها خالتها زوجة زكريا الذي كفلها فقالت: إني حبلى، فقالت لها مريم: وأنا أيضا حبلى، فاعتنقتها أم يحيى وقالت لها: إني أرى ما في بطني يسجد لما في بطنك⁽⁹⁾،

(1) - سورة مريم: الآية 16.

(2) - سورة مريم: الآية 17.

(3) - سورة مريم: الآية 18، عبد الوهاب النجار: المرجع السابق، ص 375.

(4) - سورة مريم: الآية 19.

(5) - سورة مريم: الآية 20، عبد الوهاب النجار: المرجع السابق، ص 375.

(6) - سورة مريم: الآية 21.

(7) - ابن الأثير: المصدر السابق، ج1، ص ص 308 - 309، ابن كثير: قصص الأنبياء، ص 452.

(8) - إنجيل متى: 1: 20.

(9) - ابن كثير: قصص الأنبياء، ص 453.

مصدقا لقوله تعالى⁽¹⁾: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِبِحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾، وكانت مريم تقول: كنت إذا خلوت، حدثني وكلمني، وإذا كنت بين الناس سبح في بطني⁽²⁾، مصدقا لقوله تعالى⁽³⁾: ﴿فَنَادَاهَا﴾. واختلف المفسرون والمؤرخون في مدة حملها، فقيل: ستة أشهر، أو سبعة أو ثمانية أشهر⁽⁴⁾، وقيل: تسعة أشهر كما تحمل كل النساء، ولو كان خلاف ذلك لذكر⁽⁵⁾، وقد استأنسوا لذلك لقوله تعالى⁽⁶⁾: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَاتَّبَعَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾.

ولم تبين المصادر الإسلامية مدة الحمل، ولو كانت غريبة لذكرت، والظاهر أنها حملت به المدة الشائعة كما تحمل النساء وهي تسعة أشهر⁽⁷⁾.

ولما أحست مريم بالمخاض خرجت إلى جانب المحراب الشرقي فأنت أقصاه، قال تعالى⁽⁸⁾: ﴿فَاجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّسِيًّا﴾، أي اضطرها المخاض على اللجوء إلى جذع النخلة في بيت لحم حيث ولد عيسى بن مريم (عليه السلام)، ولما اتهمها بنوا إسرائيل ولم يصدقوها مع أنهم يعترفون أنها كانت من الناسكات العابدات، فقد كانت تتمنى الموت قبل هذا الحال⁽⁹⁾.

قال عز وجل⁽¹⁰⁾: ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا﴾، وذكر المفسرون⁽¹¹⁾ ومنهم سيد قطب أن "سريا" هو النهر الصغير أجراه الله تحتها، والأرجح انه ينبوع جرى للحظته أو تدفق من مسيل ماء في الجبل، وكان جذع النخلة مقطوعا ويابس فهزته، فإذا هو نخلة، وقيل كان مقطوعا، فلما أجهداها الطلق احتضنته فاستقام واخضر، وقيل لم تكن النخلة مثمرة لأن ميلاده كان في فصل الشتاء⁽¹²⁾، ولم ولدته أتت قومها

(1) - سورة آل عمران: الآية: 39.

(2) - ابن الأثير: المصدر السابق، ج1، ص 310.

(3) - سورة مريم: الآية: 24.

(4) - عبد الوهاب النجار: المرجع السابق، ص 378.

(5) - ابن كثير: المصدر السابق، ص 453.

(6) - سورة مريم: الآية: 22.

(7) - محمد أبو زهرة: محاضرات في النصرانية، ص 16.

(8) - سورة مريم: الآية: 23.

(9) - عبد الوهاب النجار: المرجع السابق، ص 379، سليمان مطهر: المرجع السابق، ص 379.

(10) - سورة مريم: الآيتان: 24 - 25.

(11) - في ظلال القرآن: ج4، ص 2307.

(12) - ابن الأثير: المصدر السابق، ج1، ص 310 - 312، ابن كثير: قصص الأنبياء، ص 454.

وهي تحمله: ﴿قَالُوا يَمْرِيْمٌ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾⁽¹⁾.

وقيل أن يوسف النجار تركها في المغارة أربعين يوماً، ثم جاء بها إلى أهلها، فلما رأوها قالوا ما هذه الفعلة الشنيعة التي اقترفتيها⁽²⁾.

وقيل أنها لما ولدت وأنت به قومها، ذهب إبليس فأخبر بني إسرائيل فأقبلوا عليها ينكرون فعلتها وأرادوا رجمها بالحجارة⁽³⁾.

ولما اتهموها بالفجور أشارت إلى المسيح (عليه السلام) وعمره آنذاك أربعون يوماً^(*) وقالت لهم خاطبوه وكلموه ﴿قَالُوا كَيْفَ نَكْلِمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾⁽⁴⁾، فأنطقه الله حيث جاهر القوم بقوله: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾⁽⁵⁾، وقد أراد قومها أن يرموها فلما تكلم عيسى (عليه السلام) تركوها.

وقد اختلف المؤرخون والمفسرون في تاريخ ميلاده ومكانه، إلا أن الأرجح أنه ولد في بيت لحم قرب بيت المقدس سنة أربع قبل الميلاد (4 ق.م).

وقيل أنه لما ولد خرت الأصنام في مشارق الأرض ومغاربها، وأنه ظهر نجم عظيم في السماء، وأن ملك الفرس أشفق من ظهوره، فسأل الكهنة عن ذلك فقالوا: هذا لمولد عظيم في الأرض⁽⁶⁾.

وقد قدمت جماعة من حكماء المجوس^(*) إلى أورشليم لرؤية هذا المولود الجديد، فسألوا عن

(1) - سورة مريم: الآية: 27، عبد الوهاب النجار: المرجع السابق، ص 383.

(2) - ابن الأثير: المصدر السابق، ج1، ص ص 310 - 311.

(3) - أبو الفداء: المصدر السابق، ج1، ص 62.

(*) - نطق المسيح في المهدي مع قومه وعمره أربعين يوماً، ثم أمسك عن الكلام حتى بلغ سن النطق المعتاد عند الأطفال، ثم أنطقه الله بعد ذلك بالحكمة والبيان، محمد أبو زهرة: محاضرات في النصرانية، ص 16.

(4) - سورة مريم: الآية: 29.

(5) - سورة مريم: الآيات: 30 - 33.

(6) - ابن كثير: قصص الأنبياء، ص 465.

(*) - المجوس: لفظ فارسية وهي جمع "مغوس" MAGUS، وتعني عابد النار، وهي من الألفاظ التي دخلت اليونانية ولغة بني إرم، محمد إبراهيم الفيومي: تاريخ الفكر الديني الجاهلي، ط5، دار الجيل، بيروت، 1999م، ص 308، رفاتيل نخلة اليسوعي: مرجع سابق، ص 269.

مكان الملك، فلما علم بهم هيرودس(*) ملك اليهود، دعاهم إليه وعلم بأمرهم وما جاؤوا من أجله، فانتابه الخوف على ملكه من هذا المولود، ثم دعا الكهنة اليهود، وسألهم عن مولد المسيح فقالوا: في بيت لحم اليهودية حسب النبوءات، وطلب من المجوس إيجاد الصبي ليسجد له، وكان ينوي قتله⁽¹⁾، إلا أن المجوس لما وجدوا المسيح وأمه، أدهشهم الموقف حينما رأوا الملائكة محاطة بهما، فسجدوا له وقدموا هداياهم، ثم عادوا إلى بلادهم من غير أن يعرجوا على هيرودس لأنهم بوحى من الله نهوا عن العودة إليه⁽²⁾.

وفي هذا الوقت بالذات اوحى الله إلى مريم أن تتطلق بالمسيح إلى مصر مصداقا لقوله تعالى⁽³⁾: ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾، كما ظهر ملاك الرب في الحلم ليوسف النجار أن يأخذ مريم وابنها إلى مصر، لأن هيرودس يطلب الصبي ليقتله، فأخذهما يوسف وسار بهما إلى مصر⁽⁴⁾، ولما علم هيرودس بذلك امر بقتل جميع أطفال بيت لحم ممن لا يتجاوز سنهم سنتين⁽⁵⁾، وقد أقاموا بمصر اثنتي عشرة (12) سنة⁽⁶⁾.

واختلف المفسرون في معنى الربوة، هل هي المكان الذي ولد فيه المسيح وهو محلة بيت المقدس، أو هي أنهار بدمشق، أو مصر، وقيل هي الرملة⁽⁷⁾.

والأرجح أن المقصود بالربوة هي مصر التي أقام بها صحبة يوسف ووالدته مدة اثنتي عشرة سنة، ولما بلغتهم أخبار وفاة هيرودس، عاد عيسى وأمه إلى بلاد الشام ونزلا الناصرة، ولما بلغ

(*)-هيرودس « Hérode Antipas »: لقب أطلقه اليونان على كل من يولون من بني إسرائيل نائباً عليهم ويعرف بلقب (هرذوس) أو (هيرودوس) وكان هيرذوس الذي حاكم المسيح وقصد قتله اسمه (فيلاطوس)، اليعقوبي: المصدر السابق، ج1، ص 69، أبو الفداء: المصدر السابق، ج1، ص ص 66-67، (22 ق.م- 39م)،

P. Larousse. P.1325

(1)- سليمان مظهر: المرجع السابق، ص 380، عبد الوهاب النجار، المرجع السابق، ص 385.

(2)-اليعقوبي: المصدر السابق، ج1، ص 69، محمد أبو زهرة: محاضرات في النصرانية، ص 26.

(3)- سورة المؤمنون: الآية: 50.

(4)- ابن الأثير: المصدر السابق، ج1، ص 312، ابن كثير: قصص الأنبياء، ص 468، سليمان مظهر: المرجع السابق، ص 385.

(5)-اليعقوبي: المصدر السابق، ج1، ص 69، محمد أبو زهرة: المرجع السابق، ص ص 26-27.

(6)- أبو الفداء: المصدر السابق، ج1، ص 62، ابن كثير: المصدر السابق، ص 466، عبد الوهاب النجار: المرجع السابق، ص 386.

(7)- ابن الأثير: المصدر السابق، ج1، ص 312، محمد أبو زهرة: المرجع السابق، ص 27.

المسيح سن الثلاثين من عمره، عمده يوحنا المعمدان^(*) في نهر الأردن⁽¹⁾. وبعد تعميده صام المسيح أربعين يوماً، ثم بعثه الله رسولا لبني إسرائيل⁽²⁾، قال الله تعالى⁽³⁾: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾. ولما شرع في التبشير بدعوته، راح ينتقل بين مدن وقرى الجليل، وكان الحواريون الذين اتبعوه اثني عشر رجلا يلازمونه، وقد استمرت دعوته ثلاث سنوات وثلاثة أيام⁽⁴⁾. وكان للمسيح ورسالته معجزات ليدحض بها مفتريات اليهود، وليبين طبيعة الديانة الجديدة التي جاءت مكتملة ومطهرة للديانة الموسوية، فتلك المعجزات جاءت لتحيي الجوانب الروحية، وإقامة الدليل على وجود الروح في النفس البشرية⁽⁵⁾، ذلك أن اليهود لم يكونوا يعرفون الروح على أنها شيء غير الجسم، فلما جاء عيسى (عليه السلام) من غير أب، كان ذلك إعلانا لعالم الروح بين قوم أنكروها، وتلك آية الله في عيسى وأمه مريم⁽⁶⁾، قال تعالى⁽⁷⁾: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾.

وقد بعث الله عيسى بن مريم وأيده بالمعجزات، حسب ما ذكر في القرآن الكريم، أربعة منها في سورة المائدة في قوله تعالى⁽⁸⁾: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ادْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفَخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ إلى قوله عز وجل⁽⁹⁾: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾

(*)- يوحنا المعمدان: هو النبي يحي بن زكريا (عليهما السلام) ابن خالة المسيح، عاش في برية اليهودية ثم ظهر على شاطئ الأردن يعمد بالماء ويبشر بمجيء المسيح، قطع هيرودوس رأسه بتحريض من زوجته هيرودية سنة واحد وثلاثين (31) للميلاد، ابن كثير: المصدر السابق، ص 433، محمد أبو زهرة: المرجع السابق، ص 27.

(1)- أبو الفداء: المصدر السابق، ج1، ص ص 62-63، ابن كثير: المصدر السابق ص 467.

(2)- اليعقوبي: المصدر السابق، ج1، ص 72.

(3)- سورة الصف: الآية: 6.

(4)- الشهرستاني: المصدر السابق، ج1، ص 220.

(5)- الطاهر نراع: المجتمع العربي القديم، ج2، ص 359.

(6)- محمد أبو زهرة: محاضرات في النصرانية، ص 18.

(7)- سورة الأنبياء: الآية: 91.

(8)- سورة المائدة: الآية: 110.

(9)- سورة المائدة: الآية: 115.

وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ * قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾.

أما المعجزة الخامسة فقد ذكرت في سورة آل عمران، وهي إنباؤه (عليه السلام) بأمر غائبة عن حسه ولم يعانيتها، فقد كان ينبئ صحابته وتلاميذه بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم⁽¹⁾، وقد ذكر الله تعالى ذلك في قوله⁽²⁾: ﴿وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

ويمكن أن نستنتج من الآيات الكريمة السابقة تلك المعجزات^(*) التي أيد الله بها عيسى لتكون حجة على قوم بني إسرائيل، وإن كان في الحقيقة أن مولده في حد ذاته لأكبر معجزة فضلا عن نطقه وهو في المهد صبيًا.

قال تعالى⁽³⁾: ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾، لكن في الوقت ذاته يمكن لنا أن نتساءل: لماذا كانت معجزاته من ذلك النوع من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص والمجنوم؟.

إن الله لما بعث المسيح أيده بمعجزات من جنس ما يعرف قومه، حتى يكون عجزهم حجة عليهم، وعلى غيرهم ممن هم دونهم في الطب، فقد غلب على زمانه الطب الطبيعي، فكانت معجزة كل نبي في زمانه بما يناسب أهل ذلك الزمان⁽⁴⁾.

وفي هذا السياق يذكر الشهرستاني⁽⁵⁾ معجزات المسيح (عليه السلام) في قوله: " كانت له آيات ظاهرة مثل إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، ووجوده وفطرته آية كاملة على صدقه، ذلك أنه

(1) - ابن كثير: قصص الأنبياء، ص 468.

(2) - سورة آل عمران: الآية: 49.

(*) - من معجزات المسيح التي ذكرت في القرآن أنه صور من الطين كهيئة الطير وقيل هو الخفاش، فينفخ فيه فيصير طائرا، وإحياء الموتى، وممن أحياهم عازر وكان صديقا له وكان قد مات منذ ثلاثة أيام، كما أحيى سام بن نوح، وعزير النبي، ويحي بن زكريا، وإبراه الأكمه والأبرص، وهما مرضان استعصى على العالم قديمه وحديثه إيجاد دواء لهما، وإنزال المائدة بطلب من الحواريين، وإنباؤه صحابته وتلاميذه بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم، وقد ذكر الله تعالى ذلك في قوله: (وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)، سورة آل عمران: الآية: 49، أبو الفداء: المصدر السابق، ج1، ص 63، ابن الأثير: المصدر السابق، ج1، ص ص 313-315، الشهرستاني: المصدر السابق، ج1، ص 220، ابن كثير: قصص الأنبياء، ص ص 480-481.

(3) - سورة مريم: الآية: 21.

(4) - ابن كثير: البداية والنهاية، ج2، ص 471، قصص الأنبياء، ص 477.

(5) - الملل والنحل، ج1، ص 220.

وجد من غير نطفة سابقة، ونطقه من غير تعليم سابق".

وبالرغم من أن الله بعث عيسى (عليه السلام) بتلك البيّنات وأيد رسالته بتلك المعجزات، إلا أن القوم الذين بعث فيهم كانوا غلاظا شدادا، فاليهود قوم استهوتهم المادة، فقد كان نساكهم وسدنة الهيكل، يجمعون المال من ندور الهياكل والقرايين، وزعموا أن لهم منزلة دينية ومكانة سامية بين قومهم، فكان من العسير عليهم التنازل عن عليائهم وإمّيتازاتهم، فلما جاء المسيح ندد بتصرفاتهم وأفعالهم ونادى بأن الناس جميعا سواء أمام ملكوت الله، فلم يرق ذلك لأحبار اليهود، فأنكروا عليه ذلك وناصبوه العدا. وبدأوا يخططون ويتآمرون ويكيدون له، ويحرضون الحكام الرومان عليه، وانتهى بهم الأمر إلى أن تمكنوا من حمل الحاكم الروماني(*) على أن يصدر أمرا بالقبض عليه والحكم عليه بالإعدام صلبا(1).

واجتمع عظماء اليهود وأحبارهم فقالوا: إنا نخاف أن يفسد علينا ديننا، ويتبعه الناس، فقال لهم " قيافا" رئيس الكهنة: لأن يموت رجل واحد خير من أن يذهب شعب بأسره، فأجمعوا على قتله(2). ولما أعلم الله المسيح أنه مخرجه من هذه الدنيا، جزع من ذلك ودعا الحواريين وصنع لهم طعاما(**)، وكانت اليهود في تلك الأثناء تسعى في طلبه، وقد حضر أحد الحواريين إلى هرذوس الحاكم اليهودي.

ويذكر أبو الفداء(3) أنه يهوذا الإسخريوطي وهو أحد تلاميذه، فدلهم عليه، ولما رأى الله الخطر على عبده أمر جبريل فرفعه إلى السماء.

وفي هذا السياق يرى ابن الأثير(4): أن يهوذا هو الذي دخل الغرفة التي رفع منها المسيح (عليه السلام)، وبقدرة الله تعالى تغير يهوذا في النطق والوجه فصار شبيها بالمسيح، ولما خرج إليهم إعتقدوا أنه المسيح فقتلوه وصلبوه، قال تعالى(5): ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾، ويؤكد الله تعالى

(*) - بيلاطس « PILATE » هو الحاكم الروماني الذي قدم إليه اليهود المسيح ليحاكمه، فلما رأى أن المسيح لم يفعل شيئا يمس بسلطان الحاكم قال لليهود حاكموه أنتم حسب شريعتكم، وجاء بطشت، وغسل يديه، وقال: أنا بريء من دم هذا البار، فقال اليهود: دمه علينا وعلى أبنائنا، ابن حزم الأندلسي: المصدر السابق، ج1، ص 118.

(1) - محمد ابو زهرة: محاضرات في النصرانية، ص 23.

(2) - اليعقوبي: المصدر السابق، ج1، ص 76.

(**) - يعرف عند النصارى بالعشاء الأخير أو العشاء السري، وقد خص به المسيح تلاميذه من الحواريين الإثني عشر وطلب منهم أن يجتهدوا له في الدعاء حتى يؤخر الله أجله، ابن كثير: قصص الأنبياء، ص 490.

(3) - المختصر في أخبار البشر، ج1، ص 64.

(4) - الكامل في التاريخ، ج1، ص 318.

(5) - سورة النساء: الآية: 157.

ذلك في قوله⁽¹⁾: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾، ونلاحظ أن القرآن الكريم يقرر هنا أن الله لم يمكنهم من عيسى بل نجاه من أيدي اليهود الآثمة.

وقد اختلف العلماء والمفسرون في موته ورفعته إلى السماء.

يرى بعض المفسرين من أمثال القرطبي⁽²⁾: "أن الله تعالى رفعه بجسمه وروحه إليه، ثم أحياه وأنزله إلى أمه مريم بعد سبعة أيام، وهي عند المصلوب تبكي ومعها امرأة كان المسيح قد أبرأها من الجنون، وقد أمر مريم بأن تجمع الحواريين، فبثهم في الأرض رسلا يبلغون رسالته".

وذكر الشهرستاني⁽³⁾: أن المسيح لما نزل رأى شخصه شمعون الصفا^(*)، وهو أكثر الحواريين

علما وأدبا وزهدا.

ويرى فريق آخر من المفسرين^(**): أن المسيح عاش إلى أن توفاه الله كما يتوفى أنبياءه، وقد

أخذوا في ذلك بظاهر قوله تعالى⁽⁴⁾: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنِي مَتُوفِيكَ وَرَافِعَكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرَكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ويذكر القرآن الكريم في موضع آخر قوله تعالى⁽⁵⁾: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

فقد أورد القرطبي⁽⁶⁾ في تفسيره "الجامع لأحكام القرآن" أن الله عز وجل توفاه قبل أن يرفعه،

والموت في كتاب الله على ثلاثة أوجه: وفاة بالموت وذلك في قوله تعالى⁽⁷⁾: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾، ووفاة النوم، قال الله تعالى⁽⁸⁾: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾، يعني الذي يميتكم، ووفاة

(1) - سورة النساء: الآية: 157.

(2) - الجامع لأحكام القرآن، ج6، ص ص 9 - 10.

(3) - الملل والنحل: ج1، ص 221.

(*) - شمعون الصفا: اسمه الأصلي سمعان وقد غيره المسيح وسماه بطرس، وهو تلميذ يسوع وأحد الرسل الإثني عشر، يلقب بالقانوني أو الغيور، يقال أنه التقى بيهودا الرسول في فارس، كان وأخوه أندراوس صيادين عندما دعاهما المسيح لاتباعه، تذكر مصادر القرن الثاني الميلادي أنه ترك أنطاكية إلى روما، استشهد في عهد نيرون NERON مصلوبا سنة 67م في نفس اليوم الذي استشهد فيه بولس، متى: 10: 4، مرقس: 3: 18، لوقا: 6: 15، ابن حزم: المصدر السابق، ج1، ص 120، محمود محمد محفوظ: المرجع السابق، ج1، ص 527.

(**) - من هؤلاء المفسرين: الزمخشري، ابن كثير، ابن عباس، والبخاري.

(4) - سورة آل عمران: الآية 55.

(5) - سورة المائدة: الآية 117.

(6) - الجامع لأحكام القرآن، ج6، ص ص 376 - 377، البخاري: فتح البيان في مقاصد القرآن، تحقيق إبراهيم شمس الدين، ج2، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1999م، ص 341.

(7) - سورة الزمر: الآية 42.

(8) - سورة الأنعام: الآية 60.

الرفع قال تعالى⁽¹⁾: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ والتوفي هنا يستعمل في أخذ الشيء وافيا كاملا، أي جسدا وروحا.

وورد في تفسير ابن عباس أن عيسى لم يقتل بل رفعه الله إليه روحا وجسدا، ويفسر كلمة ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ أي رفعتني من بينهم⁽²⁾.

ويرى الزمخشري⁽³⁾: أن الله عصم المسيح من أن يقتله الكفار، ورفع له إليه وهو نائم حتى لا يلحقه خوف ويستيقظ وهو في السماء آمن مقرب.

وفي شرحه للآية الكريمة ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾⁽⁴⁾ يذكر الزمخشري⁽⁵⁾ أن اليهود اختلفوا في قتل المسيح، فقال بعضهم: إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا؟ وإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى؟ وقال البعض: رفع إلى السماء، وقال البعض الآخر: الوجه وجه عيسى والبدن بدن صاحبنا.

وهذا دليل على أن المسيح رفع جسدا وروحا إلى السماء.

أما ابن كثير⁽⁶⁾ فيرى: أن الله رفع المسيح إليه جسدا وروحا وأن الذين كانوا معه من الحواريين في البيت قد شاهدوا رفعه، من روزنة فتحت في سقف البيت، وأخذت عيسى سنة من النوم فرفع إلى السماء كما قال تعالى⁽⁷⁾: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾.

ويبدو من المصادر الدينية المسيحية⁽⁸⁾ أن قرار صلب وقتل المسيح - حسب زعمهم - اتخذه السنهدين^(*) الذي قام بمحاكمة المسيح سنة تسع وعشرين (29) ميلادية.

(1) - سورة آل عمران : الآية 57.

(2) - الفيروز آبادي: تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، دار الأنوار المحمدية، القاهرة، (د.ت)، ص ص 85، 105.

(3) - الكشاف، ج1، ص ص 432 - 433.

(4) - سورة النساء: الآية 157.

(5) - الكشاف، ج1، ص ص 579 - 580.

(6) - تفسير القرآن العظيم، ج2، ص ص 428 - 429.

(7) - سورة آل عمران: الآية 57.

(8) - إنجيل مرقس: 14: 53 - 65، إنجيل متى: 26: 57 - 68.

(*) - السنهدين: « Sanhedrin » مصطلح عبري يعني حسب التلمود، المجلس أو المجمع الديني الأعلى، تأسس في أورشليم سنة مائة وواحد وأربعون (141) قبل الميلاد، وبقي قائما إلى أن ألغي في العهد الروماني سنة سبعين (70) ميلادية بعد خراب اورشليم، يتكون من مجلسين: السنهدين الصغير: ويتألف من 23 عضوا ويعقد جلساته في المدن وهو أشبه ما يكون بمحكمة للعدالة المحلية، والسنهدين الكبير يتألف من 71 عضوا وهو مجلس أعلى مقره بأورشليم بداخل حرم الهيكل، أحمد سوسة: المرجع السابق، ص 179،

Jean Christophe Attias et Esther Benbassa : Op. cit., p 247

تلك هي الديانة النصرانية كما جاء بها عيسى (عليه السلام) ودعا إليها، وتلك معجزاته، فما مصير المسيحية بعد أن رفع المسيح إلى ربه؟ وما الذي أدخل عليها، خاصة ما تعلق بشخص المسيح نفسه؟ وما مصادر المسيحية وكتبها المقدسة؟ وما هي مجامع المسيحيين الدينية؟ وما هي الفرق المسيحية القديمة؟ ثم ما الأدوار التاريخية التي مرت بها المسيحية إلى ظهورها بشبه الجزيرة العربية قبيل ظهور الإسلام؟

سأحاول أن أجيب في هذا المبحث عن هذه التساؤلات التي قد تفيد الباحثين والطلبة في هذه المسألة.

تعرض المسيحيون بعد المسيح (عليه السلام) إلى ألوان التعذيب والإضطهاد والتكيل حسب مصادرهم، مما جعلهم يستخفون بديانتهم، أو يفرون بها أحياناً، أو يصمدون أحياناً أخرى، وأشد ما نزل بهم كان في عهد القياصرة الرومان⁽¹⁾ نيرون^(*)، وتراجان^(**)، وديسيوس^(***)، ودوقليانوس^(****)، واستمرت سياسة الإضطهاد والتكيل بالمسيحيين إلى مجيء قسطنطين^(*****) في مطلع القرن الرابع

(1) - محمد أبو زهرة: محاضرات في النصرانية، ص 28.

(*) - نيرون: « NERON » (37- 68م) إمبراطور روماني من سنة 54م إلى سنة 68م، ابن كلوديوس بالتبني: إتسمت تصرفاته بالوحشية، فقتل أمه ثم زوجته، وأحرق روما سنة 64م واتهم المسيحيين وبدأ اضطهادهم، كان يعتقد أنه شاعر وفنان كبير حتى انه قال وهو يحتضر: "ما أعظم الفنان الذي سيخسره العالم بموتي"، مات منتحراً، محمود محمد محفوظ: المرجع السابق، ج4، ص ص 2502- 2503.

(**) - تراجان: « TRAJAN » (53- 117م) إمبراطور روماني (98- 117م) ولد في إسبانيا، تبناه الإمبراطور نرفا، وتولى الحكم بعده، كان قائداً قديراً سخر قوته لخير شعبه، دعم حدود الإمبراطورية، أقام منشآت كثيرة في روما منها فوروم تراجان، خلفه هادريان، المرجع نفسه، ج2، ص 687.

(***) - ديسيوس: « DECIUS » (201- 251م) إمبراطور روماني من 249م إلى 251م، بعد توليه العرش، استمر في اضطهاد المسيحيين وأوامر مجحفة في حقهم، وعرفوا سنة 250م شتى أنواع التعذيب والتكيل، محمد أبو زهرة: المرجع السابق، ص 28، LAROUSSE ILLUSTRÉ, P. 1215 ومنهم اصحاب الكهف او شهداء أفسوس Ephesus الذين ذاع امرهم حتى بلغ مكة عاصمة الحجاز، بندلي الجوزي: المرجع السابق، ص 314.

(****) - دوقليانوس: « Doclétien » (245- 313م) إمبراطور روماني (284- 305م) للدفاع عن الإمبراطورية عين ماكسيميانوس شريكا له سنة 286م ثم قسطنش الأول وجالوريوس قيصرين (مساعدين للإمبراطور) سنة 293م، ونجحت هذه السياسة فأعيدت بريطانيا إلى حظيرة الإمبراطورية سنة 296م وأخضع الفرس سنة 298م، لكنه اضطهد المسيحيين وأخفقت إصطلاحاته الإقتصادية، إعتزل الحكم سنة 305م، قضى خريف عمره في سالونا، محمود محمد محفوظ: المرجع السابق، ج2، ص 1097، شفيق الجراح: دراسة في تطور الحقوق الرومانية ومؤسساتها، المطبعة الجديدة، دمشق، 1978م، ص 35.

(*****) - قسطنطين: (288- 337م): إمبراطور روماني، اسمه باللاتينية كايوس فلافيوس فالوريوس أورليوس قسطنطينوس Caius Flavius Valerius Aurelius Constantinus، ابن قسطنطينوس كلورس وأمه القديسة هيلانة Sainte- Hélène، نودي به إمبراطور بعد وفاة والده (306- 337م)، إعتنق المسيحية سنة 313م لأسباب سياسية =

الميلادي، الذي إعتنق المسيحية سنة ثلاثمائة وثلاثة عشر (313) للميلاد، وأصبحت المسيحية ديانة رسمية للدولة الرومانية⁽¹⁾، فتتنفس المسيحيون الصعداء، وخف الإضطهاد عنهم نوعاً ما، ذلك أن كتبت المسيحية التي فقدت سندها كان بسبب ذلك الإضطهاد كما يذكر الشيخ رحمه الله الهندي⁽²⁾.

لقد بلغت المسيحية مرحلة من التطور التاريخي بعد رفع المسيح (عليه السلام) بفترة وجيزة، وأخذت منحى آخر في مجالات الحياة الدينية والدنيوية، ويعتبر بولس^(*) أول من حمل لواء الديانة المسيحية بعد حادثة الصلب في ثوبها الجديد⁽³⁾.

كان بولس يهودياً قبل أن يعتنق المسيحية، وكان مواطناً رومانياً ومن الفريسيين إحدى الفرق اليهودية المتشددة، وحينما يتحدث بولس عن نفسه يصرح بيهوديته قائلاً:

" أنا رجل يهودي، أنا فريسي ابن فريسي، على رجاء قيامة الأموات أنا أحاكم"⁽⁴⁾.

أحدث بولس إنقلاباً شاملاً في المسيحية بعد إعتناقه لها، واستطاع أن يؤسس ديانة جديدة تختلف تماماً عن المسيحية التي جاء بها المسيح (عليه السلام) والحديث عن أفكار بولس وعقيدته ودوره في تطوير المسيحية، إنما هو حديث عن المؤسس الحقيقي للمسيحية المعاصرة⁽⁵⁾.

= لا دينية، وأصدر منشور "ميلان" الذي أقر فيه الحرية الدينية، كان أريوسيا كوالده، لم يعمد إلا وهو على فراش الموت، دعا إلى مجمع "نيقية" Nicaea سنة 325م وبذلك أوجد المجمع الدينية بإشارة من والدته، نقل عاصمته إلى "بيزنطة" التي أعاد بناءها (324-336م) وسماها "القسطنطينية - Constantinople"، سفيق الجراح: المرجع السابق، ص 35، ابن حزم: المصدر السابق، ج1، ص 110، ول ديورانت، المرجع السابق، ج11، ص 384، المسعودي: التنبيه والإشراف، ص 144، Larousse Illustré, pp. 1195- 1196

(1) - جواد علي: المرجع السابق، ج6، ص 613.

(2) - إظهار الحق، ج1، ص 60، محمد أبو زهرة: محاضرات النصرانية، ص ص 29، 31.

(*) - بولس « St. Paul » (10م - 67م): قديس اشتهر بلقب رسول الأمم، اسمه الأصلي شاول، نشأ نشأة يهودية، كان من أعنف مضطهدي المسيحية، كلف بمقاومة المسيحيين بدمشق سنة 35م ثم اهتدى على طريق دمشق وعمده حننياً، فأصبح من أنشط المبشرين بالمسيحية في القرن الأول بين مدن آسيا الصغرى واليونان، ثار اليهود ضده، وقبض عليه في أورشليم وسبق إلى روما وحكم عليه بالإعدام وصلب وقطع رأسه بالسيف سنة 67م في عهد نيرون، تتلخص آراؤه في الرسائل، وله أربع عشرة رسالة موجهة إلى الكنائس المختلفة وإلى بعض تلاميذه. ابن حزم: المصدر السابق، ج1، ص 110، محمود محمد محفوظ: المرجع السابق، ج1، ص 440، المنجد في اللغة والإعلام، ص 149، ول ديورانت: المرجع السابق، ج11، ص ص 249 - 252.

(3) - الطاهر زراع: المجتمع العربي القديم، ج2، ص ص 360 - 361.

(4) - سفر أعمال الرسل: الإصحاح 23: 6-9، محمد أبو زهرة: محاضرات في النصرانية، ص 65، محمد أحمد الحاج: المرجع السابق، ص 142.

(5) - المرجع نفسه، ص 147.

لقد نشأ بولس في بيئتين مختلفتين أثرتا تأثيرا كبيرا في تكوين شخصيته، وورد في سفر أعمال الرسل⁽¹⁾ تفصيل لحياته، وقد جاء فيه أن مولده كان في طرسوس^(*)(2) وهي مدينة تعد حلقة إتصال بين آسيا الصغرى وبلاد الشام، وفيها تشبع بالفلسفة اليونانية، والبيئة الثانية التي تربى فيها هي أورشليم على يد (غمالائيل) الذي لقنه المبادئ والعقائد اليهودية حيث أن مدرسته تعد من ألمع المدارس اليهودية في القرن الأول الميلادي⁽³⁾.

ومما يذكره ابن حزم⁽⁴⁾ عن بولس: " كان قوله التوحيد المجرد الصحيح، وأن عيسى عبد الله ورسوله كأحد الأنبياء (عليهم السلام) خلقه الله تعالى في بطن أمه مريم من غير ذكر، وأنه إنسان لا إلهية فيه البتة، وكان يقول: لا أدري ما الكلمة؟ ولا روح القدس؟"، يعتبر بولس أول من نادى بعالمية المسيحية، وذلك في رسائله الموجهة إلى كنائس العالم المختلفة أو الموجهة إلى بعض تلاميذه⁽⁵⁾.
بعد هذا العرض الموجز لحياة بولس، يمكن للباحث أن يحدد إضافات بولس إلى المسيحية في النقاط الآتية:

- 1- جعل من المسيحية ديانة عالمية مفتوحة لجميع الأمم بأن تساهل في بعض التشريعات التي كانت تضايق الوثنيين، فأحل الخمر، وأباح أكل لحم الخنزير، وأبطل الختان، ونقل العيد الأسبوعي من السبت إلى الأحد ليوافق يوم الشمس عند الوثنيين.
- 2- ابتكر فكرة الخطيئة: أي أن الله أرسل المسيح ليكفر عن خطيئة البشر بموته على الصليب فداء لهم.
- 3- حول المسيحية من عقيدة التوحيد إلى عقيدة التثليث، والقول بألوهية المسيح.
- 4- أخرج المسيحية من البساطة اليهودية إلى تعقيدات الفكر اليوناني⁽⁶⁾.

(1) - سفر أعمال الرسل: الإصحاح 22: 3- 21، الإصحاح 26: 12- 21.
(*) - طرسوس: مدينة بثغور الشام، كانت تسمى قديما كدنوس، تقع بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم، كانت ثغرا لبلاد كيليكيا، دخلها الإسكندر الأكبر، تقع في تركيا حاليا على نهر طرسوس (قره صو) وهي مدينة من بلاد الأرمن على ساحل بحر الروم شمالا غرب حلب. محمود محمد محفوظ: المرجع السابق: ج3، ص 1568، ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج4، ص 133، عبد المنعم الحميري: المصدر السابق، ص 388.
(2) - ول ديورانت: المرجع السابق، ج11، ص 249.
(3) - محمد أحمد الحاج: المرجع السابق، ص ص 142- 143.
(4) - الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج1، ص 110.
(5) - المكان نفسه.
(6) - ول ديورانت: المرجع السابق، ج11، ص 275.

والمتمعن في قصة بولس وتحوله إلى المسيحية التي رواها سفر أعمال الرسل -المذكور آنفا- يدرك دور اليهود في دفع بولس إلى تغيير معالم المسيحية، ويجعلها ديانة جديدة مليئة بالأفكار الوثنية ولا تمت إلى المسيحية الحقيقية التي جاء بها عيسى (عليه السلام) بصلة، فأسلوب الخداع والكذب والنفاق وتحريف الحقائق صفات عرف بها اليهود على مر العصور، كما يصفهم القرآن الكريم في قوله تعالى⁽¹⁾: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَيَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهِ النَّهَارِ وَكَفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مَثَلًا مَّا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

ولقد قارن أحمد شلبي⁽²⁾ بين موقف بولس وعبد الله بن سبأ اليهودي الذي تظاهر بالإسلام فأثار الفتن وأشعل الثورات، ونفس مبادئ فاسدة، فكان الفرق بينهما يكمن في أن أفكار ابن سبأ لم تعمر ولم تدم مدة طويلة، بينما أفكار بولس نمت وتطورت ودامت فترة زمنية طويلة لأنها وجدت المناخ الملائم لإنتشارها، وذلك أن إنجيل عيسى ضاع واندثر فلم يبق للمسيحية مصدر تستند إليه، في عقائدها وشرائعها ومبادئها، ومن ثمة استطاع بولس أن يؤسس معتقدات مسيحية جديدة على حساب المسيحية التي جاء بها عيسى (عليه السلام)، ويؤسس لها شريعة لا تمت بصلة لعقيدة المسيح (عليه السلام)، لذلك كان المؤسس الأول للمسيحية الحديثة، حيث استطاع أن يقنع الحكام بالديانة الجديدة وجعل طاعتهم من طاعة المسيح (عليه السلام)، الأمر الذي خفف من اضطهاد الحكام للمسيحيين، وساعد على انتشارها، وبذلك تحولت المسيحية من ديانة شرقية إلى ديانة غربية⁽³⁾.

تقوم المسيحية عند بولس الرسول على خمسة أسس وهي:

1- القول بالتثليث: وهو عماد وجوهر العقيدة المسيحية، ومعناه أن الله يتمثل في ثلاثة أقانيم: الأب، الإبن، والروح القدس⁽⁴⁾.

وهو ما اتفقت عليه الفرق المسيحية الثلاثة، من أن الخالق الإله جوهر واحد ذو ثلاثة أقانيم، وان الإبن هو الكلمة، والروح هي الحياة (الروح القدس)، والأب هو القديم الحي المتكلم، وأن هذه الأقانيم الثلاثة متفقة في الجوهرية، مختلفة في الأرقامية⁽⁵⁾.

(1) - سورة آل عمران: الآيتان: 72 - 73.

(2) - المسيحية، ط8، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، 1984م، ص 124.

(3) - الطاهر ذراع: الديانات القديمة في الحجاز قبل الإسلام، رسالة ماجستير، (مخطوط)، إشراف محمد البشير شنيني، جامعة قسنطينة، 1990، ص 134.

(4) - الشهرستاني: المصدر السابق، ج1، ص 221، المقريزي: المصدر السابق، ج4، ص 421.

(5) - الأسد آبادي: المغني في أبواب التوحيد والعدل، تحقيق محمود محمد الخضري، ج5، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1958، ص 81.

وفي هذا السياق يشير محمد أبو زهرة⁽¹⁾ أن المصادر المسيحية تذكر أسس عقيدة التثليث على أنها: " طبيعة الله عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية: الله الأب، والله الإبن، والله الروح القدس، فالإب ينتمي الخلق بواسطة الإبن، وإلى الإبن الفداء، وإلى الروح القدس التطهير"، ويفهم من هذا الكلام أن الأقانيم الثلاثة عناصر متلازمة لذات الخالق.

وتجدر الإشارة هنا أن عقيدة التثليث لم ترد دفعة واحدة على المسيحية، بل نمت وتدرجت من مجمع نيقية^(*) إلى مجمع القسطنطينية^(**) ومجموع قرارات هذين المجمعين إكتملت عقيدة التثليث نهائياً في نهاية القرن الرابع الميلادي.

غير أن الإيمان بعقيدة التثليث خلق للنصارى مشكلة معقدة وهي قضية التوفيق بين الوجدانية التي هي سمة الأديان السماوية التوحيدية⁽²⁾، وبين عقيدة التثليث التي هي عقيدة طارئة على المسيحية، وهي عقيدة ظهرت منذ فجر التاريخ لدى شعوب كثيرة، ولعل البابليين هم أول هذه الشعوب التي آمنت بعقيدة التثليث، ولليهود ضلع في ذلك، ويبدو أن اليهود قد أطلعوا وهم في بابل على تقاليد ومعتقدات سكان بابل، ولما عادوا بعد السبي الذي وقع سنة 586 ق.م، نقلوا تلك الأفكار ومنها عقيدة التثليث إلى بلاد الشام⁽³⁾، ويبدو أن السبب الذي دفعهم لذلك هو تحريف ما جاء في التوراة من البشارة بنبو محمد (صلى الله عليه وسلم) خاتم الأنبياء، ومنها ما ورد في سفر التثنية⁽⁴⁾: " يقيم لك الرب إلهك نبيا من وسطك من إخوانك مثلي له تسمعون".

لذلك اتجهوا إلى التشكيك في اسم خاتم الأنبياء وبلده ونسبه وأوصافه وزمن مجيئه، واستعملوا شتى الطرق والوسائل للتشويش عن فكرة خاتم الأنبياء وبث فكرة التثليث.

2- ألوهية المسيح: حسب أحمد شلبي⁽⁵⁾: أن رجال الدين المسيحيين يرون أن عيسى هو ابن الله وليس الإله، نزل إلى الأرض وقدم نفسه قربانا، فصلب وقتل تكفيرا عن خطيئة البشر، وقد ظهرت

(1) - محاضرات في النصرانية: ص 91.

(*) - مجمع نيقية: « NICAEA » انعقد المجمع الكنيسي الأول سنة 325م وحضره 2048 من الأساقفة وحدد معنى النصرانية وأصولها ووضع تعريف للإيمان الصحيح، أحمد سوسة، المرجع السابق، ص 89.

(**) - مجمع القسطنطينية: « Constantinople » هو المجمع الثاني انعقد سنة 381م في عهد ثيودوسيوس الأول (379-395م) وانتهى بإقرار ألوهية روح القدس وبذلك تقرر التثليث في الديانة المسيحية وحضره (150 أسقفا). محمد أبو زهرة: المرجع السابق، ص 122، أحمد سوسة: المرجع السابق، ص 89، شاهير أبو شريخ: المرجع السابق، ص 66.

(2) - أحمد شلبي: المرجع السابق، ص 112.

(3) - محمد أحمد الحاج: المرجع السابق، ص ص 152-153.

(4) - الإصحاح 18: 15.

(5) - مقارنة الأديان - المسيحية، ص 112.

فكرة ألوهية المسيح في زمن المسيح نفسه أي في مطلع القرن الأول الميلادي⁽¹⁾، وقد أشاعها الجنود الرومان، لكن الفكرة نمت وترعرعت فيما بعد وحمل لواءها بطربرك الإسكندرية، وقد أدى الاختلاف حول فكرة ألوهية المسيح إلى إنقسام كنائس النصارى في مطلع القرن الرابع الميلادي إلى حزبين أحدهما يؤمن بألوهية المسيح والثاني ينكرها⁽²⁾.

وقد وردت في الكتب المقدسة المسيحية إشارات إلى لاهوت المسيح، ومن كثرتها نقتبس من الأنجيل ما يأتي: " هذا هو إبنى الحبيب الذي به سررت"⁽³⁾، " في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله... كل شيء به كان، وبغيره لم يكن شيء، والكلمة صارت جسدا وحل بيننا، ورأينا مجده مجدا، كما للوحيد من الأب مملوءا نعمة وحقا"⁽⁴⁾.

" وحينما ركب بحر الجليل أظهر طبيعتي لاهوته وناسوته الكليتين وذلك بينما كان نائما هاجت الرياح، واضطربت الأمواج، فقام من النوم وأسكتها، فصار هدوء عظيم"⁽⁵⁾.

ويتضح من النصوص السابقة أن المسيحيين يعتقدون أن عيسى ابن الله، أو أنه هو الكلمة التي صارت جسدا، أو أن له طبيعتين لاهوتية وناسوتية، فبنومه أظهر ناسوته، وبتسكينه الأمواج والرياح أظهر لاهوته، ويبدو أن ذلك تناقضا صريحا، ومحاولات يائسة من المسيحيين لتقديم الدليل على ألوهية المسيح (عليه السلام).

3- القول بالروح القدس: تسير الكنيسة المسيحية الآن بموجب تأليف الآباء والقديسين الذين يعتقدون ويدعون بأن ما كتبه هو من روح القدس⁽⁶⁾، لذلك كان أخرى على المسيحيين ان يسموا كنيستهم بالروحانية القدسية أولى من تسميتها بالمسيحية.

4- صلب المسيح: جاء في الإنجيل⁽⁷⁾: " إن ابن الإنسان قد جاء لكي يطلب، ويخلص ما قد هلك" أي أن عيسى (عليه السلام) بمحبته ورحمته قد صنع طريقا للخلاص، وهو الذي يكفر عن خطايا العالم، وهو الوسيط الذي وفق بين محبة الله تعالى وبين عدله ورحمته، وكان التكفير الذي قام به عيسى هو الصلب، وقد اختلفت الأنجيل الأربعة في قصة صلبه وقيامه⁽⁸⁾.

(1) - محمد أحمد الحاج: المرجع السابق، ص 195.

(2) - الطاهر ذراع: الديانات القديمة في الحجاز قبل الإسلام، ص 136.

(3) - متى: 3: 18.

(4) - يوحنا: 1: 1، 3-4.

(5) - متى: 8: 23-27.

(6) - محمد أبو زهرة: محاضرات في النصرانية، ص 174.

(7) - لوقا: الإصحاح 1: 1.

(8) - محمد أبو زهرة: المرجع السابق، ص 98، عبد الوهاب النجار: المرجع السابق، ص 433.

5- **المسيح يدين ويحاسب:** جاء في رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس⁽¹⁾: " لا بد أننا جميعا

نظهر أمام كرسي المسيح، لينال كل واحد منا ما كان بالجسد، بحسب ما صنع، خيرا كان أم شرا".
ففي رأي بولس أن الأب لا يدين أحدا، بل أعطى ذلك للإنسان، فأعطاه سلطان محاسبة الإنسان،
لأنه ابن الإنسان أيضا، ولا بد أن يظهر جميع الناس أمام كرسي المسيح لينال كل واحد ما كان قد صنع
خيرا أو شرا، هذا حسب ما يزعم المسيحيون.

نلاحظ من النص السابق بجلاء أن الذي سيحاسب البشر ويجازيهم بما فعلوا إنما هو المسيح
بن مريم حسب مزاعم المسيحيين طبعاً.

ومن خلال ما سبق ذكره، يمكن أن يستخلص الباحث أن المسيحية كانت وحدانية في دعوتها،
إنسانية في مضمونها إلى أن جاء بولس اليهودي الذي لما عجز عن محاربة المسيحية بالعنف
والإضطهاد قرر أن يلجأ إلى سلاح أخطر وهو الدس والتحريف والتدمير الداخلي، ولا شك أن
لشخصية بولس وأفكاره ميزات ساعدته على نشر وتعميم فكرته وإقناع الجماهير بالمسيحية الجديدة
ومن أبرز ما تميز به: تأثره بالروح والفلسفة الإغريقية، وتربيته اليهودية على يد اليهودي غما لاثيل
في أورشليم فدرج على أسلوب اليهود في الكيد والعمل في الخفاء، أما الجنسية الرومانية فقد أكسبته
الجرأة وأبعدت عنه الإضطهاد الذي طال المسيحيين في تلك الفترة.

المطلب الثالث: الكتب المقدسة عند المسيحيين:

يشمل الكتاب المقدس لدى النصارى التوراة والإنجيل^(*) ورسائل الرسل وهي المصادر الثلاثة
الأساسية التي يعتمد عليها المسيحيون في ديانتهم، وتسمى التوراة (أسفار موسى الخمسة) " كتب العهد
القديم"، وقد سبقت الإشارة إليها في المبحث الخاص بالديانة اليهودية، وتسمى الأناجيل والرسائل " كتب
العهد الجديد".

والإنجيل يشتمل على عقيدة ألوهية المسيح (عليه السلام) في زعم المسيحيين -كما بينت آنفا-
والصلب والفداء، أي أنه يشتمل على جوهر المسيحية بعد المسيح (عليه السلام)⁽²⁾ والأناجيل المعتمدة عند

(1) - الإصحاح الخامس: 10.

(*) - الإنجيل: كتاب الله المنزل على عيسى (عليه السلام) وهو كتاب المسيحيين المقدس. أصل الكلمة يونانية
« Evangélion » معناها البشارة، وهو كتاب يتضمن أخبار المسيح من يوم ولادته إلى وقت خروجه من هذا العالم،
كتبه بإلهام كل من متى ومرقس ولوقا ويوحنا. ابن حزم الأندلسي، المصدر السابق، ج1، ص 4-5، البيروني: المصدر
السابق، ص 33، رفاتيل نخلة اليسوعي: المرجع السابق، ص 254، بندلي جوزي: " بعض إصطلاحات يونانية في
اللغة العربية"، مجلة مجمع اللغة العربية الملكي، القاهرة، ج3، 1936، ص 339، فؤاد حسنين علي: المرجع السابق،
ص 86.

(2) - أبو الفداء: المصدر السابق، ج1، ص 145، الشهرستاني: المصدر السابق، ج1، ص 221، البيروني: المصدر
السابق، ص 33.

المسيحيين أربعة، حيث تعترف بها الكنائس وتقربها معظم الفرق المسيحية وتأخذ بها، وقد وضعت ما بين القرنين الأول والثالث الميلاديين⁽¹⁾ وهي:

1- إنجيل متى « MATTHEW »^(*): كتبه متى وهو أحد تلاميذ المسيح الإثني عشر الذين يسميهم المسيحيون رسلا، وقد اتفق جمهور مؤرخي المسيحية⁽²⁾ على أن متى كتب إنجيله بالعبرية ببيت المقدس التي تعد أقدم نسخة كتبت باليونانية، ويحتمل ان يكون متى نفسه هو صاحب الترجمة اليونانية⁽³⁾.

ويبقى الخلاف قائما حول تاريخ تدوينه، ومترجمه إلى اليونانية، والمرجح أن يوحنا صاحب الإنجيل الرابع هو الذي ترجمه في عصر كلاوديوس^(**)، قيصر الرومان⁽⁴⁾، وقد دون في الفترة ما بين 39 و62 ميلادية⁽⁵⁾ أي قبل خراب أورشليم بحوالي ثمان سنوات.

والحق أن الباحث لا يستطيع أن يجزم بتاريخ محدد، لغياب نص يرشد إلى ذلك وقد كتب متى إنجيله لليهود يبشر بالمسيحية، ويوجه خطابه للمؤمنين من اليهود خاصة، لذلك كتب باللسان العبري وفي أرض سكنها اليهود وهو الذي انفرد بتأليف الإنجيل الأول في منتصف القرن الأول الميلادي.

(1) - الطاهر ذراع: المجتمع العربي القديم، ج2، ص 363.

(*) - متى: « MATTHEW » أحد حواربي المسيح، عاش في القرن الأول للميلاد، يدعى أيضا لاوي "أوليفي" « LEWI » بن حلفى، من خان الجليل، صاحب أول إنجيل حسب الترتيب الكنسي، كان من العشارين (أي جباة العشور) للدولة الرومانية في " كفر ناحوم" من أعمال الجليل بفلسطين، اختاره المسيح تلميذا من تلاميذه، ولما صعد المسيح، جال للتبشير في الحبشة ثم بلاد فارس، كتب إنجيله بالعبرية، قضى 23 سنة مبشرا بالمسيحية حتى قتل بالحبشة حوالي سنة 62م، ابن حزم: المصدر السابق، ج1، ص 127، الشهرستاني: المصدر السابق، ج2، ص 36،

P. Larousse Illustré: p. 1427

(2) - أبو الفداء: المصدر السابق، ج1، ص 145، ابن حزم: المصدر السابق، ج1، ص 127، محمد أبو زهرة: محاضرات في النصرانية، ص 39.

(3) - يحي محمد علي ربيع: المرجع السابق، ص ص 128 - 129.

(**) - كلاوديوس (CLAUDIUS): (ليون 10 ق.م - 54م)، إمبراطور روماني دام حكمه من سنة 41م إلى سنة 54م، أبوه دروسوس الأكبر وعمه تيبيريوس، وجده الجنود الرومان مختبئا وراء ستار في القصر عند مصرع كاليجولا فأخرجوه وأقاموه إمبراطورا، دعم الإمبراطورية ووسع رقعتها، زار بريطانيا وحولها إلى ولاية رومانية سنة 43م، دبر مقتل زوجته الثالثة، زوجته الرابعة أجريبيينا الثانية كانت ابنة أخيه، دست له السم بعد أن حرصته على تعيين ابنها نيرون خليفة له بدلا من ابنه بريتانيكوس، بعد مقتله خلفه نيرون، محمود محمد محفوظ: المرجع السابق، ج3،

P. Larousse Illustré: p 1187

ص 1970،

(4) - يحي محمد علي ربيع: المرجع السابق، ص 129.

(5) - محمد أبو زهرة: المرجع السابق، ص 41.

2- إنجيل مرقس^(*) (MARC(Saint) : هو الإنجيل الثاني، أقصر الأناجيل وأقدمها⁽¹⁾ ويتضمن الخطاب إلى جميع الأمم دون تحفظ على عكس إنجيل متى، إختاره المسيح من بين السبعين الذين نزل عليهم روح القدس- في اعتقادهم- من بعد رفعه، وألهموا بالتبشير بالمسيحية⁽²⁾، كان مرقس ينكر ألوهية المسيح.

حيث يذكر أبو الفداء⁽³⁾ أن مرقس كتب إنجيله ببلاد الروم وباللغة الرومية، أي كتب للرومان. أما الشيخ محمد أبو زهرة⁽⁴⁾ فيذكر أن مرقس صنف إنجيله بطلب من أهالي رومية وكتبه باللغة اليونانية، وشرح بعض كلماته باللغة اللاتينية. والحقيقة أن مؤرخي وكتاب المسيحية مثل ابن البطريق والدكتور بوست لم يناقضوا هذا الرأي الأخير.

وقد اختلف المؤرخون في زمن تدوين إنجيل مرقس، فقيل سنة 56 ميلادية، وقبل سنة 65 ميلادية⁽⁵⁾.

ويرى يحي محمد علي ربيع⁽⁶⁾ أنه كتب في الفترة الممتدة ما بين سنة 39 و75 ميلادية. ويلاحظ بين التاريخ الأول والثاني فترة طويلة تصل إلى ستة وثلاثين (36) عاما وهي فترة طويلة لكتابة إنجيل يدعي أهله أنه كتاب وحي سماوي، لكن معظم العلماء يعتقدون أنه كتب فيما بين سنة أربع وستين (64) وسبعين (70) ميلادية⁽⁷⁾.

(*)-مرقس (MARK (ST) : اسمه يوحنا ويلقب بمرقس، لم يكن من الحواريين الإثنى عشر، لكنه أحد الإنجيليين الأربعة، عاش في القرن الأول الميلادي، أصله من اليهود، وعاش مع أسرته في أورشليم في وقت ظهور المسيح وهو من الأوائل الذين أجابوا دعوته، لازم خاله برنابا وبولس الرسول، ويعتبر مؤسس كنيسة الإسكندرية، رحل إلى انطاكية مبشرا ثم إلى قبرص وشمال إفريقيا ودخل مصر فكانت مستقرا له، قتله الوثنيون بعد أن سجنوه وعذبوه سنة 52م، نقلت رفاته إلى البندقية خلال القرن التاسع الميلادي، محمد أبو زهرة: المرجع السابق، ص ص 42- 43،

P. Larousse Illustré: pp 1418- 1419

(1)- يحي محمد علي ربيع: المرجع السابق، ص 29.

(2)- محمد ابو زهرة: المرجع السابق، ص 42.

(3)- المختصر في أخبار البشر، المصدر السابق، ج1، ص 145.

(4)- محاضرات في النصرانية، ص 43، يحي محمد علي ربيع: المرجع السابق، ص 144.

(5)- محمد أبو زهرة: المرجع السابق، ص 44.

(6)- الكتب المقدسة بين الصحة والتحريف، ص 143.

(7)- المكان نفسه.

3- إنجيل لوقا^(*) (LUC (Saint): هو الإنجيل الثالث المقدس لدى النصارى، يتناول الأخبار والوصايا من الناحية الإنسانية⁽¹⁾، وقد ذكر أبو الفداء⁽²⁾ أن لوقا كتب إنجيله بالإسكندرية باللغة اليونانية، والمرجح أنه كتب في قيصرية^(**) بفلسطين خلال مدة أسر بولس من سنة ثمانية وخمسين (58م) إلى سنة ستين (60م)⁽³⁾.

تدلنا مقدمة إنجيل "لوقا" على أن إنجيله كان عبارة عن رسالة وجهها إلى صديقه اليوناني "ثاو فيلس"، وكان يقصد تثبيت صديقه في إيمانه الجديد إذ يقول⁽⁴⁾: " .. إذا كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المتيقنة عندنا كما سلمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معانين وخداما للكلمة، رأيت أنا أيضا إذ تتبعت كل شيء من الأول بتدقيق أن أكتب على التوالي إليك أيها العزيز ثاو فيلس، لتعرف صحة الكلام الذي علمت به...".

ويستخلص الباحث من كلام لوقا أنه لم يدع في صدر حديثه أنه يكتب بإلهام من الروح المقدسة، بل يصرح أنه يكتب من إجتهاده الشخصي لأنه تتبع كل شيء من الأول بالتدقيق.

4- إنجيل يوحنا^(*) (Jean (Saint): ينسب هذا الإنجيل الرابع إلى يوحنا الرسول أحد تلاميذ يوحنا المعمدان، وكان من أقرب وأحب التلاميذ إلى المسيح (عليه السلام) فهو اتكأ على صدره في العشاء الأخير⁽⁵⁾، وله سلم المسيح أمه وهو على الصليب⁽⁶⁾ ليعتني بها.

(*)- لوقا (LUC (ST): ولد في أنطاكية ودرس الطب ومارسه بنجاح، لم يكن من أصل يهودي، رافق بولس وهو من تلاميذه، في أسفاره وشاركه في أعماله، وهو كاتب سفر أعمال الرسل، قتل في عهد نيرون سنة 70م، كتب إنجيله قبل خراب أورشليم وبعد وفاة بطرس وبولس، ابن حزم: المصدر السابق، ج1، ص 120، الشهرستاني: المصدر السابق، ج2، ص 36، Larousse Illustré, p 1404.

(1)- الطاهر ذراع: المجتمع العربي القديم، ج2، ص 364.

(2)- المختصر في أخبار البشر، ج1، ص 145، الشهرستاني، المصدر السابق، ج2، ص 36.

(**)- قيصرية: بلدة على ساحل بحر الشام تعد من أعمال فلسطين بينها وبين طبرية ثلاثة أيام كانت قديما من أعيان أمهات المدن، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج4، ص 478.

(3)- محمد أبو زهرة: المرجع السابق، ص 45.

(4)- لوقا: الإصحاح الأول، الآيات 1-4.

(*)- يوحنا: « Jean (ST.) »: هو يوحنا بن زبدي الصياد، أحد الحواريين، ولد في بيت صيدا من أعمال الجليل، كان المسيح يحبه، وقد لبث يبشر بالمسيحية بأسيا الصغرى حتى توفي شيخا، ضعف وعجز عن الوعظ في أواخر أيامه، كتب إنجيله ورسائله الثلاث، وسفر الرؤيا باللغة اليونانية، توفي حوالي سنة 98م أو 100م، ابن حزم: المصدر السابق، ج1، ص 119، الشهرستاني: المصدر السابق، ج2، ص 37، Larousse Illustré 1991, p 1353.

(5)- يحي محمد علي ربيع: المرجع السابق، ص 32.

(6)- يوحنا: الإصحاح التاسع عشر: الآية 27.

وقد كتب يوحنا إنجليه بأفسس^(*) باللغة اليونانية، كما يعتقد أغلب العلماء⁽¹⁾ ذلك أن يوحنا عاش بأفسس وتوفي بها.

وقد اختلف المسيحيون في تاريخ تدوينه، والأرجح أنه كتب في أواخر القرن الأول الميلادي⁽²⁾، ويذهب بعض المؤرخين⁽³⁾ إلى أنه في سنة 96م إجتمع أساقفة آسيا وطلبوا من يوحنا أن يكتب عن المسيح وينادي بإنجيل مما لم يكتب في الأناجيل الثلاثة السابقة، وطلبوا منه إثبات ألوهية المسيح.

لذلك كان إنجيل يوحنا من أكثر الأناجيل شأنا وخطرا في نظر الباحثين لأنه هو الإنجيل الذي تضمنت فقراته ذكرا صريحا لألوهية المسيح.

ويلاحظ الباحث أن هذه الأناجيل الأربعة التي سبق ذكرها، لم تنزل على عيسى (عليه السلام)، لكنها منسوبة إلى بعض تلاميذه وحوارييه وقد كتبت بعد مدة طويلة من زمن المسيح، أي أنها كانت متأخرة عن معاصرتة، لذلك يتساءل الباحث: هل هناك إنجيل يعد إنجيل عيسى غير الأناجيل الأربعة المذكورة آنفا؟ وهل في كتابات مؤرخي المسيحية ما يثبت أن هذا الإنجيل كان موجودا فعلا؟.

من خلال إطلاعي على الأناجيل، وجدت عبارات تذكر كلمة إنجيل أو بشارة (وهي ترجمة لكلمة إنجيل باليونانية)، وقد وردت الكلمة في إنجيل متى ما نصه⁽⁴⁾: " وكان يسوع يطوف كل الجليل يعلم في مجامعهم، ويكرز ببشارة الملكوت، ويشفي كل مرض، وكل ضعف في الشعب"، ويبدو أن عبارة بشارة الملكوت هي ترجمة لكلمة إنجيل باليونانية⁽⁵⁾.

وورد في إنجيل مرقس⁽⁶⁾: " بعدما أسلم يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله، ويقول: قد كمل الزمان، واقترب ملكوت الله، فتوبوا وآمنوا بالإنجيل".

وجاء في رسالة بولس إلى أهل رومية⁽⁷⁾ واشتياقه إلى زيارة روما، ومما ورد في الإصحاح الأول: " أولا أشكر إلهي يسوع المسيح من جهة جميعكم، أن إيمانكم ينادى به في كل العالم، فإن الله

(*) - أفسس (Ephesus): مدينة يونانية قديمة على بحر إيجه، مركز تجاري هام منذ القرن الثامن ق.م، ومركز ديني هام لوجود معبد أرتميس (ARTEMIS)، قام القديس بولس بالتبشير فيها، إنعقد بها مجمع أفسس الأول سنة 431م، تقع بقاياها بالقرب من قرية " سلجوق" في مقاطعة إزمير التركية حاليا، أحمد سوسة، المرجع السابق، ص 95، Larousse Illustré, p. 1243.

(1) - أبو الفداء: المصدر السابق، ج1، ص 145.

(2) - يحي محمد علي ربيع: المرجع السابق، ص 160.

(3) - محمد أبو زهرة: محاضرات في النصرانية، ص 49.

(4) - St. Matthew: 4: 23

(5) - رفائيل نخلة اليسوعي: المرجع السابق، ص 254.

(6) - St. Mark: 1: 14- 15

(7) - رسالة بولس إلى أهل رومية: الإصحاح الأول: 8 - 10.

الذي أعبدته بروحي في إنجيل إبنه شاهد لي كيف بلا إنقطاع أذكركم، متضرعا دائما في صلواتي عسى الآن أن يتيسر لي مرة بمشيئة الله أن آتي إليكم".

وهكذا نجد كلمة إنجيل أو كلمة بشارة تأتي مضافة إلى ملكوت الله، أو إنجيل الإبن، أو غير مضافة كما هي في إنجيل مرقس.

ويؤكد مؤرخو المسيحية⁽¹⁾ بوجود رسالة في القرن الأول الميلادي تعتبر أصلا لهذه الأناجيل، وما جاء به المسيح (عليه السلام) وهي ما يمكن أن نسميه الإنجيل الأصلي، ويقر هؤلاء المؤرخون بأن هذا الإنجيل يعد من المسيحية بمنزلة القلب.

إلا أن هذا الإنجيل إندثر وطمست أخباره ولم يعد له وجود، وهذا الإنجيل هو الذي ذكر في القرآن الكريم اثنتي عشرة مرة⁽²⁾.

المطلب الرابع: الفرق المسيحية القديمة:

نشأت الفرق المسيحية مع بداية الخلاف حول طبيعة المسيح، حيث اختلفت الآراء وتباينت وتعددت قرارات المجامع حول هذه القضية، وسأعالج الفرق النصرانية القديمة مبينا رأيها ومعتقداتها وموقفها من المسيح، فيما يتوافق مع حدود البحث، مركزا على الفرق الرئيسية الأربعة المشهورة مع ذكر بعض الفرق التي تفرعت عنها.

1- الأريوسية^(*): « Arionisme »: ظهرت في أوائل القرن الرابع الميلادي، وهم أتباع أريوس الإسكندري، قالوا: أن عيسى ليس إلها، وإنما عبد الله مخلوق كسائر الأنبياء والرسل⁽³⁾، وأنه كلمة الله التي خلق بها السموات والأرض⁽⁴⁾.

وقد ظهرت الأريوسية في زمن قسطنطين الأول الذي بنى مدينة القسطنطينية^(**)، وهو أول

(1) - محمد أبو زهرة: محاضرات في النصرانية، ص 52.

(2) - سورة آل عمران: الآيات 3، 48، 65، سورة المائدة: الآيات 46، 47، 66، 68، 110، سورة الأعراف: الآية 157، سورة التوبة: الآية 111، سورة الفتح: الآية 29، سورة الحديد: الآية 27.

(*) - نسبة إلى أريوس « ARIUS » الإسكندري (256م-336م) كان قسيسا في كنيسة الإسكندرية التي قاومها منذ أوائل القرن الرابع الميلادي والتي كانت تقول بألوهية المسيح، يلقب برشيد قومه، وكان من علماء الروم، وهو أكبر تلاميذ " مار بطرس"، أعلن سنة 310م أن عيسى ليس إلها وأنه عبد مخلوق، له من الكتب: كتاب يذكر فيه أولاد إبليس وأنساب الجن، ابن النديم: المصدر السابق، ص 445، ابن حزم: المصدر السابق، ج1، ص 109، عمر فروخ: تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون، ص 154، المنجد في اللغة والأعلام، ص 41، Larousse Illustré, p 1092.

(3) - ابن قيم الجوزية: المصدر السابق، ص 197.

(4) - شاهير نيب أبو شريح: المرجع السابق، ص 65.

(**) - القسطنطينية: " Constantinople " : عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، والإمبراطورية العثمانية، سميت باسم قسطنطين الذي بناها بموقع " بيزنطة " -Byzance- في الفترة (324م-336م) وتم تشييدها سنة 330م فتحها السلطان محمد الفاتح سنة 1453م، أطلق عليها الأتراك اسم "إسطنبول"، أقيمت على سبعة تلال على مضيق البوسفور، كانت =

من تنصر من ملوك الروم سنة 313م، وكان على مذهب أريوس⁽¹⁾.

وذكر الشهرستاني⁽²⁾: "أن أريوس زعم ان الله واحد، سماه أباً، وأن المسيح كلمة الله وابنه على طريق الإصطفاء، وهو مخلوق قبل خلق العالم، وهو خالق الأشياء"، وانتشر هذا المذهب عند القوط^(*) واللومبارديين^{(**)(3)}.

والحقيقة أن مذهب الأريوسية بدأ في الإضمحلال بعد مجمع نيقية سنة 325م، وما زال يتناقص حتى انقرض في أواخر القرن الخامس الميلادي⁽⁴⁾.

2- النسطورية^{(**)(*)} "Nestorisme": ظهرت في أوائل القرن الخامس الميلادي.

ويذكر أحمد سوسة⁽⁵⁾: أن الفرقة النسطورية ظهرت سنة 431م كفرقة مناوئة لكنيسة القسطنطينية، ترى أن للمسيح طبيعتان وجوهان أحدهما لاهوتي والآخر ناسوتي لهما مثنوية واحدة⁽⁶⁾. وأن القتل والصلب وقعا به من جهة ناسوته لا من جهة لاهوته، وأن مريم لم تلد الإله وإنما حملت بالمسيح وولدت من جهة ناسوته⁽⁷⁾.

= أكبر مدينة في أوروبا في العصور الوسطى، بلغ مجموع سكانها في القرن العاشر مليون نسمة، ابن حزم: المصدر

السابق، ج1، ص 110، محمود محمد محفوظ: المرجع السابق، ج3، ص 1380، Larousse Illustré, p 1196

(1) - ابن حزم: المصدر السابق، ج1، ص 109.

(2) - الملل والنحل، ج1، ص 227.

(*) - القوط: شعب من الشعوب الجرمانية القديمة، ينحدر من الجوتار في جنوب السويد، انقسموا في القرن الرابع (4م) الميلادي إلى قسمين: القوط الغربيين، والقوط الشرقيين، كانوا حلفاء للإمبراطورية الرومانية وديانتهم الأريوسية، محمود محمد محفوظ: المرجع السابق، ج3، ص 1890.

(**) - اللومبارديون: ينسبون إلى لومبارديا « Lombardia » وهي منطقة بوسط إيطاليا، غزتهم روما في القرن الثالث قبل الميلاد، المرجع نفسه، ج1، ص 386.

(3) - الطاهر زراع: المجتمع العربي القديم...، ج2، ص 369.

(4) - شاهير ذيب أبو شريح: المرجع السابق، ص 65.

(**) - تنسب إلى نسطوريون « NESTORIUS » (380م - 451م) ولد في جرمانيقية قيصرية بسورية، نصبه الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني (408 - 450م) بطريركا على القسطنطينية سنة 428م وقد اعترض على تسمية مريم العذراء بوالدة الإله، فكفر وعزل من منصبه، وانعقدت بذلك ثلاث مجامع دينية في أفسس " Ephesus " 431م، وخلقيدونية " Chalcedon " 451م، و"القسطنطينية" 553م، المسعودي: التنبيه والإشراف، ص 148، أحمد سوسة: المرجع السابق، ص ص 94 - 95، جواد علي: المرجع السابق، ج6، ص 626.

(5) - ملامح من التاريخ القديم ليهود العراق، ص 95، محمود محمد محفوظ: المرجع السابق، ج4، ص 2451.

(6) - ابن قيم الجوزية: المصدر السابق، ص 196.

(7) - المقرئزي: المصدر السابق، ج4، ص 422، أبو الفداء: مصدر سابق، ج1، ص 143، ابن حزم: مصدر سابق،

ج1، ص 111.

وحسب الشهرستاني⁽¹⁾: فقد قالت النسطورية: " أن الله تعالى واحد ذو ثلاثة ألقاب، اتحدت الكلمة بجسد عيسى (عليه السلام) لا عن طريق الإمتزاج كما قالت الملكانية، ولا عن طريق الظهور كما قالت اليعقوبية، بل إن الكلمة أشرقت على جسد المسيح كإشراق الشمس في كوة على بلورة، وظهور النقش على الشمع إذا طبع الخاتم".

ويتضح من النص السابق أن النسطورية ترى أن مريم لم تلد إليها بل ولدت الإنسان فقط، ثم اتحد ذلك الإنسان بعد ولادته بالأفنوم الثاني، وهذا الإتحاد ليس بالمزج كما قالت الملكانية وجعلهما شيئاً واحداً، وليس إتحاداً حقيقياً كما قالت اليعقوبية، بل إتحاداً مجازياً، لأن الإله منح المسيح المحبة، ووهبه النعمة، فصار بمنزلة الإبن، فالنسطورية إذن ترى أن المسيح لم يكن فيه عنصر إلهي قط، ولم يكن إليها ولا ابن إله.

وكانت النسطورية منتشرة في العراق والموصل والجزيرة وبلاد فارس والهند⁽²⁾. ويلتزم النسطوريون بتقاليد وطقوس دينية مما يلتزم به غيرهم من الكنسيين، إلا أن أساقفتهم يلتزمون التبتل والإمتناع عن الزواج⁽³⁾.

وقد انقرضت هذه الفرقة لأن المجامع الدينية بدءاً بمجمع أفسس سنة 431م عزلت نسطور وكفرتة، وأبعد عن منصبه ونفي إلى مصر وتوفي بمنفاه سنة 451م.

وقد ذكر الشهرستاني⁽⁴⁾: " أن نسطوريوس ظهر في زمان المأمون^(*)، والواقع أن هذا مخالف للحقيقة التاريخية، حيث إن المأمون عاش في القرن التاسع الميلادي، وتولى الخلافة سنة 813م⁽⁵⁾، في حين إن نسطوريوس توفي سنة 451م، أي في منتصف القرن الخامس الميلادي.

وفي هذا السياق يورد ابن الأثير⁽⁶⁾: " من العجائب أن الشهرستاني وهو مصنف كتاب الملل والنحل، يذكر أن نسطور كان أيام المأمون وهذا تفرد به، ولا أعلم له في ذلك موافقاً".

(1) - الملل والنحل، ج1، ص 224.

(2) - البيروني: المصدر السابق، ص 288، أحمد أمين: المرجع السابق، ص 121.

(3) - محمد أبو زهرة: محاضرات في النصرانية، ص 146.

(4) - الملل والنحل، ج1، ص 224.

(*) - المأمون: (170 - 218هـ / 786 - 833م) هو عبد الله بن هارون الرشيد، سابع الخلفاء الراشدين من بني العباس في العراق، أحد أعظم الملوك في سيرته وعلمه وسعة ملكه، كانت مملكته تمتد من إفريقيا غرباً إلى خراسان وما وراء النهر والسند شرقاً، يلقب بالإمام العالم، تولى الخلافة بعد خلع أخيه سنة 198هـ / 813م، أنشأ بيت الحكمة وقرب إليه العلماء والفقهاء، ابن حزم: المصدر السابق، ج1، ص 144، أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج1، ص 311.

(5) - أحمد سوسة: المرجع السابق، ص 215، أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج1، ص 311.

(6) - الكامل في التاريخ، ج1، ص 332.

3- الملكانية(*) : « Monarchianisme »

ظهرت هذه الفرقة في منتصف القرن الخامس الميلادي، وهي مذهب جميع ملوك النصارى بإستثناء الحبشة وبلاد النوبة، ومذهب جميع نصارى إفريقيا، وصقلية والأندلس وبلاد الشام⁽¹⁾، وهم أصحاب ملكا الذي ظهر بأرض الروم واستولى عليها، ومعظم الروم ملكانية⁽²⁾، وقيل الملكانية نسبة إلى ملك الروم⁽³⁾.

وحسب الأسد آبادي⁽⁴⁾: فإن قولهم في طبيعة المسيح: " أن القديم جوهر واحد ذو أقانيم ثلاثة، وأن الأقانيم هي الجوهر، والجوهر غير الأقانيم".

أي أن الرب عبارة عن ثلاثة أشياء: أب وإبن وروح القدس، وأن عيسى إله تام كله، وإنسان تام كله، وليس أحدهما غير الآخر، وأن الإنسان منه هو الذي صلب وقتل (الناسوت) وأن الإله منه لم ينله شيء من ذلك (اللاهوت)⁽⁵⁾، وأن مريم ولدت الإنسان والإله، وأنهما معا شيء واحد⁽⁶⁾.

وقد ظهرت الملكانية كرد فعل على مذهب النسطورية التي قالت بأن للمسيح أفنومين كاملين، على العكس من ذلك ترى المونوفيزية^(**) أن للمسيح طبيعة واحدة هي الطبيعة الإلهية التي تلاشت فيها الطبيعة الإنسانية⁽⁷⁾.

وعنهم أخبرنا القرآن الكريم، قال تعالى⁽⁸⁾: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثَةٍ﴾.

(*) - يسمى أتباعها أيضا " الملكيون - Melkites " أي أعوان الإمبراطور نسبة إلى الملك مرقيانوس الذي أيد قرارات مجمع خلقدون سنة 451م ضد بدعة أوطيخا المونوفيزية (القائلة بطبيعة واحدة للمسيح)، وقد لقبهم مخالفوهم بهذا اللقب إزدراء لهم ولوقوفهم في صف الملك مرقيانوس، ابن حزم: المصدر السابق، ج1، ص 110، محمود محمد محفوظ: المرجع السابق، ج4، ص ص 2329-2330، أحمد سوسة: المرجع السابق، ص 105.

(1) - البيروني: المصدر السابق، ص 288، ابن حزم: المصدر السابق، ج1، ص 111، أحمد أمين: فجر الإسلام، ص 121.

(2) - الشهرستاني: المصدر السابق، ج1، ص 222.

(3) - فخر الدين الرازي: إعتقادات فرق المسلمين والمشركين، ط1، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1986م، ص 115، المقرئزي: المصدر السابق، ج4، ص 422.

(4) - المغني في أبواب التوحيد والعدل، ج5، ص 81.

(5) - ابن قيم الجوزية: هداية الحيارى في الرد على اليهود والنصارى، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1415هـ-1994م، ص 196.

(6) - ابن حزم: المصدر السابق، ج1، ص 111، ابن قيم الجوزية: المصدر السابق، ص 196.

(**) - المونوفيزية: « Monophysites » مذهب الطبيعة الواحدة، ظهر في القرنين الخامس والسادس الميلاديين، بعد إنتشار آراء أوطيخا التي رفضها مجمع خلقدون سنة 451م، محمود محمد محفوظ: المرجع السابق، ج4، ص 2394، أحمد سوسة: المرجع السابق، ص 95.

(7) - محمود محمد محفوظ: المرجع السابق، ج4، ص ص 2393-2394.

(8) - سورة المائدة: الآية 73.

ويذكر محمود محمد محفوظ⁽¹⁾: أن الملكيين منهم الكاثوليك الذين يعترفون برئاسة بابا روما، ويسمون الروم الكاثوليك، وتعد الكاثوليكية اليوم إمتدادا لهذه الفرقة، ومنهم الأرثوذكس الذين لا يعترفون بهذه الرئاسة ويسمون الروم الأرثوذكس.

والملكانية منتشرة اليوم في سوريا ومصر وفلسطين وكنيستهم تسمى كنيسة الروم⁽²⁾.
وخلاصة القول أن الملكانية تعتقد أن للمسيح طبيعتين لاهوتية وناسوتية، وهذا مذهب الكاثوليك الذين يعتقدون أن الآلهة ثلاثة متميزون ومنفصلون وهم: الأب، الإبن، والروح القدس.

4- اليعقوبية: ^(*) « **Jacobinisme** » ظهرت هذه الفرقة في منتصف القرن الخامس الميلادي، وهي فرقة مسيحية تنسب إلى يعقوب البرادعي، وهي إحدى فرق ثلاث إختلفت حول طبيعة المسيح⁽³⁾.
يذكر الرازي⁽⁴⁾: "أن اليعقوبية ترى أن المسيح هو الله والإنسان إتحدا في طبيعة واحدة هي المسيح كإختلاط الماء باللبن".

أي أن المسيح طبيعة واحدة من طبيعتين: إحداهما طبيعة الناسوت، والأخرى طبيعة اللاهوت، وأن هاتين الطبيعتين تركبتا فصارا إنسانا واحدا وجوهرا واحدا هو المسيح⁽⁵⁾.

ويطلعنا الشهرستاني على مذهب اليعاقبة فيقول⁽⁶⁾: " إنهم قالوا بالأقانيم الثلاثة، ولكنهم قالوا بأن الكلمة صارت جسدا ودما، فصار الإله هو المسيح وهو الظاهر بجسده، بل هو هو".

وعنهم جاء في القرآن الكريم: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾⁽⁷⁾.

وفي نفس السياق يورد عنهم ابن قيم الجوزية⁽⁸⁾: " وقالوا: إن مريم ولدت إلهًا، والقنل والصلب

⁽¹⁾ - الموسوعة العربية الميسرة، ج4، ص 2330، محمد أحمد الحاج: المرجع السابق، ص 201.

⁽²⁾ - أحمد سوسة: المرجع السابق، ص 105.

^(*) -اليعقوبية أو اليعاقبة « Jacobites » هم أتباع يعقوب البرادعي « Baradai Jacques » (505 - 578م) راهب سوري، أسقف الرها Edessa سنة 541م، لقب بالبرادعي لأن لباسه كان من خرق برادع الدواب، وعرف أيضا بالزلزل لأنه زلزل الإيمان الكاثوليكي في بلدان آسيا، وكان يعتقد أن جسد المسيح غير قابل للآلام وأن ما ذاقه من الآلام في الصلب كان خياليا، عكس ما كان يعتقد نسطوروس، توفي بمدينة الرها سنة 578م، المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص 338، عمر فروخ: تاريخ الفكر العربي، ص 154، محمود محمد محفوظ: المرجع السابق، ج4، ص 2648، جواد علي، المرجع السابق، ج6، ص ص 630 - 631،

Larousse Illustré, P1112

⁽³⁾ - محمود محمد محفوظ: المرجع السابق، ج4، ص 2648.

⁽⁴⁾ - إعتقادات فرق المسلمين والمشركين، ص 115، الأسد آبادي: المصدر السابق، ج5، ص ص 82 - 83.

⁽⁵⁾ - ابن قيم الجوزية: المصدر السابق، ص 195.

⁽⁶⁾ - الملل والنحل، ج1، ص ص 225 - 226.

⁽⁷⁾ - سورة المائدة: الآية 72.

⁽⁸⁾ - هداية الحيارى في الرد على اليهود والنصارى، ص 195.

وقع على الجوهر الذي هو من جوهرين، كإتحاد الماء يلقي على الخمر فيصيران شيئاً واحداً⁽¹⁾. وبالرغم من أن اليعقوبية ظهرت في منتصف القرن الخامس الميلادي، إلا أنها تنسب إلى يعقوب البرادعي الذي ظهر في بداية القرن السادس الميلادي لأنه كان من أنشط دعاةها، وكانت أكثر اليعاقبة منتشرة في مصر والنوبة^(*) والحبشة والأرمن^(**)(2)، وتعد الكنيسة الأرثوذكسية اليوم إمتداداً لليعقوبية⁽³⁾.

وذكر المسعودي⁽⁴⁾ اليعاقبة فقال: " أن اليعقوبية هم نصارى وديارهم مما يلي الموصل وجبل الجودي " (***) .

ويستنتج الباحث مما سبق أن اليعاقبة يذهبون إلى أن المسيح جوهر واحد وأقنوم واحد، ولكنه جوهر من جوهرين، أو هو طبيعة من طبيعتين، إحداهما إلهية والأخرى إنسانية، ولكنهما تركبتا كما تركبت النفس والبدن.

وقد يجد الباحث في هذا الموضوع أن هناك فرق أخرى تفرعت عن هذه الفرق الكبرى – السابقة الذكر – وعقائدها إما أنها بقايا الوثنية، أو مزيج من اليهودية والنصرانية وجدت سبيلها إلى جزيرة العرب ومنها:

1- الناصريون « Nazarenes »: ظهرت هذه الفرقة في أوائل القرن الأول الميلادي، أي في عهد بولس الرسول (10 - 67م).

(1) - ابن حزم: المصدر السابق، ج1، ص 117.

(*) - النوبة: بلاد واسعة عريضة جنوبي مصر، وهم نصارى أهل شدة في العيش، بلادهم بعد أسوان، ويغتسلون من الجنابة ويختنون، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج5، ص ص 308 - 309.

(**) - الأرمن: وهم سكان أرمينية بجانب أذربيجان. اليعقوبي: البلدان، ص 208، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج1، ص 160.

(2) - أحمد أمين: المرجع السابق، ص 121.

(3) - محمد أحمد الحاج: المرجع السابق، ص 203.

(4) - مروج الذهب، ج2، ص 101.

(***) - جبل الجودي: جبل مطل على جزيرة ابن عمر في الجانب الشرقي من دجلة من أعمال الموصل عليه استوت سفينة نوح لما نضب ماء الطوفان، ويقع جنوب شرق الأناضول (تركيا حالياً) وقد صرح القرآن الكريم بذلك في قوله تعالى: (وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين) سورة هود: الآية 44، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج2، ص 179، خالد فائق العبيدي: الآثار والتاريخ، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005م، ص ص 12 - 13.

وفي الإصطلاح هم الفرقة التي أقرت رسولية بولس، ويصفهم الربانيون^(*) بأنهم جماعة من الهراطقة^(**) اليهود ظهوروا بغور الأردن^(***1).

وقد ذكر جواد علي⁽²⁾ أنهم كانوا يقرأون النسخة العبرانية لإنجيل متى كالأبوينيين، ويقولون بألوهية المسيح (ابن الله) وأنه مولود مريم العذراء، وفي ذلك يخالفون مذهب أبين «Ebion»⁽³⁾. وقد حافظوا على ناموس موسى وشريعته وإن لم يلزموا بها المسيحيين من غير اليهود.

2- الكسائيون^(****) «Elkesaites»: فرقة ظهرت في أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثاني للميلاد في وادي الأردن، وقد نبعت من اليهودية⁽⁴⁾.

والكسائيون موحدون، وشريعتهم هي شريعة موسى، غير أنهم يؤمنون بالآخرة والبعث والحساب والعقاب⁽⁵⁾.

لذلك استمرت هذه الفرقة تحافظ على الختان وحرمة السبت وسائر احكام الشريعة الموسوية⁽⁶⁾.

وذكر عبد المنعم الحفني⁽⁷⁾: أنهم قاموا بالإغتسال في النهر بقصد التطهر فقد سموا بالمغتسلين.

(*)-الربانيون «Rabbinites»: من أكبر فرق اليهود، والربان هو الحبر أو الحاخام، كتابهم التلمود، وهو أعلى منزلة عندهم من التوراة، وتتألفهم فرقة القرانيين «Karaites»، وقد أطلقوا على أنفسهم لقب "الإخوان" أو "الرفقاء" «Compagnons»، عبد المنعم الحفني: المرجع السابق، ص 115، شاهير أبو شريح: المرجع السابق، ص 102.

(**)- الهراطقة «Hérésie»: ذكر هذا المصطلح في المصادر اليهودية القديمة في نهاية عهد الهيكل الثاني، وفي القرون الأولى من ظهور المسيحية، وقد أطلق على الوثنيين أو الملحدين Paiens وكل من يتبع أساليبهم وطرقهم ويخالف الشريعة اليهودية. Jean Christophe Attias: Op. Cit, p p 121- 122

(***)-غور الأردن: الغور المنخفض من الأرض، وغور الأردن ببلاد الشام بين بيت المقدس ودمشق، وهو منخفض عن أرض دمشق وأرض بيت المقدس، فيه نهر الأردن، وعلى طرفيه بحيرة طبرية، والبحيرة المنتنة، ابن حزم: المصدر السابق، ج1، ص 287، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج4، ص 217.

(1)- عبد المنعم الحفني: المرجع السابق، ص 236.

(2)- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج6، ص ص 635- 636.

(3)- عبد المنعم الحفني: المرجع السابق، ص ص 236- 237.

(****)-نسبة إلى " الكسائي" -ELKESSAI- مؤسسها الأول، وقيل نسبة إلى رجل إسمه القصي أو القاصي مشتق من الأرامية بمعنى المستتر، وقيل معناها اللغوي " القوى الخفية" في لغة بني إرم، وقد تعني المتخفون تحت الكساء، وقيل الكساء هو الكتاب المنسوب إليهم، جواد علي: المرجع السابق، ج6، ص 636.

(4)- عبد المنعم الحفني: المرجع السابق، ص 184.

(5)- المكان نفسه.

(6)- جواد علي: المرجع السابق، ج6، ص 636.

(7)- موسوعة فلاسفة ومتصوفة اليهودية، ص 184.

- 3- السبيليون^(*) « Sabellians »: مذهب هرطقة ظهر خلال القرن الثالث الميلادي، ويهدف هذا المذهب إلى تقليص تميز الأفانيم الثلاثة في عقيدة التثليث⁽¹⁾.
- 4- الأبيونيون^(**) « Ebionites »: فرقة من اليهود المنتصرين عرفوا بهذه التسمية العبرانية الأصل التي ربما تعني الأغمار، لأنهم كانوا من نكرات اليهود، وقيل ربما هذا الإسم هو الذي أطلقوه على أنفسهم بمعنى أنهم الفقراء إلى الله⁽²⁾. ظهرت هذه الفرقة وانقرضت في القرن الرابع الميلادي⁽³⁾. وكانت هذه الفرقة تتمسك بالناموس، وتقر جميع شرائع موسى، وعندهم أن المسيح ورث الشريعة عن موسى، وأنه لا كتاب سوى الأسفار الخمسة⁽⁴⁾.
- وتعتبر عيسى هو المهدي المنتظر وترفض الإقرار بألوهيته⁽⁵⁾. وقد ذهب فريق من الأبيونيين مذهب الغنوصيين^(***)، فقالوا: أن المسيح هو آدم، وقال فريق آخر بأنه الروح القدس حل بآدم ثم بالآباء، وأخيرا حل بعيسى فلما صلب عيسى صعد الروح القدس الذي هو المسيح إلى السماء⁽⁶⁾.
- 5- المارونية^(****) « Maronisme »: ظهرت هذه الطائفة في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الميلاديين، وتنسب إلى الراهب القديس مارون، ويسمى أتباعه المارونيين. يرى أصحاب هذه الملة أن المسيح ذو طبيعتين، لكنه ذو إرادة أو مشيئة واحدة، وهي المشيئة والإرادة الإلهية لإلتقاء الطبيعتين في أقنوم واحد⁽⁷⁾.

(*)-هم أتباع مذهب « Sabellianisme » الذي أسسه سابيلوس « Sabelius » صاحب هذه البدعة التي ظهرت في القرن الثالث الميلادي، جواد علي: المرجع السابق، ج6، ص 624، Larousse Illustré, p 1559

(1)- جواد علي: المرجع السابق، ج6، ص 624.

(**)-نسبة إلى أبيون « EBION » مؤسس الفرقة: كتابهم المقدس الناموس (الأسفار الخمسة) وهي تسمية عبرانية الأصل تعني الفقراء إلى الله، جواد علي: المرجع السابق، ج6، ص 635.

(2)- عبد المنعم الحفني: المرجع السابق، ص 48.

(3)- شاهير ذيب أبو شريح: المرجع السابق، ص 64.

(4)- عبد المنعم الحفني: المرجع السابق، ص 49.

(5)- شاهير أبو شريح: المرجع السابق، ص 64.

(***)-نسبة إلى كلمة غنوصيص « Gnosis » الإغريقية والتي تعني المعرفة، وهي حركة فلسفية ودينية نشأت في العصر الهلينيستي وأساسها أن الخلاص يتم بالمعرفة أكثر مما يتم بالإيمان والأعمال الخيرة، محمود محمد محفوظ: المرجع السابق، ج3، ص 1698.

(6)- عبد المنعم الحفني: المرجع السابق، ص 48.

(****)-تنسب إلى يوحنا مارون « J. MARON » (ت نحو 410م) الذي تنسك في القورشية (سوريا الشمالية)، اتصل به يوحنا فم الذهب « Yean Chrysostome » أسقف القسطنطينية في منفاه، كتب سيرته ثيودوريتس، وإليه ينسب الموارنة، وتلاميذه هم رهبان دير مارون الشهداء الثلاثمائة والخمسون (350) الذين قتلهم المونوفيزيون لأمانتهم لمجمع خلقدون سنة 451م، المنجد في اللغة والأعلام، ص 511.

(7)- محمد أبو زهرة: محاضرات في النصرانية، ص 147.

وقد شايعه في هذا الرأي بعض مسيحيي آسيا، لذا اجتمع مجمع القسطنطينية السادس سنة 680م وأصدر قرارا بتكفير يوحنا مارون ولعنه وطرده.

وقد نزلت بأصحاب هذا المذهب اضطهادات شديدة دفعتهم إلى الفرار واللجوء إلى جبل لبنان واعتصموا به⁽¹⁾. ولا زالت هذه الطائفة موجودة في جبل لبنان حتى اليوم.

6- البربرانية^(*): فرقة مسيحية ظهرت في القرن الخامس الميلادي، يقول أصحابها أن عيسى وأمه مريم إلهان⁽²⁾ من دون الله عز وجل.

ويذكر ابن حزم⁽³⁾: أن أصحاب هذه البدعة كانوا من الوثنيين « Paiens » يعبدون الزهرة^(**) « Venus » إلهة السماء عند الرومان، وحينما اعتنقوا المسيحية شبهوا إلهتهم بمريم وأطلقوا عليها اسم ملكة أو إلهة السماء بدلا من الزهرة.

وقد أخبرنا القرآن الكريم عن هؤلاء الذين يقولون بألوهية مريم في قوله تعالى⁽⁴⁾: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾، وقوله تعالى⁽⁵⁾ أيضا: ﴿ بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

ويرد القرآن الكريم على هذه الفرقة التي كانت تقول بألوهية المسيح وأمه معا في قوله تعالى⁽⁶⁾: ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صَدِيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾.

وقد أوشكت هذه الفرقة على الانقراض في نهاية القرن الثالث الميلادي⁽¹⁾، ويبدو من ذكرها في القرآن الكريم أنه كان لا يزال لها أتباع إلى مطلع القرن السابع للميلاد.

(1) - شاهير أبو شريح: المرجع السابق، ص 72 - 73.

(*) - تسمى هذه الفرقة أيضا: المريميون نسبة إلى مريم العذراء، وقد شبهها أتباع الفرقة بإلهة السماء عند الرومان فينوس " Venus "، ابن حزم: المصدر السابق، ج1، ص 110، شاهير أبو شريح: المرجع السابق، ص 62.

(2) - محمد أبو زهرة: محاضرات في النصرانية، ص 141.

(3) - الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج1، ص 110.

(**) - الزهرة « Venus » ظهرت هذه الإلهة في العهد الروماني خلال القرن الثاني ق.م، وهي إلهة الجمال والحب والإخصاب عند الرومان، وتعرف عند الفينيقيين باسم " عشتاروت " وعند الإغريق تعرف باسم أفرديت " Aphrodite ". محمد الصغير غانم: الملامح الباكورة للفكر الديني في شمال إفريقيا، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2005م،

ص 117، Larousse Illustré, p.1645.

(4) - سورة المائدة: الآية 116.

(5) - سورة الأنعام: الآية 101.

(6) - سورة المائدة: الآية 75.

وخلاصة القول أن النصارى يختلفون في طبيعة المسيح (عليه السلام)، وهم لا يدركون حقيقة عقيدة التثليث بدليل اختلافهم وتباين فرقهم في هذا الموضوع، وعلاوة عن كون هذه العقيدة تصطدم بالفطرة السليمة والعقل البشري، فإنه لا يوجد لها سند من الوحي أو حتى من النصوص الأصلية المنزلة.

وقد نشأت هذه الفرق مع بداية الخلاف حول طبيعة المسيح، وبقي هذا الخلاف مستمرا، فموضوعه بقي مبهما ولم يتوصل فيه النصارى إلى رأي صريح موحد.

وفي هذا السياق يقول ابن تيمية⁽²⁾: " ولهذا قال بعضهم: لو اجتمع عشر نصارى لتفرقوا عن أحد عشر قولا، وقال آخر: لو سألت أحد النصارى وامرأته وابنه عن توحيدهم، لقال الرجل قولا وامرأته قولا وابنه قولا ثالثا".

ويذكر الشيخ رحمة الله الهندي⁽³⁾ في معرض حديثه عن عقيدة التثليث: " أن ثلاثة أشخاص تنصروا، وعلمهم أحد القساوسة عقيدة التثليث، فلما سئلوا، طرد منهم إثنان لجهلهم بها وأبقى الثالث، لأنه كان حريصا على حفظ هذه العقيدة، فلما سأله القس، كان ذكيا وكان جوابه: يا مولاي، حفظت مما علمتني حفظا جيدا، وفهمت فهما كاملا، بفضل الرب المسيح أن الواحد ثلاثة والثلاثة واحد، وصلب واحد منهم ومات، فمات الكل لأجل الإتحاد، ولا إله الآن وإلا يلزم نفي الإتحاد".

المبحث الرابع: الديانة الوثنية في شبه الجزيرة العربية:

سادت في جزيرة العرب عامة، وفي الحجاز على وجه الخصوص، عددا من المعتقدات الدينية، الوثنية والتوحيدية، وقد عرضت الديانات التوحيدية الثلاث في المباحث السابقة بشيء من الدرس والتحليل والاستنتاج ما استطعت سواء في الشرح أو محاولة النقد لما وجدته بعيدا عن الموضوعية وغريب عن المنطق.

وسأعالج في هذا المبحث ديانة طالما دان بها العرب، وغير العرب، وهي الديانة الوثنية الوضعية، والتي كانت إحدى الديانات القديمة التي سادت بلاد الحجاز، وتتجلى الوثنية في مظاهر عديدة منها: عبادة الأصنام والأوثان، وعبادة الأرواح، والكواكب والنجوم، وعبادة الأسلاف، ومختلف مظاهر الطبيعة، هذه العبادات كلها تمثل درجات بدائية من مراحل التطور الفكري الديني، أما الديانات السماوية الثلاثة، والمعتقدات التوحيدية فتمثل درجات عليا من التطور الفكري، توصل إليها العقل البشري، وكانت منطقة الحجاز وتحديدا مكة قد عرفت هذه المعتقدات والأديان.

(1) - شاهير أبو شريخ: المرجع السابق، ص 63.

(2) - الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ج2، مطبعة المدني، المؤسسة السعودية بمصر، 1383هـ/ 1963م، ص 155.

(3) - إظهار الحق، المرجع السابق، ج1، ص ص 337-338.

المطلب الأول: مفهوم الديانة الوثنية:

عرف علماء اللغة الديانة الوثنية على أنها: الدين الذي اتخذه العرب، أو الإله الذي عبد من دون الله، ويكمن في عبادة الأصنام والأوثان⁽¹⁾.
وقد استعمل العرب اصطلاحين للدلالة على التماثيل التي كانوا يعبدونها هما: الأصنام والأوثان.

وقد اختلفت المذاهب وتعددت الآراء حول معنى الصنم والوثن، والتماثيل والنصب، وتتضح معانيها من خلال الإطلاع على ما جاء في كتب اللغة والرواية، والأدب والحديث.
وفي هذا السياق يرى ابن الكلبي⁽²⁾: " أن الصنم ما كان من خشب أو ذهب وفضة، أو حجارة أو غيرها من جواهر الأرض، ينحت وينصب ويعبد تقرباً إلى الله، والشرط فيه أن يكون مجسداً لجثة إنسان أو حيوان".

ويرى الزبيدي⁽³⁾: " أن الصنم الصورة بلا جثة"، ويذهب رأي آخر إلى ان الصنم ما كان على خلقة البشر، والوثن ما كان على غيرها⁽⁴⁾.

ويبدو أن الوثن سمي وثناً لانتصابه وثباته على حالة واحدة، من وثن بالمكان أقام به فهو واثن⁽⁵⁾.

أما ابن منظور⁽⁶⁾ فقد عرف الصنم بأنه: "كل ما له جسم أو صورة، وإن لم يكن له جسم أو صورة فهو وثن، والصنمة الصورة التي تعبد"،

ويذكر السهيلي⁽⁷⁾: " أن الصنم ما كان من حجر أو غيره".

وقد وردت كلمة "صنم" في بعض الكتابات التي عثر عليها في أعالي الحجاز بلفظة "صلم"، ووجد أنها تشير إلى اسم علم لإله عبد بمدينة تيماء، ويرجع بعض المستشرقين تاريخ هذه العبادة إلى سنة ستمائة (600) قبل الميلاد⁽⁸⁾.

(1) - جواد علي: المرجع السابق، ج6، ص 71.

(2) - كتاب الأصنام، تحقيق أحمد زكي، دار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1965م، ص 53.

(3) - تاج العروس، ج9، ص 358.

(4) - المصدر نفسه، ج8، ص 371.

(5) - المكان نفسه.

(6) - لسان العرب، ج12، ص 349.

(7) - الروض الأنف، ج1، ص 102.

(8) - جواد علي: المرجع السابق، ج6، ص 72.

وذكر علماء اللغة وبعض المفسرين أن كلمة "صنم" ليست عربية الأصل، وإنما هي معربة وأصلها "شمن"، ولكنهم لم يذكروا اسم اللغة التي عربت منها⁽¹⁾، وهذا أمر يحتاج إلى دراسة أعمق من قبل المختصين.

وحسب الأب رفائيل نخلة⁽²⁾: ان لفظة "صنم" وردت في لغة بني إرم باسم "صلمو" **Salmo**، ومعناها "صورة" وفي اللغة العبرانية من أصل "صلم" **Salem**، بمعنى "صور".

ووردت كلمة "وثن"، ويبدو أنها من الكلمات العربية القديمة، في نصوص المسند، ويقصد به الصنم الذي يرمز إلى الإله، والوثن هنا بمعنى الصنم في القرآن الكريم⁽³⁾.

ويرى البعض الآخر أن الوثن حجر أو صخرة أخذت هكذا من الطبيعة، ولم يتدخل الإنسان في صقلها وصناعتها⁽⁴⁾.

ويورد ابن الكلبي⁽⁵⁾ الفرق بين الأنصاب والتمائيل فيقول: " أن ما كان من حجارة منصوبة أمام الحرم وغير الحرم يطوفون بها ويعتزون عندها فهي من الأنصاب، أما ما كان له شكل الأصنام والأوثان فهو من التمائيل".

ويؤكد هذا الرأي الزبيدي⁽⁶⁾: من " أن الأنصاب هي تلك الحجارة التي تنصب حول الكعبة ويذبح عندها وتعبد من دون الله تعالى".

يقول ابن منظور⁽⁷⁾: "أن النَّصْب (يفتح النون وإسكان الصاد)، والنَّصْب (بضم النون والصاد)، كل ما عبد من دون الله، وأن الأنصاب هي الأوثان وفيه أيضا أن النصب هو الصنم وهو الحجر الذي يذبح عنده".

ولعل أقرب تفسير لكلمة الأنصاب ما أورده ابن الكلبي⁽⁸⁾ بقوله: " واشتهرت العرب في عبادة الأصنام، فمنهم من اتخذ بيتا ومنهم من اتخذ صنما، ومن لم يكن قادرا على اتخاذ صنم، ولا اتخاذ بيت، كان ينصب حجرا أمام الحرم، وأمام غيره ممن استحسنت، ثم طاف به كطوافه بالبيت... فكان

(1) - الزبيدي: المصدر السابق، ج8، ص 371، ابن منظور: المصدر السابق، ج12، ص 349، الألويسي: روح المعاني، ج13، ص 210.

(2) - غرائب اللغة العربية، ص 193.

(3) - ابن الكلبي: المصدر السابق، ص 33، ابن منظور: المصدر السابق، ج17، ص 333، ابن حبيب البغدادي: المصدر السابق، ص 193.

(4) - شوقي ضيف: المرجع السابق، ص 92.

(5) - كتاب الأصنام، ص 33، توفيق برو: المرجع السابق، ص 291.

(6) - تاج العروس، ص ص 485-486 مادة (نصب).

(7) - لسان العرب، ج1، ص 760.

(8) - كتاب الأصنام، ص 33.

الرجل إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجار، فنظر إلى أحسنها، فأتخذها رباً وجعل ثلاثة أثنافي (*) لقدره فإذا ارتحل تركه، فإذا نزل منزلاً آخر فعل مثل ذلك، فكانوا ينحرون ويذبحون عند كلها ويتقربون إليها".

وهذه الحجارة التي يقصدها ابن الكلبي هي الأنصاب، ولعل اختيار العربي لأربعة أحجار ربما يكون له علاقة بالمعتقد السائد لديهم من أن الكون يتألف من أربعة عناصر أساسية هي: النار، الهواء، والتراب، لذلك نجده انطلقاً من هذا المعتقد يختار أحسن هذه الأحجار وأجملها ليتخذها إله، وحسب ابن الكلبي⁽¹⁾ فإن الوثن لفظة مرادفة للصنم.

ويبدو من روايات الإخباريين أن عبادة الأصنام كانت منتشرة انتشاراً واسعاً في الحجاز قبل الإسلام، وكانوا يشركون مع الله آلهة أخرى.

ويذكر بعض الرواة والإخباريين ومنهم ابن هشام⁽²⁾: " أنه ما من رجل من قريش إلا وفي بيته صنم، ولأهل كل دار صنم يعبدونه، فإذا ما أراد الرجل منهم السفر تمسح به حين يركب تبركا به، فكان ذلك آخر ما يصنع حين يتوجه إلى سفره، وإذا قدم من سفره تمسح به فكان ذلك أول ما يبدأ به قبل أن يدخل على أهله".

كما وردت لفظة (نصب) في اللهجات القديمة، ومنها الفنيقية باسم (مصبت)، وفي العبرانية باسم (مصبه) -Masseba- ويراد بها المذبح الذي تتحر عليه القرابين والضحايا⁽³⁾.

فإذا ذبح القربان فإن دمه يسيل عبر ثقب ويتجمع في حفرة تسمى (الغبغب) وهي المذبح -Autel- وباللاتينية -Altaré- أو المنحر⁽⁴⁾.

وقد أشير إلى النصب في الشعر العربي القديم، في شعر ينسب إلى الأعشى إذ يقول⁽⁵⁾:

وذا النصب المنسوب لا تتسكنه ولا تعبد الأوثان والله فاعبدا.

وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم في قوله تعالى⁽⁶⁾: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾، ويفهم من الآية الكريمة أن عبادة الأصنام ما هي إلا تقرباً وطلباً للشفاعة عند الله "زلفى" أي قرابة ومنزلة⁽⁷⁾.

(*) - أثنافي: مفردتها الأثفية وهي الحجارة التي تنصب وتجعل القدر عليها، ابن منظور: لسان العرب المحيط، ج1، ص21.

(1) - كتاب الأصنام، ص 37.

(2) - السيرة النبوية، ج1، ص 65، ابن الكلبي: المصدر السابق، ص 32، الأزرقى: المصدر السابق، ج1، ص 93.

(3) - جواد علي: المرجع السابق، ج6، ص 421.

(4) - جواد علي: المرجع السابق، ج6، ص 422، Félix Gaffiot: Op. cit. p 44.

(5) - ديوان الأعشى، ص 46، الزبيدي: المصدر السابق ج1، ص 486، مادة (نصب).

(6) - سورة الزمر: الآية 3.

(7) - الطبري: مختصر تفسيره، ص 458.

أما الأوثان فكانت عبارة عن تماثيل منحوتة في الحجر، وترمز إلى الإله، وإليها تذبح الذبائح وتقدم لها القرابين، وهناك العتيرة^(*) وهي التي تذبح للأصنام ويصب دمها على رأسها⁽¹⁾. وفي هذا السياق يقول شوقي ضيف⁽²⁾: "وكانوا يتعبدون لأصنام وأوثان كثيرة اتخذوها رمزا لآلهتهم".

وقد اشتغل بعض أهالي مكة بصنع الأصنام، فكان عكرمة بن أبي جهل ممن يصنعها بمكة وكان الأعراب إذا جاءوا إلى مكة أو الحواضر الحجازية اشتروا منها الأصنام المصنوعة ليعبدوها ويخرجون بها إلى بيوتهم⁽³⁾.

وقد وردت لفظة "صنم" في القرآن الكريم خمس مرات⁽⁴⁾ بحسب مواقع الكلمة في الجملة مثل: "أصنام" في قوله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾، و "أصناما" قال تعالى: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُ لَهَا عَاقِبِينَ﴾ وتشير الآية الكريمة إلى أن المشركين يزعمون أنهم من ورثة إبراهيم (عليه السلام) وأنهم على دينه القويم وهم يشركون بالله، ويقيّمون الأصنام لعبادتها في بيته الحرام الذي بناه إبراهيم خالصا لله⁽⁸⁾.

كما وردت لفظة "أصنامكم" في قوله تعالى: ﴿وَتَأْتِيهِمْ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾، ومن علماء اللغة من جعل الصنم مرادفا للوثن ولم يفرق بينهما وأطلقهما على المعنيين⁽¹⁰⁾. ومنهم من فرق بينهما، ومرد هذا الاختلاف يعود ربما إلى اختلاف استعمال القبائل العربية للكلمتين، فلما جمع علماء اللغة معانيهما وقع هذا التباين.

(*) العتيرة: وهي شاة كانوا يذبحونها في شهر رجب لآلهتهم، والعنز المذبوح، والصنم يعتر له، الرازي: مختار الصحاح، مكتبة لبنان، بيروت، 1986م، ص 173، ابن منظور: لسان اللسان تهذيب لسان العرب، ج2، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993م، ص ص 131-132.

(1) - جواد علي: المرجع السابق، ج5، ص 73.

(2) - العصر الجاهلي، ص 89.

(3) - الأزرقى: المصدر السابق، ج1، ص 93.

(4) - محمد فؤاد عبد الباقي: المرجع السابق، ص 415.

(5) - سورة الأعراف: الآية 138.

(6) - سورة إبراهيم: الآية 35.

(7) - سورة الشعراء: الآية 71، سورة الأنعام: الآية 74.

(8) - سيد قطب: المرجع السابق، ج5، ص 2600.

(9) - سورة الأنبياء: الآية 57.

(10) - الزبيدي: المصدر السابق، ج9، ص 358.

من خلال هذه الدراسة يلاحظ الباحث وجود آراء متباينة في تحديد معنى الصنم والوثن. ويبدو من ورود اللفظين في المسند في مواضع مختلفة، أن هناك فرقا بينهما. وقد فرق ابن الكلبي⁽¹⁾ بين الصنم والوثن:

فالصنم ما صنع من خشب أو ذهب أو فضة وغيرها من جواهر الأرض، وما كان له صورة جعلت منه تمثالا، والوثن غالبا ما يكون حجرا ولا صورة له.

أما الأنصاب أو النصب فهي حجارة منصوبة، وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم في قوله تعالى⁽²⁾: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّيَّتُهُ وَأَدَمُّمُ وَالْحَمُّ وَالْخِنْزِيرُ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَفَةُ وَالْمَوْفُودَةُ وَالْمُتْرَدِيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذُكِّبْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النَّصْبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾، وحسب بعض المفسرين من أمثال الطبري⁽³⁾ فإن النصب مواضع وحجارة كانت تذبح عليها القرابين. كما وردت في موضع آخر من سورة المائدة في قوله تعالى⁽⁴⁾: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

وقد ذكر علماء التفسير أن أهل مكة قبل الإسلام كانوا يضعون أنصبا أي حجارة كانوا يذبحون عليها الذبائح والقرابين التي يتقربون بها إلى آلهتهم.⁽⁵⁾ وهي أيضا المذبح أو المنحر الذي ينحرون فيه ويسمونه الغبغ^(*)، وقد يكون النصب حجرا للعبادة أو منحرا تحول إلى صنم يعبدونه ويقدمونه بمرور الأيام يطوفون به ويعتزون عنده⁽⁶⁾.

وخلاصة القول أن الباحث في هذا الموضوع قد يجد صعوبة في التعرف على الحياة الدينية عند العرب في الفترة السابقة لظهور الإسلام، فقد كان للعرب أصناما كثيرة تناولها ابن الكلبي بالشرح في كتاب الأصنام الذي ألفه في القرن الثامن الميلادي الذي يعتبر أهم مصدر في هذا المجال، إلا أن الباحث في الواقع لا يستطيع التعرف على العقيدة الصحيحة للعرب في تلك الأصنام.

(1) - الأصنام، ص 53، الزبيدي: المصدر السابق، ج8، ص 371.

(2) - سورة المائدة: الآية 3.

(3) - مختصر تفسير الطبري، ص 107.

(4) - سورة المائدة: الآية: 90.

(5) - الطبري: المصدر السابق، ص 122.

(*) - الغبغ: موضع كان ينحر فيه للات والعزى بالطائف وخزانة لما يهدى إليهما، وقيل صنم كان يذبح عليه أي منحرا، وسمي كذلك لصوت الدم عند إنبعاثه، الزبيدي: المصدر السابق، ج1، ص 403، السهيلي: المصدر السابق، ج1، ص 106، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج4، ص 185،

G. Ryckmans : Les Religions Arabes Préislamiques, 2^e édition, Louvain, 1951, p13.

(6) - ابن الكلبي: المصدر السابق، ص 42.

ف نجد مثلا عند اليونان قصص وأساطير عن آلهتهم، وواجبات كل إله وصفاته وأعماله، أما عند العرب فتجهل علاقاتهم مع آلهتهم، أو علاقة الآلهة ببعضها، وربما قد يعود ذلك إلى غياب نصوص عربية قديمة، يمكن أن تساعد الباحث في إبراز الحقيقة التاريخية عن تلك العلاقات بين الآلهة وعبادها، أو عن طبيعة الديانة الوثنية لدى العرب.

وفي هذا السياق يذكر المستشرق ديتليف نيلسن⁽¹⁾ Nielson D. "أنه بالرغم من أن القرآن الكريم يحدثنا عن تلك الآلهة التي وجدت منذ عصر نوح (عليه السلام) أي الآلهة الوثنية القديمة، مثل ود وسواع وياعوث ويعوق ونسر وأسماء آلهة أخرى، بقيت محفوظة في الذاكرة، لكنها في الحقيقة أسماء جوفاء لا نعرف عن أصحابها معلومات دقيقة وصحيحة، وواضحة وقد بذلت في هذا البحث قصارى جهدي لإعطاء صورة واضحة، باعتمادي على المصادر والمراجع والروايات التي استطعت الوصول إليها ومع ذلك فإنني أشعر بوجود ثغرات في دراسة هذا الموضوع الديني الذي أردت أن أرخ له مع بقية البيانات الأخرى التي عرفتها شبه الجزيرة العربية قديما.

المطلب الثاني: ظهور الديانة الوثنية في شبه الجزيرة العربية وتطورها لدى معتقيها:

اختلفت الروايات حول ظهور الديانة الوثنية في شبه الجزيرة ونشأتها وتطورها، فهناك روايتان تتحدثان عن نشأة هذه الديانة في مكة، فالرواية الأولى ترى أنها نشأة محلية، والرواية الثانية ترى أنها وافدة عليها من الخارج.

فالرواية الأولى يذكر فيها الأزرقى⁽²⁾ سبب ظهور عبادة الأصنام في مكة فيقول: " أن أول ما كانت عبادة الحجارة في بني إسماعيل، أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم، إلا احتملوا معهم، من حجارة الحرم تعظيما للحرم وصبابة بمكة وبالكعبة وحيث ما حلوا وضعوه فطافوا به كالطواف بالكعبة".

ويستدل من هذا النص أن العرب قديما كانت تعظم الكعبة إلى درجة أنها لا تهاجر إلا وأخذت معها حجرا منها تيمنا وتبركا بها.

ويضيف الأزرقى⁽³⁾: "حتى إذا سلخ ذلك بهم، إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنا من الحجارة وأعجبهم من حجارة الحرم خاصة، حتى خلفت الخلوف⁽⁴⁾ بعد الخلوف ونسوا ما كانوا عليه، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره، فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم من الضلالات وانتحوا، ما كان يعبد قوم نوح منها على إرث ما كان بقي فيهم من ذكرها، وفيهم على ذلك بقايا من

(1) - التاريخ العربي القديم، ص ص 176 - 177.

(2) - أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ج1، ص 86.

(3) - أخبار مكة، ج1، ص ص 86 - 87، ابن هشام: المصدر السابق، ج1، ص 61، ابن الكلبي: المصدر السابق، ص 6.

(4) - الخلوف: القرن بعد القرن، والقرن مئة سنة، ابن هشام: المصدر السابق، ج1، ص 61.

عهد إبراهيم وإسماعيل يتمسكون بها من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة والوقوف على عرفة ومزدلفة وهدى البدن والإهلال بالحج والعمرة مع إدخالهم فيه ما ليس منه".

وهذا دليل على أن العرب في مكة غيروا دين الحنيفية دين إبراهيم (عليه السلام) دين التوحيد، بعبادة الأوثان وتعدد الآلهة، فكانوا يطوفون حولها ويحجون إليها ويعتصرون لها، تبركا وتعلقا بتلك الحجارة التي أخذوها من الحرم، اعتقادا منهم أنهم متمسكين بدين إبراهيم الخليل (عليه السلام)، والحقيقة التاريخية تثبت عكس ما كانوا يعتقدون.

أما الرواية الثانية فتري: أن الديانة الوثنية ديانة وافدة على مكة وبقيّة الحواضر العربية الأخرى في شبه الجزيرة العربية، وحسب ابن الكلبي⁽¹⁾ صاحب كتاب الأصنام: " أن عمرو بن لحي الخزاعي مرض مرضا شديدا، فقيل له: إن بالبلقاء^(*) من الشام حمة إن أتيتها برأت، فأتاها فاستحم بها فبرأ، ووجد أهلها يعبدون الأصنام، فقال: ما هذه؟ فقالوا: نستسقي بها المطر ونستتصر بها على العدو، فسألهم أن يعطوه منها، ففعلوا، فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة".

فكأن رواية ابن الكلبي تشير إلى أن عرب الحجاز إنما اقتبسوا عبادة الأوثان من بلاد الشام، بينما يرى بعض الباحثين العكس من ذلك، حيث أن اليونانيين ربما اقتبسوا عددا من آلهتهم مثل: " لاتون" و "هرمس" من بلاد العرب، حيث كانت القرابين تقدم للآلهة بإحراق البخور على المذابح، إلى جانب ما اقتبسوه من حروف الكتابة⁽²⁾.

وفي نفس السياق يرى ابن هشام⁽³⁾: " أن عمرو بن لحي خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره، فلما قدم مآب (وقيل مؤاب) من أرض البلقاء وبها يوحئ العمالق رآهم يعبدون الأصنام، فقال لهم: ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون؟ قالوا له: هذه أصنام نعبدها، فنستمطرها فتمطرنا، ونستتصرها فتتصرنا، فقال لهم: أفلا تعطونني منها صنما فأسير به إلى أرض العرب، فيعبدوه، فأعطوه صنما يقال له هبل، فقدم به مكة، فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه".

لذلك ذكر الإخباريون أن عمرو بن لحي هو أول من غير دين إسماعيل فنصب الأوثان،

(1) - كتاب الأصنام، ص 8.

(*) - البلقاء: موضع من أعمال دمشق يقع بين الشام ووادي القرى، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج1، ص 489.

(2) - رينيه ديسو: العرب في سوريا قبل الإسلام، ترجمة عبد الحميد الدواخلي، ط2، دار الحدائق، بيروت، 1985م، ص.

(3) - سيرة النبي (صلي الله عليه وسلم)، ج1، تعليق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع،

القاهرة، 1401هـ، 1981م، ص 82.

وسيب السائبية(*)، ووصل الوصييلة(**) وبحر البحيرة(***)، وحمى الحامي(****)(1).
وفي هذا السياق قال تعالى(2): ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

ويرى الزمخشري(3): أن أهل الجاهلية كانوا إذا نتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر بحروا أذنفا أي شقوها واسمها البحيرة، وكان الرجل إذا قدم من سفره أو برئ من مرض يجعل ناقته سائبية، وإذا ولدت الشاة أنثى فهي لهم، وإن ولدت ذكرا فهو لآلهتهم، وإذا ولدت ذكرا وأنثى قالوا: وصلت أخاها، وإذا نتجت من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا: قد حمى ظهره فلا يركب ولا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا مرعى ويسمى الحامي.

وقد ورد في السيرة عن ابن إسحاق قال: سمعت أبا هريرة يقول: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول لأكثم بن الجون الخزاعي: " يا أكثم رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف يجر قصبه في النار، فما رأيت رجلا أشبه برجل منك به، ولا بك منه" فقال أكثم: عسى أن يضرني شبهه، يا رسول الله؟ " قال لا، إنك مؤمن وهو كافر، إنه كان أول من غير دين إسماعيل"(4).
وهناك رواية أخرى مفادها أن أول من أدخل عبادة الأصنام إلى مكة هو هذيل بن مدركة بن

(*) - السائبية: هي الناقة التي تسبب في الجاهلية للذعر، والتي تلد عشر إناث ليس بينهن ذكر، فالرجل يندر أن يسيبها إذا برئ من مرضه أو إن أصاب أمرا يطلبه، وتهمل لآلهتهم ولا ينتفع بها، الزمخشري: المصدر السابق، ج1، ص 649، ابن هشام: المصدر السابق، ج1، ص 68.

(**) - الوصييلة: وهي الشاة إذا أتامت (أنتجت توأما) عشر إناث متتابعات في خمسة أبطن ليس بينهن ذكر جعلت وصييلة، فيجعل صاحبها لآلهته الإناث ولنفسه الذكور، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج5، ص 423، الزمخشري: المصدر السابق، ج1، ص 649.

(***) - البحيرة: وهي ابنة السائبية، وهي الناقة التي تشق أذنفا فلا يركب ظهرها ولا ينتفع بها وتترك لآلهتهم، ابن هشام: المصدر السابق، ج1، ص 69، نبيه عاقل: المرجع السابق، ص 275.

(****) - الحامي: هو الفحل الذي نتج له عشر إناث متتابعات ليس بينهن ذكر، حمى ظهره فلم يركب وخلي في إبله يضرب فيها، ولا ينتفع منه ولا يمنع من ماء ولا مرعى، ابن هشام: المصدر السابق، ج1، ص 69، نبيه عاقل: المرجع السابق، ص 276، ياقوت الحموي: معجم البلدان ج5، ص 423.

(1) - ابن الكلبي: المصدر السابق، ص 8، ابن هشام: المصدر السابق، ج1، ص 60، الأزرقى: المصدر السابق، ج1، ص 87.

(2) - سورة المائدة: الآية 103.

(3) - الكشاف، ج1، ص 649.

(4) - ابن هشام: المصدر السابق، ج1، ص 81.

إلياس بن مضر⁽¹⁾.

ويورد السهيلي⁽²⁾ رواية أخرى: "أن عبادة الأصنام وفدت مع عمرو بن لحي حين غلبت خزاعة على البيت، ونفت جرهم عن مكة، وجعلته العرب ربا لا يبتدع لهم بدعة إلا اتخذوها شرعة، لأنه كان يطعم الناس ويكسوهم في المواسم، فربما نحر في الموسم عشرة آلاف بدنة، وكسا عشرة آلاف حلة"، وتذكر هذه الرواية التاريخية أن أول من أدخل الأصنام إلى الحرم هو عمرو بن لحي.

وفي هذا السياق يذكر الشهرستاني⁽³⁾: " أن عمرو بن لحي لما ساد قومه وولي أمر البيت الحرام، اتفقت له سفرة إلى البلقاء بالشام، فرأى قوما يعبدون الأصنام فسألهم عنها، فقالوا: هذه أربابنا نستنصر بها فننصر، ونستسقي بها فنسقي، فالتمس إليهم أن يكرموا بواحد منها، فأعطوه الصنم المعروف بـ "هبل" فسار به إلى مكة، ووضعها في جوف الكعبة، ودعا الناس إلى تعظيمه، وكان ذلك في أول ملك سابور ذي الأكتاف"^(*).

ويحتمل أن تكون هذه الرواية منطقية وقريبة من أن يتقبلها العقل، ذلك أن أصنام العرب كانت خالية من الفن والذوق الجمالي باستثناء صنم "هبل" الذي ذكره الشهرستاني بأن عمرو بن لحي كان قد إستقدمه من الشام - كما ذكرت سابقا-، فلو أن العرب أبدعوا لأعطوها مسحة فنية جميلة، وفي هذا ما يشير إلى أن الإنسان العربي غير من دينه الحنفي، لكنه ظل محبا لرمزياته المقدسة، ومن أهمها الكعبة، فحينما ابتدع الفرد العربي أصناما أو أتى بها من الخارج كان يضعها في الكعبة، فالرمزيات عنده لا تخرج عن معنى الإلف، والعادة، والإرث، ولا تحمل لديه مضمونا فكريا أو دينيا، لذلك فالمعنى الديني عنده لا يخرج عن إطار العصبية القبلية، ونظرته المادية للأشياء، فالأمان يتحقق عنده، حين يأمن اقتصاديا، وهكذا فإن نظرته المادية هذه هي التي دفعته إلى الاعتقاد أن فكرة الحجر المقدس نشأت أساسا من حبه للكعبة، وارتباطه الديني بها منذ أن بناها إبراهيم وابنه إسماعيل (عليهما السلام)، وربط بها ملته الحنيفية، غير أن العربي أكثر من الرمزيات المحسوسة دون مضمون فكري، فكانت وثنيته ساذجة وخالية من أية مسحة فنية⁽⁴⁾.

(1) - ابن الكلبي: المصدر السابق، ص 9، أبو الفداء: المصدر السابق، ج1، ص 94، السيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب قبل الإسلام، ج1، ص 413.

(2) - الروض الأنف، ج1، ص ص 99-100، محمد إبراهيم الفيومي: المرجع السابق، ص ص 382-383.

(3) - الملل والنحل، ج2، ص 233، ابن هشام: المصدر السابق، ج1، ص ص 61-62، السهيلي: المصدر السابق، ج1، ص 101.

(*) - هو سابور بن هرمز بن أردشير ابن بابك، من ملوك بلاد فارس، حارب القبائل العربية، وكان ينزع أكتاف رؤسائهم فسمي بذئ الأكتاف، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج1، ص 392.

(4) - محمد الخطيب: المرجع السابق، ص ص 293-294.

ويذكر الألويسي⁽¹⁾: "وقد بلغ تعظيم العرب لمكة أنهم كانوا يحجون البيت ويعتمرون ويطوفون، فإذا أرادوا الانصراف أخذ الرجل منهم حجرا من حجارة الحرم ففتحته على صورة أصنام البيت ثم يجعله في طريقه قبله، ويطوف ويصلي له تشبيها بأصنام البيت، ثم أفضى بهم الأمر بعد طول المدة إلى أن كانوا يأخذون الحجر من الحرم فيعبدونه، فذلك كان أصل عبادة العرب وأهل مكة للحجارة في منازلهم شغفا منهم بأصنام الحرم وليس تذوقا للمعنى الديني القديم".

وأهم رواية تدل على وثنية العرب ما رواه الألويسي⁽²⁾: "وكنا نعبد الحجر في الجاهلية فإذا وجدنا حجرا أحسن منه نلقي ذلك ونأخذه، فإذا لم نجد حجرا جمعنا حفنة من تراب ثم جننا بغنم فحلبناها عليه، ثم طفنا به"، وقال أيضا: "كنا نعد إلى الرمل فنجمعه ونحلب عليه، فنعبده وكنا نعد إلى الحجر الأبيض فنعبده زمنا ثم نلقيه".

ويبدو من الروايات السابقة أن العرب لم يعبدوا كل صنف من الحجارة وإنما يأخذوا ما أعجبهم وما استحسوه من تلك الحجارة ومعظمها كانت بيضاء اللون، ومعنى ذلك أن لها علاقة بالبيئة الصحراوية، وبالغنم والإبل ولبنهما.

وهناك روايات أخرى حول أصل عبادة الأصنام ونشأتها بمكة وإن كانت هذه الروايات تختلف في التفاصيل، فإنها تتفق في الجوهر، فالباحث يجد نفسه أمام روايتين:

1- رواية عمرو بن لحي التي تقرر أن الأصنام وافدة من الشام، أي أن هذه الديانة نشأت عن مصادر خارجية.

2- والرواية الثانية التي تقرر أن الوثنية في بلاد العرب نشأت نشأة محلية، ولا مانع من الأخذ بالروايتين، على أساس أن عمرو بن لحي إنما استقدم هذه الأصنام حتى يوافق هوى أهله وقومه، من حبهم لحجارة الحرم، وتصبح هذه الرواية مخصوصة بالأحجار المنحوتة وليس بأصل عبادتها.

وقد نشأت الديانة الوثنية في مكة نتيجة تظافر عوامل مختلفة ومتعددة منها:

- 1- أن الإنسان كان بحاجة إلى معبود شديد القرب عند ظهور الحاجة إليه.
- 2- حاجات الحياة اليومية مثل: التنبؤ بالمستقبل، أو طلب النصيح إن كان الوقت ملائما لشن حرب، أو الشروع في تجارة أو صيد أو رحلة طويلة.

وبهذا ينظر إلى ذلك المعبود على أنه قوة وسطية بين الإنسان والصنم المعبود⁽³⁾.

(1) - سيرة النبي (صلي الله عليه وسلم)، ج1، ص 82، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ج2، ص 211.

(2) - المصدر نفسه، ج2، ص ص 117- 118 .

(3) - إسماعيل راجي الفاروقي، لويس لمياء الفاروقي: أطلس الحضارة الإسلامية، ترجمة عبد الواحد لؤلؤة، ط1، مكتبة العبيكان، الرياض، م.ع. السعودية، 1419هـ - 1998م، ص ص 117- 118.

3- ثمة ميل إلى تعظيم الرجل الصالح بعد موته سواء كان من الأسلاف أو الرؤساء أو الآباء الأولين.

وقد اختلطت بهذه المعبودات تأثيرات العوامل الخارجية، وزاد العربي جرأة ما وجدته عند جيرانه من المسيحيين والبيزنطيين، الذين قدموا له التماثيل البشرية والتي نصبها في الكعبة. وقد ساد الاعتقاد بوجود كائنات غيبية ذات قوى مؤثرة، ويتجسد هذا في الطقوس والعبادات التي كان يمارسها العربي، حيث كان يرى أن وراء كل حركة أو جرم سماوي أو ظاهرة طبيعية قوة غيبية تسيروها، وفي اعتقادهم أن لهذه القوى الغيبية تأثيراً أوسع مما نعتقده نحن اليوم، وقد ربطت هذه الصفات الغيبية بالأجرام السماوية⁽¹⁾.

ويبدو أن البدو في الحجاز كانوا قليلي الاهتمام بهذه الآلهة وربما كان السبب في ذلك أنها كانت أصلاً آلهة مجتمعات زراعية تهتم بخصوبة الأرض ووفرة المحصول لا غير. ونجد من عوامل انتشار الوثنية في شبه الجزيرة العربية وتحديدًا مكة والتحول من العقيدة التوحيدية إلى الشرك وتعدد الآلهة « Polythéisme » العوامل الآتية:

- 1- الغياب الكامل لأية ديانة متسامية عن مسرح الأحداث.
- 2- أن الأحناف كانوا قليلي العدد، بحيث لم يكن لهم تأثير يذكر على أرض الواقع.
- 3- لم تكن ديانة إبراهيم (عليه السلام) موضع رعاية حسنة بين أوساط المجتمع المكي الوثني، بل كانت ضعيفة في نفوسهم.
- 4- لم يبق من عقائد الحنفيين إلا أفكارا كانت تعيش في سر خوفًا من أتباع الوثنية الذين لا يتسامحون مع من يريد المس بمعتقداتهم⁽²⁾، ولنا في التاريخ ذكر لما ذهبنا إليه في هذا الموضوع.

وخلاصة القول أن الديانة الوثنية في مكة كانت في بدايتها محلية، ذلك أن سكانها كانوا يعظمون حجارة الكعبة، فحيثما ارتحلوا احتملوا معهم من حجارة الحرم تيمنا وتعظيمًا له، وصباغة بمكة وبالكعبة، ثم تطورت فيما بعد مع الزمن بعد أن جلب عمرو بن لحي الخزاعي صنم "هبل" من بلاد الشام ووضع في الكعبة، ودعا الناس إلى عبادته وتعظيمه، فانتشرت بذلك عبادة الأصنام والأوثان في مكة والحجاز وشبه الجزيرة العربية عامة، وطغت على ديانة إبراهيم التوحيدية التي بدأت تختفي شيئًا فشيئًا مع مرور الزمن إلى أن عمت الوثنية وتغلغلت في نفوس العرب في شبه الجزيرة العربية عامة.

(1) - نبيه عاقل: المرجع السابق، ص 249.

(2) - إسماعيل راجي الفاروقي: المرجع السابق، ص 118.

المطلب الثالث: أنواع المعابد الوثنية:

بعد دراسة ظهور الديانة الوثنية وتطورها لدى معتقبيها في شبه الجزيرة العربية ، أتطرق في هذا المطلب إلى أهم الأصنام التي كان العرب يعبدونها قديماً، وهي على الأكثر أصنام كان يتعبد لها أهل الحجاز، ونجد، والعربية الشمالية، واليمن، وهي أصنام ذكرت في القرآن الكريم في قوله تعالى⁽¹⁾: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ ، ويجب أن نضيف إليها الشمس والقمر اللذين ذكرا في قصة إبراهيم الخليل في حوار مع عبدها⁽²⁾.

ويفهم من النصوص التي اطلعت عليها أن عددا من هذه الآلهة كانت ثنائية أي مزدوجة من ذكر وأنثى مثل: اللات والعزى، وإساف ونائلة وغيرها. وكانت هذه الأصنام إما ثابتة توضع في بيوت عبادة خاصة بها، أو متنقلة تصحبها القبيلة أينما حلت وارتحلت⁽³⁾.

وفي هذا السياق يقول ابن كلب⁽⁴⁾ : " وكان لأهل كل دار من مكة صنم يعبدونه، فإذا أراد أحدهم السفر، كان آخر ما يصنع في منزله أن يتمسح به، وإذا قدم من سفره كان أول ما يصنع إذا دخل على أهله أن يتمسح به أيضا"، وأهم الأصنام التي وجدت في مكة والتي عبدها العرب هي: 1- هبل: وهو أعظم أصنام قريش، حيث يذكر ابن الكلبي⁽⁵⁾: " كان لقريش أصنام في جوف الكعبة، وكان أعظمها عندهم هبل" ويتابع ابن الكلبي كلامه عن هبل فيصفه بأنه: " كان مصنوعا من عقيق أحمر على صورة إنسان وكانت يده اليمنى مكسورة، وأدركته قريش فجعلت له يدا من ذهب، وكان أول من نصبه خزيمه بن مدركة بن إلياس بن مضر، وكان يقال له هبل خزيمه". وفي رواية أخرى أن خزيمه كان أول من نزل مكة من مضر فوضع هبل في موضعه، فقبل له صنم خزيمه، وهبل خزيمه وقد ذهب ابن الكلبي المذهب نفسه⁽⁶⁾. في حين يذهب ابن هشام⁽⁷⁾ إلى القول: "كانت قريش قد اتخذت صنما على بئر في جوف الكعبة يقال له هبل".

(1) - سورة النجم: الآيتان: 19 - 20.

(2) - جواد علي: المرجع السابق، ج6، ص 227.

(3) - سعد زغلول عبد الحميد: في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت، 1975م، ص 340.

(4) - كتاب الأصنام، ص ص 6-7.

(5) - المصدر نفسه، ص ص 27 - 28، الأزرقى: المصدر السابق، ج1، ص 89، الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج2، ص 202، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج5، ص 449، G.Ryckmans: Op.cit.p 8.

(6) - ابن الكلبي: المصدر السابق، ص 27، ابن سعد: المصدر السابق، ج 1، ص 39، النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج16، دار الكتب المصرية، القاهرة، (د.ت)، ص 12.

(7) - السيرة النبوية: ج1، ص 64، Lammens(H.): Les Sanctuaires préislamiques, p105.

ويذكر ابن منظور⁽¹⁾ عند تناوله لمعنى هبل لغويا: " أن هبل لغة من الهبلية أي القبيلة، والهبل الضخم المسن من الرجال والأنعام، أو أنه من الهبيلي التي تعني الراهب، وبنو هبل بطن من كلب يقال لهم الهبلات".

ويرى ياقوت الحموي⁽²⁾: " أن هبل على وزن زُفَر ومعناها كثرة الشحم واللحم، أو من هبل بمعنى الغنم".

ويبدو أن مرد هذا الاختلاف بين علماء اللغة، ربما يعود إلى أن هبل كان من الأصنام المستوردة من بلاد الشام أو اليونان، فحافظ على تسميته الأصلية، ومن ثم وقع هذا الاضطراب والتناقض في تحديد معنى هبل لغويا.

ويذكر الأزرقى⁽³⁾ في رواية أخرى: " أن عمرو بن لحي قدم إلى مكة بصنم يقال له هبل من العراق من موضع هيت من أرض الجزيرة، وكان هبل من أعظم أصنام قريش عندها، فنصبه على البئر في بطن الكعبة، وأمر الناس بعبادته، فكان الرجل إذا قدم من سفر بدأ به على أهله بعد طوافه بالبيت وحلق رأسه عنده".

والبئر التي كانت في جوف الكعبة حفرها إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل (عليهما السلام) ليكون خزانة للبيت، يلقي فيه ما يهدى إلى الكعبة، واسم البئر الأخسف وكانت العرب تسميها الأخشف. أما عبده فقد ذكر ياقوت الحوي⁽⁴⁾: " أن هبل صنم لبني كنانة: بكر ومالك وملكان، وكانت كنانة تعبد ما تعبد قريش، وهو اللات والعزى، وكانت العرب تعظم هذا المجمع فتجتمع عليه كل عام مرة".

ويؤكد ذلك ابن حبيب البغدادي⁽⁵⁾ عند ذكره لعبده بقوله: " وكان هبل لبني بكر ومالك وملكان وسائر بني كنانة، وكانت قريش تعبد صاحب بني كنانة، وبنو كنانة يعبدون صاحب قريش". ويذكر ريكمانس^{(6)(*)} "G.Ryckmans": " وكان عند هبل في الكعبة سبعة قداح، كل قداح منها، فيه

(1) - لسان العرب، ج 11، ص ص 687-688.

(2) - معجم البلدان، ج 5، ص ص 449-450.

(3) - أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ج 1، ص ص 87-88، السهيلي: المصدر السابق، ج 1، ص 105.

(4) - معجم البلدان، ج 5، ص 449.

(5) - المحبر، ص 318، الزبيدي: المصدر السابق، ج 8، ص 162.

(*) - ريكمانس: "G.Ryckmans" (1887-1969م) مستشرق بلجيكي اشتهر بدراسة نقوش الجزيرة العربية قبل الإسلام قام برحلة استكشافية في قلب الجزيرة العربية 1951-1952م صحبة جون فليبي "St. John Phylby" من مؤلفاته: " أسماء الأعلام السامية الجنوبية 1934م، " الديانات العربية قبل الإسلام" 1951. عبد الرحمن بدوي: المرجع السابق، ص ص 304-305.

Les Religions Arabes Préislamiques, p14

(6)

كتاب، قدح فيه العقل، إذا اختلفوا في العقل من يحمله منهم ضربوا بالقدح السبعة عليهم فعلى من خرج حمله وقدح فيه " نعم" للأمر إذا أرادوه يضرب به في القدح، فإن خرج قدح فيه " نعم" عملوا به، وقدح فيه " لا" فإذا أرادوا أمرا ضربوا به في القدح، فإذا خرج ذلك القدح لم يفعلوا ذلك الأمر".
وقدح فيه "منكم"، وقدح فيه "ملصق" وقدح فيه " من غيركم" وقدح فيه " المياه"، فإذا أرادوا أن يحفروا للماء ضربوا بالقدح وفيها ذلك القدح، فحيثما خرج عملوا به⁽¹⁾.

وكانوا إذا أرادوا أن يختنوا غلاما، أو ينكحوا منكحًا، أو يدفنوا ميتًا أو شكوا في نسب أحد، ذهبوا به إلى هبل ومعهم مئة درهم وجرور، فأعطوها صاحب القدح الذي يضرب بها، ثم قربوا صاحبهم الذي يريدون به ما يريدون ثم قالوا: يا إلهنا، هذا فلان أردنا به كذا وكذا، فأخرج الحق فيه، ثم يقولون لصاحب القدح: أضرب، فإن خرج " منكم" كان منهم وسطا (كذا في الأصل) - أي كان في رأيهم خالص النسب فيهم - وإن خرج عليه " من غيركم" كان حليفاً، وإن خرج عليه "ملصق" كان ملصقا على منزلته فيهم، لا نسب له ولا حلف، وإن خرج عليه شيء مما سوى هذا مما يعملون به " نعم" عملوا به، وإن خرج " لا" أخروه عامه ذلك حتى يأتوا به مرة أخرى، ينتهون في أمرهم ذلك إلى ما خرجت به القدح⁽²⁾.

وعند هبل ضرب عبد المطلب بالقدح على ابنه عبد الله والد الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأمر الصنم بذبح عبد الله ثم كانت عملية الفداء والمساومة مع هبل حتى بلغ العوض الذي يطلبه مائة من الإبل، وتم له ما أراد⁽³⁾.

ويذكر أهل الأخبار أن " هبل" كان أعظم أصنام قريش، وكانت من شدة تعظيمه وتقديره له أن كانت تلوذ به وتتوسل إليه ليمنّ عليهم بالخير والبركة، وليدفع عنهم الأذى من كل شر.
وكانت تلبية من نسك هبل: " لبيك اللهم لبيك، إننا لقاح، حرمتنا على السنة الرماح، يحسدنا الناس على النجاح"⁽⁴⁾.

وحسب جواد علي⁽⁵⁾ فقد ذهب بعض المستشرقين⁽⁶⁾ إلى أن "هبل" هو رمز إلى الإله القمر،

(1) - ابن هشام: المصدر السابق، ج1، ص 152، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج5، ص 450.

(2) - الأزرقي: تاريخ الأمم والملوك، ج1، ص ص 88-89، الفاسي: المصدر السابق، ج2، 444، الطبري: تاريخه، ج1، ص ص 498-499.

(3) - ابن هشام: المصدر السابق، ج1، ص ص 153-155، الأزرقي: المصدر السابق، ج1، ص 89، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج5، ص 450، ابن الأثير: المصدر السابق، ج2، ص 14.

(4) - ابن الكلبي: المصدر السابق، ص 27، البغدادي: المصدر السابق، ص 315.

(5) - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج6، ص ص 252-253.

(6) - منهم ولهوزن وريكمانس ورينيه ديسو.

وهو إله الكعبة، وهو الله عند العرب القدامى. ومن شدة تعظيم قريش له، فقد وضعت في جوف الكعبة، وكان الصنم الأكبر في البيت. وقد ورد اسم "هبل" في بعض الكتابات النبطية لتي عثر عليها في الحجر^(*)، وورد مع اسم الصنمين: نو شرا (نو الشرى)^(**) ومنوتو (مناة). ويتساءل فريق آخر من المستشرقين عما إذا كان الله مجرد اسم جنس للإله هبل الذي كان يُعبد في الكعبة، وحسب رينيه ديسو⁽¹⁾ Dussaud فإن الأستاذ فلهوزن - Wellhausen يذهب في شرحه لاسم "هبل" إلى أنه كان بمثابة الإله الذي يحرس مكة، والمحتمل أن لفظ الله أصبح لقباً من الألقاب الإلهية المقدسة في تصور العرب، وأخذ يطلق على كل فرد من تلك الأصنام.

2- اللات: وهي إلهة عربية أخرى، خاض الباحثون في معناها ورموزها وصفاتها، وهي من الأسماء القديمة التي عرفت قبل الميلاد، وردت في الأدب البابلي الذي يرجع عصره إلى ثلاثة آلاف سنة تقريباً باسم (اللاتو) وهي إلهة فصل الصيف عند البابليين أما العرب فنسبوا إليها فصل الصيف⁽²⁾، وكانت هذه الإلهة من بنات رب الأرباب وأخواتها وهي: ما مناتو (MAMNATU) وعشتار (ISHTAR)⁽³⁾. وذكر ابن الكلبي⁽⁴⁾: أنها كانت صخرة بيضاء مربعة، بنت تقيف عليها بيتاً، وكانوا يعظمونه ويتبركون به، ويحجون إليه، ويضاهون به الكعبة، وله حجة وكسوة وسدنة. وكانت العرب ومنها قريش تعظمه وتحج إليه وتطوف به⁽⁵⁾.

ويتبين من ذلك أن معبد اللات كان لتقيف بالطائف، وكانت له معابد كثيرة في مواضع مختلفة من الحجاز⁽⁶⁾.

(*)-الحجر "Hegra" : أحد مواضع وادي القرى على مرحلة منه، يقع بين يثرب والشام، وهو حصن بين الجبال كانت به ديار ثمود وبها بيوت منقورة في الصخر يسمونها الأثالث. الإدريسي: المصدر السابق، ج1، ص 351، ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج2، ص 221.

(**) -نو الشرى: "Dhoul-l-Sharâ" وهو إله الأنباط الأكبر، يمثله حجر أسد، أقيم في مدينة البتراء " Petra " ، عرف عند المؤرخين الكلاسيكيين باسم " Dusares " ، ورد اسمه في النقوش الثمودية والصفوية وهو يقابل ديونيسيوس عند اليونان. جواد علي: المرجع السابق، ج6، ص 275، السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ج1، ص 424، G. Ryckmans : Op.cit, p17 .

(1) -العرب قبل الإسلام، ص 132، محمد عبد المعيد خان: الأساطير العربية قبل الإسلام، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1426هـ - 2005م، ص 163، G.Ryckmans :Op.cit.p14

(2) -قالت العرب في ذلك " إن ربكم يتصيف باللات لبرد الطائف". الأزرقى: المصدر السابق، ج1، ص 95.

(3) -محمد عبد المعيد خان: المرجع السابق، ص 135.

(4) -كتاب الأصنام، ص 16 ، ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج4، ص ص 336 - 337، ابن منظور: المصدر السابق، ج2، ص 388، الزبيدي: مصدر سابق، ج1، ص 580، الفيروزآبادي: المصدر السابق، ج1، ص 156.

(5) -جواد علي: المرجع سابق، ج4، ص 145.

(6) -الشهرستاني: المصدر السابق، ج2، ص 237.

روى الإخباريون أسطورة عن اللات مفادها: أن عمرو بن لحي الخزاعي حينما غلبت خزاعة على البيت، أخرجت منه جرهم، جعلت العرب "عمرو بن لحي" ربا لا يبتدع لهم بدعة إلا اتخذوها شريعة، وكانت اللات رجل من تقيف يلث السوق للحجيج على صخرة تسمى صخرة اللات، فلما مات أشاع " عمرو بن لحي" بينهم أنه لم يموت وإنما دخل تلك الصخرة ثم أمر بعبادتها، وأن بينوا عليها بيتا يسمى اللات، وقالوا : قام " عمرو بن لحي" ، فقال لهم: إن ربكم كان قد دخل في هذا الحجر يعني تلك الصخرة، ونصبها لهم صنما يعبدونها⁽¹⁾.

وفي رواية أخرى لأهل الأخبار، ومنهم ابن الكلبي⁽²⁾ الذي يذهب إلى أن صخرة اللات كانت ليهودي كان يلثُ عندها السوق للحجيج على صخرة تسمى صخرة اللات.

وقد ورد ذكر اللات في النصوص الصفوية أكثر من ستين مرة، باسم (ه ل ت) (هـ - لت) وتعني اللات، على اعتبار أن الهاء حرف تعريف في اللهجة الصفوية، وهي من الآلهة الأكثر ذكرا في النصوص الصفوية⁽³⁾، وهذا ما يدل على أن عبادة اللات كانت الأكثر شيوعا بين الصفويين.

ويذكر الباحثون المحدثين أن اللات، كانت من الآلهة التي كان يتعبد لها النبط، فهي عندهم أم الآلهة، وهي عند المستشرق روبرتسون الإلهة الأم لمدينة (بطرا)⁽⁴⁾ - Petra - لذلك ورد ذكرها في النصوص النبطية ضمن مجموعة النقوش السامية التي وجدت في الحجر وتدمر⁽⁵⁾.

وصنم اللات هو من أشهر آلهة العرب التي ورد ذكرها في تاريخ هيرودوت باسم "أليات" - Alilat - أو " ألات " - Alelat⁽⁶⁾ .

وبذلك يعد هذا الصنم، أول صنم عربي يرد اسمه في نص مؤرخ يوناني خلال القرن الخامس قبل الميلاد، وهو يقابل الإلهة أثينا^(*) - Athena - عند الإغريق ، والإلهة منيرفا^(**) - Minerva - عند

(1) - ابن الكلبي: المصدر السابق، ص 16، الأزرقى: المصدر السابق، ج1، ص 95، السهيلي: المصدر السابق، ج1، ص 102.

(2) - كتاب الأصنام، ص16.

(3) - رينيه ديسو: المرجع السابق، ص 111.

(4) - جواد علي: المرجع السابق، ج6، ص ص 232 - 233.

(5) - رينيه ديسو: المرجع السابق، ص 117.

(6) - Herodotus :The Histories, trans.by Aubrey de sélincourt ,III Penguin Books, Middlesex, England, 1977, p206.

(*) - أثينا: "Athena" إلهة إغريقية ابنة الإله زيوس Zeus، وهي إلهة الحكمة والحرب والذكاء والفكر والفنون، ورعاية مدينة أثينا. محمد الصغير غانم: المرجع السابق، ص 107.

(**) - منيرفا: "Minerva" إلهة الحكمة والذاكرة والصناعات اليدوية، وهي التي تتحكم وتشرف على مجموع الصناعات والموسيقيين، وتمثل عند الرومان الركيزة التي تقف عليها سلامة روما، وتشارك أبويها الإله جوبيتر والإلهة جونون في وظيفتهما الدينية والسياسية. المرجع نفسه، ص ص 119 - 120.

الرومان⁽¹⁾.

وحسب بعض المستشرقين من أمثال رينيه ديسو⁽²⁾ "R.Dussaud" فإن هيروديت يرى أن العرب كانوا يعبدون الإلهة الإغريقية "أفروديت-أورانيا"-Aphrodite - Urania-، وكانوا يسمونها "ألثتا" أو "الإلات"، وهي تقابل الأم الكبرى للإلهة، أو عشتروت عند الفينيقيين والساميين الشماليين⁽³⁾، أو الإلهة فينوس "الزهرة- Venus" عند الرومان⁽⁴⁾.

ويبدو أن العرب عبدوا الزهرة، وكانوا يدعونها "ألثتا" أو "اللات".

ويؤكد رينيه ديسو⁽⁵⁾ في مكان آخر اعتمادا على رأي هيرودوت أن اللات تماثل كوكب الزهرة وليس كوكب الشمس، وقد أخطأ من يقول أن اللات تمثل الشمس.

ويذهب بعض المفسرين إلى أن تسمية اللات اشتقت من اسم (الله) فألحقت فيه التاء فأنتت، كما قيل عمرو للذكر، وللأنثى عمرة، وكما قيل للذكر عباس وللأنثى عباسة⁽⁶⁾.

ويرى بعض المستشرقين أنها إدغام وسط بين (الإلاهت) "Al-Alahat" والادغام التام (اللات) "Allat"، ومثله مثل لفظ الجلالة (الإلاه) الذي أصبحت صيغته (الله)⁽⁷⁾.

وقد ذكرت المصادر والمراجع أسماء رجال أضيفت إلى اللات مثل: زيد اللات، ووهب

اللات، وعائذ اللات ونحو ذلك من الأسماء التي وصلتنا من النصوص العربية القديمة.

ويرى ابن الكلبي⁽⁸⁾: " أن صنم اللات أحدث عهدا من مناة"، ومكان بيت اللات في موضع مسجد الطائف أو تحت منارة مسجد الطائف، وابن الكلبي كان يعلم أن مئذنة المسجد اليسرى أقيمت في المكان الذي كان يشغله هذا الصنم، وقد عرف البيت الذي بُني على اللات " بيت الربة" ويقصدون بالربة اللات، لأنها أنثى في نظر عابديها⁽⁹⁾.

كانت كعبة اللات مركزا للديانة الوثنية في الطائف، وإحدى معاقل عبدة الأصنام لقبيلة تقيف

(1) - جواد علي: المرجع السابق، ج6، ص 233.

(2) - العرب في سوريا قبل الإسلام، ص 114، أحمد كمال زكي: الأساطير " دراسة حضارية مقارنة"، ط2، دار العودة، بيروت، 1979م، ص ص 76 - 77.

(3) - كارل بروكلمان: المرجع السابق، ص 26.

(4) - محمد الصغير غانم: المرجع السابق، ص 117، G.Ryckmans :Op, cit.p15

(5) - العرب في سوريا قبل الإسلام، ص 115.

(6) - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج4، ص 253.

(7) - رينيه ديسو: المرجع السابق، ص 114.

(8) - كتاب الأصنام، ص 16.

(9) - رينيه ديسو: المرجع السابق، ص 112.

والقبائل العربية الأخرى⁽¹⁾، وإحدى الكعبات الثلاث^(٥) في شبه الجزيرة العربية⁽²⁾.

وما يؤكد وجود منافسة بين أهل الطائف وأهل مكة أي بين الكعبتين، المساعدات التي قدمها أهل الطائف إلى ملك الحبشة أبرهة^(**) أثناء حملته سنة 570م لتهديم الكعبة. ولما مر أبرهة بالطائف قالوا له: " أيها الملك إنما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون وليس لك عندنا خلاف، وليس بيتنا هذا بالبيت الذي تريد - يعنون اللات- إنما تريد البيت الذي بمكة، ونحن نبعث معك من يدلك عليه، فتجاوز عنهم"⁽³⁾.

ويتضح من هذا النص أن أهل الطائف ساعدوا أبرهة الحبشي في الوصول إلى مكة بهدف تهديم الكعبة، إلا أن آمالهم لم تتحقق بعد أن عجز أبرهة عن تحقيق هدفه ومنيت حملته بالفشل الذريع قوله تعالى⁽⁴⁾: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴾.

وذكر ابن الكلبي⁽⁵⁾ أن سكان الطائف كانوا يقسمون باللات، كما أقسموا بالأصنام الأخرى، ونسب إلى أوس بن حُجر قوله:

وباللات والعزى ومن دان دينها وباللّه ، إن الله منهن أكبر

وخلاصة القول: أن أغلب المستشرقين والمؤرخين الكلاسيكيين ذهبوا إلى أن اللات إلهة الشمس ومنهم ليهووسن واسترابوا وأبيفانيوس "Epiphanius"، وأن النبطيين كانوا يعبدون الشمس، ويبدو أن عبادتها قد انتقلت من النبط إلى القبائل العربية الشمالية ومن ثم إلى الحجاز، لذلك فعبدادة الشمس دخيلة على العرب، كما قال ابن الكلبي بأن اللات هي من الأصنام التي جاء بها عمرو بن لحي وأخذها العرب من النبطيين، ومما يدل على ذلك: فهي عند العرب صخرة مربعة بيضاء، كما كانت صخرة مربعة عند النبطيين، كما كانت تقيف تسميها ربة، فقد كان النبطيون يلقبونها بربة البيت أو "السيدة"⁽⁶⁾

(1) - الطاهر ذراع: المجتمع العربي القديم...، ج2، ص 383.

(٥) - الكعبات الثلاث هي: كعبة مكة، كعبة الطائف، وكعبة نجران. ابن الكلبي: المصدر السابق، ص 15.

(2) - المكان نفسه.

(**) - أبرهة الحبشي: هو أبو يكسوم، حاكم النجاشي ملك الحبشة على اليمن، عاش في القرن السادس الميلادي، كان أرياط حاكما على اليمن قبله فوقع بينهما خلاف فحضر أرياط أبرهة بالحرباء فشرم حاجبه وعينه وأنفه فبذلك سمي الأشرم. قام بحملة على مكة سنة 570م لتهديم الكعبة فأهلك الله جيشه بطير أبابيل. أحمد عبد الرزاق الحلبي: موسوعة الأعلام في تاريخ العرب والإسلام، ج5، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2000م، ص 6، وهب بن منبه: المصدر السابق، ص 314.

(3) - ابن هشام: المصدر السابق، ج1، ص37، الأزرقى: المصدر السابق، ج1، ص 110.

(4) - سورة الفيل : الآيات 1-5.

(5) - كتاب الأصنام: المصدر السابق، ص 11.

(6) -

"La dame" وكان البابليون يعتبرونها إلهة فصل الصيف وهي ذات علاقة بالشمس عند النبطيين إلهة الشمس، فقد كان العرب ينسبون إليها فصل الصيف لذلك قالوا: " إن ربكم يتصيف باللات لبرد الطائف"⁽¹⁾.

3- العزى: كانت العزى أعظم الأصنام عند قريش ، وهي صنم أنثى حسب النصوص، ورد ذكرها في الكتابات والنقوش البابلية بكلمة: (IZZU-SARRI) وذهب المفسرون في تفسيرها على أنها تشير إلى النار، أما في العبرية فهي مشتقة إما من " عزاز" وتعني شديد وقوي، أو من "عز" بمعنى "ألجأ"، والمحتمل أن العزى يراد بها الأقوى⁽²⁾.

ويبدو أن كلمة العزى من لغة بني طيء سموها "عوزي" ، وهي عشتار عند البابليين، وهي تمثل أيضا كوكب الزهرة المعروف عند عرب الجنوب بعنتر⁽³⁾.

فكانت عشتار إله فصل الربيع والحب، ثم أصبحت تمثل نجم الصباح في عهد حمورابي. وقد ذكرت العزى بعد اللات في القرآن الكريم في قواه تعالى⁽⁴⁾: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾، مما يشير إلى احتمال وجود صلة بينهما، ولا يستبعد أن تكون هذه الصلة بين الصنمين قد جاءت إلى الحجاز من بلاد الشام من عند الصفويين، مما جعل بعض المستشرقين يعتقدون أن اللات والعزى يمثلان كوكبين أو نجمين هما: نجم الصباح ونجم السماء⁽⁵⁾.

و قد ذكر ابن الكلبي⁽⁶⁾: "أن العزى أحدث عهدا من اللات ومناة، وأن الذي اتخذ العزى هو "ظالم بن أسعد" ، الذي بنى بيتا بواد من نخلة الشامية، يقال له حراض، بإزاء الغمير، عن يمين المصعد إلى العراق من مكة، وكانوا يسمعون فيه الصوت".

ويرى الأزرقى⁽⁷⁾: "أن العزى كانت ثلاث شجرات سمرات⁽⁸⁾ بنخلة، وكان الناس يتقربون إليها بالنذور، وهي عبادة مظهر من مظاهر الطبيعة وهو الشجر، وكان أول من دعا إلى عبادتها "عمر بن

(1) - الأزرقى: المصدر السابق، ج1، ص95.

(2) - محمد عبد المعيد خان: المرجع السابق، ص 138.

(3) - المكان نفسه، أحمد كمال زكي: المرجع السابق، ص 77.

(4) - سورة النجم: الآيتان 19 - 20.

(5) - رينيه ديسو: المرجع السابق، ص 125، G.Ryckmans :Op.cit, p15.

(6) - كتاب الأصنام، ص ص 16 - 17، ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج6، ص165، السويدي: المصدر السابق، ص 104.

(7) - أخبار مكة، ج1، ص 95.

(8) - سمرات: مفردا سمرّة شجر من العضاة وليس في العضاة أجود خشبا منه، وقيل من شجر الطلح صغار الورق قصار الشوك. ابن منظور: المصدر السابق، ج4، ص 379، توفيق برو: المرجع السابق، ص 295.

ربيعة" و "الحارث بن كعب". أما ابن حبيب⁽¹⁾ فيذهب إلى أن "العزى شجرة بنخلة عندها وثن تعبدها غطفان، وسدنتها من بني صرمة بن مرة".

وقد ورد ذكر العزى في شعر ينسب إلى حسان بن ثابت قوله:

وأن التي بالجزع من بطن نخلة
ومن دانها فل عن الحق مُعزَلُ⁽²⁾

ويتضح من هذا الشعر أن العزى كان لها بيتا بالجزع من بطن نخلة. وحسب جواد علي⁽³⁾ فإن العزى من الآلهة التي عبدها أهل الشام وبلاد الرافدين والنبط والصفويين، وأهل الجنوب، وقد ذكرت في المصادر المؤلفة بعد الميلاد، فقد أشار إسحاق الأنطاكي^(*) إلى اسم العزى وذلك أثناء حديثه عن "بيت حور" ودعاها "بليتيس Beltis" و"كوكبتا Kawkabata" أي أنثى كوكب، وتعني كوكب أو نجم الصباح، وهو الزهرة "Venus" عند النبط، والعزى عند العرب الشماليين⁽⁴⁾.

وحسب جواد علي⁽⁵⁾ فإن بروكوبيوس "Procopius" وهو من كتبة أوائل القرن السادس الميلادي، يذكر أن ملك الحيرة " المنذر " أهدى إلى العزى قربانا من الإماء الأسرى، وأدى به الأمر إلى أن يُضحّي بابن عدوه الحارث ملك غسان الذي كان أسيرا لديه.

ويؤكد " نولدكه " ذلك بأن " المنذر " قدّم للعزى أربعمائة راهبة مسيحية كقربان.

وفي رواية لابن الكلبي⁽⁶⁾ أن العزى كانت من أعظم أصنام قريش، فكانوا يزورونها، ويهدون لها، ويتقربون عندها بالذبائح، وكانت قريش تطوف بالكعبة وتقول: " واللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، فإنهن الغرائيق^(**) العلا، وإن شفاعتهن لترتجى " وكان العرب يقولون عن اللات والعزى هن بنات الله (عز وجل عن ذلك)، وهن يشفعن إليه⁽⁷⁾.

(1) - المحبر، ص 315.

(2) - الأزرقى: المصدر السابق، ج1، ص 98.

(3) - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج6، ص 238.

(*) - إسحاق الأنطاكي: شاعر سوري عاش في القرن الخامس الميلادي وهو إسحاق الكبير يلقب بالبرني، قديس وبطربريك أرمني أصله من الرها " Edessa " ونشأ في أنطاكية أو القسطنطينية، برع في الشعر والعلوم خاصة منها الروحية، له ترجمة للكتاب المقدس إلى الأرمينية، وعدة قصائد باللغة السريانية توفي سنة 441م. المكان نفسه، بطرس البستاني: دائرة المعارف، ج3، ص 458. محمد عبد المعيد خان: المرجع السابق، ص 139.

(4) - G.Ryckmans :Op.ci,p15.

(5) - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج6، ص 283، محمد عبد المعيد خان، المرجع السابق، ص 139.

(6) - كتاب الأصنام، ص 19.

(**) - الغرائيق: مفردها غرنوق وهو طائر حائي أبيض طويل العنق والساق، ابن منظور: لسان العرب المحيط، المصدر السابق، ج2، ص 982.

(7) - جواد علي: المرجع السابق، ج6، ص 239، محمد عبد المعيد خان: المرجع السابق، ص 141،

Lammens(H.) : Les Sanctuaires préislamiques, p 80.

وفي ذلك يقول تعالى⁽¹⁾: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ * تَلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ .

ويذكر الشهرستاني⁽²⁾: أن العزى كانت لقريش وجميع بني كنانة وقوم من بني سليم". ويرى ياقوت الحموي⁽³⁾ أن قبائل غطفان ارتبطت بعبادة العزى وتقديسها بصورة خاصة إذ يقول: "إن العزى سمرة كانت لغطفان يعبدونها، وكانوا بنوا عليها بيتا، وأقاموا لها سدنة". وهكذا كانت العزى من أهم أصنام العرب كلها، ولم تكن وثن لقريش فحسب، بل كانت وثنا لكثير من القبائل العربية خارج حاضرة مكة في الشمال والجنوب، حتى أنها عبدت في الحيرة زمن المناذرة، وكان ملوكها يقدمون لها البشر كقرايين⁽⁴⁾ - كما سلف الذكر-.

ويبدو حسب رأيي، أن عبادة العزى دخيلة، حيث أنها هي نفس عبادة عشتار التي وردت في الأدب البابلي على أنها تمثل فصل الشتاء في أسطورة تموز البابلية، ثم تطورت ومثلت بنت الإله، ثم أصبحت تمثل " الزهرة - Venus" عند الإغريق⁽⁵⁾.

وقد تطورت العزى عند العرب فكانت رمزا للشتاء، ويتضح ذلك من قول عمرو بن لحي: " إن ربكم يتصيف باللات لبرد الطائف، ويشتو بالعزى لحر تهامة"⁽⁶⁾.

وما يدل على أن عبادة العزى تركت أثرها في نفوس العرب، ما ذكره ابن الكلبي⁽⁷⁾ من أن قريش والعرب عامة كانت تُسمي بالعزى فقالوا: "عبد العزى" كما أقسموا بها، يقول درهم بن زيد الأوسي:

إني وربّ العزى السعيدة والله الذي دون بيته سرف

4- مناة: تعتبر من أصنام العرب القديمة، وحسب روايات الإخباريين فإنها أقدمها على حد قول ابن الكلبي⁽⁸⁾.

ورد ذكرها في القرآن الكريم في قوله تعالى⁽⁹⁾: ﴿وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ . ومناة لفظ مشتقة إما من " م . ن . ن" أو من " م . ن . أ" ، فأما الاشتقاق الأول فهو : إما المنّة (بضم الميم) ومعناها القوة، أو المنّة (بفتح الميم) ومعناها القطع والنقص، وأما الاشتقاق الثاني: فمنة المنية ويراد بها

(1) - سورة النجم: الآيتان 21-22.

(2) - الملل والنحل، ج2، ص 237.

(3) - معجم البلدان، ج4، ص 116.

(4) - جواد علي: المرجع السابق، ج5، ص ص 97، 103.

(5) - محمد عبد المعيد خان: المرجع السابق، ص 140.

(6) - الأزرقى: المصدر السابق، ج1، ص 95.

(7) - كتاب الأصنام، ص ص 13، 16.

(8) - المصدر نفسه، ص 13.

(9) - سورة النجم: الآية 20.

الموت، واشتقاقها من منى أي القدر، فيراد من "مناة" القدر عند اللغويين وبعض المستشرقين أمثال ريكمانس⁽¹⁾. ومن المنية المنون ومنها منى، وهي موضع بمكة كان يُمنى فيه أي يراق الدم فيه⁽²⁾. وترجع بعض الروايات تاريخ عبادة مناة إلى عمرو بن لحي، حينما قدم بها من البلقاء بالشام، ونصّبها على ساحل البحر مما يلي قديدا⁽³⁾.

وقد اختلف أهل الأخبار حول موضعها، فمنهم من يقول أن موضعها بالمشلل^(*) أمثال: ابن الكلبي الذي يرى⁽⁴⁾: "أن موضع مناة بالمشلل الواقعة على سبعة أميال من يثرب، منصوبة على ساحل البحر مما يلي قديدا^(**) بين مكة ويثرب". ومنهم من يرى غير ذلك: حيث يذكر اليعقوبي⁽⁵⁾: " أن مناة صنم كان منصوبا بفدك مما يلي ساحل البحر".

ويحدد ياقوت الحموي⁽⁶⁾ موضع مناة: " بأنه كان بـ " ودان " أو موضع قريب منه". أما ابن حبيب البغدادي فيرى⁽⁷⁾: " أنه كان بسيف البحر، وكانت الأزد تتعبد له". ونحن نرى أن الرأي الراجح من خلال أهل الأخبار أنه كان على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد بين مكة ويثرب.

أما عديتها، فيذكر الشهرستاني⁽⁸⁾: "أن مناة كانت للأوس والخزرج وعسّان". ويرى ابن الكلبي⁽⁹⁾: "أن مناة صخرة لهذيل، وقد عظمتها قريش وخزاعة وجميع العرب من الأزدي والغساسنة".

(1) - محمد عبد المعيد خان: المرجع السابق، ص 143،
G.Ryckmans :Op.cit,p15 , Bertram (T.) : Op.cit , p 9.

(2) - السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص 419.

(3) - الأزرقى: المصدر السابق، ج1، ص 66.

(*) - المشلل: جبل يهبط منه قديد من ناحية البحر، ياقوت الحموي: معجم البلدان ، ج5، ص 136.

(4) - كتاب الأصنام، ص 13.

(**) - قديد : موضع قرب مكة، قال ابن الكلبي: لما رجع تُبّع من يثرب بعد حربه لأهلها نزل قديدا ، فهبت ریح قَدّت خيم أصحابه فسمي هذا الموضع قديدا. ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج4، ص 313.

(5) - تاريخ اليعقوبي، ج1، ص 312.

(6) - معجم البلدان، ج5، ص 337.

(7) - المحبر، ص 316.

(8) - الملل والنحل، ج2، ص 237، ابن هشام: المصدر السابق، ج1، ص 66.

(9) - كتاب الأصنام، ص ص 14-15، ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج5، ص 237.

ويذكر الطبري⁽¹⁾: أن تلبية مناة كانت: " لبيك اللهم لبيك، لو أن بكرا دونك، يبرك الناس ويهجرونك، وما زال حج عثج يأتونك، أنا على عدوائهم من دونك".
ويظهر من أقوال الشهرستاني وابن الكلبي أن سائر القبائل العربية كانت تعظم مناة ومن جملتها قريش، إلا أنه لم يكن أحد أشد إعظاما لها من الأوس و الخزرج، فكانوا يحجون إليها، ولا يحلقون رؤوسهم إلا عندها، ويقفون عندها، ويذبحون حولها.
وقد سكتت روايات الإخباريين عن معبد مناة، فلم تذكر عنه شيئا، أما سدنته فهم من الغطاريف من الأزدي⁽²⁾.

وقد ورد ذكر صنم مناة في الأدب البابلي باسم "مامناتو - MAMNATU" وهي إلهة الموت والقدر عند البابليين⁽³⁾.

كما ورد ذكر "منوتن" أو "منوت" أو "مناواة - MANAVAT" في أقدم النقوش النبطية⁽⁴⁾.
والحق أن الباحث يلاحظ التشابه البارز بين كلمة "مامناتو" و "مناواة" و "مناة"، ويبدو أن هذا الصنم دخيل على سكان الحجاز وبقية المناطق الأخرى التي وجد فيها مثل الشمال والحيرة والجنوب العربي، بدليل أن مناة التي عبدها العرب هي نفس مامناتو البابلية، ومناواة النبطية، إلا أن مناة العرب، كانت تمثل الموت فقط، أما مناة البابلية فكانت تمثل الموت والقدر، لأن الدهر والقدر في تصور العرب والشعراء القدامى من العرب ذكر وليس أنثى، لذلك نجدهم يستقسمون عند هبل وذي الخصة، ولا يستقسمون عند مناة، بل حلفوا أمامها كم يقول عبد العزى بن وداعة المزني:

إني حلفت يمين صدق مرة
بمناة عند محل آل الخزرج⁽⁵⁾.

5- إساف ونائلة: اختلفت روايات الإخباريين حول أصل عبادة هذين الصنمين، ففي رواية لابن الكلبي⁽⁶⁾: " أن إساف ونائلة رجل وامرأة من جرهم، الرجل اسمه إساف بن لغى، والمرأة نائلة بنت ديك، وكان إساف يتعشقها بأرض اليمن، وأقبلا حجاجا، فدخلا الكعبة، فلما وجد إساف خلوة في البيت، وقع عليها في الكعبة، فمسخهما الله حجراين".

(1) - تاريخ الرسل والملوك، ج2، ص 270. اليعقوبي: المصدر السابق، ج1، ص 255. جواد علي: المرجع السابق، ج6، ص 246.

(2) - ابن حبيب البغدادي: المصدر السابق، ص 316، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج5، ص 237، ابن الكلبي: المصدر السابق، ص 15.

(3) - محمد عبد المعيد خان: المرجع السابق، ص 147.

(4) - أحمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق، ص 138، جواد علي: المرجع السابق، ج6، ص 250،

G. Ryckmans, Op. cit., pp 15- 16

(5) - ابن الكلبي: المصدر السابق، ص 14.

(6) - كتاب الأصنام، ص 29، السهيلي: المصدر السابق، ج1، ص 64، الطبري: تاريخه، ج2، ص 284،
G. Ryckmans: Op. cit., p: 16.

ويؤكد هذه الرواية ابن هشام⁽¹⁾: " فأخرجنا ووضعنا عند الكعبة ليعتظ بهما الناس، فلما طال مكثهما وعبدت الناس الأصنام عبدا معها، وكان أحدهما بلصق الكعبة والآخر في موضع زمزم".
أما الأزرق⁽²⁾ فيرى أن إساف نصب على الصفا، ونائلة على المروة، وإنما نصبا هنا ليعتبر بهما الناس، فلم يزل الأمر يتقادح حتى صارا يُمسَّحان، يُتمسَّحُ بهما من وقف على الصفا والمروة، ثم صارا وثنين يعبدان.

ويذهب ابن حبيب⁽³⁾ نفس المذهب ويضيف: وكان نسك قريش لأساف: " لبيك اللدهم لبيك، لبيك، لا شريك لك إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك".

وذكر اليعقوبي⁽⁴⁾: أن "عمر بن لحي" وضع هبل عند الكعبة، فكان أول صنم وضع بمكة، ثم وضعوا به إساف ونائلة كل واحد منهما على ركن من أركان البيت، فكان الطائف إذا طاف بدأ بإساف فقبله وختم به، ونصبوا على الصفا صنما يقال له "مجاور الريح"، وعلى المروة صنما آخر يقال له "مطعم الطير"⁽⁵⁾.

ومما ذكره الفاكهي⁽⁶⁾ عن الصنمين: "كان بالصفا صنم يدعى إساف ووثن بالمروة يدعى نائلة، وكان العرب قبل الإسلام يسعون بينهما".

ويرى بعض المؤرخين المحدثين ومنهم جواد علي⁽⁷⁾: أن مرد هذا القصص وروايات الإخباريين، إنما يعود إلى شكل الصنمين، فكان إساف تمثال رجل ونائلة تمثال امرأة، ويبدو أنهما استوردا من الشام فنصبا في مكة، فتولد من كونهما صنمين لرجل وامرأة هذا القصص - المذكور سابقا-، ولعله يكون من صنع القبائل التي تكره قريش، والتي لم تكن ترى حرمة للصنمين.

ويستبعد الباحث أن يكونا قد قاما بفاحشة داخل الكعبة وتدنيستها، ذلك أن هذا الأمر يتنافى والقيم العربية القديمة التي كانت تمجد العفة والأخلاق الكريمة.

أصنام قوم نوح:

يذكر ابن الكلبي⁽⁸⁾: أن هناك خمسة أصنام عبدها العرب، وتعود إلى زمن نوح (عليه السلام)

(1) - السيرة النبوية، ج1، ص 64، الزبيدي: المصدر السابق، ج6، ص 40، ابن منظور: المصدر السابق، ج9، ص 6.

(2) - أخبار مكة، ج1، ص ص 89-90، الفاسي: المصدر السابق، ج2، ص 469،

Lammens (H.) : Les Sanctuaires, p 55.

(3) - المحبر، ص 311، اليعقوبي: المصدر السابق، ج1، ص 255، الشهرستاني: المصدر السابق، ج2، ص 238.

(4) - تاريخ اليعقوبي، ج1، ص 254.

(5) - الفاسي: المصدر السابق، ج2، ص 470.

(6) - تاريخ مكة، ج2، مكتبة خياط، بيروت، (د.ت)، ص 5.

(7) - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج6، ص 267، محمد إبراهيم الفيومي: المرجع السابق، ص 394.

(8) - كتاب الأصنام، ص 8، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج4، ص 132، ج5، ص 422.

وهي: ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر.

وقد ذكرت في القرآن الكريم في قوله تعالى⁽¹⁾: ﴿ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا * وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبْرًا * وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾.

ويبدو أن ورود هذه الأصنام في القرآن الكريم على هذا النحو، هو الذي حمل ابن الكلبي على إرجاعها إلى زمن نوح (عليه السلام).

وفي رواية أخرى يزعم ابن الكلبي⁽²⁾ أن الطوفان الذي حدث زمن نوح هو الذي حمل هذه الأصنام إلى شط جدة بالحجاز، ولما نضب الماء بقيت على الشط حتى وأرتها الأتربة والرمال، ولما جاء عمرو بن لحي الخزاعي أتى شط جدة فوجد بها أصناما معدة، فحملها حتى أتى بها تهامة، ودعا العرب إلى عبادتها، وهذه الأصنام هي:

1- ود: كان أكبر الأصنام الخمسة، وأول معبود عبد من دون الله.

يذكر عبد القادر الرازي⁽³⁾ إشتقاقه اللغوي بقوله: "ود من ودد يعني تمنى وأحب، وهي قريبة من الكلمة البابلية "دودو- DUDU" أو "دوندايم- DNDAIM" ويراد بها شجرة الحب"، وقد تكون الكلمة من "دود" - DOD - العبرية ومعناها الحبيب⁽⁴⁾.

يذكر الشهرستاني⁽⁵⁾: "أن ود كان لبني كلب وموضعه بدومة الجندل"^(*)، أما ابن الكلبي⁽⁶⁾ فيرى: "أن أول من عبده عوف بن عذرة بن زيد اللات أعطاه إياه "عمرو بن لحي" فحملة إلى وادي القرى ونصبه بدومة الجندل".

وفي نفس السياق يورد السهيلي⁽⁷⁾: "أن عوف بن عذرة سمي ابنه عامر عبدود، فهو أول من سمي به، وجعله سادنا على ود إلى مجيء الإسلام.

ويتضح مما سبق أن ذلك يدل على شرف وقدم هذا الصنم لدى العرب قبل الإسلام.

(1) - سورة نوح: الآيات 21 - 23.

(2) - كتاب الأصنام، ص 33.

(3) - مختار الصحاح، ص 297 .

(4) - G. Ryckmans: Op. cit, p16, Bertram Thomas : Op.cit , p 9.

(5) - الملل والنحل، ج2، ص 237، أبو الفداء: المصدر السابق، ج1، ص 154.

(*) - دومة الجندل: حصن منيع، وقرى بين الشام وبيثرب قرب جبلي طيء، وقيل أنها سميت دومة بضم الدال نسبة إلى دومي بن إسماعيل كان قد نزلها، الإدريسي: المصدر السابق، ج1، ص 352، السهيلي: المصدر السابق، ج1، ص 103، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج2، ص 487.

(6) - كتاب الأصنام، ص 55، ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج5، ص 424.

(7) - الروض الأنف، ج1، ص 63، ابن هشام: المصدر السابق، ج1، ص 62.

ويذكر ياقوت الحموي⁽¹⁾: " أن قریشا كانت تتعبد لصنم اسمه ود، وقد ورد ود كرمز للقمر في النصوص العربية الجنوبية والنصوص الثمودية واللحيانية".

ويرى ابن حبيب البغدادي⁽²⁾: "أن ودا كان لبني وبرة وكانت سدنته لبني الفرافصة ابن الأحوص الكلبيين"

أما مظهر صنم ود فيصفه ابن الكلبي⁽³⁾: "بأنه تمثال رجل كاعظم ما يكون من الرجال، قد ذبر (دثر) عليه حلتان، عليه سيف قد تقلده، وقد تتكب قوسا، وبين يديه حربة فيها لواء، وفضة (جعبة) فيها نبل".

ويذكر محمد عبد المعيد خان⁽⁴⁾: " أن ود صنم إغريقي الأصل لأنه يشبه تمثال " إيروس - EROS اليوناني".

وحسب جواد علي⁽⁵⁾: فإن نولدكه يشك في كونه إيروس اليوناني، لعدم وجود تشابه بين الصنمين " ذلك أن ودا يحمل السيف واللواء ومدثر بجلتين وهذا لا يوجد في تمثال إيروس.

وهناك رواية أخرى لابن الكلبي يذكر فيها⁽⁶⁾: " أن ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا كانوا قوما صالحين ماتوا في شهر، فجزع عليهم ذوو أقاربهم، فقال رجل من بني قابيل: يا قوم هل لكم أن تعمل لكم خمسة أصنام على صورهم، غير أنني لا أقدر أن أجعل فيها أرواحا، قالوا: نعم، فنحت لهم خمسة أصنام على صورهم ونصبها".

ويتضح مما سبق وجود إختلافات حول أصل أصنام قوم نوح (عليه السلام) والراجح والأقرب إلى الصواب والمنطق، أن الإنسان العربي كان يقدس ويمجد ذوي المكانة الرفيعة من ملوك وأعيان ورجال صالحين، فإذا ما توفي أحدهم أقاموا له نصبا، فكان الرجل يأتي أخاه وعمه وابن عمه، فيعظمه ويسعى حوله ومع مرور الزمن أقيمت أصناما وعبدت.

ومما يثبت أن عبادة ود دخيلة على أهل الحجاز، أن العرب لم ينحتوا أصناما، بل جلبوها من الخارج، حيث جاء بها عمرو بن لحي من البلقاء بالشام أو من هيت بالعراق، وود صنم وليس من النصب.

(1) - معجم البلدان، ج5، ص 422.

(2) - المجر، ص 316، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج5، ص 422.

(3) - كتاب الأصنام، 56، السويدي: المصدر السابق، ص 435.

(4) - الأساطير العربية قبل الإسلام، ص ص 149 - 150.

(5) - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج5، ص 130.

(6) - كتاب الأصنام ص 51، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج5، ص 367. G. Ryckmans: Op. cit, p16.

2- سواع: يذكر الإخباريون وبعض المستشرقين أن سواعا كان على صورة امرأة⁽¹⁾. ويرى ابن منظور⁽²⁾: " أن سواعا اسم صنم، كان لقوم نوح (عليه السلام) وقد غرقه الله أيام الطوفان ودفنهن فأستثاره إبليس لأهل الجاهلية فعبدوه". ويذكر بعض المفسرين مثل الطبري⁽³⁾: " أن سواعا وبقية الأصنام التي ذكرت معه في سورة نوح: "كانوا قوما صالحين من بني آدم، وكان لهم أتباع يقتدون بهم فلما ماتوا، أحدثت لهم صورا، وعبدوها". ينسب ابن الكلبي⁽⁴⁾ إنتشار عبادته إلى "عمرو بن لحي"، حيث ذكر أن مضر بن نزار أجابت "عمرو بن لحي"، فدفع بهذا الصنم إلى رجل يدعى "الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر". وذكر الشهرستاني⁽⁵⁾: " أن سواعا كان لهذيل التي اختصت بعبادته أكثر من غيرها من القبائل العربية الأخرى". ويرى اليعقوبي⁽⁶⁾: أن صنم سواع كان لبني كنانة، وأن عبادته كانت قرب نخلة شرقي مكة. أما موضعه فيذكر ابن الكلبي⁽⁷⁾: أنه كان برهاط^(*) من أرض ينبع. ويرى ابن حبيب البغدادي⁽⁸⁾: أن سواعا كان بـ " نعمان" وكانت تعبده بنو كنانة وهذيل ومزينة، وكان سدنته بنو صاهلة من هذيل، وربما كان في اسمه ما يدل على أنه إله الشر والهلاك. وحسب جواد علي⁽⁹⁾: فإن نولدكه يرى أن سواعا لم يكن من الأصنام الكبرى قبل ظهور الإسلام، ومرد ذلك إلى عدم ورود اسم هذا الصنم في الأعلام المركبة مما يدل على عدم إنتشار عبادته بين القبائل العربية.

G. Ryckmans: Op. cit, p16.

(1)-

(2)- لسان العرب، ج8، ص 170.

(3)- تفسير الطبري، ج7، ص 381، الطبرسي: المصدر السابق، ج10، ص 108.

(4)- كتاب الأصنام، ص ص 9- 10، 57، ابن هشام: المصدر السابق، ج1، ص 62.

(5)- الملل والنحل، ج2، ص 237، أبو الفداء: المصدر السابق، ج1، ص 154، السويدي: المصدر السابق، ص 435.

(6)- تاريخ اليعقوبي، ج1، ص 255.

G. Ryckmans: Op. cit., p16

(7)- كتاب الأصنام، ص 57،

(*)- رهاط: قرية جامعة على ثلاثة أميال من مكة، كان بها صنم سواع، صنم لهذيل، عبد المنعم الحميري: المصدر السابق، ص 274، البكري: معجم ما استعجم، ج2، ص 268، الزبيدي: المصدر السابق، ج5، ص 145 (مادة رهاط).

(8)- المحبر، ص 316.

(9)- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج6، ص 258.

ويذكر بعض أهل الأخبار وعلماء اللغة أن سواع كان لبني سليم بن منصور، وينسب إلى "غاوي بن ظالم السلمي"، فبينما هو عند الصنم، إذ أقبل ثعلبان فبالا عليه فقال:
 أربّ يبول الثعلبان برأسه لقد ذلّ من بالث عليه الثعالب⁽¹⁾.
 ويرى ابن منظور⁽²⁾: "ان هذه الحادثة وقعت لعباس بن مرداس السلمي، وقيل لأبي ذر الغفاري".

وقد ورد ذكر سواع في القرآن الكريم مع بقية أصنام قوم نوح في قوله تعالى⁽³⁾: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾.
3- يغوث: كان من الأصنام التي دعا عمرو بن لحي إلى عبادتها.
 ويذكر الشهرستاني⁽⁴⁾: أن من القبائل التي إستجابت إلى دعوة عمرو بن لحي مذبح ومن والاها من قبائل اليمن.

وفي رواية لابن الكلبي⁽⁵⁾ أن يغوث كان من نصيب رجل يدعى: "أنعم بن عمرو المرادي" فتولى سدانته أولاده من بعده، وقد وضعه بأكمة في اليمن يقال لها مذبح.
 ويذكر ابن هشام⁽⁶⁾ في رواية أخرى: أن صنم يغوث كان في جرش وسدانته كانوا من بني أنعم من طيء".

ويظهر من روايات الإخباريين أن معركة وقعت بين أتباعه إثر خلاف على سدانته، بين مراد وبني الحارث بن كعب، وعرفت هذه المعركة بيوم الرزم وقد وقعت سنة 623م أي في نفس العام الذي وقعت فيه معركة بدر، وانتهت المعركة بهزيمة مراد، وبقي الصنم في بني الحارث، وقد اعتقدوا أن إنتصارهم هذا كان بعون يغوث - على حد تصورهم - وفي ذلك يقول الشاعر:
 وسار بنا يغوث إلى مراد فناجوناهم قبل الصباح⁽⁷⁾.
 يورد ياقوت الحموي⁽⁸⁾ تفسير يغوث لغويا بقوله: "يغوث اسم صنم وهو من غثت الرجل من

(1) - ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، ج1، 482.

(2) - لسان العرب، ج1، ص 237 (مادة ثعلب).

(3) - سورة نوح: الآية 23.

(4) - الملل والنحل، المصدر السابق، ج2، ص 237، أبو الفداء: المصدر السابق، ج1، ص 154، السويدي: المصدر السابق، ص 435.

(5) - كتاب الأصنام، ص 57، الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ج1، ص 171، ابن منظور: المصدر السابق، ج2، ص 175.

(6) - السيرة النبوية، ج1، ص 62، السهيلي: المصدر السابق، ج1، ص 102-103، G. Ryckmans: Op. cit.

(7) - ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج5، ص 502.

(8) - معجم البلدان، ج5، ص 439، Bertram Thomas : Op.cit , p 9.

الغوث أي أعتته، وهو من أصنام قوم نوح أخذها عمرو بن لحي من ساحل جدة".
ولا يستبعد أن تكون لاسم هذا الصنم علاقة بفكرة المتعبدين له، أي أنهم كانوا يرون أنه يغنيهم
ويساعدهم.

ويرى جورجى زيدان⁽¹⁾: أن يغوث مجلوب من مصر وعلل ذلك بقوله: "وقد وجدنا بين آلهة
المصريين صنما على صورة أسد أو لبؤة يسمونه "تغنوت" ولا يخفى على أحد أن العرب كانوا يكتبون
بلا نقط، فكأن الصنم "يغوث" مجلوبا من الخارج، وعبدته العرب كما يظهر من بعض الأسماء العربية:
مثل: عبد الأسد، وعبد يغوث".

ويذكر ريكمانس⁽²⁾: "أن صنم يغوث كان على هيئة أسد، وربما كان يرمز إلى الشمس".
ويبدو من روايات أهل الأخبار وبعض المستشرقين أمثال: روبرتسون سميث " R. Smith "
وريكمانس " G. Ryckmans " أن معبد يغوث كان في جرش باليمن الشمالية.
ويعتقد الإخباريون وبعض علماء اللغة أن يغوث يمثل الإله الأسد- كما سلف الذكر- وأنه كان
"طوتم" (*) -TOTEM" قبيلة مذحج التي تستغيث به⁽³⁾.

وتتجلى الطوطمية من حيث مضمونها الديني في كثير من مظاهر حياة العرب قبل الإسلام،
ومنهم كانوا يتسمون بأسماء حيوانات مثل: بنو أسد، وبنو ضب، وبنو فهد، وبنو ضبعة، وبنو
كلب، وبنو ثور، ونمر، وقرد، وذئب، وثعلب، وقنفذ، وظبي، وبأسماء الطيور مثل: غراب وعقاب،
ونسر، وبأسماء حيوانات مائية مثل: قرش، وبأسماء نباتات مثل: حنظلة والنبوت، وبأسماء أجزاء من
الأرض مثل: فخر وصخر، وبأسماء زواحف مثل: حية وحنش⁽⁴⁾.

وكان العربي يتجنب قتل الحيوان، اعتقادا منه أنه لو قتله عوقب على قتله، كما يتمتع عن قطع
النبات أو أكله إلا عند الضرورة، كما فعل بنو حنيفة لما أصابهم قحط ولحققتهم مجاعة في بعض
السنين، أكلوا إلههم الذي كانوا يعبدونه، فقال بعضهم:

(1) - محمد عبد المعيد خان: المرجع السابق، ص 97.

(2) - Les Religions Arabes Préislamiques, p.16، محمد عبد المعيد خان: المرجع السابق، ص 96.

(*) - الطوتم: "Totem" حيوان أو نبات أو أي ظاهرة طبيعية يرتبط بها اسم العشيرة عند الشعوب البدائية في إفريقيا
وأستراليا وأمريكا الشمالية، وكل عشيرة تحترم الحيوان الذي يكون طوطما لها وتعتقد أنها تنحدر منه، والكلمة مشتقة
من اسم قبيلة " Algonquin " بأمريكا الشمالية وهو الاصطلاح الفني للطوطمية. محمود محمد محفوظ: المرجع
السابق، ج3، ص 1580، سهيل زكار: المعجم الموسوعي للديانات والعقائد والمذاهب والفرق والطوائف والنحل في
العالم، ج2، ط1، دار الكتاب العربي، دمشق سوريا، 1997م، ص 581، Larousse Illustré , p 972.

(3) - الزبيدي: المصدر السابق، ج1، ص 337، ابن منظور: المصدر السابق، ج2، ص 175، أبو الفداء: المصدر
السابق، ج1، ص 154،

(4) - القلقشندي: المصدر السابق، ج1، ص 312، جواد علي: المرجع السابق، ج5، ص 32، محمد عبد المعيد خان:
المرجع السابق، ص 81.

أكلت حنيفة ربها

زمن التقم والمجاعة.

لم يحذروا من ربهم

سوء العواقب والتباعة⁽¹⁾.

وقد ورد في الكتابات اليهودية أن يغوث هو "يعوش - Ye'ush" المذكور في سفر التكوين، وهو أحد أجداد أدوم⁽²⁾.

ويتضح مما سبق أن يغوث من الأصنام التي وجدت على صورة الحيوان والتي ذكرها ابن الكلبي وريمانس، وأن هذا الصنم لم يكن مجلوبا من مصر فحسب، كما ذكر جورج زيدان، بل لم يعبد في الحجاز ونجد، وأنه لم يترك أثرا في حياة العرب الدينية.

4- يعوق: كان من الأصنام التي فرقها عمرو بن لحي على من استجاب إلى دعوته من القبائل.

يذكر ابن منظور⁽³⁾: "أن يعوق اسم صنم لكنانة كان يعبد على زمن نوح (عليه السلام)".

ونسب الطبرسي⁽⁴⁾: "عبادة يعوق إلى كهلان، وذكر: أنهم توارثوه كابرا عن كابر حتى صار إلى همدان"، وفي رواية أخرى يذكر: "أن يعوق صنم لكنانة".

ويرى ريكانس⁽⁵⁾: "أن معبد يعوق كان بخيوان قرب صنعاء حيث عبدته قبائل همدان وخولان ومن الأها من أرض اليمن".

ويذكر ابن الكلبي⁽⁶⁾: "واتخذت خيوان يعوق، وكان بقرية لهم يقال لها خيوان، ولم أسمع همدان سمت به، لأنهم قربوا من صنعاء، واختلطوا بحمير، فدانوا معهم باليهودية أيام ذي نواس^(*) فتهودوا".

ويرى بعض أهل الإخبار وعلماء اللغة: "أن يعوق صنم كان لكنانة، وقيل: كان لقوم نوح (عليه السلام)، وكان رجلا من صالحى أهل زمانه، فلما مات جزعوا عليه، فأتاهم الشيطان في صورة

(1) - ابن قتيبة الدينوري: المعارف، ص 205، صاعد الأندلسي: المصدر السابق، ص 116.

(2) - سفر التكوين: الإصحاح 36: 5، 14، 18، سفر أخبار الأيام الأول: الإصحاح 1: 25.

(3) - لسان العرب، ج 10، ص 281.

(4) - مجمع البيان في تفسير القرآن، ج 5، ص 365.

(5) - Les Religions Arabes Préislamiques, p.16

(6) - كتاب الأصنام، ص 57، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج 5، ص 438، السهيلي: المصدر السابق، ج 1، ص 103.

(*) - ذو نواس: هو ذو نواس بن أسعد وكان اسمه زرعة، آخر ملوك حمير (510م - 525م) سجل عهده سقوط الدولة الحميرية على يد الأحباش، وهو صاحب الأخدود الذي ذكره الله تعالى في كتابه (قتل أصحاب الأخدود)، سورة البروج: الآيتان: 4 - 5، كان على دين اليهودية، ولما حفر الأخدود وأحرق بالنار كل من كان على دين المسيح، وجه إليه النجاشي ملك اليمن قائده أرباط ومعه أبرهة الأشرم فهزم ذو نواس بنجران وكان هلاكه في البحر، الهذاني: الإكليل، تعليق نبيه أمين فارس، ج 8، دار العودة بيروت، دار الحكمة صنعاء، (د.ت)، ص 226، الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج 1، ص 918، وهب بن منبه: المصدر السابق، ص 312، اليعقوبي: المصدر السابق، ج 1، ص 199، محمد أحمد جاد المولى: قصص القرآن، ص 193، السيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 1، ص 124، حمزة الأصفهاني: تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء، ص 87.

إنسان فقال: أمثله لكم في محرابكم حتى تروه كلما صليتم، ففعلوا ذلك ثم تمادى بهم الأمر إلى أن اتخذوا تلك الأمثلة أصناما يعبدونها من دون الله تعالى⁽¹⁾.

ويرى السويدي⁽²⁾: "أن يعوق اسم صنم عبته همدان وخولان ومن والاهما من قبائل، وكان في أرحب".

ويذكر عبد المعيد خان⁽³⁾: أن مظهر يعوق على صورة الفرس، وكان بقرية يقال لها خيوان تعبده همدان وما والاهما من أرض اليمن".

ويبدو مما سبق أن أغلب الإخباريين وعلماء اللغة والمستشرقين من أمثال ريكرمانس، قد اتفقوا على أن صنم يعوق انحصرت عبادته في قبائل همدان وخولان، وأن معبده كان بخيوان، باستثناء بعض المفسرين مثل الطبرسي الذي ذكر أنه كان لكانة، ومما ذكره ابن الكلبي أنه لم يسمع همدان سمته به، وغيرها من القبائل حيث لم تسمي "عبد يعوق"، فهذا يدل أن عبادته لم تكن منتشرة بين القبائل العربية في شبه الجزيرة العربية، ولم يكن من الأصنام المهمة عند ظهور الإسلام.

5- نسر: هو أحد الأصنام التي دعا عمرو بن لحي القبائل العربية إلى عبادتها في موسم الحج، إثر استخراجها من رمل جدة.

وقد ذكر ابن الكلبي⁽⁴⁾: "أنه كان على صورة النسر، أقامه "ذي رعين" المسمى "معد يكرب" في موضع من أرض سبأ يقال له بلخع، تعبده حمير ومن والاهما، فلم يزلوا يعبدونه حتى هودهم ذو نواس".

ويرى أهل الأخبار أن عبادة نسر من آل ذي الكلاع من حمير اتخذوا نسرا من أرض حمير⁽⁵⁾.

ويذكر ابن حبيب البغدادي⁽⁶⁾: "أن حمير تنسكت لنسر وعظمته ودانت له، وكان في غمدان قصر ملك اليمن".

ويرى بعض المفسرين مثل الطبرسي⁽⁷⁾: "أن نسرا كان لخنعم يعبدونه".

(1) - الزبيدي: المصدر السابق، ج7، ص 29، ابن منظور: المصدر السابق، ج10، ص 281.

(2) - سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب، ص 104، ابن دريد: المصدر السابق، ج1، ص 253، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج5، ص438، أبو الفداء: المصدر السابق، ج1، ص154، الشهرستاني: المصدر السابق، ج2، ص237.

(3) - الأساطير العربية قبل الإسلام، ص 96.

(4) - كتاب الأصنام، ص 58، السويدي: المصدر السابق، ص 435، G.Ryckmans:Op.cit,p16 .

(5) - السهيلي: المصدر السابق، ج1، ص 104، الشهرستاني: المصدر السابق، ج2، ص 237، أبو الفداء: المصدر

السابق، ج1، ص 154، ابن منظور: المصدر السابق، ج5، ص 206.

(6) - المحبر، ص 317.

(7) - مجمع البيان في تفسير القرآن، ج10، ص 108.

أما اليعقوبي فقد ذكر⁽¹⁾: "أن نسرا كان لحمير وهمدان، وكان منصوبا بصنعاء من أرض اليمن".
ويبدو من روايات الإخباريين أن صنم كان على هيئة الطائر نسر، وما يؤيد هذا الرأي وجود
أصنام على صورة نسر منحوتة على الصخور خاصة في أعالي الحجاز.
وما ذكره الطبرسي في أشكال الأصنام في رواية أسندها إلى الواقدي حيث قال⁽²⁾: "كان ود
على صورة رجل، وسواع على صورة امرأة، ويغوث على صورة أسد، ويعوق على صورة فرس،
ونسر على صورة نسر من الطير".

وقد ورد ذكر نسر في العبرانية باسم "نشر - Nesher" أو "نشرا - Neshra" الوارد ذكره في
التلمود⁽³⁾.

كما ورد ذكره عند السبئيين، وكان من الآلهة التي عبدها الساميون، وقد عبد بوجه خاص في
الجزيرة العربية⁽⁴⁾.

وخلاصة القول أن أصنام قوم نوح (عليه السلام) خاصة يعوق ويغوث ونسر، لم تعبد في الحجاز
ونجد، ولم تترك أثرا في حياة العرب الدينية، وقد ذكر ابن الكلبي أنه لم يسمع لهذه الأصنام ذكر في
أشعار العرب، أو سمت بها القبائل العربية، فلا غرو إذا لم يجد ابن الكلبي أثر لها في أسماء العرب
وأشعارهم.

معبودات وثنية أخرى:

ساد الاعتقاد لدى العرب القدامى بأن في بعض المظاهر الطبيعية أرواحا كامنة فيها، وقوى
خفية فوق قوى البشر والطبيعة، منها ما يكون في الجسم وهي النفس، ومنها ما يكون خارج الجسم
وهي الروح، وحتى يتفادوا شرها أو يحوزوا رضاها، تقربوا إليها بالذبائح والهدايا وعبودها.
وتتجلى هذه الأرواح في مظاهر الطبيعة المختلفة: من حجارة وأشجار وكهوف، وآبار وينابيع
وغيرها.

ويعتبر بعض الباحثين أن هذه العبادة تعد من المراحل الأولى التي عرفها العرب في تفكيرهم
الديني في شبه الجزيرة العربية⁽⁵⁾.

أولا: عبادة الأرواح:

1- عبادة الجن والملائكة: كانت العرب تعتقد أن الجن أرواح من طبيعتين مشتركيتين:

* **طبيعة دنيوية:** ذات صلة بهذا العالم ومخلوقاته.

(1) - تاريخ اليعقوبي، ج1، ص 255.

(2) - مجمع البيان في تفسير القرآن، ج10، ص 108.

(3) - جواد علي: المرجع السابق، ج6، ص 264.

(4) - ديتليف نيلسن: المرجع السابق، ص 44.

(5) - أحمد ارحيم هيو: المرجع السابق، ص 344.

* وطبيعة غير مرئية: ذات قدرة تفوق تصور البشر⁽¹⁾.

وللأرواح قدرة على الظهور بأشكال مختلفة- حسب إعتقاد العرب القدامى-: في صورة إنسان أو حيوان ولا سيما في صورة حية أو عقرب، وقد تتصل بالإنسان مباشرة فيخاطبها، ويكون بين الطرفين زواج، وقد يكون الجن من طبيعة خيرة أو شريرة.

ويذكر ابن النديم: أن عمرو بن يربوع بن حنظلة التميمي تزوج فتاة من الجن^(*) (2).

وقد تعرض الجاحظ لموضوع زواج الإنس بالجن وزواج الجن بالإنس فقال⁽³⁾: "وقد يكون هذا الذي نسمعه من اليمانية والقحطانية ونقرؤه في كتب السيرة وقص به القصاص وسمروا به عند الملوك، وزعموا أن بلقيس بنت ذي مشرح وهي ملكة سبأ، ذكرها الله في القرآن الكريم في قوله تعالى⁽⁴⁾: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾، زعموا أن أمها جنية وأن أباهما إنسي".

ويقول ابن الكلبي⁽⁵⁾: "وكانت بنو مليح من خزاعة- وهم رهط طلحة الطلحات- يعبدون الجن". وقد ورد ذكرهم في القرآن الكريم في قوله تعالى⁽⁶⁾: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادًا أَمْثَلُكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

ونزلت آيات كثيرة في الجن منها قوله تعالى⁽⁷⁾: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرَهُمْ مُمُونُونَ﴾، وقوله عز وجل⁽⁸⁾: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَہُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُصِفُونَ﴾.

وتعد قصص الغول والسعلاة من أشهر القصص العربي القديم عن الجن.

وفي هذا السياق يذكر جواد علي⁽⁹⁾: أن من صفاتها التلون والظهور بصور مختلفة والإغتيال والتضليل في المفاوز، والغدر بالإنسان، أما السعالي (مفردها سعلاة) فذكروا أنها سحرة الجن، وقيل

(1) - المرجع نفسه، ص 347.

(*) - خصص ابن النديم قسما من كتابه "الفهرست" بأسماء عشاق الإنس للجن وعشاق الجن للإنس، ابن النديم: المصدر السابق، ص ص 612 - 613.

(2) - جواد علي: المرجع السابق، ج5، ص 40.

(3) - رسائل الجاحظ، شرح وتعليق عبد السلام محمد هارون، ج2، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1991م، ص371.

(4) - سورة النمل: الآية 23.

(5) - كتاب الأصنام، ص 34، ابن دريد: المصدر السابق، ج2، ص 276.

(6) - سورة الأعراف: الآية 194.

(7) - سورة سبأ: الآية 41.

(8) - سورة الأنعام: الآية 100.

(9) - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج5، ص ص 49 - 51.

الغيلان جنس منها، وأن الغيلان هي إناث الشياطين وأن السعالي أخبت الغيلان.
ويذكر الألويسي⁽¹⁾: أن الشاعر تأبط شرا رفع كبشاً تحت إبطه، وأخذه معه إلى الحي، فصار يبول عليه في الطريق، فلما ثقل عليه لم يقله رمى به، فإذا هو الغول، فقال له قومه: ما تأبظت يا ثابت، قال: الغول، قالوا: لقد تأبظت شرا، فسمي بذلك".

وذكر الإخباريون أن من العرب القدامى من تصور الروح بأنها شيء مخالف للجسم وأنها مثل النسيم أو الهواء لا يمكن رؤيتها⁽²⁾، وقد ربطوا بين النسيم والروح لما قد علق في أذهانهم من أن الروح نوع من أنواع النسيم، أو طائر ينبسط في الجسم فإذا مات الإنسان أو قتل لم يزل يطيف به مستوحشا يصدح على قبره⁽³⁾، - كما زعموا-، وأن هذا الطائر يكون صغيراً ثم يكبر ويلزم أهل الميت وولده دون أن يروه⁽⁴⁾.

وكانت العرب تزعم أن روح القتيل الذي لم يدرك تأثره، خرج من رأسه طائر كالبومة - وهي الهامة^(*) والذعر الصدى - فتصيح عند قبره (اسقوني اسقوني) حتى إذا أدرك ذوه الثأر طارت⁽⁵⁾.
وقد ورد في الشعر العربي القديم إشارة إلى هذه المعتقدات كقول قيس بن الملوح (مجنون ليلى) في الصدى:

فلو تلتقي أرواحنا^(*) بعد موتنا ومن دون رمسينا من الأرض منكب.

لظل صدى رمسي وإن كنت رمة لدى صوت ليلى يهش ويطرب⁽⁶⁾.

كما اعتقد العرب القدامى أن الظلام وقتاً لظهور الجن، فإذا انبلج الصبح ولت واختفت، لذا فإن الناس إذا مروا ليلاً بمكان موحش كانوا يحيون ساكنيه من الجن بقولهم: "عموا ظلاماً"⁽⁷⁾
وكانت الجن تقيم في الأماكن المهجورة، والمواقع الموحشة التي لا يطرقها الناس إلا نادراً، كالمقابر، والمواقع التي أصابتها الكوارث، كمواطن عاد وثمرود، وفي الخرائب والقبور والصحاري،

(1) - بلوغ الأدب في معرفة أحوال العرب، ج2، ص 341، الأصبهاني: المصدر السابق، ج18، ص 209، جواد علي: المرجع السابق، ج6، ص 50.

(2) - الزبيدي: المصدر السابق، ج9، ص 74.

(3) - الألويسي: المصدر السابق، ج2، ص 311.

(4) - المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج2، ص 132 - 133.

(*) - الهامة: هي الرأس ومن معانيها أنها طير من طيور الليل يألف القبور، أو البومة، ولأسطورة الهامة علاقة بأسطورة الصدى، وزعم الإخباريون أن الصدى طائر يخرج من رأس المقتول إذا بلى، وقيل هو ذكر البومة، أي مذكر الهامة، ابن منظور: المصدر السابق، ج16، ص 108، جواد علي: المرجع السابق، ج5، ص 36.

(5) - الزبيدي: المصدر السابق، ج10، ص 207، (مادة صدى)، عمر فروخ: تاريخ الفكر العربي، ص 166.

(*) - وردت هكذا "أرواحنا" في ديوان قيس بن الملوح، وذكرها الألويسي "أصداؤنا".

(6) - ديوان قيس بن الملوح، ص 119، الألويسي: بلوغ الأرب، ج2، ص 312 - 313.

(7) - جواد علي: المرجع السابق، ج5، ص 43.

وقرب عيون الماء، وبعض الوديان، وأهم مناطق الجن- في رأي العرب القدامى- وادي عبقر، ومفازة صيهد في الربع الخالي، والحجر ديار ثمود⁽¹⁾.

لهذا فالإنسان كان معرضاً لأذى الجن في كل وقت، ولكي يتفادى أذاهم كان عليه أن يستعيز بهم، وإلى ذلك يشير القرآن الكريم في قوله تعالى⁽²⁾: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾.

والحق أن العرب لم تنفرد بمثل هذه المعتقدات والعبادات بل شاركهم أشقاؤهم الساميين في هذه العبادة، كالبابليين والعبرانيين وغيرهم من الشعوب السامية الأخرى.

وفي هذا السياق ورد ذكر الجن في الإنجيل معتبراً إياها قوى شريرة تغوي الإنسان وتقوده إلى المعاصي والهلاك بقيادة إبليس، فهي شياطين فحسب، ولا تعرف الخير أبداً، والمسيح- حسب اعتقادهم- هو الذي يكافحها⁽³⁾.

ويذكر ابن الكلبي⁽⁴⁾: أن العرب القدامى ينسبون للجن كثيراً من المصائب التي قد تصيب البشر مثل الأمراض والأوبئة والجنون خاصة، ولطرد هذه الأرواح الشريرة، يستخدم السحرة والكهان الرقى والتعاويذ والعزائم.

ومن الشائع لديهم أن لكل كاهن تابع من الجن "رئي" يستعين به، ويسترق له التابع الأخبار والأسرار، فيخبره بها، وينقلها هو بدوره للسائلين⁽⁵⁾.

ويتضح مما سبق أن العرب لم تتخذ الجن آلهة وعبدتها كعبادتهم للأصنام ولم تقم لها أماكن عبادة وسدنة، ولم تحج إليها أو قامت بخدمتها، وإنما كانت تخاف من هذه القوى الخفية وترجو الخلاص منها ومن أذاها.

أما عبادة الملائكة، فلم يرد في مصادر العرب القديمة التي اطلعت عليها شواهد على عبادة العرب للملائكة، ولكن ما جاء في القرآن الكريم من آيات يشير إلى أن فكرة الملائكة وعبادتها كانت شائعة عندهم، وأن بعض العرب كان يعبدها، من ذلك قوله تعالى⁽⁶⁾: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾، وورد في السيرة النبوية قول قريش للرسول (صلى الله عليه وسلم)

(1)- توفيق برو: المرجع السابق، ص 289، أحمد ارحيم هيو: المرجع السابق، ص 349.

(2)- سورة الجن: الآية 6.

(3)- إنجيل متى: الإصحاح 12: 28.

(4)- كتاب الأصنام، ص 54.

(5)- عمر فروخ: تاريخ الفكر العربي، ص 167.

(6)- سورة سبأ: الآية 40.

: "نحن نعبد الملائكة وهي بنات الله"⁽¹⁾.

وقد ورد ذلك في قوله تعالى⁽²⁾: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا^(*) لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُصِفُونَ﴾، وفي قوله تعالى⁽³⁾: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾، وفي آية أخرى: ﴿فَأَسْتَفْتِهِمُ الرَّبُّ أَلبَنَاتُ لَهُمْ أَلْبَنُونَ﴾⁽⁴⁾.

وذكر الله عز وجل الملائكة في قوله⁽⁵⁾: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنْ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ* أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ﴾.

ويبدو من الآيات الكريمة أن الملائكة ذكرت على أنها إناث، خلافا للعقيدة التي تصور الملائكة على أنهم ذكور وهم "أبناء الله"⁽⁶⁾.

ولما قالت قريش: "نحن نعبد الملائكة وهي بنات الله"، أنزل الله قوله⁽⁷⁾: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾.

وقد أشير إلى الملائكة بلفظة "الملائك" في الشعر العربي القديم، في بيت ينسب إلى أمية بن أبي الصلت:

وكان برقع والملائك حوله سدر تواكله القوائم أجرد⁽⁸⁾.

أما لفظة الملائكة وأصلها اللغوي فهي من "لأك" أي "أرسل" وأصلها "ملأك" و "ملاك" أو من "ألك" فهي "ملأك" و "ملك" وتعني الرسول لأنه يبلغ الرسالة عن الله عز وجل. والأصل هو "لأك" لأن الجمع يأتي على "ملائكة"⁽¹⁾، وتؤكد صيغة الفعل نفسه في اللغات السامية الأخرى كالعبرية والبابلية والآرامية والأثيوبية وغيرها.

(1) - ابن هشام: المصدر السابق، ج1، ص 189، القرطبي: المصدر السابق، ج15، ص 72، الشهرستاني: المصدر السابق، ج2، ص 238.

(2) - سورة الأنعام: الآية 100.

(*) - خرقوا أي اختلقوا له بنين، عند اليهود عزيز، وعند النصارى المسيح، وخرقوا له بنات، عند المشركين الملائكة وزعموا أنهم إناث فهذه افتراءات ولا تقوم على أساس من العلم، سيد قطب: المرجع السابق، ج2، ص 1162.

(3) - سورة الإسراء: الآية 40.

(4) - سورة الصافات: الآية 149.

(5) - سورة الزخرف: الآيتان 15 - 16.

(6) - سفر أيوب: 1: 6، 2: 1، سفر التكوين: 6: 2.

(7) - سورة الإسراء: الآية 57.

(8) - ابن منظور: المصدر السابق، ج10، ص 496.

فالملائكة عند العرب كائنات روحانية مثلها في ذلك مثل الجن، ولكنها تختلف عن الجن في علاقتها المباشرة بالإنسان، فهي طيبة غير مؤذية تأتمر بأمر ربها ولا تعصي له أمراً. ويبدو مما سبق أن العرب القدامى لم يكونوا يعرفون شيئاً عن الملائكة لأن هذه المعتقدات كانت سائدة لدى اليهود والنصارى، إلا من كان على دين اليهودية والنصرانية، أو كان من الحنفاء، أو على إتصال بأهل الكتاب كأمية بن أبي الصلت وعامر بن الظرب العدوانى وأمثالهما.

2- عبادة الأسلاف:

تعد عبادة الأسلاف نوع من أنواع عبادة الأرواح، وهي في نظر بعض العلماء فرع من أهم فروع الدين، بل هي الأساس الذي قام عليه الدين، في نظر البعض الآخر⁽²⁾. وقد نشأت هذه العبادة عن حب العرب القدامى لقادتهم وزعمائهم وأبطالهم، أو الخوف منهم، وسواء كانت نشأة هذه العبادة من الحب والتقدير أو الخوف أو كلاهما، فإن أساسها هو الإيمان ببقاء الروح، روح الميت، وأن بإمكان هذه الروح النفع أو إلحاق الضرر بالأحياء. وقد عرفت هذه العبادة لدى كثير من الشعوب القديمة التي كانت تقدر قبور أسلافهم، ويتعبدون لها اعتقاداً منهم أن أرواح موتاهم تلازم قبورهم، فالهامة في نظرهم تلازم الخرائب والقبور كما تلازم أهل الميت وولده، وتعلمه بخبرهم، فأرواح موتاهم تبقى بينهم والواجب عليهم تقديسها⁽³⁾. يذكر الألويسي⁽⁴⁾: "كان العرب يعتقدون أن الإنسان إذا مات أو قتل، صارت روحه هامة- وهي إما طير من الليل يألف القبور أو البومة- وقيل الطائر الذي يخرج من هامة الميت أي رأسه هو الصدى، وزعموا أن هذا الطائر يخرج صغيراً ثم يكبر حتى يكون كضرب من البوم وهو أبداً مستوحش، وأن الروح تلازم أهل الميت وولده لتعلم ما يكون بعبدته فتخبره". ونشأت عبادة الأسلاف عند العرب من تقديسهم لأجدادهم وأبطالهم ورؤسائهم. وفي هذا السياق أورد ابن الكلبي⁽⁵⁾: "أن بني شيث بن آدم أنهم كانوا يأتون جسد أبيهم في المغارة التي دفن فيها، فيعظمونه ويترحمون عليه، فقال رجل من بني قابيل بن آدم: يا بني قابيل، إن لبني شيث دواراً يدورون حوله، ويعظمونه وليس لكم شيء، فنحت لهم صنماً، فكان أول من عملها، وكان ذلك بداية لعبادة الأسلاف".

ويذكر في موضع آخر: "كان ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر قوماً صالحين، ماتوا في شهر، فجزع عليهم ذوو أقاربهم، فقال رجل من بني قابيل: يا قوم! هل لكم أن تعمل لكم خمسة أصنام على

(1) - المصدر نفسه، ج3، ص 152.

(2) - جواد علي: المرجع السابق، ج6، ص 47.

(3) - المسعودي: المصدر السابق، ج2، ص 132، عمر فروخ: تاريخ الفكر العربي، ص 167.

(4) - بلوغ الأرب، ج2، ص 311، جواد علي: المرجع السابق، ج5، ص 37.

(5) - كتاب الأصنام، ص 50.

صورهم، غير أنني لا أقدر أن أجعل فيها أرواحا، قالوا: نعم، فنحت لهم خمسة أصنام على صورهم ونصبها لهم، فكان الرجل يأتي أخاه وعمه وابن عمه فيعظمه ويسعى حوله".

وهكذا بمرور القرن بعد القرن استمروا على تعظيمهم قائلين: "ما عظم أولونا هؤلاء إلا وهم لا يرجون شفاعتهم عند الله، فعبدوهم، وعظم أمرهم واشتد كفرهم"⁽¹⁾.

ومن القبائل العربية الأخرى التي كانت تقدر الأسلاف بزيارة القبور، قضاة التي كانت تحج إلى قبر كان على مرتفع من الشجر، زعموا أنه قبر جد قبائل قضاة، وكان لهذه القبور حمى حكمه حكم الحمى الذي يحيط ببيوت الأصنام.

ومن الشواهد على تقديس الأسلاف عند العرب أنهم كانوا يحلفون بالآباء والأجداد⁽²⁾.
والحق أن قلة المصادر التي تتناول عبادة الأسلاف عند العرب ومدى إنتشارها في شبه الجزيرة العربية، تلزم الباحث التريث وعدم التسرع في إصدار الأحكام المسبقة حول هذه العبادة دون تمحيص وتدقيق.

ثانيا: عبادة مظاهر الطبيعة:

كان الإنسان العربي القديم يبحث عن الإله في الأودية والشعاب، وكان ينسج الأساطير حول بعض المظاهر الطبيعية كالآبار والأشجار والأحجار، وكان يرى صورة ربه في الأحجار التي تحيط به وتسترعي انباهه، ويرسم صورا خيالية في الأحجار التي كان يبحث عنها في كل واد⁽³⁾.

وقد سادت هذه العبادة لدى الأمم السامية قبل العرب كالبابليين في أول نشأتهم، فلا غرو إن كانت آلهة العرب من مختلف مظاهر الطبيعة من حجارة وآبار وأشجار وحيوان ونحو ذلك، فهذه المظاهر هي الوحيدة التي كان العربي القديم يشاهدها، وهي الملجأ الوحيد الذي كان يفرع إليه لتلبية حاجاته الماسة.

وقد اعتقد العرب القدامى أن الأرواح تحل في بعض مظاهر الطبيعة كالأشجار وينظرو إليها نظرة تقديس، ويمتنعون عن إلحاق الأذى بها أو قطعها خوفا من إنتقام الروح التي حلت فيها منهم⁽⁴⁾.

وكانوا يقدمون لها القرابين وينذرون لها النذور، ويتخذون مواضعها حرما مقدسا يحجون إليه، وقد اشتهر عدد من هذه الأشجار نذكر منها:

1- شجرة ذات أنواط: شجرة خضراء عظيمة كانت العرب تأتيها كل سنة تعظيما لها، فتعلق عليها أسلحتها وتذبح عندها، وكانت قريبة من مكة⁽⁵⁾.

(1)- ابن الكلبي: المصدر السابق، ص ص 51- 52.

(2)- جواد علي: المرجع السابق، ج5، ص 286.

(3)- ذراع الطاهر: الديانات القديمة في الحجاز قبل الإسلام، ص 191.

(4)- عمرو فروخ: تاريخ الفكر العربي، ص 165.

(5)- ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج1، ص 273.

ومما ذكره الأزرقى⁽¹⁾ عنها: "كانت لكفار قريش ومن سواهم من العرب شجرة عظيمة خضراء يقال لها ذات أنواط يأتونها كل سنة، فيعلقون أسلحتهم ويذبحون عندها ويعكفون عندها يوماً". وقد سميت ذات أنواط لأنهم كانوا إذا قصدوا الكعبة للحج علقوا أرديتهم عليها، ودخلوا الحرم بغير أردية تعظيماً للبيت لذلك سميت أنواط، يقال: ناط الشيء ينوطه نوطاً إذا علقه⁽²⁾. ومن الأشجار التي قدسها العرب: نخلة نجران التي جعلوا لها عيداً كل عام⁽³⁾، ويعلقون عليها كل ثوب حسن وجدوه وحلي النساء، وإلى جانب الأشجار عبد العرب مظاهر طبيعية أخرى كالأحجار نذكر منها:

2- سعد:

ذكر السهيلي⁽⁴⁾: "أن سعداً كان لبني ملكان بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر، وكان صخرة بفلاة بساحل جدة"، ويرى اليعقوبي⁽⁵⁾: "أن سعداً كان لبني بكر بن كنانة". وورد في كتاب الأصنام: "أن سعداً كان لمالك ولملكان ابني كنانة بساحل جدة، وكان صخرة طويلة، فأقبل رجل منهم بابل له ليقفها إليه يتبرك بذلك، فلما أدناها منه تفرقت فذهبت في كل وجه، وتفرقت عليه، وأسف، فتناول حجراً فرماه به، وقال: لا بارك الله فيك إلهاً، أنفرت علي إيلي، ثم خرج يطلبها حتى جمعها وانصرف عنه وهو يقول:

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا
فشتتنا سعد فلا نحن من سعد.

وهل سعد إلا صخرة بتنوفة^(*)
من الأرض لا يدعي لعني ولا رشد⁽⁶⁾.

وذكر ابن دريد⁽⁷⁾: "أن سعداً صنم على ساحل البحر بتهامة، وكانت تعبده عك ومن يليها، وقيل كانت تعبده هذيل".

وقد ورد سعد في أسماء الأشخاص المركبة المضافة مثل: عبد سعد⁽⁸⁾، مما يدل على أن الإنسان العربي القديم كان يتبرك بتسمية أبنائه باسم هذا الصنم.

(1) - أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ج1، ص 98.

(2) - ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج1، ص 273.

(3) - جواد علي: المرجع السابق، ج5، ص ص 40 - 41، أحمد ارحيم هبو: المرجع السابق، ص 346.

(4) - الروض الأنف، ج1، ص 105، ابن الكلبي: المصدر السابق، ص 34.

(5) - تاريخ اليعقوبي، ج1، ص 255.

(*) - تنوفة: صحراء أو أرض مترامية الأطراف، الشهرستاني: المصدر السابق، ج2، ص 238.

(6) - ابن الكلبي: المصدر السابق، ص 37، الشهرستاني: المصدر السابق، ج2، ص 238، عبد المعيد خان: المرجع

السابق، ص 122، السيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب قبل الإسلام، ج1، ص 424،

G. Ryckmans: Op. cit, p 17

(7) - الإشتقاق، ج1، ص 25، الزبيدي: المصدر السابق، ج3، ص 378.

G. Ryckmans: Op. cit, p 17.

(8) - الأصبهاني: المصدر السابق، ج11، ص 171،

3- ذو الخلصة: كانت صخرة بيضاء منقوشة، عليها كهيئة التاج، وكانت بتبالة بين مكة واليمن على مسيرة سبع ليال من مكة⁽¹⁾.

وكان سدنتها بنو أمامة من باهلة بن أعصر، وكانت تعظمها وتهدي لها خثعم وبجيلة وأزد السراة، ومن قاربهم من بطون العرب من هوزان⁽²⁾.

وجعل ابن حبيب⁽³⁾: موضع البيت في العبلاء على أربع مراحل من مكة، وقال: "كان ذو الخلصة بيتا تعبد به بجيلة وخثعم والحارث بن كعب".

أما اليعقوبي⁽⁴⁾: فجعل من ذي الخلصة "الكعبة اليمانية" التي بناها أبرهة بن الصباح الحميري لهند وبجيلة وخثعم، ومنهم من جعل ذا الخلصة بيتا في ديار دوس ومن كان ببلادهم من العرب بتبالة⁽⁵⁾.

ومن الإخباريين من جعل ذو الخلصة كعبة اليمامة⁽⁶⁾. وذكر الأزرقى⁽⁷⁾: "أن عمرو بن لحي نصب الخلصة بأسفل مكة، فكانوا يلبسونها القلائد ويهدون إليها الشعير والحنطة، ويصبون عليها اللبن ويذبحون لها ويعلقون عليها بيض النعام".

وكان بيت ذي الخلصة من البيوت التي يقصدها العرب للإستقسام عندها بالأزلام، وكانت له ثلاث أقداح: الأمر L'impérative، والناهي La prohibitive، والمتربص L'expectative⁽⁸⁾.

ويذكر ياقوت الحموي⁽⁹⁾: في أخبار امرئ القيس: "لما قتلت بنو أسد أباه حجرا، خرج يستجد بمن يعينه على الأخذ بثأره حتى أتى حمير فالتجأ إلى قيل منهم يقال له مرثد الخير بن ذي جدن الحميري، فاستمده علي بنو أسد، فأمده بخمسمائة رجل من العرب، واستأجر من قبائل اليمن رجالا، ومر بتبالة وبها صنم للعرب يعظمه يقال له ذو الخلصة فاستقسم عنده بقداحه وهي ثلاثة: الأمر والناهي والمتربص، فأجالها فخرج الناهي، ثم أجالها فخرج الناهي، ثم أجالها فخرج الناهي، فجمعها وكسرها وضرب بها وجه الصنم، وقال لو قتل أبوك ما نهيتني ثم قال:

(1) - ديتليف نيلسن: المرجع السابق، ص 224.

(2) - ابن الكلبي: المصدر السابق، ص 34.

(3) - المجر، ص 317، الألويسي: بلوغ الأرب، ج2، ص 207، الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص 127.

(4) - تاريخ اليعقوبي، ج1، ص 255، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج2، ص 383.

(5) - ابن هشام: المصدر السابق، ج1، ص 91، السهيلي: المصدر السابق، ج1، ص 105.

(6) - الهمداني: الإكليل، ج8، ص 84، الأصبهاني: المصدر السابق، ج9، ص 7، ابن هشام: المصدر السابق، ج1، ص 91، الألويسي: بلوغ الأرب، ج2، ص 329.

(7) - أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ج1، ص ص 93-94، الزبيدي: المصدر السابق، ج4، ص 389 (مادة خلص)، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج2، ص 383.

(8) - ابن هشام: المصدر السابق، ج1، ص 91، G. Ryckmans: Op. cit, p17.

(9) - معجم البلدان، ج2، ص 384، ابن هشام: المصدر السابق، ج1، ص ص 91-92.

لو كنت يا ذا الخالص الموتورا
مثلي وكان شيخك المقبور
لم تنه عن قتل العداة زورا.

ويقال أنه ما استقسم عند ذي الخلفة بعدها أحد بقدر حتى جاء الإسلام".
ويبدو أن الخلفة كان صنما أنثى أي إلهة، لذلك قيل له "الولية" أو "المروة" و "الصخرة
البيضاء"، ولنا في قول الأرزقي والزبيدي ما يؤيد ذلك، كما يتضح من تسمية هذه الصخرة بهذا الاسم
أن عباده والطائفين به خلصة، ونستنتج من كل هذه الروايات أن ذا الخلفة بيت كان يدعى الكعبة
اليمانية أو كعبة اليمامة وكان فيه صنم يدعى الخلفة.
واعتقد العرب القدامى أن الكهوف والينابيع والحجارة الضخمة على الخصوص مأهولة بأرواح
وعفاريت ذات قوى خارقة الأمر الذي دفعهم إلى تقديسها خوفا ورهبة⁽¹⁾.

ولحماية الآبار قاموا بتتصيب آلهة على مقربة منها، وهذا ما يسمونه بأرض بعل، فهذا الحمى
المعين لحدود خمسين ذراعا حول البئر كان هيكل الصنم، وحرّم الإله العربي القديم، وقد قال النبي
(صلى الله عليه وسلم): "لا حمى إلا لله ورسوله"⁽²⁾.

وفي هذا السياق يذكر ياقوت الحموي⁽³⁾: "أن صنم الجلسد كان بحضرموت، وكان له حمى
ترعاه سوامه وغنمه، وكانت هوافي الغنم إذا رعت حمى الجلسد حرمت على أربابها".
ولا يستبعد أن يكون هذا هو غرض عمرو بن لحي من تتصيب الأصنام على مواطن المياه
والآبار وسواحل البحر، كما ذكر الأرزقي⁽⁴⁾: "أن عمرو بن لحي قدم بصنم يقال له هبل من هيت من
أرض الجزيرة، فنصبه على البئر في بطن الكعبة وأمر الناس بعبادته، وسميت بالأخسف".
وذكر في موضع آخر: "لما صارت الحجابة وأمر مكة إلى قصي بن كلاب حول إساف وناثلة
من الصفا والمروة، فجعل أحدهما بلصق الكعبة وجعل الآخر في موضع زمزم، ويقال: جعلهما جميعا
في موضع زمزم"⁽⁵⁾.

ويبدو أن تقديس العرب القدامى للينابيع والآبار والمجاري المائية يعود ربما إلى اعتقادهم أن
في أعماقها قوى خفية خارقة تكمن في الماء فتبعث الحياة في الأرض الميتة.
وخلاصة القول: أن الأساطير التي نسجها العربي القديم حول الأشجار والآبار والأحجار تدل
على أن الوثنية العربية في شبه الجزيرة وتحديدا في مكة تتحصر في تقديس الأشياء ومظاهر الطبيعة

(1) - كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص 24.

(2) - محمد عبد المعيد خان: المرجع السابق، ص 119.

(3) - معجم البلدان، ج2، ص 151، G. Ryckmans: Op. cit, p 18.

(4) - أخبار مكة، ج1، ص ص 87-88، ابن هشام: المصدر السابق، ج1، ص 86.

(5) - الأرزقي: المصدر السابق، ج1، ص 90، الشهرستاني: المصدر السابق، ج2، ص ص 237-238.

المختلفة التي استفاد منها العربي البدوي والتي توجد في محيطه وتسترعي انتباهه، لكن هذه الأساطير والمعتقدات لم تقف عند هذا الحد فحسب، بل استمرت وتطورت تحت تأثير الحضارات المجاورة لشبه الجزيرة العربية.

ثالثاً- عبادة الكواكب والنار:

عرفت هذه العبادة في كامل أجزاء شبه الجزيرة العربية، فقد عبد العرب مظاهر طبيعية وفلكية مختلفة كالقمر والشمس والزهرة، تلك الكواكب التي اعتبروها أسرة إلهية واحدة مؤلفة من أب هو القمر، وأم هي الشمس، وابن هو عشتار(كوكب الزهرة)⁽¹⁾. ولقد تأثرت الوثنية المحلية عند العرب بوثنية بلاد الرافدين وبالحضارات المجاورة كالبابلية والرومانية واليمينية.

وبالرغم من تعرض الوثنية في الحجاز، منذ تهدم سد مأرب، وهجرة القبائل اليمنية إلى الشمال، لتأثير الوثنية اليمنية، إلا أنها لم تتأثر بوثنية اليمن كما تأثرت بوثنية العرب الشماليين وبالوثنية البابلية الأشورية والتي تكون قد انتشرت في تهامة بعد حملة "نبوخذ نصر" في القرن السادس قبل الميلاد⁽²⁾.

أما الوثنية اليمنية فقد دخلت الحجاز بعد انهيار سد مأرب في القرن الثاني المسيحي، فهي متأخرة، لأن حادثة "عمرو بن لحي" حدثت بعد هجرة أزد اليمن إلى الشمال⁽³⁾.

إن عبادة النجوم والكواكب كان مصدرها الصائبة وبقايا الكلدانيين الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم في قوله تعالى⁽⁴⁾: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، وفي قوله عز وجل⁽⁵⁾: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

وعن أهل اليمن أخذ عرب الشمال عبادة الكواكب، وقوامها الثالوث الفلكي: القمر، الشمس، والزهرة⁽⁶⁾، وهو نفس الثالوث الكوكبي البابلي:

(1) - شوقي ضيف: المرجع السابق، ص 29.

(2) - السيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب قبل الإسلام، ج1، ص 409.

(3) - عبد المعيد خان: المرجع السابق، ص 125.

(4) - سورة البقرة: الآية 62.

(5) - سورة الحج: الآية 17.

(6) - جواد علي: المرجع السابق، ج5، ص 120، ذراع الطاهر: المجتمع العربي القديم، ج2، ص 389.

القمر^(*) ويمثله الإله سين، والشمس^(**) ويمثلها الإله شمش، وكوكب الزهرة^(***) وتمثله الإلهة عشتار⁽¹⁾.

وكان القمر الإله الأكبر وله المكانة الأولى في هذا الثالوث باعتباره الأب للإلهة شمش، وكان يرمز للإله سين بالهلال، أما الإله شمش فأقل مرتبة من الإله القمر، في حين كانت الإلهة عشتار تمثل كوكب الزهرة، وكان للقمر أهميته كذلك في الوثنية اليمنية، فقد كان الإله الرئيسي واسمه "ود" تليه الشمس وهي "اللات" وكانت في نظرهم زوجة القمر، ومنهما ولد عشتار الطفل وهو "الزهرة"⁽²⁾.

وكان القمر، باعتباره أكبر الآلهة سنا والمقدم عليها جميعا، يطلق على جميع أسماء القمر لفظ مشترك هو "ال" أو "إيل" أي "الله" و "الإله" ويقابله "بعل" أو "هبل" عند العرب الشماليين⁽³⁾.

ويحتل القمر منزلة ومكانة عظيمة عند البابليين، ومكانته عند عرب الجنوب أسمى من مكانة الشمس "اللات" التي كانت لحرارتها الشديدة في الصيف تعرف بأسماء عديدة منها "ذات حميم" و "ذات رحم" ولكن القمر كان هو دليل الحادي، ورسول القافلة، لذلك لقب بألقاب عديدة منها: "الحكيم" و"القدوس" و "الصادق" و "العادل" و "المبارك" و "المعين" و "الحامي"⁽⁴⁾.

وقد أصبحت هذه الأسماء كلها في الإسلام هي صفات لله الواحد الأحد، وكان القمر هو الإله الأول في الفكر الديني العربي القديم، ويعود ذلك إلى انه يرتبط ارتباطا كلياً بالقوافل التجارية، فالقمر خير مرشد لها في رحلاتها عبر الصحاري، لذلك كان التأليه متصل بتلك الغاية الإقتصادية الأساسية في حياتهم.

(*)- كان القمر في بلاد العرب القديمة الإله الرئيسي الأكبر، وقد عرف عند المعينيين باسم "ود" وعند السبئيين باسم "ورخ" و "سين" و "المقة" و "شهر" و "كهل"، ديتليف نيلسن: المرجع السابق، ص ص 207- 208، شوقي ضيف: المرجع السابق، ص 29.

(**) - كانت الشمس هي الأم العظيمة، وهي زوج القمر، تعرف في بلاد العرب الجنوبية بأسماء عديدة غالبا ما تبدأ بـ "ذات"، فعند المعينيين "نكرح" وعند السبئيين تعرف بعدة أسماء منها "ذات رحم" و "ذات حميم" و "ذات بعدن" و "ذات غضرن"، وفي النقوش القتبانية "ذات صنتم" و "ذات رحبن"، ديتليف نيلسن: المرجع السابق، ص ص 216- 217.

(***) - تعرف الزهرة عند الجنونيين باسم "عشتار" كالسبئيين والمعينيين، وفي النقوش الصفوية والثمودية باسم "ديو- DEO"، وكانت تقديس كطفل، إذ تذكرها الكتابات اللاتينية باسم « Puer » أي طفل، ولأنها أكثر نجوم السماء لمعانا فقد ذكرت بهذا المعنى في القرآن الكريم "النجم الثاقب"، سورة الطارق: الآية 3، ديتليف نيلسن: المرجع السابق، ص ص 220- 223.

(1) - رشيد الناصوري: المدخل في التطور التاريخي لفكر الديني، دار النهضة العربية، بيروت، 1969م، ص 115.

(2) - شوقي ضيف: المرجع السابق، ص 29.

(3) - ديتليف نيلسن: المرجع السابق، ص 210.

(4) - المرجع نفسه، ص ص 208- 209.

وقد أطلقت عليه عدة تسميات تختلف باختلاف المناطق والبلاد العربية القديمة، وقد رمز له بالثور ويغلب أن ذلك ربما يعود لأن قرني الثور يشبهان الهلال⁽¹⁾.

أما الشمس فقد عبدها العرب قبل الميلاد، وبها تسمى كثير من الأشخاص فعرفوا بعبد شمس⁽²⁾. وقد ذكر الإخباريون أن أول من تسمى بها سبأ الأكبر، لأنه أول من عبد الشمس⁽³⁾، والشمس أنثى في العربية الجنوبية، فهي إلهة، ولكنها في كتابات تدمر مذكر، وفي الوثنية البابلية مذكر كذلك، وكانت تسمى عند المعينيين باسم "نكرح" وعند السبئيين باسم "ذات حميم" وأسماء أخرى- سبق ذكرها-، وعثر في العربية الجنوبية هو إله مذكر، وفي العربية الشمالية إلهة أنثى هي "العزى"، وفي بابل إلهة أنثى هي "عشتار" ISHTAR، أما في الجنوب، فهو إله الزهرة⁽⁴⁾.

واعتبرت الشمس في الفكر الديني العربي القديم إلهة رئيسية أطلق عليها اسم "اللات" وكانت بمثابة زوجة للإله القمري، وقد أنجبا الإله عتثر الذي يعبر عن نجمة الصباح أي الزهرة⁽⁵⁾.

وبهذا المعنى ورد ذكرها في القرآن الكريم في قوله تعالى⁽⁶⁾: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النُّجْمُ الثَّاقِبُ﴾.

والزهرة هو أكثر نجوم السماء لمعانا وتألقا، ويعرف بعدة أسماء منها: "عزيز" و "نجم الصباح"⁽⁷⁾، و "ذو الخلصة" و "ملك" ولما كان الملك يرمز له بالتاج فإن ما ذكره ابن الكلبي خاصا بالإله ذي الخلصة في تبالة⁽⁸⁾، -كما سبق وأن ذكرت- يؤكد هذا القول.

ومن مظاهر تأثر وثنية العرب بالوثنية الآشورية، أن كلمة صنم أصلها "سلم - Salm" العبرانية أو الأرامية⁽⁹⁾ - التي سبق ذكرها-، وقد دخلت هذه الكلمة في بلاد العرب مع دخول الأصنام، ومن الراجح أن العرب لم ينحتوا أصناما لجهلهم بفنون النحت، وأن الأصنام جلبت إليهم من الخارج ومنها "هبل" وهو "بعل"، و"اللات" وهي "اللاتو" البابلية، و"مناة" وهي "مامناتو" البابلية، و"العزى"

(1) - رشيد الناصوري: المرجع السابق، ص 149.

(2) - الزبيدي: المصدر السابق، ج4، ص 172 (مادة شمس).

(3) - جواد علي: المرجع السابق، ج6، ص ص 55-56.

(4) - المرجع نفسه، ج5، ص 121، ديتليف نيلسن: المرجع السابق، ص 216.

(5) - رشيد الناصوري: المرجع السابق، ص 149، ديتليف نيلسن: المرجع السابق، ص 193.

(6) - سورة الطارق: الآيات 1-3.

(7) - ديتليف نيلسن: المرجع السابق، ص 222.

(8) - كتاب الأصنام، ص 34.

(9) - جواد علي: المرجع السابق، ج5، ص 78، رفائيل نخلة: المرجع السابق، ص 193، محمد عبد المعيد خان: المرجع السابق، ص 130.

وهي "عشتار" البابلية⁽¹⁾.

وخلاصة القول: أن العربي القديم كان في البادية يؤمن بوجود قوى خفية روحية كامنة، مؤثرة في العالم وفي الإنسان، وفي بعض الحيوانات والطيور والنبات والجماد وفي بعض مظاهر الطبيعة المحيطة به كالكواكب والنجوم، وربط بين هذه الكائنات والموجودات والمظاهر الطبيعية المختلفة المحيطة به، وبين القوى الخفية وقدسها، ثم تطورت وثنية العربي إلى عبادة قطع الصخور التي يستحسن مظهرها وهيئتها، ونلاحظ أن معظمها كانت بيضاء اللون، وقد يعود ذلك ربما إلى علاقتها بلون لبن الغنم والإبل، حيث كان هذا اللون أحب إليه مما سواه، لأن هذه الحيوانات كانت أقرب الكائنات إليه وإلى وسطه ومحيطه الذي يعيش فيه.

(1) - محمد عبد المعيد خان: المرجع السابق، ص 135.

خاتمة

بعد هذه الدراسة التاريخية الأكاديمية لموضوع مكة ودورها الثقافي والديني في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، يمكن أن أشير إلى مجموعة من النتائج التي توصلت إليها في النقاط الآتية:

أولاً: تحتل مكة موقعا جغرافيا ممتازا يتوسط الساحل الشرقي لبحر القلزم (البحر الأحمر)، وهي بذلك الموقع تتوسط العالم القديم، وتشكل جسرا يربط بين الشرق والغرب، وبين الشمال والجنوب، فكانت ملتقى ومحطة هامة للقوافل التجارية القادمة من العربية الشمالية قاصدة اليمن، أو القادمة من العربية الجنوبية تريد بلاد الشام، مما مكن مكة وأهلها من احتكار هذه الطرق في أواخر القرن السادس الميلادي، وهذا ما أضفى عليها هذه الأهمية.

ثانياً: تتميز مكة بأسمائها المتعددة، وقد عني المؤرخون والباحثون بجمعها ومعرفة معانيها، فأوردوا نحو الثلاثين اسما منها ثمانية أسماء ذكرت في القرآن الكريم، ورغم التباين أحيانا، والتوافق أحيانا أخرى في تحديد معاني هذه التسميات، إلا أن الكل يجمع على أن كثرة الأسماء، إنما تدل على مكانة وشرف المسمى، فقد كانت مكة أفضل بقاع الأرض على الإطلاق، وأقدم أماكن العبادة منذ بدء الخليقة إلى اليوم.

ثالثاً: تؤكد معظم الدراسات التاريخية التي تناولت تاريخ نشأة مكة، على أنها عاشت على بداوتها إلى أن أقام بها إسماعيل عليه السلام، في القرن التاسع عشر قبل الميلاد، وشارك أباه إبراهيم عليه السلام في بناء الكعبة، وتشير ذات الدراسات أن بناء البيت يكون قد تمّ في الربع الأخير من القرن التاسع عشر قبل الميلاد أي حوالي 1824 ق.م، وهذا ما يجعلها من أقدم الحواضر والمدن في بلاد العرب الشمالية والجنوبية على حد سواء.

رابعاً: بدأت عملية تعمير مكة منذ بناء البيت العتيق، وازدادت أهميتها بعد حفر بئر زمزم، فقد قدمت إليها قبائل يمنية من الجنوب كالعماليق وجرهم، وفي القرن الثاني الميلادي حلت بها قبيلة خزاعة التي طردت الجراهمة وتولت أمر البيت، ومما سبب هذه الهجرات البشرية نحو الشمال تصدع سد مأرب، والتغيرات المناخية التي عرفتتها العربية الجنوبية منذ القرن الثالث الميلادي، وظروف الجفاف التي حلت بها، ودفعت نحو الإفقار التدريجي إلى أن حدث الجفاف النهائي في أوائل القرن السادس الميلادي، وهذا الجفاف كانت له علاقة مباشرة بالهجرة نحو الشمال.

خامساً: عرفت مكة منذ عهد قصي بن كلاب في منتصف القرن الخامس الميلادي، مجموعة من المؤسسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية، التي مثلت مظاهر حضارية لا تزال آثارها قائمة حتى اليوم، وكانت دار الندوة من أبرز هذه المؤسسات، وإن طغى عليها الطابع القبلي، إلا أنها كانت أولى المحاولات لتأسيس نظام سياسي مدني يدير شؤون مكة وحياة مجتمعها.

ولا شك أن دار الندوة كتنظيم سياسي واقتصادي واجتماعي وديني كان يعبر عن التحولات الأساسية التي عرفتها في القرن الخامس الميلادي. أما مجلس الملأ فكان يمثل دار الحكومة ومجلس القبيلة والمشورة، فهو أشبه ما يكون بالسلطة التشريعية حالياً، حيث شبهه بعض المستشرقين ومنهم أوليري بمجلس الشيوخ الأثيني لدى الإغريق. وبالرغم من أن النظام السياسي الذي حكم مكة كان يستند إلى الأسس الأرستقراطية التي تتميز بالجمع بين المال والإدارة والسياسة والدين والحرب، إلا أنهم كانوا حريصين على أن يكون الانتماء إلى مجلس الملأ لمن بلغ سن الأربعين من أبنائهم، أي من تتوفر فيه راحة العقل وسداد الرأي تماشياً والفطرة البشرية.

سادساً: أصبحت مكة عاصمة دينية لشبه الجزيرة العربية كلها، منذ آل أمرها إلى قصي بن كلاب في منتصف القرن الخامس الميلادي، وطرده قبيلة خزاعة، وأصبحت قريش ترعى الأشهر والبيت الحرام، وقد اكتسبت مكة هذه المكانة المتميزة من وجود الكعبة التي أصبحت قبلة تأوي إليها القلوب والأفئدة من مختلف القبائل العربية منذ أقدم العصور إلى اليوم، رغم اعتناق أهلها ديانة وثنية في الفترة التي سبقت ظهور الإسلام.

سابعاً: تتميز معالم الثقافة في مكة بتعدد عناصرها من شعر ونثر ولغة وكتابة وقصص وأسواق وعلوم ومعارف مختلفة.

فاللغة العربية -دون شك- هي اللغة السامية الأم، فبالرغم من أنها نشأت في جوار اللغات السامية الأخرى ولهجاتها، كالحبشية والكنعانية والآرامية والبابلية والعبرية، إلا أنها سادت وتفوقت على جميع اللهجات واللغات لأسباب سياسية واقتصادية واجتماعية ودينية، لعل أبرزها زوال دولة حمير بعد غزو الأحباش الثاني لها في سنة خمسمائة وخمسة وعشرين (525م) للميلاد، بينما كانت قد تهيأت لمكة أسباب البروز والوحدة بفضل دور رجالها الديني والثقافي بتنظيم الأسواق والحج، وما إن حل القرن السادس الميلادي حتى تفوقت لغة قريش على سائر اللهجات الأخرى.

ثامناً: كانت الكتابة معروفة وشائعة بين العرب قبل ظهور الإسلام، لكنها لم تكن مألوفة لديهم، ومما يدل على ذلك ورود عدة ألفاظ في أشعارهم كالكتابة والرسالة والمهراق والزبور والمزبر، كما وردت لفظتي الزبر والكتاب في القرآن الكريم.

إن ذكر أدوات الكتابة كالقلم والمداد (الحبر) والدواة، والمواد التي يكتب عليها كالمهراق والعسيب، وعظام الإبل، والحجارة، والقرطاس، يدل دلالة واضحة على انتشار الكتابة وشيوعها بين العرب قبل الإسلام، على عكس الاعتقاد السائد لدى المستشرقين بأن العرب أمة أمية لا تعرف القراءة والكتابة، ولم تعرف حضارة، ولم تتذوق ثقافة طيلة حياتهم.

ويزيد يقينا في ذلك ما عثر عليه المستشرقون أنفسهم من نقوش تبرز أن الخط العربي اشتق من الخط الآرامي النبطي، ويستدل في ذلك على أن الخط العربي والآرامي يكتبان بحروف متصلة، وما كان بين الآراميين والقبائل العربية من القرب والجوار. ويستبعد أن تكون للخط العربي علاقة بالخط الحميري أو العبري لأنهما يكتبان بحروف منفصلة غير متصلة.

تاسعا: لقد مرت الكتابة العربية بعدة مراحل متعاقبة ومتدرجة: من كتابة نبطية عربية في أوائل القرن الرابع الميلادي، وهذا ما تبينه بقايا نقش النمارة المؤرخ سنة ثلاثمائة وثمانية وعشرين (328) للميلاد، إلى كتابة عربية مستقلة في القرن السادس الميلادي، وقد أفاد الباحثين من نقشي زبد المؤرخ سنة خمسمائة واثنى عشر (512) للميلاد، ونقش حران الذي يعود تاريخه إلى سنة خمسمائة وثمانية وستين (568) للميلاد.

ونستنتج من ذلك كله أن بداية التطور الحقيقي للكتابة العربية، إنما يعود إلى أوائل القرن الرابع الميلادي، على اعتبار أن نقش النمارة كتب بحروف عربية متصلة، وهو الخط الذي نزل به القرآن الكريم بعد ذلك بحوالي ثلاثة قرون.

عاشرا: حافظت فئة قليلة من الحنفاء بمكة على الشعائر والطقوس التي جاء بها النبي إبراهيم (عليه السلام) والتي تميزهم عن الوثنيين، إلا أنها اختفت مع الأيام، لتترك المكان لعبادة الأوثان والأصنام، وحفاظا على دعوتهم التوحيدية، وتمسكا بقايا شريعة إبراهيم، وبحثا عن الدين الحق فر الكثير من الحنفاء من مكة ولجئوا إلى أطراف شبه الجزيرة العربية، وقد تمكنت الحنيفية من استرجاع شيئا من حيويتها وشعائرها وعقائدها الدينية خلال القرن السادس الميلادي قبيل ظهور الإسلام، وكان لذلك أثر بالغ في إضعاف المثل الدينية القديمة، والميل إلى ترك الوثنية.

أحد عشر: كان العربي القديم يؤمن بوجود قوى خفية، مؤثرة في العالم وفي الإنسان، كامنة في بعض الحيوانات، وفي بعض مظاهر الطبيعة كالحجارة والأشجار والآبار والكواكب والنجوم، وربط بين هذه الكائنات والموجودات، والمظاهر الطبيعية المختلفة المحيطة به، وبين القوى الخفية وقدسها، وكانت لهذه المعبودات علاقة بوسطه ومحيطه الذي يعيش فيه، فقد كانت أغلب تلك المعبودات بيضاء اللون، ولا شك أن هذا اللون له صلة وطيدة بلون لبن الغنم والإبل، حيث كان اللون أحب إليه مما سواه.

اثنى عشر: كانت الديانة الوثنية في مكة في بدايتها محلية، ذلك أن سكانها كانوا يعظمون حجارة الكعبة، فحيثما ارتحلوا احتملوا معهم من حجارة الحرم، تيمنا وتعظيما لها، ثم تطورت مع الزمن، بعد أن جلب عمرو بن لحي صنم هبل من بلاد الشام، ووضعه في

الكعبة، ودعا الناس إلى عبادته، فانتشرت بذلك عبادة الأصنام في مكة والحجاز وشبه الجزيرة العربية، وطغت هذه الديانة على ديانة إبراهيم الحنيفية التي بدأت تختفي إلى أن عمت الوثنية وتغلغت في نفوس العرب في الجزيرة العربية قاطبة.

ثلاثة عشر: آمن العرب القدامى بالديانات السماوية، كما اعتقدوا بالرسل والملائكة واليوم الآخر، ومن هذه الديانات التوحيدية: اليهودية التي كانت منتشرة في كامل الجزيرة العربية. فبعد إحراق أورشليم وتهديم الهيكل سنة سبعين (70) للميلاد، اضطر الكثير من العبرانيين للهجرة إلى شمال الجزيرة العربية، واستقروا ببعض المواضع ذات التربة الغنية لممارسة الزراعة، أو التي لها أهمية تجارية وتقع على طريق القوافل، فأقاموا مستعمرات في خيبر، وتيماء، وفدك، ووادي القرى، ويثرب التي كانت أهم هذه المواضع على الإطلاق. ومن النتائج الهامة التي توصلنا إليها في هذا المجال من خلال دراسة أماكن تواجد اليهود في الحجاز، قلة العنصر اليهودي في مكة مركز الوثنية في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، ويعود ذلك إلى قوة قريش السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فضلا على قوتها الدينية وهي حارسة الوثنية، بخلاف ما نلاحظه في يثرب، ومن الأدلة الدامغة على ذلك، غياب العنصر اليهودي وعدم تمكن اليهودية في مكة، وعدم وجود معبد لليهود بها، وذهاب كفار مكة إلى يثرب قبل البعثة، ليسألوا عن النبي المنتظر في بني إسماعيل والذي كانت التوراة قد بشرت به، فلو كان يهود بمكة لما ذهب مشركوها إلى يثرب.

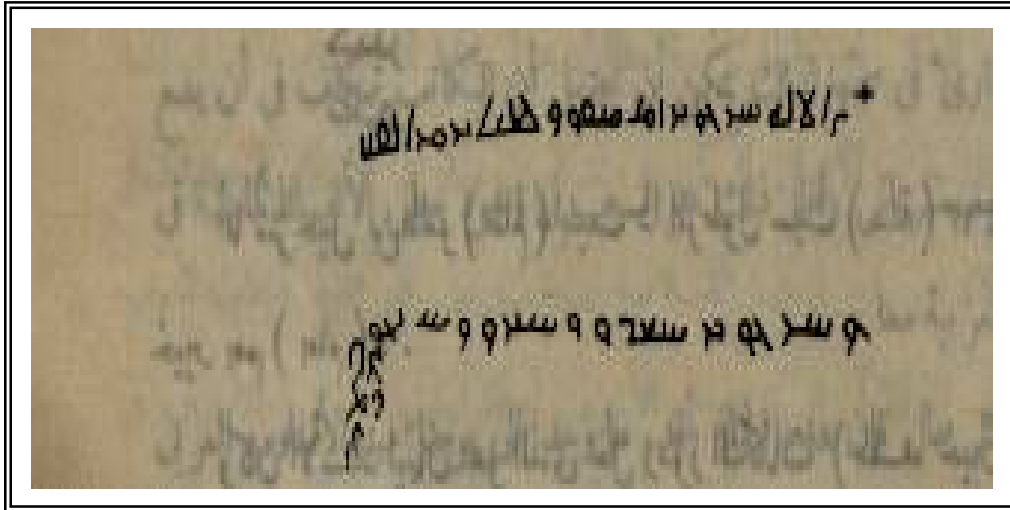
أربعة عشر: إذا كانت اليهودية قد دخلت الجزيرة العربية بالتجارة والهجرة بعد تهديم أورشليم سنة (70) للميلاد، فإن النصرانية تسربت إليها في أواخر القرن الأول الميلادي بالتبشير وتجارة الرقيق، خاصة بعد اعتناق حكام روما ومنهم قسطنطين النصرانية التي أصبحت ديانة رسمية للدولة الرومانية منذ سنة 313م، وشرع هؤلاء الحكام في إرسال البعثات التبشيرية إلى مناطق كثيرة من العالم ومنها الحجاز، كما لجأت بعض الطوائف المسيحية المخالفين لمذهب الحكام الرومان، والتي تعرضت للاضطهاد، إلى شبه الجزيرة العربية حيث وجدت الأمن والطمأنينة فاستقرت بها، كما انتشرت المسيحية عن طريق تجارة الرقيق، والتجار المسيحيين الذي نشطوا في نشرها بالأماكن التي كانوا يتاجرون فيها، خاصة أطراف الجزيرة العربية الجنوبية والغربية، بسبب وقوعها على طريق القوافل التجارية البرية والبحرية، وهؤلاء التجار النصارى ومبشريهم لم يكونوا على شاكلة التجار اليهود الذي كانوا يرون أن التجارة كسب مادي فقط، أما النصارى فكانوا يرون في التجارة والتبشير ربح مزدوج في الدارين الدنيا والآخرة.

ومن النتائج الهامة التي أمكن التوصل إليها أن كلا الديانتين المسيحية واليهودية عجزتا عن القضاء على الوثنية في مكة، فاليهودية كانت أحكامها وطقوسها قاسية وشاقة لا

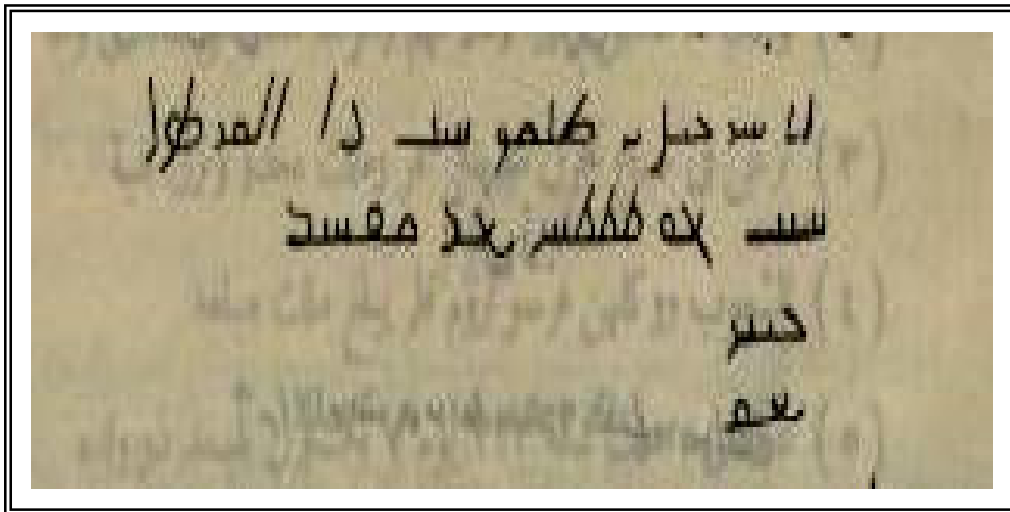
تلاءم طبيعة العربي الذي يقاتل لينتفع بالغنائم والأسرى والمال، واليهودية لا تبيح ذلك، أما النصرانية فكانت لا تتلاءم وطبائع العرب الذين يميلون إلى الأخذ بالثأر والانتقام والأنفة، فالعربي لا يرضى أن يدير خده الأيسر إذا ضرب على خده الأيمن، فهذا يتنافى وتقاليد المجتمع العربي قبل ظهور الإسلام.

الملاحق

الملحق رقم 01 : نقوش عربية قديمة في زبد وحران:



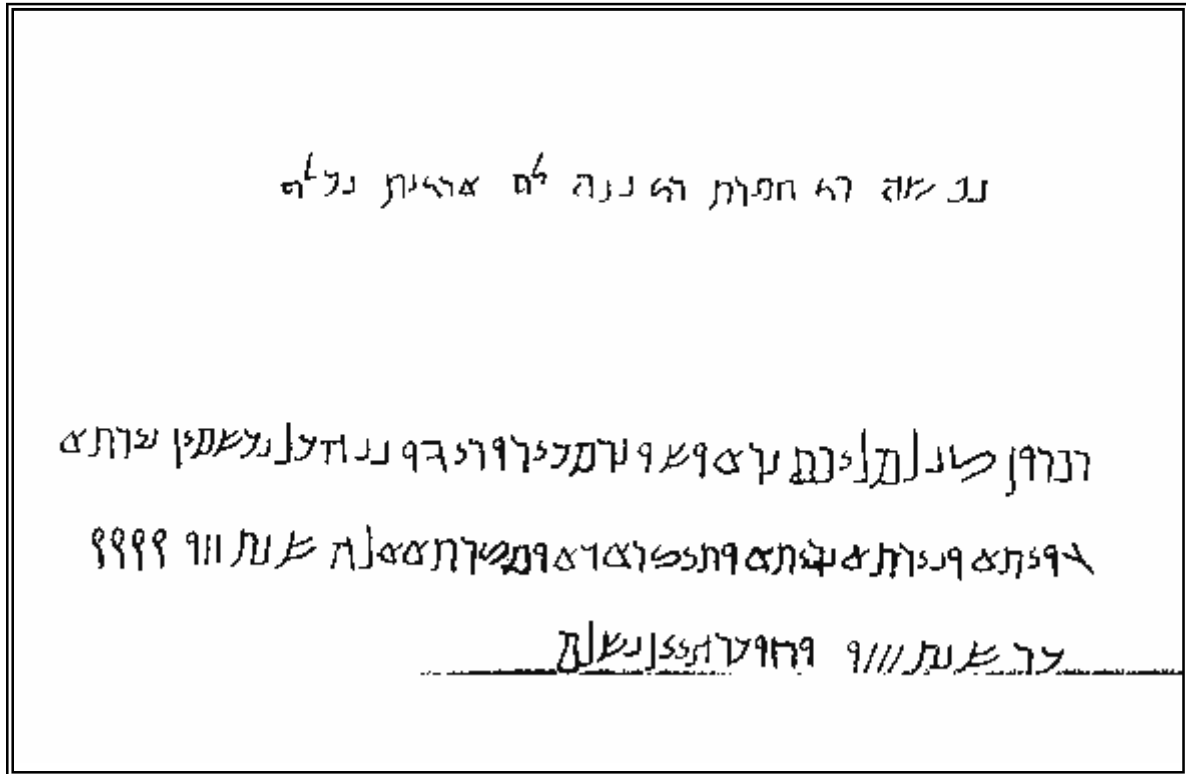
1- نقش زبد الذي يعود تاريخه إلى سنة 512م



2- نقش حران المؤرخ غي سنة 568م

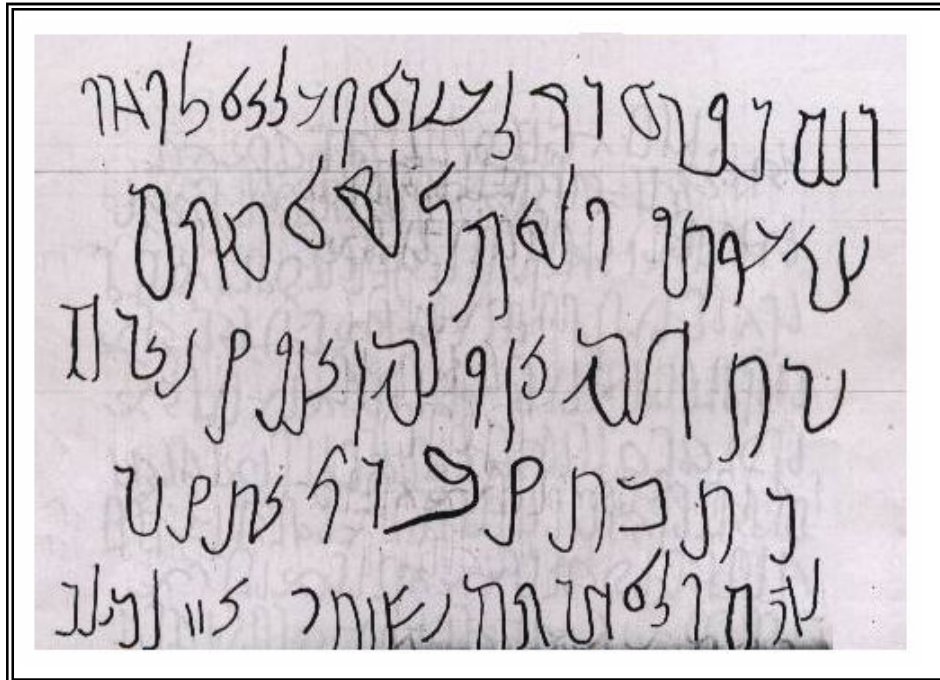
إسرائيل ولفنسون: تاريخ اللغات السامية، ص ص 191 - 192.

الملحق رقم 02 : نقوش حوران المؤرخة قبل الميلاد:

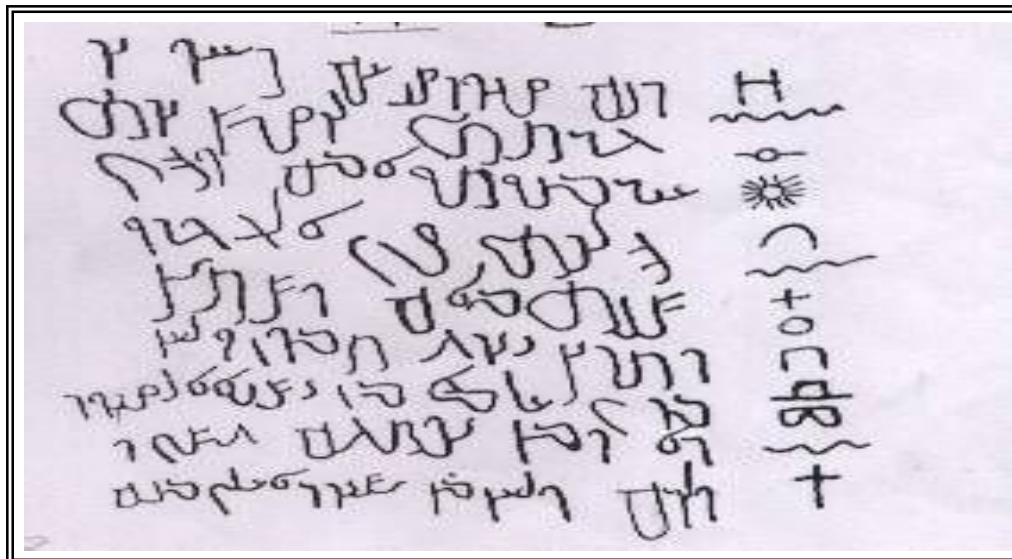


خليل يحي نامي: المرجع السابق، ص 71.

الملحق رقم 03 : نقوش مدائن صالح المؤرخة في القرنين الأول والثالث
الميلاديين:



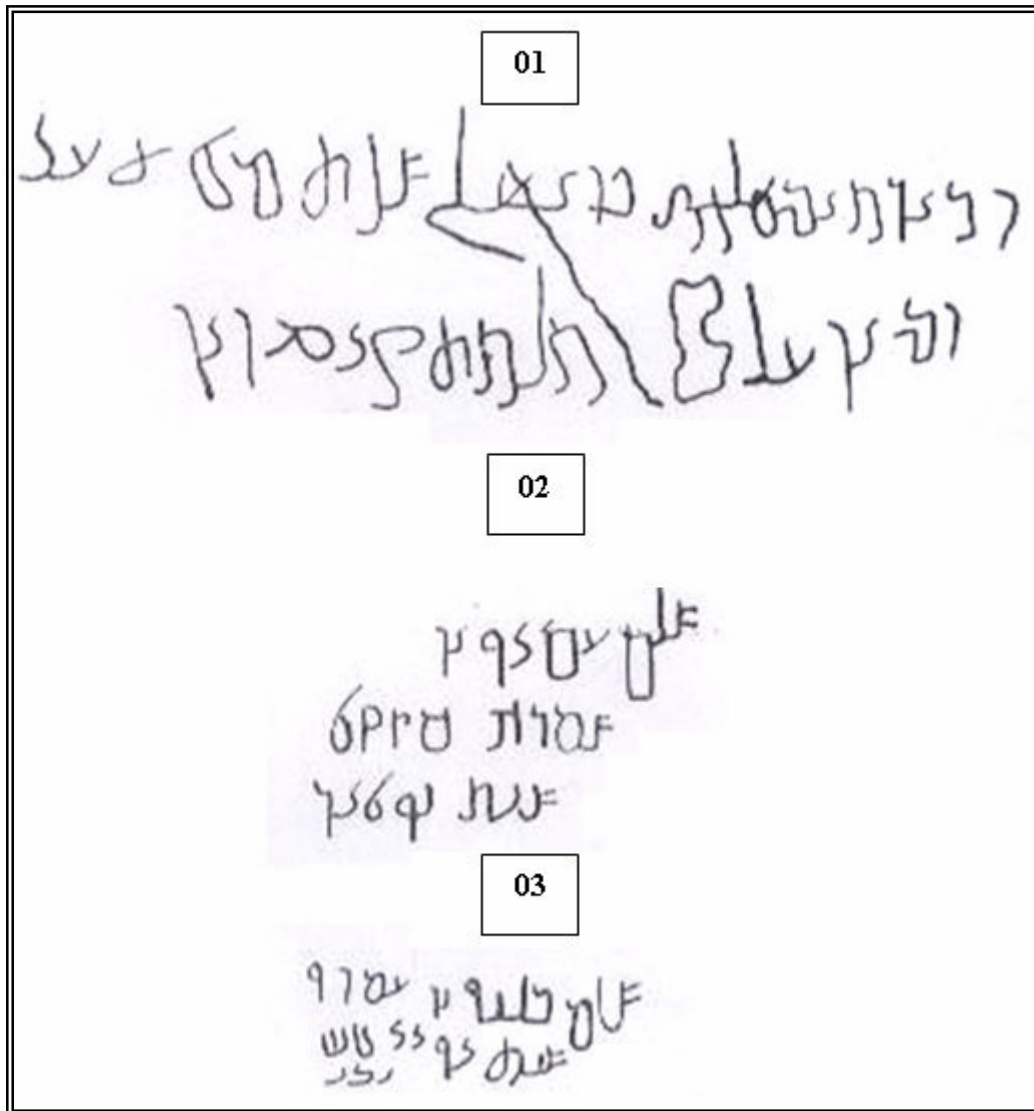
2- نقش مدائن صالح المؤرخ في سنة 55م



2- نقش مدائن صالح المؤرخ في سنة 270م

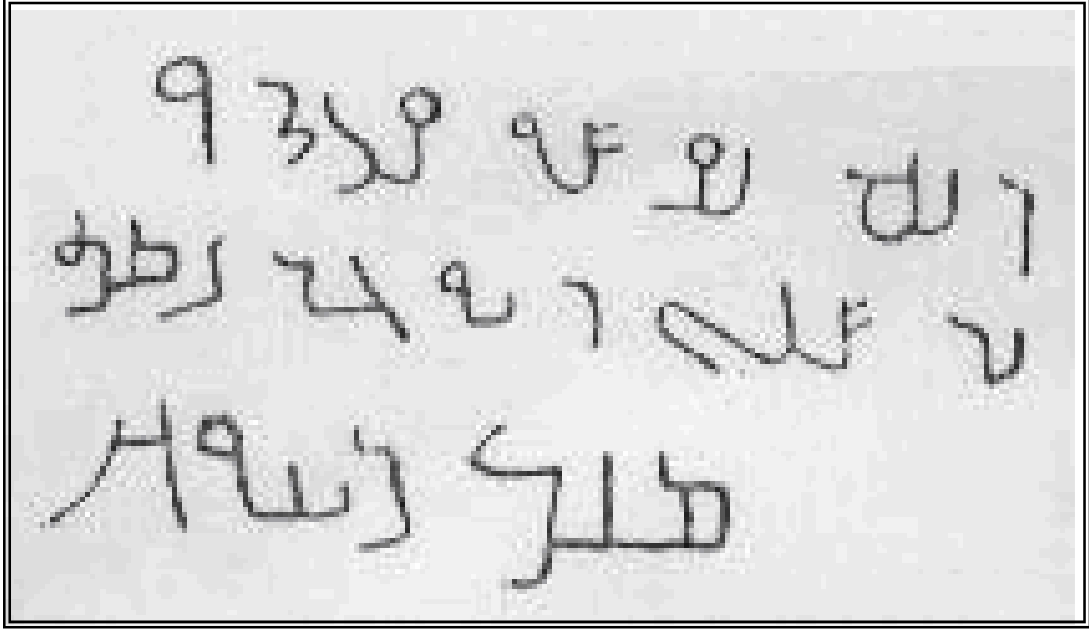
خليل يحي نامي: المرجع السابق، ص ص 64-65.

الملحق رقم 04 : النقوش السينائية المؤرخة في القرنين الثالث والرابع
الميلاديين:



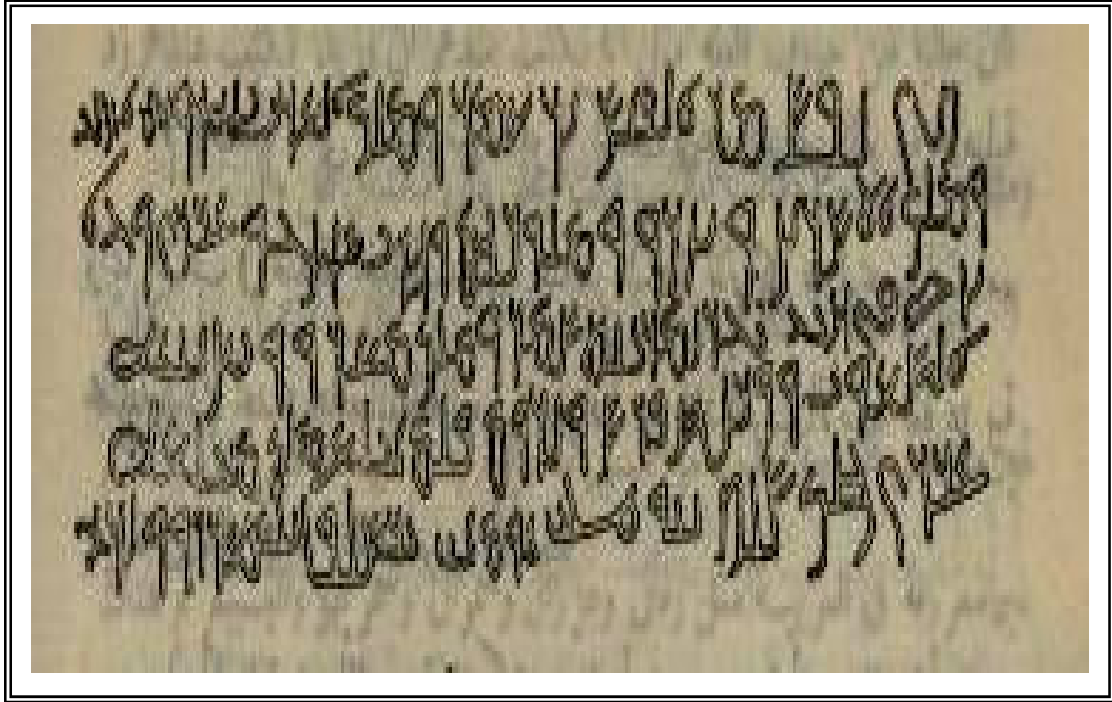
خليل يحي نامي: المرجع السابق، ص 61.

الملحق رقم 05 : نقش أم الجمال غربي حوران يعود تاريخه
إلى سنة 270م:



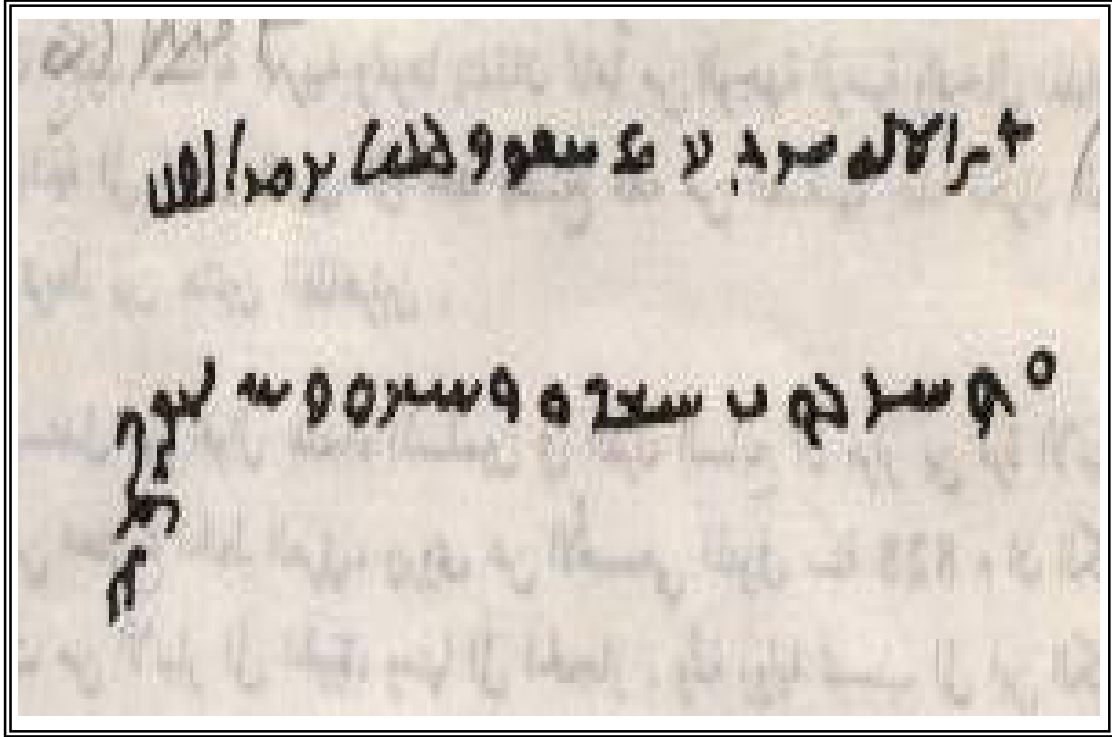
خليل يحي نامي: المرجع السابق، ص 61.

الملحق رقم 06 : نقش النمارة المؤرخ في سنة 328م:



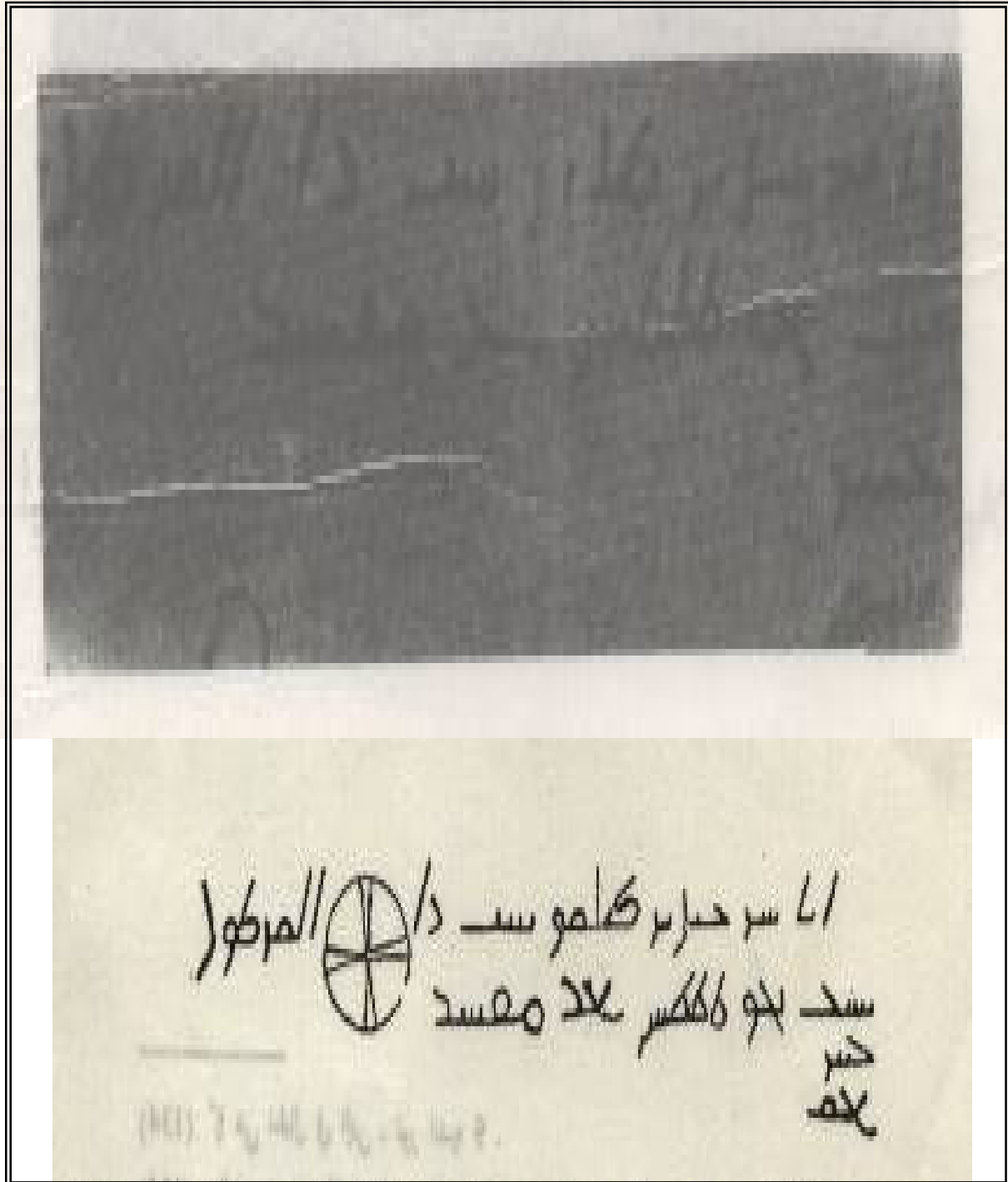
James Février : Op.cit, p264.

الملحق رقم 07 : نقوش عربية في زبد يعود تاريخها إلى سنة 512م:



رجيس بلاشير : المرجع السابق، ج1، ص 72.

الملحق رقم 08 : نقوش عربية قديمة في حرّان مؤرخة في سنة 568م:



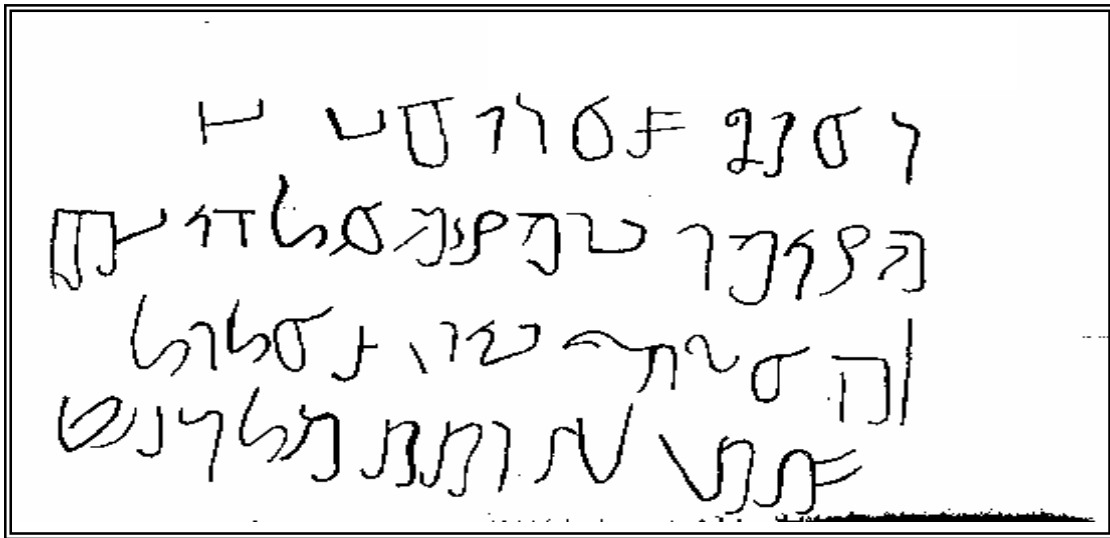
رجيس بلاشير: المرجع السابق، ج1، ص ص 72، 74

الملحق رقم 09 : نقش أم الجمال الثاني يعود تاريخه إلى أواخر القرن
السادس الميلادي:

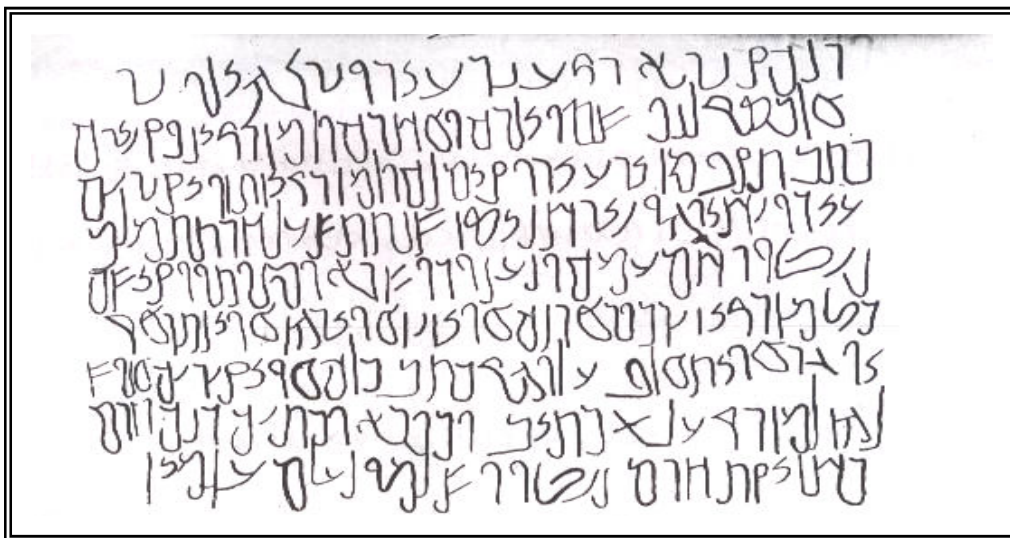


رجيس بلاشير: المرجع السابق، ج1، ص 75.

الملحق رقم 10: نقوش العلا ومدائن صالح:



1- نقش العلا المؤرخ في 9 ق.م



2- نقوش مدائن صالح المؤرخة في القرن الأول الميلادي

خليل يحي نامي: المرجع السابق، ص ص 68 - 69.

الملحق رقم 11: منافرة عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمية:

تتأفر عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمية إلى النجاشي ملك الحبشة، فأبى أن ينفر بينهما، فجعل بينهما نفيل بن عبد العزى بن رياح، فقال لحرب:
" يا أبو عمرو : أتتأفر رجلا هو أطول منك قامة، وأعظم منك هامة، وأوسم منك وسامة، وأقل منك ملامة، وأكثر منك ولدا، وأجزل صفدا، وأطول منك مذودا، وإني لأقول هذا وإنك لبعيد الغضب، رفيع الصوت في العرب، جلد المريرة، جليل العشيرة، ولكنك نافتت منفرا".
فغضب حرب وقال: إن من انتكاس الزمان أن جعلت حكمت.

الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج2، ص 181.

الملحق رقم 12: خطبة قس بن ساعدة الإيادي

خطب قس بن ساعدة بسوق عكاظ فقال:

" أيها الناس: اسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، ليل داج، ونهار ساج، وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهـر، وبحار تزخر، وجبال مرسة، وأرض مدحاة، وأنهار مجرأة، إن في السماء لخبراً، وإن في الأرض لخبراً، ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون، أرضوا فأقاموا، أم تركوا فناموا؟ يقسم قس بالله قسماً لا إثم فيه: إن الله ديننا هو أرضى له، وأفضل من دينكم الذي أنتم عليه، إنكم لتأتون من الأمر منكراً. ويروى أن قساً أنشأ بعد ذلك يقول:

في الذاهبين الأولين	من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارد	للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها	تمضى الأكابر والأصاغر
لا يرجع الماضي إلي	ولا من الباقيين غابـر
أيقنت أنى لا محـا	لـة حيث صار القوم صائر

الأصبهاني: المصدر السابق، ج14، ص40، الميداني: المصدر السابق، ج1، ص74.

الملحق رقم 13: خطبة أكتثم بن صيفي يعزي عمرو بن هند عن أخيه

عزى أكتثم بن صيفي عمرو بن هند ملك العرب عن أخيه فقال:

" إن أهل هذه الدار سفر لا يطلون عقد الرحال إلا في غيرها، وقد أتاك ما ليس بمردود عنك، وارتحل عنك ما ليس براجع إليك، وأقام معك من سيظعن عنك ويدعك، واعلم أن الدنيا ثلاثة أيام، فأمس عظة وشاهد عدل، فجعك بنفسه، وأبقى لك وعليك حكمته، واليوم غنيمة، وصديق أتاك ولم تأتته، طالت عليك غيبته، وستسرع عنك رحلته، وغد لا تدري من أهله، وسيأتيك إن وجدت، فما أحسن الشكر للمنعم، والتسليم للقادر، وقد مضت لنا أصول نحن فروعها، فما بقاء الفروع بعد أصولها، وأعلم أن أعظم من المصيبة سوء الخلف منها، وخير من الخير معطيه، وشر من الشر فاعله".

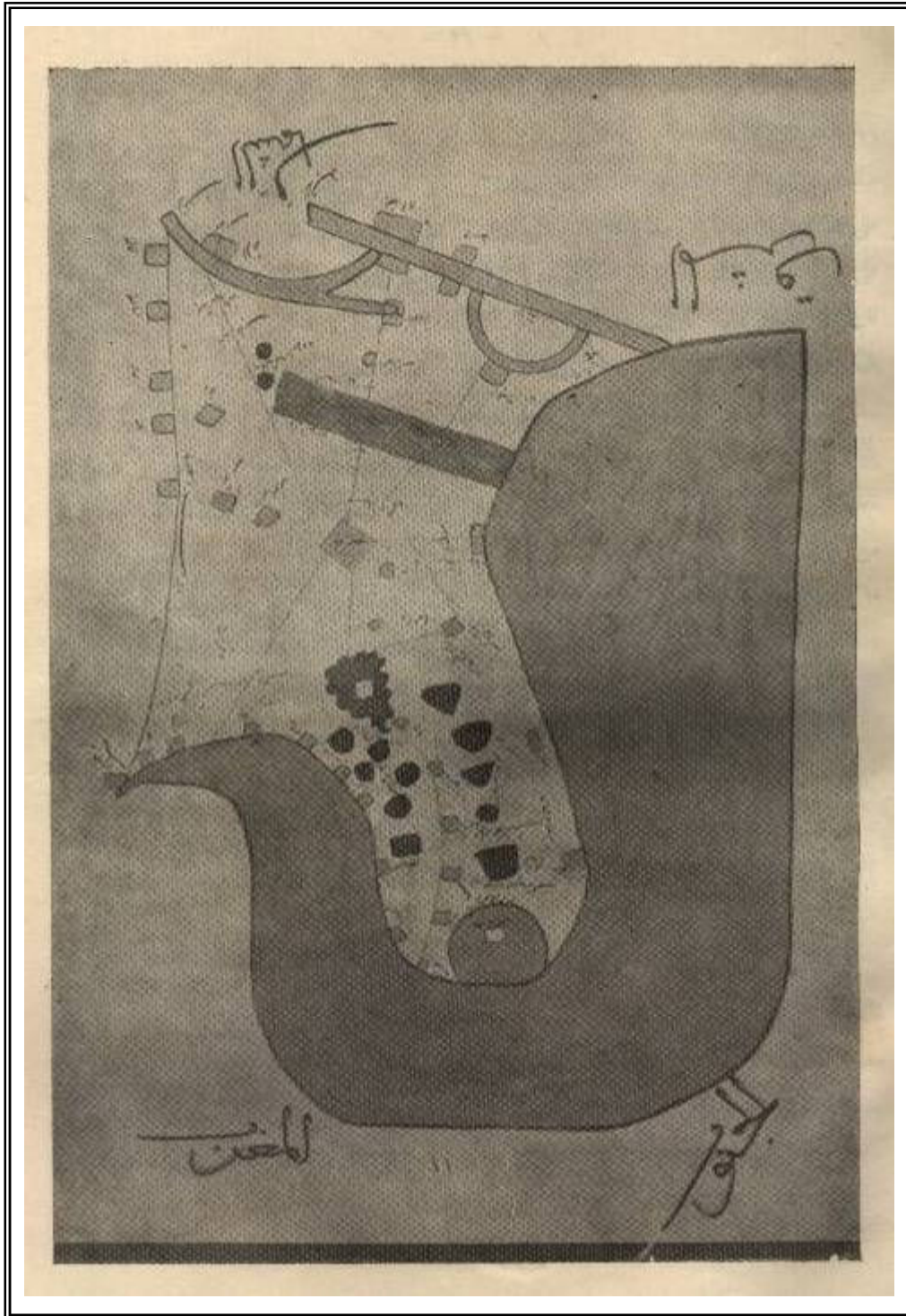
النويري: المصدر السابق، ج5، ص 164.

الملحق رقم 14: وصية زوجة عوف بن محلم الشيباني لابنتها حينما زفت إلى زوجها الحارث بن عمرو ملك كندة حيث قالت :

" أي بنية : إن الوصية لو تركت لفضل أدب، تركت لذلك منك، ولكنها تذكرة للغافل ، ومعونة للعاقل، أي بنية: إنك فارقت الجو الذي خرجت منه، وخلفت العش الذي فيه درجت، إلى وكر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فكوني له أمة يكن لك عبدا، يا بنية: كوني له أشد ما تكونين له إعظاما يكن أشد ما يكون لك إكراما، وأشد ما تكونين له موافقة يكن أطول ما تكونين له مرافقة، واعلمي أنك لا تصلين إلى ما تحبين حتى تؤثري رضاه على رضاك، وهواه على هواك فيما أحببت وكرهت، والله يخير لك."

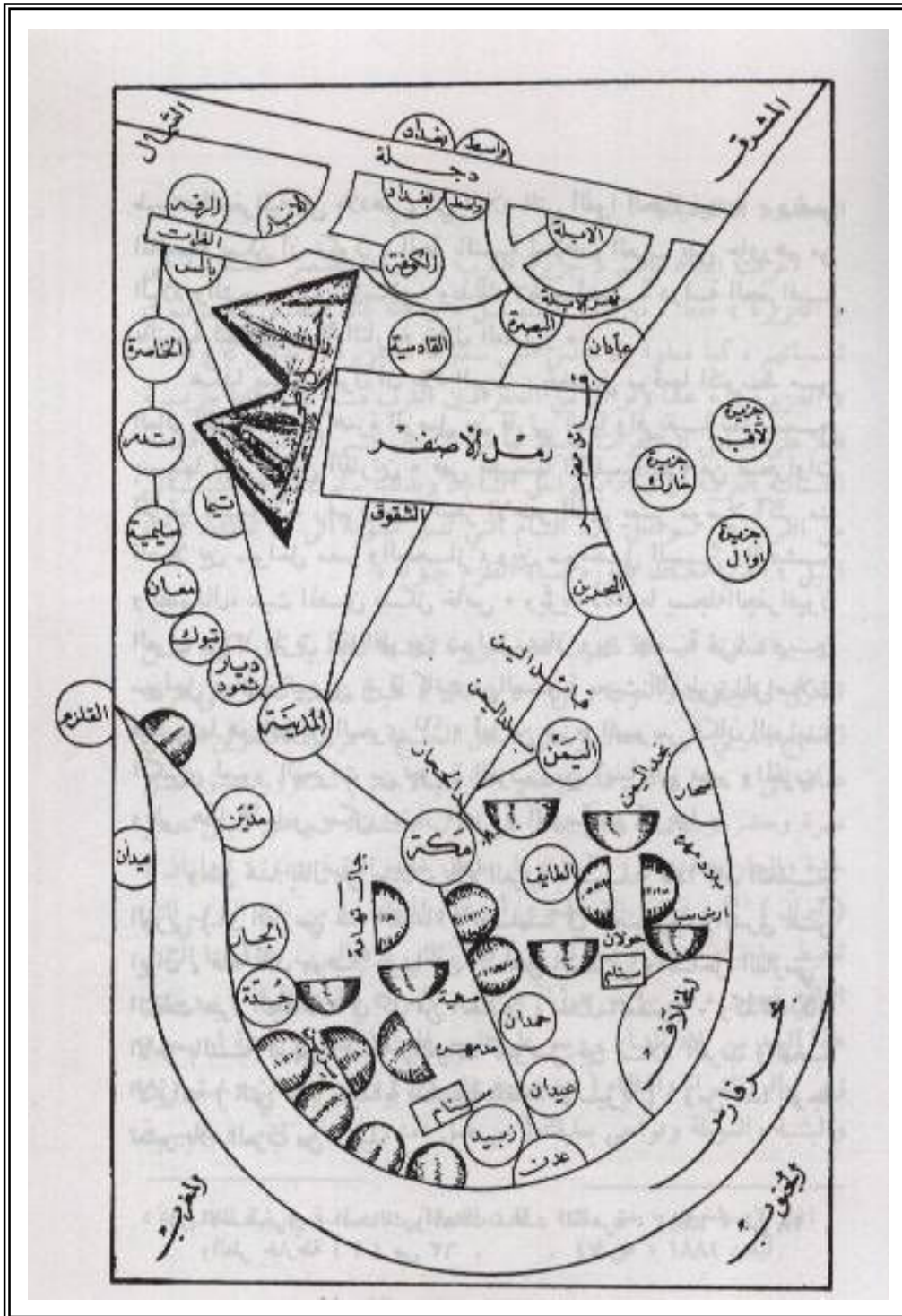
الجاحظ: البيان والتبيين، ج2، ص 7.

الملحق رقم 15: صورة ديار العرب:



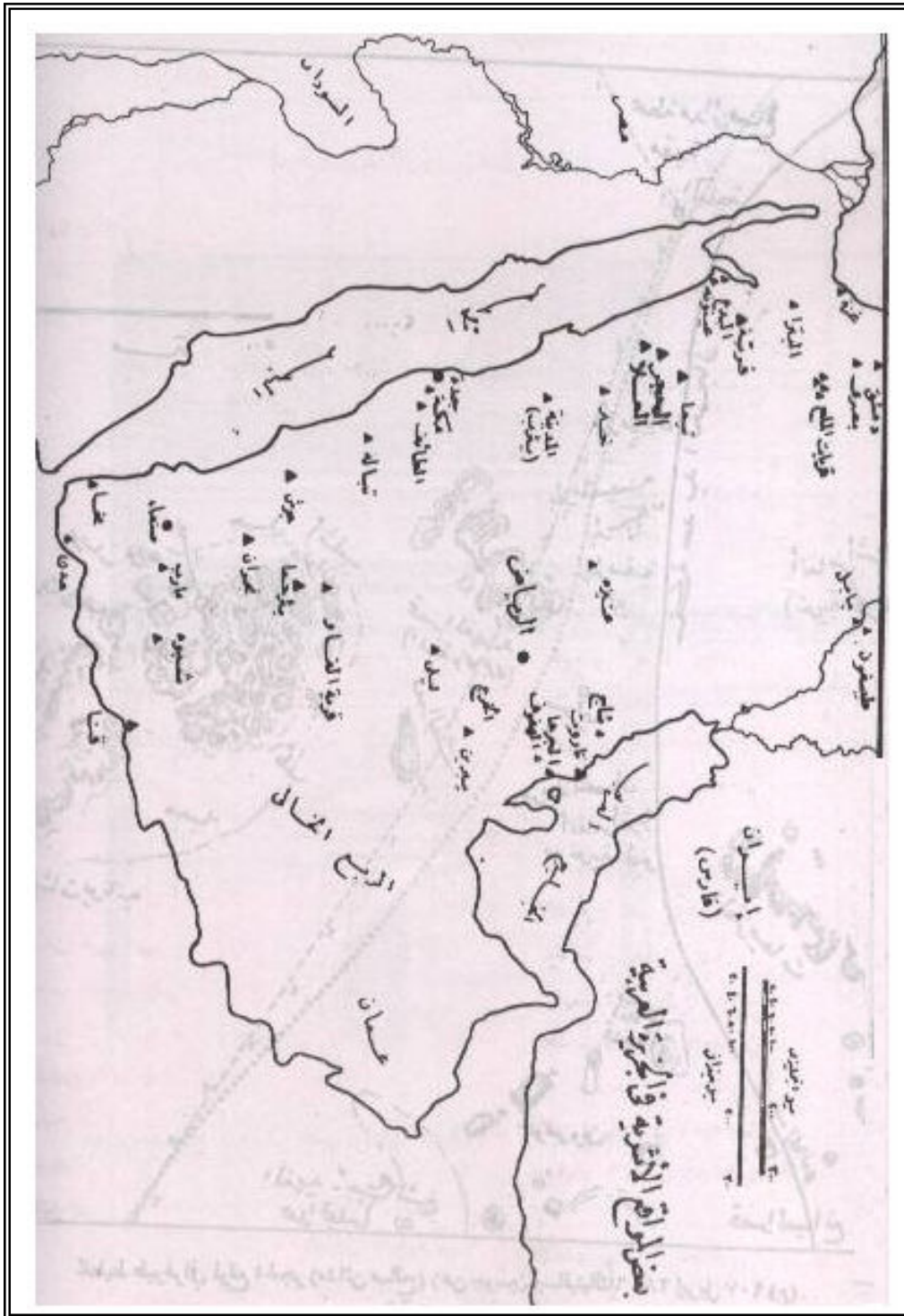
الاصطخري: المصدر السابق، ص 21.

الملحق رقم 16: صورة ديار العرب للاصطخري:



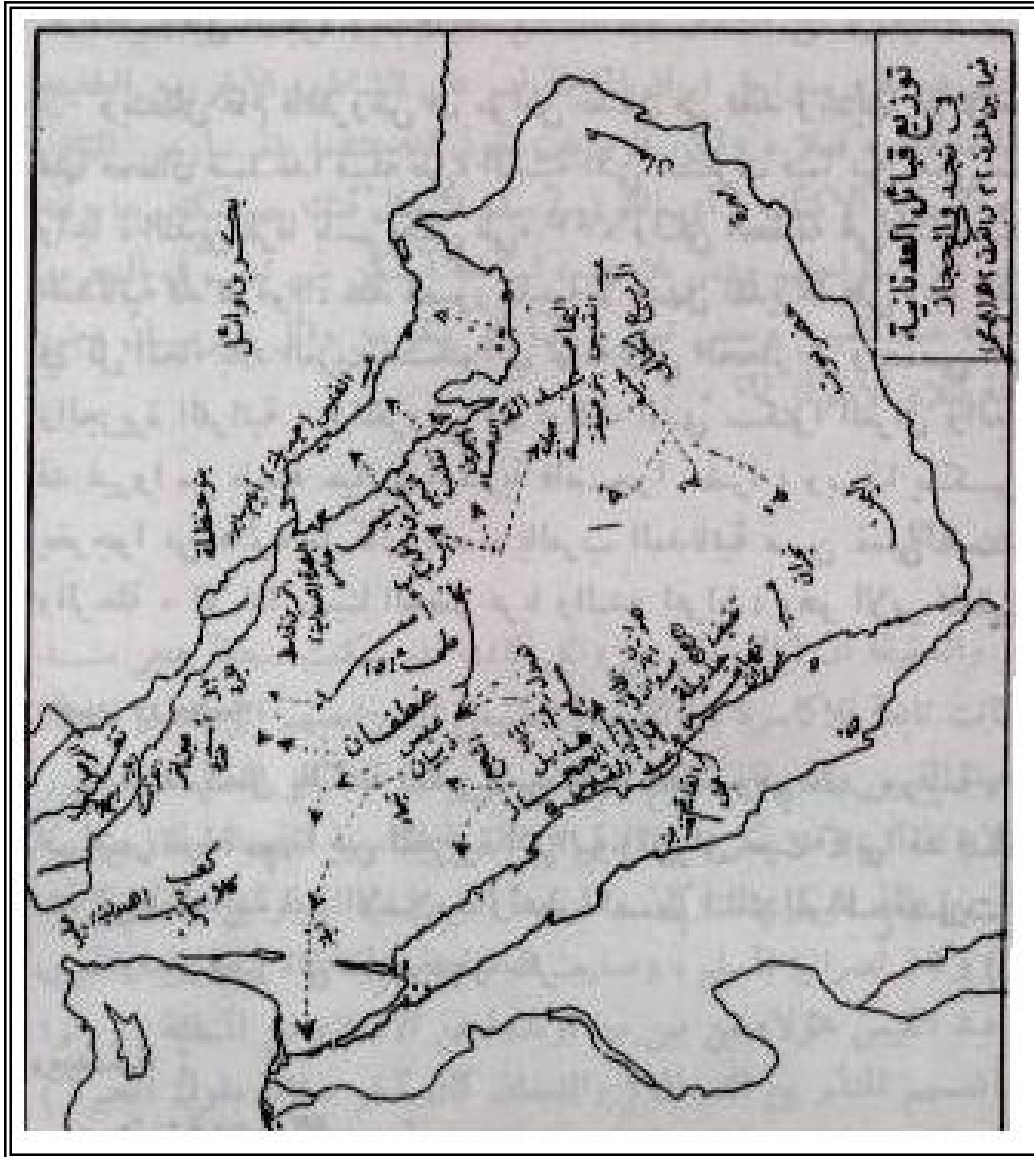
نقلا عن: سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق، ص 63.

الملحق رقم 17: خريطة لبعض المواقع الأثرية في شبه الجزيرة العربية:



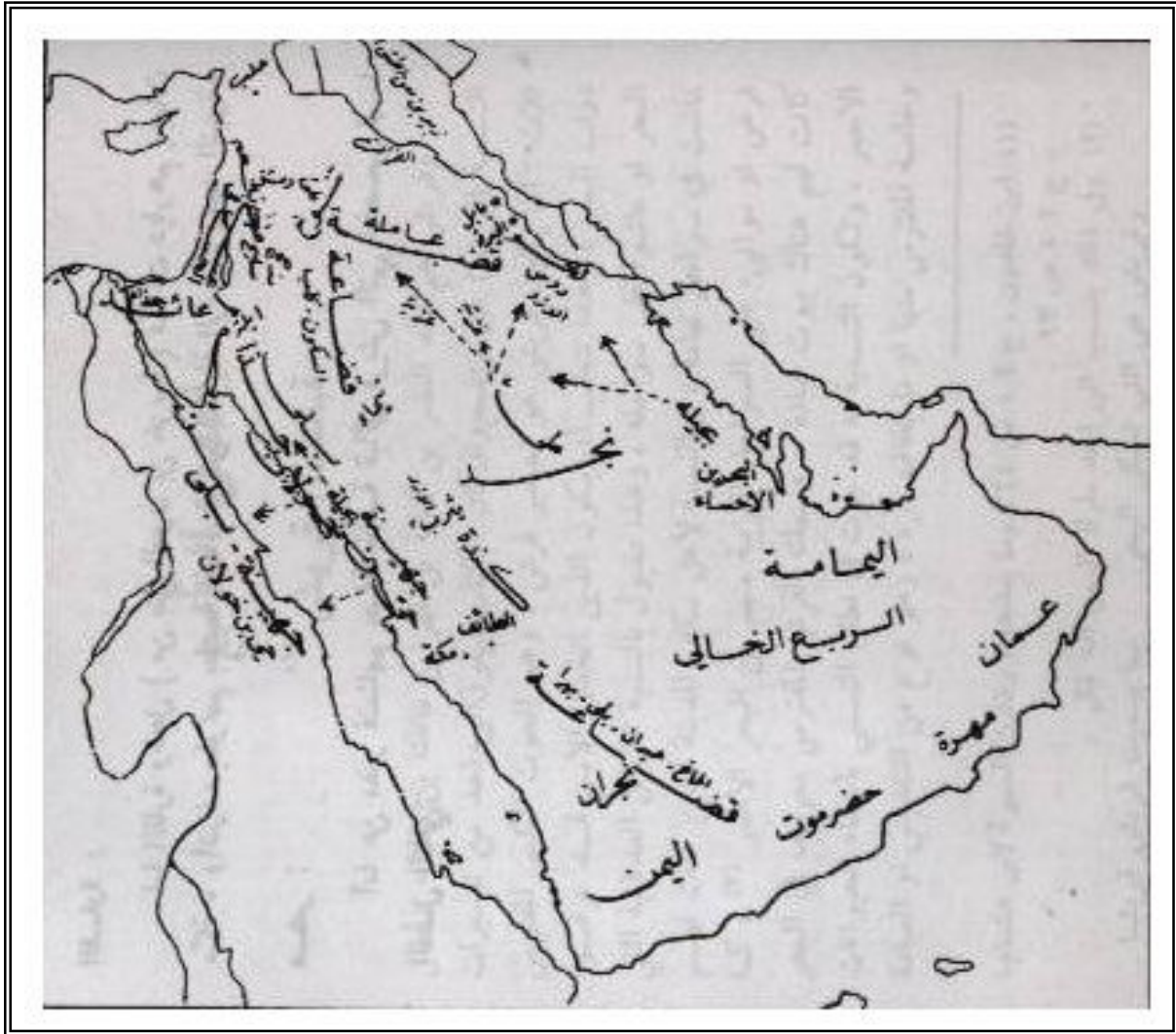
سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق، ص 71.

الملحق رقم 19: خريطة توزيع القبائل العدنانية في نجد والحجاز:



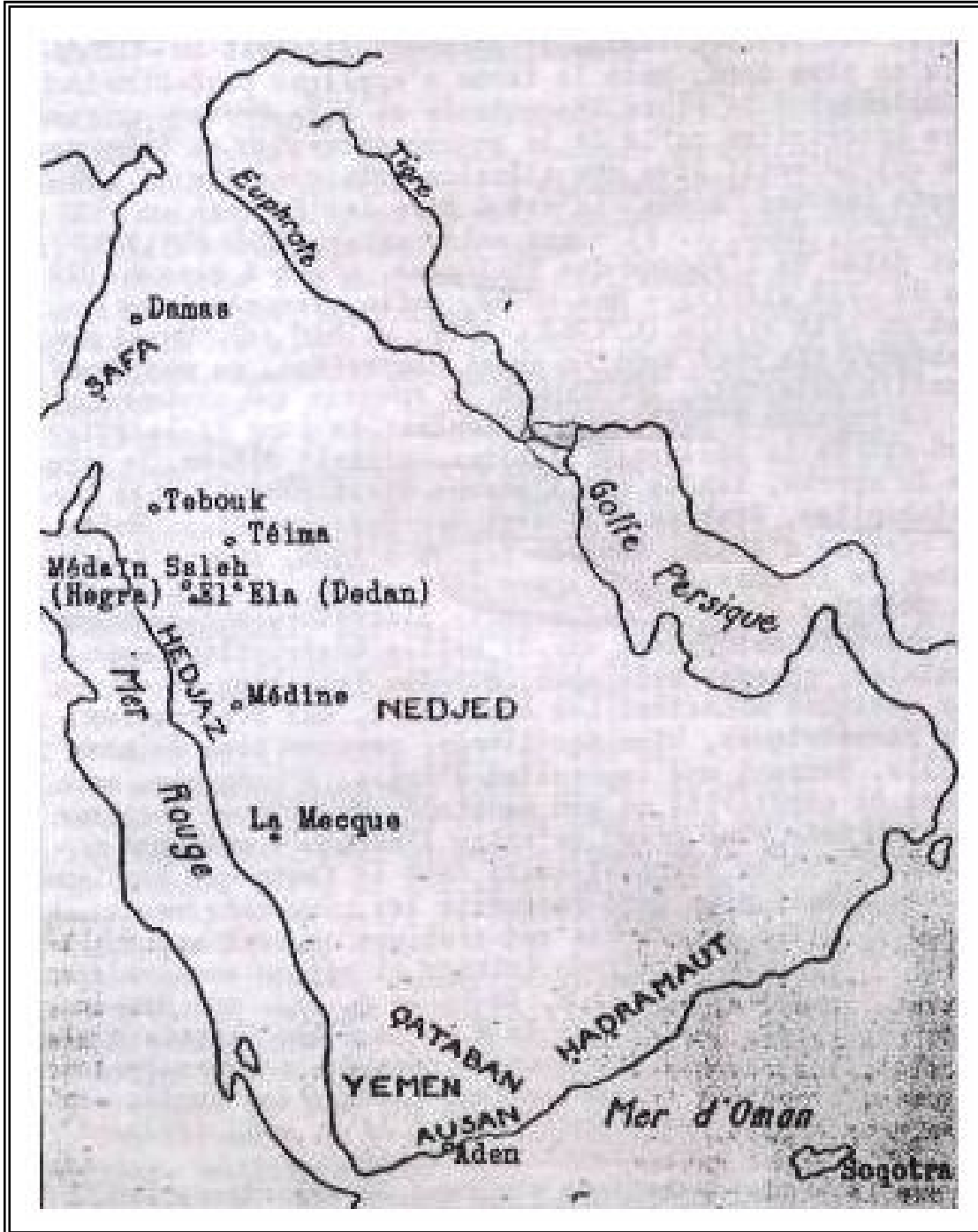
سعد زغلول : المرجع السابق، ص 261.

الملحق رقم 20: خريطة توزيع القبائل القحطانية في نجد والحجاز:



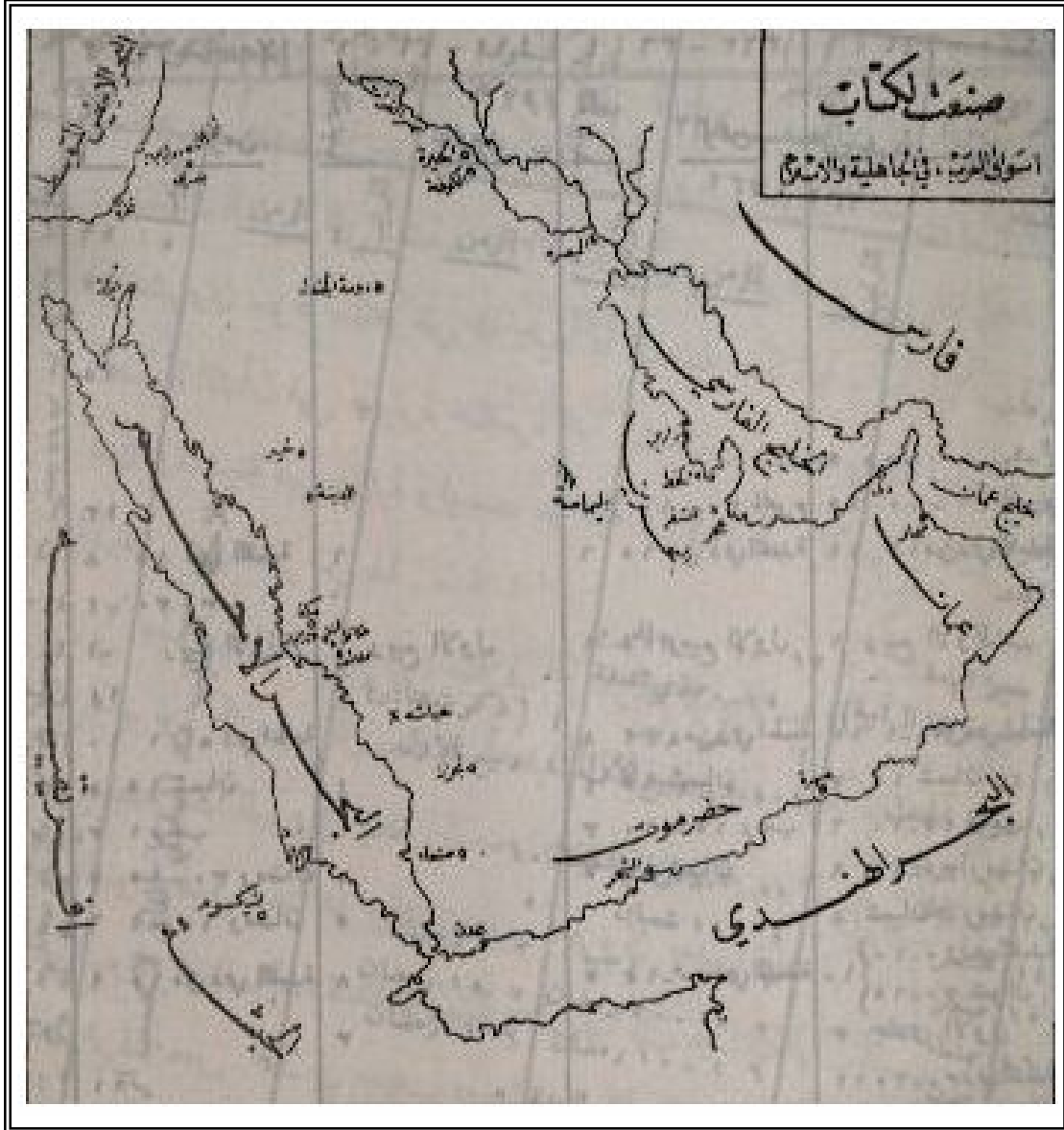
سعد زغلول : المرجع السابق، ص 269.

الملحق رقم 21: خريطة لبعض مواقع نشوء الكتابة العربية شمال شبه الجزيرة العربية:



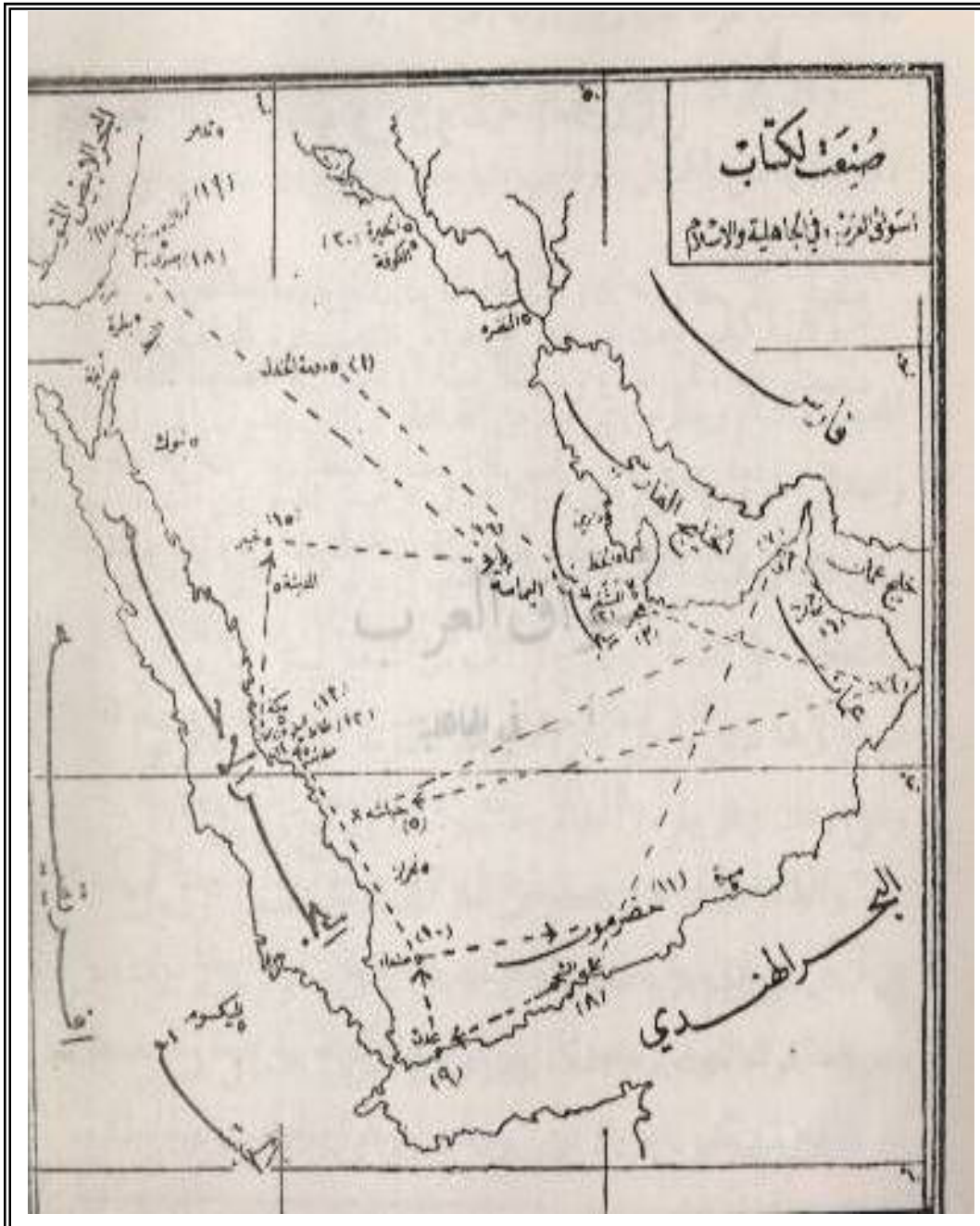
James Février : Op.cit, p282.

الملحق رقم 22: خريطة الأسواق القديمة في الجزيرة العربية:



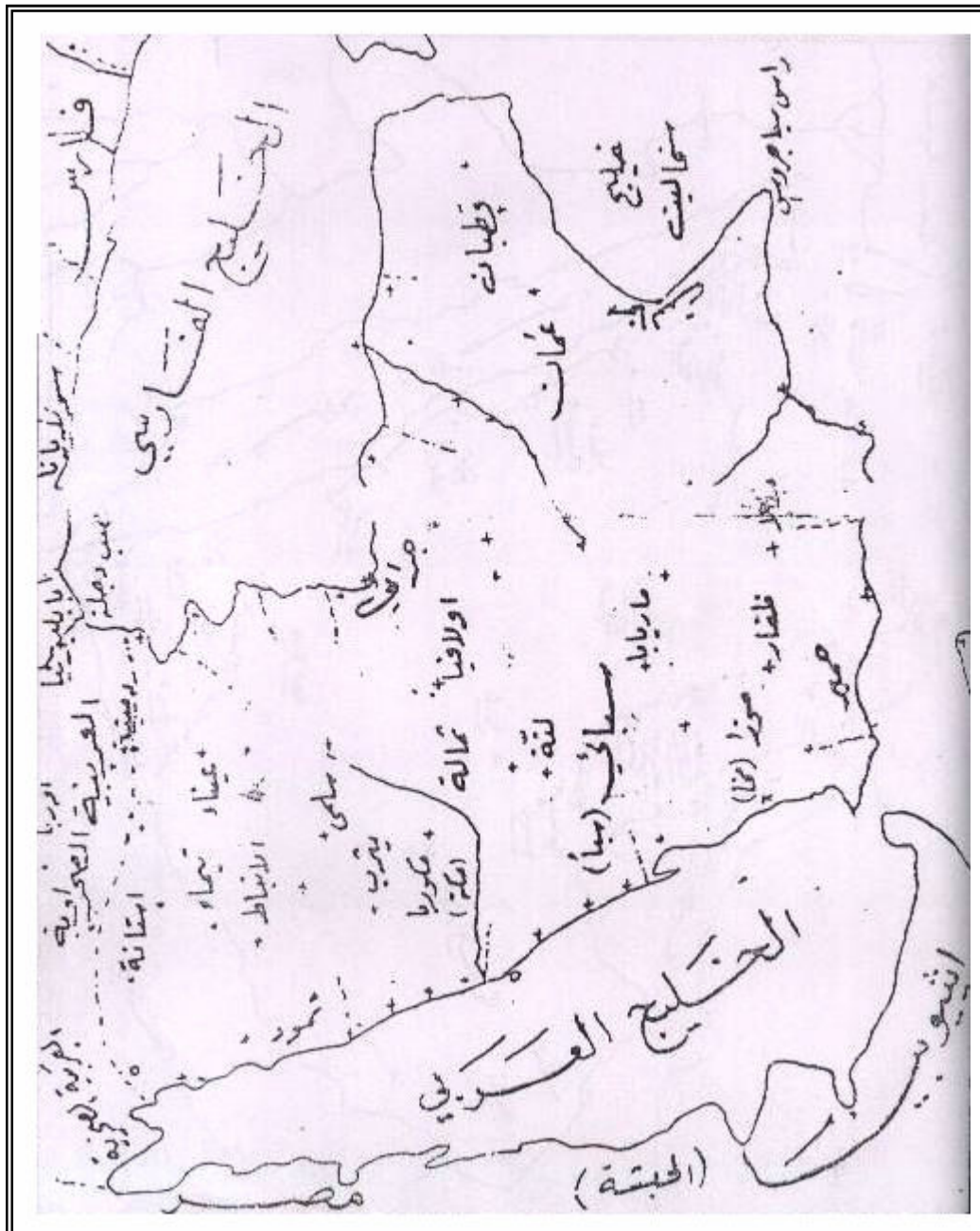
سعيد الأفغاني: المرجع السابق، ص 228.

الملحق رقم 23: خريطة الانتقال بين الأسواق العربية القديمة بدلالة الأرقام ابتداء من دومة الجندل:



سعيد الأفغاني: المرجع السابق، ص 229.

الملحق رقم 24: خريطة موقع ماكورا با حسب بطليموس:



الطاهر ذراع: المجتمع العربي القديم، ج2، ص 436.

الملحق رقم 25: خريطة انقسام مملكة سليمان بعد وفاته سنة 931 ق.م إلى مملكة إسرائيل الشمالية ومملكة يهوذا الجنوبية:



الكتاب المقدس: (العهد القديم والعهد الجديد)، ص 426.

بيبليوغرافية المذكرة

I- المصادر و المراجع باللغة العربية:

1- المصادر:

أ- الكتب المقدسة:

1- القرآن الكريم.

2- الكتاب المقدس، (كتب العهد القديم والعهد الجديد)، ط3، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، القاهرة، مصر، 2005م.

ب- المصادر الأساسية:

1- ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني (ت 630هـ / 1233م): الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، لبنان، 1982م.

2- // // : أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق محمد إبراهيم البنا وآخرون، دار الشعب، القاهرة، مصر، 1970م.

3- ابن بطوطة، محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي (ت 779هـ / 1377م): رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق أحمد العوامري ومحمد احمد جاد المولى، ج1، ط2، دار الحداثة، بيروت، لبنان، 1985م.

4- ابن تغري بردي، كمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي (ت 874هـ / 1469م): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، علق عليه محمد حسين شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1992م.

5- ابن تيمية، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحراني (ت 728هـ / 1327م): الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، مطبعة المدني، المؤسسة السعودية في مصر، 1383هـ / 1963م.

6- ابن جنى، أبو الفتح عثمان بن جنى الموصلى (ت 392هـ / 1002م): الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، ط2، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، (د.ت).

7- ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبي الفضل احمد بن علي (ت 852هـ / 1449م): الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق طه محمد الزيني، ط1، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، مصر، 1388هـ / 1968م.

8- // // : فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تحقيق عبد العزيز بن عبد الله بن باز، ج8، دار المعرفة، بيروت، لبنان، (د.ت).

9- ابن حزم الأندلسي، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد المعروف بابن حزم الظاهري (ت 456هـ / 1064م): جمهرة انساب العرب، تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة، مصر، 1948م.

- 10- ابن حزم الأندلسي: الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق محمد إبراهيم نصر، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1985م.
- 11- ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي (ت 368هـ / 990م): كتاب صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1979م.
- 12- ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت 300هـ / 912م): المسالك والممالك، تعليق محمد مخزوم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1998م.
- 13- ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الحضرمي الاشبيلي (ت 808هـ / 1406م): المقدمة، ط9، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2006م.
- 14- // // : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، المعروف بتاريخ ابن خلدون، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2003.
- 15- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت 681هـ / 1282م): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، 1969م.
- 16- ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن (ت 321هـ / 922م): الاشتقاق، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ج1، 2، ط1، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1991م.
- 17- // // : جمهرة اللغة، تحقيق رمزي منير البعلبكي، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1987م.
- 18- ابن رشيقي، أبو علي الحسن القيرواني (ت 456هـ / 1063م): العمدة في صناعة الشعر ونفده، تحقيق النبوي عبد الواحد شعلان، ج1، 2، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، 2000.
- 19- ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل الأندلسي (ت 458هـ / 1065م): المخصص، ج4، 13، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ت).
- 20- ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع البصري (ت 230هـ / 845م): الطبقات الكبرى، ج1، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، مصر، 1989م.
- 21- ابن سلام الجمحي، أبو عبد الله محمد (ت 231هـ / 845م): طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1974م.
- 22- ابن العبري، أبو الفرج غريغوريوس بن أهرون بن توما المالطي (ت 685هـ / 1286م): تاريخ مختصر الدول، ط1، دار الآفاق العربية، القاهرة، مصر، 2001م.
- 23- ابن عبد ربه، أبو عمر احمد بن محمد الأندلسي (ت 328هـ / 929م): العقد الفريد، تقديم خليل شرف الدين، ج1، 2، منشورات دار مكتبة الهلال، بيروت، لبنان، 1999م.

- 24- ابن عبد المنعم، محمد بن عبد المنعم الصنهاجي الحميري(ت 900هـ / 1494م): الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ط2، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، 1984م.
- 25- ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد (ت 463هـ / 1061م): الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق طه محمد الزيني، ط1، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، مصر، 1968م.
- 26- ابن عماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي بن العماد (ت 1089هـ / 1678م): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ت).
- 27- ابن قتيبة الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت 276هـ / 889م): الشعر والشعراء، دار المعارف بمصر، 1332هـ.
- 28- // // : كتاب المعارف، تحقيق ثروت عكاشة، ط2، دار المعارف بمصر، 1969.
- 29- // // : عيون الأخبار، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، سوريا، 1977م.
- 30- ابن القفطي، أبو الحسن جمال الدين علي بن يوسف بن إبراهيم (ت 646هـ / 1248م): تاريخ الحكماء، مكتبة المثنى، بغداد، العراق، (د.ت).
- 31- ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر (ت 751هـ / 1350م): أحكام أهل الذمة، تحقيق يوسف بن أحمد البكري وشاكر بن توفيق العاروري، ط1، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، 1997م.
- 32- // // : هداية الحيارى في الرد على اليهود والنصارى، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1415هـ / 1994م.
- 33- ابن كثير دمشقي، عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر(ت 774هـ / 1372م): تفسير القرآن العظيم، ط2، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1980م.
- 34- // // : النهاية في الفتن والملاحم، تحقيق احمد عبد الشافي، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1991م.
- 35- // // : قصص الأنبياء، ط1، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، 2001.
- 36- // // : البداية والنهاية، وضع حواشيه أحمد ملحم، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2001م.
- 37- ابن الكلبي، أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب (206هـ / 820م): كتاب الأصنام، تحقيق أحمد زكي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 1965م.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت 771هـ / 1369م): لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، (د.ت).

- 40- ابن منظور: لسان العرب المحيط، إعداد وتصنيف يوسف خياط، دار لسان العرب، بيروت، لبنان، (د.ت).
- 41- // // : لسان اللسان تهذيب لسان العرب، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1993م.
- 42- ابن النديم، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحاق البغدادي (ت 380هـ / 990م): الفهرست، تحقيق ناهد عباس عثمان، ط1، دار قطري بن الفجاءة، الدوحة، قطر، 1985م.
- 43- ابن هشام، أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري (ت 218هـ / 833م): السيرة النبوية، المعروف بسيرة ابن هشام، تحقيق محمد علي القطب ومحمد الدالي بلطه، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 1998م.
- 44- أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي (ت 231هـ / 844م): ديوان الحماسة، تحقيق عبد المنعم أحمد صالح، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، 1980م.
- 45- أبو حنيفة الدينوري، أحمد بن داود (ت 282هـ / 895م): الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، القاهرة، مصر، 1960م.
- 45- أبو زيد القرشي، محمد بن أبي الخطاب (ت 170هـ / 786م): جمهرة أشعار العرب، شرح وضبط عمر فاروق الطباع، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، لبنان، (د.ت).
- 46- أبو سعيد السيرافي، الحسن بن عبد الله بن المرزبان (ت 368هـ / 979م): ضرورة الشعر، تحقيق رمضان عبد التواب، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1405هـ / 1985م.
- 47- أبو علي القالي، إسماعيل بن القاسم بن عبدون بن هارون بن محمد بن سلمان، (ت 356هـ / 966م): كتاب الأمالي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ت).
- 48- أبو الفداء، إسماعيل بن علي بن محمود ابن عمر بن شاهنشاه (ت 732هـ / 1332م): المختصر في أخبار البشر، تعليق محمود ديوب، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1997م.
- 49- أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى (ت 395هـ / 1006م): جمهرة الأمثال، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش، ط2، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1964م.
- 50- // // : ديوان المعاني، ج1، مكتبة القدسي، القاهرة، مصر، 1352هـ.
- 50- الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس الصقلي (ت 548هـ / 1153م): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، 2002.
- 51- الأسد آبادي، أبو الحسن عبد الجبار (ت 415هـ / 1024م): المغني في أبواب التوحيد والعدل، تحقيق محمود محمد الخضري، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، مصر، 1958م.

- 52- الأزرقى، أبو الوليد محمد بن عبد الله بن احمد (ت 250هـ / 863م): أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق علي عمر، ج 1، 2، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، 2004م.
- 53- الأصبهاني، أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد بن الهيثم الأموي (ت 356هـ / 967م): الأغاني، تحقيق لجنة من الأدباء، ط6، دار الثقافة، بيروت، لبنان، (د.ت).
- 54- الإصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد (ت 341هـ / 952م): المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني، ومراجعة محمد شفيق غربال، دار القلم، القاهرة، مصر، 1961م.
- 55- الأصفهاني، الحسن بن عبد الله (ت 310هـ / 921م): بلاد العرب، تحقيق حمد الجاسر، منشورات دار اليمامة، الرياض، السعودية، (د.ت).
- 56- الأصفهاني، أبو عبد الله حمزة بن الحسن (ت 360هـ / 970م): تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء، ط3، منشورات دار الحياة، بيروت، لبنان، 1965م.
- 57- الأوسى، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود شكري (ت 1270هـ / 1849م): روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار صادر، بيروت، لبنان، (د.ت).
- 58- // : بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ج 1، 2، 3، ط3، دار الكتاب العربي، القاهرة، مصر، (د.ت).
- 59- الأمدي، أبو القاسم الحسن بن بشر (ت 370هـ / 980م): المؤلف والمختلف، تعليق ف. كرنكو، مكتبة القدسي، القاهرة، مصر، 1354هـ / 1935م.
- 60- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت 256هـ / 869م): صحيح البخاري، تحقيق محب الدين الخطيب وآخرون، ج 1، 6، 8، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1400هـ.
- 61- البخاري، أبو الطيب صديق بن حسن بن علي الحسيني (ت 1307هـ / 1886م): فتح البيان في مقاصد القرآن، تحقيق إبراهيم شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1420هـ / 1999م.
- 62- البغدادي، عبد القادر بن عمر بن بايزيد (ت 1093هـ / 1682م): خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، الأجزاء 2، 1، 3، 4، ط3، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، 1989م.
- 63- البكري، أبو عبيد الله بن أبي مصعب بن عبد العزيز بن محمد (ت 487هـ / 1094م): معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق مصطفى السقا، ج 1، 2، 3، ط1، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، مصر، 1364هـ / 1945م.
- 64- // : سمط اللآلي في شرح أمالي القالي، تحقيق عبد العزيز الميمني، القاهرة، مصر، 1936م.

- 65- البكري : جزيرة العرب من كتاب المسالك والممالك، تحقيق عبد الله يوسف الغنيم، ط1، دار ذات السلاسل للطباعة والنشر، الكويت، 1977م.
- 66- // : المسالك والممالك، تحقيق جمال طلبية، ج1، 2، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2003م.
- 66- البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر البغدادي (ت 279هـ / 892م): فتوح البلدان، تحقيق صلاح الدين المنجد، القاهرة، مصر، 1956م - 1957م.
- 67- // : أنساب الأشراف، تحقيق رمزي البعلبكي، ط1، الشركة المتحدة للتوزيع، بيروت، لبنان، 1997م.
- 68- البيضاوي، عبد الله بن عمر بن محمد بن علي (ت 685هـ / 1286م): أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1404هـ / 1984م.
- 69- البهوتي، منصور بن يونس بن إدريس (ت 1046هـ / 1636م): كشف القناع عن متن الإقناع، تحقيق هلال مصيلحي، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1982م.
- 70- البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد الخوارزمي (ت 440هـ / 1048م): الآثار الباقية عن القرون الخالية، وضع حواشيه خليل عمران المنصور، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2000م.
- 71- التبريزي، الخطيب أبي زكريا يحيى بن علي (ت 502هـ / 1110م): شرح القوائد العشر، ضبط وتصحيح عبد السلام الحوفي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1997م.
- 72- // : شرح المعلقات العشر، قدم له وشرحه مفيد قميحة، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، 1997م.
- 73- التجيبي، أبو يحيى محمد بن صمادح (ت 419هـ / 1027م): مختصر تفسير الطبري، تحقيق حسن أبو العزم الزفيتي، ج1، 2، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، مصر، 1970م.
- 74- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت 255هـ / 868م): البيان والتبيين، تحقيق درويش جويدي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 1422هـ / 2001م.
- 75- // : الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مج1، 2، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1412هـ / 1992م.
- 76- // : رسائل الجاحظ، شرح وتعليق عبد السلام محمد هارون، ج2، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1991م.
- 77- حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي (ت 1077هـ / 1666م): كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، 6 أجزاء، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1993م.

- 78- الخازن، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي (ت 725هـ / 1324م): تفسير الخازن أو لباب التأويل في معاني التنزيل، تحقيق عبد السلام محمد علي شاهين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1995م.
- 79- الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي (ت 463هـ / 1070م): تاريخ بغداد، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، (د.ت).
- 80- ديوان الأعشى، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1986م.
- 81- ديوان امرئ القيس، تحقيق مصطفى عبد الشافي، ط5، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2004م.
- 82- ديوان حسان بن ثابت، شرح وتقديم عبدألي مهنا، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2002م.
- 83- ديوان الحطيئة، دراسة وتبويب مفيد محمد قميحة، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2002م.
- 84- ديوان الخنساء، شرح وتحقيق عبد السلام الحوفي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ت).
- 85- ديوان زهير بن أبي سلمى، شرح وتقديم علي حسن فاعور، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2003م.
- 86- ديوان عنتر العبسي، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2003م.
- 87- ديوان طرفة بن العبد، دار صادر، بيروت، لبنان، (د.ت).
- 88- ديوان قيس بن الملوح، دراسة وتعليق يسري عبد الغني، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1990م.
- 89- ديوان لبيد بن ربيعة، دار صادر، بيروت، لبنان، (د.ت).
- 90- ديوان المهلهل، شرح وتحقيق محمد علي أسعد، ط1، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، 2000م.
- 91- ديوان النابغة الذبياني، شرح عباس عبد الساتر، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1986م.
- 92- الرازي، فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التميمي (ت 606هـ - 1212م): التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1990م.
- 93- // : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي، ط1، دار الكتاب، بيروت، لبنان، 1986م.
- 94- الزبيدي، أبو الفيض مرتضى بن محمد (ت 1205هـ / 1784م): تاج العروس، دار صادر، بيروت، لبنان، (د.ت).

- 95- الزبير بن بكار، أبو عبد الله بن أبي بكر بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوام، (ت 256هـ / 869م): جمهرة نسب قریش وأخبارها، شرحه وحققه محمود محمد شاکر، مكتبة خياط، بيروت، لبنان، (د.ت).
- 96- الزركلي، خير الدين (ت 1397هـ / 1976م): الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ط5، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1980م.
- 97- الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الخوارزمي (ت 538هـ / 1143م): الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ط1، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1977م.
- 98- الزوزني، أبو عبد الله الحسين بن أحمد (ت 486هـ / 1093م): شرح المعلمات السبع، تحقيق طلال أحمد، ط1، دار الكتاب الحديث، القاهرة، مصر، 2002م.
- 99- السويدي، أبو الفوز محمد أمين البغدادي (ت 1246هـ / 1825م): سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1995م.
- 100- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال بن أبي بكر بن محمد (ت 911هـ - 1505م): المزهرة في علوم اللغة وأنواعها، شرحه وضبطه محمد أحمد جاد المولى وآخرون، دار الجيل، بيروت، لبنان، (د.ت).
- 101- السمهودي، أبو الحسن علي بن عبد الله بن أحمد الحسن بن نور الدين (ت 911هـ / 1505م): وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، تحقيق محمد بن محي الدين عبد الحميد، ط4، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1984م.
- 102- السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي الحسين (ت 581هـ / 1185م): الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية، ج1، 2، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1989م.
- 103- الشنتمري، أبو الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى (ت 476هـ / 1083م): ديوان امرئ القيس بن حجر الكندي، تصحيح ابن أبي شنب، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974م.
- 104- الشهرستاني، محمد بن أبي القاسم عبد الكريم بن أبي بكر أحمد (ت 548هـ / 1153م): الملل والنحل، تحقيق سيد كيلاني، ج1، 2، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1986م.
- 105- صاعد الأندلسي، أبو القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد (ت 462هـ / 1069م): طبقات الأمم، تحقيق حياة العيد بوعنوان، دار الطليعة، ط1، بيروت، لبنان، 1985م.
- 106- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت 764هـ / 1362م): الوافي بالوفيات، اعتناء إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، (د.ت).
- 107- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت 310هـ / 922م): تاريخ الأمم والملوك، أو المسمى تاريخ الطبري، ج1، 2، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1991م.

- 108- الطبري: جامع البيان في تأويل آي القرآن، المعروف بتفسير الطبري، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1994م.
- 109- الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن بن الفضل (ت 522هـ / 1157م): مجمع البيان في تفسير القرآن، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1997م.
- 110- الفاسي، أبو الطيب تقي الدين محمد بن أحمد المكي (ت 832هـ / 1429م): شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تحقيق مصطفى محمد الذهبي، ج1، 2، ط2، مطبعة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، السعودية، 1999م.
- 111- الفاكهي، أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن العباس (ت 272هـ / 885م): أخبار مكة المشرفة، ج2، مكتبة خياط، بيروت، لبنان، (د.ت).
- 112- الفخري، علي بن محمد بن عبد الله (عاش في القرن التاسع الهجري): تلخيص البيان في ذكر فرق أهل الأديان، تحقيق رشيد البندر، ط1، دار الحكمة للطباعة والنشر، لندن، إنجلترا، 1994م.
- 113- الفيروزآبادي، أبو طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي (ت 817هـ / 1414م): القاموس المحيط، دار العلم للجميع، بيروت، لبنان، (د.ت).
- 114- // // : تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، دار الأنوار المحمدية، القاهرة، مصر، (د.ت).
- 115- قدامة بن جعفر، أبو الفرج بن قدامة بن زياد (ت 337هـ / 948م): كتاب نقد النثر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1982م.
- 116- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري (ت 435هـ / 1043م): الجامع لأحكام القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1985م.
- 117- القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد (ت 821هـ / 1418م): صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، تحقيق وشرح نبيل خالد الخطيب، ج1، 2، 4، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1987م، والطبعة الأميرية، القاهرة، مصر، (د.ت).
- 118- // : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق إبراهيم الأبياري، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 1959.
- 119- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب (ت 450هـ / 1058م): الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ت).
- 120- المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد (ت 285هـ / 898م): الكامل في اللغة والأدب، مكتبة المعارف، بيروت، لبنان، (د.ت).

- 121- محمد بن حبيب، أبو جعفر محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو البغدادي (ت 245هـ / 858م): المحبر، طبعة حيدرآباد ، الدكن، الهند، (د.ت).
- 122- المرزباني، أبو عبيد الله محمد بن عمران بن موسى (ت 384هـ / 964م): معجم الشعراء، تحقيق سالم الكرنكوي، مكتبة القدسي، القاهرة، مصر، 1354هـ / 1935م.
- 123- مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت 261هـ / 874م): صحيح مسلم، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 2000م.
- 124- المرزوقي، أبو علي بن محمد بن الحسن (ت 421هـ / 1029م): شرح ديوان الحماسة، نشره أحمد أمين وعبد السلام هارون، ط1، دار الجيل، بيروت، 1991م.
- 125- المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت 375هـ / 985م): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تعليق محمد الأمين الصناوي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2003.
- 127- المفضل الضبي، بن محمد بن يعلى بن عامر بن سالم (ت 170هـ / 786م): المفضليات، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، ط4، دار المعارف بمصر، 1963م.
- 128- // // : أمثال العرب - تعليق إحسان عباس، ط1، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، 1401هـ / 1981م.
- 129- المقرئ، أبو العباس أحمد بن علي (ت 845هـ / 1441م): الخطط المقرئية أو المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، وضع حواشيه خليل المنصور، ج4، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1998م.
- 130- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت 346هـ / 957م): مروج الذهب ومعادن الجواهر، تقديم وشرح مفيد محمد قميحة، ج1، 2، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت).
- 131- // // : التنبيه والإشراف، مطبعة بريل، ليدن، 1893م.
- 132- مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب (ت 421هـ / 1030م): تجارب الأمم وتعاقب الهمم، تحقيق سيد كسروي حسن، ج1، 2، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2003.
- 133- الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري (ت 518هـ / 1123م): مجمع الأمثال، مج 1، 2، ط2، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، (د.ت).
- 134- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت 733هـ / 1332م): نهاية الأرب في فنون الأدب، الأجزاء 2، 10، 16، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، القاهرة، مصر، (د.ت).
- 135- الواقدي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد (ت 207هـ / 823م): كتاب المغازي، تحقيق مارسدن جونز، ط3، عالم الكتب، بيروت، لبنان، 1984م.
- 136- وهب بن منبه، أبو عبد الله اليماني (ت 114هـ / 730م): كتاب التيجان في ملوك حمير، تحقيق ونشر مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، ط1، صنعاء، اليمن، 1347هـ / 1928م.

- 137- الهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت 334هـ / 945م): صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوغ الحوالي، منشورات دار اليمامة، الرياض، السعودية، 1974م.
- 138- // : الإكليل، تحقيق محمد بن علي الأكوغ الحوالي، ج1، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، مصر، 1963م.
- 139- // : الإكليل، تعليق نبيه أمين فارس، ج8، دار العودة، بيروت، دار الحكمة، صنعاء، اليمن، (د.ت).
- 140- ياقوت الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله (ت 626هـ / 1228م): معجم البلدان، تحقيق عبد العزيز الجندي، الأجزاء 1، 2، 3، 4، 5، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1990م.
- 141- // // : معجم الأدباء، تحقيق إحسان عباس، الأجزاء 1، 2، 3، 4، 6، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1993م.
- 142- // // : البلدان اليمانية، تحقيق إسماعيل علي الأكوغ، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1988م.
- 143- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح (ت 278هـ / 891م): تاريخ اليعقوبي، ط6، دار صادر، بيروت، لبنان، 1995م.
- 144- // : البلدان، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2002م.
- 2- المراجع:
- أ- المراجع العربية:
- 1- إبراهيم رفعت باشا: مرآة الحرمين، دار المعرفة، بيروت، لبنان، (د.ت).
- 2- إبراهيم نجيب ميخائيل: مصر والشرق الأدنى القديم، ط2، دار المعارف، القاهرة، 1964.
- 3- ابن المجاور: صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسماة: تاريخ المستبصر، تحقيق ممدوح حسن محمد، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، 1996م.
- 3- أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، 2000م.
- 4- أحمد ارحيم هيو: تاريخ العرب قبل الإسلام، مطبعة جامعة حلب، سوريا، 1980م.
- 5- أحمد أمين: فجر الإسلام، ط1، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 2006م.
- 6- // // : ضحى الإسلام، ط1، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 2006.
- 7- أحمد أمين سليم: جوانب من تاريخ وحضارة العرب في العصور القديمة، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، مصر، 1998م.

- 8- أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب العربي، ط4، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1997م.
- 9- أحمد زكي صفوت: جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ج1، ط2، مكتبة ومطبعة الحلبي، القاهرة، مصر، 1381هـ/ 1962م.
- 10- أحمد سوسة: ملامح من التاريخ القديم ليهود العراق، ط1، مطبعة أسعد، بغداد، العراق، 1978م.
- أحمد السيد دراج : الكعبة المشرفة، ط1، دار العلم والثقافة، القاهرة، مصر، 1999م.
- 11- أحمد شلبي: مقارنة الأديان - اليهودية، ط5، مكتبة النهضة العربية، القاهرة، مصر، 1978م.
- 12- // // : المسيحية، ط8 ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، 1984م.
- 13- // // : موسوعة التاريخ الإسلامي، ج1، تاريخ العرب قبل الإسلام، ط13، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، 1988م.
- 14- أحمد كمال زكي: شعر الهذليين في العصرين الجاهلي والإسلامي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 1389هـ/ 1969م.
- 15- // // // : الأساطير" دراسة حضارية مقارنة"، ط2، دار العودة، بيروت، لبنان، 1979م.
- 16- أحمد محمد الحوفي: الغزل في الشعر الجاهلي، دار القلم، بيروت، لبنان، 1961م.
- 17- // // // : الحياة العربية من الشعر الجاهلي، دار القلم، بيروت، لبنان، 1392هـ/ 1972م.
- 18- إسماعيل باشا البغدادي: هدية العارفين - أسماء المؤلفين وأثار المصنفين من كشف الظنون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1992م.
- 19- أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، السعودية، (د.ت).
- 20- أمين سلامة: التاريخ الروماني، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، 1959م.
- 21- برهان الدين دلو: جزيرة العرب قبل الإسلام، دار الفارابي، بيروت، لبنان، 1989م.
- 22- بطرس البستاني: أدياء العرب في الجاهلية و صدر الإسلام، دار مارون عبود، بيروت، لبنان، 1979م.
- 23- بروتوكولات حكماء صهيون: ط1، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية، الجزائر، 1990م.
- 24- بندلي صليبيا الجوزي: دراسات في اللغة والتاريخ الاقتصادي والاجتماعي عند العرب، جمع وتقديم جلال السيد وناجي علوش، ط1، دار الطليعة، بيروت، لبنان، 1977م.
- 25- توفيق برو: تاريخ العرب القديم، ط1، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، 1984م.

- 26- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الأجزاء 2، 3، 4، 5، 6، 8، ط3، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1980م.
- 27- // // : تاريخ العرب في الإسلام، ط1، مكتبة النهضة العربية، بغداد، العراق، 1983م.
- 28- جورج زيدان: العرب قبل الإسلام، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1966م.
- 29- // // : تاريخ التمدن الإسلامي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، (د.ت).
- 30- // // : تاريخ آداب اللغة العربية، مج1، 2، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت، لبنان، 1983م.
- 31- جودت السعد: أوام التاريخ اليهودي، ط1، الأهلية للنشر، عمان، الأردن، 1998م.
- جمال محمد سعيد: بنو إسرائيل في العصور الغابرة، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، مصر، (د.ت).
- 32- حافظ وهبة: جزيرة العرب في القرن العشرين، ط4، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، 1961م.
- حسين الحاج حسن: حضارة العرب في عصر الجاهلية، ط3، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1997م.
- 33- حسن ظاظا: الفكر الديني اليهودي، أطواره ومذاهبه، ط4، دار القلم، دمشق، سوريا، الدار الشامية، بيروت، لبنان، 1999م.
- 34- حسين الشيخ: الرومان، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر ، (د.ت).
- 35- حلمي محروس إسماعيل: الشرق العربي القديم وحضاراته، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، 1997م.
- 36- حنا الفاخوري: تاريخ الأدب العربي، ط9، المطبعة البوليسية، بيروت، لبنان، 1978م.
- 37- خالد فائق العبيدي: الآثار والتاريخ، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2005م.
- 38- خليل سركيس: تاريخ القدس المعروف بتاريخ أورشليم: ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، 2001م.
- 39- رشيد الناضوري: المدخل في التطور التاريخي للفكر الديني، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1969م.
- 40- رفاتيل نخلة اليسوعي: غرائب اللغة العربية، ط3، دار المشرق، بيروت، لبنان، 1984م.
- 41- رحمة الله الهندي: إظهار الحق، ج1، 2، ط1، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1988م.
- 42- زكريا صيام: دراسة في الشعر الجاهلي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984م.
- 43- سيد قطب: في ظلال القرآن، ط12، دار الشروق، بيروت، لبنان، 1986م.
- 44- السيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب في عصر الجاهلية، ج1، دار النهضة، بيروت، لبنان، 1967م.

- 45- السيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب قبل الإسلام، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، (د.ت).
- 46- سعيد الأفغاني: أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، دار الفكر، دمشق، سوريا، 1960م.
- 47- سعدون محمود الساموك: مقارنة الأديان، ط1، دار وائل للنشر، عمان، الأردن، 2004م.
- 48- سعد الدين محمد الجيزاوي: دراسات في الأدب العربي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، مصر، (د.ت).
- 49- سعد زغول عبد الحميد: في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1975م.
- 50- سليمان مظهر: قصة الديانات، ط2، عربية للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 2002م.
- 51- شفيق الجراح: دراسة في تطور الحقوق الرومانية ومؤسستها، المطبعة الجديدة، دمشق، سوريا، 1978م.
- 52- شوقي ضيف: العصر الجاهلي، ط11، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1960م.
- 53- طه حسين: من تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي والعصر الإسلامي، ط3، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1978م.
- 54- عباس محمود العقاد: إبراهيم أبو الأنبياء، دار الهلال، القاهرة، مصر، (د.ت).
- 55- // // // : الله، كتاب في نشأة العقيدة الإلهية، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، (د.ت).
- 56- عبد اللطيف أحمد علي: مصادر التاريخ الروماني، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1970م.
- 57- عبد الغني عبد الرحمن محمد: مكة أم القرى لماذا؟ ط1، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، 1990م.
- 58- عبد الرحمن الطيب الأنصاري: الجزيرة العربية قبل الإسلام، ط1، مطابع جامعة الملك سعود، الرياض، السعودية، 1984م.
- 59- عبد الفتاح عبد المحسن الشطي: شعراء إمارة الحيرة في العصر الجاهلي، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 1998م.
- 60- عبد القدوس الأنصاري: الكعبة أسماء و عمارات ومعبد لا معبودا وتاريخا قبل الإسلام، ط1، مطابع جامعة الملك سعود، الرياض، السعودية، 1404هـ / 1984م.
- 61- عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسي للدولة العربية، ط4، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، 1967م.
- 62- عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء، مكتبة رحاب، الجزائر، 1987م.

- 63- عصام الدين محمد علي: وقفة بين أصحاب الديانات وأنصار المذاهب، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، 1990م.
- 64- علي أحمد الخطيب: الشعر الجاهلي بين الرواية والتدوين، ط1، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، مصر، 2003م.
- 65- علي الجندي: في تاريخ الأدب الجاهلي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 1998م.
- 66- // // : عيون الشعر العربي القديم، ج1، المعلمات السبع، دار غريب لطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2000م.
- 67- عمر رضا كحالة: جغرافية شبه جزيرة العرب، تعليق أحمد علي، ط2، مكتبة النهضة الحديثة، القاهرة، مصر، 1964م.
- 68- // // // : معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، ط7، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1994م.
- 69- // // // : معجم المؤلفين، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1993م.
- 70- عمر فروخ: تاريخ الجاهلية، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1964م.
- 71- // // // : تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون، ط3، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1972م.
- 72- // // // : تاريخ الأدب العربي، ط4، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1981م.
- 73- // // // : العرب في حضارتهم وثقافتهم، ط2، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1981م.
- 74- فؤاد علي رضا: أمثال العرب، ط1، دار العودة، بيروت، لبنان، 1977م.
- 75- فيليب حتي: خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى القديم، ط1، الدار المتحدة للنشر، بيروت، لبنان، 1975م.
- 76- لطفي عبد الوهاب يحي: العرب في العصور القديمة، ط2، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1979م.
- 77- لويس شيخو: شعراء النصرانية قبل الإسلام، ط2، دار المشرق، بيروت، لبنان، 1967م.
- 78- // // // : النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، (د.ت.).
- // // // : مجاني الأدب في حدائق العرب، ج4، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، 1956م.
- 79- محمد أبو زهرة: محاضرات في النصرانية، ط3، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، 1961م.
- 80- // // // : تاريخ الجدل، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، 1960م.

- 81- محمد أحمد جاد المولى وآخرون: أيام العرب في الجاهلية، دار الجيل ، بيروت، لبنان، 1408هـ/ 1988م.
- 82- // // // // // : قصص القرآن، دار الجيل ، بيروت، لبنان، (د.ت).
- 83- محمد أحمد الحاج: النصرانية من التوحيد إلى التثليث، ط1، دار القلم، دمشق، سوريا، 1992م.
- 84- محمد أبو المحاسن عصفور: معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم، ط3، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1984م.
- 85- محمد إبراهيم الفيومي: تاريخ الفكر الديني الجاهلي، ط5، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1999م.
- 86- محمد الصغير غاتم: الملامح الباكورة للفكر الديني في شمال إفريقيا، دار الهدى، عين اميلية، الجزائر، 2005م
- 87- محمد زغلول سلام: مدخل إلى الشعر الجاهلي، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، 1989م.
- 88- محمد علي الصابوني: النبوة والأنبياء، دار الهدى، عين اميلية، الجزائر، 1979م.
- 89- محمد الخطيب: حضارة العرب في العصور القديمة، ط1، دار طلاس، دمشق، سوريا، 2005م.
- 90- محمد حسين فنطر: الحرف والصورة في عالم قرطاج، منشورات البحر المتوسط، مركز النشر الجامعي، تونس، 1999م.
- 91- محمد حسين هيكل: حياة محمد، ج1، موفم للنشر، الجزائر، 1994م.
- 92- محمد بيومي مهران: بنو إسرائيل، ج3، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 1999م.
- 93- // // : تاريخ العرب القديم، ج 2، ط11، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 2004.
- 94- // // : دراسات في تاريخ العرب القديم، ط2، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 2005م.
- 95- محمد ميروك نافع: عصر ما قبل الإسلام، ط2، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، 1952م.
- 96- محمد خليفة حسن أحمد: تاريخ الديانة اليهودية، ط1، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 1998م.
- 97- محمد عبد المعيد خان: الأساطير العربية قبل الإسلام، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، 2005م.
- 98- محمد مصطفى منصور: أبو ذؤيب الهذلي حياته وشعره، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2003م.

- 99- محمود فهمي حجازي: علم اللغة العربية "مدخل تاريخي مقارنة في ضوء اللغات السامية"، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، (د.ت).
- المطهر بن طاهر المقدسي: كتاب البدء والتاريخ، دار صادر، بيروت، لبنان، (د.ت).
- 100- نبيلة حسن محمد: في تاريخ الدولة العربية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 2003م.
- 101- نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم والعصر الجاهلي، المطبعة الجديدة، دمشق، سوريا، 1976م.
- 102- // // : تاريخ عصر الرسول والخلفاء الراشدين، مطبعة أبي العلاء، دمشق، سوريا، 1976م.
- 103- ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ط3، دار المعارف، بمصر، 1966م.
- 104- يحي محمد علي ربيع: الكتب المقدسة بين الصحة والتحريف، ط1، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، مصر، 1994م.
- 105- يوسف رزق الله غنيمه: نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، 2001م.
- 106- يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، (د.ت).
- 107- // // : مواقف بين الشعر والنقد، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 2003م.
- ب- المراجع العربية:**
- 1- إسرائيل ولفنسون، أبو ذؤيب: تاريخ اليهود في بلاد العرب، القاهرة، مصر، 1927م.
- 2- // // : تاريخ اللغات السامية، ط1، دار القلم، بيروت، لبنان، 1980م.
- 3- باتريسيا كرون: تجارة مكة وظهور الإسلام، ترجمة أمال محمد الروبي، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، 2005م.
- 4- باروخ سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة حسن حنفي، مراجعة فؤاد زكريا، ط2، دار الطليعة، بيروت، لبنان، 1971م.
- 5- ديتليف نيلسن وفرتز هومل: التاريخ العربي القديم، ترجمة فؤاد حسنين علي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، 1958م.
- 6- رينيه ديسو: العرب في سوريا قبل الإسلام، ترجمة عبد الحميد الدواخلي، ط2، دار الحداثة، بيروت، لبنان، 1985م.

- 7- سيد أمير علي: مختصر تاريخ العرب، ترجمة عفيف البعلبكي، ط2، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1967م.
- 8- سيديو (ل.أ.): تاريخ العرب العام، ترجمة عادل زعيتر، طبعة الحلبي، القاهرة، مصر، 1948م.
- 9- غوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، مصر، 1969م.
- 10- فون زودن: مدخل إلى حضارات الشرق القديم، ترجمة فاروق إسماعيل، ط1، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، سوريا، 2003م.
- 11- فيليب حتي: تاريخ العرب (مطول)، ترجمة ادوارد جرجي وجبرائيل جبور، ط4، دار الكشاف، بيروت، لبنان، 1965م.
- 12- كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ترجمة يعقوب بكر ورمضان عبد التواب، ج1، دار المعارف بمصر، 1975م.
- 13- // // : تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، ط5، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1968م.
- 14- موريس بوكاي: القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم "دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة"، ط2، مكتبة مذبولي، القاهرة، مصر، 2004م.
- 15- ويل ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، ج2، دار الجيل، بيروت، لبنان، (د.ت).
- 3- الموسوعات ودوائر المعارف:**
- 1- أحمد الشنتاوي وآخرون: دائرة المعارف الإسلامية، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1933م.
- 2- أحمد عبد الرزاق الحلفي: موسوعة الأعلام في تاريخ العرب والإسلام، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 2000م.
- 3- بطرس البستاني: دائرة المعارف، دار المعرفة، بيروت، لبنان، (د.ت).
- 4- جميل مدبك: موسوعة الأديان في العالم، دار النشر كريبس، بيروت، لبنان، 2001م.
- 5- حمد الجاسر: المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، السعودية، (د.ت).
- 6- شاهير نيب أبو شريح: موسوعة الأديان والمعتقدات، ط1، دار صفاء، عمان، الأردن، 2004م.
- 7- عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين، ط3، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1993م.

- 8- عبد المنعم الحفني: موسوعة فلاسفة ومتصوفة اليهودية، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، 1994م.
- 9- محمد فريد وجدي: دائرة معارف القرن العشرين، ج6، ط3، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1971م.
- 10- محمود محمد محفوظ وآخرون: الموسوعة العربية الميسرة، ج1، 2، 3، 4، ط2، دار الجيل، بيروت، لبنان، 2001م.
- 4- المعاجم والقواميس:
- 1- إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، ج2، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا، 1989م.
- 2- ابن عبد القادر الرازي: مختار الصحاح، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، 1986م
- 3- إسماعيل راجي الفاروقي ولويس لمياء الفاروقي: أطلس الحضارة الإسلامية، ترجمة عبد الواحد لؤلؤة، ط1، مطبعة العبيكان، الرياض، السعودية، 1998م.
- 4- خلف الجراد: معجم الفلاسفة المختصر، ط1، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1985م.
- 5- رفائيل نخلة اليسوعي: غرائب اللغة العربية، ط2، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، 1960م.
- 6- الزبيدي محمد مرتضى: تاج العروس، دار صادر، بيروت، لبنان، (د.ت).
- 7- زينب بنت علي بن حسين فواز العاملي: (ت 1332هـ / 1911م): معجم أعلام النساء المسمى الدر المنثور في طبقات ربات الخدور، تحقيق منى محمد زياد الخراط، ط1، مكتبة التوبة، الرياض، السعودية، 2000م.
- 8- سهيل زكار: المعجم الموسوعي للديانات والعقائد والمذاهب والفرق والطوائف والنحل في العالم، ط1، دار الكتاب العربي، دمشق، سوريا، 1977م.
- 9- عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، ط7، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1994م.
- 10- الفيروز آبادي: القاموس المحيط، دار العلم للجميع، بيروت، لبنان، (د.ت).
- 11- الفيومي، أحمد بن محمد المقري (ت 770هـ / 1368م): المصباح المنير، ج1، 2، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، (د.ت).
- 12- المرزباتي: معجم الشعراء، تحقيق سالم الكرنكوي، مكتبة القدسي، القاهرة، مصر، 1354هـ / 1935م.

- 13- محمد عبد الرحيم: معجم القبائل والأعلام والكنى، دار الراتب الجامعية، بيروت، لبنان، 2004م.
- 14- محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الأندلس، بيروت، لبنان، (د.ت).
- 15- محمد منير الدمشقي: المعجم المفهرس لآيات القرآن الكريم، دار التراث الإسلامي، باتنة، الجزائر، 1989م.
- 16- المنجد في اللغة والأعلام، ط 40، دار المشرق، بيروت، لبنان، 2003م.
- 17- نخبة من اللاهوتيين: قاموس الكتاب المقدس، ط6، منشورات المشعل، بيروت، لبنان، 1981م.
- 18- نخبة من الأساتذة: معجم أعلام الفكر الإنساني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 1984م.
- 5- الدوريات:
- 1- أحمد أمين: "عكاظ والمربد"، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مج1، ج1، مايو 1933م.
- 2- أنوليتمان: "لهجات عربية شمالية قبل الإسلام"، مجلة مجمع اللغة العربية الملكي، القاهرة، ج3، أكتوبر 1936م.
- 3- أنوليتمان: "بقايا اللهجات العربية في الأدب العربي"، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مج 10، ج1، ماي 1948م.
- 4- // // : "محاضرات في اللغات السامية، أسماء وأعلام"، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مج 10، ج2، 1948م.
- 5- // // : "أسماء الأعلام في اللغات السامية"، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مج11، ج1، ماي 1949م.
- 6- بندلي جوزي: "بعض اصطلاحات يونانية في اللغة العربية"، مجلة مجمع اللغة العربية الملكي، القاهرة، ج3، 1936م.
- 7- خليل يحي نامي: "أصل الخط العربي وتاريخ تطوره إلى ما قبل الإسلام"، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مج 10، ج1، ماي 1935م.
- 8- زياد مني: "بنو إسرائيل وليس اليهود"، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، العدد 63، 1998م.
- 9- سامي الأحمد: "نظرة في جغرافية شبه الجزيرة العربية"، مجلة العرب، العدد 7، 1969م.

- 10- صالح درادكة: "إيلاف قریش ملاحظات حول عوامل السيادة المكية قبل الإسلام"، دراسات تاريخية، العددان 17، 18، جامعة دمشق، سوريا، 1984م.
- 11- عبد الحليم علي محمد النجار: "من مباحث الهمزة العربية"، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مج 21، ج1، ماي 1959م.
- 12- // // // // : "في اللهجات العربية وأصول اختلافها"، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مج15، ج1، ماي 1953م.
- 13- عبد المنعم عبد الحليم سيد: "الهوية الثمودية في النقوش النبطية"، مجلة المؤرخ العربي، العدد 9، مج1، مارس 2001م.
- 14- فؤاد حسنين علي: "الدخيل في اللغة العربية"، مجلة كلية الآداب، جامعة فؤاد الأول، القاهرة، مج 10، ج1، ماي 1948م.
- 15- نجيب محمد البهبيبي: "البيئة التي نشأ فيها الشعر الجاهلي وتياراته الكبرى"، مجلة كلية الآداب، جامعة فؤاد الأول، القاهرة، مج 14، ج1، ماي 1952م.
- 16- نيكلسون: "تاريخ الأدب العربي"، ترجمة محمد حبشي، مجلة الرسالة، سنة 1937م.
- 6- الرسائل الجامعية:

- 1- الطاهر ذراع: الديانات القديمة في الحجاز قبل الإسلام من خلال المصادر العربية والكتب السماوية، رسالة ماجستير في التاريخ القديم، جامعة قسنطينة، 1990-1991م.
- 2- // // : المجتمع العربي القديم من خلال كتابات أصحاب السير والكتاب القدامى، أطروحة دكتوراه في التاريخ القديم، غير منشورة، جامعة منتوري، قسنطينة، 2002-2003م.
- 3- بن موفق بومدين: الهجرات اليمنية نحو الشرق الإفريقي وأثرها الحضاري، (الصومال- الحبشة- مصر) نموذجاً، رسالة ماجستير في التاريخ القديم، جامعة الجزائر، 2006-2007م.
- 4- سلوى بوشارب: مكة وعلاقتها بالحوضر الحجازية والدول المجاورة، رسالة ماجستير، في التاريخ القديم، جامعة منتوري، قسنطينة، 2007-2008م.

II- المصادر والمراجع باللغة الأجنبية:

1- المصادر:

- 1- Herodotus : The Histories, translation by Aubrey de Sélincourt, Tome III, Penguin Books, Middlesex, England, 1977.
- 2- Ibn Qotaiba : Introduction au livre de la poésie et des poètes, traduction et commentaire Gaudefroy- Demombynes, les belles lettres, Paris, 1947.
- 3- Strabo : The Geography of strabo, Translation by H.L.Jones, London, 1949.

4- **The New testament**, the university Press, Cambridge, England.

2- المراجع:

- 1- **Bertram, Thomas** : Les Arabes, Payot, Paris, 1946.
- 2- **Blachère, Régis** : Le problème de Mahomet, Presses universitaires de France, Paris, 1952.
- 3- **Caussin, De Perceval** : Essai sur l'histoire des Arabes avant l'islamisme, Paris, 1847.
- 4- **Dermenghem, Emille** : La vie de Mahomet, Paris , 1929.
- 5- **Diehl, Charles et Georges Marçais** : Histoire du moyen âge, tome3, « le monde Oriental de 395 à 1081 », Presses universitaires, Paris, 1936.
- 6- **Deputy Ministry of Antiquities and Museums** : An Introduction to Saudi Arabian Antiquities , 2nd édition, Riyadh, K. Saudi Arabia, 1999.
- 7- **Dussaud , René** : Les arabes en Syrie avant l'Islam, Paris, 1907.
- 8- **Février , James** : Histoire de l'écriture , Payot, Paris, 1959.
- Freud, Sigmund** : Moïse et le Monothéisme, traduction Anna Berman, 8^e édi, Gallimard, Paris, 1948.
- 9- **Gardet , Louis et Chikh Bouamrane** : Panorama de la pensée Islamique, Editions Sindbad, Paris, 1984.
- 10- **Gustave, Le Bon** : La civilisation des Arabes, IMAG, Syracuse, Italie, Sned, Algérie, 1969.
- 11- **Lammens, Henri**: La République Marchande de la Mecque, Beyrouth, 1906.
- 12- // // : La Mecque à la veille de l'Hégire, Beyrouth, 1924.
- 13- // // : Les Sanctuaires préislamiques dans l'Arabie occident -
- al, Imprimerie catholique, Beyrouth, 1926.
- 14- // // : L'Arabie occidentale avant l'Hégire, Imprimerie catho-
-lique, Beyrouth, 1928.
- 15- **Massé, Henri** : L'Islam , Librairie Armand Colin, Paris, 1930.
- 16- **O'leary, De Lacy** : Arabia before Muhammad, London, 1927.
- 17- **Philip, Hitti (K.)** : History of the Arabs, London, 1960.
- 18- **Ryckman, (G.)** : Les Religions Arabes Préislamiques, 2^e édition, Louvain, 1951.
- 19- **Watt, (W.M.)** : Mahomet à la Mecque, Payot , Paris, 1958.
- 20- // // : Mahomet à Médine, traduit par S.M Guillemin et F. Vaudou, Payot, Paris, 1959.

3- الموسوعات:

- **Houtsma, (TH.)**, et **autres** : Encyclopédie de l'Islam, Dictionnaire Géographique, Ethnographique et Biographique des peuples Musulmans, 2^e édition, Leyde- Paris, 1913.

4- المعاجم والقواميس:

- 1- **Attias, Jean Christophe et Esther Benbassa** : Dictionnaire de civilisation Juive, 2^e édition, Larousse- Bordas, Paris, 1998.
- 2- **Gaffiot , Felix** : Dictionnaire Abrégé Latin- Français illustré, librairie Hachette, Paris, 1936.
- 3- **Marcotte, (D.)** : Dictionnaire de la civilisation phénicienne, Brépois, 1992.
- 4- **Larousse Illustré**, Librairie Larousse, 1990.

5- الدوريات:

- 1- **Huzayyin (S.)** : « Changement Historique du climat et du paysage de l'Arabie du sud » , (Bulletin of the faculty of Arts, University of Egypt) , vol-III, Part.1, May 1935.
- 2- **Lammens (H.)** : « Les Ahabiches et l'organisation militaire de la Mecque au siècle de l'Hégire » , Journal Asiatique , T.VIII, Novembre 1916.
- 3- **Lammens (H.)**: « Les chrétiens à la Mecque à la veille de l'Hégire » , Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie orientale, le Caire , Egypte, T.XIV, 1918.
- 4- // // : « Les Juifs à la Mecque à la veille de l'Hégire » , Recher – ches de Science Religieuse, T.VIII, 1918.
- 5- Ziad Mouna : « Jews are not Israelites » , Arab journal for the humanities, Kuwait university, N°63, 1998.

الفهارس

أولاً: فهرس الآيات الكريمة

ثانياً: فهرس الأحاديث النبوية

ثالثاً: فهرس الأعلام

رابعاً: فهرس الأماكن والبلدان

خامساً: فهرس القبائل والشعوب

سادساً: فهرس الأئمة والمعابدات

سابعاً: فهرس الموضوعات

أولاً : فهرس الآيات القرآنية

الصفحة	رقمها	نص الآية
-البقرة-		
157-24	127	﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ...﴾
145	135	﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا...﴾
146	140	﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ...﴾
153	258	﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ...﴾
154	45	﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ...﴾
170	113	﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ...﴾
170	120	﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ...﴾
214-171 288	62	﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى...﴾
171	111	﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا...﴾
171	135	﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا...﴾
171	140	﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ...﴾
171	146	﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ...﴾
171	118	﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ...﴾
179	248-247	﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلَكًا...﴾
181	178	﴿أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ...﴾
182	237	﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى...﴾
202	78	﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ...﴾
- آل عمران -		
157-15	97-96	﴿إِنْ وَرَّ بَيْتٍ وَضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَيْكَةِ...﴾
61	184	﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ...﴾
147-143 171-162	67	﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا...﴾
173	93	﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ...﴾

177	65	﴿أَهْلَ الْكِتَابِ لَمْ تَحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ ...﴾
214-212	52	﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ...﴾
218	39	﴿أَنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكَ بِحَيِّسَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ ...﴾
222	49	﴿وَأَنْبِئْكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ ...﴾
225-224	55	﴿ذَقَالَ اللَّهُ يَعْيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ...﴾
229	73-72	﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا ...﴾
- النساء -		
150	125	﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ...﴾
224-223 225	157	﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ ...﴾
- المائدة -		
74	110	﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ ...﴾
171	18	﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ ...﴾
177	68	﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ...﴾
181	45	﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ...﴾
215	14	﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ...﴾
221	6	﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ بَيْنِي إِسْرَائِيلَ ...﴾
221	115-110	﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ أَذْكَرٌ نِعْمَتِي ...﴾
224	117	﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ...﴾
241-240	73-72	﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ...﴾
245	116	﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ...﴾
245	75	﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ ...﴾
251	3	﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَمْيَتُهُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ ...﴾
251	90	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ ...﴾
254	103	﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ ...﴾

- الأنعام -		
15	92	﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ ...﴾
68	109	﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ...﴾
150-148	74	﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرِ...﴾
150	83	﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ ...﴾
152	75	﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ ...﴾
152	79-76	﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا...﴾
224	60	﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ ...﴾
245	101	﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ...﴾
282-279	100	﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ ...﴾
- الأعراف -		
165	175	﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا ...﴾
185	148	﴿وَاتَّخَذَ قَوْمٌ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا ...﴾
185	152	﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيِّئًا لَّهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ ...﴾
250	138	﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ ...﴾
279	194	﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ ...﴾
- التوبة -		
44	70	﴿لَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ ...﴾
151	114	﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ...﴾
215-184	30	﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ...﴾
- يوسف -		
174	10	﴿قَالَ قَاتِلْ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ...﴾
- إبراهيم -		
9-4 156-23	37	﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ...﴾
39	4	﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ ...﴾
250	35	﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا ...﴾

- الحجر -		
د	9	﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ...﴾
- النحل -		
9	81	﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا...﴾
16	112	﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً...﴾
- الإسراء -		
61	55	﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ...﴾
282	57	﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ...﴾
282	40	﴿فَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا...﴾
- الكهف -		
183	5	﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ...﴾
- مريم -		
150	43-41	﴿وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا...﴾
150	46	﴿قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ...﴾
150	48-47	﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي...﴾
222-217	21-16	﴿وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَدَّتْ...﴾
218	25-22	﴿فَحَمَلَتْهُ فَاتَّبَعَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا...﴾
219	33-27	﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا...﴾
- الأنبياء -		
150	51	﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ...﴾
151	58	﴿فَجَعَلْنَاهُمْ جُذُودًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ...﴾
151	59	﴿مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ...﴾
151	63-62	﴿قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ...﴾
152	54-53	﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ...﴾
152	70-68	﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ...﴾
221	91	﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا...﴾

250	57	﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ...﴾
-الحج-		
155	26	﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ...﴾
158-157	27	﴿وَإِذْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا...﴾
288	17	﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ...﴾
-المؤمنون-		
220	50	﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً...﴾
-الشعراء-		
74	227-221	﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ...﴾
74	212-210	﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ...﴾
151	71-69	﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ...﴾
250	71	﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُ لَهَا عَاقِبِينَ...﴾
- النمل -		
17	91	﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ عَبَّدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ...﴾
279	23	﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ...﴾
- القصص -		
17	85	﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ...﴾
- العنكبوت -		
141	67	﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا...﴾
151	16	﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ...﴾
152	25	﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا...﴾
- الروم -		
153	32-30	﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا...﴾
-لقمان-		
64	27	﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ...﴾
-سبأ-		
279	41	﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ...﴾

281	40	﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ...﴾
-الصفات-		
154	101-100	﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ...﴾
155	112	﴿وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ...﴾
282	149	﴿فَأَسْتَفْتِهِمُ الرَّبُّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ...﴾
-الزمر-		
224	42	﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا...﴾
249	3	﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ...﴾
-فصلت-		
د	42	﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ...﴾
-الشورى-		
15	7	﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا...﴾
-الزخرف-		
282	16-15	﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا...﴾
-الأحقاف-		
95	7	﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ...﴾
-الفتح-		
16	24	﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ...﴾
-الطور-		
62	3-1	﴿وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مُسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَنشُورٍ...﴾
118	29	﴿فَذَكَرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ...﴾
-النجم-		
265-258	20-19	﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى...﴾
7-268	22-21	﴿لَكُمْ الذِّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ * تِلْكَ إِذَا قَسَمْتَ لِي...﴾
-الصف-		
212	14	﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ...﴾

-الجمعة-		
177	5	﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا...﴾
- القلم -		
64	1	﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ...﴾
-الحاقة-		
-95-74 118	43-40	﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ...﴾
-نوح-		
274-271	23-21	﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي...﴾
-الجن-		
281	6	﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ...﴾
-الطارق-		
290	3-1	﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ...﴾
-الفجر-		
44	9	﴿وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ...﴾
-البلد-		
17	2-1	﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حَلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ...﴾
-التين-		
17	3-1	﴿والتينِ والزيتونِ * وطورِ سينينِ...﴾
- العلق -		
64-49	5-1	﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ...﴾
- الفيل -		
264	5-1	﴿تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ...﴾
- قريش -		
33	2-1	﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ...﴾

ثانيا : فهرس الأحاديث:

الصفحة	نص الحديث
13	« إن الله حبس على مكة الفيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنين »
95	«كلمة نبيّ ألقيت على لسان شاعر: إن القرين بالمقارن مقتد »
96	« لشعرك أشد عليهم من وقع النبال »
112	« رأيتَه بسوق عكاظ على جمل أحمر »
115	« هذا سيد أهل الوبر »
120	« اليوم أول يوم انتصفت فيه العرب على العجم، وبني نصرنا »
148	« يلقى إبراهيم أباه أزر يوم القيامة، وعلى وجه أزر قتره وغبرة »
152	« لما ألقى إبراهيم في النار، قال: اللهم إنك في السماء واحد، وأنا في الأرض واحد أعبدك »
156	« يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم، أو قال: لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينا معينا »
165	« آمن شعره وكفر قلبه »
166	« رحم الله قسا، أما إنه سيبعث يوم القيامة أمة واحدة »
168	« كانت أمثالا كلها »
183	« ألم أتكم بها بيضاء نقية، والله لو أن موسى كان حيا ما وسعه إلا إتباعي »
185	« أن الله خلق آدم بيده، وخلق جنّة عدن بيده، وكتب التوراة بيده، فثبت لها بذلك اختصاص »
254	« أكنتم رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف يجر قصبه في النار »
287	« لا حمى إلا لله ورسوله »

ثالثا: فهرس الأعلام

أسماء الأعلام	الصفحة:
(أ)	
إبراهيم (عليه السلام)	د، 19، 22، 23، 26، 144، (147)، 148، 152، 153، 154، 155، 156، 157، 158، 160، 168، 172، 174، 177، 252.
أبرهة الحبشي	د، 34، 264.
أبرهة بن الصباح الحميري	د، 34، 264.
ابن الأثير	ط، ي، 223، 239.
ابن اسحاق	ز، ط، 254.
ابن بطوطة	5.
ابن البطريق	234.
ابن تيمية	246.
ابن جني	ك، 37.
ابن حوقل	و.
ابن حجر العسقلاني	ي.
ابن حزم	ح، 228.
ابن حبيب	131، 137، 138، 140، 160، 164، 259، 266، 268، 270، 273.
ابن خرداذبة	و.
ابن خلدون	ز، ح، 37، 40، 67.
ابن دريد	16، 164، 165، 285.
ابن رشيقي	67، 69، 73، 84، 87، 95، 101.
ابن السكيت	63.
ابن سيده	ك، 88.
ابن سلام الجمحي	70، 87.
ابن سعد	ز.
ابن صعب (شق)	117.
ابن عبد البر	ي.
ابن عباس	ح، 148، 225.

ابن قتيبة	ي، 69، 70، 88، 95، 100.
ابن قيم الجوزية	241.
ابن الكلبي	ز، 50، 247، 248، 251، 253، 258، 261، 264، 270، 271، 272.
ابن كثير	ط، 147، 148، 154، 155، 164، 216، 225، 253.
ابن منظور	ك، 14، 18، 66، 88، 104، 109، 170، 210، 214، 247، 248، 259، 272، 276.
ابن النديم	و، 49، 64، 279.
ابن هشام	و، 14، 17، 32، 117، 144، 162، 164، 249، 258.
الأزرقي	ح، 17، 19، 31، 126، 130، 156، 158، 160، 252، 259، 265، 269، 285، 287.
الأسد آبادي	240.
الاسكندر المقدوني	216.
الأعشى	ك، 63، 76، 82، 84، 86، 87، 93، 129، 249.
الأقرع بن حابس	125، 128.
الألوسي	50، 66، 145، 169، 256، 280، 283.
أبو البقاء بن ضياء	18.
أبو تمام	ي، 73، 121.
أبو الحسين مسلم	هـ.
أبو ذر الغفاري	274.
أبو ذؤيب الهذلي	61، 100، 103، 104، 129، 134.
أبو زيد القرشي	ي.
أبو سفيان	29، 126.
أبو عبد الله محمد	هـ.
أبو عامر صيفي	164.
أبو علي القالي	ك، 117.
أبو الفداء	223، 234.
أبو هريرة	254.
أبو هلال العسكري	ك، 74.

18.	أبو مطر الحضرمي
264.	أبيفانيوس
243، 244.	أبيون
م.	أحمد إبراهيم الشريف
68.	أحمد أمين
75.	أحمد حسن الزيات
م، 153، 196، 197، 203، 238.	أحمد سوسة
229، 230.	أحمد شلبي
48، 143، 186، 283.	آدم (عليه السلام)
197.	أرسطو
237، 238.	أريوس الاسكندري
(147)، 148.	آزر
د، ك، 19، 23، 24، 25، 26، 39، 49، 148، (155)، 156، 174، 184، 209، 252.	إسماعيل (عليه السلام)
269.	إساف بن لغني
49.	أسلم بن سدرة
155.	إسحاق
266.	إسحاق الأنطاكي
(160)، 167.	أسعد أبو كرب
122.	أسماء بنت عوف
113، 114، 120.	أكثم بن صيفي
132.	أكيد العبادي
66، 70.	ألورد
21.	ألويس موصل
ك، 47، 63، 70، 72، 78، 81، 84، 87، 89، 90، 91، 117، 133، 286.	أمرؤ القيس
ك، 94، 164، 165، 282، 283.	أمية بن أبي الصلت
33، 116.	أمية بن عبد شمس
274.	أنعم بن عمرو المرادي

198.	أنطيوخوس أبيفانوس
34، 203.	أوليري
121.	إياس بن قبيصة
ل.	إيليو س جالوس
(ب)	
9.	باتريسيا كرون
هـ ، 148.	البخاري
170، 175، 178، 205، 288.	بختنصر (نبوخذنصر)
ح.	البلاذري
266.	بروكوبيوس
96.	بغض
6، 20.	بطليموس
50، 99.	بطرس البستاني
2، 6.	البكري
39، 50، 51، 56، 65، 66، 68، 71، 96، 100.	بلاشير رجيس
و ، 200.	بليوس
279.	بلقيس بنت مشرح
65.	بندي جوزي
234.	بوست
45، 52.	بوركهارت
188، (227)، 228، 229، 232، 236، 242، 243.	بولس (الرسول)
(194).	البيروني
223.	بيلاطس
193.	بيركوفيتز
(ت)	
148.	تارح
82، 280.	تأبط شرا
ك.	التبريزي
226.	تراجان

تباريوس قيصر	(216).
تيتوس	204.
(ث)	
ثاوفيلس	235
(ج)	
جابر بن حني	212.
الجاحظ	ي، 39، 63، 69، 72، 110، 112، 113، 116، 279.
جبريل (عليه السلام)	156، 157، 158، 160، 211، 217، 223.
جريبة بن الأشيم	115.
جميل بثينة	87.
الجلندي المستكبر	136، 137.
جواد علي	ل، 20، 66، 146، 167، 202، 212، 243، 260، 266، 270، 273.
جورجي زيدان	م، 14، 66، 73، 75، 275، 276.
جوسن	54.
جون كريستوف أتياس	ع، 200.
جيمس فيفري	ن، 43، 44، 45، 48، 52، 59، 62، 65.
(ح)	
حبيبة بنت سفيان	163.
حبش	8.
الحارث بن كعب	266.
الحارث بن حلزة	60، 62.
الحارث بن عباد	83.
الحارث بن عوف	85، 119.
الحارث بن عمرو	115.
حاتم الطائي	(213).
حسان بن ثابت	ك، 64، 86، 100، 129، 213، 266.
حرب بن أمية	18، 50، 110.
حرملة أخ المرقش	122.

21.	حزقيا
ل.	حزقيال
ع.	حزبن سليمان
ك، 84، 86، 96، 97.	الحطيئة
265.	حمو رابي
201.	حنانيا بن داود
111.	حنظلة بن ضرار
(خ)	
30.	خالد بن الوليد
121.	خالد بن يزيد الشيباني
258.	خزيمة بن مدركة
س، 51، 65.	خليل يحي نامي
116.	خنافر الحميري
100، 101، 129.	الخنساء
(د)	
21، 180، 196، 205.	داود
100، 102.	دريد بن الصمة
267	درهم بن يزيد الأوسي
71	دلافيدا (ليني)
(21)	دوزي
226.	دوقليانوس
252.	ديتليف نيلسن
226.	ديسيوس
47، 55، 261، 263.	ديسو (رينيه)
52، 54.	دي فوجي (الكونت)
6، 20.	ديودور الصقلي
(ذ)	
65.	ذورعين (معديكرب)
د، (276).	ذو نواس الحميري

الذهبي	ي.
(ر)	
الرازي	ك، 145، 241.
روبرتسون سميث	ن، 262، 275.
ربيعة بن حذار	111، 113.
ربيعة بن نصر	117.
ربيع بن ربيعة (سطيح)	117.
رحمة الله الهندي	188، 227، 246.
رفائيل نخلة	211، 248.
رودوكاناكيس	146.
الزبير بن بكار	ز.
الزبير بن عوام	ز.
الزبيدي	ك، 87، 124، 130، 132، 148، 210، 212، 247، 248.
الزبرقان بن بدر	65، 96.
زبراء	117.
الزرقاء بنت زهير	117.
زكريا	217.
الزمخشري	هـ، 145، 169، 225، 254.
زنوبيا	46.
الزوزني	ك، 63.
زياد منى	ع
زهير بن أبي سلمى	ك، 62، 64، 70، 84، 87، 92، 93، 96، 119، 167.
زينب بنت الطثرية	100.
زيد بن عمرو	162، 163، 164.
(س)	
سامي الأحمد	6.
سارة	153، 154، 155.
سابيلوس	244.
سابور ذي الأكتاف	(255)

54	سافينياك
ل، 6، 32، 53، 264.	سترابون
ن.	سعد زغلول عبد الحميد
42، 127، 128، 129.	سعيد الأفغاني
.111	سعد بن الربيع
.82	السليك بن السلكة
د، 22، 133، 175، 176، 196، 201.	سليمان بن داود
.116	سلمة بن أبي حية
.132	السموأل بن عاديا
.82	سويد بن أبي كاهل
.116	سواد بن قارب
.285، 271، 255، 247، 160.	السهيلي
.277، 135.	السويدي
.218	سيد قطب
ك، 40، 41.	السيوطي
.162	سيديو (ل)
(ش)	
.117	الشعناء
.(224).	شمعون الصفا (سمعان)
.21	شمعون بن يعقوب
.199، 198.	شماي
.79	الشنفري
.250، 43، 39.	شوقي ضيف
(145)، 150، 152، 164، 193، 210، 222، 224، 238، 239، .272، 269، 268، 267، 255، 241.	الشهرستاني
.283	شيث
(ص)	
ي، 60، 111، 122، 123، 129، 134، 163.	الأصبهاني
و، 5، 7، 135، 137، 138.	الاصطخري

صاعد الأندلسي	ط، 207.
الأصمعي	.66
صالح درادكة	س.
صخر بن عمرو	.101
صدوق بن أخطوت	.196
صفية بنت الحضرمي	.164
(ط)	
طالوت (شاؤول)	.179
الطبري	هـ، ج، ط، 17، 32، 143، 149، 168، 169، 251، 269.
الطاهر زراع	ع.
الطبرسي	.278، 277، 276، 145
طسم	.133
طرفه بن العبد	ك، 62، 70، 78، 79، 82، 84، 88، 96، 98.
طريفه	.117
طه حسين	.71، 66
(ظ)	
ظالم بن أسعد	.265
(ع)	
عامر بن جذرة	.51، 49
عامر بن الظرب	.283
عباس بن مرداس	.274
عبد الله بن عبد المطلب	.260، 34
عبد الله بن سبأ	.229
عبد الله بن الصمة	.102
عبد الله بن عنمة	.65
عبد الله بن زيد	.134
عبيد الله بن جحش	.163، 162
عبد العزيز سالم	م.
عبد عمرو	.98

عبد شمس	28، 32، 34.
عبد قصي	31.
عبد الدار	29، 30، 31، 32.
عبد العزى	29، 31.
عبد العزيز بن ربيعة	269.
عبد القادر بن عمر	ك، 131.
عبد القادر الرازي	271.
عبد مناف	30، 31، 32، 33.
عبد المطلب بن هاشم	28، 29، 32، 34، 110.
عبد الملك بن هشام	ز.
عثمان بن الحويرث	162، 163.
عدي بن زيد	61، 64، 84، 94، 119.
عزرا	ل، 184، 197، 198.
عروة بن الورد	82، 92.
عكب	123.
عكرمة بن أبي جهل	250.
علقمة بن عبدة	70، 91.
علقمة بن علاثة	111.
عمران بن الحصين	170.
عمر بن أبي ربيعة	266.
عمر فروخ	م، 14، 66، 172.
عمر بن عبد العزيز	د.
عمر بن الخطاب	163.
عمرو وبن الأهم	113.
عمرو بن كلثوم	ك، 83، 99، 111، 129.
عمرو بن يربوع	279.
عمرو بن هند	62، 113.
عمرو بن لحي	29، 162، 253، 255، 256، 259، 262، 264، 267، 268، 270، 271، 286، 287.

85،	عمر بن الحارث
.80	عميرة بن جعل
.201	عنان بن داود
.70، 82، 89، 119.	عنتره العبسي
.271	عوف بن عذرة
.115	عوف بن محلم
.117	عوف بن ربيعة
د، 187، 202، 215، 216، 218، 219، 222، 223، 225، 229، 230، 231، 239، 245.	عيسى
(غ)	
.274	غاوي بن ظالم
ن، 15.	غوستاف لوبون
.228	غمالائيل
.117	الغبطة القرشية
(ف)	
.18، 121.	الفاسي (تقي الدين)
.117	فاطمة الخثعمية
.270	الفاكهي
.170	الفخري
.68	الفراهيدي
.8	الفزاري
ع.	فليكس غافيو
ك، 61.	الفيروزآبادي
.76	فيرجيل
.200	فيلون الاسكندري
.65	فؤاد حسنين علي
(ق)	
.283	قابيل
.73	قدامة بن جعفر

هـ، 224.	القرطبي
100، 112، 129، 165، 166.	قس بن ساعدة الإيادي
191، 226، 237.	قسطنطين
ن، 22، 23، 25، 26، 27، 28، 30، 31، 32، 33، 34، 126، 287.	قصي بن كلاب
13، 125، 131، 134.	القفشندي
91.	قيس بن الخطيم
112.	قيس بن خارجة
114.	قيس بن عاصم
111.	قيس بن شماس
ك، 90.	قيس بن الملوح
(ك)	
20، 39، 65، 68، 70.	كارل بروكلمان
117.	كاهنة ذي الخصة
117.	الكاهنة السعدية
87.	كثير عزة
(243)	الكسائي
ن، 22، 121.	كوسان دي بروسيفال
34، 61، 120، 134.	كسرى أنو شروان
110.	كعب بن لؤي
233.	كلاود يوس
100.	كليب بن ربيعة
45.	كورنيليوس بالما
(ل)	
ن، س، 31، 60، 166.	لامنس (هنري)
ك، 62، 63، 113.	لبيد بن أبي ربيعة
60.	لقيط بن يعمر
153.	لوط
ل، 187، 235.	لوقا

ط، 166، 167.	لويس شيخو
ح.	لوفي بروفنسال
.71	ليال (جيمس)
.56	ليتسبرسكي
س، 46، 52، 56، 57، 65.	ليتمان (أنو)
(م)	
.17، 13.	الماوردي
.72	ماسينيون
.22	ماركيلينوس
.55، 47.	ماكلر
و.	مارسدن جونس
.239	المأمون
.116	المأمور الحارثي
.245، 244.	مارون (يوحنا)
ك.	المبرد
.123، 122.	المتجردة
.92	المتلمس
.103، 100.	متمم بن نويرة
ل، 187، 233، 243.	متى
.230، 34.	محمد (علي الله عليه وسلم)
م.	محمد أحمد جاد المولى
.234، 230، 188.	محمد أبو زهرة
.277، 272.	محمد عبد المعيد خان
.234، 177.	محمد علي ربيع
.193، 191، 21.	محمد بيومي مهران
.241	محمود محمد محفوظ
.133	المخبل
.122، 63.	المرقس الأكبر
ف.	ماركوت (د.)

ل، 187، 233، 243.	مرفس
ك.	المرزوقي
66، 70، 71، 202.	مرغليوث
49، 50.	مرامر بن مرة
ط.	المدائني
96، 98.	المزرد
د، 211، 216، 217، 218، 224، 228، 238، 240، 241، 243، 246.	مريم
94.	المرزباني
هـ.	مسلم
و، ط، 53، 144، 146، 164، 167، 242.	المسعودي
71.	مصطفى صادق الرافعي
50.	معاوية
87.	المعلى التيمي
ي، 66.	المفضل الضبي
و.	المقدسي
170، 212.	المقرزي
134.	المكعبر
153.	ملكا
ز.	المنصور
87.	المنذر بن ماء السماء
82، 83، 90، 122، 123.	المنخل اليشكري
133، 134.	المنذر بن ساوي
د، 168، 169، 176، 177، 178، 181، 182، 186، 189، 195، 205، 243.	المهلهل
ك.	الميداني
(ن)	
ك، 63، 70، 80، 84، 85، 86، 87، 89، 96، 104، 123، 128.	النابعة الذبياني
66	ناصر الدين الأسد

نبونيد	205، 206.
ناحور	.153
نائلة بنت ديك	.269
النجاشي الحارثي	.98، 96.
النجاشي	.110، 34.
نابت	.24
النجار (عبد الحليم)	.35
نجيب محمد إبراهيم	.185
نجيب محمد البهيتي	س.
النعمان بن الحارث	.104
النعمان بن المنذر	.123، 87.
النعمان أبو قابوس	.99
نسطوريوس	.239، 238.
نفيل بن عبد العزى	.110
النمرود	.153، 149.
نوفل بن عبد مناف	.34، 33، 29.
نولدكه	.274، 272، 266، 203، 146، 70، 66، 39.
نوح (عليه السلام)	د، 186، 252، 270، 271، 276، 278.
نيكلسون	.(121)، 72.
نيرون	.(226).
(و)	
الواقدي	و، ط، 178.
واط (مونتغمري)	.204، 146، 12.
ورقة بن نوفل	.163، 162.
ولفسون إسرائيل	.208، 65، 56.
ولهوسن بوليوس	ن، (167)، 261، 264.
وهب بن منبه	و.
(هـ)	
هاجر	ك، 23، 24، 154، 155، 156.

178، 195.	هارون (عليه السلام)
29، 32، 33، 34، 110، 116.	هاشم بن عبد مناف
204.	هادريان
137، 140.	هود (النبي)
254.	هذيل بن مدركة
85، 87، 119.	هرم بن سنان
113.	هرم بن قطبة
هـ، 7، 8، 9، 131، 135، 137، 138، 139.	الهمداني
111.	هانئ بن قبيصة
ل، 262، 263.	هيرودوت
(220).	هيردوس
76.	هوميروس
هـ، 7، 8، 9، 131، 135، 137، 138، 139.	الهمداني
198، 199.	هيلل
(ي)	
و، 5، 8، 9، 14، 16، 18، 130، 133، 134، 135، 136، 137، 138، 139، 140، 149، 204، 212، 259، 267، 268، 286.	ياقوت الحموي
201.	يروبعام بن سليمان
هـ ، 31، 131، 132، 133، 140، 145، 159، 163، 203، 208، 268، 270، 272، 277.	اليقوبي
173.	يعقوب (إسرائيل)
241، 242.	يعقوب البرادعي
221، 235.	يوحنا المعمدان (يحيى بن زكريا)
187، 188، 189، 233، 235، 236.	يوحنا (الرسول)
197.	يوحنا هاركانوس
د، ل، 174، 186.	يوسف (عليه السلام)
216، 217، 219.	يوسف النجار
197، 200، 205.	يوسيفوس فلافيوس

195.	يوشع بن نون
223.	يهوذا الاسخريوطي

رابعاً : فهرس الأماكن والبلدان

الصفحة	أسماء الأماكن
	(أ)
.117	أبين
.2	الأبلة
.27	أتينا
.186 ، 45 ، 6	الأردن
.12	الاسكندرية
.228	آسيا الصغرى
.239 ، 236	أفسس
.240	إفريقيا
.57 ، 54	أم الجمال
.50 ، 49	الأنبار
.240	الأندلس
.149	الأهواز
.149	أور
.233 ، 228 ، 219 ، 207 ، 196 ، 190 ، 175 ، 54	أورشليم
.12	إيطاليا
	(ب)
.139 ، 3	باب المنذب
.230 ، 216 ، 195 ، 194 ، 179 ، 153 ، 149	بابل
.134 ، 133 ، 127 ، 126 ، 125 ، 120 ، 40 ، 8	البحرين
.274 ، 131	بدر
.134 ، 132 ، 3	البصرة
.45	بصرى
.262 ، 45 ، 6	بطرا (البتراء)
.15	بعلبك
ز ، ح .	بغداد

البلقاء	164، 253، 255، 268، 272.
بولان	49.
بلاد الرافدين	60.
بيت المقدس	155، 212، 216، 219.
بيت لحم	212، 216، 218، 219، 220.
(ت)	
تبوك	43، 210
تبالة	286.
تدمر	45، 262، 290.
تهامة	7، 10، 117، 267، 271، 285، 288.
تيماء	43، 45، 132، 205، 207، 210، 248.
(ث)	
الأثداء	127.
(ج)	
جبل الدروز	45، 47، 56.
جبل لبنان	245.
جدة	2، 3، 11، 275، 277، 285.
جرش	117، 274، 275.
الجزيرة	239.
الجليل	221، 231، 236.
الجند	131.
الجودي	242.
الجوف	132.
(ح)	
حباشة	127، 130، 131.
الحبشة	م، 32، 34، 41، 42، 124، 139، 240، 242.
حجر اليمامة	124، 131، 132، 140.
الحجاز	ج، ز، ل، 2، 4، 7، 13، 35، 37، 39، 43، 44، 45، 49، 53، 54، 59، 73، 100، 125، 126، 130، 139، 155، 156، 160، 168،

203، 205، 206، 207، 209، 210، 248، 261، 265، 269، 276، 278، 288.	
24، 43، 45، 261، 262.	الحجر
206.	حدياب
ن، 51، 56، 65، 147، 149، 152.	حران
21.	حسمى
11، 124، 125، 126، 140، 160، 287.	حضر موت
44، 45، 54، 55.	حوران
196.	حولون
أ، 26، 40، 42، 47، 49، 50، 51، 266، 267، 269.	الحيرة
(خ)	
57، 207، 208، 210.	خيبر
(د)	
131، 132، 137.	دبي
س، 42، 45، 220.	دمشق
51، 124، 125، 131، 132، 133، 135، 210، 271.	دومة الجندل
43.	ديدان (العلاء)
(ذ)	
124، 127، 128، 130، 131، 141.	ذو المجاز
(ر)	
131، 140.	الرابية
266.	الرافدين
11.	الربع الخالي
ل، 236.	رومية
236، 241.	روما
273.	رهاط
(ز)	
ن، 51، 56، 65.	زبد
28، 29، 34، 156.	زمزم

زنجبار	.12
(س)	
السامرة	.175
سبأ	.277، 42
سرابيط الخادم	.58
السعودية	.132
إسرائيل (مملكة)	.194، 22
السماوة	.7
سلع	.56، 52، 45
السند	.139، 137
سورا	.190
السوس	.149
سوريا	.241، 194، 152، 144، 60، 54، 52، 6
السودان	.117
سيناء	.190، 186، 178، 58، 45، 44، 6، 3
(ش)	
الشام (بلاد)	ك، ل، 2، 3، 12، 26، 33، 34، 41، 43، 44، 60، 65، 126، 132، 133، 153، 154، 155، 164، 168، 210، 228، 265، 266
الشحر	.283، 137، 135، 131، 127
شط العرب	.2
الشعبية	.4
شكيم	.175
(ص)	
صحار	.136، 131
الصفا	.156
صفاة	.44
صفورية	.191
صقلية	.240
الصومال	.12

8، 124، 125، 131، 139، 278.	صنعاء
.45	صيدا
.137، 136	الصين
(ط)	
.42، 44، 126، 127، 158، 206، 261، 264، 267.	الطائف
.190	طبرية
.(228)	طرسوس
(ع)	
.190	عانة
.286	العبلاء
2، 3، 124، 125، 131، 135، 137، 138، 140.	عدن (أبين)
ل، 34، 47، 50، 60، 117، 133، 136، 168، 190، 191، 192، .272، 239	العراق
10، 29، 125، 130، 160، 253.	عرفات (عرفة)
7، 8، 58.	العروض
11، 13.	عسير
3، 132.	العقبة
ف، 41، 42، 66، 112، 119، 120، 124، 125، 126، 127، 128، .141، 131، 130، 129	عكاظ
8، 124، 125، 126، 127، 131، 134، 135، 137.	عمان
.194	عيلام
(غ)	
.8	غرينتش
.34	غزة
.123	غسان
.243	غور الأردن
(ف)	
34، 61، 134، 135، 139، 239.	فارس (بلاد)
.268، 207	فدك

39.	الفرات (إقليم)
4، 6، 12، 32، 54، 154، 157، 172، 180، 190، 191، 196، 203، 241.	فلسطين
(ق)	
س.	القاهرة
268.	قديد
230، 237، 238، 245.	القسطنطينية
190.	القدس
3.	القلزم (بحر)
190، 235.	قيصرية
(ك)	
50، 98، ز.	الكوفة
ع.	الكويت
(ل)	
52.	لندن
(م)	
م، 288.	مأرب
20.	ماكورابا
ز.	المدينة
42.	المدائن
43، 54.	مدائن صالح
52.	مدين
127، 128، 130، 131، 141.	مجنة
3.	مسقط
131، 133.	المشقر
6، 12، 41، 44، 104، 139، 154، 176، 210، 220، 239، 241، 242، 275.	مصر
274.	مراد
156.	المروة

مزدلفة	253.
معافر	139.
معان	21.
مكة	ذكرت في معظم فصول المذكرة.
منى	29، 130، 131.
الملايو	12.
الموصل	239، 242.
مؤاب	187، 253.
مهرة	126، 138.
(ن)	
نابلس	195، 196.
الناصره	211، 212، 213، 220.
نجد	ل، 4، 7، 10، 13، 39، 51، 126، 276.
نجران	د، 56، 117، 122، 131، 133، 166.
نظاة خيبر	131، 132، 140.
النماره	ن، 47، 53، 55، 65.
نهر دعه	190.
النوبه	240، 242.
نيقيه	230، 238.
(و)	
وادي عبقر	281.
وادي القرى	205، 207، 271.
زادي موسى	45.
الوركاء	149.
(هـ)	
هجر	8، 125، 126، 131، 134، 135.
الهند	12، 41، 124، 134، 137، 138، 139، 239.
الهند الصينيه	12.
هيت	272، 287.

(ي)	
ح، 10، 11، 40، 118، 120، 132، 204، 205، 206، 207، 208، 209، 210، 268.	يثرب
7، 8، 127، 134.	اليمامة
هـ، و، ل، 3، 4، 7، 13، 26، 32، 34، 41، 42، 47، 48، 49، 53، 73، 116، 118، 119، 125، 127، 130، 134، 135، 136، 138، 160، 208، 210، 269، 274، 275، 288.	اليمن
273.	ينبع
21، 22.	يهودا (مملكة)
12.	اليونان

خامسا : فهرس الشعوب والقبائل:

الصفحة	أسماء القبائل والشعوب
(أ)	
86.	أبناء عبد المدان
127، 32.	الأحابيش
47، 42.	الأحباش
203.	الأدوميون
6، 20، 42، 45، 46، 53.	الأراميون
242.	الأرمن
24، 131، 135، 159، 268، 269، 286.	الأزد
40، 99، 111، 117.	أسد
19.	الاسماعيليون
175، 194.	الآشوريون
267.	الإغريق
140.	آل مسروق
6، 25، 26، 45، 47، 54.	الأنباط
118، 204، 208، 268، 269.	الأوس
112، 160.	إياد
(ب)	
230، 261، 265، 269، 281، 284.	البابليون
286.	بنو أمية
153، 170، 179، 184، 186، 202، 218، 222.	بنو إسرائيل
202، 252.	بنو إسماعيل
140.	بنو آكل المرار
203، 276.	بنو أدوم
163.	بنو أسد بن خزيمة
29.	بنو أمية
86.	بنو أنف الناقة
98.	بنو ثعلبة

102.	بنو جشم
207، 208، 274.	بنو الحارث بن كعب
286.	بجيلة
267، 274.	بنو سليم
133.	بنو سدوس
30.	بنو سهم
273.	بنو صاهلة
266.	بنو حرمة بن مرة
19.	بنو عدنان
25.	بنو عذرة
272.	بنو الفرافصة
19.	بنو قحطان
203، 204، 208.	بنو قريضة
131، 203.	بنو قينقاع
119، 120، 259.	بنو بكر
164.	بنو لخم
43.	بنو لحيان
127.	بنو المصطلق
285.	بنو ملكات
203، 204، 208.	بنو النضير
272.	بنو وبرة
259.	بنو هبل (الهبلات)
34.	البيزنطيون
(ت)	
62، 83، 111، 118، 119.	تغلب
40، 113، 114، 120، 125، 128، 134، 159.	تميم
(ث)	
165، 261، 262، 263.	ثقيف
21، 43، 44، 46، 280، 281.	ثمود (الشموديون)

(ج)	
جذام	.208 ، 203
جرهم	.269 ، 262 ، 157 ، 39 ، 26 ، 24 ، 19
(ح)	
الحبش	.41
حمير	.286 ، 278 ، 237 ، 207 ، 42
الحميريون	.47 ، 34
(خ)	
ختعم	.286 ، 277
الخزرج	.269 ، 268 ، 208 ، 204 ، 118
خزاعة	.279 ، 268 ، 255 ، 127 ، 29 ، 26 ، 25 ، 24
خولان	.277
خيوان	.276
(ذ)	
ذبيان	.119 ، 118 ، 85 ، 62
ذو الكلاع	.277
(ر)	
ربيعة	.119 ، 118 ، 40
الرومان	ل ، 6 ، 25 ، 45 ، 47 ، 53 ، 197 ، 200 ، 223 ، 225 ، 234 ، 262 ، 263
الروم	م ، 34 ، 41 ، 42 ، 47 ، 124 ، 139 ، 234
(س)	
السبئيون	.278
الساميون	.37
(ش)	
الشمعونيون	.21
(ص)	
الصفويون	.266 ، 265 ، 262 ، 46 ، 44
(ض)	
ضبة	.159 ، 111

(ط)	
الطائيون	.40
(ع)	
عاد	.280
العبرانيون	ك، (172)، 207، 281.
عبس	.85، 102، 118، 119.
عبد القيس	.99
عدنان بن أد	.51
العدنانيون	.37
عدوان	.111
عضل	.127
عك	.285
العماليق	.19، 21، 205، 253.
(غ)	
غسان	.57، 132، 164، 208، 266، 268.
الغساسنة	.85، 118، 268.
غطفان	.112، 119، 127، 267.
الغطاريق	.269
(ف)	
الفرس	م، 41، 42، 47، 60، 112، 120، 124، 134.
فزارة	.102
الفنيقيون	.48، 263.
(ق)	
القحطانيون	.37
قريش	ز، ح، ن، 25، 26، 27، 29، 30، 31، 34، 35، 40، 41، 42، 47، 99، 112، 118، 126، 127، 140، 141، 159، 162، 259، 266، 267، 268، 269، 281، 285.
قضاة	.284
القوط	.238

قيس	40، 119، 159.
(ك)	
كلب	132، 259.
الكلدانيون	288.
كندة	140، 207.
كثانة	25، 40، 110، 119، 130، 207، 259، 267، 273، 276، 277.
كهلان	276.
(ل)	
اللاتين	5.
الليحيانيون	44، 46.
اللومبارديون	238.
(م)	
مذحج	274، 275.
مراد	122، 274.
مزينة	159.
المصريون	48، 275.
مصر	273.
المناذرة	34، 118، 267.
(ن)	
النبط	44، 45، 53، 262، 264، 266.
(هـ)	
هذيل	40، 130، 268، 273، 285.
همدان	276، 277، 278.
هوازن	126، 127، 286.
الهنود	134.
(ي)	
اليونانيون	ل، 5، 6، 75، 252، 253.

سادسا : فهرس المعبودات والآلهة:

الصفحة	أسماء الآلهة والمعبودات
(أ)	
262.	أثينا
287، 270، 269، 258.	إساف
263، 245.	أفروديت
263.	أورانيا
272.	إيروس
(ت)	
267.	تغنوت
275.	تموز
(ج)	
287.	الجلسد
(ذ)	
284.	ذات أنواط
290، 287، 286، 269.	ذو الخلصة
261، 53.	ذو الشرى
(س)	
285.	سعد
283، 278، 274، 273، 272، 270، 252.	سواع
289.	سين
(ش)	
289.	شمش
(ع)	
290، 265.	عثر
290، 267، 266، 265، 264، 259، 258، 76، 53.	العزى
291، 290، 267، 289، 265، 263، 261.	عشترت (عشتار)

(ف)	
.290، 289، 288، 267، 266، 263، 245	فينوس
(ل)	
ل، 53، 76، 164، 258، 259، 261، 262، 263، 264، 265، 266	اللات
.253	لاتون
(م)	
.290، 269، 261	مامناتو
.290، 269، 268، 267، 266، 263، 261، 53	مناة
.262	منيرفا
(ن)	
.287، 270، 269، 258	نائلة
.285	نخلة نجران
.283، 278، 277، 272، 252	نسر
.277	نشر (نشرا)
(و)	
.289، 283، 278، 272، 270، 252	ود
(هـ)	
.289، 287، 270، 269، 261، 260، 259، 258، 164، 76، 53، .290	هبل
.253	هرمس
(ي)	
.283، 278، 277، 276، 272، 270، 252	يعوق
.283، 278، 276، 275، 274، 272، 270، 252	يغوث

سابعاً : فهرس الموضوعات :

أص	مقدمة:-----
	الفصل الأول: البيئة الجغرافية والتاريخية في مكة:
02	المبحث الأول: موقع مكة وأهميته:-----
02	المطلب الأول: موقع مكة الجغرافي-----
08	المطلب الثاني: موقع مكة الفلكي.-----
09	المطلب الثالث: المناخ في مكة.-----
12	المطلب الرابع: أهمية موقع مكة.-----
13	المبحث الثاني: أسماء مكة ومعانيها:-----
19	المبحث الثالث: نشأة مكة وتطورها:-----
	الفصل الثاني: مكة ودورها الثقافي في شبه الجزيرة العربية:
37	المبحث الأول: اللغة:-----
48	المبحث الثاني: الكتابة:-----
65	المبحث الثالث: الشعر:-----
104	المبحث الرابع: النثر والقصص (أيام العرب):-----
124	المبحث الخامس: الأسواق:-----
	الفصل الثالث: مكة ودورها الديني في شبه الجزيرة العربية:
143	المبحث الأول: الديانة الحنيفية:-----
143	المطلب الأول: مفهوم الحنيفية.-----
147	المطلب الثاني: دعوة إبراهيم لأبيه ومناظرته لقومه.-----
153	المطلب الثالث : هجرات إبراهيم.-----
158	المطلب الرابع: طقوس الديانة الحنيفية وشعائرها.-----
169	المبحث الثاني: الديانة اليهودية:-----
169	المطلب الأول: مفهوم الديانة اليهودية.-----
186	المطلب الثاني: كتب الديانة اليهودية.-----
193	المطلب الثالث: الفرق والطوائف اليهودية القديمة.-----
202	المطلب الرابع: الوجود اليهودي في شبه الجزيرة العربية.-----
209	المبحث الثالث: الديانة المسيحية:-----

210	المطلب الأول: مفهوم المسيحية
215	المطلب الثاني: ظهور المسيحية وتطورها.
232	المطلب الثالث: الكتب المقدسة عند المسيحيين.
237	المطلب الرابع: الفرق المسيحية القديمة وظهورها بشبه الجزيرة العربية.
246	المبحث الرابع: الديانة الوثنية:
247	المطلب الأول: مفهوم الديانة الوثنية
252	المطلب الثاني: ظهور الوثنية وتطورها في شبه الجزيرة العربية
258	المطلب الثالث: أنواع المعبودات الوثنية
292	خاتمة:
298	الملاحق:
324	قائمة المصادر والمراجع :
348	الفهارس:
349	أولاً: فهرس الآيات القرآنية.
356	ثانياً: فهرس الأحاديث.
357	ثالثاً: فهرس الأعلام
374	رابعاً: فهرس الأماكن والبلدان
382	خامساً: فهرس القبائل والشعوب
387	سادساً: فهرس المعبودات والآلهة
389	سابعاً: فهرس الموضوعات



الموسومة: مكة ودورها الثقافي والديني في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين:

إعداد الطالب: ربيع عولمي، إشراف الدكتور الطاهر نراع.

وقد تم هيكلة المذكرة في ثلاثة فصول إضافة إلى مقدمة وخاتمة.

المقدمة: وتتضمن التعريف بالموضوع وأهميته، ودوافع اختياره، وأهمية الفترة المدروسة، ثم الإشكالية التي جاءت على شكل مجموعة من التساؤلات، ثم المناهج المعتمدة، فالصعوبات التي اعترضت الباحث، فعرض وتحليل لأهم المصادر والمراجع المعتمدة في البحث.

- **الفصل الأول:** وجاء تحت عنوان: **البيئة الجغرافية والتاريخية في مكة:**

ويتضمن عدة مباحث تتناول بالدراسة موقع مكة الفلكي والجغرافي وأهميته، وأهم المظاهر الطبيعية والمناخ والنبات وأثرها في حياة السكان، وأسماء مكة المختلفة ومعانيها، ثم تطرقت الدراسة إلى نشأة مكة وتطورها من عهد إبراهيم وابنه إسماعيل إلى منتصف القرن الخامس الميلادي مع ظهور قصي بن كلاب، وتطور مكة إلى حاضرة من أهم الحواضر في شبه الجزيرة العربية.

- **الفصل الثاني:** وعالج: **مكة ودورها الثقافي في شبه الجزيرة العربية:**

وقد قسم هذا الفصل إلى خمسة مباحث تضمنت دراسة اللغة والكتابة والشعر والنثر والأسواق العربية القديمة ودورها في إبراز ثقافة العرب قبل الإسلام في شبه الجزيرة العربية، وقد سمحت كل هذه المعالم ببروز مكة كعاصمة ثقافية في الجزيرة العربية عشية ظهور الإسلام.

- **الفصل الثالث:** وضبط بعنوان: **مكة ودورها الديني في شبه الجزيرة العربية:**

وقد ركزت الدراسة فيه على الديانات السماوية التوحيدية، والديانة الوثنية الوضعية وعلاقتها بمكة، وقسمته إلى أربعة مباحث.

فالدراسة تؤرخ لظهور الديانة الحنيفية في مكة من قدوم إبراهيم وابنه إسماعيل إليها وبناء البيت العتيق، أي خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر قبل الميلاد، وما بقي من طقوسها وشعائرها بين أوساط المجتمع المكي إلى أواخر القرن السادس الميلادي. ثم تطرقت إلى الديانة اليهودية وهي ثاني الديانات السماوية، في مبحث خاص تناول مفهومها لغة واصطلاحاً، والكتب المقدسة عند اليهود، كتب العهد القديم والعهد الجديد، كما عرضت تاريخ الوجود اليهودي في شبه الجزيرة العربية وعلاقتهم بمكة، ذكراً أهم الفرق والطوائف اليهودية القديمة كالسامريون والصدوقيون والفريسيون والحسيديون والقراءون، وأفردت مبحثاً خاصاً بالديانة المسيحية، عالجت فيه مفهومها لغة واصطلاحاً، وتاريخ ظهورها بالجزيرة العربية، مركزاً دراستي على المذاهب المسيحية التي ظهرت بمكة كاليقوبية والنسطورية، كما تناولت الكتب المقدسة عند المسيحيين بالدراسة والتحليل كإنجيل متى ومرقس ولوقا ويوحنا، وأرخت لظهور أهم المذاهب والفرق المسيحية القديمة بشبه الجزيرة العربية، كالنسطورية واليعقوبية والملكانية، وطوائف أخرى تفرعت عن هذه الفرق الكبرى كالناصريون والكسائيون والسبيليون والمارونية والبربرانية.

وختمت هذا الفصل بمبحث درست فيه الديانة الوثنية وظهورها وتطورها بالجزيرة العربية.

وتناولت الدراسة أنواع المعبودات الوثنية من أصنام وأوثان وعبادة الأرواح والجن والملائكة والأسلاف، وعبادة مظاهر الطبيعة المختلفة كالأشجار والصخور والآبار والينابيع، وعبادة الكواكب والنار.

الخاتمة: وقد حوصلت فيها بعض النتائج والاستنتاجات أذكر منها:

- إن تاريخ نشأة مكة وبناء البيت العتيق إنما يعود إلى الربع الأخير من القرن 19 قبل الميلاد أي منذ حوالي 1824 ق.م، حينما شارك النبي إسماعيل أباه إبراهيم في بناء الكعبة، وهذا ما يجعلها من أقدم الحواضر في شبه الجزيرة العربية.

- عرفت مكة منذ عهد قصي بن كلاب خلال منتصف القرن الخامس الميلادي، عدة مؤسسات سياسية واقتصادية واجتماعية ودينية، مثلت مظاهر حضارية لا تزال آثارها قائمة إلى اليوم، ومن أبرز هذه المؤسسات دار الندوة ودار الملاء.

- تفوقت اللغة العربية- لغة قريش- وهي اللغة السامية الأم، على سائر اللغات واللهجات السامية الأخرى في الجزيرة العربية لأسباب عدة سياسية واقتصادية ودينية في أواخر القرن السادس الميلادي.

- تؤكد النقوش التي عثر عليها المستشرقون أن الخط العربي اشتق من الخط الأرامي النبطي، ذلك أنهما يكتبان بحروف متصلة عكس الخط الحميري والعبري اللذان يكتبان بحروف منفصلة، فالتطور الحقيقي للكتابة العربية إنما يعود إلى أوائل القرن الرابع الميلادي، وهذا ما تؤكدته نقوش النمارة المؤرخة في سنة 328م، ونقش زبد المؤرخ في سنة 512م.

- آمن العرب بالديانات السماوية التوحيدية كالحنيفية واليهودية والمسيحية ، كما آمنوا بالديانات الوضعية كالوثنية التي انتشرت في مكة والحجاز وفي كامل الجزيرة العربية.

Résumé de Thèse de Magister

Cette thèse est représentée sous le titre de : « La Mecque et son rôle culturel et religieux dans la péninsule arabique avant l'Islam pendant, le V et VI siècles, av. J.C ».

Auteur : OULMI RABIE, Directeur de thèse : Dr. Tahar Drâa :

La thèse a été structurée en trois chapitres, plus l'introduction et la conclusion.

Introduction : elle comporte la définition du thème de l'étude et son importance, les causes de ce choix, l'importance de la période étudiée, la problématique posée sous forme de questions, les méthodes appliquées, les difficultés rencontrées par le chercheur, et enfin l'énumération et l'analyse des sources les plus importantes exploitées dans ce travail de recherche.

Chapitre I : sous le titre de : « Le milieu géographique et historique dans la Mecque ».

Il comporte trois sous- chapitres qui se penchent sur l'étude de la situation physique et géographique de la Mecque et leur importance, ainsi que les principaux reliefs, comme les grandes chaînes, les fleuves, le climat, la flore, et leurs effets sur la population.

Ce chapitre contient aussi les différents noms de la Mecque et leurs significations, l'institution de la Mecque et son évolution depuis l'ère d'Abraham jusqu'à l'apparition de «Qosaï Ibn Kilab », le fondateur de la cité-état de la Mecque au milieu du V^e siècle, ce qui a permis à la Mecque de devenir l'une des principales cités de la péninsule arabique.

Chapitre II : Intitulé : «le rôle culturel de la Mecque dans la péninsule arabique », il contient cinq sous-chapitres, et se concentre sur l'étude de la langue, l'écriture , la poésie arabe et les anciens marchés arabes, ainsi que leur rôle dans l'expansion de la culture arabe avant l'Islam dans la péninsule arabique.

Ce qui a fait de la Mecque une véritable capitale culturelle de l'Arabie à la veille de l'Islam.

Chapitre III : Il a pour objet l'étude du : « Rôle religieux de la Mecque dans la péninsule arabique ».

Il étudie les religions monothéistes telles que : « El Hanifia », sa définition, et son histoire depuis l'arrivée d'Abraham et son fils Ismaël à la Mecque et la construction de la « KAABA » pendant le dernier quart du XIX^e siècle av.J.C, ainsi que les traces de ces rites au sein de la société mecquoise jusqu'à la fin du VI^e siècle.

Cette étude concerne également le judaïsme, sa définition, ses livres saints, Ancien et nouveau testaments, ses doctrines, son histoire depuis l'arrivée des juifs au nord de la péninsule arabique, après la destruction de Jérusalem en 70, en se penchant notamment sur l'histoire de ses sectes tels que : les Samaritains, les Sadducéens , les Pharisiens , les Hasidiens, les Karaïtes.

Le 3^e sous chapitre entame l'étude du christianisme, sa définition, l'historiographie de ses doctrines, comme le Nestorisme, le Jacobinisme, le Monarchianisme.

Cette étude se conclut par la religion païenne, son apparition, son évolution, et les différentes formes d'idolâtrie, comme l'adoration des statues, la croyance aux esprits , aux démons, aux anges, aux ancêtres ainsi que les croyances animistes qui se manifestent dans les phénomènes naturels, les arbres, les pierres, les puits et les sources, sans oublier l'adoration des astres et du feu.

Conclusion : Résultats et déductions :

- L'institution de la Mecque et la construction de la « KAABA » débute à partir du dernier quart du XIX^e siècle av.J.C , depuis l'ère d'Abraham et son fils Ismaël, ce qui la place parmi les plus anciennes cités de la péninsule arabique.

- La Mecque a connu, depuis l'ère de « Qosai Ibn Kilab » au V^e siècle, différentes institutions politiques, économiques, sociales et religieuses qui ont eu des répercussions civilisatrices.
- Leurs empreintes sont restés gravées dans la société Mecquoise jusqu'à nos jours.
- La langue arabe-Dialecte de Koraich est la langue sémitique Mère. Elle a pris le dessus sur toutes les autres langues et dialectes sémitiques pour des raisons politiques, économiques et religieuses à la fin du VI^e siècle.
- Les inscriptions qui ont été découvertes par les orientalistes montrent que l'écriture arabe est dérivée des écritures araméenne et nabatéenne.

C'est ainsi que ces écritures s'écrivent au moyen de lettres séparées alors que l'Hébreu et le Hémiarite s'écrivent au moyen de lettres attachées.

L'évolution de l'écriture arabe commence à partir du IV^e siècle. Cette date est confirmée par d'une part par l'inscription d'Ennemara qui remonte à l'an 328, et d'autre part par l'inscription de Zabad datée en 512.

- Les Arabes de la péninsule arabique ont adopté différentes religions Monothéistes telles que « El Hanifia », le Judaïsme , le Christianisme et la religion païenne.

Ces religions se sont répandues dans la Mecque et le Hidjaz ainsi qu'à travers toute la péninsule arabique.

Summary of the Master's Thesis

This thesis is titled “ Mecca and its religions and cultural role in the Arabic Peninsula before Islam- in the V and VI centuries B.C” .

Author: Oulmi Rabie

Supervisor: Dr Tahar Draâ

The thesis is divided into three chapters, besides the introduction and the conclusion.

Introduction: It defines the subject of the thesis and its importance, the causes of this choice, the importance of the studied period, the field of enquiry, the methodology, the difficulties faced by the researcher and finally the listing, and the analysis of the sources and references mostly used in the research work.

Chapter I: Subtitled : “The geographical and historical environment of Mecca”. This chapter is subdivided into three subchapters which study the physical and geographical situations in Mecca and their importance as well as the mountain ranges, the rivers, the climate, the flora and their effects on the population.

This chapter also mentions the different names of Mecca and their meanings, the development of this city since the Abraham era till the appearance of Qusai ibn Kilab, the founder of the city- state of Mecca in the middle of the V century, wich made of Mecca one of the main cities in the Arabic Peninsula.

Chapter II: Subtitled “ the cultural role of Mecca in the Arabic peninsula”.

This chapter is subdivided into five subchapters which focus on the study of the language, Arabic poetry, the ancient Arab market places and their role in the spreading of the preislamic Arabic culture throughout the Peninsula. In that period, Mecca became the cultural capital city of Arabia.

Chapter III: It focuses on “The religious role of Mecca in the Arabic Peninsula” and studies the monotheistic religions, such as “al-hanifiya” : its definition, its history since the arrival of Abraham and his son Ismael in Mecca and the building of the Qaaba in the last quarter of the XIX century B.C, as well as the remains of their rites in the Meccan society till the end of the VI century.

This chapter also deals with the study of Judaism, its definition, its Scriptures (Old and New Testament), its doctrines , its history since the arrival of the Jews in the north of the Arabic peninsula after the destruction of Jerusalem in 70, with a particular interest in the history of its sects, such as the Samaritans, the Sadduceens, the Phariseans, the Hasideans.

The 3rd subchapter studies Christianity, its definition, the history of its doctrines, such as Nestorianism and Jacobinism and Monarchianism, the study ends with pagan religion, its beginnings, its evolution and the different forms of worship: statues, spirits, demons, angels, ancestors natural phenomena, like trees, stones, wells and water springs; the worship of stars and fire.

Conclusion: Results and deductions

- The institution of Mecca and the building of the Qaaba started in the last quarter of the XIX century B.C, wich made of Mecca one of the most ancient cities in the Arabic Peninsula.
- Since the era of Qusai ibn Kilab in the V century , Mecca had known various political, economic, social and religious institution with civilizational consequences that are still present in the Meccan society to the present day.
- Arabic, wich was the dialect of Quraish, is the main semitic languages source. It prevailed on the rest of the semitic dialects and languages for political, economic and religious reasons by the end of the VI century.
- The inscriptions found by some orientalistes show that Arabic derives from the Araméan and Nabateaen languages.
- These languages are written with separated letters while Hebrew and Hemiarit are written with linked letters.
- The evolution of the Arabic language started in the IV century, this date is confirmed by the inscription found in Ennemara dated in 328 and that found in Zabad dated in 512.
- The Arabs have embraced different religions such as” Al-Hanifia”, Judaism, Christianity and pagan beliefs. The religious spread in Mecca, the Hidjaz and all over the Arabic Peninsula.